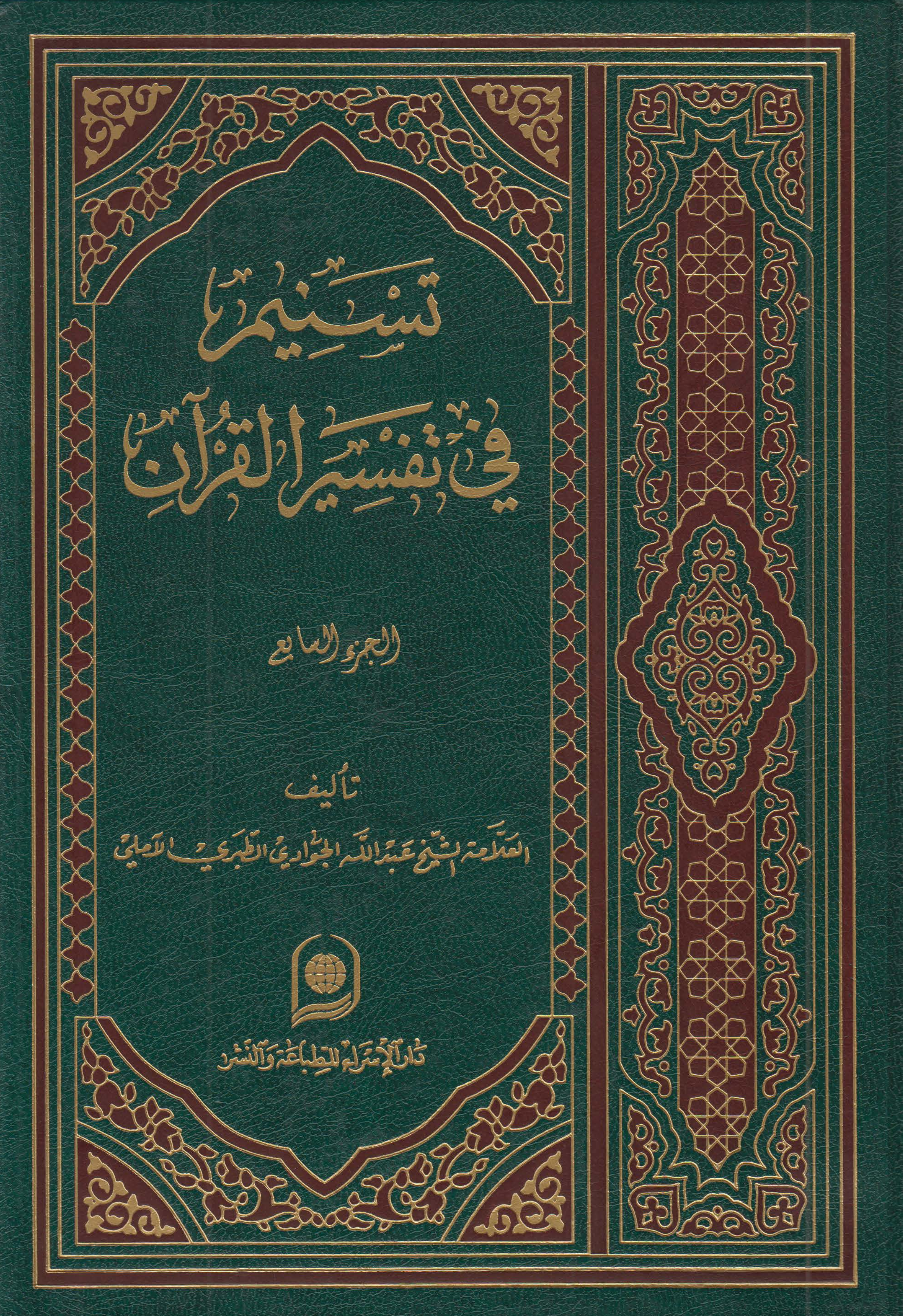

تسنيم
في تفسير القرآن
الجزء السابع
تأليف
العلامة الشيخ عبدالله الجوادي الطبري الآملي
دار الإسراء للطباعة والنشر



# تسنيم

# في تفسير القرآن الكريم

## الجزء السابع

تأليف

آية الله الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي

تعريب

الهويّة: جوادى آملى ، عبدالله ، ١٩٣٣ م .
العنوان الأصلى: تسنيم تفسير قرآن كريم .
العنوان : تسنيم فى تفسير القرآن الكريم /المؤلف: الشيخ عبدالله الجوادي الطبري الآملي؛ تعريب: مركز الترجمان الديني (محمود العيدانى) .
مواصفات النشر : قم : دار الإسراء ، ٢٠١٥ م .
اللغة : العربية .
الموضوع : تفسير القرآن الكريم .
التصنيف المكتبى : ١٣٨٩ ٥٠٤٣ ت ٩ج/٩٨ BP
ديوى العشرى تصنيف : ٢٩٧/١٧٩
التسلسل فى المكتبة الوطنية : ٢٠٥٢١٩٣



- عنوان الكتاب : ........................ تسنيم فى تفسير القرآن الكريم ، الجزء السّابع
- تأليف : ........................ الشيخ عبدالله الجوادي الطبري الآملي (دام ظله العالي)
- تعريب : ........................مركز الترجمان الديني (محمود العيدانى)
- الناشر :........................ مركز الإسراء للنشر
- المطبعة :........................مركز الإسراء للطباعة
- الطبعة : ........................ الأولى
- سنة النشر :........................ربيع ٢٠١٥ م_ ١٤٣٦ هـ.ق
- شابك (الدوره) :........................ ٩٧٨- ٩٦٤-٨٧٣٩-٤٠-٤
- شابك (الجزء السّابع):........................ ٩٧٨- ٦٠٠-٧٨٣٥-٠٣-٦



آلعنوان: قم، شارع عمار ياسر،أول شارع الشهيد قدوسي، مؤسسة الإسراء الدوليّة لعلوم الوحي
هاتف : ٧٧٦٥٣٥٦ ٩٨٢٥١+ — ٧٧٦٥٣٥٧ ٩٨٢٥١+
البريد الإلكتروني : Publish_center@esraco.net
الموقع الإلكتروني : www.esra.ir

# محتويات الكتاب

## الآية ١٢٧



## الآية ١٢٨

## الآية ١٢٩

## الآية ١٣٠

## الآية ۱۳۱



## الآية ۱۳۲






## الآية ١٣٣



## الآية ١٣٤






### الآية ١٣٥



### الآية ١٣٦

## الآية ١٣٧



## الآية ١٣٨






## الآية ١٣٩



## الآية ١٤٠



## الآية ١٤١

## الآية ١٤٢



## الآية ١٤٣

## الآية ١٤٤






## الآية ١٤٥



## الآية ١٤٦



## الآية ١٤٧

## الآية ١٤٨



## الآية ١٤٩

## الآية ١٥٠



## الآية ١٥١

## الآية ١٥٢

## الآية ١٥٣






## الآية ١٥٤






## الآية ١٥٥

**الآية ١٥٦**




## الآية ١٥٧

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

## التفسير المختار

يعود تاريخ الكعبة إلى ما قبل زمان نبوّة إبراهيم الخليل عليه السلام، يعني أنّه عليه السلام لن يكون أوّل من بنى الكعبة، وإنّما كشف له الله سبحانه وتعالى عن مكانها، كما أنّه عيَّن له طريقة إعادة إعمارها، لكي يعيد بناءها من جديد.

وقد كانت إعادة بناء الكعبة عبادة أمر بها إبراهيم من قبله تعالى، فكانت بهدايته وتوجيهه. فأعاد بناءها وهو يترنّم بعبارة: «ربّنا تقبّل منّا»، ويتهجّد بها هو ومساعده إسماعيل عليهما السلام، فكانت جميع اللحظات تفوح بهذا الذكر المقدّس الّذي ملأ الاجواء بركة وقدسيّة، فعلت الجدران، وأقيمت القواعد، في هذه الاجواء الإلهية العطرة الزكيّة، ليكون ذلك شاهدا على إخلاص وخلوص البنّاء ومساعده، اللذين ما فتئا يطلبان عنايته تعالى الخاصّة في هذا الامر، فيستلطفانه ويسترحمانه بتعبير: «تقبّل» لا «القبول»، فكان لهما ما أرادا من ذلك؛ حيث أعلن سبحانه وتعالى ما بنياه بيتا له، الامر الّذي كان هو المعروف قبل ذلك أيضاً.

### تفسير المفردات الواردة في الآية الشريفة

إذ: ظرف لما مضى من الزمان، منصوب بفعل «أذكر» المقدّر، ومعطوف على: «إذ قال» الواردة صدر الآية السابقة.

يرفع: «الرّفع» في مقابل «الخفض» بمعنى: رفع أي شيء وإعلائه، سواء أكان من الناحية الماديّة أم المعنويّة، الدنيويّة أم الاخرويّة، متناسبا ـ طبعا ـ مع ذلك الشيء المرفوع.

فرفع الاجسام: حملها من مكانها، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾[1]، ورفع البناء: زيادة طوله، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾[2]، ورفع الذّكر: إعلاؤه، كما في قوله عزّ من قائل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[3]، ورفع الدرجة: التشريف، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾[4]، ورفع الصوت: الكلام بصوت عال باعتبار المورد، كما في قوله تعالى: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[5].

والمقصود من رفع القواعد في هذه الآية الشريفة: إعلاء أسس الكعبة، وتجديد بناء بيته تعالى.

والرّفع قد يكون بلا عناية أو تسامح أحيانا، كما في رفع جبل الطور، كما أنّه يكون بالعناية والتسامح أحيانا أخرى، كما في رفع القاعدة؛ إذ إنّ القاعدة بمعنى الاساس، أمر له نوعه الخاصّ من الرّفع لا أنّه يرتفع كما يرتفع الجدار، وعلى هذا، فإنّ المراد هو أنّ هيئة القاعدة قد تغيرت فصارت عالية كهيئة جدار.

ولو كان المقصود هو رفع الجدران فوق القواعد، لكان الرّفع حينئذ بلا عناية أو تسامح، نعم، إسناد القاعدة إليها سيكون بالعناية والتسامح.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٦٣.
٢ . سورة البقرة، الآية ١٢٧.
٣ . سورة الشرح، الآية ٤.
٤ . سورة الزخرف، الآية ٣٢. المفردات، ص٣٦٠، «ر ف ع».
٥ . سورة الحجرات، الآية ٢.

وممّا يجدر الانتباه إليه في المقام، هو أنّ مصحّح الاسناد في حالات الوحدة الاتصالية ـ كما في حالة ساق النبات وهو ينمو ـ يكون عادة أقوى منه في حالات الوحدة الاجتماعيّة، كما في قاعدة الجدار وهي ترتفع.

كما أنّ من المفيد التوجّه إلى نكتة أخرى في المقام، وهي التعبير عن تجميع الجدار وصفّ أجزائه بالرّفع لا «البناء»؛ فإن ذلك إنّما كان من جهة التناسب مع «رفعة البيت» ومنزلته؛ إذ إنّ الكعبة المصداق الابرز للبيوت التي رفعها الله سبحانه وتعالى في قوله عزّ من قائل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾[1].

**القواعد:** القواعد جمع «قاعدة»، مأخوذة من القعود بمعنى: الاستقرار.

وللقاعدة استعمالات متعددة مختلفة، «فالقاعدة من الجبل»: أسّه، و«قاعدة البناء»: أساسه، و«امرأة قاعدة»: المرأة الكبيرة المسنّة التي قعدت عن الازواج، وكذا المرأة التي لم يأتها الحبل، وأمّا «امرأة قاعد» بدون تاء التأنيث، فهي المرأة التي قعدت عن المحيض فلا ترى الدّم[2]، و«القاعدة»: الضابط، وهي الامر الكليّ المنطبق على جميع جزئياته[3].

قال الطبري: «والقواعد» جمع «قاعدة»، يقال للواحدة من «قواعد البيت» «قاعدة»، وللواحدة من «قواعد النساء» وعجائزهن «قاعد»، فتلغى هاء التأنيث، لأنّها «فاعل» من قول القائل: «قعدت عن الحيض»، ولا حظّ فيه للذكورة، كما يقال: «امرأة طاهر وطامث»، لأنّه لا حظّ في ذلك للذكور. ولو عنى به «القعود» الّذي هو خلاف «القيام»، لقيل: «قاعدة»، ولم يجز حينئذ إسقاط هاء التأنيث»[4].

---

١ . سورة النور، الآية ٣٦.
٢ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٣٨٨.
٣ . المصباح، ص٥١٠، «ق ع د».
٤ . جامع البيان (تفسير الطبري)، ج١، ص٥٩٥ ـ ٦٠٢.

والمراد من ﴿الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ أسس وأركان الكعبة التي بنيت بيد آدم عليه السلام[1]. فإن قلت: هلّا قيل: قواعد البيت، وأيّ فرق بين العبارتين؟ قلت: إنّ التعبير بـ: «قواعد البيت» كان كافيا في توضيح المراد، إلّا أنّ في إبهام القواعد وتبيينها بعد الابهام بقوله تعالى: ﴿الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ ما ليس في إضافتها في قولنا: «قواعد البيت»؛ لما في الايضاح بعد الابهام من تفخيم لشأن المبيّن[2].

## تناسب الآيات

تتناول هذه الآية والآيتان التاليتان لها ـ كما في الآيات السابقة ـ الكلام عن عقيدة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وروح تعبّدهما وتسليمهما؛ فإنّ اليهود ـ وكذا النصارى ـ إدّعوا إتباع هذين النبيّين العظيمين، واحترامهما وتعظيمهما، وكذلك كان يفعل مشركو قريش؛ حيث كانوا يدّعون التبعية لهما، وأنّهم على ملّة إبراهيم ودينه.

ولكن، إذا ذهبنا إلى أنّ المخاطب الاصلي من قبل هذه الآيات هو خصوص اليهود والنصارى، يعني: بني إسرائيل ويعقوب، بأن كان ذكر المشركين استطراديا محضا، فسيكون الغرض المحوري للآية هو الاشارة إلى شدّة قبح المواقف الحمقاء التي اتّخذها أهل الكتاب في مقابل دين إبراهيم عليه السلام وشريعته، الامر الّذي يشهد له سياق مجموع الآيات السابقة للآية الشريفة ولحنها، وخاصّة مع ما نشاهده من تكرار خطاب «يا بني إسرائيل» في الآية ١٢٢ منها، وكذا سياق الآيات التالية التي تتكلم عن يعقوب وبنيه، فكما لو أنّ الآية المزبورة تخاطب اليهود والنصارى، تقريعا لهم بعدم احترامهم للكعبة والمسجد الحرام،

---

١ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٣٨٨ ـ ٣٨٩.

٢ . الكشاف، ج١، ص١٨٨.



واستصغارهم لِلْقبلة، قائلة لهم:«بناة الكعبة هم حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام».

وهكذا الامر بالنسبة إلى الآيتين التاليتين؛ حيث تصوّران الروح التوحيدية الفذّة لإبراهيم عليه السلام وتسليمه، الامر الّذي يصوّر بالتبع البون الشاسع بين شريعته وبين ما عليه اليهود والنصارى، حيث تهدفان إلى إفهامهم أن نبيّ الاسلام الّذي وقفوا كلّ هذا الموقف المتعنّت ضدّه، ووقفوا ممتنعين أشدّ الامتناع عن الايمان به، إنّما هو ابن من أبناء ذلك الرجل العظيم، وهو المحيي لشريعته ومسلكه، بل إنّما أوتي منصب النبوّة بدعائه عليه السلام.

* * *

## سابقة الكعبة وتاريخها

يعود تاريخ الكعبة وحرمتها الخاصّة إلى ما قبل زمان نبوّة إبراهيم عليه السلام، وعلى هذا الاساس، فإنّه عليه السلام ليس أوّل من بنى الكعبة وأسّس بنيانها، وبناء على هذا، فإنّه كلّما وصف عمل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالتأسيس، فإنّ المراد إنّما هو الاعمار وتجديد البناء لا الاحداث والابتكار؛ إذ إنّه سبحانه وتعالى كشف له عن مكانها، كما أنّه عيّن له طريقة إعادة إعمارها، لكي يعيد بناءها من جديد: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[1].

ولربّما أمكن استفادة سابقة الكعبة من جهة دعاء إبراهيم حين أسكن عائلته في أرض مكّة، وهو ما جاء في قوله تعالى عن لسانه عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾[2]؛ إذ إنّ إسماعيل كان

١ . سورة الحج، الآية ٢٦.

٢ . سورة إبراهيم، الآية ٣٧، بناء على أن هذا الدعاء قد صدر منه عليه السلام في بداية الامر لا بعد بناء الكعبة بيده.




وقتها طفلا صغيرا لم يكن ليتمكّن من مساعدة أبيه في إعادة بناء الكعبة، بينما المذكور في الآية الّتي هي محلّ الكلام أنّه كان من جملة مؤسّسي الكعبة والمشاركين في بنائها، وبناء على ذلك، فقد كان «البيت» موجودا في ذلك المكان قبل حضرة إبراهيم عليه السلام، كما أنّه كان منسوبا إليه سبحانه وتعالى، وكان «محرما» أيضاً.

وقد كان إعادة بناء الكعبة عبادة أمر بها إبراهيم من قبله تعالى، فكانت بهدايته وتوجيهه عزّ وجلّ[١]، بمعنى: أنّه كما أنّ الصلاة واجبة، وأن المصلّي يطلب منه تعالى أن يوفقه للامتثال الكامل والخالص وقبوله تعالى لما وقع منه، فكذلك كان بناء الكعبة واجبا على إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

لم يكن المكان الّذي بنيت به الكعبة ملكا لأحد قبل ذلك، كما أنّها لم تصر بعد البناء ملكا لمن بناها أو أعاد إعمارها، وهذا واحد من أسرار وصفها بالبيت «العتيق» في القرآن الكريم؛ فإنّها ظلّت غير مملوكة ولم تجر يد ملك أحد عليها منذ الازل، كما أنّها لن تكون ملكا لأحد إلى أن يرث الله الارض ومن عليها.

---

١ . وذهب أبو حيّان ـ في معرض نقد غير تام ـ إلى أنّه لا يمكن أن يكون رفع القواعد بأمره تعالى؛ إذ لا نصّ يدُلّ على ذلك الامر. قال: «ذكر المفسرون في ماهية هذا البيت وقدمه وحدوثه، ومن أيّ شيء كان باباه، وكم مرّة حجّة آدم، ومن أيّ شيء بناه إبراهيم، ومن ساعده على البناء، قصصاً كثيرة. واستطردوا من ذلك للكلام في البيت المعمور، وفي طول آدم، والصلع الّذي عرض له ولولده، وفي الحجر الاسود، وطوّلوا في ذلك بأشياء لم يتضمّنها القرآن ولا الحديث الصحيح وبعضها يناقض بعضاً، وذلك على جري عاداتهم في نقل ما دبّ وما درج.
ولا ينبغي أن يعتمد إلا على ما صحّ في كتاب الله وسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلم. قال ابن عطية: والذي يصحّ من هذا كلّه أنّ الله أمر إبراهيم برفع القواعد من البيت. ونشاحّه في قوله: أمر، إذ لم يأت النصّ بأنّ الله أمر بذلك». (**تفسير البحر المحيط**، ج١، ص٣٨٧ـ ٣٨٩).
ويرد عليه:
أوّلا: أنّه يمكن استفادة تهيئة الارضية للامر من قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ**﴾. (سورة الحجّ، الآية ٢٦).
ثانياً: هناك روايات يفهم منها الامر بالرّفع خلافا لما ادعاه أبو حيّان.




ليس هناك مسجد على وجه الارض يوصف بالبيت العتيق بسبب سبق مسجديّته على مملوكيّته؛ فإنّ أيّ مسجد تفكّ ملكيته بعد الوقف؛ وذلك من جهة أنّ الوقف إمّا أن يكون من قبيل حبس الاصل وتسبيل المنفعة، كما في الملك لمصارف المسجد، وإمّا أن يكون من قبيل تحرير الملك وفكّه، كما في وقف المسجد نفسه.

وأمّا الفرق الّذي يقول به المحقّقون من الفقهاء بين رقبة المسجد حيث يعيّنون لها متولّيا، وبين المسجد نفسه فلا يقومون بذلك فيه، فإنّما هو لأجل الاختلاف بين نوعي الوقف المذكورين آنفا؛ إذ إنّ الملكية في رقبة المسجد باقية على ما كانت عليه قبل الوقف، ما يفسّر جواز بيعها حين الضرورة، وأمّا المسجد نفسه، فليس كذلك، بل هو من قبيل تحرير العبد، ليس ملكا لأحد لكي يعيّن متولّ للملك.

نعم، للمسجد المبني في الارض المحياة المفتوحة حكم خاصّ تعرّض له المتخصّصون في فنّ الفقه الشريف[1].

---

١ . وللتوضيح الاجمالي في المقام نقول:

أ ـ العين الخراجية إما أن تكون ملكا أو لا تكون كذلك.

فإن كانت ملكا، فإما أن يكون ذلك الملك مطلقا أو مقيدا! (وإن كان هناك تقسيمات أخرى نغض النظر عنها فعلا).

ومثال العين الخارجية التي لا تكون ملكا الحرّ، وأمّا العين الخارجية ذات الملك الطلق، فكما في السلع العادية التي تكون في معرض البيع والشراء.

وأمّا العين الخارجية المملوكة ملكا مقيّدا، فكما في البستان الموقوف لتأمين مخارج المسجد أو المدرسة أو غيرهما.

ومن جملة شرائط العوضين في البيع كون المبيع طلقا.

ب ـ مآل كلّ وقف خروج الموقوف من ملك الواقف وفكّ الملك عن المالك، وليس فكّ الملك عن أصل الملكية، بل تقييده وتحبيسه، عدا بعض أنواع الوقف، حيث تكون في الحقيقة فكّا ←

**نقطة مهمة**: السرّ في مجيء الافعال في الآيات السابقة ماضية، بينما جاء الفعل ﴿يرفع﴾ بالمضارع، إنّما هو بثّ روح الاثارة في نفس المخاطب وهو يستمع إلى قصة البناء. وأهمية هذا الموضوع صارت سببا لاهتمام القرآن بالتعرّض إلى بنيان الكعبة المرصوص المبنيّ بكلّ خلوص من جهة، وبالتعرض إلى مؤسّسي الكعبة الذين كانوا من عباد الله المخلصين.

## بناء الكعبة: المعمار والمساعد

وبعد أن تمت أركان الجملة من الفعل والفاعل والمفعول في الآية الّتي هي محلّ الكلام، جاء اسم حضرة إسماعيل عليه السلام، حيث يقول عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾.

وفي مقام الكشف عن السرّ ـ الكامن وراء عدم ذكر اسم حضرة إسماعيل عليه السلام بعد ذكر اسم أبيه مباشرة، يمكن ذكر الاحتمالين التاليين:

الاوّل: أن التعبيرات والتراكيب اللفظية المستعملة في الآية الشريفة، وبالترتيب الّذي جاء فيها، كلّ ذلك إنّما هو لأجل التنبيه على أن المحور في بناء الكعبة وتعميرها إنّما هو إبراهيم عليه السلام، وأمّا اسماعيل، فلم يك إلّا مساعدا لأبيه خليل الرحمان في ما قام به من عمل.

←

للموقوف عن أصل الملكية، كما في وقف عرصة المسجد، حيث يعتبر وقفها بمنزلة فكّ الرقبة وتحرير العبد، لا تقييدها مع حفظ أصل الملكية.

ج ـ لمتولّي الاوقاف التي تكون من قبيل تقييد الملك مع حفظ أصل الملكية لأجل الجهة المنظورة، إضافة على حفظ الوقف، وتعميره و...، بيعها في حالة الضرورة، فيتصرف فيها تصرف الملّاك في ما يملكون «لا بيع إلّا في ملكٍ»، كما أنّ له أن يبدّل الموقوف بوقف أحسن منه، ولكنّ ذلك محظور في حالة وقف المسجد.



الثاني: أنّ ذلك إنّما كان من باب تعظيم إبراهيم ورعاية منزلته الشامخة، فقد كان من الانبياء أولي العزم عليه السلام، ما استدعى عدم ذكر اسم ابنه بعد اسمه عليه السلام مباشرة وإن كان الابن بنفسه من الانبياء أيضاً، وممّن شارك في بناء الكعبة على حدّ مشاركة أبيه عليهما السلام.

## الترنّم الالهي الخالص لمؤسّسي الكعبة

في الاعمال التي تتطلّب العمل اليدويّ، من المعتاد أن يقوم العامل بالترنّم خلال مزاولته للعمل، فترنّم أهل اللهو والباطل يكون عادة بالاغاني والألحان الباطلة، بينما ترنّم أهل القرب والمعنى يكون بكلمات الحقّ، من قبيل الذكر والمناجاة والدعاء، فكلّ يترنّم بما يأنس له ويميل.

هذه الترنّمات تؤنس العامل وتلهيه، كما أنّها ترفع التعب عنه من الناحية النفسية. وقد جاء في حديث أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يترنّم خلال عمله بمسحاته في حائط له بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الانْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾[1] إلى آخر سورة القيامة[2].

التناسب بين العمل الّذي كان يزاوله عليه السلام من حراثة الارض وزراعتها التي بها الحياة والبعث من الممات وبين الآية الشريفة التي كان يترنّم بها، هو في ألّا يتوهم الانسان أنّه إنّما خلق لا لهدف وبلا حسيب أو رقيب، وإن كان سيقبر يوما ما، فإنّه لا محالة مبعوث منه في يوم من الايام.

وأمّا ترنّم حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حين بناء الكعبة ورفع جدرانها، فقد كان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، بشهادة الفعل المضارع ﴿يرفع﴾ الدالّ على الاستمرار، فكانا يترنّمان بذلك الذكر، فبنيا الكعبة في أجواء ملؤها هذا الذكر

---

١ . سورة القيامة، الآية ٣٦.

٢ . شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، ج١٢، ص٢٤٥، شرح الخطبة ٢٢٣.

الشريف[1]، لا إنّهما قالا هذا الذكر بعد إتمام بناء الكعبة فقط كما يذهب إليه في مجمع البيان[2]، الامر الّذي يدفعه عدم استعمال الآية لفعل «قالا» وما شابهه.

علت جدران الكعبة جميعها بأجزائها المختلفة تحت قدسية الذكر المزبور، الشاهد على الخلوص التامّ للمعمار والمساعد، فكان البناء مع الخلوص حدوثا وبقاءاً.

وكان ابتهال ذلك الاب والابن ودعاؤهما هو: ربنّا، يا من يسمع هذه الترنّمات، ويا من هو مطلع على خفايانا وأسرارنا، ويا من نسمع له ونطيع في ما أمرنا به طالبين رضاه، تقبّل منا هذا العمل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وهكذا، كان لهما ما طلبا، فوقع القبول التامّ لهذا العمل الخالص، ما ينبئ عنه اعتبار الكعبة بيتا له سبحانه وتعالى، آمرا سبحانه وتعالى إياهما بتطهيرها بقوله عزّ من قائل: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾[3].

**تنبيهات**: ولا بدّ هنا من التنبيه على الامور الثلاثة التالية:

الأمر الأوّل: لأجل أن النبيّين العظيمين عليهما السلام كانا يطلبان عنايته سبحانه الخاصّة، فإنّهما لم يستخدما لفظ «القبول»، وإنما استعملا لفظ «تقبّل».

الفرق بين الاستعمالين هو مزيد العناية والتوجّه الموجودان في «تقبّل» وليس التكلّف لكي يرد عليه ما أورده أبو حيّان بقوله: «إن التقبّل والقبول سواء بالنسبة إلى الله تعالى؛ إذ لا يمكن تعقّل التكليف بالنسبة إليه تعالى»[4].

---

١. راجع: **جامع البيان**، ج١، ص٥٩٥ ـ ٦٠٢.

٢. ج١، ص٣٨٩.

٣. **سورة البقرة**، الآية ١٢٥. ومن الجدير بالذكر التعرض إلى قبوله تعالى ابتداء في مقام نقل هذه المسألة (الآية ١٢٥)، ليأتي دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بعد ذلك. (الآية ١٢٧).

٤. راجع: **تفسير البحر المحيط**، ج١، ص٣٨٧ ـ ٣٨٩.



الأمر الثاني: مع الاخذ بنظر الاعتبار تفاوت الافراد واختلاف رتبهم بلحاظ قوّتهم وضعفهم من الناحية المعرفية، فإنّ البعض يرى في ما يقدمه من عمل أمرا ذا قيمة يستحق العرض عليه تعالى، فيذكر العمل بين يديه تعالى طالبا منه القبول.

وأمّا البعض الاخر، فإنّه ـ لأجل تواضعه ورعايته لآداب الحضور بين يدي المولى ـ لا يرى لعمله قيمة تجعله يستحق الذكر، فيكتفي بأصل القبول طلبا منه تعالى. فحذف متعلق ﴿تقبّل﴾ في دعاء حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، يعكس أيضاً أنّهما لم يريا في ما وقع منهما من إعادة بناء الكعبة أمرا ذا بال يستحقّ الذكر، بل ـ على العكس من ذلك ـ كانا يريانه أمرا لا يستحق ذلك، الامر الّذي يشير إليه عدم ذكرهما لعنوان العمل الّذي صدر عنهما، وهو البناء.

الأمر الثالث: مع أن عنوان «بيت» كان معهودا وهو الكعبة، الا أن ما يعكسه الدعاء للقبول من قبل النبيّين العظيمين عليهما السلام، هو أنّه ليس بيتا للسكنى، وإنما هو محل للعبادة؛ إذ من الواضح عدم الحاجة إلى الدعاء لأجل البيت المعد للسكن.

## إقتران الدّعاء بأسمائه تعالى

إقتران الدّعاء بأسمائه تعالى الحسنى ـ خاصّة تلك المناسبة للتهجد والاجابة ـ أمر نافع جدا، الامر الّذي يفسّر ذكر اسمين من أسمائه تعالى في الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام، وهما: «السميع» و«العليم».

وفي مقام إجابته عن سؤال أن «السميع» و«البصير» هل يرجع كلّ منهما إلى اسم «العالم» أم انّهما وصفانِ مستقلّان؟ يختار أبو الفتوح الرازي إرجاع الاثنين إلى اسم «الحيّ»، وأنّه تعالى كان السميع والبصير منذ الازل، مع أنّ كلّا من

عنواني: «السامع» و«المبصر» يستبطنان معنى «المدرك»، وهو ما لا يصحّ الوصف به بدون المدرك في الازل[1].

وتحقيق المطلب يقتضي فنّا آخر غير ما نحن فيه.

## إشارات ولطائف

### أوّلا: أركان قبول العمل

الحسن الفعلي والفاعلي هما الركنان المهمّان لقبول الاعمال، بمعنى: أنّه إضافة على أن أصل العمل يجب أن يكون طاهرا له قابلية التقرّب به إليه تعالى، فإنّ الفاعل لذلك العمل الطاهر يجب أن يكون طاهرا خيّرا ذا روح طاهرة، فإذا توفّر الركنان، قبل سبحانه وتعالى العمل، وذلك ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[2].

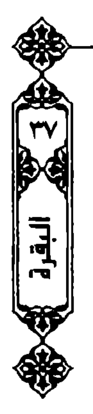
والتقوى التي ذكرتها الآية الشريفة المتقدمة جاعلة إياها ملاك قبول الاعمال من قبله تعالى لها مراتب متعدّدة، فشرط قبول الاعمال ليس المرتبة الكاملة العليا من التقوى وهي التي تعني: عدالة العامل في جميع شؤونه، وإلا، كانت أعمال أكثر الناس باطلة غير مقبولة عنده تعالى، نعم، تلك المرتبة من التقوى شرط كمال القبول وإن لم تكن شرط أصل القبول كما قلنا.

الحقيقة السابقة، تضع أيدينا على حقيقة أخرى، وهي: أن رعاية التقوى في أيّ عمل من الاعمال، إنّما هي بأن يؤتى بذلك العمل بشرطها وشروطها، أي: بوجود الشروط وانعدام الموانع، فهذا كاف في تحقق ملاك قبول ذلك العمل من قبله تعالى وإن لم يتحقّق هذا الملاك في غيره من الاعمال؛ بأن لم يكن العامل متّقيا في عمل آخر من أعماله أو شأن آخر من شؤونه المختلفة.

---

١ . راجع: روض الجنان، ج٢، ص١٦٩.

٢ . سورة المائدة، الآية ٢٧.



وبعبارة أخرى: ليست التقوى من قبيل ولاية صاحب العمل في كونها شرطا لأصل قبول الاعمال لتكون من باب ما جاء في الكثير من الروايات، من أن العامل لو عمل طول عمره، وصام ما صام، وصلى ما صلى بدون الاعتقاد بولاية الائمة المعصومين عليهم السلام، فإنّ جميع ذلك باطل غير مقبول[1].

بناء على ما سبق، فإنّ أيّ عمل يفتقد الركنين السابقين أو أحدهما، يعتبر غير مقبول منه سبحانه وتعالى، ما يفسّر ما ذكره عزّ وجلّ بشأن أعمال المنافقين ـ وهم الفساق الفاقدون لركن الحسن الفاعلي والباعث الالهي في أعمالهم المختلفة العبادية وغيرها ـ من أنّهم لم يؤمنوا به تعالى ولا برسوله، كما أنّهم لا يحضرون الصّلاة ولا ينفقون إلا كرها، فلا يتقبّل الله منهم أيَّ عملٍ من تلك الاعمال، قال تعالى: **﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أو كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾**[2].

نعم، للطفه سبحانه بالعباد ورحمته بهم، فإنّه يتقبّل العمل الصالح الصادر من الانسان الخيّر مع ما يعانيه من بعض النواقص والعيوب، فيغضّ الطرف عنها، ويعفو عن تلك العيوب، ويتقبّل العمل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * ... أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾**[3].

بعد هذه الجولة القصيرة، فإنّ ما نصل إليه من حقائق، هو:

---

١ . وسائل الشيعة، ج١، ص١١٨ ـ ١٢٥.

٢ . سورة التوبة، الآيات ٥٣ ـ ٥٤.

٣ . سورة الأحقاف، الآيات ١٣ ـ ١٦.

أ ـ لكلّ من صحّة العمل وقبوله متطلّباته الخاصّة؛ فإنّ «الصحة والفساد» من الاحكام الفقهية التي يتكفل علم الفقه الشريف البحث عنها، والتحقيق في شرائط كلّ واحد منهما وموانعه، وما يلزم منه، من قبيل وجوب الاعادة والقضاء أو عدم ذلك في العبادات، ومن قبيل لزوم الضمان أو عدم لزومه في المعاملات.

هذا كلّه بالنسبة إلى الجانب الفقهي للعمل، وأمّا الجانب الاخر وهو «القبول» منه تعالى أو «الردّ»، فإنّه من الاحكام الكلامية التي يتكفّل علم الكلام الشريف بالبحث والتحقيق فيها.

ب ـ الجانب الفقهي للمسألة المطروحة في المقام، والفتوى الفقهية فيها، هي أن كلّ عمل واجد لجميع الشرائط اللازمة للصحّة، وفاقد لأيّ مانع من موانعها أو قاطع من قواطعها، فإنّه عمل صحيح لا إعادة فيه ولا قضاء.

وأمّا إذا كان العمل فاقدا لواحد من شرائط الصحة، أو كان هناك مانع من موانعها، فإنّ ذلك العمل باطل، فإن كان مما يمكن تداركه، لزم الاعادة أو القضاء، إلا مع وجود دليل آخر نافذ دالّ على عدم وجوب الاعادة أو القضاء، من قبيل القاعدة المعروفة القائلة بعدم الاعادة في الصلاة إلّا من بعض الامور الخاصّة: «لا تعاد الصلاة إلّا...».

هذا بالنسبة إلى الجانب الفقهي للمسألة الّتي هي محلّ البحث، وأمّا بالنسبة إلى الجانب الكلامي لها، فإنّ الفتوى الكلامية في المقام، هي أن الحكيم تعالى إذا وعد بالاثابة على عمل صحيح فوقع ذلك العمل من بعض المؤمنين، فإنّه لّما كان خلف الوعد محالا «منه» تعالى ـ وليس محالا «عليه» تعالى وإن خلا خلف الوعيد من أيّ محذور ـ فإنّه تعالى يقبل ذلك العمل على نحو اليقين، فيثيب فاعله عليه.




ج ـ إذا كان للشخص المذكور سابقا ذنب خارج عن حيطة ما جاء به من عمل، بأن كان من باب ﴿... خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾[١]، فإنّ جميع حسناته وسيئاته توضع على ميزان الاعمال، فـ ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[٢] و﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾[٣]، أو﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٤]، ثم يصدر الحكم بحقّه يوم العرض والميزان والحساب.

د ـ ثواب أو عقاب العمل في يوم القيامة إنّما هو بما يتحلّى به العامل من درجة الايمان، أو يتّصف به من دركة الكفر والنفاق، فيشمل بعض الافراد قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾[٥]، وأمّا البعض الاخر، فيكون مصداق قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾[٦]، كما أنّ بعض الاشرار يدخلون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الاسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[٧].

وأمّا مقدار الخلوص، وحضور القلب، وسائر أسرار العبادة وآدابها وسننها، فإنّها أمور فاعلة جدّا في مجال تحديد الاجر الاخرويّ وتعيينه.

هـ ـ في ما يرجع إلى حادثة بناء الكعبة المشرفة من قبل النبيّين العظيمين، يمكن ذكر الامور التالية:

١ ـ توفّر النصاب التامّ في مجال الحسن الفعلي.

٢ ـ وأمّا الحسن الفاعلي، فقد كان في أتم حالاته أيضاً.

٣ ـ الاتساق بين الحدوث والبقاء.

---

١ . سورة التوبة، الآية ١٠٢.
٢ . سورة الشورىٰ، الآية ٤٠.
٣ . سورة القصص، الآية ٨٤.
٤ . سورة الأنعام، الآية ١٦٠.
٥ . سورة الأنفال، الآية ٤.
٦ . سورة آل عمران، الآية ١٦٣.
٧ . سورة النساء، الآية ١٤٥.

٤ ـ الاستمرار في الصفاء والوفاء العرفانيين لا العباديين والزهديين من قبل أبطال الحادثة.

٥ ـ وضوح رعاية الادب مع الله تعالى في كلّ تفاصيل الواقعة من قبل النبيّين عليهما السلام، وفي كلّ جزئية من جزئيات تلك العبادة، بحيث تستحق أحسن قبول منه تعالى، وهو ما أفصح عنه إمضاؤه تعالى لما وقع من عمل خالص من العاملين بإضافة الكعبة إلى ذاته تعالى القدسية ونسبتها إليه، فكانت الكعبة بيتا له تعالى أمر بتطهيره: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾[1]. وكفى بياء النسبة إبرازا لجمال الكعبة وزهوها[2].

**ثانيا: قبول العمل والعامل**

كما تعرّض القرآن الكريم إلى مسألة قبول «العمل» في حالة توفّر ركني الحسن الفعلي والفاعلي كما تقدم بالتفصيل، تعرّض إلى مسألة قبول «العامل» نفسه.

فمثلا: جاء في مجال قصة مريم ذكرها العطر بقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾[3]. ومن يقع موردا لقبوله تعالى، فإنّه يكون في زمرة عباده تعالى المخلصين، فيكون تحت عنايته الخاصّة، كما هي الحال في مريم حيث تقبّلها سبحانه وتعالى، فوقعت موردا لعنايته وتوجّهه، فتربت تحت تلك العناية والتوجّه بأفضل وجه تحت من اختاره كفيلا لها ومعلما، وهو زكريا عليه السلام، فاختاره لها، لكي يكون كفيلا بحياتها ومربيا ومعلما لها.

ومن الواضح أن التوفيق الالهي عندما يكون شاملا لأحد من الناس، فإنّه لا جرم ينال أعلى الدرجات والمقامات المعنوية، فينشأ عليها، ويتربى تحت ظلها.

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٢٥.

٢ . الحكيم السنائي.

٣ . سورة آل عمران، الآية ٣٧.





## البحث الروائي

### ١ ـ سابقة الكعبة وتاريخها

قال الباقر عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ لما أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام، ردوا عليه فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قال الله تبارك وتعالي: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فغضب عليهم، ثم سألوه التوبة، فأمرهم أن يطوفوا بالضراح، وهو البيت المعمور، ومكثوا يطوفون به سبع سنين [و] يستغفرون الله عزّ وجلّ مما قالوا، ثم تاب عليهم من بعد ذلك ورضي عنهم، فهذا كان أصل الطواف. ثم جعل الله البيت الحرام حذو الضراح توبة لمن أذنب من بني آدم، وطهورا لهم».

وقد جاء في بعض هذه الرواية حسب نقل آخر لها: «فلما أن هبط آدم إلى السماء الدنيا، أمره بمرمة هذا البيت، وهو بإزاء ذلك، فصيره لآدم وذريّته كما صير ذلك لأهل السماء»[2].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ أنزل الحجر الاسود لآدم عليه السلام من الجنة، وكان البيت درة بيضاء، فرفعه الله إلى السماء وبقي أسّه، فهو بحيال هذا البيت يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك، لا يرجعون إليه أبدا، فأمر الله إبراهيم وإسماعيل يبنيان على القواعد»[3].

ـ قال الباقر عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ خلقه قبل الارض ثم خلق الارض من بعده، فدحاها من تحته»[4].

---

١ . سورة البقرة، الآية ٣٠.

٢ . الكافي، ج٤، ص١٨٨.

٣ . علل الشرايع، ج٢، باب ١٤٠؛ الكافي، ج٤، ص١٨٨ ـ ١٨٩؛ تفسير العياشي، ج١، ص٦٠، مع بعض الاختلاف.

٤ . الكافي، ج٤، ص١٨٩.

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «كان موضع الكعبة ربوة من الارض بيضاء تضيء كضوء الشمس والقمر حتى قتل إبنا آدم أحدهما صاحبه، فاسودت، فلما نزل آدم، رفع الله له الارض كلها حتى رآها، ثم قال: هذه لك كلها. قال: يارب! ما هذه الارض البيضاء المنيرة؟ قال: هي [في] أرضي، وقد جعلت عليك أن تطوف بها كلّ يوم سبعمائة طواف»[1].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ لما أصاب آدم وزوجته الحنطة [الخطيئة خ ل] أخرجهما من الجنة وأهبطهما إلى الارض... ثم إن الله عزّ وجلّ منّ عليه بالتوبة وتلقاه بكلمات، فلما تكلم بها، تاب الله عليه وبعث إليه جبرئيل عليه السلام ... فأخذ بيده، فانطلق به إلى مكان البيت، وأنزل الله عليه غمامة فأظلت مكان البيت، وكانت الغمامة بحيال البيت المعمور، فقال: يا آدم! خط برجلك حيث أظلت عليك [أظلتك خ ل] هذه الغمامة، فإنّه سيخرج لك بيتا من مهاة، يكون قبلتك وقبلة عقبك من بعدك، ففعل آدم عليه السلام، وأخرج الله له تحت الغمامة بيتا من مهاة...»[2].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «لما أفاض آدم من منى، تلقته الملائكة، فقالوا: يا آدم! برّ حجك، أما إنّه قد حججنا هذا البيت قبل أن تحجه بألفي عام»[3].

ـ قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ لما أهبط آدم من الجنة هبط على أبي قبيس، فشكا إلى ربه الوحشة وأنه لا يسمع ما كان يسمعه في الجنة، فأهبط الله عزّ وجلّ عليه ياقوتة حمراء، فوضعها في موضع البيت، فكان يطوف بها آدم...»[4].

---

١ . الكافي، ج٤، ص١٨٩.
٢ . المصدر السابق، ص١٩١.
٣ . المصدر السابق، ص١٩٤.
٤ . المصدر السابق، ص١٩٥.



ـــ عــن أبي جعفــر عــن آبائــه عليهم السلام : «أن الله تبــارك وتعــالى أوحــى إلى جبرئيل عليه السلام : أنا الله الرحمان الرحيم، وأني قد رحمت آدم وحواء لما شكيا إلي مـا شكيا، فأهبط عليهما بخيمة من خيم الجنة، وعزهما عني بفراق الجنة، واجمع بينهما في الخيمة، فإني قد رحمتهما لبكائهما ووحشتهما في وحدتهما، وأنصـب الخيمـة عـلى الترعة التي بين جبال مكّة». قال: «والترعة: مكان البيت وقواعـده التـي رفعتهـا الملائكة قبل آدم، فهبط جبرئيل عليه السلام على آدم بالخيمة على مقـدار أركـان البيـت وقواعده، فنصبها».... .

قال: «وأوحى الله عزّ وجلّ إلى جبرئيل: أهبط على الخيمة [ب] سبعين ألف ملك يحرسونها من مردة الشياطين، ويؤنسون آدم، ويطوفون حول الخيمة تعظيما للبيت والخيمة»... ثم قال: «إن الله عزّ وجـلّ أوحـى إلى جبرئيـل بعـد ذلـك أن اهبط إلى آدم وحواء، فـنحهما عـن مواضـع قواعـد بيتـي، وارفـع قواعـد بيتـي لملائكتي... فرفع قواعد البيت الحرام بحجر من الصفا وحجر من المروة وحجـر من طور سيناء وحجر من جبل السلام وهو ظهر الكوفة، وأوحى الله عـزّ وجـلّ إلى جبرئيل أن ابنه وأتمه، فاقتلع جبرئيل الاحجار الاربعة بأمر الله عزّ وجـلّ مـن مواضعهن بجناحه، فوضعها حيث أمر الله عزّ وجلّ في أركان البيت على قواعده التي قدره الجبار ونصب أعلامها، ثم أوحي الله عـزّ وجـلّ إلى جبرئيـل عليه السلام أن ابنه وأتمه بحجارة من أبي قبيس، واجعل له بابين: بابا شرقيا وبابا غربيا».

قال: «فأتمه جبرئيل عليه السلام، فلما أن فرغ، طافت حوله الملائكة، فلـما نظـر آدم وحواء إلى الملائكة يطوفون حول البيت، انطلقا فطافا سبعة أشواط، ثـم خرجـا يطلبان ما يأكلان»[1].

---

١ . الكافي، ج٤، ص١٩٥ ـ ١٩٧.

ـ قال الحلبي: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن البيت: أكان يحج قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وآله؟ قال: «**نعم، وتصديقه في القرآن قول شعيب حين قال لموسى حيث تزوج: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾[1] ولم يقل «ثماني سنين»، وأن آدم ونوحا حجا وسليمان بن داود قد حج البيت بالجن والانس والطير و الريح، وحج موسى على جمل أحمر يقول: لبيك لبيك، وأنه كما قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾[2]، وقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، وقال: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[3]، وأن الله أنزل الحجر لآدم وكان البيت**»[4].

إشارات: أ ـ يستفاد قدم الكعبة تاريخيا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكا﴾[5]، كما يستفاد كونها مطافا لحضرة آدم ومن بعده من الانبياء عليهم السلام من جملة من الروايات.

ب ـ إن محاذاة الكعبة للبيت المعمور المحاذي للعرش ليست من سنخ المحاذاة الجغرافية، وإنّما هي من سنخ التماثل والتطابق بين عوالم الملك والملكوت والجبروت.

ج ـ قال في تفسير المنار بعد هجومه على بعض ما ادّعى أنّه من الاسرائيليات: «لو كان أولئك القصاصون يعرفون الماس لقالوا: إن الحجر الاسود منه؛ لأنه أبهج الجواهر منظرا وأكثرها بهاء»[6].

---

١ . سورة قصص، الآية ٢٧.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٩٦.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٢٥.

٤ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٠.

٥ . سورة آل عمران، الآية ٩٦.

٦ . تفسير المنار، ج١، ص٤٦٧. ونصّ كلامه هناك: «قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم الْقَوَاعِدَ مِنَ
←



وهذا الكلام غير تام أبدا؛ فإنّ بهاء الحجر الاسود له صبغة الجنة لا صبغة الاحجار الدنيوية لكي يمكن قول ما نقلناه قبل قليل.

فما هو في حيطة العالم الطبيعي وحدوده، هو تلك الاحجار التي ليس لها أيّ تأثير ولا فائدة ولا ضرر، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الاولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع. فجعلها بيته الحرام الّذي جعله للناس قياما... ولو كان الاساس المحمول عليها، والاحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لخفّف ذلك مسارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس...»[1].

---

الْبَيْتِ وَإسماعيل﴾ ظاهر في أنّها هما اللذان بنيا هذا البيت لعبادة الله تعالى في تلك البلاد الوثنية، ولكنّ القصّاصين ومن تبعهم من المفسرين جاءونا من ذلك بغير ما قصّه الله تعالى علينا، وتفنّنوا في رواياتهم عن قدم البيت، وعن حجّ آدم ومن بعده من الانبياء إليه، وعن ارتفاعه إلى السماء في وقت الطوفان، ثم نزوله مرّة أخرى، وهذه الروايات يناقض أو يعارض بعضها بعضا، فهي فاسدة في تناقضها وتعارضها، وفاسدة في عدم صحة أسانيدها، وفاسدة في مخالفتها لظاهر القرآن، ولم يستح بعض الناس من إدخالها في تفسير القرآن وإلصاقها به وهو بريء منها.

ومن ذلك زعمهم أن الكعبة نزلت من السماء في زمن آدم، ووصفهم حجّ آدم إليها وتعارفه بحوّاء في عرفة، بعد أن كانت قد ضلّت عنه بعد هبوطهما من الجنة، وحاولوا تأكيد ذلك بتزوير قبر لها في جدّة. وزعمهم أنّها هبطت مرّة أخرى إلى الارض بعد ارتفاعها بسبب الطوفان. وحلّيت بالحجر الاسود، وأن هذا الحجر كان ياقوتة بيضاء - وقيل: زمردة - من يواقيت الجنة أو زمردها، وأنّها كانت مودعة في باطن جبل أبي قبيس فتمخّض الجبل فولدها، وأن الحجر إنّما اسودّ لملامسة النساء الحيض له، وقيل: لاستلام المذنبين إياه، وكلّ هذه الروايات خرافات إسرائيلية بثها زنادقة اليهود في المسلمين ليشوّهوا عليهم دينهم وينفروا أهل الكتاب منه.

(الاستاذ الامام): لو كان أولئك القصّاصون يعرفون الماس لقالوا: إن الحجر الاسود منه؛ لأنّه أبهج الجواهر منظرا وأكثرها بهاء». (المترجم).

١. **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢. وهي الخطبة المسماة بالقاصعة، وجاء فيها: «الا ترون أن الله سبحانه أختبر الاولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا

إن قيمة الحَجر الاسود أو أحجار الكعبة الاخرى ليست من جهة أنّها أحجار معدنية لكي نقيمها على هذا الاساس فتكون أغلى من غيرها من الاحجار والمعادن، فإنّ أسورة الذهب أو غير الذهب خالية من أيّة قيمة معنوية لها؛ ومن هنا، يذكّر سبحانه وتعالى بقصة فرعون الّذي استخفّ قومه بالتشنيع بقناعة موسى وحياته المتواضعة وقوله: ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ...﴾، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ...﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[2].

---

← تنفع، ولا تبصر ولا تسمع. فجعلها بيته الحرام الّذي جعله للناس قياما. ثم وضعه بأوعر بقاع الارض حجرا، وأقلّ نتائق الارض مدرا. وأضيق بطون الاودية قطرا. بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة. لا يزكو بها خف، ولا حافر ولا ظلف.

ثم أمرآدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم. تهوي إليه ثمار الافئدة من مفاوز قفار سحيقة ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتّى يهزّوا مناكبهم ذللا يهلون لله حوله. ويرملون على أقدامهم شعثا غبرا له. قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاء عظيما وامتحانا شديدا واختبارا مبينا. وتمحيصا بليغا جعله الله سببا لرحمته، ووصلة إلى جنته.

ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنّات وأنهار، وسهل وقرار، جمّ الاشجار، داني الثمار، ملتف البنا، متّصل القرى، بين برة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص مغدقة، ورياض ناضرة، وطرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء. ولو كان الاساس المحمول عليها، والاحجار المرفوع بها بين زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لخفّف ذلك مسارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الرّيب من الناس، ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبّدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجا للتكبّر من قلوبهم، وإسكانا للتذلل في نفوسهم. وليجعل ذلك أبوابا فتحا إلى فضله، وأسبابا ذللا لعفوه...». (المترجم).

١ . سورة الزخرف، الآيات ٥٣ ـ ٥٤.

٢ . سورة الزخرف، الآية ٣٣.




### ٢. مهمة حضرة إبراهيم عليه السلام في بناء الكعبة

قال أبو عبد الله عليه السلام: «لما ولد إسماعيل، حمله إبراهيم وأمّه على حمارٍ، وأقبل معه جبرئيل حتّى وضعه في موضع الحِجْر ومعه شيء من زادٍ وسقاء فيه شيء من ماء، والبيت يومئذٍ رَبوة حمراء من مدرٍ، فقال إبراهيم لجبرئيل عليهما السلام: ههنا أُمرت؟ قال: نعم». قال: «ومكّة يومئذٍ سلم وسمر، وحول مكّة يومئذ ناس من العماليق»[1].

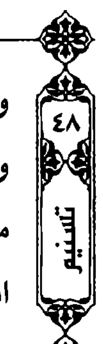
ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «... فلمّا كان من قابل، أذن الله لإبراهيم في الحجّ وبناء الكعبة، وكانت العرب تحجّ إليه، وإنّما كان رَدْماً إلا أنّ قواعده معروفة، فلمّا صدر الناس، جمع إسماعيل الحجارة وطرحها في جوف الكعبة، فلمّا أذن الله له في البناء، قدم إبراهيم عليه السلام، فقال: يا بنيّ، قد أمرنا الله ببناء الكعبة، وكشفا عنها، فإذا هو حجر واحد أحمر، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ضع بناءها عليه، وأنزل الله عزّ وجلّ أربعة أملاك يجمعون إليه الحجارة، فكان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يضعان الحجارة والملائكة تناولهما حتّى تمّت اثني عشر ذراعاً، وهيّئا له بابين: باباً يدخل منه وباباً يخرج منه، ووضعا عليه عتباً وشَرْجاً من حديد على أبوابه... وكانت الكعبة ليست بمسقّفة، فوضع إسماعيل فيها أعمدة مثل هذه الاعمدة التي ترون من خشب، وسقّفها إسماعيل بالجرائد، وسوّاها بالطين...»[2].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ إبراهيم عليه السلام كان نازلاً في بادية الشام، فلمّا ولد له من هاجر إسماعيل، إغتمّت سارة من ذلك غمّاً شديداً؛ لأنّه لم يكن له منها

---

١ . الكافي، ج٤، ص٢٠١.

٢ . المصدر السابق، ص٢٠٢ ـ ٢٠٤.




ولد، كانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمّه، فشكى إبراهيم ذلك إلى الله عزّ وجلّ، فأوحى الله إليه... ثمّ أمره أن يخرج إسماعيل وأمّه، فقال: يارب، إلى أيّ مكان؟ قال: إلى حرمي وأمني وأوّل بقعةٍ خلقتها من الارض وهي مكّة، فأنزل الله عليه جبرئيل بالبراق، فحمل هاجر وإسماعيل... حتّى أتى مكّة، فوضعه في موضع البيت... ثمّ انصرف عنهم... فلمّا بلغ إسماعيل مبلغ الرجال، أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت، فقال: يارب! في أيّ بقعةٍ؟ قال: في البقعة التي أنزلت على آدم القبّة فأضاء لها الحرم، فلم تزل القبّة التي أنزلها الله على آدم قائمةً حتّى كان أيّام الطوفان، أيّام نوح عليه السلام، فلمّا غرقت الدنيا، رفع الله تلك القبّة وغرقت الدنيا إلا موضع البيت، فسميت البيت العتيق لأنّه أعتق من الغرق، فلمّا أمر الله عزّ وجلّ إبراهيم عليه السلام أن يبني البيت ولم يدر في أي مكانٍ يبنيه، فبعث الله جبرئيل عليه السلام، فخطّ له موضع البيت، فأنزل الله عليه القواعد من الجنّة، وكان الحجر الّذي أنزله الله على آدم أشدّ بياضاً من الثلج، فلمّا لمسته أيدي الكفّار اسودّ، فبنى إبراهيم البيت ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى، فرفعه إلى السماء تسعة أذرع، ثمّ دلّه على موضع الحجر، فاستخرجه إبراهيم عليه السلام ووضعه في موضعه الّذي هو فيه الآن، وجعل له بابين: باب إلى المشرق وباب إلي المغرب، والباب الّذي إلى المغرب يسمّى المستجار، ثمّ ألقى عليه الشجر والاذخر، وعلّقت هاجر على بابه كساء كان معها وكانوا يكنون تحته»[1].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «كانت الكعبة علي عهد إبراهيم عليه السلام تسعة أذرعٍ...»، «... ولم يكن لها سقف، فسقّفها قريش ثمانية عشر ذراعاً، فلم تزل ثمّ كسرها الحجّاج على ابن الزبير، فبناها وجعلها سبعة وعشرين ذِراعاً»[2].

---

١ . تفسير القمي، ج١، ص٦٠ ـ ٦١.

٢ . الكافي، ج٤، ص٢٠٧.

ـ أخرج الديلمي عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ...﴾، قال: «**جاءت سحابة على تربيع البيت لها رأس تتكلّم ارتفاع البيت على تربيعي، فرفعاه على تربيعها**»[1].

ـ عن ابن فضّال قال: قال أبو الحسن عليه السلام ـ يعني: الرضا ـ للحسن بن الجهم: «**أيّ شيء السكينة عندكم؟**» فقال: لا أدري جعلت فداك، وأيّ شيء هي؟ قال: «**ريح تخرج من الجنّة طيّبة، لها صورة كصورة وجه الانسان، فتكون مع الانبياء، وهي التي نزلت على إبراهيم عليه السلام حيث بنى الكعبة، فجعلت تأخذ كذا وكذا، فبني الاساس عليها**»[2].

ـ عقبة بن بشير، عن أحدهما عليهما السلام: «**إنّ الله عزّ وجلّ أمر إبراهيم ببناء الكعبة وأن يرفع قواعدها ويري الناس مناسكهم، فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت كلّ يوم ساقاً حتى انتهى إلى موضع الحجر الاسود**».

قال أبو جعفر عليه السلام: «**فنادى أبو قبيس إبراهيم عليه السلام: إنّ لك عندي وديعة، فأعطاه الحجر فوضعه موضعه. ثمّ إنّ إبراهيم عليه السلام أذّن في الناس بالحجّ، فقال: أيها الناس، إنّي إبراهيم خليل الله، إنّ الله يأمركم أن تحجّوا هذا البيت فحجّوه، فأجابه من يحجّ إلى يوم القيامة...**»[3].

**إشارتان:** أ ـ تكليف إبراهيم بإسكان زوجته وابنه في أرض مكّة مهمّة اخرى غير تكليفه برفع قواعد البيت؛ فإنّ بعض الروايات يثبت المهمة الاولى دون الثانية، وأن هناك فاصلا زمانيا بين المهمّتين؛ إذ كان لا بدّ من أن يكبر إسماعيل لكي يصلح أن يكون مساعدا لأبيه في المهمة الثانية، أعني: بناء البيت العتيق.

---

١ . الدر المنثور، ج١، ص٣٠٧.

٢ . الكافي، ج٤، ص٢٠٦.

٣ . المصدر السابق، ص٢٠٥.




ب ـ إن الخصوصيات المستفادة من الروايات المتعددة السابقة وإن كانت لا تستلزم المحذور العقلي؛ لإمكان تجلي الموجود الملكوتي على هيأة الموجود المُلكي وكذا التمثّل النفساني؛ إلا أن إثبات الامور ذات الصبغة العلمية ـ الخارجة عن حيطة الاصول الاعتقادية، فلا يكون الايمان بها واجبا ـ بواسطة خبر الواحد غير نقي السند أمر غاية في الصعوبة.

وأمّا الموقف في مثل هذه الحالات، فهو التوقف وإرجاع علم تلك الامور إلى أهله.

وكما أنّ الايمان بالامور السابقة وتصديقها يعتبر أمرا صعبا، فإنّ التكذيب والنفي والافتاء بالدسّ والجعل في هذه المجالات أُمور غير سهلةٍ أيضاً.

من الطبيعيّ أن بعض أعداء الاسلام والمتّجرين بالحديث، لأجل تشويه صورة الدين الاسلامي الحنيف من جهة، ولأجل إيجاد الكراهية والكره بين الاسلام وأصحاب العقل والفكر من جهة أخرى، وبهدف المنع من العلاقة والانشداد بين اليهود والاسلام من جهة ثالثة، وغير ذلك من الاهداف المشؤومة الاخرى، قد قاموا بدور كبير في مجال دسّ الحديث ووضعه في عصر الهرج والمرج والاضطراب والارتباك الّذي مر به الحديث والرواية في بعض المراحل، ما يلزم الباحث الدقيق بالتقصّي والتحقيق في هذا المجال للتمييز بين الصحيح والعقيم من الروايات والاحاديث.

### ٣. إشتراك نبيّنا وأهل بيته عليهم السلام في إعادة بناء الكعبة

قال أبو عبد الله عليه السلام: **«إنّ قريشاً في الجاهليّة هدموا البيت، فلمّا أرادوا بناءه، حيل بينهم وبينه، وأُلقي في روعهم الرّعب، حتّى قال قائل منهم: ليأتي كلّ رجل منكم بأطيب ماله، ولا تأتوا بمال اكتسبتموه من قطيعة رحمٍ أو حرامٍ، ففعلوا، فخلّي بينهم وبين بنائه، فبنوه حتّى انتهوا إلى موضع الحجر الاسود، فتشاجروا**




فيه أيّهم يضع الحجر الاسود في موضعه، حتّى كاد أن يكون بينهم شرّ، فحكموا أوّل من يدخل من باب المسجد، فدخل رسول الله ﷺ، فلمّا أتاهم، أمر بثوب فبسط، ثمّ وضع الحجر في وسطه، ثمّ أخذت القبائل بجوانب الثوب فرفعوه، ثمّ تناوله ﷺ فوضعه في موضعه، فخصّه الله به»[١].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ رسول الله ﷺ ساهم قريشاً في بناء البيت، فصار لرسول الله ﷺ من باب الكعبة إلى النصف ما بين الركن اليماني إلى الحجر الاسود»[٢].

ـ عن أبان بن تغلب قال: «لمّا هدم الحجّاج الكعبة فرّق الناس ترابها، فلمّا صاروا إلى بنائها فأرادوا أن يبنوها، خرجت عليهم حيّة فمنعت الناس البناء... فبعث إلى علي بن الحسين عليه السلام، فأتاه فأخبره ما كان من منع الله إيّاه البناء. فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: «يا حجّاج! عمدت إلى بناء إبراهيم وإسماعيل فألقيته في الطريق، وانتهبته كأنّك ترى أنّه تراث لك، إصعد المنبر وأنشد الناس أن لايبقى أحدٌ منهم أخذ منه شيئاً الا ردّه»... فلمّا رأي جمع التراب، أتى عليّ بن الحسين عليه السلام، فوضع الاساس وأمرهم أن يحفروا. قال: فتغيّبت عنهم الحيّة، وحفروا حتّى انتهوا إلى موضع القواعد، قال لهم علي بن الحسين عليه السلام: «تنحّوا»، فتنحّوا، فدنا منها فغطّاها بثوبه، ثمّ بكي، ثمّ غطّاها بالتراب بيد نفسه، ثمّ دعا الفعلة، فقال: «ضعوا بناءكم»...»[٣].

ـ روي أنّ الحجّاج لمّا فرغ من بناء الكعبة سأل علي بن الحسين عليه السلام أن يضع الحجر في موضعه، فأخذه ووضعه في موضعه[٤].

---

١ . الكافي، ج٤، ص٢١٧.
٢ . المصدر السابق، ص٢١٨.
٣ . المصدر السابق، ص٢٢٢.
٤ . وسائل الشيعة، ج١٣، ص٢١٦.

**إشارتان: أ ـ** نقل توجيه الرسول الاكرم ﷺ للكفار في مجال كيفية نصب الحجر الاسود واشتراكه في ذلك العمل في الجوامع الروائية الشيعية والسنية، وهو ما يتناسب تمام التناسب مع سنّته الحسنة الداعية إلى الوحدة والانسجام وعدم الفرقة والابتعاد عن العصبية والاختلاف والتشتّت.

**ب ـ** إنّ بناء الكعبة بآلات البناء الحلال، وغير المسبوقة أحياناً بملكية الانسان، يتناسب مع طهارة البيت من جهة، وكونه عتيقا من جهة أخرى؛ إذ إنّه كما أنّ عرصة البيت كانت ولا تزال طلقة غير مملوكة، فإنّ أعيانها كذلك أيضاً.

نعم، من الطبيعيّ أن إثبات هذه الخصوصيات يبقى أمرا صعبا حتّى بعد إحراز صحّة السند في الروايات.

## ٤ ـ السرّ في تربيع الكعبة

رُوي عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل لِمَ سمّيت الكعبة؟ قال: «**لأنّها مربّعة**». فقيل له: ولِمَ صارت مربّعة؟ قال: «**لأنّها بحذاء البيت المعمور، وهو مربّع**». فقيل له: ولِمَ صار بيت المعمور مربّعاً؟ قال: «**لأنّه بحذاء العرش، وهو مربّع**». فقيل له: ولِمَ صار العرش مربّعاً؟ قال: «**لأنّ الكلمات التي بني عليها الاسلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر**»[١].

**إشارة:** يقال لكلّ حجم مسدس السطوح مكعّبا، ولمّا كان للكعبة أربعة جدران وسطح وسقف، فإنها مسدسة السطوح فتكون مكعبة، ومن هنا، سميت الكعبة كعبة.

وأمّا كون الكعبة مربعة، فإنّه لأجل كون البيت المعمور كذلك، ولما كان هذا البيت بنفسه محاذيا للعرش المربع أيضاً، صار بدوره مربعا.

---

١ . **بحار الأنوار**، ج٩٦، ص٥٧.

وأمّا تربيع العرش، فإنّما هو من جهة بنائه على الكلمات التي تعتبر أساس الاسلام وأصله، وهي التسبيحات الاربع (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر)؛ إذ إنّ جميع أسماء الله الحسنى، وكذا العقائد الصحيحة كلّها ترجع إلى هذه الكلمات الاربع.

ولو كان الحاجّ والمعتمر أرضيّ التفكير، فإنّه يطوف بهذه الكعبة المادية الموجودة في مكّة، جاعلا كلّ تفكيره في ألّا يخرج عن حدود المطاف الّذي يجب الطواف ضمنه.

وأمّا من كان أعلى همّة وأرقى فكرا، فإنّه يطوف حول الكعبة والبيت المعمور، وأمّا من كان أعلى من ذلك وأرقى، فإنّه يطوف حول الكعبة والبيت المعمور والعرش، فيكون قلب هذا النوع الخاص من الحجّاج والمعتمرين عرش الرحمان تبارك وتعالى، وأمّا من يطوف حول التسبيحات الاربع، فإنّه الاوحديّ من الناس طبعا.

وبنظر هذا النوع من الزوّار، فإنّ بروز الكعبة ليس من جهة ارتفاع جدرانها، وإنما هو كارتفاع ذكره ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[1]، من جهة الارتفاع الذكريّ؛ فإنّ التكعيب والارتفاع لا ينحصران بالبروز فوق الرّجل والحجر والطين، وإلا، فإضافة على وقوع الكعبة في أخفض نقطة من نقاط بحيث يهددها السيل دائما، فإنّها اليوم قد أحيطت بأبراج عالية بحيث لا يظهر إلا منارات المسجد الحرام بدون أيّ بروز لبيته تعالى.

بناء على ما سبق، فإنّ بروز الكعبة وظهورها إنّما هو من جهة رفعة ذكرها واسمها المعنويّ، والتي تؤدّي بدورها إلى رفعة كلّ من طاف بها.

---

١ . سورة الشرح، الآية ٤.

## ٥ ـ نزول الحجر الاسود من الجنة

قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالي وضع الحجر الاسود وهي جوهرة أُخرجت من الجنّة إلى آدم عليه السلام، فوضعت في ذلك الركن لعلّة الميثاق... كان (الحجر) مَلَكاً من عظماء الملائكة عند الله، فلمّا أخذ الله من الملائكة الميثاق كان أوّل من آمن به وأقرّ ذلك الملك، فاتّخذه الله أميناً على جميع خلقه، فألقمه الميثاق و أودعه عنده... ثمّ جعله الله مع آدم في الجنّة يذكّره الميثاق... فلمّا تاب الله على آدم، حوّل ذلك الملك في صورة درّة بيضاء فرماه من الجنّة إلي آدم عليه السلام وهو بأرض الهند، فلمّا نظر إليه، آنس إليه وهو لا يعرفه بأكثر من أنّه جوهرة... ثمّ تحوّل إلى صورته التي كان مع آدم في الجنّة، فقال لآدم: أين العهد والميثاق؟ فوثب إليه آدم وذكر الميثاق وبكى، وخضع له و قبّله وجدّد الاقرار بالعهد والميثاق. ثمّ حوّله الله عزّ وجلّ إلى جوهرة الحجر درّة بيضاء صافية تضيء، فحمله آدم عليه السلام على عاتقه إجلالا له وتعظيماً، فكان إذا أعيا، حمله عنه جبرئيل عليه السلام، حتّى وافا به مكّة... ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ لمّا بنى الكعبة وضع الحجر في ذلك المكان... وهو يجيءُ يوم القيامة وله لسان ناطق وعين ناظرة يشهد لكلّ من وافاه إلى ذلك المكان وحفظ الميثاق»[١].

ـ عن الحلبي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: لِمَ جُعل استلام الحجر؟ فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ حيث أخذ ميثاق بني آدم، دعا الحجر من الجنّة فأمره فالتقم الميثاق، فهو يشهد لمن وافاه بالموافاة»[٢].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «أنزل الله الحجر الاسود وكان أشدّ بياضاً من اللبن

---

١ . الكافي، ج٤، ص١٨٥ ـ ١٨٦.

٢ . المصدر السابق، ص١٨٤.

وأضوء من الشمس، وإنّما اسودّ لأنّ المشركين تمسحوا به، فمن نجس المشركين اسودّ الحجر»[١].

ـ روي عن النبي ﷺ والائمة عليهم السلام، أنّه «إنّما يقبّل الحجر الاسود ويستلم ليؤدّي إلى الله العهد الّذي أخذ عليهم في الميثاق، وإنّما يستلم الحجر لأنّ مواثيق الخلائق فيه، وكان أشدُّ بياضاً من اللبن، فاسودّ من خطايا بني آدم، ولولا ما مسّه من أرجاس الجاهليّة، ما مسّه ذو عاهة الا بريء»[٢].

ـ عن أحدهما عليهما السلام إنّه سُئل عن تقبيل الحجر؟ فقال: «إنّ الحجر كان دُرَّة بيضاء في الجنّة، وكان آدم يراها، فلمّا أنزلها الله عزّوجلّ إلى الارض، نزل إليها آدم عليه السلام، فبادر فقبّلها، فأجرى الله تبارك وتعالى بذلك السنّة»[٣].

إشارة: اعتبر هذا النوع من الروايات في بعض التفاسير من الاسرائيليات، كما أنّها اعتبرت من الروايات ضعيفة السند المخالفة للقرآن والعقل، والمتعارضة بعضها مع البعض، فكانت النتيجة ـ في تلك التفاسير ـ هي ردّ هذه الروايات جملة وتفصيلا.

بل حتّى على فرض صحّة سندها واعتبارها من هذه الجهة، فإنّها غير قابلة للاعتماد؛ بتوجيه أنّ من غير المقبول نزول حجر من السماء أو من الجنة؛ إذ لا معنى لذلك![٤]

وقد ذهب أستاذنا العلّامة الطباطبائي إلى أن هذا النوع من المواقف إزاء هذا النوع من الروايات، إمّا أن يكون قد نشأ من إفرازات التأثّر بالمواقف المتشدّدة لبعض المذاهب، والتي تؤدّي بالنتيجة إلى نفي الحقائق المعنوية عن الانبياء سلام

---

١ . الكافي، ج٤، ص١٩١.
٢ . وسائل الشيعة، ج١٣، ص٣١٨.
٣ . المصدر السابق، ص٣٢٢.
٤ . تفسير المنار، ج١، ص٤٦٦ ـ ٤٦٨.





الله تعالى عليهم أجمعين. وإمّا أن تكون تلك المواقف قد نشأت من منطلق الضعف الّذي يحس به أصحاب تلك المواقف إزاء بعض علوم اليوم المتطوّرة، التي تطلب التوجيه والتعليل الماديّ لكلّ ظاهرة من الظواهر.

هذا، وقد ذكر أستاذنا جملة من المطالب المفيدة ذيل الآية الّتي هي محلّ الكلام في مقام نقد المواقف المذكورة والاجوبة على ما طرحته من تساؤلات في هذا المجال[1].

وفي ما يلي بعض ما يستفاد من تلك النقاط، بالإضافة إلى ما يجب الالتفات إليه في المقام:

أ ـ في ما يرتبط بإثبات المسائل العقدية والدينية، فإنّه إما أن يقوم على ذلك برهان عقلي قاطع، أو نصّ من القرآن الكريم مصرّح، أو أن يقوم عليه خبر متواتر أو خبر واحد محفوف بالقرائن المفيدة للعلم؛ إذ لا يكون الظنّ والاحتمال حجّة في مثل هذه المسائل.

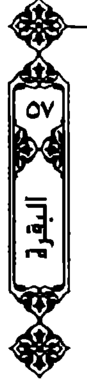
بناء على ما سبق، فإنّ خبر الواحد لا يفيد في ما نحن فيه وإن كان معتبرا سندا؛ إذ لا يتعدّى الامر حينئذ عن كونه أمارة ظنّية لا تفيد العلم.

نعم، يمكن الاستناد في الفروع الفقهية إلى خبر الواحد التامّ سندا ودلالة، فيمكن للفقيه أن يفتي طبقا لما صح عنده من الاخبار وإن كانت أخبار آحاد، خلافا للمسائل العقديّة؛ لوضوح أنّه لا يمكن أن يتعبّد القلب بالاطمئنان والاعتقاد بمطلب خاص بدون العلم والقطع، بعد خروج الاعتقاد القلبي عن حيطة اختيار الانسان وسلطته بتبعيّته للمبادئ التصورية والتصديقية للانسان.

بناء على ما تقدم، فإنّه لا يمكن غلق باب الاحتمال أمام القلب والاعتقاد بمجرد قيام خبر الواحد المعتبر في هذا المجال.

---

١ . **الميزان**، ج١، ص٢٩٠ـ ٢٩٥.




وفي الوقت نفسه، فإنّه لا يمكن قبول عدم الفهم والاعتقاد مع قيام البرهان والدليل على مطلب من المطالب النظرية بعد تبدلها لا محالة إلى مطالب ضرورية بعد إقامة البرهان عليها، فلا مجال حينئذ إلا إلى القبول أو الرد.

والمغزى: مع أن من جملة الاحاديث التي نقلناها آنفا ما يتمّ سندا ودلالة ولا مجال لردّ جميع تلك الاحاديث بضعف السند، الا أن المقام لّما كان من باب العقائد، فإنّه لا يمكن الركون إلى تلك الاحاديث في ما نحن فيه من المسائل الاعتقادية.

نعم، كما لا يصحّ الاستناد إلى تلك الاحاديث في إثبات المسائل العقديّة، فإنّه لا يصح في الوقت نفسه نفي تلك الحقائق استنادا إلى مثل تلك الاحاديث، وعليه، فإنّ خبر الواحد في المقام لا يفيد نفيا ولا إثباتا.

نعم، من الطبيعي أنّه بعد حصول الاعتقاد الظنّي من الدليل المعتبر الظني، فإنّه يمكن إسناد المسائل العقديّة إلى المعصوم عليه السلام، ولكن على حدّ الظن لا القطع.

فعلى سبيل المثال: يمكن أن نسند إلى المعصوم عليه السلام أمرا مّا فنقول: أظن أنّ رأي المعصوم ـ الّذي هو رأي الاسلام ـ هو كذا.

نعم، مع قيام الدليل القطعي على الخلاف، سواء أكان ذلك الدليل عقليا تجريديا أم حسيا تجريبيا، فإنّه لا يمكن الاسناد إلى المعصوم حتّى على مستوى الظن كما هو واضح.

وأمّا إذا قام الدليل الظني المعتبر على أمر فأفاد ظنا أقوى مما يفيده خبر واحد معتبر، بحيث كان الدليل العقلي أو الحسّي مفيدا للاطمئنان، فإنّه في مثل هذه الحالة أيضاً يقدم على الدليل النقلي.

وأمّا إذا كان الدليل النقلي والعقلي المتعارضان على نحو واحد من الافادة

الظنية، فإنّهما يتصادمان حينئذ فيتساقطان، ليكون الاحتمال سيّد الموقف في مثل هذه الحالات.

السرّ في ما ذكرناه قبل قليل، هو أنّ الدليل العقلي المعتبر، سواء أكان تجريديا أم تجريبيا، هو حجة شرعية على حدّ حجية الدليل النقلي المعتبر بلا أيّ فرق من هذه الجهة، على ما يذكر تفصيل الكلام في بيان منزلة البرهان العقلي والدليل التجريبي في هندسة الحجية الشرعية.

والمهمّ، هو أنّه لا يمكن نفي ثبوت الشيء بمجرّد الشك فيه؛ فإنّ كثيرة من أمور العالم مجهولة للبشر، وما لم يقم الدليل المعتبر على نفي تلك الامور، فإنّه لا يحق لأحد من الناس أن ينكرها أو يدّعي عدم وجودها، نعم، لو كانت المسألة من جملة الاصول التي يجب الاعتقاد بها، فإنّه يجب تحصيل الدليل المناسب عليها.

ب ـ كما أنّ التعارض بين أخبار الآحاد في المسائل الفقهية من الامور التي تقع عادة فيرفع التنافي بواسطة الجمع الدلاليّ في أكثر تلك الموارد، فإنّ الحال هي كتلك أيضاً في ما نحن فيه.

ج ـ إدّعاء مخالفة مفاد الروايات المزبورة للعقل أو القرآن أو السنّة القطعية أمر واه بلا دليل؛ إذ لا دليل عقليا أو قرآنيا على خلاف تلك الروايات.

د ـ هناك ما يؤيّد الروايات التي وقعت مورد الاشكال من الآيات التي تصرح بنزول النّعم الالهية من الخزائن الغيبية، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الانْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[2]، وقوله

---

١ . سورة الحجر، الآية ٢١.

٢ . سورة الزمر، من الآية ٦.



عزّ وجلّ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[1]، فإنّ «الانزال» هنا ليس بمعنى: الخلق، بل الانزال المتعارف.

وعلى أساس هذه الآيات الشريفة، فإنّ لجميع الموجودات خزائن وجذورا تَنَزَّلت من العالم العلويّ من قبله تعالى بمقادير محددة تبعا لما يراه من مصالح، فصارت في خدمة الانسان وتحت تصرفه.

وبعبارة أخرى: المراد من «الانزال» في هذه الموارد هو الانزال الواقعي، نعم، على نحو التجلّي لا التجافي، كما في نزول الثلوج والامطار، يعني: لا على نحو أن إنزال موجودات عالم الطبيعة كان بحيث يؤدّي ذلك إلى تفريغ المخازن الالهية؛ فإنّ تلك الخزائن ـ وهي ما قد يعبّر عنه بعض الاحيان بـ ﴿أُمّ الكتب﴾[2] أو ﴿اللوح المحفوظ﴾[3] ـ ليست في معرض النقص أو النفاد، بل هي مصونة من ذلك دائما: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾[4].

يمكن توضيح النقطة السابقة عن طريق المثال فنقول: إذا قال عالم من أصحاب القلم: «مخزن جميع كتبي هو صدري»، فإنّ ذلك ليس معناه أن صدره سوف يفرغ من العلوم بالكلام أو الكتابة، فإنّ المطالب العلمية الذهنية تنتقل من ذهنه إلى كتبه، فصارت على شكل ألفاظ وكلمات.

وفي رواية تتعلق بتفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾[5]، وتصلح شاهدة واضحة على صحة ما تقدّم من مطالب، وفيها إشارة إلى ما يرتبط بحالة أرواح الناس قبل المجيء إلى عالم الطبيعة، ورد أنّه بينا أمير

---

١ . سورة الحديد، من الآية ٢٥.

٢ . سورة الرعد، الآية ٣٩.

٣ . سورة البروج، الآية ٢٢.

٤ . سورة النحل، الآية ٩٦.

٥ . سورة الحجر، الآية ٢١.





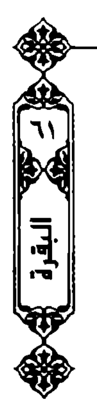
المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة، إذ أتاه رجل فقال: «يا أمير المؤمنين، والله إني لأحبك، قال: ما تفعل؟ قال: والله إني لأحبك، قال: ما تفعل؟ قال: بلى، والله الّذي لا إله الا هو، قال: والله الّذي لا إله الا هو ما تحبني، فقال: يا أمير المؤمنين، إني أحلف بالله إني أحبك، وأنت تحلف بالله ما أحبك، كأنك تخبرني أنك أعلم بما في نفسي؟ قال: فغضب أمير المؤمنين عليه السلام، وإنما كان الحديث العظيم يخرج منه عند الغضب. قال: فرفع يده إلى السماء وقال: كيف يكون ذلك وهو ربّنا تبارك وتعالى خلق الارواح قبل الابدان بألفي عام، ثم عرض علينا المحب من المبغض، فو الله ما رأيتك في من أحبنا، فأين كنت؟»[1].

هـ ـ لمّا كانت خزائنه تعالى متفاوتة، كانت الموجودات المنزّلة منها متفاوتة أيضاً من حيث الحرمة والكرامة، فللحجر الاسود منزلته الخاصّة وحرمته المميزة.

وعليه، فلو جاء في الروايات إنزال الحجر الاسود من الجنة وتوصيفه بالحرمة الخاصّة، فإنّ ذلك موافق للاصول القرآنية العامة، وإن لم يمكن إثبات هكذا أمور عقديّة بخبر الواحد كما تقدم في المطالب السابقة، إلا إنّه لم يدل دليل على نفي تلك الامور وردّها أيضاً، كما أنّ مجرد كون ذلك مستبعدا علميا ليس له أيّة قيمة في المقام؛ إذ محلّ البحث في العلوم الطبيعية هو السير الافقي للموجودات وماضيها وحالها ومستقبلها، وأمّا السير العمودي للموجودات والبحث في علتها الفاعلية والغائية وإن كان قد وصل إلى نقاط متقدمة، فإنّه خارج عن حيطة تلك العلوم وداخل في حيطة الحكمة والفلسفة، والعالم الفيزيائي المتكلم في مجال النظام الفاعلي والغائي، فإنّما يتكلم بما هو فيلسوف وحكيم لا بما هو عالم في الفيزياء.

---

١ . بحار الانوار، ج٢٦، ص١١٧ ـ ١٢٠.




الحقائق السابقة تضع أيدينا على ما يلي من نتائج:

أوّلا: هناك العديد من الروايات المعتبرة التي تصف الحجر الاسود بأنّه حجر سمائيّ من الجنة.

ثانيا: مع أنّ المسائل العقديّة مما يحتاج في الاثبات إلى القطع واليقين فلا يكفي فيها الظنّ ولو كان مستفادا من خبر الواحد المعتبر، إلا إنّه ليس هناك وجه عقلي أو نقلي لرد الروايات السابقة أو إنكارها.

ثالثاً: يصحّ الاسناد الظنّي لمفاد الدليل الظني، فيصحّ نسبة ذلك المفاد إلى الاسلام إلا أن يقوم دليل معتبر عقلي (تجريدي) أو حسّي (تجريبي) على الخلاف، والموقف حينئذ التوقف في حالة التكافؤ بين الدليلين في مقدار الدلالة.

رابعا: يجب التفريق بين البحث في مجال الرجال والبحث في مجال الدراية؛ فأحيانا ما يكون رجال السند موثّقين، فيكون الحديث المأثور معتبرا من جهة السند، إلا إنّه قد يواجه مشكلة من جهة الدراية بعد اتساقه وما يقوله العقل أو النقل المعتبر، كما أنّه قد يقع العكس أحيانا أخرى، بأن يكون الحديث متّسقا تمام الاتساق مع العقل أو النقل المعتبر، إلا إنّه يواجه مشكلة من ناحية رجال السند بعدم تماميته سندا، كما أنّ من الممكن أن يهيّئ إتقان المتن وموافقته للخطوط العامّة الارضية لترميم السند.

يجب التفريق بين الحالات الثلاث المختلفة (القبول، النكول، والتوقف)، كما يجب في مورد التوقف السكوت لا المبادرة إلى التكذيب والطرد؛ فإنّ الطرد ـ شأنه شأن الجذب ـ مما يحتاج إلى الدليل المعتبر.

* * *

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨﴾

## التفسير المختار

ثم أخذ حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالدعاء لذريّتهما بالنجاة، فلا يكون مصيرهم مصير الابن الطالح لنوح عليه السلام.

واتّباعا للسنة الحسنة الداعية إلى استغلال الفرص المناسبة والحالات الحسّاسة للدعاء للاولاد والاحفاد، فإنّ النبيّين العظيمين قد استغلا الفرصة العظيمة لبناء الكعبة وإعادة إعمارها وبعد إتمام ذلك العمل، دَعيا الله تعالى في إعطائهما ما يلي:

١ ـ مرحلة الاسلام الكامل، يعني: مقام التسليم والانقياد المحض والتامّ لهما ولذريّتهما.

٢ ـ بيان كيفية الاستفادة العبادية من الكعبة والحدود المرتبطة بذلك ليتعرّفا طريقة العبادة، فاستجاب لهما ربهما فبيّن لهما مناسك الحجّ.

٣ ـ رجوع اللطف الالهي عليهما واستمرار عناية المولى بهما (على نبيّنا وآله وعليهما السلام).

### تفسير المفردات

**مسلِمَيْن لك:** أصل السّلم والسّلامة التعرّى من الافات الظاهرة، كما في

قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا﴾[١]، والباطنة، كما في قوله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢].[٣]

والاسلام بمعنى الانقياد والطاعة والخضوع في مقابل أوامره سبحانه وتعالى، والاقرار بجميع الاحكام الالهية[٤].

وإسلام كلّ مسلم وخضوعه هو علامة سلامة نفسه من العاهات الداخلية، من قبيل إباء الحقّ والامتناع عن قبوله، وقيل: إن الله جلَّ ثناؤُه هو السلام ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ﴾[٥]؛ لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء[٦]، كما أنّ كلّ سلامة فإنّما هي من ناحيته تعالى، بالاضافة إلى ذلك، فإنّه كما أنّ النّور ظاهر ومُظْهِر في الوقت نفسه، فإنّ كونه تعالى سلاما كامن في سلامة ذاته والتسليم غيره.

**أُمّة**: يطلق الامّ على أيّ شيء يكون أصلا في وجود شيء أو إصلاحه أو تربيته، وعلى حدّ تعبير الخليل في العين: «كلّ شيء يضمُّ إليه سائر ما يليه، فإنّ العرب تُسمِّي ذلك الشَّيْء أُمّاً»[٧].

وأصل هذا اللفظ هو «الامُّ» بمعنى: القصد[٨]، ومن هنا يقال للمجموعة التي يجمعها هدف واحد «أمة»[٩].

---

١ . سورة البقرة، الآية ٧١. راجع: تسنيم، ج٥، ص١٨٣.

٢ . سورة الشعراء، الآية ٨٩.

٣ . المفردات، ص٤٢١، «س ل م».

٤ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٣٩٢. الكشاف، ج١، ص١٨٨.

٥ . سورة الحشر، الآية ٢٣.

٦ . معجم مقاييس اللغة، ج٣، ص٩٠، «س ل م».

٧ . المفردات، ص٨٥. ترتيب العين، ج١، ص١٠٤، «ا م م».

٨ . ترتيب العين، ج١، ص١٠٧، «ا م م».

٩ . الميزان، ج٢، ص١٢٤.




بناء على ما سبق، فالأمّة هي الجماعة التي يجمعها أمر خاص، كالدين، والزمان والمكان، سواء أكان الجامع اختياريا أم اضطراريا تسخيريا.

أما الجامع التسخيري، فكما في طبيعة كلّ حيوان من الحيوانات التي خلقها الله عليها: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الارْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1].

وأمّا الجامع الاختياري، فكما في الجماعة من الناس التي اختارت الفكر الصائب والعمل الصالح فكانت قدوة لغيرها: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ﴾[2].

كما أنّ الامّة قد تطلق أحيانا على الفرد الّذي يقوم بما تقوم به الجماعة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إبراهيم كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

كما أنّ الامّة تطلق أحيانا أخرى على الزمان الطويل نسبيا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[4] أي: بعد سنين.

كما أنّها قد تطلق أحيانا أخرى على الدين، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[5].

وقد ذهب البعض إلى أن الامّة لما كانت بزنة فُعلة، وكانت هذه الزنة تدلّ على المفعول، كما في لُقْطة، وضُحْكة وقُدْوة، فهي بمعنى مأمومة[6].

---

١ . سورة الأنعام، الآية ٣٨.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٠٤؛ المفردات، ص٨٦، «أ م م».

٣ . سورة النحل، الآية ١٢٠.

٤ . سورة يوسف، الآية ٤٥.

٥ . سورة الزخرف، الآية ٢٢.

٦ . تفسير التحرير والتنوير، ج١، ص٧١٩. قال: «والأُمّة... وهي بزنة فُعلة وهذه الزنة تدل على المفعول مثل لقطة وضحكة وقدوة، فالأمّة بمعنى مأمومة اشتقّت من الأمّ بفتح الهمزة وهو القصد، لأنّ الامّة تقصدها الفرق العديدة التي تجمعها جامعة الامّة كلها، مثل الامّة العربية لأنّها ترجع إليها قبائل العرب، والأمّة الاسلامية لأنّها ترجع إليها المذاهب الاسلامية». (المترجم).



**مناسكنا:** تستعمل لفظة «النُسُك» في مورد العبادة مرّة وفي مورد التقرّب مرّة أخرى، ولهذا يقال للذبيحة النسيكة[١]، كما في قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أو صَدَقَةٍ أو نُسُكٍ﴾[٢].

وأمّا المناسك، فهي جمع «مَنْسَك» بمعنى الاعمال العبادية، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الانْعَامِ﴾[٣].

والمنسك، هو المكان الّذي تذبح فيه النَسيكة[٤]. كما ادّعى البعض أن المنسك طريقة الزهد والتعبد[٥].

**تب علينا:** التوبة بمعنى الرجوع، فإذا أسندت إلى الانسان، فمعناها الرجوع عن المعصية إلى الطاعة والندم من المعصية. قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فإنّ الله يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٦].

وأمّا إذا أسندت إلى الله تبارك وتعالى، فمن جهة أنّها تستعمل مع الحرف «على» المفيد للاستعلاء دائما ـ ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فإِنّ الله يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٧] ـ فإنّ معناها حينئذ هو الرجوع بنحو الاستعلاء والاستيلاء، وهو المعنى الملازم لشمول رحمته تعالى للشخص ومغفرته له[٨].

* * *

١ . **المفردات**، ص٨٠٢ «ن س ك».

٢ . **سورة البقرة**، الآية ١٩٦ .

٣ . **سورة الحجّ**، الآية ٦٧ .

٤ . **المصباح**، ص٦٠٣؛ معجم مقاييس اللغة، ج٥، ص ٤٢٠، «ن س ك».

٥ . **المعجم الوسيط**، ص٩١٩، «ن س ك». قال: «(نسك) نسكا ونساكة صار ناسكا (انتسك) تزهّد وتعبّد. (تنسك): انتسك. (المنسك): طريقة الزهد والتعبد، يقال: إن له منسكا ينسكه». (المترجم).

٦ و٧ . **سورة المائدة**، الآية ٣٩.

٨ . **التحقيق**، ج١، ص٣٧٩، «ت و ب».





## السرّ في دعاء إبراهيم لذريّته

من جملة السنن البارزة لإبراهيم عليه السلام هي الدعاء لبنيه وذريّته، والرسالة التي يريد القرآن إرسالها إلى رسولنا الاكرم صلى الله عليه وآله والامّة الاسلامية في هذا المقام، هي التذكير بهذا العمل المربّي؛ وذلك لأنّه تعالى قال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ...﴾[1]، أي: «واذكر إذ...»، ولو كانت الآية بصدد نقل أصل الواقعة بدون الاشارة إلى مسألة التذكير السابقة الذكر، فإنّه لن يستفاد حينئذ إلا «الحينيّة» لا أكثر.

السيرة المعلّمة لحضرة خليل الرحمان عليه السلام هي التي تفتح الباب أمام من سيأتي من الداعين وبخاصّة أبناء إبراهيم المعنويين، لتعلّمهم الزمان المناسب للدعاء ومكانه ولسانه؛ فإنّ واحدا من أفضل الاوقات للدعاء، هو زمان اشتغال الانسان بالاعمال الالهية، فقد استغل حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فرصة إعادة بناء الكعبة وإعمارها غاية الاستغلال، وذلك بالدعاء والتهجّد.

ويعلم من تعبير: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ...﴾، أن الدعاء من قبل النبيّين العظيمين، إنّما كان حالة اشتغالهما بأفضل العبادات وهي بناء الكعبة، والدعاء في هكذا حالة سيكون مقرونا بالقبول بدون أيّ شكّ، ما يعني أن رواية لو كانت بهذا المضمون، فإنّها لن تزيد على تأييد المضمون القرآنيّ السابق لا إنّها ستؤسّس لمطلب جديد.

وقد نقل عن حضرة خليل الرحمان عدّة ادعية حسّاسة تصدّرها قوله: «ربّنا»، ويمكن تقسيم مضامين تلك الادعية ـ على الظاهر ـ إلى ثلاثة أقسام:

الاوّل: ما يخصّ حضرة إبراهيم وحضرة إسماعيل الذبيح عليهما السلام دون غيرهما، كما في ما ورد في قوله تعالى: ﴿تَقَبَّلْ مِنَّا﴾[2] وفي قوله تعالى: ﴿أَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

---

١و٢ . سورة البقرة، الآية ١٢٧.



الثاني: ما يشترك فيه النبيّان العظيمان مع ذريّتهما، كما في طلب الانقياد التامّ والمرتبة العليا من التسليم.

الثالث: ما يخصّ الذريّة، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾[1].

وأمّا السرّ في طلب إبراهيم عليه‌السلام الذريّة الصالحة منه تعالى والدعاء لهم في الاوقات الحسّاسة والمتميزة، فهو معرفته بمصير ابن حضرة نوح عليه‌السلام، الّذي لم يفد فيه ما بذله أبوه عليه‌السلام من جهود جبّارة في تبليغ الرسالة وتحمل أعباء النبوّة، فلم يفد من تلك البرامج والخطط الالهية المباركة؛ إذ لو كان لنوح ما لإبراهيم من بنين، ولو كان ذلك الابن قد استفاد من بركات نبوّة أبيه فصار صالحا، لصلح به العالم، ولاستمرّت سلسلة النبوّة، ولصار اتّصال النبوّة الابراهيمية بتلك السلسلة المباركة أوضح.

السرّ في انقطاع نسل نوح أو انعدام ذكره أواسط تاريخ نبوّة هذا النبيّ العظيم ليظهر بعده الانبياء الابراهيميّون عليهم‌السلام، هو النقطة التي سبقت، وعلى هذا الاساس، فإنّ طلب إبراهيم خليل الرحمان بقاء ذكره الصادق ـ ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الاخِرِينَ﴾[2] ـ قد يكون لأجل عدم ابتلاء بنيه بما ابتلى به ابن نوح عليه‌السلام، كما دعا حضرة إبراهيم وولده إسماعيل عليهما‌السلام في القسم الاوّل من الدعاء المنقول في الآية الّتي هي محلّ الكلام لنفسهما، وفي القسم الثاني لذريّتهما.

**ملاحظة:** ليس المقصود من الذريّة هو خصوص إبراهيم وإسماعيل عليهما‌السلام، فليس المراد الافراد الذين يكونون من نسل إبراهيم عن طريق إسماعيل، بل المراد مطلق ذريّة كلّ واحد من ذينكما العظيمين وإن كانت ذريّة إسماعيل هي

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٢٩.

٢ . سورة الشعراء، الآية ٨٤.

ذريّة إبراهيم؛ إذ ليس بالضرورة أن يكون كلّ واحد من ذريّة إبراهيم فردا من ذريّة إسماعيل أيضاً؛ إذ يمكن أن يكون من نسل حضرة إسحاق، وأمّا تعبير «ذريّتنا» الوارد في الآية، فإنّه لا يتوهم منه أبدا أن يكون المقصود هو ذريّة الاثنين، أي: ذريّة ابراهيم من نسل اسماعيل، ما يعني أنّه لن يختص بالعرب.

الحقيقة السابقة، توصلنا إلى حقيقة أخرى، وهي أنّ رواية ما لو وردت في هذا المجال في خصوص أهل البيت عليهم السلام أو بني هاشم، فإنّ من الممكن أن يكون المقصود هو كون الاستفادة الكفبرى من نصيبهم لا أنّ أصل الدعاء ومحتواه يكون مختصّا بهم بحيث لا يشمل غيرهم، وهو ما سيتّضح أكثر في ما سيأتي التعرّض له في البحث الروائي.

## طلب مقام التسليم

نقل عن حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في القرآن الكريم أدعية متعدّدة، وواحد من تلك الادعية كان خلال الاشتغال ببناء الكعبة وبعد ذلك من طلبهما التسليم التامّ الكامل منه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾.

ومقام التسليم هو مقام التفويض المحض، وهو المقام الاعلى من مقام الرضا، كما أنّه المتناسب مع كمال التوحيد.

هذه المنزلة العالية، كانت المطلوبة من قبل الطالب السالك بلا أيّ ادعاء، وهو حضرة ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام.

وبيان آخر:

١ ـ الاسلام ـ الّذي هو «تكليف» الجميع ـ أمر غير مقام «تشريف» الاوحديّ من السالكين، وما طلبه حضرة إبراهيم عليه السلام إنّما هو من جنس التشريف لا التكليف وإن كان كلّ تكليف تشريفا، والذي تعرضت له الآية

الكريمة في قوله تعالى: ﴿إذ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] هو المطلوب التشريفي لا المأمور به التكليفي.

٢ ـ إنّ تحصيل الملكات النفسانية التي يتوصّل إلى بعضها بالجهاد الاوسط، ولا يتوصل إلى بعضها الاخر الا بالجهاد الاكبر، إذا لم يكن من الامور المستصعبة، فهو من الامور الصعبة، كما أنّ افتقار السالك إلى الدعاء لتحصيل تلك الملكات أو الحفاظ عليها أو زيادتها من الامور الواضحة.

٣ ـ إنّ مطلوب تلك الذوات المقدّسة من المعنى التشريفي هو ما طلبته تلك الذوات لذريّتها أيضاً؛ إذ بحصول هذا النوع من الفيوضات العظيمة، فإنّ قبول جميع الامور الالهية سيكون أمرا هينا.

٤ ـ إنّ استجابة هذا النوع من الدعوات الصادرة من روح راقية وقلب سام، كما تتطلّب المكان المناسب الخاصّ ـ يعني: الحرم الالهي ـ فإنّها تتطلب الزمان المناسب الخاصّ، وهو الانشغال بعبادة رفع قواعد القبلة ومطاف العابدين والزائرين والوافدين عليه تعالى وضيوفه، كما أنّها تتطلّب ـ من ناحية ثالثة ـ تعميم الدعاء وعدم حصره بالنفس.

### مراتب الاسلام

الإسلام بمعنى الدين لا الفعل القلبيّ والقالبيّ للانسان، هو الدين عينه وليس أمرا منفصلا عنه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الاسلام﴾[2]، وللدين مراتب، من قبيل الظاهر، والباطن، وباطن الباطن، وهذه المراتب الطولية يمكن تصوّرها في الاسلام أيضاً، بل هي أمر محقّق.

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٣١.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٩.

وأمّا الاسلام بمعنى الفعل الجوانحي والجوارحي للانسان، فله مراتب أيضاً، أدناها الاقرار بالتوحيد والاعتراف به وبالمعاد والنبوّة.

الآثار الفقهية للاسلام، من قبيل حرمة النفس والمال، وجواز النكاح، والطهارة الظاهرية وأمثالها، تترتّب على هكذا مرتبة، وفي هذه المرحلة، يمكن ألّا يكون الاسلام قد تغلغل إلى روح المسلم وقلبه بحيث يمكن إطلاق صفة الايمان عليه، كما هي الحال في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتْ الاعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الايمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1].

المرتبة العليا للاسلام هي مرتبة الانقياد والتسليم التامّين، وبين تلك المرتبة الدنيا وهذه المرتبة العليا يمكن تصوّر مراحل متعددة.

الاسلام الواقعي والايمان أمر واحد: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الاسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[2]، والاتحاد بين الاثنين حقيقة يمكن التوصّل إليها نتيجة الجمع بين الآيتين الشريفتين في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾[3]؛ إذ عندما كان المسلمون هم أولئك المؤمنين، فإنّ النتيجة هي: أنّ الاسلام هو الايمان عينه وليس أمرا آخر.

والمتيقّن هو أن الاسلام الّذي ينشده حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في الدعاء السابق الذكر ليس هو المرتبة الدنيا من الاسلام، كما أنّ المرحلة الثانية منه ـ أي: الايمان ـ ليست هي المنشودة أيضاً؛ إذ إنّ النبيّين كانا بنفسيهما مُبَلّغي ذلك الايمان ومُعَلّمَيْه، يشهد بذلك أيضاً ما جاء عن حضرة إبراهيم عليه السلام في أوائل

١ . سورة الحجرات، الآية ١٤.
٢ . سورة آل عمران، الآية ٨٥.
٣ . سورة الذاريات، الآيات ٣٥ ـ ٣٦.



دعوته بعد الاحتجاج مع الناس، وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالارْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

إنّ الاسلام الّذي طلبه حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لهما ولبعض ذريّتهما منه تعالى، هو تلك المرتبة العالية من العبودية والانقياد[2]، وهو التسليم والانقياد التامّان، يشهد بذلك تعبير «لك» الدالّ على الاختصاص.

وأمّا مقام التسليم، فهو عبارة عن الانقياد والتسليم المحضين من قبل السالك الصالح في حضرة الحقّ سبحانه وتعالى، وعدم إعطاء سلطان القلب إلا لذكره ورحمته تعالى.

وبالتوجه إلى المعنى السابق، يمكن القول بأنّ طلب مقام التسليم في الواقع، هو طلب القلب السليم؛ إذ إنّ معنى القلب السليم هو القلب المسلّم المنقاد والمطيع، مع خصوصية عدم سلطان لأيّ شيء على قلب السالك إلى ذكر الحقّ ورحمته، فيكون القلب حينئذ متّسقا في حركته: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالارْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾[3].

والسبب من وراء التسليم القلب، هو أن القلب محور جميع أعمال الانسان، وقلب المؤمن الّذي هو بين إصبعين من أصابع الرحمان المنزّه عن اليد والاصابع في معرض التحول دائما[4]، وهذا ما يفسّر كون طلب القلب السليم الدعاء الافضل بين يديه تعالى.

على أساس الحقائق السابقة، يكون قوله تعالى في الآية الشريفة: ﴿إِذْ جَاءَ

---

١ . سورة الأنعام، الآية ٧٩.

٢ . الميزان، ج١، ص٢٨٢.

٣ . سورة آل عمران، الآية ٨٣.

٤ . بحار الانوار، ج٦٧، ص٥٣.




رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١] شاهدا على استجابة دعاء حضرة إبراهيم عليه السلام، وهو ما كان له بركاته الكثيرة في المواقف الحسّاسة المختلفة التي مر بها خليل الرحمان عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام، كالموقف الّذي مرّا به حين أمر إبراهيم بذبح فلذة كبده حضرة إسماعيل عليه السلام فداء، فقد سلّما أمرهما حين الامتحان التسليم التامّ الكامل للامر الالهي: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾[٢].

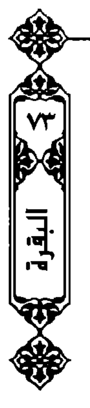
إن امتحانات من هذا القبيل، لهي اللذّة بعينها لمن نال مقام التسليم الرفيع فكان ذا قلب سليم وليست من الالام أو الصعاب؛ إذ تكون جميع الاشياء والاشخاص في هذه الرتبة مِلكا حقيقيا له تعالى، فهو سبحانه وتعالى المالك الواقعي الحقيقي لها، وله عليها تمام السلطنة الواقعية، والسالك الواصل كما يصل إلى هذه الحقائق، فإنّه يراها رأي العين أيضاً، فيرى نفسه حينئذ أمينة الله الّتي تجدّ في حفظ الامانة، وتلتذّ بممارسة ذلك أيّما لذّة.

## نيل بني إبراهيم عليه السلام المعنويّين مقام التسليم

لقد دعا حضرة إبراهيم عليه السلام ـ وهو الّذي كان يشغله مصير نسله وما سيكون عليه في المستقبل ـ في الجزء الثاني من هذا الدعاء لبنيه وذريّته أيضاً، طالبا منه تعالى نيلهم مقام التسليم والانقياد والانقطاع الكامل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

١ . سورة الصافّات، الآية ٨٤.

٢ . سورة الصافّات، الآيات ١٠٢ ـ ١٠٦.



ولمّا كانت كلمة «مِن» تفيد التبعيض، فإنّ المستفاد من قوله: «من ذرّيّتنا»، هو أنّ بعض ذريّة حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هي التي ستصل إلى هذه الرتبة العالية والمقام المرموق لا جميعها.

وأمّا السرّ في تخصيص الدعاء في المقام بالذريّة، فعدّة أمور، منها:

١ ـ الميل الطبيعي لأيّ إنسان نحو صلاح وفلاح أبنائه المباشرين أو غير المباشرين وعلاقته الفطرية معهم.

٢ ـ الامر الالهي الخاصّ الوارد في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾**[1]، ولهذا، فإنّ دعاء عباد الرحمان الخاصين هو: **﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾**[2]، كما أنّ حضرة زكريا عندما طلب أصل الولد، فقد طلب إلى جانبه طيبه وطهارته: **﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾**[3]، وعلى هذا الاساس، فإنّ المحور الاصلي والظهور اللفظي هو اختصاص الدعاء بالذريّة الطبيعية والنسل البدني للنبيّين عليهما السلام، إلا أن تنقيح المناط، وتعميم الملاك، وسعة تأثير ونفوذ القادة المعنويّين الالهيّين، كلّها أمور تقتضي أن كلّ من يقرّ بقيادتهم حقيقة، ويكون تابعا واقعيا لهم في عقائد الجوانح وأعمال الجوارح، فإنّه سيحسب ـ لا جرم ـ من ذريّتهم، فيناله بركات دعائهما عليهما السلام، كما نقل عن الذوات القدسية أنفسها طبق قوله تعالى: **﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾**[4]، وقوله تعالى: **﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا**

---

١ . سورة التحريم، الآية ٦.

٢ . سورة الفرقان، الآية ٧٤.

٣ . سورة آل عمران، الآية ٣٨.

٤ . سورة إبراهيم، الآية ٣٦.

النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، كما نقل قولهم عليهم السلام: «سلمان منّا أهل البيت»[2] وهذا ما نقل بحق عدد آخر من الرجال والنساء[3].

والنتيجة: أنّ احتمال توسيع دائرة الدعاء السابق الذكر ليكون شاملا للذريّة المعنوية للنبيّين الكريمين عليهما السلام في المقام، ولو بنحو التشويق والترغيب، أمر لا يعد بعيدا.

وعلى هذا الاساس، فإنّ نيل الكمال المزبور، والوصول إلى مقام التسليم والانقياد والانقطاع الكامل، لا يختصّ بذريّة إبراهيم خليل الرحمان أو بالمعصومين عليهم السلام، بل الصحيح أنّه يمكن لغيرهم عليهم السلام الوصول إلى تلك المرتبة، والمسير على طريق تحصيلها.

ما يؤيّد النتيجة السابقة، هو تقديم حضرة إبراهيم خليل الرحمان من قبله تعالى على أنّه أب لجميع المسلمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[4].

وبملاحظة عامل النصب المقدّر لكلمة «ملّة»، يعني: «خذوا»، وأمثالها، فإنّ من البديهي أنّ افتخار نوال منصب بنوّة حضرة إبراهيم عليه السلام، إنّما سيكون من نصيب كلّ من يخطو في طريق شريعته وتحت ظلّ الاهداف التي يسعى عليه السلام لتحقيقها، فهؤلاء سيكونون مشمولين بدعاء خليل الرحمان عليه السلام.

## طلب تعيين المناسك

يشترك جميع الانبياء عليهم السلام في الخطوط العامّة للدين الّذي يبلغون له، وأمّا

١. سورة آل عمران، الآية ٦٨.

٢. بحار الانوار، ج١٠، ص١٢٣.

٣. راجع: بحار الانوار، ج٤٧، ص٣٠٩ و ٣٤٩، و ج٧٣، ص٧٦.

٤. سورة الحجّ، الآية ٧٨.




الاختلاف، فهو في الفروع والجزئيات لا غير؛ إذ لكلّ قوم طريق وأسلوب ونظام خاص في العبادة، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً﴾[1]، وقال عزّ من قائل ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[2].

ومن هذا الباب، نرى دعاء حضرة إبراهيم عليه السلام حين الانشغال بإعادة بناء الكعبة في ما يرجع إلى بيان كيفية العبادة في ذلك البيت: ﴿أَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، إذ إنّه سبحانه وتعالى قد جعل لكلّ عبادة اجزاء، وشرائط، وموانع، ومقارنات، ومقدّمات ومؤخّرات، يجب بيانها كلّها من قبله تعالى من حيث الفرض والنفل والادب.

ومما يجدر التنبيه عليه هنا، هو أنّ طلب الاراءة أمر يختلف عن طلب التعليم والتعلّم، ومن هنا، نرى أن النبيّين العظيمين عليهما السلام لم يقولا: «علّمنا مناسكنا»، وإن كانت الاراءة تعني التعليم الوحياني في بعض الاحيان، من قبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾[3].

وتوضيح المطلب:

إنّ الله سبحانه وتعالى قد يقوم بإعلام الحكم والقانون لرسوله عن طريق الوحي، كما في قوله تعالى: ﴿أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾[4]، كما يقوم أحيانا بالامر بالتبليغ، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾[5]، كما أنّه يلقي أحيانا القيام

---

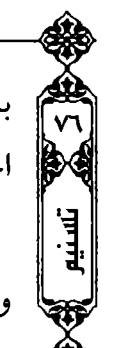
١ . سورة الحجّ، الآية ٦٧.

٢ . سورة المائدة، الآية ٤٨.

٣ . سورة النساء، الآية ١٠٥.

٤ . سورة الاسراء، الآيات ٧٨ ـ ٧٩.

٥ . سورة المائدة، الآية ٦٧.




بالاعمال المناسبة واللائقة وفعلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾[1].

إنّ إضافة المصدر «فِعْل» في الآية الشريفة الاخيرة إلى الجمع المحلّى بالالف واللام «الخيرات» الدالّ على الاستغراق ـ خلافا للقسمين السابقين ـ تعتبر إشارة إلى التحقّق الخارجي.

القسم الاخر هو التنزّل العينيّ للعمل، فمناسك الحجّ الخاصّة، من قبيل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾[2] وكذا الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾[3]، بل تحقّق من خلال التجسّد الخارجي والصورة العملية والانزال العينيّ لذلك.

الشاهد على المدعى السابق، هو ما ورد من قول النبيّين العظيمين: «أرنا مناسكنا»؛ فإنّ الاراءة هنا ليس المقصود منها هو التعليم المفهوميّ والعلم الحصولي ليكون طريق الذهن إلى ذلك هو التصوّر والتصديق، بل المقصود هو الاشهاد والاراءة الخارجية، كما جاء في الآية الشريفة: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْموقِنِينَ﴾[4]، فالتعبير «نري» ـ وهو الفعل المضارع وعلامة الاستمرار ـ يعكس هذه النكتة، وهي تمتّعه عليه السلام دائما بفيض مشاهدة الملكوت وباطن العالم، وأنه عليه السلام كان ينظم الكثير من الامور ويحلّ الكثير من المشاكل عن طريق الشهود العيني.

وبعد طلب الاراءة العينيّة للمناسك، حضر جبرائيل عليه السلام بين يدي النبيّين

---

١ . سورة الانبياء، الآية ٧٣.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٩٩.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٨٣.

٤ . سورة الأنعام، الآية ٧٥.




العظيمين عليهما السلام، ليقوم أمامهما بممارسة أعمال الحجّ، من الطواف والسعي والوقوفين و... فأخذا يكرّران معه تلك الاعمال[١].

## طلب التوبة

لا تستعمل كلمة «التّوبة» في الرجوع عن الذنب دائما، كما أنّه لا ملازمة بين طلبها وسبق الذنب من الطالب، بل تدلّ التوبة في الكثير من الموارد على طلب اللطف والعناية الالهية والتنبّه، كما يستعمل سبحانه وتعالى الفعل «تاب» في الدلالة على شمول اللطف الالهي بالمؤمنين في قوله عزّ من قائل: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إنّه بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

إنّ طلب التوبة من قبل النبيّين المعصومين حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بقولهما: ﴿تُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، ناظر إلى هذا النوع من التوبة أيضاً؛ إذ من الواضح أنّ طلب التوبة من الذنب من قبل المعصوم الّذي لا يجوز بحقه العصيان والنسيان لا يمكن أن يتصوّر، فالمراد من طلب التوبة في المقام رفع الدرجات وبذل العناية الخاصّة منه تعالى بحق المعصوم عليه السلام.

والخلاصة: أنّ توبة المخلوق إنّما تحكي رجوعه عن القصور إلى الكمال، أو من الفتور إلى القوّة، وما شابه ذلك، الامر الّذي قد يكون منشؤه العصيان مرّة، والنسيان مرّة أخرى، كما أنّها قد تعكس صرف الفقر الذاتي للتائب.

وأمّا توبة الخالق، فهي تحكي رجوع اللطف والعطف والعناية وما شابه هذه الامور، وهي قد تكون إبتدائية أحيانا فلا تكون مسبوقة بتوبة المخلوق، كما أنّها قد تكون من جهة الثواب بحيث تكون مسبوقة بتوبة المخلوق أحيانا أخرى.

---

١. الكافي، ج٤، ص٢٠٢ ـ ٢٠٨.

٢. سورة التوبة، الآية ١١٧.

تنبيه: الاستفادة من اسمي «التوّاب» و«الرحيم» حين الدعاء، إنّما هو من جهة طلب استمرار إفاضة الرحمة على الداعي، أو طلب مزيد اللطف به أو ببنيه، ولما كان «التوّاب» قد ذكر مقارنا لوصف «الرحيم»، فإنّه يستدعي أمرين:

الأوّل: القبول القطعي للدعاء؛ إذ إنّ المبدأ الرحيم لا يمكن أن ينقطع عن الرحمة وفيضها في أيّ وقت من الاوقات.

الثاني: أن يكون قبول التوبة من باب الرحمة والفضل لا من باب العدل والحكم القطعي.

وبعبارة أخرى: يقبل سبحانه وتعالى توبة واجد الشرائط على نحو القطع واليقين، لا إنّه يجب أن يقبلها على نحو القطع واليقين.

إنّ صفة «التوّاب» في هذا الجزء من الآية، تشمل نوعي توبته سبحانه وتعالى على العبد، أي: ما كان مسبوقا منها بالتوبة من العبد، وما لم يكن كذلك.

## إشارات ولطائف

### ١ ـ التسليم والتفويض المحضان

يعتبر مقام التسليم أعلى رتبة من مقامي التوكّل والرضا، فالتوكّل من الفضائل الاخلاقية، إلا إنّه من المراحل الوسطية الواقعة في طريق تكامل السالك.

وفي هذه المرحلة ـ أعني: مرحلة التوكّل ـ يجعل الانسان ـ وهو صاحب الطلبات العديدة، والتي يعلم إنّه حتّى في صورة تمتعه بجميع أسباب ووسائل تحقق تلك الطلبات المعروفة، فإنّه لن يوفق في الوصول إليها جميعا بسبب عدم اطّلاعه على جميع الاسباب وجهله بها، وحتى لو وفّق لذلك، فإنّه لن يوفّق في الحفاظ عليها ـ يجعل الله سبحانه ـ وهو العليم الصرف والقدير المحض ـ وكيلا مدافعا عنه في الوصول إلى تلك الطلبات.




وأمّا في المقام الاعلى ـ أي: مقام الرضا ـ فالكلام هناك عن أن رضا الانسان السالك إنّما هو برضاه سبحانه وتعالى، كما أنّ كون الانسان راضيا متفرّع على وقوف الانسان على طبع نفسه وميلها وتشخيص ذلك؛ إذ بعد تشخيص الانسان لكون أمر مّا موافقا لطبعه، يخاطب ربه قائلا: «رضاي بذاك الّذي ترضى به».

وأمّا مقام التسليم، فالسالك فيه ـ بسبب احساس الذلّة الّذي يمرّ به حالة حضوره بين يدي الربّ تبارك وتعالى ـ لا يرى نفسه أبدا: «ما أنا يا ربّ، وما خطري؟!»[1] لكي يكون له طلب من الطلبات، أو ليقول مثلا: «قبلت بما قبل به ربي».

مقام التسليم مقام التفويض المحض، وهو المقام الاعلى من مقام الرضا، وهو مقام متّسق تمام الاتّساق مع كمال التوحيد؛ فإنّ الوحدة الالهية القاهرة لا تبقي أيّ مجال للكثرة.

## ٢ ـ توبة العبد بين توبتي الله تعالى

في كلّ توبة يكون البدء بشمول العبد الخاطئ أو القاصر بلطف الحقّ سبحانه وتعالى. فينبهه إلى قبح اعماله أو القصور الذاتي الّذي يعاني منه ذلك العبد.

عند ذاك ـ على أثر تنبه العبد وصحوته من غفلته ـ يرجع العبد نحو ربه، فيتوب عما بدر منه من تقصير أو قصور أو فتور.

بعد ذلك، تشمل هذا العبد التائب عنايته سبحانه وتعالى مرّة ثانية فيقبل منه توبته.

---

١ . **مصباح المتهجّد**، ص٥٨٢؛ **مفاتيح الجنان**، دعاء أبي حمزة الثمالي.

بناء على ما سبق، فإنّ كلّ توبة تصدر من الانسان، فهي محفوفة بتوبتين منه تعالى.

على أساس ما مضى، يتضح أن لحقيقة التوبة التي تعني الرجوع والعودة ثلاث مراحل مترتبة بعضها على البعض الآخر:

الأولى: التوبة من الله على العبد.

وتعتبر هذه التوبة المنبّهة للعبد والباعثة له على يقظته من غفلته؛ ولمّا كانت الإنابة والتوجّه نعمة، وكان منعم كلّ نعمة هو الله تعالى: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ**﴾[١]، فإنّ هذه التوبة تعتبر نعمة من الله على عبده.

الثانية: التوبة من العبد باتّجاه ربه.

وتتجلّى هذه التوبة في إظهار العبد الندم ممّا بدر منه من المعصية أو القصور الذاتي.

الثالثة: التوبة من الله سبحانه وتعالى باتّجاه العبد.

وهذه توبة منه سبحانه وتعالى بأن رأى العبد بين يديه، فيقبل ما وقع منه من التوبة من التقصير أو القصور.

وممّا يجدر التنبيه عليه هنا، هو أنّ قبول التوبة منه تعالى تكون عادة مترافقة مع العفو والتسامح منه عزّ وجلّ؛ حيث يقول عزّ من قائل: ﴿**هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**﴾[٢]، ولفظ «عن» هنا إشارة إلى ما يقع من التجاوز والتسامح منه تعالى، فهناك فرق أدبي بين ﴿**يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[٣]، و﴿**يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**﴾، بمعنى: أنّه إذا لم يكن التائب جامعا لجميع شرائط التوبة، بأن كانت توبته فاقدة

---

١ . سورة النحل، الآية ٥٣.

٢ . سورة التوبة، الآية ١٠٤.

٣ . سورة المائدة، الآية ٢٧.



لبعض ما يلزم توفّره في التوبة، فإنّه تعالى يغضّ الطرف عن ذلك، مكتفيا بما كان موجودا.

وأمّا النقطة الاخرى التي يجدر التنبيه عليها هنا، فهي أنّه مع التوجّه إلى دوام فيضه تعالى على العباد، فإنّ الانسان مشمول بعنايته تعالى على الدوام، ولكن، لو لم يستفد الانسان من الفيض الالهي المستمرّ السابق، فترك ذلك الفيض متعمدا، فخسر التوفيق إلى التوبة، فإنّ أبواب رحمة الله سوف لن تفتح أمامه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾**[1]، والمراد من أبواب السماء طبعا هو أبواب سماء المعرفة والمعنويات والغيب الالهي، لا أبواب سماء الشهادة والمادّة لكي يمكن للكافرين الوصول إليها بما صنعوا من سفن.

## البحث الروائي

### ١ ـ أمّة حضرة محمّد ﷺ

عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن أمّة محمّد ﷺ من هم؟ قال: **«أمّة محمّد، بنوهاشم خاصّة»**. قلت: فما الحجّة في أمّة محمّد أنّهم أهل بيته الّذين ذكرتَ دون غيرهم؟ قال: **«قول الله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، فلمّا أجاب الله إبراهيم وإسماعيل وجعل من ذرّيتهما أمّة مسلمة وبعث فيها رسولاً منها، يعني: من تلك الامّة، يتلو عليهم آياته**

---

١ . سورة الاعراف، الآية ٤٠.

ويُـزَكّيهم ويعلّمهـم الكتـاب والحكمـة، ردف إبـراهيم دعوتـه الاولى بدعوتـه الاخرى، فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومـن عبـادة الاصـنام ليصـحّ أمـره فـيهم ولايتّبعوا غيرهم، فقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الاصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُـنَّ أَضْـلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فإنّه مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُـورٌ رَحِـيمٌ﴾[1]، فهـذه دلالة على أنّه لا تكون الائمّة والأمّة المسلمة الّتي بعث فيهـا محمّـد ﷺ ألا مـن ذرّية إبراهيم؛ لقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الاصْنَامَ﴾»[2].

إشارات: أ ـ رسالة حضرة خاتم الرسل ﷺ رسالة عالمية تعـمّ الجميـع في جميع الازمان، إلى أن يرث الله الارض ومن عليها.

ولو نظرنا إلى الرسـالة المحمدية، وهـي تضـمّ سـلمان الفـارسي، وصـهيبا الرومي، وبلالا الحبشي و... ممن يعتبر من أبرز المصدّقين للرسول والمؤمنين بـه، لرأينا أنّها لا يمكن إلا أن تكون عالمية لا تقف عند حدود قومية خاصّة من قبيل العرب، ناهيك عن وقوفها عند قبيلة خاصّة هى قبيلة بني هاشم.

ب ـ مؤمنو بني هاشم كلّهم من الامّة الاسلامية وليس العكـس بصـحيح، فليس كلّ من كان من الأمّة الاسلامية فهو من بني هاشم.

ج ـ الخلفاء المعصومون لنبيّنا ﷺ، أعني: الأئمة الاثني عشر عليهم السلام، وهـم أئمة الاسلام وقادة الامّة الاسلامية الواقعيون، كلهـم مـن بنـي هاشـم لا مـن غيرهم.

## ٢ ـ إراءة المناسك

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أمر الله عزّ وجلّ إبـراهيم عليه السلام أن يحـجّ ويحـجّ

١ . سورة إبراهيم، الآيات ٣٥ ـ ٣٦.
٢ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٠ ـ ٦١.



إسماعيل معه ويسكنه الحرم، فحجّا على جَمَل أحمر وما معهما إلا جبرئيل عليه السلام، فلمّا بلغا الحرم قال له جبرئيل: يا إبراهيم، إنزلا فاغتسلا قبل أن تدخلا الحرم، فنزلا فاغتسلا، وأراهما كيف يتهيّئان للاحرام ففعلا.

ثمّ أمرهما فأهلّا بالحجّ، وأمرهما بالتلبيات الاربع التي لبّى بها المرسلون. ثمّ صار بهما إلى الصفا، فنزلا، وقام جبرئيل بينهما، واستقبل البيت، فكبّر الله وكبّرا، وهلّل الله وهلّلا، وحمد الله وحمدا، ومجّد الله ومجّدا، وأثنى عليه وفعلا مثل ذلك، وتقدّم جبرئيل وتقدّما يثنيان على الله عزّ وجلّ ويمجّدانه، حتّى انتهى بهما إلى موضع الحجر، فاستلم جبرئيل وأمرهما أن يستلما، وطاف بهما أُسبوعاً.

ثمّ قام بهما في موضع مقام إبراهيم عليه السلام فصلّى ركعتين وصلّيا. ثمّ أراهما المناسك وما يعملان به»[1].

- عن أبي بصير أنّه سمع أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام يذكران أنّه «لمّا كان يوم التروية قال جبرئيل لإبراهيم عليه السلام: تروّ من الماء، فسمّيت التروية، ثمّ أتى منى فأباته بها، ثمّ غدا به إلى عرفات، فضرب خباه بنمرة دون عرفة، فبنى مسجداً بأحجارٍ بيض، وكان يعرف أثر مسجد إبراهيم حتّى أدخل في هذا المسجد الّذي بنمرة حيث يصلّي الإمام يوم عرفة فصلّى بها الظهر والعصر، ثمّ عمد به إلى عرفات، فقال: هذه عرفات، فاعرف بها مناسكك واعترف بذنبك، فسمّي عرفات، ثمّ أفاض إلى المزدلفة فسمّيت المزدلفة لأنّه ازدلف إليها، ثمّ قام على المشعر الحرام، فأمره الله أن يذبح ابنه، وقد رأى فيه شمائله وخلائقه وأنس ما كان إليه، فلمّا أصبح أفاض من المشعر إلى منى، فقال لأمّه: زوري البيت أنت، واحتبس الغلام، فقال: يا بنيّ، هات الحمار والسكّين حتّى أقرّب القربان...»[2].

---

١ . الكافي، ج٤، ص٢٠٢ ـ ٢٠٣.

٢ . المصدر السابق، ص٢٠٧.

**إشارتان: أ ـ** إراءة المعارف والاحكام تكون بمعنى التعليم الوحياني أحيانا، من قبيل ما يحصل بالعلم الشهودي لحضرة الرسول ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿**لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ**﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾[٢].

كما أنّ تلك الاراءة قد تكون عن طريق الرؤيا الصادقة التي يراها الرسول الكريم أحيانا أخرى، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ**﴾[٣]، كما أنّها تحصل عن طريق التحقق العيني أحيانا أخرى، كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى**﴾[٤]، وأحيانا عن طريق التحقّق المثالي والتمثّل الخارجي، كما في الرواية الواردة في تفسير ذيل الآية الّتي هي محلّ البحث.

وما وقع لحضرة الخليل وحضرة الذبيح عليهما السلام في الارض بالنسبة إلى كيفية مناسك الحجّ، هو ما وقع بالنسبة إلى حضرة نبيّنا الخاتم ﷺ بالنسبة إلى كيفية الصّلوات الخمس في المعراج، وهو ما كان من جنس التمثّل الخارجي والتحقق المثالي؛ إذ قد وقع تلقين كيفية صلاة الظهر والعصر ليلا في غير وقت الصلاتين.

ب ـ كان إعادة بناء الكعبة، وإراءة مناسك الحجّ، وأذان إبراهيم عليه السلام بالحج، وإعلامه لامتثال الحج، كلّ ذلك كان قد وقع في شهر ذي الحجة[٥].

* * *

١ . سورة النساء، الآية ١٠٥ .

٢ . سورة النجم، الآية ١١ .

٣ . سورة الاسراء، الآية ٦٠ .

٤ . سورة البقرة، الآية ٢٦٠ .

٥ . كشف الاسرار، ج١، ص٣٦١ .

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾

## التفسير المختار

تأسيس الامّة الاسلامية وتشكيل النظام الاسلامي، يحتاج إلى تأمين مركز ديني عبادي عامّ من جهة، والاستفادة الصحيحة من ذلك المركز تحت ظلّ توجيهات القادة الالهيين من جهة أخرى.

تأسيس وتشكيل مركز من هذا النوع الرفيع والمنيع، يحتاج بدوره إلى توصيف ممتاز للعزّة التي لا تقبل النفاد، والحكمة المصونة من أيّ عيب، وهو ما أشارت الآية الشريفة في أواخرها.

وقد قام حضرة إبراهيم عليه السلام ـ بصفته مبدأ ظهور الامّة الاسلامية وأبا للمسلمين ـ بالجزء الاوّل مما كان تحت قدرته واستطاعته وقدرة ابنه إسماعيل عليه السلام من العمل تحت عنايته سبحانه وتعالى، وأمّا الجزء الثاني، فهو ما دعا به هو وابنه عليهما السلام الله لكي يتحقق، بأمل أن تكون ذريّته عند المستوى المطلوب فتكون أهلا لإرسال رسول من قبله تعالى لهم من جهة، ولكي يتعالوا هم بأنفسهم فيكونوا بأنفسهم مؤهّلين لنيل مقام الرسالة.

وقد استجاب سبحانه وتعالى للدعاء، فمنح آل إبراهيم الكتاب والحكمة، وبعث نبيّنا محمّدا صلى الله عليه وآله ـ وهو النموذج الامثل، والمصداق الافضل لما دعا به النبيان العظيمان عليهما السلام ـ نبيّا هاديا معلما، فكانت برامجه العلمية في مجال بيان

الاحكام والمعارف الالهية من أبرز مصاديق تعليم الكتاب والحكمة، كما أنّ برامجه العملية ﷺ ـ التي هي طريق تطهير المجتمع الاسلامي ممّا فيه مما لوثه من رذائل ـ من أبرز مصاديق التزكية التي دعا بها النبيّان العظيمان عليهما السلام.

وكما أنّ الحكمة الالهية ـ يعني: المعارف العقلية ـ والمسائل الاخلاقية والاحكام الفقهية والقانونية مما لا يمكن الوصول إليه بمجّرد الدراسة والبحث؛ لتوقّفها في الاساس على إفاضة خاصّة منه تعالى، فكذلك تزكية النفس ـ يعني: التحرّر من الرذائل ـ والوصول إلى الفضائل، أمر لا يمكن أن يتحقّق بمجرد التدريس والتعليم، بل هو أمر متوقّف في الاساس على إفاضة خاصّة منه تعالى أيضاً.

وأمّا ذكر التلاوة والتعليم والتزكية بالفعل المضارع، فهو بالإضافة على أنّه يقتضي استمرار الوحي ودوامه إلى يوم القيامة، فإنّه إشارة إلى أن ممارسة التلاوة التي هي لغرض التعليم، وممارسة التعليم الّتي هي لغرض التزكية، يجب ألّا تنقطع بل تكون مستمرة، لتكون المحرّرة من وسوسة إبليس المستمرة، وليكون دوام التزكية واستمرارها الكابح للنفس الأمّارة، فهذه الثلاثة، أعني: التلاوة والتعليم والتزكية مناسبة للأُمّة، كما أنّ القائد الديني ينبغي أن يجعلها محور عمله وبرامجه الارشادية، فإنَ الامّة الاسلامية يجب أن تكون المتعلّمة والمتلقّية لها.

والتعليم مقدّمة التزكية ومن مبادئها القابلية، وتقديمه على التزكية في الآية الشريفة، إنّما هو من باب التقدّم الطبيعي للمقدّمة على ذيها، كما أنّ التعليم إذا نظرنا إليه من زاوية كونه علّة غائية، فهو مقدّم على التزكية كما هو واضح[1].

---

١ . سيأتي مزيد توضيح لتقدّم وتأخّر كلّ من التزكية والتعليم على الآخر في الابحاث التالية من هذا الجزء إن شاء الله تعالى. (المترجم).





## تفسير المفردات

**إبعث**: أصل هذا اللفظ هو «البعث» بمعنى: إثارة الشيء وتوجيهه وتحريكه من محله، أو تحريض شخص مّا لأداء مسؤوليته، وأمّا معاني: «الارسال»، و«الايصال» و... فهي من الاستعمالات المجازية للكلمة التي وردت في القرآن الكريم في مواضع مختلفة، من قبيل إرسال الانبياء لتبليغ الدّين كما في قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**﴾[1]، وإخراج الموتى للحساب والثواب كما في قوله تعالى: ﴿**مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا**﴾[2]، وإعلاء المقام كما في قوله تعالى: ﴿**عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً**﴾[3]، والايقاض من النوم كما في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً**﴾[4]، وإرسال أنواع العذاب الارضي والسمائي كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أو مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**﴾[5].

واختيار هذه اللفظة دون غيرها من الالفاظ في المقام، إنّما هو لإضفاء جوّ لطافة الشروع والنشوء والايجاد، خلافا لعنوان «الارسال» أو «التوجيه» الناظرين إلى مرحلة ما بعد الحدوث، وخلافا للفظ «الايصال» الناظر إلى انتهاء السير[6].

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢١٣.

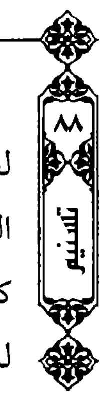
٢ . سورة يس، الآية ٥٢.

٣ . سورة الاسراء، الآية ٧٩.

٤ . سورة الأنعام، الآية ٦٠.

٥ . سورة الأنعام، الآية ٦٥.

٦ . **التحقيق**، ج١، ص٢٧٨، «ب ع ث».


كما أنّه يجب الالتفات إلى أن عنوان «البعث» يحكي عن مبدأ قابلي خلافا لعنوان «الارسال» الّذي يحكي عن مبدأ فاعلي؛ فإنّ هذا العنوان الاخير يفهم أن الرسول يقبل من عند المرسِل، وأمّا عنوان «البعث»، فإنّه يدل على أن المبعوث كان بين الامّة لا خارجا عنها، وبناء على ذلك، فإنّه يمكن فهم الصبغة الالهية للرسالة من عنوان «الارسال»، بينما يمكن فهم الصبغة البشرية من عنوان «البعث».

**الحكمة:** الحكم والالفاظ المشتركة معه في الاصل بمعنى المنع.

و«حَكَمة الدابّة»: لجام الحيوان الّذي يمنعه من الجموح ويجعلها مروضة.

وحكم القاضي: رأيه القطعي المانع من النزاع والظلم.

والحكمة في الانسان: العلم الّذي يمنع صاحبه من الجهل[1].

**يزكّيهم:** أصل التزكية من «زكو» بمعنى النّماء والزيادة، كما في قولهم: زكا الزرعُ، أي: نما.

والزكاة: إسم مصدر من التزكية، وهو المقدار المخرج من المال إلى بيت المال بأمر منه تعالى، سمّي بذلك لأنّه يرجى به الزكاة والزيادة والنماء[2].

وذكر بعض المحققين في اللغة، أن الاصل الواحد في التزكية هو تنحية ما ليس بحقّ وإخراجه عن الاصل السالم، وذلك كإزالة رذائل الصفات عن القلب، وتنحية الاعمال السيّئة عن برنامج الحياة الانسانية، وإخراج حقوق الناس عن المال، وتنحية ما كان ملحقا من الباطل والفساد عن المتن الصحيح.

وذكر أيضاً أن الفرق بين التطهير والتزكية والتهذيب: أن النظر في التطهير إلى جهة حصول الطهارة في قبال الرجس، وفي التزكية إلى جهة تنحية ما يلزم

---

١ . المفردات، ص٢٤٨؛ **معجم مقاييس اللغة**، ج٢، ص٩١؛ **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص١٨٢.

٢ . المصباح، ٢٥٤؛ المفردات، ص٣٨٠ ـ ٣٨١، «ز ك ا».



تنحيته وإخراجه. وفي التهذيب إلى جهة حصول الصلاح والخلوص.

وأمّا مفاهيم النماء والزيادة والصلاح والطهارة والبركة واللياقة، فمن لوازم الاصل وآثاره، وليست من الاصل حقيقة[1].

ولكن، وكما ذكر اللغويون منذ القدم، الزكاة والتزكية بمعنى النموّ والزيادة، وتطهير كلّ شيء قابل للزيادة المادية أو المعنوية من العناصر الملوّثة والمانعة من النمو، من جملة أهم أسباب النمو والزيادة، من قبيل تطهير القلب من الرذائل الاخلاقية، والنفس من تلوّث الشرك، والروح والمال بواسطة إخراج الزكاة والحقوق المالية، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[2].

**العزيز:** العزّة في الاصل الصلابة والشدّة والمنعة، وضدها: الذلّة، وهي الخضوع والاستكانة. وقد أخذت هذه اللفظة من «الارض العَزاز»، وهي الارض الصُّلْبة الشديدة.

وفي احقيقة: تطلق «العزّة» على الحالة التي تعرض الانسان فتمنع من غلبة العدو ونفوذه[3].

ووصف «العزّة» الّذي وصف به سبحانه في القرآن أكثر من تسعين مرّة، هو بمعنى أنّه سبحانه وتعالى هو القاهر على الدوام الّذي لا يقهر، وحقيقة «العزّة» ـ شأنها شأن سائر الاسماء الحسنى ـ من مختصات ذاته القدسية تبارك وتعالى[4].

❋ ❋ ❋

---

١ . **التحقيق في كلمات القرآن الكريم**، ج٤، ص٣٣٧، «ز ك و».

٢ . **سورة التوبة**، الآية ١٠٣.

٣ . **المفردات**، ص٥٦٤، «ع ز ز».

٤ . راجع للمزيد تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ (فاطر: من الآية ١٠).




## الهيكلية المتكاملة للنظام الاسلامي

ومن جملة ما قام به حضرة إبراهيم عليه السلام بصفته أبا لجميع المسلمين[١]، وذلك بالتنسيق مع ابنه حضرة إسماعيل عليه السلام، وفي صورة برنامج متكامل، هو تهيئة مجموعة العناصر المكوّنة للهيكلية المتكاملة للنظام الاسلامي، أو طلب تأمين تلك العناصر منه تعالى؛ فإنّ من يرغب في أن يكون الاساس في تشكيل أمّة اسلامية لكي ينال ما طلبه منه تعالى في بقاء ذكره العطر على طول الزمان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الاخِرِينَ﴾[٢]، يلزمه أن يؤسّس المراكز الدينية والعبادية العامّة من جهة، كما أنّه يلزمه أن يدعو الله تعالى لكي يبعث في ذريّته وأمّته قادة إلهيين منهم لغرض إصلاحهم.

وقد بيّن حضرة إبراهيم وحضرة إسماعيل عليهما السلام في دعائهما برنامج هؤلاء القادة الالهيين، وهو تلاوة آياته تعالى على الناس، وتعليمهم الكتاب والحكمة، وتزكية نفوسهم.

والمقصود: أنّ تأسيس الامّة الاسلامية كما يحتاج إلى تشكيل المراكز الدينية والعبادية العامّة، فهو يحتاج في الوقت نفسه إلى الحرص على الاستفادة من تلك المراكز المهمة بالطريقة الصحيحة، وليس إلى ذلك من سبيل إلّا أن يكون كلّ ذلك تحت نظر القيادة الالهية وإشرافها وتوجيهاتها الحكيمة.

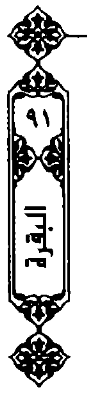
ولم يأل حضرة إبراهيم عليه السلام أيّام حياته جهدا في تأمين ما يلزم تأمينه مما ذكرنا، ممّا كان باستطاعته وتحت قدرته هو وابنه حضرة إسماعيل عليه السلام، وأمّا ما كان خارجا عن ذلك، فإنّه دعا ربه سبحانه وتعالى لتأمينه وتهيئته، ولهذا دعي عليه السلام بأبي المسلمين في قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[٣].

---

١. سورة الحجّ، الآية ٧٨.

٢. سورة الشعراء، الآية ٨٤.

٣. سورة الحجّ، الآية ٧٨.




**ملاحظات: ١ ـ** على الرغم من أنّ ما ورد في دعاء الخليل والذبيح عليهما السلام كان بصورة الوصف والخبر: ﴿**يتلوا... يعلّمهم... يزكّيهم**﴾، إلّا أنّ روح ذلك هي الانشاء والامر، بمعنى: أنّ القائد الالهي كما يلزمه أن يجعل من الأصول الأربعة (تلاوة الآيات، تعليم الكتاب، تعليم الحكمة، والتزكية) محورا لبرنامجه الارشادي الدعوي، فإنّ الامّة الاسلامية مكلّفة بالسعي الجاد نحو تعلم تلك الاصول، ومن هنا، فإنّه يجب على تلك الامّة الانصات، والاستماع، والتعلّم، والايمان، والعمل الصالح؛ وإلّا فإنّها لن تكون قادرة على تشكيل الامّة الاسلامية المطلوبة، ما يعني بالتبع عدم قدرتها على تشكيل الحكومة الدينية المطلوبة.

**٢ ـ** تأسيس قاعدة سياسية واجتماعية منيعة من الطراز الرفيع السابق الذكر بحاجة ماسة إلى العزّة والشدّة والمنعة والحكمة غير القابلة للتعقيب، كما جاء وصف ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**﴾[1]، كما أشير إلى ذلك في آخر الآية بقوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾.

## بعثة النبي صلى الله عليه وآله في ذريّة إبراهيم عليه السلام

ولمّا لم تكن الكعبة إلا مجموعة من الاحجار التي لا تضرـ ولا تنفع بدون القيادة الإلهية الحكيمة[2]، نرى حضرة إبراهيم ـ بمعونة حضرة إسماعيل عليهما السلام ـ يدعوه سبحانه وتعالى ـ من أجل أن تكون استفادة المسلمين من الكعبة الاستفادة الهادفة الصحيحة، وكذا للحيلولة دون تحوّلها إلى مرتع لعبادة الاصنام أو غيرها ـ أن يبعث رسولا يضمن تحقق كلّ ذلك، قالا عليهما السلام: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ**﴾.

---

١ . سورة الرعد، الآية ٤١.

٢ . نهج البلاغه، الخطبة ١٩٢ (قاصعة)، بند ٥٣.




وفي هـذا الجـزء مـن الـدعاء نقطتـان كانتـا محـل نظـر حضرـة إبـراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما:

الأولى: أن تصل الذريّة والامّة الاسلامية إلى مرحلة بحيث تكونان أهلا لأن يبعث سبحانه وتعالى الرسول منها: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾.

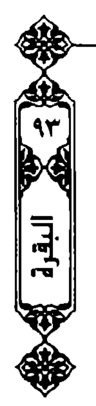
ففي هذه الصورة ـ على أثر معرفة أكثر تلك الامّة بالرسول، وكذا على أثر معرفة الرسول نفسه بهؤلاء من حيث اللغة والخصائص والمميزات الاخرى ـ فإنّ الارضية ستكون مهيأة جدّا لإطاعة أفضل لذلك الرسول.

هذه الخصوصية لن تكون ذات فائدة في حالـة كـون الرسـول مبعوثـا في أمّ القرى ثم يرسل رسله إلى سائر المدن؛ إذ إنّ من لم يره صلى الله عليه وآله من هؤلاء بـل يـرى رسله، سوف لن يستفيد من وجوده المبارك الاستفادة الحسنى، وإن كـان قـد تحقق أصل الحجيّة والتبليغ الضروري للدين.

الثانية: أن تصل تلك الذريّة إلى درجة عالية من المعنوية، بحيث تكون أهلا لنيل مقام النبوّة والرسالة: ﴿... رَسُولاً مِنْهُمْ﴾.

وأمّا رغبة النبيّين العظيمين عليهما السلام في صيانة الدين الالهي، وأن تكـون هـذه الصيانة على أيدي ذريّته، وأن يكون من ذريّته من يؤازر ذلـك الـدين، فهـو مـن العصبية الممدوحة المطلوبة لا المذمومة.

ومن الممكن ـ طبعاً ـ أن يكون المبعوث النـاجح مـن المعـروفين والعـارفين بلغة القوم من غير ذريّة حضرة إبـراهيم عليه السلام، إلّا أنّ رغبتـه عليـه السـلام إنّـما تعلقت بأن يكون ذلك الرسول من بينهم ومنهم في الوقت نفسه، كما يشـير إليـه قوله تعالى: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِـنْهُمْ﴾، وإن لم تكـن رسـالة ذلـك الرسـول مختصة بهم، لهذا كله، نرى أنّ التركيز إنّما كان على خصوصيّتي: «منهم» و«فيهم» دون غيرهما، من قبيل «لهم» مثلا.





**ملاحظة:** تكرار قول: «ربّنا» بداية كلّ دعاء، إنّما هو لأهميته، والمنادي بذلك النداء التهجّدي هما حضرة الخليل والذبيح عليهما السلام، خلافا للدعاء التهجّدي في الآية ١٢٦ بقوله: «ربّ»؛ حيث إنّ الداعي هناك هو شخص حضرة الخليل عليه السلام.

## المقصود من الرسول في الآية المباركة

وفي مجال تشخيص المقصود بالرسول في الآية المباركة الّتي هي محلّ البحث رأيان يستحقّان الكلام:

الرأي الأوّل: أنّ المقصود هو نبيّنا الاكرم صلى الله عليه وآله دون غيره من الرسل.

الرأي الثاني: أنّ المقصود هو أعم من نبيّنا صلى الله عليه وآله؛ حيث يشمل جميع الانبياء الابراهيميّين عليهم السلام.

والمعروف بين المفسرين هو الرأي الاوّل، إلا أن الّذي يبدو لنا أن يكون المقصود هو الثاني.

## مؤيّدات الرأي الاوّل

ويمكن أن يؤيّد الرأي الاوّل بمجموعة من الآيات والروايات، منها:

أ ـ ملاحظة استجابته سبحانه وتعالى لدعاء حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حين صدر منهما دعاء: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[1].

حيث إنّ تلك الاستجابة إنّما كانت ما ذكره سبحانه وتعالى بقوله في الآية المباركة: ﴿**فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً**﴾؛ فإنّ آل

---

١ . سورة النساء، الآية ٥٤.

إبراهيم الذين أعطوا الكتاب والحكمة عامّ كما يشمل بني إسماعيل عليه السلام، فإنّه يشمل بني إسحاق، يعني: حضرة موسى وعيسى وسائر أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام.

إلا أن البعض يذهب إلى أن الاهتمام الاساسي إنّما هو بحضرة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله؛ وذلك لنكتة خاصّة في المقام تقتضي كون المقصود بالرسول في قوله تعالى: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً﴾، إنّما هو نبيّنا صلى الله عليه وآله دون غيره من الرسل عليهم السلام.

وأمّا تلك النكتة المدعاة في المقام، فهي أنّ الداعي في المقام لو كان خصوص حضرة إبراهيم عليه السلام، لشمل ذلك الدعاء حضرة إسحاق عليه السلام وذريّته على حدّ شموله لذريّة حضرة إسماعيل عليه السلام، إلا أنّ الامر ليس كذلك في المقام؛ لوضوح أن الداعي كما كان حضرة إبراهيم عليه السلام، فقد كان إسماعيل عليه السلام أيضاً كما جاء في الآية الشريفة.

بناء على ما تقدم، فإنّ ذلك الرسول لن يكون إلا من ذريّة حضرة إسماعيل، وليس هو غير نبيّنا الاكرم صلى الله عليه وآله؛ فإنّ الانبياء الآخرين من ذريّة حضرة موسى وعيسى وسائر أنبياء بني اسرائيل عليهم السلام، ليسوا من ذريّة إسماعيل، بل هم من ذريّة حضرة إسحاق عليهما السلام.

ب ـ الشاهد الآخر على انحصار الرسول في الآية الشريفة بحضرة نبيّنا الاكرم محمّد صلى الله عليه وآله، هو القرينة الخارجية.

وتلك القرينة، هي أنّه كلّما جاء ذكر الكعبة أو الدعاء في ما يرتبط بها، ثم ردفه الكلام عن ذريّة حضرة إبراهيم عليه السلام، فإنّ المراد هو آل إسماعيل عليه السلام دون غيرهم؛ إذ إنّ الذريّة التي أمر إبراهيم عليه السلام من قبله سبحانه وتعالى بإسكانها مكّة، وسكنت هناك كما جاء في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾[1]، إنّما هي إسماعيل عليه السلام وذريّته دون غيرهم.

نعم، من الممكن أنّ جملة من ذريّة حضرة اسحاق قد انضمّوا إلى هؤلاء في سكناهم في مكّة، إلا أن المراد من الذريّة في الآية الشريفة السابقة هو حضرة إسماعيل عليه السلام وآله، كما أنّه الظاهر من اقتصار ذكر القرآن على حضرة إسماعيل عليه السلام إلى جانب أبيه إبراهيم عليه السلام حين تعرّضه لمؤسّسي الكعبة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[2].

ج ـ وأمّا المؤيد الروائي لانحصار المقصود بالرسول في الآية الّتي هي محلّ الكلام به صلى الله عليه وآله دون غيره من الرسل عليهم السلام، فهو ما جاء على لسانه صلى الله عليه وآله حيث قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى عليهما السلام»[3].

ومع أخذ المؤيّدات والشواهد السابقة بنظر الاعتبار، يمكن اعتبار الآيتين الشريفتين: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[4]، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[5] ـ وهما خطاب للأمّة الاسلامية ـ يمكن اعتبارهما استجابة منه تعالى لما صدر من حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من دعاء خاصّ بقولهما: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

---

١ . سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٢٧.

٣ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٣٩٥. وسيأتي التعرض لتوضيح المراد من الرواية في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

٤ . سورة البقرة، الآية ١٥١.

٥ . سورة الجمعة، الآية ٢.

## مؤيّدات الرأي الثاني

وأمّا الرأي الآخر، فإنّه يمكن إثباته عن طريق عدد من الشـواهد التحليليـة الّتي هي أعمّ من التعليل أو التأييد. وهي عبارة عن:

١ ـ كون الداعي في المقام شخصين لا شخصا واحدا، وعليـه، فـإنّ الـدعاء ينحلّ حينئذ إلى دعاءين في الحقيقة.

٢ ـ أنّ مقصود حضرة إبراهيم عليه‌السلام هو مطلق الذريّـة، سـواء أكانـت مـن إسحاق أم اسماعيل عليهما‌السلام.

وأمّا مقصود إسماعيل عليه‌السلام، فقد كان خصوص ذريّته.

٣ ـ عدم التنافي بين الدعاءين السابقين؛ إذ إنّهما مثبتـانِ لا نافيـانِ لكـي يقـع بينهما المنافاة.

٤ ـ إمكان أن تكون هناك رواية في المجامع الروائية لليهود أو النصارى تدلّ على أن كلّ واحد من حضرة موسى وعيسى و... قال إنّه وصل إلى النبوّة ببركـة دعاء حضرة إبراهيم عليه‌السلام.

٥ ـ عدم الوجه في انحصار الدعاء بنبيّنا الاكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله.

٦ ـ أنّ أكثر ما يثبته اشتراك حضرة الخليـل والـذبيح عليهما‌السلام في الـدعاء، هـو أهمية رسالة نبيّنا الاكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله، لا إنّه يثبت الانحصار.

٧ ـ أنّ مرجع الضمير في كلمتي: «فيهم» و«منهم» هو الاقرب، وهو «الامّة المسلمة» في المقام، ولا ضرورة في المقام تلزم إرجاعها إلى «الذرّية»، لكي ينحصر المراد بالعرب وساكني مكّة.

٨ ـ على الرغم من أنّ عنوان الذريّة في جملـة: ﴿إِنِّي أَسْـكَنْتُ مِـنْ ذُرِّيَّتِـي﴾[1]

---

١ . سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

غير شامل لذريّة إسحاق عليه السلام، إلّا إنّه لا يصلح أبدا وجها لحصر الذريّة بغيره في أخرى.

٩ ـ أنّ إطلاق قوله تعالى في الآية الشريفة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1]، والآية الشريفة: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[2]، والآية الشريفة: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[3]، دالّ على عدم انحصار ذريّة إبراهيم بنسل إسماعيل عليهما السلام.

كما أنّ تحليل الآية الشريفة الاخيرة، يضع إصبعنا على حقيقة أنّ لكلّ من ذريّة إبراهيم وذريّة إسحاق عليهما السلام صنفين، لا أنّ ذريّة إبراهيم وإسحاق عليهما السلام صنف واحد فقط بحيث لا يشمل ذريّة إبراهيم من نسل إسماعيل عليهما السلام.

الحقيقة السابقة التي وصلتنا بتحليل الآية الشريفة السابقة، تؤدي بنا إلى أنّ الآية الّتي هي محلّ الكلام تنحلّ إلى ذريّة إبراهيم عليه السلام، سواء أكانت تلك الذريّة من إسماعيل أم من إسحاق وإسماعيل عليهما السلام كليهما.

والمغزى: أنّ تركيب «ذريّة إبراهيم» قد ذكر في موارد عديدة بحيث يشمل إطلاقه النسلين، وإن كان المصداق المذكور لذريّة إبراهيم عليه السلام في بعض الآيات الشريفة هو خصوص العرب وخصوص نسل إسماعيل عليه السلام.

١٠ ـ أنّ العنصر المحوريّ لذريّة إبراهيم في الآية الشريفة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوّة وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[4] هو بنو إسرائيل؛ من جهة أنّ المذكور من نسل

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٢٤.

٢ . سورة إبراهيم، الآية ٤٠.

٣ . سورة الصافّات، الآية ١١٣.

٤ . سورة العنكبوت، الآية ٢٧.

إبراهيم عليه السلام في الآية المزبورة هو أنبياء بني إسرائيل، وأنّ إطلاق الذريّة حينئذ سيكون شاملا لبني إسماعيل عليه السلام أيضاً، كما أنّ مدار ذريّة إبراهيم في الآيات الشريفة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كلّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1]، هو ذريّة إبراهيم من نسل إسحاق عليه السلام، على الرغم من ذكر ذريّته من غير إسحاق أيضاً، بذلك الشكل الّذي كان فيه إطلاق الذريّة في الآية: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النبوّة وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2] شاملا للنسلين.

ويستفاد من الآية حقيقة غاية في الجمال، وهي أنّه على الرغم من حرمان ابن نوح من أن يكون من نسل النبوّة بسبب انحرافه عن طريق الحقّ وطرده بقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إنّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[3]، إلّا أنّ نسل تلك الذات المقدسة قد بقي شامخا في تاريخ النبوّة المشرق، بعد أن لم يبق على وجه الارض بعد الطوفان إلا ذريّته عليه السلام، أو كانت أهم من بقي بعد ذلك.

النكتة السابقة يمكن أن تستفاد من جملة من الآيات، وهي: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الاخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[4].

والحاصل: بعد مطالعة الشواهد القرآنية الكثيرة التي ذكرت شاهدة على صحة الوجه الثاني من عدم انحصار الرسول في الآية الّتي هي محلّ الكلام بنبيّنا

١ . سورة الأنعام، الآيات ٨٤ ـ ٨٦.
٢ . سورة الحديد، الآية ٢٦.
٣ . سورة هود، الآية ٤٦.
٤ . سورة الصافّات، الآيات ٧٥ ـ ٧٩.



الاكرم ﷺ، يمكن استنتاج أنّ دعاء حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ينحل إلى دعاءين وليس دعاءاً واحدا بحيث يكون المقصود من كان من ذريّة إبراهيم ومن كان من ذريّة إسماعيل في الوقت نفسه، بل المقصود من الدعاء الّذي هو محلّ الكلام ذريّة كلّ واحد من النبيّين الكريمين وإن كانت ذريّة إسماعيل عليه السلام هي ذريّة إبراهيم عليه السلام أيضاً.

## التلاوة المستمرة وسر تقديمها على التعليم

وما جاء في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث من التقديم الذكريّ للتلاوة على التعليم في قوله تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، جاء في الآيات الشريفة: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[1] بصورة الترتيب العيني.

ولأجل أن تنتهي التلاوة بالتعليم، فلا بدَّ من أن تكون مستمرّة، وهذا ما يفسّر مجيء الفعل المضارع المفيد للاستمرار (يتلو)، كما جاء في قوله: ﴿يُعَلِّمُهُمْ﴾ مضارعا لأجل أن يكون التعليم مؤديا إلى التزكية ومثمرا لها، وهو عينه السرّ في استعمال الفعل المضارع في قوله تعالى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ إذ يجب أن تكون التزكية مستمرّة لتؤثّر أثرها في الخلاص من وساوس الشيطان المستمرّة وأوامر النفس الامّارة دائما، فإنّ استمرار الوحي ودوامه إلى يوم القيامة يقتضي الاستفادة من هكذا تعابير.

## الحكمة ومصاديقها

عندما يتعرض الله سبحانه وتعالى إلى الدنيا ومتاعها، فإنّه ـ على الرغم من

---

١ . سورة القيامة، الآيات ١٨ ـ ١٩.



جميع ما لذلك المتاع من مظاهر ومزايا ظاهرية ـ يصفه بأنّه قليل، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[1]، إلّا أنّه في الوقت نفسه، عندما يتعرض إلى الحكمة، فإنّه سبحانه وتعالى يصفها بأنّها الخير الكثير، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[2].

والسرّ في النقطة السابقة، هو حقيقة أنّ الدنيا تكاثر والحكمة كوثر، بحيث يكون القليل من الدنيا مضرّا بينما الكثير من الحكمة مفيدا.

وقد عبّر في القرآن الكريم عن المعارف العقلية، وكذا المواعظ والمسائل الاخلاقية، وعن الاحكام الفقهية والقانونية، عبّر عن جميع ذلك بالحكمة، بلحاظ إحكام تلك الامور جميعها وإتقانها.

ففي سورة الاسراء المباركة ـ خلال التعرض إلى ما يقارب العشرين من المسائل التي تشرع وتنتهي بالتوحيد، ويتوسطها المواعظ والمسائل الاخلاقية والاحكام الفقهية والقانونية ـ عبر عن تلك المسائل بالحكمة، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ... * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾[3].

الإحسان بالوالدين، وعدم إيصال الأذى إليهما، أداء حقوق الاقارب والمساكين وأبناء السبيل، الابتعاد عن الاسراف والبخل، إجتناب الزنا وقتل النفس المحرمة، الاهتمام بالأيتام، وما ماثل تلك الأمور ممّا جاء في الآيات

---

١. سورة النساء، الآية ٧٧.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٦٩. تكرّر الاستفادة من الفعل المبني للمجهول في الآية الشريفة: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾، إشارة إلى أن الدراسة والبحث لهما شديد الاثر في استفادة الانسان من الحكمة، إلّا أنّ ذلك بمجرده لا يمكنه أن يصنع من الانسان حكيما، بل العنصر المحوري في الحكمة هو فيضه وعطاؤه سبحانه وتعالى.

٣. سورة الاسراء، الآيات ٢٢ ـ ٣٩.



المزبورة، تعتبر كلها من مسائل الحكمة العملية التي حفّت في تلك الآيات الكريمة بأهمّ مسألة من مسائل الحكمة العملية وهي مسألة التوحيد، ما يفهم منه أنّ التوحيد هو أساس الحكمة، وإن كانت تلك الامور التي ذكرناها من الحكمة أيضاً؛ باعتبارها أمورا متقنة محكمة.

ويعتبر حضرة لقمان من جملة الاشخاص الذين أوتوا الحكمة، وأوتوا الخير الكثير بالتبع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[1].

وكان أوّل تفصيل من تفاصيل تلك الحكمة التي أوتيت لقمان في الآية الشريفة هو شكره سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لله﴾، ومن الواضح أنّه لا يمكن الوصول إلى شكره تعالى بدون معرفته أوّلا، وهذا ما يفسر دعوة لقمان إلى التوحيد في أوّل ما صدر عنه من كلام حكيم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِالله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2]، وعلى هذا، فمعرفته سبحانه وتعالى وتوحيده أوّل الحكمة ونقطة الشروع فيها.

ويعتبر التوحيد والشرك من مسائل الحكمة النظرية، وأمّا العدل والظلم، فهما من مسائل الحكمة العملية، ومن هنا، لا يقع الكلام في البحوث الفلسفية والكلامية عن كون الانسان ظالما فيما إذا رفض التوحيد فلم يكن موحدا، إلّا أنّ ما نلاحظه في آيات القرآن الكريم المباركة التي تعرضت لمواعظ لقمان الحكيم، هو أنّها تعبّر عن الشرك بالظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3]. الامر الّذي يوضّح الفرق بين القرآن الكريم من جهة وبين فنّ الفلسفة والكلام من جهة أخرى من حيث التعليم وبيان المعارف العقلية.

---

١ . سورة لقمان، الآية ١٢.

٢و٣ . سورة لقمان، الآية ١٣.

وحين البحث في الكتب الفلسفية والكلامية عن العالم والمسائل النظرية، فإنّه لا يتطرّق هناك أبدا إلى مسائل الحكمة العملية، بل تتعرّض أبحاث تلك الفنون وما ألّف فيها إلى إثبات الخالق وتوحيده عن طريق أدلّة وبراهين متنوعة، كبرهان الحدوث، والحركة، والنظم، والامكان الماهوي، والامكان الفقري، وما شابهها.

وفي الابحاث العقلية والحكمة النظرية، لا يتطرّق إلى أكثر من أن خالق العالم لو كان متعددا لانهدم العالم ولما بقي منه شيء، وأن تعدد الخالق مستلزم للجمع بين النقيضين أو رفعهما معا، الأمر الّذي يخالف حكم العقل باستحالة الجمع بين النقيضين وحكمه باستحالة ارتفاعهما معا.

## الرسول المزكّي

التزكية أمر يختلف عن تدريسِ المعارف وتعليم الاخلاق والفقه والقانون، فالتزكية حثّ الروح وتحفيزها نحو التقوى.

وما يقوم به الرسول الاكرم ﷺ من الاجراءات العلمية، من بيان الاحكام الالهية، والآيات، والمعارف، والاخلاق، والاحكام، كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾[1]، من مصاديق «تعليم الكتاب والحكمة»، وأمّا ما يقوم به ﷺ من الاجراءات العملية التي ترتبط بتطهير المجتمع الاسلامي من الملوّثات ومن الرذائل، فهو من مصاديق ﴿**التزكية**﴾، كما عبّر الله تعالى في مجال بيانه لتأثير إخراج الزكاة في تطهير المستطيعين وأموالهم مما علق بها من الاوساخ بقوله: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾[2].

---

١ . سورة البقرة، الآية ٤٣.

٢ . سورة التوبة، الآية ١٠٣.

بناء على ما سبق، فإنّه ﷺ عندما يأخذ الزكاة من أصحابها، فإنّه إنّما يزكيهم عن طريق ذلك العمل. نعم، من الطبيعي أنّ السبب القريب في هذه التزكية هو العمل الصالح الصادر عن الشخص المزكّي بنفسه، فالمال من حيث كونه مالا وبعنوان ماليته ليس ملوّثا، ولكنّ تعلق الشخص بذلك المال هو سبب التلوّث الّذي يزول بإعطاء الحقّ لوليّ المسلمين من قبل من تعلّق بماله الحقّ بصورة الزكاة أو غيرها من الصور.

وكما أنّ قطع العلاقة بالمال ودفع الصدقة والزكاة في مجال الامور المالية يعتبر مطهّرا للشخص الواجد، فإنّ الابتعاد عن الانانية والاعتراف بحرمة الآخرين وحدودهم، والعفو عنهم في حالات صدور التقصير منهم، يعتبر في المجالات الاجتماعية والاخلاقية من عوامل تزكية الشخص وتطهير نفسه، كما جاء ذلك في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فإنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾**[1].

فالأنانية وحب النفس ملوّث عمل الرسول الاكرم ﷺ عن طريق سيرته العملية على اجتثاثه من المجتمع الانساني، فسيرته ﷺ العملية التي كان يعيشها مع الافراد ويرونها بصورة عملية منه ﷺ، كانت خير وسيلة إلى تعليم الحكمة العملية، وكانت وعظةً لهؤلاء بحيث تؤدّي إلى تطهير قلوبهم ممّا علق بها من الاوساخ، الأمر الّذي لم يكن مستطاعا بمجرّد التعليم والتدريس.

وقد ذكر الفخر الرازي أنّ المراد من تطهير النبي ﷺ للمجتمع ليس هو أنّه ﷺ يتصرّف في بواطن الافراد؛ إذ بالاضافة إلى أنّه ﷺ فاقد اهكذا قدرة،

---

١ . سورة النور، الآيات ٢٧ ـ ٢٨.




فإنّه لو سلّمنا وفرضنا أنّه ﷺ كان لديه القدرة على التصرف في النفـوس، فإنّـه لا يعمل تلك القدرة ويستفيد منها؛ إذ إنّ ذلك يستلزم الجبر[١].

ويجب الالتفات هنا إلى ما يلي من أمور:

أوّلا: أنّ من وصل إلى مقام الولاية الشامخ، فمـن المتـيقن أنّ لديـه القـدرة بإذنه تعالى على التأثير في نفوس الاخرين، فالشخص المطّلع بإذنه تعالى على جميع ما يخطر ببال الاخرين، لديه القدرة عـلى التصرـف في نفوسـهم أيضـاً، فكـما أنّ وصفه ﷺ بالاغناء والغنى ـ الّذي هو وصف من أوصافه تعـالى كـما في قولـه: ﴿أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٢] ـ لا يستلزم أيّ جـبر، فكـذلك قدرتـه ﷺ على التصرّف في النفوس لا تستلزم الجبر أيضاً؛ إذ إنّ هكذا تصرفاً إنّما يكون مـع الحفاظ على اختيار الافراد وفي حيطة قدرتهم كما سيأتي.

ثانياً: وعلى فرض أنّ إعمال القدرة السابقة مستلزم للجبر، فإنّ ذلـك يتّسـق تمام الاتّساق مع ما يذهب إليه الفخر من مسلك الجبر ولا يتصادم معه أبـدا، إلا أن يكون ذلك جاريا مجرى الجدل مع من ينكر الجبر.

ثالثاً: لا يعتبر إعمال القدرة السابقة الذكر والتصرّف ببواطن الافـراد جـبرا أبدا؛ إذ إنّ ما نتحدّث عنه من التزكية ليس التزكية الابتدائية الواقعة ابتداء لكـي يكون بعض الافراد طاهراً مزكّىً وبعضهم الاخر لا يكون كـذلك بغـير إرادتـه ورغما عنه، وإنما هي جزاء عمل الانسان السالك الّذي تصدّى لبعض العقبـات والامتحانات وتجاوزها بنجاح نتيجة جدّه وعمله المشرـوع، فيتقبّـل الله عملـه، فيسهّل عليه مواصلة طريق الوصول عن طريق فيضه تعالى الخـاص عـلى ذلـك السالك، فيولّد عنده الشوق والحافز، ويرسل له من يأخذ بيده في طريق سـلوكه ويهديه إلى سواء السبيل.

---

١ . التفسير الكبير، ج ٤، ص٦٧.

٢ . سورة التوبة، الآية ٧٤.

ما سبق لا يعتبر جبرا ولا يستلزم الجبر أيضاً، وإنما هو عين الهداية الربانية التي تعني الايصال إلى المطلوب.

ويمكن لنبيّنا الاكرم ﷺ بإذنه تعالى، وبما جعل له من ولاية تكوينية، أن يترك في نفوس الافراد أثرا من هذا النوع، وهذا من أبرز مصاديق كون النبي ﷺ مزكّيا للناس وقادرا على مثل هذه التزكية، التزكية التكوينية التي يمكن نسبتها إليه سبحانه وتعالى، كما يمكن نسبتها إليه ﷺ، وهي بمعنى الايصال إلى المطلوب لا صرف إراءة الطريق إليه.

ولولا فضل الله سبحانه وتعالى، لما كان أحد من أهل التزكية ولا التقوى، قال تعالى: ﴿**وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[1]؛ إذ ربما أمكن أن يكون الانسان عالما بالمعارف والاحكام بحسب الظاهر، إلّا أنّ مجرد العلم لا يقتصر على عدم النفع فقط، بل يكون حجة عليه يوم القيامة أيضاً.

العزم، والنية، والاخلاص، وما شابهها، من العقبات الكؤود في طريق الانسان التي يمكن اكتشافها وتجاوزها بوسيلة نور العقل العملي، وأمّا ما ينجي الانسان من خطر الدنيا والاخرة، فهو تزكية الروح، كما قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**﴾[2]، وقال عزّ من قائل أيضاً: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى**﴾[3].

لم يقل الله سبحانه تعالى: «قد أفلح من علم واجتهد وتفقّه»؛ إذ إنّ صيرورة الانسان فقيها هي نصف الطريق لا أكثر، وأمّا النصف الاخر من الطريق، فلا يمكن طيّه إلا بالعمل الصالح، وهذا ما يفسر ما جاء في القرآن الكريم بعد

---

١ . سورة النور، الآية ٢١.
٢ . سورة الشمس، الآية ٩.
٣ . سورة الاعلى، الآية ١٤.




الترغيب بالتفقّه وبذل الجهد في سبيل الوصول إلى مرتبة الفقاهة في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كلّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾[١]، حيث ذكر أنّ الهدف من التفقه ووظيفة المتفقهين هو الانذار، فقال عزّ من قائل بعد قوله المبارك السابق: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٢].

إنذار الناس وتحذيرهم من النار ليس في مقدور ولا من شأن أيّ عالم مهما كان، كما أنّه ليس من قبيل سائر الاعمال والمهارات لكي يمكن تحصيل القدرة عليه بالدراسة لبضع سنين ليكون الانسان بعدها فقيها أو مؤلّفا أو مدرّسا أو خطيبا متمرّسا.

الإفتاء، والتأليف، والتدريس، وإيراد الخطب، كلّها من الامور اللّازمة لإصلاح الناس، إلّا إنّها ليست كافية في هذه المهمة؛ إذ إنّ إصلاح الانسان أمر ليس بالممكن بدون إيجاد الخوف عنده في مقابل المسؤولية الالهية، ولّما لم يكن كلام أيّ إنسان مؤثرا التأثير اللازم في إيجاد ذلك الخوف من النار، فإنه يمكن القول بأنّ الهدف الأصلي من التفقّه هو إيجاد الخوف عند الفقيه والمنذر، حينئذ يمكن تخويف الناس من النار بواسطة بيان الأحكام.

**تنبيه:** التزكية والتطهير أمران مشروطان بتوفّر القابلية للتغيير في نفس الانسان، وأمّا إذا كانت الأنانية وحبّ النفس قد وصلتا إلى مرحلة عجنتا فيها مع النفس والروح، فإنّ نار جهنّم بنفسها لا تنفع في مثل هذه الحالة في التطهير والتزكية.

تطهّر النار في الدنيا عين النجاسة التي لا يمكن للماء أن يطهّرها بواسطة الاستحالة إلى حقيقة أخرى غير حقيقة النجاسة، وأمّا نار جهنّم، فإنّها لا يمكنها أن تطهّر عين الانسان الملوّثة بتحويلها إلى رماد، ولهذا كان الانسان في النار حيّا

---

١ و ٢ . سورة التوبة، الآية ١٢٢.




دائما، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾[١]، فيصير موجودا ملوّثا.

وغير الطاهر ليس له من سبيل إلى الجنة ابتداء، وكذا الانسان الّذي لا سبيل إلى تطهيره، فإنّه لا طريق له إلى الجنة أبدا، فإنّ كلّ من لوث جوهره وهويته: ﴿إنّما المُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[٢]، بحيث وصلت الحالة فيه إلى أنّه ما عاد يتقبّل نصيحة رسول زمانه: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[٣]، فإنّ مثل هذا الشخص لن تنفع حتّى جهنم في طهارته.

## سرّ تقديم وتأخير التزكية والتعليم بعضهما على البعض

البحث في سرّ تقديم وتأخير التزكية والتعليم بعضهما على البعض سوف نتناوله أوّلا بصورة مفصلة مبسوطة، ثم نذكر بعد ذلك خلاصة ذلك البحث بصورة فنية.

قدّم سبحانه وتعالى وأخر التزكية والتعليم بعضهما على البعض في آيات كريمة متعددة، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إذ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الامِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾[٦] وهي الاستجابة لدعاء حضرة

---

١ . سورة الاعلى، الآية ١٣.

٢ . سورة التوبة، الآية ٢٨.

٣ . سورة البقرة، الآية ٦.

٤ . سورة البقرة، الآية ١٥١.

٥ . سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

٦ . سورة الجمعة، الآية ٢.

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حين قالا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، خلافا للترتيب الّذي جاء في هذا الدعاء؛ فقد قدّمت التزكية على التعليم.

إنّ الترتيب المذكور في الآيات الشريفة المزبورة التي جاءت لبيان برامج الرسالة الالهية، إنّما هو من باب التقديم الذكريّ ليس إلا؛ وذلك بسبب أنّ الأمور المزبورة لم تبيّن بحروف من قبيل الفاء الدالة على الترتيب، إلا أن التقديم الذكري يدلّ أيضاً على أهمية المقدّم في بعض الاحيان.

السرّ في تقديم التعليم على التزكية في دعاء حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، هو أن التعليم مقدّمة للتربية والتزكية، وعلى هذا، فالتقديم هنا من باب التقدّم الطبعي للمقدّمة على ذي المقدّمة.

وللتوضيح نقول:

إنّ كلّ تزكية لا بدّ من أن تكون مسبوقة بالتعليم، (كما أنّ كلّ تعليم مسبوق بقسم خاص من التزكية)؛ فإنّ الانسان السالك ما لم يعرف نفسه وقواه النفسية، وكذا فائدتها وضررها، وفجورها وتقواها، فإنّه لن يمكنه أن يقدم على إصلاحها وتهذيبها، ولا أن يخطو خطوة واحدة في ذلك الطريق.

فكما أنّ الفلّاح لا بدّ له أوّلا ـ قبل زراعة الشجر والنبات وبذر البذور ـ من حراثة الارض وإزالة النباتات الضارّة من جذورها، ورفع الصخور المانعة من النمو، فكذلك لا يمكن للشخص أن يكون فلّاحا ومُفْلحا موفّقا في تزكية نفسه وتخليصها من هواها، والثقة بنفسه والوصول إلى الكمال، إلا بمعرفة أرض النفس والفجور والتقوى الخارجية، فإنّه حينئذ يمكنه أن يبدأ بتزكية نفسه، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾[1].

---

١ . سورة الشمس، الآيات ٧ ـ ٩.

على أساس ما مضى، فإنّ الجاهل بالمعارف والاحكام الالهية ليس له قدرة على تزكية روحه، وعليه، فعندما يقال: من السهل أن يكون الشخص عالما ومن الصعب أن يكون إنسانا، فإن ذلك ليس بمعنى أنّ كلّ عمل من العملين السابقين في عرض الآخر، بل السرّ في صعوبة الثاني هو أنّه في طول الاوّل، فإنّ الاوّل بسيط والثاني مركّب؛ إذ إنّ المراد من صيرورة الشخص إنسانا هو العلم المرافق للعمل الصالح؛ فإنّ الشخص ما لم يكن عالما، فإنّه لن يميّز بين الطريق والحفر والمطبات، وما لم يعرف النفس والقوى والأخطار والدسائس والوساوس والفجور والتقوى، فإنّه لن يمتلك أبدا القدرة على التزكية والسير والسلوك، ومهما كان موفّقا في بعض المراحل الابتدائية للتزكية، فإنّه لن يكتب له النجاح في عبور المراحل المتوسطة لها، فكيف بالمراحل النهائية للتزكية؟!

فمثلا: الشخص الّذي يترك لذائذ الدنيا بأمل الوصول إلى لذائذ الآخرة، لا يزال مواجها لأخطار هوى النفس ولحبائلها التي تصوّر له أنّه قد أصبح بعلمه عارفا وزاهدا.

وكما أوضحنا في صدر البحث، فإنّ جميع الآيات الناظرة إلى إجابة دعاء حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ـ خلافا للترتيب الّذي جاء في ذلك الدعاء ـ قد قدّم فيها التزكية على التعليم.

ونتعرّض هنا إلى بعض الوجوه التي تتكلم عن سرّ تقديم التزكية على التعليم في الآيات القرآنية الكريمة.

١ ـ كون التزكية هدفا والتعليم وسيلة، والهدف مقدّم دائما على الوسيلة، فتقدم التزكية على التعليم في المقام إنّما هو من تقدّم العلّة الغائية على العلّة الاعدادية؛ فإنّ الهدف (وهو العلّة الغائية)، متقدّم دائما على الفعل الّذي يكون جزءا من العلّة الامدادية الاعدادية.

٢ ـ كون التزكية تخلية من الرذائل وتخليصا للروح مما يعلق بها من الاوساخ، وتطهيرها من العقائد الجاهلية الباطلة. وأمّا التعليم، فهو تحلية النفس بالفضائل.

بناء على ما سبق، لا بدّ مِن أن تكون التزكية مقدّمة على التعليم لكونها مقدّمة له؛ إذ ما لم يتم التخلص من الرذائل النفسية أوّلا، فإنّ الفضائل لن يتم لها الاستقرار في تلك النفس.

العلم نور إلهي لا ينعكس إلا على مرآة صافية نظيفة، وعليه، فالتزكية وإزالة الغبار عن النفس لا بدّ من أن تتقدّم على التحلية والتزيين بالنور الالهي.

والحاصل: أن إقتصارَ أدوات المعرفة عند البعض على الحسّ والتجارب الحسية، ليكون الشعار الرسمي لدى هؤلاء قولهم: «من فَقَدَ حسّاً فَقَد علماً»، هو أمر خاطئ غاية في الخطأ، وأمّا عند المحققين المعتقدين بالدين، فقبل الحسّ والتجربة، لطهارة الروح واتّقاء الالحاد والنفاق والعصيان دور بارز في إدراك حقائق الوحي من جهة، كما أنّ للعلوم التجريبية سهمها من جهة أخرى، وشعارهم في ذلك قبل الشعار السابق هو: «من فَقَد تقوى فَقَد علماً»، الشعار المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾[1]، وقوله عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾[2].

فمن هذه الناحية، تعتبر التزكية، وتقوى وطهارة الروح مقدّمة على التعليم.

٣ ـ كون التزكية عملا، وزمان العمل محدود بالدنيا، وله حدّ يقف عنده، وأمّا المعرفة والشهود ـ وهما هدف التزكية وثمرتها ـ فليسا محدودين بالدنيا، بل يستمرّان إلى ما بعد الموت ويزهران بعده.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

٢ . سورة الأنفال، الآية ٢٩.

نعم، هذا العلم الّذي هو حاصل التزكية أمر آخر غير العلوم الحاصلة بمجرّد التعليم والتعلّم.

على أساس ما مضى من حقائق، سيتضح أنّ بين التزكية والتعليم إرتباطاً وثيقاً بحيث يشكّلان حلقات سلسلة الذهب، فتكون التزكية ثمرة شجرة طوبى العلم الحصولي الّذي يغرس في مدارس العلم التي يستظل السالك بظلّها خلال وصوله إلى العلم الحصولي الرائج، وإلى تشخيص الحَسَن والقبيح، والحلال والحرام، والصحيح والباطل، والنفع والضرر، ليمارس بناء نفسه وإعمارها، حينئذ سيكون لهذه الثمرة نفسها (التزكية) عصارة باسم المعرفة والشهود التي ليس لها انتهاء، والتي هي الهدف النهائي من وراء خلقة البشر.

على هذا الأساس، فإنّ السرّ في تقدم التزكية على العلم الحضوري، هو أن التقوى والتزكية مقدّمة للمعرفة والشهود، وعلم حضوري من هذا القبيل لا يتحقق عن طريق الرجوع إلى الفنون والكتب، وإنما يحصل في ظل طهارة الروح، كما يقدّم الله سبحانه وتعالى التقوى الارضية للاستفادة من العلوم الخاصّة، والادراكات الفارقة بين الحقّ والباطل في قوله عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾[1].

ومع أخذ النقاط السابقة بعين الاعتبار، يمكن اعتبار قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ الوارد في آخر الآية الشريفة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[2]، يمكن اعتباره ناظرا إلى الحقيقة التي أشرنا إليها في الوجه الاخير.

---

١ . سورة الأنفال، الآية ٢٩.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٥١.




وليس المراد من العلوم التي أشير إليها في الجملة المزبورة هو العلوم المادية؛ لوضوح توفّر الملحدين على هذا النوع من العلوم أيضاً، كما هي الحال فيهم اليوم؛ حيث يستفيدون من هذه العلوم في صناعة السفن الفضائية التي تحمل روّاد الفضاء أو حتّى لا تحملهم، ليستخدموها في اكتشافاتهم الفضائية، مع إنّه سبحانه وتعالى ذكر في كتابه الكريم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ**﴾[١].

ومعلّم تلك العلوم المادية والجزئية هو الله سبحانه وتعالى أيضاً، إلا إنّه سبحانه وتعالى يعلّم تلك العلوم بالطرق العادية، وحتى تكلّم الطفل الّذي يولد وهو لا يعلم شيئا: ﴿**وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً**﴾[٢] هو نتيجة تعليمه سبحانه وتعالى له: ﴿**عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[٣]، كما هي الحال في إدراك حُسن العدل وقبح الظلم وما شابه ذلك.

والانسان ذو التقوى يصل إلى هذه العلوم التجريبية بشكل أكثر شفافية طبعا، وأمّا ذلك العلم الّذي قال الله تعالى في حقّه للرسول الاكرم ﷺ: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾[٤]، فإنّه ليس من صنف العلم الّذي يعلّم لأيّ شخص من الأشخاص مهما كان.

هذا العلم الّذي يقول حارثة بن مالك على أساسه: «كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نصب للحساب، و... إلى أهل الجنة ينعمون في الجنة، و... إلى أهل النار وهم فيها معذّبون مصطرخون، وكأنّي الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي»[٥]، إنّما هو حاصل التزكية لا مجرد الدراسة والقراءة.

---

١ . سورة الاعراف، الآية ٤٠.
٢ . سورة النحل، الآية ٧٨.
٣ . سورة الرحمان، الآية ٤.
٤ . سورة النساء، الآية ١١٢.
٥ . الكافي، ج٢، ص٥٣ ـ ٥٤.



ويعتبر التوحيد وما يستفاد منه ـ وهو الّذي يعتبر أساس الحكمة ـ نموذجا من نماذج العلوم التي لم يعلمها الله تعالى إلا لأمم خاصّة.

لقد علم الله سبحانه وتعالى الانسان ما لم يكن يعلم، قال تعالى: ﴿عَلَّمَ الانْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]، وما جاء في الآية الشريفة يختلف عن ذاك الّذي أشارت إليه الآية الشريفة: ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[2]؛ إذ إنّها إشارة إلى ذلك النوع من العلوم التي لا سبيل للانسان إليها لعدم قدرته على ذلك بنفسه لولا قدرته سبحانه وتعالى؛ فكلمة كان المنفيّة في قوله تعالى: ﴿لَمْ تَكُونُوا﴾، علامة على الاستمرار في الماضي والحاضر والمستقبل.

و﴿لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ تعني أنّ جهل البشر بتلك العلوم، وعدم القدرة على تعلمها، لا يقف عند حد الماضي، بل يتعدى ذلك إلى حالة تقدّم العلوم وتطوّرها اليوم وغدا، فحتّى مع ما نشهده اليوم من تطور هائل لتلك العلوم اليوم، وما ستشهده من تطور في المستقبل، مع ذلك كله، فلن يكون بوسع البشر الوصول إلى تلك العلوم وتعلّمها، الأمر الّذي لا يختص بفرد دون فرد آخر، ولا بأمّة دون أخرى، ولا بأرض دون أرض أخرى، بل هو عامّ شامل لجميع الافراد والامم والأراضي.

بالإضافة إلى ما تقدم، فإنّ تعبير: ﴿لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، فيه إشارة إلى أنّ عقل البشر مهما تقدم في طريق الكمال، فإنّه يبقى قاصرا عن إدراك جميع العوامل المؤثّرة في سعادة الانسان.

العقل سراج لا صراط؛ فإنّ الصراط المستقيم هو رسالة الوحي ومنظومة الدين، ولا يمكن لأيّ أحد مهما كان أن يصل إلى المقصد اعتمادا على السراج

---

١ . سورة العلق، الآية ٥.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٥١.

لوحده؛ فالسراج إنّما يفيد في تشخيص الطريق وما يقع فيه الانسان حين سلوكه للطريق.

يتمتّع الانسان بالعقل والفطرة، كما أنّه على اطّلاع بفجور نفسه وتقواها، إلّا أنّ بعض ذلك يعتبر سراجا يضيء له الطريق، كما أنّ بعضها الآخر رأس مال الانسان في طريقه، ومن هنا، فإنّ الانسان بدون الاستفادة من الوحي، لن تكون له أيّة قدرة على التشخيص التامّ الكامل لطريق الدين.

لا يمكن للعقلِ البرهاني أن يحلّ محلّ النقل المعتبر أبدا، ولو كان العقل كافيا في هذا المجال، لكان له تعالى على الناس حجّة كاملة حتّى قبل إرسال الرسل، ولما كانت هناك أيّة حاجة إلى قوله تعالى: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾[1]. فالعقل نصف الحجّة لا تمامها، وهذا ما جعله غير كاف في احتجاجه سبحانه وتعالى على الناس.

وهناك نموذج آخر من نماذج الكبرى التي يذكرها سبحانه وتعالى في قوله عزّ من قائل: ﴿**وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾[2]، وهو المصاعب التي يواجهها عقل الانسان البرهاني في إدراك بعض حالات الحُسن، وهي تلك الحالات التي قام الدليل النقلي على حسنها وفائدتها، كما في ما ذكره سبحانه وتعالى في مجال حسن جهاد الكفار، كما في قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾[3].

إلى هنا، نكون قد انتهينا من الكلام في المطلب بصورة مفصّلة، وتصل النوبة الآن إلى الكلام فيه على صورته المختصرة كما وعدنا في صدر الكلام، وسيكون

---

١ . سورة النساء، الآية ١٦٥.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٥١.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢١٦.



ذلك ضمن النقاط التالية:

١ ـ للنفس شأنان مهمّان: علمي وعملي، حاصل أحدهما الفكر فيما حاصل الآخر الحافز، وأمّا «العلم الصائب» و«العمل الصالح»، فهما رأس مال تكامل الشأنين المذكورين.

٢ ـ المسؤول عن فنّ التفكير الصائب هو الحكمة النظرية، بينما المسؤول عن فنّ الحافز الصالح هو الحكمة العملية.

٣ ـ كلّ ما يقوم به الانسان من عمل صالح في إطار تزكية الروح، فهو لا بدّ من أن يكون مسبوقا بالعلم الصائب، بحيث لو لم يتوفّر العلم الصحيح لما تحققت التزكية أبدا، كما أنّ كلّ حكمة عملية مسبوقة بالحكمة النظرية لتستقي منها مبادئها الاولية وأصولها التأسيسية.

٤ ـ أنّ لكلّ من العلم الصائب والعمل الصالح المسؤولين عن زكاة الروح مراتب، وكلّ مرتبة من مراتب العلم الصائب يهيئ الارضية لدرجة من درجات العمل الصالح الآخر وتزكية النفس، كما أنّ كلّ مرحلة من مراحل العمل الصالح وتزكية الروح تعتبر مقدّمة إلى حصول علم صائب آخر أفضل من الأوّل.

٥ ـ الحسّ والتجربة أداتان مناسبتان للحصول على العلم الحسّي التجريبي، وأمّا التقوى والعمل الصالح، فإضافة على تأثيرهما الفاعل في الوصول إلى العلوم التجريبية، فإنّ لهما قصب السبق في تحقّق العلوم التجريدية.

٦ ـ لا يقف تأثير التقوى في مجال تأثيرها في وجود العلم الصائب على العلم الحضوري، بل يتعدّى ذلك إلى تحقّق العلم الحصولي أيضاً.

٧ ـ لا يقف العلم الّذي يعتبر مقدّمة للتزكية على الحصولي، بل يتعدى الأمر ذلك إلى العلم الحضوري، بمعنى أنّ السالك العازم يجب أن يكون على علم

بنقطة الشروع، والمسير، والعلامات، والزاد والراحلة، وغير ذلك من الأمور التي يتوقّف الوصول إلى الهدف عليها، سواء أكان ذلك العلم حصوليا أم حضوريا.

٨ ـ الاستمداد من الحسّ والتجربة، والاستعانة بالبراهين التجريدية، والاستفادة من مساعدة العمل الصالح، والاعتضاد بالعدل والتقوى وإعانة المعلّم والهادي بالنسبة إلى التعليم الإلهي الخاصّ، كلّ ذلك له دخالة في تتميم النصاب القابلي، وكل تلك الامور والمقدمات لا تحسب للفاعل القريب، بل المبدأ سبحانه وتعالى هو القادر على فيض العلم الخاصّ، وهو ما يستنبط من قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[1].

## إشارات ولطائف

### ١ ـ طلب التلاوة والتعليم والتزكية من الله سبحانه وتعالى

السمات الاربع للرسول الاكرم ﷺ ـ التلاوة، تعليم الكتاب، تعليم الحكمة، والتزكية ـ مسبوقة بأجمعها بطلبها من الله سبحانه وتعالى؛ فإنّه ما لم يكن من يروم هداية الناس مهديّا بنفسه، فكيف له أن يكون قائدا في هذا المسير؟!

فتلاوة الرسول الاكرم ﷺ مسبوقة بالتلاوة الالهية، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الانْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الاكْرَمُ﴾[2]، كما أنّ تعليمه ﷺ مسبوق بما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٥١.

٢ . سورة العلق، الآيات ١ ـ ٣.

٣ . سورة النمل، الآية ٦.




تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[١]، وقوله تعالى الآخر: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[٢]، وغيرها من الآيات المباركة.

وأمّا العناصر المحورية للكتاب والحكمة اللذين لهما دور في تعليم الرسول الاكرم ﷺ، فهي الآية المحكمة والفريضة العادلة والسنة القائمة: «إنّما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنّة قائمة، وما خلاهنّ فضل»[٣]، التي ترجع إلى العقائد، والفقه والقانون، والاخلاق.

من الطبيعي أنّ هذه العلوم الثلاثة تشمل بين جناحيها الكثير من المجموعات التي تضمّ الواجبات الفردية والجماعية، والسياسية، والثقافية، والاقتصادية، والعسكرية، والعلاقات الداخلية والخارجية الدولية.

تزكية حضرة الرسول ﷺ مسبوقة بما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهل الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٥]؛ فإنّ الشخص الُمطهِّر لنفوس الآخرين، يجب أن يكون قد طهّر بالطهارة الالهية، وأن يكون متخلقا بخُلُق عظيم، فما يعلّمه معلّم من هذا النوع، وما يقوم به من تزكية مزكّ من هذا الطراز، كلّ ذلك آية إلهية؛ إذ كلّ ذلك علامة الصدق والحقّ، وأمارة الواقع، والاتّصاف بآية الله لا تقتصر على الألفاظ، بل المعاني، والمصاديق العينية، و... كلّها آيات إلهية، يعني: «يتلو... آياتك... يعلّمهم آياتك يزكيهم بآياتك...».

---

١ . سورة النساء، الآية ١١٣.

٢ . سورة المزمّل، الآية ٥.

٣ . الكافي، ج١، ص٣٢.

٤ . سورة الاحزاب، الآية ٣٣.

٥ . سورة القلم، الآية ٤.

### ٢ ـ خاصية التعليم الالهي

يكون التعليم أحيانا بمعنى إفاضة العلم، كما أنّه يكون بمعنى التدريس وتهيئة أسباب انتقال العلم إلى المخاطب عن طريق وسائل متعددة من قبيل: القول أو الكتابة أو التصوير أو المحاكاة وغيرها من الوسائل أحيانا أخرى.

ولا ينفصل التعليم بقسمه الأوّل عن عملية التعلم، فلا مناص للمتعلّم من أن يتعلّم، وأمّا التعليم بقسمه الثاني، فليس كذلك؛ لإمكان انفكاك التعلّم عن التعليم في بعض الاحيان، بمعنى: أنّ من الممكن أن يلقي المعلّم مطلبا من المطالب إلا أن المتعلم لا يتمكّن مع ذلك من إدراك ذلك المطلب.

وفي حالة إسناد التعليم إليه سبحانه وتعالى، فهو القسم الاوّل السابق الذكر من قسمي التعليم، وهو الّذي يعبّر عنه بإيتاء الحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ...**﴾[1]، وأمّا إذا أسند العلم إلى غيره سبحانه وتعالى، فهو جامع بين القسمين السابقين، ومن هنا، فإنّ من الممكن أن يكون الشخص بمحضر الرسول الاكرم ﷺ فيستمع إلى كلامه وينصت له، إلّا إنّه لا يتمكّن مع ذلك من إدراك المعارف التي ألقاها ﷺ، فيجري ما يذكر في الفرق بين النظر والبَصَر في قوله تعالى: ﴿**وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ**﴾[2] في مجال السمع والفهم.

## البحث الروائي

### ١ ـ رسالة الرسول الاكرم ﷺ الدعوة المستجابة لإبراهيم

عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان بدؤ أمرك؟ قال: «**دعوة أبي**

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

٢ . سورة الأعراف، الآية ١٩٨.

إبراهيم، وبُشْرى عيسى بن مريم، ورأت أمّي أنّه خرج منها شيء أضاءت منه قصور الشام»[١].

ـ قال النبي ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى عليه السلام»[٢].

إشارة: دعاء حضرة إبراهيم عليه السلام، هو ذاك الّذي جاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وقد تقدّم في البحث التفسيري أنّ نبيّ الاسلام الكريم محمّداً ﷺ، هو المصداق الافضل من «الرسول» المذكور في الآية الشريفة المزبورة لا المصداق المنحصر من تلك المصاديق.

وقد جاء في القرآن الكريم بشارة حضرة عيسي ـ عليه السلام ببعثة الرسول الاكرم ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٣].

ويعلم من تعبير عيسى المسيح عليه السلام عن بعثته ﷺ بالبشارة، وإمضائه سبحانه وتعالى ذلك التعبير، أنّه عليه السلام إضافة على نقله الغيبي بعثته ﷺ، فإنّه قد أبرز فضله ﷺ لأمّته؛ إذ إنّ «البشارة» إنّما تصدق في موارد المطالب الجديدة الفضلى والكملى.

فلو كان النبي الجديد من حيث المقام والكلام والشريعة والمنهج على حدّ ما كان عليه النبيّ السابق، لما كانت القضية إلا مجرد إعلام باستمرار الرسالة، ولما صحّ استعمال «البشارة» حينئذ.

---

١ . بحار الانوار، ج١٦، ص٣٢١.

٢ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٣٩٥.

٣ . سورة الصفّ، الآية ٦.

## ٢ ـ مصداق الحكمة

قال رسول الله ﷺ: **«آتاني الله القرآن ومن الحكمة مثلَيْه»**[1].

**إشارة:** يمكن أن تكون الحكمة عين السنّة التي تستمد من باطن القرآن، كما أنّها يمكن أن تكون البراهين العقلية التي لها التأثير العظيم في الكشف عن المبادئ المطوية بغرض أن تكون المطالب القرآنية مطالب مبرهنة تقدّم بين يدي المتلهّفين لتلقّي العلوم والمعارف بصورة التدريس والتعليم الفنّي، أو لتكون في قالب المناظرة والنقاش والجدال الأحسن؛ فإنّ البرهان العقلي مصداق من مصاديق الحكمة، كما أنّ منهج التعليم الّذي يأخذ بيدي سالك طريق العلم ويحفظه من الانحراف يعدّ من جملة برامج الرسول الاكرم ﷺ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**أدْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**﴾[2].

وكما أنّه ﷺ يتعلّم أصل المطلب منه تعالى ثم يعلمه للآخرين، فإنّ الامر في المنهج الحكيم وفنّ التعليم والدعوة كذلك أيضاً؛ فإنّه ﷺ يتعلمه أوّلا منه تعالى، ليتمّ بعد ذلك إعماله من قبله ﷺ، وبذلك الاعمال يتعلّم الآخرون ذلك المنهج الحكيم منه فينتقل منه إليهم.

* * *

---

١ . الدر المنثور، ج١، ص٣٣٥.

٢ . سورة النحل، الآية ١٢٥.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

## التفسير المختار

تعدّ سيرة حضرة إبراهيم عليه السلام سيرة الرشد، كما أنّ دينه عليه السلام ـ وهو دين جميع الانبياء عليهم السلام ـ يعتبر معيار العقل والرشد وميزانهما، الأمر الّذي يجعل الاعراض عن ذلك الدين سفاهة، كما يعتبر رفض دين الاسلام وعدم قبوله تسفيها لنفس الكافر لا لغيره.

وأمّا السرّ في معيارية رشد سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام، فهو كونه عليه السلام الصفوة الصالحة، والسرّ في كونه كذلك، إنّما هو قبوله بدين هو صفوة الأديان واصطفاؤه سبحانه وتعالى له عليه السلام.

وقد ألحق حضرة إبراهيم الصفيّ عليه السلام في الآخرة بالصالحين الكاملين الذين صلحت جواهر ذواتهم، ولا يظهر منهم غير الصلاح.

### تفسير المفردات

**يرغب**: ذهب ابن فارس في معجم مقاييسه إلى أنّ «الراء والغين والباء أصلان: أحدهما طلبٌ لشيء، والآخر سَعَةٌ في شيء»[1]. بينما ذهب الراغب في مفرداته إلى أنّ الأصل في الرغبة «السعة في الشيء» ليس إلا[2].

---

١ . **معجم مقاييس اللغة**، ج٢، ص٤١٥، «رغ ب».

٢ . **المفردات**، ص٣٥٨، «رغ ب». قال: «رغب: أصل الرغبة السعة في الشيء، يقال رغب الشيء ←




إلا أن الرغبة هي الميل الشديد والاشتياق الكثير، كما أنّ هناك فرقا بين الرغبة وبين الميل والشوق، والجامع بين الكل هو النزعة، وهي التي تستعمل في المكروه، والممدوح، والجذاب وغير الجذاب، وأمّا مفهوم السعة الّذي هو من لوازم بعض الأشياء، فهو نوع من النزعة الطبيعية إلى تقبّل المحتوى ووضعه في جوف الشيء وفي ضمنه، فالوادي الرغيب مثلا، يطلق على الوادي الضخم الواسع كثير الاخذ للماء.

وتدلّ الرغبة التي تقابل «الرهبة» لو استعملت بدون حرف جر، أو مع حرف الجر «إلى» و«في» على الارادة والطلب، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ**﴾[1]، وأمّا إذا استعملت الرغبة مع الحرف «عن»، فهي تدل على الزهد في الشيء وعدم إرادته، كما في قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي**﴾[2].

سفه: قيل: إن فعل (سَفِهَ) بكسر «الفاء» متعدّ بمعنى «التسفيه». وبناء على هذا، فقوله تعالى: ﴿**مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾، يعني: من جعل نفسه سفيهة.

وأمّا لو جاء الفعل بضم الفاء فقيل: «سَفُهَ»، فهو فعل لازم مبيّن لصفة أو خصلة، وفي هذه الحالة ستكون كلمة «نَفسه» بمنزلة التمييز، فيكون معنى جملة: «من سَفُه نفسَه» هو: «من سَفُهَ نفساً»، والتي تعني: الانسان السفيه[3].

وأصل السفاهة الخفة، ويقال للزمام الخفيف: السفيه[4].

وأمّا «السَفَه»، فيأتي أحيانا في مقابل «الرشد»، كما أنّه يأتي في مقابل «العقل» أحيانا أخرى، كما أنّ «الرشد» بنفسه يأتي في مقابل «السَفَه» أحيانا وفي مقابل

---

اتسع. وحوض رغيب، وفلان رغيب الجوف، وفرس رغيب العدو». (المترجم).

١ . سورة التوبة، الآية ٥٩.

٢ . سورة مريم، الآية ٤٦؛ التحقيق، ج٤، ص١٦٧، «ر غ ب»

٣ . المفردات، ص٤١٤، «س ف ه».

٤ . الكشاف، ج١، ص١٨٩.



«الغيّ» أحيانا أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[١].

وقد ذهب البعض إلى أن «سَفِه نفسَه» في الآية المباركة تعني «جهلَ نفسَه» أو «أهلَك نفسَه» أو «أضلّ نفسَه»، وهي جميعا من لوازم معنى السفه[٢].

**تنويه:** إعتبر الشريف الرضيّ أن إسناد السفه إلى النفس استعارة؛ باعتبار أن صاحب النفس هو السفيه لا النفس ذاتها[٣]، ويمكن أن يقال بأن لُبّ هويّة أيّ شخص وأصله هو نفسه، وأمّا البدن، فهو تابع، ومن هنا قال الطَبَري بأن «نفس» في قوله تعالى: ﴿سَفِه نفسَه﴾ مُفسِّر؛ إذ إنّ «السفه» في الاصل وصف للنفس وليس وصفا لـ «مَن» في قوله تعالى: ﴿مَن يرغب﴾[٤].

**إصطفيناه:** هذا الفعل من الأصل «صَفْو» الدالّ على الخلوص من أيّ نوع من الكدورة والشوب.

و«الصفاء» ضدّ الشوب والكدورة، وبمعنى عدم أيّ شوب، والتصفية من هذه المادة أيضاً.

والصفيّ والصفيّة وجمعها صفايا: ما يصطفيه الرئيس لنفسه[٥]، وبناء عليه، يكون «الاصطفاء» بمعنى تناول صفو الشيء عن شوق وقصد، كما في اصطفاء

---

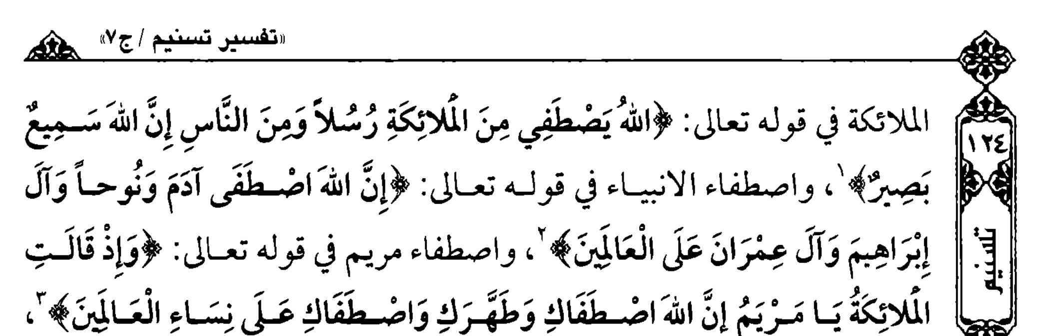
١ . **سورة البقرة**، الآية ٢٥٦.

٢ . راجع: **تفسير منهج الصادقين**، ج١، ص٣٨٥؛ **تفسير ابي السعود**، ج١، ص٢٩٤.

٣ . **تلخيص البيان في مَجازات القرآن**، ص١١٨.

٤ . **جامع البيان**، ج١، ص٦٠٩، نقل به معنا. قال: «وإنما نصب "النفس" على معنى المفسر. ذلك أن"السفه" في الاصل للنفس، فلما نقل إلى "من"، نصبت "النفس"، بمعنى التفسير. كما يقال: "هو أوسعكم دارا"، فتدخل "الدار" في الكلام على أن السعة فيها، لا في الرجل. فكذلك "النفس" أدخلت لأنّ السفه للنفس لا لـ "من". ولذلك، لم يجز أن يقال: سفه أخوك. وإنّما جاز أن يفسّر بالنفس، وهي مضافة إلى معرفة، لأنّها في تأويل نكرة». (المترجم).

٥ . **معجم مقاييس اللغة**، ج٣، ص٢٩٢؛ **التحقيق**، ج٦، ص٢٩٨؛ **المفردات**، ص٤٨٧؛ «ص ف و».



الملائكة في قوله تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[١]، واصطفاء الانبياء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢]، واصطفاء مريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[٣]، واصطفاء الدين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾[٤].

## تناسب الآيات

تعرّضت الآيات السابقة إلى قسم من سيرة حضرة إبراهيم عليه السلام، وكذلك إلى بعض أعماله وأدعيته عليه السلام. ومواصلة للقرآن الكريم للكلام عقب تلك الآيات الشريفة، يتعرّض إلى قضية أنّ الايمان بحضرة إبراهيم عليه السلام هو مقتضى حكم العقل، ولا سبيل للانسان العاقل إلا قبول شريعته التوحيدية التي تمّت مواصلتها من قبل نبيّنا الاكرم صلى الله عليه وآله، كما يعتبر رفضه وعدم الايمان به سفاهة وجهالة محضتين.

وتعرّضت هذه الآية في ما جاء بعد ذلك فيها، إلى مسألة اصطفاء إبراهيم عليه السلام في الدنيا، وإلى صلاحه في الآخرة، وهو ما يعتبر في حدّ نفسه دليلا على عقل أهل القبول وسفاهة أهل النكول.

وتتناول الآيتان التاليتان دليل اصطفاء إبراهيم عليه السلام في الدنيا وكونه من الصالحين في الآخرة، فتذكران أنّ ذلك إنّما هو بسبب تسليمه وإطاعته الكاملة، ذلك التسليم المحض وتلك الاطاعة المحضة التي كان يتصف بها عليه السلام كما هو

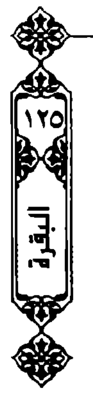
---

١ . سورة الحجّ، الآية ٧٥.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٣٣.

٣ . سورة آل عمران، الآية ٤٢.

٤ . سورة البقرة، الآية ١٣٢.




نص الآية الكريمة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، كما أنّه ما وصى به إبراهيم عليه السلام هو ويعقوب عليه السلام ـ الّذي ينسب إليه اليهود والنصارى ـ كما نصت عليه الآية المباركة: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[2]، والوقوف على هذه الخصوصيات الوجودية يضع بين يدي الباحث دليلا كافيا على رشد المؤمن وسفاهة المنكر.

* * *

## شريعة الانبياء الإبراهيميين عليهم السلام

ملّة حضرة إبراهيم عليه السلام ودينه هما دين جميع الانبياء الابراهيميين عليهم السلام كما جاء عن حضرة يوسف عليه السلام حيث قال كما نقل القرآن الكريم: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[3]، وهو ما أمر به سبحانه وتعالى نبيّه الكريم باتباعه، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[4].

وإذا قبل الشخص بأصل ملّة نبيّ من الانبياء، فإنّه لا جرم سيقبل بجزئيات تلك الملّة، إلّا أنْ تتغير بعض تلك الجزئيات والفروع بظهور الملّة الجديدة.

وتعتبر ملّة إبراهيم عليه السلام محلّ اعتماد المسيحيين واليهود وسائر الموحّدين. فهؤلاء لو كانوا يحترمون تلك الشريعة، فإنّه لا بدّ لهم من أن يجعلوها الأساس والميزان لهم في مجالات العقائد، والاخلاق، وسائر الاعمال التي تصدر منهم، كما يلزمهم على أساس ذلك أيضاً قبول الإسلام؛ فإنّ للإسلام جميع مزايا ملّة إبراهيم عليه السلام وزيادة، بحيث يكون الدين الأكمل والأحسن.

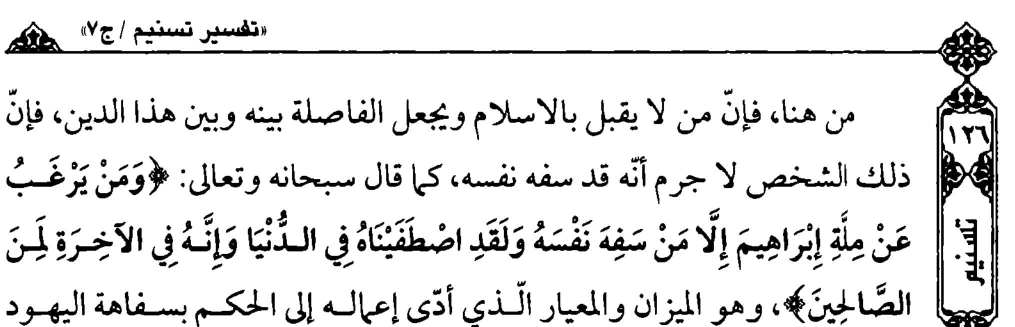
---

١ . سورة البقرة، الآية ١٣١.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٣٢.

٣ . سورة يوسف، الآية ٣٨.

٤ . سورة النحل، الآية ١٢٣.



من هنا، فإنّ من لا يقبل بالاسلام ويجعل الفاصلة بينه وبين هذا الدين، فإنّ ذلك الشخص لا جرم أنّه قد سفه نفسه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وهو الميزان والمعيار الّذي أدّى إعماله إلى الحكم بسفاهة اليهود والنصارى من قبله تعالى؛ إذ كما لم يكن حضرة إبراهيم عليه السلام وثنيا ولا من أهل الأصنام، كذلك لم يكن يهوديّا ولا نصرانيّا، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

## المراد بملّة إبراهيم عليه السلام

المراد بملّة إبراهيم عليه السلام هو دين الاسلام لا خصوص شريعة ومنهاج كلّ واحد من الانبياء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[2].

والعناصر المحورية للاسلام عبارة عن المعارف التوحيدية، ومسائل الوحي والنبوّة، وضرورة قبول الرسالة المعجزة، ومطالب المعاد وقطعية الحياة المحسوسة والمعقولة للانسان بعد الموت، والأحكام الحقوقية والفقهية.

وقد أعرض الأعراب من عبدة الاوثان والاصنام عن جميع هذه العناصر المحورية السابقة الذكر، وأمّا اليهود والنصارى، فمن جهة ابتلائهم بالقول بالتثنية والتثليث، فقد أعرضوا عن التوحيد بصورة عملية، كما أنّ التلوّث الّذي وقعوا فيه في بعض العقائد والاخلاق والاحكام الفاسدة، أدّى بهم إلى الاعراض عن سائر المسائل والمطالب والرغبة عنها.

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٦٧.

٢ . سورة المائدة، الآية ٤٨.

ويعدّ الاعراض عن الكعبة التي هي مطاف الحجّاج والمعتمرين المتدينّين، وقبلة المصلّين من أبرز مصاديق الاعراض عن ملّة إبراهيم، الأمر الّذي يكشف عن ضعف الإشكال الّذي نقله الفخر الرازي في تفسيره في المقام.

وخلاصة الاشكال، هو أنّه بناء على أنّ ملّة نبيّنا محمّد ﷺ هي ملّة إبراهيم عليه السلام في الاصول، من التوحيد والنبوّة ورعاية مكارم الاخلاق، لا في الفروع وكيفية الاعمال، فالاعتراف بملّة إبراهيم عليه السلام حينئذ لا يقتضي الاعتراف بنبوّة محمّد ﷺ[1].

ومما تقدم في بيان المقصود من ملّة إبراهيم عليه السلام، يعلم أن المقصود من تلك الملّة ليس خصوص دعاء حضرة إبراهيم عليه السلام في بعثة شخص من ذريّته: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، لكي يأتي الرازي ليقول: إنّه لّما سلّم اليهود والنصارى والعرب كون إبراهيم عليه السلام محقاً في مقاله، وجب عليهم الاعتراف بنبوّة هذا الشخص الّذي هو مطلوب إبراهيم عليه السلام، وإلا، صدق الإعراض والرغبة عنه، وعليه، فجواب الفخر الرازي بأنّ ملّة إبراهيم هي الدعوة القرآنية المزبورة خطأ فادح.

وهناك نقدان آخران ذكرهما الرازي مع نقدهما في المقام، وهما:

الاوّل:

أن هذا الدعاء بنفسه ـ دعاء ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ـ يعني أنّ القوم ما سلموا أن إبراهيم طلب مثل هذا الرسول من الله تعالى، وإنما محمّد ﷺ روى هذا الخبر عن إبراهيم عليه السلام ليبني على هذه الرواية إلزام أنّه

---

١. التفسير الكبير، ج٤، ص٦٩.





يجب عليهم الاعتراف بنبوة محمّد ﷺ، فإذن، لا تثبت نبوّته ما لم تثبت هذه الرواية (القرآن)، ولا تثبت هذه الرواية ما لم تثبت نبوّته، فيفضي إلى الدور وهو ساقط.

الثاني:

سلّمنا أنّ القوم سلّموا صحة هذه الرواية، لكن، ليس في هذه الرواية إلا أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله تعالى أن يبعث رسولاً من ذريّته وذريّة إسماعيل، فكيف القطع بأن ذلك الرسول هو هذا الشخص؟ فلعلّه شخص آخر سيجيء بعد ذلك، وإذا جاز أن تتأخر إجابة هذا الدعاء بمقدار ألفي سنة، وهو الزمان الّذي بين إبراهيم وبين محمّد عليهما السلام، فلم لا يجوز أن تتأخر بمقدار ثلاثة آلاف سنة، حتّى يكون المطلوب بهذا الدعاء شخصاً آخر سوى هذا الشخص المعين؟

وقد تخلّص الفخر الرازي من الإشكال الأوّل بقوله: «لعل التوراة والانجيل شاهدان بصحة هذه الرواية، ولولا ذلك لكان اليهود والنصارى من أشدّ الناس مسارعة إلى تكذيبه في هذه الدعوى».

وأمّا الإشكال الثاني، فقد تخلّص منه بقوله: «إنّ المعتمد في إثبات نبوّته عليه السلام: ظهور المعجز على يده، وهو القرآن، وإخباره عن الغيوب التي لا يعلمها إلا نبيّ مثل هذه الحكايات، ثم إنّ هذه الحجة تجري مجرى المؤكّد للمقصود والمطلوب»[1].

وأمّا نحن، فنقول: ما سبق في بيان المراد بملّة إبراهيم عليه السلام يجعلنا في غنى عن التكلّفات التي تكلّفها الفخر الرازي، فهي إنّما نشأت من انحرافه عن المقصود الصحيح من ملّة إبراهيم عليه السلام.

---

١ . راجع: **التفسير الكبير**، ج٤، ص٦٩.




## المراد من الرغبة

المقصود من الرغبة والاعراض في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ﴾، هو الاعراض بدون أمر منه سبحانه وتعالى ولا حجّة عن ملّة حضرة إبراهيم عليه السلام، التي كانت تشتمل بالإضافة إلى العناصر المحورية في الاسلام، على شريعة خاصّة ومنهج خاص بذلك العصر.

بناء على ما مضى، فإنّه على الرغم من أنّ حضرة محمّد صلى الله عليه وآله قد حافظ على العناصر المحورية لملّة حضرة إبراهيم عليه السلام في رسالته، إلا إنّه يصدق عليه أنّه أعرض عن تلك الملّة مع التوجّه إلى تركه لبعض الفروع التي تمثل جزءاً من شريعة إبراهيم عليه السلام ومنهاجه.

إلا أنّ ذلك الاعراض يعتبر إعراضا محمودا ما دام بأمره سبحانه وتعالى، وهو ما يعبّر عنه بالنسخ، ما يعني عدم ورود ما نقله الفخر الرازي إشكالا في المقام في تفسيره، من «أن محمداً صلى الله عليه وسلم لمّا اعترف بأن شرع إبراهيم منسوخ، ولفظ الملّة يتناول الأصول والفروع، فيلزم أن يكون محمّد (عليه الصلاة والسلام) راغباً أيضاً عن ملّة إبراهيم، فيلزم ما ألزم عليهم»[1].

## معيار الرشد والسفاهة

ذكر سبحانه وتعالى لأهل الرشد خمس صفات، صفتان منها ثبوتيتان والثلاث الباقيات سلبيات.

أمّا الصفتان الثبوتيتان، فهما:

الأولى: حبّ الدين والايمان بحيث يعتبرونه تشريفا لا تكليفا.

الثانية: إعتبار الدين والإيمان زينة في القلب.

---

١ . التفسير الكبير، ج٤، ص٦٩ ـ ٧٠.

وأمّا بالنسبة إلى الصفات السلبية الثلاث، فهي:

الأولى: كراهة الكفر.

الثانية: كراهة الفسق.

الثالثة: كراهة العصيان.

قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الايمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[١].

بناء على ما تقدّم، لا يختصّ الرشد بحضرة إبراهيم عليه السلام، وإن كان حضرته رأس سلسلة الراشدين وأسوتهم.

وقد اعتبر القرآن الكريم إبراهيم عليه السلام رشيدا، جاعلا العلامة على رشده عدة أمور، هي: الدعوة إلى التوحيد، ومبارزة الشرك، وكسر الاصنام، والصبر على التهديد بالنار، وما شابه ذلك من أمور[٢].

وبعد التعريف بحضرة إبراهيم عليه السلام علميا وعمليا، وبعد نقل شيء من سيرته الهادية، جعل سبحانه وتعالى دينه عليه السلام وملّته المعيار في العقل والرشد[٣].

السرّ في ما جاء قبل قليل من جعله سبحانه وتعالى دين إبراهيم عليه السلام وملّته المعيار في العقل والرشد، هو أنّه تعالى قد أعطاه عليه السلام الرشد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[٤] ما يعني أن سيرة إبراهيم

---

١ . سورة الحجرات، الآية ٧.

٢ . النكتة في ذكر كمال من الكمالات الانسانية بداية كلّ قصة من القصص التي يذكرها القرآن الكريم، هي الاشارة إلى أهمية ذلك الكمال وتأثيره الفاعل في تلك القصّة. وهذا ما يجري في ما نحن فيه؛ حيث إنّ بيان الرشد في بداية قصة حضرة إبراهيم عليه السلام المعلّمة يأتي من هذا الباب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إذ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * إذ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾. (سورة الانبياء، الآيات ٥١ ـ ٦٨).

٣و٤ . سورة الانبياء، الآية ٥١.



الرشيد عليه السلام هي سيرة الرشد، ولمّا كان الإعراض عن الرشد سفاهة، فإنّ كلّ من أعرض عن سيرة إبراهيم خليل الرحمان عليه السلام وسنّته وملّته، فهو سفيه، وهو ما جعل فرعون مع كلّ ادعاءاته العظيمة سفيها عنده سبحانه وتعالى، كما جاء في الآية الشريفة: ﴿وَمَا أمر فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[1].

ولأجل وضوح المطلب وجلائه، فقد جاء سبحانه وتعالى في آخر الآية بصيغة الاستفهام الاستنكاري، وهل يمكن الإعراض عن مهد العقل، ومتن الرشد، ومحض الحكمة إلا في حالة السفاهة، ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾؟!

والسر في هذا التعجب، هو أنّ السفيه في مقابل العاقل والعقل، العقل الّذي وصف في بعض الأحاديث بأنّه: «ما عبد به الرحمان واكتسب به الجنان»[2].

وعكس نقيض ما ورد في هذا الحديث، هو: أنّ ما لم يعبد به الرحمان ولم يكتسب به الجنان فليس بعقلٍ. وسيأتي لذلك مزيد بيان إن شاء الله تعالى[3].

فالسفاهة إذن هي ألّا يحمل الشخص هذا النور، فلا يتمكن من عبادته سبحانه وتعالى ولا من أن يكتسب الجنة، ومن هنا، فإنّ من أعرض عن دين حضرة إبراهيم ـ وهو من كانت العبادة والجنة ثمرته ـ فهو سفيه لا عاقل.

ومع أخذ المعيار الّذي ذكرناه للرشد بنظر الاعتبار، فالإعراض عن ذلك يعدّ سفاهة بلا شك؛ إذ ليس في مقابل الرشد إلا الغيّ والسفاهة، كما أنّ مقابل الحقّ ليس إلا الضلال، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الحقّ إِلَّا الضَّلالُ﴾[4]، إذ إنّ التقابل بين الحقّ والباطل من قبيل التقابل بين السلب والايجاب لا التقابل

---

١ . سورة الهود، الآية ٩٧.

٢ . الكافي، ج١، ص١١.

٣ . نيز راجع: توحيد در قرآن، ص٦٤٢.

٤ . سورة يونس، الآية ٣٢.

بين الضدّين الذين لهما ثالث، فإنّ أحدهما الطريق الصحيح الّذي ينتهي بالهدف، والآخر انحراف عنه إلى غيره، وهو ما لن ينتهي إلى الهدف قطعا.

بناء على ما مضى، فإنّ تعبير القرآن عن الطريق المنحرف بالسبيل، وتعبيره عنه بالنّجد في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[1]، ليس المقصود منه أن نجد الضلال وطريقه هو طريق ونجد حاله حال طريق الهداية ونجده، بل المقصود بتعابير من هذا القبيل، هو أن السائر على طريق الغيّ وسبيل الباطل، لا يفيده صرف مسيره على الطريق والسبيل دليلا على صحة ما انتخبه من المسير[2].

**تنويهات:** ١ ـ سفاهة الراغبين عن ملّة حضرة إبراهيم عليه السلام كما هي مسبوقة بالدليل، فهي ملحوقة به أيضاً.

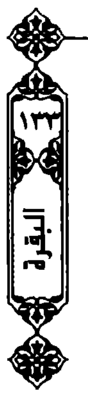
أمّا بالنسبة إلى الدليل السابق، فيمكن الإشارة إلى جملة من الأمور، منها: إمامة إبراهيم عليه السلام، إعادته بناء الكعبة، رؤيته مناسك الحج، طلب الانقياد الكامل له سبحانه وتعالى، وطلب بعث رسول جامع لكمالات التلاوة، والتعليم والتزكية، وكل هذه الامور قد ثبتت له عليه السلام، فكانت السند للزوم الالتفاف حوله والانجذاب له والايمان به، فالرغبة عنه عليه السلام مع تقدم كلّ هذه الادلة سفاهة ما بعدها من سفاهة.

وأمّا بالنسبة إلى الأدلة اللاحقة على سفاهة الراغبين عن ملّة حضرة إبراهيم عليه السلام، فيمكن الاشارة إلى قضية صيرورته عليه السلام من قبله تعالى الصفوة في الدنيا ومن الصالحين في الآخرة، الصفتان اللتان كشف عنهما الوحي، ولولاه لبقيت القضية سرّا من الاسرار.

---

١ . سورة البلد، الآية ١٠.

٢ . فيأتي فيه ما جاء عن مولانا الصادق عليه السلام حيث يقول: «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق، لا يزيده سرعة السير إلّا بعدا». (المترجم).



٢ ـ إنّ ما يقال بالنسبة إلى وضوح الشمس وإنّ كلّ من لا يراها فهو أعمى، يقال أيضاً في مجال معقولية ملّة إبراهيم عليه السلام، فكلّ من لا يقبل بها ويعرض عنها فهو سفيه، الأمر الّذي يشبه ما جاء على لسان حضرة أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «إنّ الله بعث رسولاً هادياً بكتابٍ ناطقٍ وأمرٍ قائمٍ، لا يهلك عنه إلا هالك»[١]، بمعنى: أن حقّانية دين الاسلام واضحة إلى حدّ يمتنع وصول الأذى فيه إلى أيّ شخص، إلّا في حالة رفض الشخص نفسه لغير الهلاك.

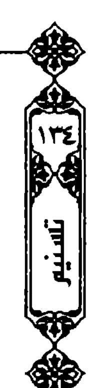
## تسفيه النفس

السرّ في سفاهة الراغب عن دين إبراهيم عليه السلام، هو أنّ أعمال الانسان كلّها إن كانت حسنة بالذات فهي بنفع العامل، وإن كانت قبيحة بالاصالة فهي في ضرر الانسان نفسه، ولا يمكن لأي شخص من الاشخاص أن يوصل الضرر أو الظلم إلى غيره بالذات، بل الضرر بالاخرين وإيقاع الظلم عليهم إنّما هو بالعرض دائما، وأمّا أصل ذلك الظلم فهو لنفس ذلك الظالم، لتصل آثاره إلى الاشخاص الآخرين.

وما قلناه في الظلم والضرر فهو جار في الخير والاحسان، كما في ما لو أعد الانسان مزرعة داخل منزله فزرع فيها أصناف الورود، فبركات تلك المزرعة وآثارها الطيبة تعود عليه أوّلا وبالاصالة، وإلى غيره ثانيا وبالعرض وبصورة أقل كثيرا مما يصل إليه من تلك الاثار.

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٦٩ . والجملة المذكورة من خطبة له عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة حيث قال فيها: «إنّ الله بعث رسولا هاديا بكتاب ناطق وأمر قائم، لا يهلك عنه إلّا هالك. وإنّ المبتدعات المشبهات هنّ المهلكات إلّا ما حفظ الله منها. وإنّ في سلطان الله عصمة لأمركم. فأعطوه طاعتكم غير ملومة ولا مستكره بها. والله لتفعلنّ أو لينقلنّ الله عنكم سلطان الاسلام، ثم لا ينقله إليكم أبدا حتّى يأرز الأمر إلى غيركم». ويأرز بمعنى، يرجع. (المترجم).


وهكذا الأمر في ما لو أعد ذلك الشخص مجمعا للقاذورات داخل منزله، فإنّ الضرر أوّلا وبالذات سيقع عليه، وإن كان سيقع على الآخرين من الجيران وعابري السبيل أيضاً وإن كان مجمع القاذورات بصورة أقل ضررا.

وقد عبّر سبحانه وتعالى عن الأصل الكلّي المزبور ـ يعني: الارتباط الضروريّ بين العمل والعامل، والصفة بالموصوف والعقيدة بالمعتقِد ـ بقوله عزّ من قائل: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1].

المعنى السابق أشير إليه في آيةٍ أخرى بشكل خاص، وهو مجيء البصائر، أي: علل البصيرة وعوامل ضياء القلب، منه سبحانه وتعالى، فمن ينظر إليها بعين البصيرة، فإنّ ذلك بنفعه، وأمّا من لا ينظر إليها كذلك، فإنّ الضرر عليه، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[2].

والحاصل: من غير الممكن أن يتجاوز العمل الجوانحي أو الجوارحي العامل ذاتا ليصل إلى الآخرين بالأصالة؛ إذ إنّ روح العمل إنّما هي النيّة، وهي ما لا يمكن انفصاله عن نفس الانسان، وكل عامل إنّما يحشر بتلك النية، فقد جاء في الحديث: «لكلّ امريءٍ ما نوى»[3]، وجاء أيضاً: «إن الله عزّ وجلّ يحشر الناس علي نيّاتهم يوم القيامة»[4].

---

١ . **سورة الاسراء**، الآية ٧. واللام في «لأنفسكم» ليست لام النفع لكي يقال: اللام في «فلها» لام المشاكلة؛ فإنها في مقابل «له»، وحينها تكون اللام هنا لام النفع، تستعمل «عليه». وفي هذه الآية الشريفة أيضاً، لو كانت اللام في الجملة الاولى لام النفع، لكان اللازم أن تجيء «فعليها» في الجملة الثانية بدلا عن «فلها»، وعليه، فاللام لام الاختصاص؛ يعني أنّ العمل، سواء أكان خيرا أم لا، فهو خاص بالعامل ومتعلق به لا ينفصل عنه، ويكون نفعه أو ضرره من نصيب الآخرين بالعرض.

٢ . **سورة الأنعام**، الآية ١٠٤.

٣ . **بحار الانوار**، ج٦٧، ص٢١٠ ـ ٢١٢.

٤ . **الكافي**، ج٥، ص٢٠.

فالنتيجة: أنّ العمل سواء أكان روحيا أم بدنيا، فإنّه لا ينفصل عن العامل، سواء أكان في خير الآخرين أم في ضررهم، ليظهر يوم القيامة وهو يوم الحقّ: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الحقّ﴾[1] كلّ ما خفي عن الناس من حق ومن باطل، كما في البصيرة والعمى المزبورين.

على أساس ما سبق من حقائق وشواهد، فإنّ من يراعي العدل فقد قوّى نفسه وهويّته، كما أنّ الظالم إنّما سفّه نفسه وهويّته، وهذا هو السرّ في تعبير القرآن الكريم عمّن لم يكن ممّن حوى الأركان الأربعة: «الإيمان»، و«العمل الصالح»، و«التواصي بالحقّ» و«التواصي بالصبر» بأنّه في خسر، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الانْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[2]، نعم، يتفاوت من فقد الاركان السابقة في الرتبة؛ إذ خسارة بعضهم أو خسرانه أعظم من بعض.

الخسارة تعني فقدان رأس المال، ورأس مال الانسان الّذي لا ينفصل عنه هو نفسه لا ما يملكه من أموال وممتلكات، ومن يفقد هويّته فيكون تحت ولاية الشيطان ليس مالكا لنفسه أبدا، بل قد أهلك نفسه فلا يبقى منها أيّ شيء، كما تذوب قطعة الثلج تحت شمس النهار الحامية، فيذهب أصلها ولا يبقى منه أيّ شيء.

من هنا، يعبّر القرآن الكريم عن أفراد من هذا النوع بأنّهم قد خسروا أنفسهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

من يخسر ماله ويتعرض للإفلاس يمكنه أن يجبر خسارته بطريقة من الطرق، وأمّا من يخسر نفسه، فلا سبيل له أبدا إلى جبران ما خسره من عمره،

---

١ . سورة النبأ، الآية ٣٩.

٢ . سورة العصر، الآيات ١ ـ ٣.

٣ . سورة الأنعام، الآية ٢٠.

فهذا الانسان الّذي تعرّض لخسارة نفسه يشبه من ضلّ الطريق وقد أضاع السراج أيضاً، فلا نور عنده يستفيد منه في الطريق، وبدون السراج لا يمكن أبدا العثور على ما ضاع من الأشياء.

إذا صارت فطرة الانسان المظلوم وشهوته ظالمة، وسقطت فطرة المظلوم بظلم شهوته، فلن يبقى حينئذ نور لكي يستضيء به الانسان في تمييز مسيره، ولهذا، فالانسان الّذي لا يؤمن من الأساس، أو الّذي لا يراعي الحدود الإلهية، فإنّه إنّما يظلم نفسه، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾[1].

وقد اتّضح بما سبق السرّ في أنّ الراغب عن دين حضرة إبراهيم عليه السلام قد سفه نفسه.

## سرّ اصطفاء حضرة إبراهيم عليه السلام

بعد أن اعتبر الله سبحانه وتعالى حضرة إبراهيم عليه السلام وسيرته معيارا للعقل والرشد، بيّن أنّ ذلك إنّما هو لأجل كونه صفوة، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا**﴾[2]، فقد كان موحدا محضا فاصطفي من قبله تعالى من بين المؤمنين والمتّقين والطاهرين.

لقد اختار الله سبحانه وتعالى لنا طريقة ودينا هو صفوة الأديان وأفضل الطرق، ووصانا باتباعه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾[3]. فلو آمن الشخص بالدين الّذي هو صفوة الأديان الإلهية وتمسك به، فإنّه سيكون أيضاً من المصطفين من قبله تعالى، الأمر الّذي يعني أنّ السرّ في اصطفاء حضرة إبراهيم عليه السلام هو في إيمانه بدين هو الصفوة.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٣١.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٣٠.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٣٢.



مـن الجـدير بالـذكر، أنّ الاخـتلاف في التعبـير عـن اصـطفاء حضرـة إبراهيم عليه السلام وصلاحه، ونسبته سبحانه وتعالى الأوّل إلى «الدنيا» والثاني إلى «الآخـرة» في قولـه تعـالى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ليس صرف التفنّن في التعبير، بل قد أريد خصوصية كلّ واحد منهما من قبله تعالى.

ومن الطبيعي أن الخصوصيّتين السابقيتن اللتين اتّصف بهما إبراهيم خليل الرحمان عليه السلام هما ثابتتان له في النشأتين، وإن كان اصطفاؤه عليه السلام في الدنيا أمرا واضحا، ومن كان في الدنيا مصطفى من قبله تعالى، فهو في الآخرة مصطفى أيضاً بلا أيّ شك أو ريب، كما هو الامر في ما لو كان شخص مّا صالحا في الآخرة، فلا بدّ من أنّه كان صالحا في الدنيا، ألا إنّ في إلحاقه عليه السلام بالصالحين في الآخرة نكتة عميقة نتعرّض لها بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

تنويه: ذهب البعض إلى وقوع تقدّم وتأخّر في الآية الكريمة الّتي هي مورد البحث، بمعنى أنّ أصل الآية كانت كما يلي: «لقد اصطفيناه في الدنيا والاخرة وإنّه لمن الصالحين».

إلّا أنّ الصحيح هو عدم أيّ دليل على الاحتمال الواهي السابق (التقدم والتأخر وزيادة حرف في)، ومن هنا، ذكر أبو حيّان الاندلسي ـ بعد نقله عن الحسن بن الفضل أنّه خطأ، وأن كتابه سبحانه وتعالى منزّه عنه[1].

## الالتحاق بالصالحين

طلب حضرة إبراهيم عليه السلام ـ الّذي اعتبر من الصالحين بنص الآية الكريمة: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الارْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ

١ . تفسير البحر المحيط، ج١، ص٣٩٥.




وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾[1] ـ منه تعالى إلحاقه بالصالحين كما جاء في قوله عزّ من قائل: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2].

ما يشبه الدعاء السابق نسمعه من حضرة يوسف عليه السلام أيضاً، فقد دعاه سبحانه وتعالى وهو في أواخر عمره الشريف بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الاحَادِيثِ فَاطِرَ السَّماوَاتِ وَالارْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[3].

إنّ صلاح الانسان إنّما هو بسبب ما يتمتّع به من كمالات وجوديّة لها مراتب كما للوجود مراتب، ومن هنا، كان للصلاح مراتب ودرجات، وللصالحين درجات ومراتب مختلفة.

فلبعض الصالحين المرتبة العليا التي لا يدانيها مرتبة، بحيث يطلب أنبياء من طراز حضرة إبراهيم ويوسف عليهما السلام منه تعالى أن يلحقهما بأولئك الصالحين الذين كان نبيّنا الاكرم صلى الله عليه وآله ـ وهو من في ظلّ الولاية الخاصّة الالهية ـ منهم حيث يقول كما ورد في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[4].

لقد كان جوهر ذوات هؤلاء الصالحين صالحا، فلم يكن يصدر عنهم أو يظهر منهم إلّا الصلاح، وحيث إنّهم منشأ العمل الصالح، وكان كلّ منشأ أفضل من الناشئ، فإنهم يفيضون على ذلك العمل الصالح الشرف والفخر لا أنّهم ينالون الفخر بسببه هو، كما جاء على لسان أمير المؤمنين حيث يقول: «فاعل الخير خيرٌ منه»[5].

---

١ . سورة الانبياء، الآيات ٧١ ـ ٧٢.

٢ . سورة الشعراء، الآية ٨٣.

٣ . سورة يوسف، الآية ١٠١.

٤ . سورة الاعراف، الآية ١٩٦.

٥ . نهج البلاغة، الحكمة ٣٢.

كما أنّ القواعد العقلية قاضية بأنّ كلّ فاعل ومؤثر فهو أقوى من الفعل والأثر، الأمر الّذي يفسره أنّ الفاعل هو منشأ الفعل والعمل، والعمل إنّما هو أثر العامل والفاعل.

من الطبيعي أن المقصود هو أن يكون المصلّي والصائم مثلا أفضل من نفس الصلاة والصيام، وليس أن يكون أفضل من حقيقة الصلاة والصيام اللّذين يمكن أن يكون وجودهما الملكوتي أفضل من وجود المصلّي والصائم العادي.

إنّ كون الذات صالحة غير كون العمل صالحا، كما أنّ كون العمل صالحا لا يعني بالضرورة تقوّم ذات العامل بالصلاح، فإنّ من الأشخاص من لم ينفذ الصلاح في أرواحهم بحيث يكون الصورة النوعية لهؤلاء وإن كان لهم عمل صالح، فهؤلاء معرّضون للزلّات في كلّ آن.

وقد استجاب سبحانه وتعالى دعاء حضرة إبراهيم عليه السلام، فقال في جواب ذلك الدعاء: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الاخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وقال أيضاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوّة وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الاخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الاخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2].

وقد فرّق في الآية الشريفة الأخيرة بين الحسنة والصلاح، فجعلت الأولى ثمرة دنيوية بينما جعل الصلاح ثمرة أخروية لحضرة إبراهيم عليه السلام، بينما جاءت الحسنة دنيوية وأخروية على لسان بعض الأفراد، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الاخِرَةِ حَسَنَةً﴾[3].

---

١ . سورة العنكبوت، الآية ٢٧.

٢ . سورة النحل، الآية ١٢٢.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٠١.

ولمّا كانت الدنيا محل ظهور صلاح أيضاً، فإنّه لا يمكن القول بأنّ السرّ ـ في التأكيد على لحوق حضرة إبراهيم عليه السلام بالصالحين في الآخرة هو مجرّد أن الآخرة هي محل ظهور صلاحه عليه السلام؛ وذلك لأنّ تلك الدار هي محلّ ظهور صلاح جميع الصالحين دون أيّ انحصار لذلك بأحدهم دون غيره منهم.

الفرق والتأكيد السابقان يعكسان أنّ هناك جملة من الصالحين قد علت مرتبتهم بحيث يطلب أولياء صالحون كاملو الصلاح الالحاق بهم في الآخرة منه تعالى، فيلحقهم سبحانه وتعالى بتلك الجماعة الخاصّة في تلك الدار استجابة لدعائهم وطلبهم.

بناء على ما سبق، يتّضح أنّه كما أنّ الانبياء يختلفون من حيث الرتبة والمنزلة والدرجة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ**﴾[2]، فإنّ الأمر كذلك بالنسبة إلى الصدّيقين والشهداء والصالحين، فهم ذوو مراتب مختلفة أيضاً.

وكما بيّن سبحانه وتعالى أوصاف وخصائص وبعض مصاديق عاملي الصلاح، فقد بيّن أيضاً بعض من كان من جماعة الصالحين، كما جاء في مسألة حشر المطيعين في الآخرة مع من أنعم الله عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً**﴾[3].

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٥٣.

٢ . سورة الاسراء، الآية ٥٥.

٣ . سروة النساء، الآية ٦٩. والمراد من النعمة في الآية الشريفة نوع خاص من النعم؛ فإنّ القرآن الكريم عندما يتعرّض أحيانا إلى ذكر بعض النعم المادّية التي لا يعتبر وجودها غنى وعزة لمن كانت عنده، فإنّه يذكر الانسان والحيوان جنبا إلى جنب، من قبيل قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الارْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأنعام**﴾. (سورة يونس، ←



وبناء على الأصل المعروف، وهو أنّ التفصيل قاطع للشركة، فإنّ ذكر الشؤون المتعددة لِكلّ واحد منها بصورة منفصلة عن الآخر، ككون الشخص نبيّا، وكونه من الصدّيقين، ومن المشهود لهم بالأعمال الصالحة وبالصلاح، كلّه شاهد على الفرق بين تلك الشؤون والاختلاف بين تلك الاوصاف في ما بينها وبين بعضها، على الرغم من أنّ بينها جميعا وجها مشتركا، كما ويمكن أن تجتمع جميعها في إنسان واحد كامل، بل قد يكون ذلك لازما في بعض الحالات.

وعلى أيّ حال، فمن صار من ضمن الصالحين، سواء في الدنيا أم في الآخرة، فإنّه من المشمولين بسلام المصلين إلى قيام الساعة؛ إذ الجميع يقولونَ في آخر صلاتهم: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

## إشارات و لطائف

### ١ ـ السفاهة في الامور المادية والمعنوية

تعرّض القرآن إلى السفاهة بقسميها، أعني: السفاهة في الأمور المادية، والسفاهة في الأمور المعنوية، وإن كان أكثر ذلك التعرّض واردا في الأمور المعنوية، ونشير هنا إلى بعض نماذج من ذلك:

أ ـ إعتبر القرآن الكريم منكري البعثة والرسالة سفهاء، حيث قال عزّ من قائل: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطاً﴾[1].

---

الآية ٢٤). وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾. (سورة طه، الآيات ٥٣ ـ ٥٤). وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الارْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾. (سورة عبس، الآيات ٢٥ ـ ٣٢). وغير ذلك من الآيات الشريفة.

١ . سورة الجنّ، الآية ٤.

الآية السابقة تنقل كلام أحد الجنّة وهو يسفّه بعض أصحابه لّما رآه يدّعي عدم حاجة المجتمع إلى النبيّ. وعدم ردّ هذا الكلام من قبله تعالى يعتبر قبولا به؛ إذ إنّ القرآن الحكيم ليس كتابا قصصيا أو كتاب تقارير، وإنما هو حَكَم وقاض يحكم على ما ينقل فيه بالردّ أو القبول، فلو نقل قضية مّا ولم يردها، فإنّ ذلك علامة القبول بها والتقرير لها، لا سيّما في الحالات التي يكون السِباق أو السياق لصالح القبول لا الرد.

ب ـ يقول سبحانه وتعالى بحق الكفار والمنافقين: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

فهؤلاء ـ لأنّهم سفّهوا أنفسهم، وكانوا يعانون من أمراض العقل ـ لم يكونوا يعلمون بجهلهم، وإذا كان الانسان جاهلا، فلن يشغله التفكير في المستقبل.

من الواضح أنّه إنّما يمكن تشخيص المرض في حالة وجود المعيار والميزان السليم الّذي يمكن قياس الحالة اعتمادا عليه، فإذا كانت قوة العقل بنفسها تعاني المرض، فلا جرم أنّ التشخيص سيكون أمرا مستحيلا حينئذ.

ج ـ إعترض اليهود على قضية تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وضمن تعرّض القرآن الكريم لهذا الاعتراض واصفا المعترضين بالسّفه، فإنّه ينقل اعتراضهم السفيه مجيبا عليه بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

النماذج الثلاثة المزبورة، كلها ناظرة إلى السفاهة في الأمور المعنوية الأخروية، وأمّا نماذج السفاهة في الأمور المادية، فننقل منها النموذجين التاليين:

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٣.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٤٢.



د ـ يعتبر الرشد من شرائط صحة المعاملة، فالسَفَه في المتعاقدين مانع من صحة المعاملة، ومن هنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾[1]. فإنّ تصرف السفيه في المال تبذير وتضييع له يؤدي إلى ايراد الضرر عليه وعلى المجتمع أيضاً.

هـ ـ يعتبر الرشد الاقتصادي النقطة المقابلة للسَفَه المالي. ولهذا لا يسلّط اليتيم على ماله إلا بعد بلوغه من جهة، وتمتّعه بصفة الرشد الاقتصادي من جهة أخرى، ليكون قادرا على إدارة ماله، فلا يكفي مجرد البلوغ الجسدي بدون البلوغ الاقتصادي المزبور. قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[2]، وبناء على ذلك، فإنّ الابتلاء بسَفَه الصِغَر، مانع عن تسليط اليتيم على ماله.

## ٢ ـ الجهل العلمي والجهالة العملية للسفيه

تأتي السفاهة أحيانا بلحاظ العقل النظري لتكون بمعنى «الجهل العلمي»، كما أنّها تأتي أحيانا أخرى بلحاظ العقل العملي لتكون «الجهالة العملية».

والسفاهة بلحاظ التفكير النظري، هي ما يكون في مقابل ما جاء في الحديث الشريف: «من عرف نفسه، فقد عرف ربّه»[3]،[4] يعني: «من سفه نفسه، فقد سفه ربّه»، ومن هنا، يكون هناك رغبة عنها وإعراض.

وأمّا السفاهة بلحاظ الحافز العملي، فهي ما يكون في مقابل ما جاء في الحديث الشريف: «[العقل] ما عبد به الرحمان»، وهو ما فصلنا الكلام فيه قبل ذلك.

---

١ . سورة النساء، الآية ٥ .

٢ . سورة النساء، الآية ٦ .

٣ . بحار الانوار، ج٢، ص٣٢.

٤ . روض الجنان، ج٢، ص١٧٤ .




## ٣ ـ الرذائل العلمية والعملية للسفاهة

السفاهة مانعة من التأمل في الآيات الأنفسية: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[١]، كما أنّها تكون رادعةً عن التدبّر في الآيات الآفاقية: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الافَاقِ﴾[٢].

ومن هنا، تكون السفاهة مصاحبة للكثير من الرذائل العلمية والعملية، وإجمال المطلب في ما يلي:

إنّ لذكر الله سبحانه وتعالى ـ وهو الأمر الّذي يتجلى في الدين ويتبلور في ملّة الرسول ـ الكثير من البركات، فيكون الاعراض عن الذكر بالتبع السبب في الحرمان من جميع تلك البركات، من قبيل ما يأتي:

أ ـ الدين مصاحب للتلاوة وتعليم الكتاب والحكمة، وعليه، فالاعراض عنه حينئذ يعتبر مانعا عن البلوغ العلمي، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[٣].

ب ـ يعتبر الدين وذكر الله سبحانه وتعالى سببا للخلاص من الكثير من المصاعب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾[٤]، وعليه، فالاعراض عن الدين والذكر سيؤدّي إلى ضنك العيش والحياة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾[٥].

ج ـ يعتبر دين الرسول وملّته الباعث على ازدهار العقل وظهور كنوزه، كما

---

١ . سورة الذاريات، الآية ٢١.
٢ . سورة فصّلت، الآية ٥٣.
٣ . سورة النجم، الآيات ٢٩ ـ ٣٠.
٤ . سورة الطلاق، الآية ٢.
٥ . سورة طه، الآية ١٢٤.



جاء في الحديث الشريف: «ويثيروا لهم دفائن العقول»[١]، وعليه، فالاعراض عن الدين والملّة يهيّئ الارضية للاستخفاف وخفّة العقل والسفاهة، قال تعالى حاكيا استخفاف فرعون بقومه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[٢].

د ـ يعتبر دين الرسول وملّته نورا يؤدّي الاعراض عنه إلى ظلام حالك، كالذي جاء في قوله تعالى: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[٣].

ومن الطبيعي، أن من يبتلي بالآفات الدنيوية السابقة، فإنّه لا جرم يتحمّل آثارها في الآخرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٤].

## البحث الروائي

### ١ ـ المجتمع السفيه

قال أبو عبد الله عليه السلام: «**[العقل] ما عبد به الرحمان، واكتسب به الجنان**»[٥].

**إشارة:** لله على الناس حجتان: العقل الباطن، والوحي الظاهر، كما جاء في الحديث الشريف: «إنّ لله علي الناس حجّتين: حجّة ظاهرة، وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة، فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأمّا الباطنة، فالعقول»[٦].

وكل واحدة من هاتين الحجّتين سبب في صيرورة الانسان عاقلا. كما أنّه يستنتج من مجموع الروايتين السابقتين أنّ كلّ ما عبد به الله سبحانه وتعالى

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١، الفقرة ٣٧.
٢ . سورة الزخرف، الآية ٥٤.
٣ . سورة النور، الآية ٤٠.
٤ . سورة الاسراء، الآية ٧٢.
٥ . الكافي، ج١، ص١١.
٦ . المصدر السابق، ص١٦.

واكتسب به الجنّة فهو العقل، سواء أكان ذلك العقل متّصلا كما في العقل الباطن، أم كان منفصلا كما في الانسان الكامل والمعصوم عليه السلام، وعليه، فكلّ من الحجتين عقل.

ولما كان أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام أنوارا يتعرّف الناس على الله سبحانه وتعالى في ظل نورهم وهديهم فيحصلون على الجنة بذلك، فهم ـ على هذا ـ العقل المنفصل للأمّة والمجتمع، ما يفسّر التسليم عليهم في بعض زيارتهم عليهم السلام بقولنا: «السلام على من به يُعبد الرحمان»[1]، فهذا السلام ـ على هذا ـ ليس من المجاز، بل هو حقيقة.

بناء على ما سبق، فكما يمكن بالعقل المتّصل تشخيص دين إبراهيم خليل الرحمان عليه السلام والايمان به، فإنّ حضرة إبراهيم عليه السلام بنفسه العقل المنفصل للامّة، ما يعني سفه الامّة التي تفتقد الامام المعصوم والانسان الكامل الخليفة الالهي الجامع.

## ٢. مصداق من مصاديق السفاهة

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «... **أيّ سفيه أسفه من شارب الخمر**»[2].

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**كلّ من يشرب المسكر فهو سفيه**»[3].

**إشارة**: على الرغم من أنّ لشارب الخمر رشدا مادّيا ودنيويا ظاهرا، إلا إنّه سفيه من الناحية المعنوية؛ من جهتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾.

---

١ . **بحار الانوار**، ج٩٩، ص٢٠٢. وواحدة من صفات الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله أيضاً هي: «ويُعبد به الرحمان». (**بحار الانوار**، ج٣٦، ص٢١٨).

٢ . **تفسير القمي**، ج١، ص١٣١.

٣ . **تفسير العياشي**، ج١، ص٢٢٠.



الثانية: إقدامه على هدم بناء الادراك، وتخدير أركان الجزم العلمي والعزم العملي، أعني: العقل النظري والعملي للانسان، وتسليط صدأ السّكر على العقل، وإعدام جميع القوى الادراكية والتحريكية لديه، فكيف لا يكون المقدم على كلّ هذا سفيها؟!

## ٣ ـ إنضمام حضرة إبراهيم إلى أهل البيت عليهم السلام

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**إنّ الله سبحانه لمّا خلق إبراهيم كشف له بصره، فنظر فرأى نوراً إلى جنب العرش، فقال: إلهي، ما هذا النور؟ فقال: هذا نور محمّد صفوتي من خلقي. ورأى نوراً من جنبه، فقال: إلهي، ما هذا النور؟ فقال: نور عليّ بن أبي طالب ناصر ديني...، فقال إبراهيم: إلهي وسيدي، أرى أنواراً قد أحدقوا بهم لايحصي عددهم الا أنت، فقيل: يا إبراهيم، هؤلاء شيعتهم، شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب... فعند ذلك قال إبراهيم: اللّهمّ اجعلني من شيعة أمير المؤمنين... فأخبر الله تعالي في كتابه، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾[1]**»[2].

**إشارة**: كلّ نبيّ يكون في مستوى كتابه وصحيفته، فلا هو أدنى من ذلك ولا أعلى، والقرآن الكريم هو المهيمن على سائر الكتب السماوية، كما جاء في الآية الشريفة: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ**﴾[3]، ومن هنا، لمّا كانت العترة الطاهرة عليهم السلام على مستوى واحد مع هذا الكتاب المهيمن، ومتّحدة مع حضرة ختم النبوّة في مقام الوحدة والنورانية

---

١ . سورة الصافّات، الآية ٨٣.

٢ . بحار الانوار، ج٣٦، ص١٥١ ـ ١٥٢.

٣ . سورة المائدة، الآية ٤٨.

لا في مقام الكثرة وعالم الطبيعة، فلا جرم أنهم عليهم السلام متقدّمونَ في الفضل على جميع الانبياء السابقين.

قال الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله في أحد أحاديثه النورانية في مجال هيمنته على سائر الانبياء عليهم السلام: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»[1]. وهو ما يمكن التمسك به لإثبات أفضلية أمير المؤمنين عليه السلام على الانبياء السابقين؛ طبقا لآية المباهلة الشريفة[2]، فإنّه نفْس الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وروحه.

ومن انضمام النكتتين السابقتين إلى رواية تتحدث عن عظمة الصدّيقة الطاهرة عليها السلام، يتضح المقام الرفيع لها بين الانبياء والاولياء، والحديث المشار إليه هو: «لولا أنّ الله تبارك وتعالى خلق أمير المؤمنين عليه السلام لفاطمة، ما كان لها كفوٌ على ظهر الارض، من آدم ومن دونه»[3].

وعليه، فليس من البعيد أن نقول بأنّ سائر الانبياء لو أرادوا اللحوق بمقام العترة الطاهرة عليهم السلام، وهم المهيمنون على مقام هؤلاء، فإنّ تحصيل اللحوق بهذا المقام لا تحصيل نفس المقام سيستغرق وقتا، أو يستلزم طيّ مراحل كما عبّر تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

إثبات لحوق حضرة إبراهيم بمقام أهل البيت عليهم السلام في الدنيا أمر يحتاج إلى الدليل، مع أن الدليل قائم على عكس هذه المسألة، وهو أن الفيض الأوّل الصادر أو الظاهر منه تعالى هو نور أهل هذا البيت عليهم السلام، وأمّا الآخرون، فهم في مراحل أدنى تحت شعاع ذلك النور الاوّل، وفي النهاية قد يكون من الممكن أن يلحقوا بذلك النور في الآخرة: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

---

١ . بحار الانوار، ج١٦، ص٤٠٢.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٦١.

٣ . الكافي، ج١، ص٤٦١.




بعد أخذ ما ذكرناه قبل قليل بنظر الاعتبار، أجد من المناسب أن نوضح بعض الامور في مجال رواية مهمّة نقلت عنه ﷺ، والرواية هي: «قال النبي ﷺ لفاطمة: «يا فاطمة، زوّجتك سيّداً في الدنيا، وإنّه في الآخرة لمن الصالحين»[1].

وأمّا التوضيح، ففي طيّ النقاط التالية:

أ ـ إنّ أهل بيت العصمة عليهم السلام هم نور واحد[2].

ب ـ هناك دعاء مأثور في قصة حضرة الخليل عليه السلام يطلب فيه الإلحاق بالصالحين[3]، وقد نقل هكذا مضمون عن حضرة علي بن أبي طالب عليه السلام.

ج ـ توفّر البرهان العقلي على سبق صدور أو ظهور أهل بيت الطهارة عليهم السلام، في حين لا دليل على هكذا مسألة في ما يرتبط بخليل الرحمان عليه السلام.

د ـ كلّ من كان في الآخرة من الصالحين، فلا جرم أنّه سيكون من هؤلاء في الدنيا، الأمر الّذي يعني الفرق بين ما ذكر في ما يرتبط بحضرة إبراهيم وما يرتبط بحضرة امير المؤمنين عليه السلام.

**تنويه:** الظاهر أنّ الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْـرَاهِيمَ﴾ يعود إلى حضرة نوح لا حضرة أمير المؤمنين، وإن كان من الممكن إرجاع الضمير إليه عليه السلام بلحاظ الباطن، إلّا إنّه لا بدّ من عدم الغفلة عن السند.

* * *

١ . بحار الانوار، ج٣٧، ص٦٩.

٢ . المصدر السابق، ج٢٦، ص١٦ و ج٣٦، ص٢٢٣ و ٢٨١.

٣ . سورة الشعراء، الآية ٨٣.

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١﴾

## التفسير المختار

السرّ في رشد إبراهيم خليل الرحمان عليه السلام ومعيار رشد سيرته، واصطفائه عليه السلام من قبله تعالى، والتحاقه بالصالحين، هو كون إسلامه إسلاما من نوع خاص، ذلك الاسلام الخاص الّذي تجلّى خلال امتحانه الصعب الّذي مرّ به في قصة أمره بتقديم ابنه قربانا له تعالى، والذي ظهر في سلامة قلبه، القلب السليم الّذي كان مفعما بالسلام الصّرف والانقياد التامّ والخضوع المحض.

لقد رأى حضرة إبراهيم عليه السلام في شهوده الكامل انقياد عالم الخلق في مقابله سبحانه وتعالى، ومن هنا، قال إنّه منقاد لإله يطيعه الجميع.

## التفسير

### معيار اصطفاء حضرة إبراهيم عليه السلام

إذ: للتعليل، خلافا لما يراه بعض المفسّرين من أنّها منصوبة وظرف لقوله تعالى المقدر: «أُذكر»[1]، على الرغم من أنّها لن تخلو من التعليل أيضاً لو كانت ظرفا للاصطفاء، أو منصوبة بفعل مقدّر هو «أذكر».

وبناء على كون الآية الّتي هي محلّ البحث تعليلا لمفاد الآية السابقة عليها، يعني: كونها في مقام بيان سرّ رشد حضرة إبراهيم عليه السلام واصطفائه وصلاح

---

١ . الكشاف، ج١، ص١٩١.



ذاته، فإنّ علّة كون دين إبراهيم خليل الرحمان عليه السلام ميزان العقل، وكذا سرّ رشده عليه السلام واصطفائه وإلحاقه في الآخرة بالصالحين، السرّ في جميع ذلك هو إسلامه عليه السلام، ما يعني أنّ معيار الاصطفاء الإلهي لأيّ شخص، وصيرورته صفوة لله تعالى، هو إسلام ذلك الشخص، كما أنّ مقدار الفضائل المزبورة إنّما هو بقدر ما يتمتّع به من الاسلام.

لقد كان حضرة إبراهيم عليه السلام مسلما منذ أوائل عمره الشريف وفي أوان شبابه، إذ بعد أن حاجّ قومه قال ما نقله القرآن الكريم عنه بقوله تعالى: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1].

وقد بقي على ذلك التوجيه سنين متمادية، وفي أواخر عمره الشريف، وبعد أن اجتاز الامتحانات الصعبة المختلفة بنجاح، دعا ربه قائلا: ﴿**وَرَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾[2].

وقد عرض سبحانه وتعالى في مقام الاجابة إسلاما خاصا حيث قال عزّ وجلّ: ﴿**إذ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ**﴾.

بناء على ما سبق، فالمراد من الاسلام في هذه الآيات هو الانقياد التامّ والتسليم المحض والاسلام الخاص، لا الاسلام المصطلح الّذي يؤثّر الطهارة والتوارث وما شابههما من أحكام.

وقد تجلّى طرف من إسلام حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في ما بدر منهما من إطاعة وانقياد محضين، وذلك في ما عرض عليهما من قضية القربان، قال سبحانه وتعالى: ﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ***

---

١ . سورة الأنعام، الآية ٧٩.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٢٨.

وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا﴾[١].

هـذا الامتحـان الّـذي تضـمّن تأييـده سـبحانه وتعـالى لإسـلام إبـراهيم وإسماعيل عليهما السلام وتصريحه بذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ جوابا لدعائهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[٢]؛ من جهة أنّ المقصود بالمسلم في هـذا الدعاء كما تقدم هو «المنقاد الكامل».

وضمن تبيين القرآن الكريم لحمل حضرة إبراهيم عليه السلام للقلب السليم في قوله تعالى: ﴿إذ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣]، فقد أمضى إسلامه الصرف وانقياده المحض؛ إذ لا مكان في القلب السليم إلّا له سبحانه وتعالى[٤]، ومن هنا، فإنّ من يحمل قلبا من هذا النوع، فإنّه يحمل الاسلام الصرف والانقياد التامّ والخضوع المحض، ما أدّى بحضرة إبراهيم عليه السلام إلى ألّا يطلب المدد من مدبّرات الامر والملائكة الالهية حتّى أوان الخطر والالقاء في النار[٥].

### طلب الاسلام الخاص من حضرة إبراهيم عليه السلام

وفي مجال طلب الاسلام من قبله تعالى وقبول ذلك من جانب حضرة إبراهيم عليه السلام، هناك إبهام يجب إزالته بالتأمّل والبحث والتحقيق.

والابهام المشار إليه، هو أن طلب الاسلام من قبله تعالى لو كان قبل النبوّة أو البلوغ، فإنّ ذلك الطلب سيكون له معنى، إلا أنّ طلبه تعالى حينئذ ـ بدون الوحي ـ لن يكون له مصداق كما هو واضح.

---

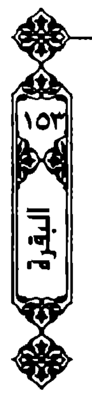
١ . سورة الصافّات، الآيات ١٠٢ ـ ١٠٥.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٢٨.

٣ . سورة الصافات، الآية ٨٤.

٤ . الكافي، ج٢، ص١٦.

٥ . بحار الانوار، ج٦٨، ص١٥٥.




والوجه في ذلك، هو أنّه في مرحلة ما قبل البلوغ أو قبل النبوّة وإن كان بعد البلوغ، لا مجال لطلب الوحي، وأمّا إذا كان طلب الاسلام بعد النبوّة، فإنّه سيكون لأصل الطلب ـ وهو الامر الوحياني ـ معنى، إلا أنّه لن يكون للمطلوب ـ يعني الاسلام ـ حينئذ أيّ مصداق؛ إذ إنّ إسلام حضرة إبراهيم عليه السلام كان حاصلا حينها قطعا، وتحصيل الحاصل معناه الجمع بين المثلين، وهذا ما ينتهي إلى الجمع بين النقيضين، وهو محال.

وقد نفى البعض أن يكون الطلب السابق حقيقة، ذاهبا إلى أنّه مجرّد كناية عن سيرة حضرة إبراهيم عليه السلام وثناء عليه[1].

والصحيح: أنّ الطلب معقول والمطلوب ممكن، ولا محذور أبدا في أيّ من الفرضين المزبورين؛ إذ إنّه كما يكون الطلب على صورة وحي نبوي لا يمكن بدون تحقق الوحي أحيانا، فإنّه يكون أحيانا أخرى على شكل إلهام وإلقاء في سرّ السالك الصالح، الامر الّذي لا توقّف له أبدا على تحقّق النبوّة قبل ذلك في ذلك السالك.

إذن، للطلب أقسام هناك محذور في بعضها لا في جميعها، وأمّا المطلوب ـ يعني الاسلام ـ فله مراتب بعضها حاصل لا سبيل إلى تحصيله، كما أنّ بعضها الآخر الأعلى ليس حاصلا، فيمكن تحصيله.

الحقائق التي وضعنا يدنا عليها من خلال ما تقدم من الابحاث التفسيرية، تؤدّي بنا إلى أن قرينة السباق والسياق تقتضي أن يكون الطلب المزبور بعد النبوّة لا قبلها، وإن كان الكثيرون يذهبون إلى أنّه كان قبل النبوّة، بل قبل البلوغ أيضاً[2].

---

١ . التفسير الكاشف، ج١، ص٢٠٨.

٢ . التفسير الكبير، ج٤، ص٧١.

وأمّا المطلوب، فهو الاسلام الخاص أيضاً لا أصل الاسلام. والاسلام الخاص معناه الانقياد الكامل والتسليم المحض في مقابل إرادته سبحانه وتعالى، وكما أنّ إمامته عليه السلام لم تتحقّق إلا بعد سلسلة من الامتحانات والمراحل، فإنّ إسلامه عليه السلام كان كذلك أيضاً.

## المطلوب العملي

قوله سبحانه وتعالى بالنسبة إلى السالك الواصل، إما أن يكون من سنخ الالقاء في السرّ بدون واسطة، أو بواسطة الملك.

كما أنّ قوله تعالى يمكن أن يكون أحيانا من قبيل إفاضة العلم من خلال تعليم المطلب العلمي لأحد الاشخاص فيجعله من الراسخين في العلم، كما أنّه قد يكون من صنف إفاضة العمل أحيانا أخرى، فيقوم بنقل العمل الارادي والعملي لشخص من الاشخاص فيجعله من الراسخين في العمل، كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ**﴾[1]، والذي هو من هذا القبيل.

وقد يكون الطلب الالهي أحيانا راجعا إلى المطلوب العلمي، كما في قوله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنّه لا إِلَهَ إِلّا اللهُ**﴾[2]، وإن كان مرافقا للعزم والايمان.

كما أنّه يكون أحيانا راجعا إلى المطلوب العملي، كما في قوله تعالى: ﴿**أَسْلِمْ**﴾ في محلّ البحث، وإن كان مرافقا للجزم والتصديق العلمي. والعمدة هو العنصر المحوري للطلب.

ومن خلال الفرق بين الطلبين الذين تقدم بهما سبحانه وتعالى لكلّ من إبراهيم عليه السلام حيث قال له: ﴿**أَسْلِمْ**﴾، ولنبيّنا الاكرم صلى الله عليه وآله حيث قال له: ﴿**فَاعْلَمْ**﴾، يعلم الوجه في جواب كلّ من النبيّين العظيمين على ما طلب منه

---

١. سورة الانبياء، الآية ٧٣.

٢. سورة محمّد صلى الله عليه وآله، الآية ١٩.




وخوطب به؛ حيث أجاب إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿أَسْلَمْتُ﴾، بينما لم يجب صلى الله عليه وآله بقوله: «عَلمت»، وما نقله القرآن الكريم في ما يرتبط به صلى الله عليه وآله هو قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾[1] كاف في هذا المجال[2].

## إسلام جميع المخلوقات وانقيادها له تعالى

كان جواب حضرة إبراهيم عليه السلام على الامر الالهي: ﴿أَسْلِمْ﴾ شاهدا بيّنا على التفسير الّذي تقدم لـ «الاسلام» المذكور في هذه الآيات. وقد اجاب عليه السلام على الامر الّذي وجّهه له سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا بقوله: «أسلمت لربي»، أو: «أسلمت»؛ لأنه أراد أن يقول: «أسلمت كما قد أسلمت وانقادت جميع المخلوقات لرب العالمين».

**توضيحه:** أمر سبحانه وتعالى السماء والارض أن تأتيا باختيار أو بغير اختيار، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾[3]، فأجابتا بقولهما: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

والملاحظ في الآية الكريمة، مجيء الكلمة «طائعين» بالجمع مع أنّ المأمور كان اثنين لا أكثر وهو السماء والارض، وهذا ما يعكس تمام الادب والخضوع بحيث يعتبر الفرد نفسه جزءا من قافلة المخلوقات المنقادة والمسلمة كلّها لرب العالمين، والسائرة نحوه تعالى.

على هذا الاساس، فإنّ معنى جواب حضرة إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هو أنّه منقاد له تعالى كما انقاد له جميع الوجود بكلّ أجزائه.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

٢ . كشف الاسرار، ج١، ص٣٧٠.

٣ . سورة فصّلت، الآية ١١.

التعبير السابق يؤدي بنا إلى حقيقتين:

الأولى: أنّ إبراهيم خليل الرحمان عليه السلام منقاد له تعالى.

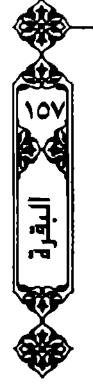
الثانية: أنّه عليه السلام يرى انقياد جميع أرجاء الوجود، وإلا، لما استعمل كلمات من قبيل «رب» و«عالمين» إلى جانب الاسلام، فإنّ التعبير المشار إليه يعكس أنّه عليه السلام يرى نفسه عضوا من قافلة يسير جميع أعضائها بكلّ انقياد وتسليم وطاعة نحوه سبحانه وتعالى.

**تنويه:** ١ ـ تعتبر الربوبية ـ وكذا الاسلام الخارجي ـ من قبيل الامور الاضافية، والامور الاضافية ليس لها أيّ تحقق لوحدها ومنفردة، بل تتحقق بتحقق مقابلها من الاطراف.

ولو كانت ربوبيته وقيادته تعالى لنظام الخلقة متحققة بالفعل، فإنّ عبودية ذلك النظام بجميعه وانقياده متحقّقة بالفعل.

وكذا الامر بالنسبة إلى السماء والارض، فلو كان إسلامهما وانقيادهما متحققا بالفعل، لكانت ربوبيته وقيادته سبحانه وتعالى متحققة بالفعل، كلّ ذلك من جهة التلازم بين العنوانين المتضايفين، والضرورة القاضية بتحقق أحد العنوانين بمجرد تحقق الآخر. فمن خلال أيّ واحد منهما يمكن الحكم بتحقق الآخر.

بعد اتّضاح الامور المذكورة، يمكن القول بأنّه سبحانه وتعالى لمّا كان ربّا وقائدا لجميع الموجودات بالفعل، فإنّ جميع تلك الموجودات هي مربوبة ومنقادة بالفعل له تعالى، ومن هنا، ذكر في مقام تبيين كلام حضرة إبراهيم عليه السلام أنّه قال جوابا لأمره سبحانه وتعالى: ﴿**أسلم**﴾: أنا منقاد لربّ انقادت له جميع المخلوقات.



كما أنّه يمكن استظهار أنّه سبحانه وتعالى ربّ للجميع بالفعل، وقائد للسماوات والارض من قوله عزّ من قائل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ﴾[1].

٢ ـ المراد من ربوبيّته سبحانه وتعالى لجميع المخلوقات هو ذاك الامر التكويني غير القابل للتخلف؛ فإنّ بيده سبحانه وتعالى زمام الجميع، وهو تعالى آخذ بناصية الجميع على الصّراط المستقيم، قال تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

## الانقطاع المحض نتيجة الانقياد التامّ

إن نتيجة الانقياد التامّ إلى ساحة الربوبية المقدّسة هي الانقطاع المحض عن جميع ما سواه تعالى، فمن يعيش الشهود الكامل رأى انقياد جميع الموجودات وقال: «أسلمت لربّ العلمين»، فلم يتّك إلى أيّ أحد سواه تعالى، كما لم يستعذ إلا به؛ إذ إنّه يرى جميع من غيره من المخلوقات مثله منقادة ومسلمة له تعالى، فلا ينتظر من أيّ مخلوقة منها أيّ شيء؛ فإنّ زمام جميع الامور بيده تعالى: ﴿وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ﴾[3].

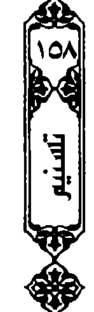
إنّ السرّ في أن تشبّث الشخص الغريق والمحتاج الّذي لم يصل إلى مقام التوكّل والرضا والتسليم المحض بأيّة وسيلة مهما كانت، هو اعتقاده بقوّة تلك الوسيلة وإحكامها، وأنّها من الممكن أن تنجيه ممّا هو فيه، والحال إنّه لو كان يعرف أنّ غيره لا يختلف عنه في الحاجة والفقر إليه سبحانه وتعالى، وأنّ الكلّ

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٨٣.

٢ . سورة هود، الآية ٥٦.

٣ . سورة الفتح، الآية ٤.




غارق في البحر نفسه، وأن لا قدرة لأحد على السباحة في ذلك البحر والنجاة، لم يتّكل على أحد سواه تعالى.

يعتقد البعض بأنّ حضرة إبراهيم عليه السلام حالة نزع الروح، رأى عزرائيل عليه السلام حجابا، وقال: من يرى جبرئيل حاجبا للنجاة من النار، فإنّه سيرى عزرائيل كذلك أيضاً.

### تفاوت مراتب الانقياد

ما تقدّم في مجال نيل حضرة إبراهيم عليه السلام الاسلام والانقياد التامّ في أواخر عمره الشريف، لا يتنافى أيّ تناف مع ما كان عليه خلال سائر عمره الشريف من الاسلام والانقياد؛ إذ إنّ للانقياد درجات مختلفة متفاوتة، وعليه، فمن الممكن أنّ بعض الآيات التي تحدّثت عن اسلامه وانقياده عليه السلام لم يكن ناظراً إلى انقياده التامّ، ويرتبط بأوائل أو أواسط سيرته عليه السلام، يعني: بداية الامر أو وسطه، حين لم يكن عليه السلام قد بلغ ورشد البلوغ والرشد السنّيين الكاملين، فكلّفه الله سبحانه وتعالى بالاسلام، ثم بعد ذلك، وعندما كان يؤمر بأيّ تكليف لم يكن قد أمر به من قبل، فإنّه كان يرتقي في سلّم الدرجات حتّى وصل في النهاية إلى أوج عروج الانقياد.

## إشارات ولطائف

### ١ ـ التسليم والانقياد القلبي

إنّ حقيقة الاسلام الخاص، هي ألّا يقتصر التسليم والانقياد على اللسان والقول، بل يتعدّى ذلك إلى القلب، فكما يقبل الانسان بكلّيات الدين، فإنّه يقبل بجزئياته حتّى في الموارد التي تكون في ضرره أحيانا.

يعتبر تحكيم الرسول الاكرم ﷺ في المشاجرات والاختلافات التي تقع في مجال العقيدة وغيرها، والقبول الظاهري بما حكم به، والتسليم والانقياد القلبي في مقابله، من أحكام الاسلام، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[1].

فالمؤمن يرجع في جميع ما يقع له من مشاجرات إلى محكمته ﷺ، فإذا رأى ختام المحاكمة والمشاجرة، فإنّه لا يكتفي بالقبول الظاهريّ بذلك وعدم الاعتراض عليه، بل يتعدّى الامر عنده إلى القبول والتسليم الباطني بذلك.

ويجب أن يكون حال «المحكوم عليه» في مقابل الحكم الصادر بحقه كحال «المحكوم له» في التسليم والقبول، فيتلقّى الحكم بكلّ سعة صدر وقبول وتسليم، فلا يحسّ أيّ من المتشاجرين بأيّ حرج. وهذا الرضا والقبول هو الايمان والاسلام: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

إذا لم يرتق أفراد المجتمع المسلم إلى هذا الحد من الايمان والتسليم، فإنّهم لن يكونوا مؤمنين حقيقيين، وإن كانت مراحل الاسلام ومراتبه الادنى تتحقّق بمجرد الاتيان بالشهادتين، ويترتّب عليهما حرمة الدم والمال.

المرتبة العليا والكاملة من المقام الّذي ذكر في الآية الشريفة، هو مقام التسليم والانقياد المحض، وفي هذه المرحلة يضع جميع شؤونه العلمية والعملية في اختياره سبحانه وتعالى، بحيث لا يكون له أي تفكير قبل علمه تعالى الفعلي، ولا أي باعث قبل إرادته تعالى الفعلية.

## ٢. المؤمنون المشركون.

للاسلام درجات، وهناك مراتب كثيرة بين الاسلام الابتدائي والاسلام

---

١ . سورة النساء، الآية ٦٥.

النهائي، والمؤمن المحض هو المؤمن الّذي حاز كلّ تلك المراتب والدرجات.

ومن الجدير بالذكر، أنّ مقابل كلّ درجة من درجات الاسلام هناك دركة من دركات الكفر والشرك والنفاق، ومن هنا، لو نال أحد المؤمنين درجة من درجات الاسلام غير الدرجة العليا فلم يصل إلى تلك الدرجة، فإنّ معنى ذلك أنّ هناك كفرا وشركا ونفاقا لم يلتفت له.

كلّ مكان لا وجود فيه لنور الانقياد والتوحيد، فلا بدّ مِن أن يكون هناك ظلمة الشرك والباطل؛ إذ إنّ الشرك إنّما هو عدم الاسلام، ولهذا هدّد تارك الحجّ بالكفر العملي في قوله تعالى: ﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فإِنّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1].

كما أنّ ترك حكم الفقيه الجامع للشرائط وردّه، وكذا نائب الامام، ووليّ المسلمين، يعتبر كلّ واحد منها من مصاديق الكفر العملي لا الاعتقادي، قال عليه السلام: «إذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه... علينا ردّ، والرادّ علينا الرادّ على الله»[2].

ما تقدّم ذكره من أمور، يضع أيدينا على حقيقة مفادها: أنّ من الممكن أن يبتلى الانسان المسلم ببعض أنحاء الكفر والشرك في الوقت نفسه الّذي يكون فيه مسلما.

الحقيقة التي أشرنا إليها قبل قليل هي السرّ في كون أكثر المؤمنين مشركين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[3]، فإيمان أكثر الناس ليس خالصا؛ إذ لا يعتقدون بأوليّته سبحانه وتعالى إلا على نحو يكون

١ . سورة آل عمران، الآية ٩٧.

٢ . الكافي، ج١، ص٦٧.

٣ . سورة يوسف، الآية ١٠٦.



لتلك الاوليّة ثان من أشياء أو أشخاص، كما يعبّر عادة عرفا بقولهم: «إعتمادي على الله ثم على الشيء أو الشخص الفلاني»، والحال إنّه تعالى هو الاوّل وهو الآخر، قال تعالى: ﴿هُوَ الاوّل وَالاخِرُ﴾[١]، فليس له سبحانه وتعالى ثان ولا ثالث ولا رابع أبدا.

ورد عن الامام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِالله إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أنه قال: «هو الرجل يقول: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لأصبت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالى، ألا ترى أنّه قد جعل لله شريكا في ملكه يرزقه ويدفع عنه، قال: قلت: فيقول: لولا أن الله منّ عليّ بفلان لهلكت؟ قال: نعم، لا بأس بهذا»[٢].

بناء على ما سبق، فإنّ سيرة المؤمن يجب أن تكون سيرة ابراهيمية حيث قال عليه السلام: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٣]، فهو لا يقول: لولا الماء أو السّقي لمتّ، بل يقول: الساقي والمُطعم هو الله سبحانه وتعالى، والماء والخبز والدواء والطبيب إنّما هم مجار لرحمته تعالى.

يعتقد الموحّد أنّ جميع البركات إنّما هي من ناحيته سبحانه وتعالى، قال عزّ من قائل: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ الله﴾[٤]، ومن هنا، نرى أنّه عليه السلام لا يعتمد حال الدعاء على أي شيء سواه تعالى، من قوم، أو مال، أو قوة، أو عمل، أو منزلة، أو جاه.

---

١ . سورة الحديد، الآية ٣.

٢ . تفسير العياشي، ج٢، ص٢٠٠.

٣ . سورة الشعراء، الآيات ٧٩ ـ ٨٠.

٤ . سورة النحل، الآية ٥٣.





# البحث الروائي

## الاسلام واختلاف مراتب إسلام المسلمين

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لأنسبنّ الاسلام نسبةً لاينسبه أحدٌ قبلي ولاينسبه أحد بعدي إلا بمثل ذلك: إنّ الاسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الاقرار، والاقرار هو العمل، والعمل هو الاداء»[1].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «واعلموا أن الاسلام هو التسليم، والتسليم هو الاسلام؛ فمن سلّم فقد أسلم، ومن لم يسلّم فلا إسلام له»[2].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «الاسلام درجة...، والايمان على الاسلام درجة...، والتقوى على الايمان درجة...، واليقين علي التقوى درجة... فما أوتي الناس أقلّ من اليقين، وإنّما تمسكتم بأدنى الاسلام، فإيّاكم أن ينفلت من أيديكم»[3].

ـ عن رجل من أصحابنا سرّاج وكان خادماً لأبي عبد الله عليه السلام قال: «... جرى ذكر قوم، فقلت [لأبي عبد الله عليه السلام]: جعلت فداك إنّا نبرأ منهم، إنّهم لايقولون ما نقول. قال: فقال: «يتولّونا ولايقولون ما تقولون، تبرؤون منهم؟» قال: قلت: نعم. قال: «فهو ذا عندنا ما ليس عندكم فينبغي لنا أن نبرأ منكم؟» قال. قلت. لا، جعلت فداك. قال: «وهو ذا عند الله ما ليس عندنا أفتراه أطرحنا؟» قال: قلت: لا والله جعلت فداك، ما نفعل؟ قال: «فتولّوهم ولاتبرّؤوا منهم. إنّ من المسلمين من له سهم، ومنهم من له سهمان، ومنهم من له ثلاثة أسهم، ومنهم من له أربعة أسهم، ومنهم من له خمسة أسهم، ومنهم من له ستّة

---

١ . الكافي، ج٢، ص٤٥ ـ ٤٦.

٢ . المصدر السابق، ج٨، ص١١.

٣ . المصدر السابق، ج٢، ص٥٢.



**أسهم، ومنهم من له سبعة أسهم. فليس ينبغي أن يحمل صاحب السهم على ما عليه صاحب السهمين ولاصاحب السهمين على ما عليه صاحب الثلاثة، ولاصاحب الثلاثة على ما عليه صاحب الاربعة، ولاصاحب الاربعة على ما عليه صاحب الخمسة، ولاصاحب الخمسة على ما عليه صاحب الستة، ولاصاحب الستة على ما عليه صاحب السبعة...»**[1].

**إشارات:** أ ـ تفسير الانسان الكامل المعصوم من مثل أمير المؤمنين عليه السلام، إنّما هو عصارة ما جاء به القرآن والعترة، ومن هنا، فإنّ أجمع نسبة يمكن أن تبيّن للاسلام هي تلك النسبة التي تبيّن من قبله عليه السلام.

ب ـ ما تقدّم من وصف هوية إسلام من وجهة نظر أوّل الأئمة المعصومين عليهم السلام، شامل لجميع شؤون الاسلام النظرية والعملية؛ إذ قد لوحظ فيه مراحل الجزم العلمي وكذا مراتب العزم العملي للاسلام.

وأمّا ما جاء عن الامام الصادق عليه السلام، فهو صورة لتعريف ذلك المعرِّف الّذي هو أجلى من المحدود والمعرَّف، وهو الاسلام بمعنى القانون الاعتقادي، والاخلاقي، والفقهي والحقوقي.

ج ـ للاسلام مراتب يكفي دنياها لحياة سلميّة مع الآخرين، فيجب على كلّ مسلم أن يتعامل مع سائر المسلمين بسعة صدر، وهذه هي التعددية الاجتماعية الممدوحة، بعكس التعددية الاعتقادية المرافقة عادة للتسامحِ المذموم والتساهل المشؤوم.

والمغزى: أنّ الاسلام الّذي يعتبر العقل البرهاني والنقل المعتبر منبعا معرفيّا له ليس إلا واحدا؛ إذ إنّ الصراط المستقيم واحد، والحقّ واحد، والواقع واحد، بدون أيّ تعددية ونسبية، إلا أنّ هناك نصابا معينا للاسلام هو الّذي يكفي

---

١ . الكافي، ج٢، ص٤٢ ـ ٤٣.

لتحمّل أحدنا الآخر، وأمّا انتظار ما هو أكثر من ذلك النصاب، فهو أمر زائد على الحدّ اللّازم وعمل غير صحيح، وإلا، لم يكن لأيّ فرد من أفراد المسلمين أن يتحمل أيّ فرد آخر منهم، كما أنّ الائمة المعصومين عليهم السلام لا يجب عليهم أن يتقبّلوا الاخصّ ويتعاملوا معه كما يتقبّلون الخاص ويتعاملون ويعيشون معه تحت عنوان الامّة الاسلامية الواحدة، والحال أنّ سيرة أولئك الاطهار المقدسين وسنّتهم كانت التعايش مع الجميع تعايشا سلميا بكلّ معنى الكلمة.

* * *

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢﴾

## التفسير المختار

وصّى حضرة إبراهيم عليه السلام ـ من باب أن الوصيّة وسيلة من وسائل الجذب ـ بنيه بدين الاسلام، وهو الدين الّذي اصطفاه سبحانه وتعالى، الوصيّة المذكورة هي الوصيّة بالعقل والدعوة إلى الدين المبرهن، والحثّ على التحقيق لا التقليد.

وفي الوصيّة السابقة ـ عن طريق ذكر الموت الّذي لا مفر منه ولا تحديد لأجله ـ أشير إلى ضرورة تحقيق الايمان المستقر الراسخ لدى الانسان، لكي لا يقع في شراك موت الغفلة بدون الاسلام.

## تفسير المفردات

**وصّى**: من المادة «وَصَي»، وهو في الاصل وصل شيء بشيء. و«الوصِيَّة» من هذا القياس، فكأنّه يصل تصرّفات ما بعد موته بتصرّفاته حال حياته، ويصل تصرّفاته بتصرّفات وصيّه.

ومن هذا الباب أيضاً قيل للارض المتّصلة النبات أرضاً واصيةً، أي: نبتها متّصل قد امتلأت منه[1].

---

١ . راجع: المفردات، ص٨٧٣، «و ص ي».

والفعل ﴿وصّي﴾ من باب التفعيل، وهو ناظر إلى جهة وقوع الفعل وانتسابه إلى المفعول به، من قبيل ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾[1]، وليس إلى جهة صدور الفعل وانتسابه إلى الفاعل الملحوظ في باب الأفعال كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾[2]، كما أنّه ليس ناظرا إلى جهة الاستمرار والدوام الّذي يأتي على صورة صيغة التفاعل كما في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[3].

بها: في مرجع الضمير احتمالان: الملّة وكلمة: «أسلمت...»، وقد ذكر مرجّح لكلّ واحد منهما.

أمّا المرجّح للاول، فهو من باب ذكرها صراحة من جهة، وكون الملّة هي ذلك الدّين الّذي ذكر في الوصيّة نفسها حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ من جهة أخرى.

وأمّا المرجّح للثاني، فهو القرب من جهة، والتصريح بالوصية بالاسلام من جهة أخرى.

**يعقوب**: الكلمة مأخوذة من مادّة «العقب» عبريا وعربيا. وهو ابن إسحاق عليه السلام وحفيد حضرة إبراهيم عليه السلام، وهو الملقّب بإسرائيل بمعنى: عبد الله في اللغة العبرية.

وقد تعرّض القرآن الكريم في ما يرجع إلى يعقوب في مجالات كثيرة منها: مقام النبوّة، نزول الوحي إليه، نزول الاحكام والدين إليه، تفضيله على العالمين، إتمام النعمة عليه وعلى آله من جانب الله تعالى، تحمّله الشدائد وصبره عليها،

---

١ . سورة العنكبوت، الآية ٨.

٢ . سورة مريم، الآية ٣١.

٣ . سورة العصر، الآية ٣.




علمه إجمالا بالوقائع بتعليمه تعالى، وهي أمور تـدلّ كلّهـا عـلى عظمـة يعقـوب النبي ﷺ، وجلالته المعنوية ونبوّته وصفاته الروحانية[١].

❋ ❋ ❋

## جذّابية الوصيّة وكمال اللطف فيها

وصّى الانبياء والاولياء الالهيون غيرهم بدين الحنيفية وملّـة الحنيفيـة التـي كانت السبب في اصطفاء حضرة إبراهيم ﷺ، ليصطفى كلّ واحـد مـنهم مـن قبله تعالى بميزان ما هو عليه من تدين.

ولمّا لـ «التوصية» و«الوصيّة» من جاذبية واستمالة ولطف، نـرى أن الآيـات القرآنية وهي تأمر ببعض الامور من قبيـل إقامـة الـدين والسير عـلى الصراط المستقيم ورعايـة التقـوى، أو تنهـى عـن بعضـها الآخـر مـن قبيـل الاخـتلاف والانحراف والضّلال، نراها تستفيد في جميع تلك الاوامر والنواهي مـن الفعـل (وصّى) ومشتقاته.

والوصية أيضاً هي الامر بالمعروف والنهي عن المنكـر ولكـن بطريقـة أرقّ؛ فإنّ التوصية لّما كانت صادرة من ناحية من يتمتّع بصفة القائد المطلق وصـاحب المقام العالي، فإنّها تدلّ على كمال العناية والاهتمام واللطف مـن ناحيتـه، فتكـون وسيلة من وسائل جذب الموصّى واستمالته.

وهكذا الامر في الآية الّتي هي محلّ البحث، فقد كان أسلوب التبليغ الالهي فيها أسلوب التوصية والاستمالة.

وبعيدا عن صبغة اللطف التي يضفيها عنوان «الوصـيّة»، فقـد ضـمّن هـذا اللفظ معنى آخر هو خوف الفوت، فإنّ الفوت يكـون بلحـاظ المـوصي أحيانـا

---

١ . التحقيق، ج١٣، ص٢٥٣، «يعقوب».





وبلحاظ الوصيّ أحيانا أخرى، كما أنّه قد يكون بلحاظ الاثنين في بعض الاحيان.

والمعهود في الوصيّة أن تكون بلحاظ خوف فوت الموصي، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالاقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[١].

كما أنّ بعض من لا يغتنم الفرص قد يصل إلى لحظة لا يستطيع فيها الرجوع ولا الوصيّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢].

وأمّا في ما إذا كانت الوصيّة صادرة منه سبحانه وتعالى، فإنها تكون بلحاظ فوت الوصيّ؛ إذ يخاف عليه الموت في أيّة لحظة من اللحظات. وما نقل عن حضرة الرسول الاكرم ﷺ، من أنّه كان يوصي عندما كان يريد السفر[٣]، فهو من باب فوت الحضور؛ إذ في حالة سفر الموصي أو سفر الوصيّ فالحضور منتف، ومن كان يهاجر هجرة طويلة أم قصيرة بحيث يفارقه ﷺ، فإنّه كان يسعى إلى أن يستفيد ممّا كان يوصي به.

## الوصيّة بالدين والتوصية بالعقل.

قبل وصيّة النبيّين والاوصياء الالهيين بالدين، فقد وصّى الله سبحانه وتعالى به بنفسه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٤].

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٨٠.

٢ . سورة يس، الآية ٥٠.

٣ . الكافي، ج٥، ص٢٧ ـ ٣٠. مكارم الاخلاق، ص٢٤٩.

٤ . سورة الشورىٰ، الآية ١٣.



وقد جاء التعبير بالوصية في آيات أخر أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾[2].

وروح الوصيّة بالاسلام والدين الصادرة من حضرة إبراهيم عليه السلام هي التوصية بالعقل، فالحقيقة: أنّ إبراهيم خليل الرحمان كأنّما قال لبنيه[3]: «كونوا عقلاء ولا تكونوا سفهاء»؛ فإنّ سيرته عليه السلام كانت سيرة رشد وعقل كما سبق وأشرنا، وكما أنّ الاعراض عن تلك السيرة يعتبر علامة السفاهة والجهل كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[4]، فإنّ التوصية بتلك السيرة تعتبر توصية بالعقل، الامر الصادق حتّى على القراءة المعروفة التي تجعل يعقوب معطوفا على إبراهيم عليهما السلام.

**تنويهات:** ١ ـ التوصية بالدين أمر عام لا خاص، فلا يرتبط بقبيلة دون أخرى، ولا بعائلة دون أخرى، وأمّا ذكر البنين، فإنما هو من جهة الاشفاق عليهم، كما هو أمره سبحانه وتعالى الوارد في الآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[5].

**٢** ـ ذكر خصوص يعقوب عليه السلام في الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام، إنّما هو بهدف ترغيب اليهود والنصارى.

---

١ . **سورة الأنعام**، الآية ١٥٣.

٢ . **سورة النساء**، الآية ١٣١.

٣ . بناء على قراءة «يعقوب» منصوبا، سيكون معنى الآية: أنّه عليه السلام مشمول بوصية حضرة إبراهيم، بالدين الالهي المصطفى.

٤ . **سورة البقرة**، الآية ١٣٠.

٥ . **سورة التحريم**، الآية ٦.

٣ ـ السرّ في التفريق بين الجملتين في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبراهيم بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، إنّما هو إبعاد توهّم اختصاص الوصيّة ببني إبراهيم من نسل يعقوب عليه السلام، وإن كانت الوصيّة شاملة لنسل يعقوب من الجهتين.

## الدين الحقّ المصطفى

حيثما يأتي لفظ «الدين» في القرآن مطلقا فإنّ المراد منه هو «الاسلام». الشاهد على هذه النكتة والقرينة المتصلة عليها، هو مجيء فاء التفريع بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾، حيث يقول سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. وأمّا القرينة المنفصلة على ذلك، فهي أن الدين المعهود والمعروف لديه سبحانه وتعالى إنّما هو الاسلام، كما قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الاسْلامُ﴾[1].

وهذا الدين الّذي وصّى به الناس هو صفوة الله وانتخابه، ولو اختار سبحانه وتعالى شيئا للانسان، فلا حقّ للانسان في أن يقف من ذلك الّذي اختاره سبحانه وتعالى له موقف الرفض والردّ شرعا، وإن كان حرّا تكوينا في الرفض بالمعصية؛ فإنّه تعالى الخالق، والحقّ المطلق في الاختيار والانتخاب إنّما هو للخالق لا المخلوق، ولّما لم يكن أصل وجود المخلوق بيده، فكيف بحق الانتخاب في قبال انتخاب الخالق سبحانه وتعالى، قال عزّ من قائل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١٩.

٢ . سورة القصص، الآية ٦٨.



مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِيناً﴾[1].

من الطبيعي أنّ كون حقّ الانتخاب بيده سبحانه وتعالى لا بيد البشر هو أمر في نفع البشر بصورة كاملة؛ فإنّه تعالى عالم بجميع مصالح هؤلاء وقادر عليها، ويبيّنها لهم بكرمه ومنّه.

## الوصيّة بالموت مسلما

أصل الموت أمر ضروري لا مفرّ منه قد حكم به كلّ إنسان، قال تعالى: ﴿كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[2]، ومن هنا، فإنّه مسألة غير قابلة للامر والنهي.

إلا أن الامر بالموت أو النهي عنه بلحاظ قيد من القيود الاختيارية أمر ممكن، فيمكن أن نقول للانسان: «مت مسلما» أو: «لا تمت كافرا»، قال تعالى: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

وفي مقام توضيح هذا الجزء من أجزاء الآية الشريفة، يمكن الاشارة إلى النكتتين التاليتين:

١ ـ زمان الموت مجهول، فلا يعلم أيّ إنسان ساعة موته، ولا الارض التي سيموت فيها، ولا طبيعة الحالة التي سيموت عليها من الناحية الفكرية والاجتماعية. قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[3]، ولهذا، فإنّ من الواجب على الانسان أن يكون مسلما في جميع حالاته وأعماله، ليكون مصونا من الموت حالة الغفلة بدون الاسلام، وعليه، فالترغيب والتأكيد الوارد في مجال ذكر قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ

---

١ . سورة الاحزاب، الآية ٣٦.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

٣ . سورة لقمان، الآية ٣٤.

وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[١، ٢] مطلع الصلاة، إنّما هو لإيصال هذه المعلومة المهمة، وهي أن حياة الانسان ومماته وجميع شؤونه إنّما هي له تعالى ولذكره، لا أنّ ذلك الكلام مختصّ بذلك المورد وهو طليعة الصلاة بحيث للانسان أن يغفل عنه في غير ذلك الوقت، كما في أثناء الصلاة أو آخرها مثلا.

الانسان الّذي يطلب منه تعالى أن تكون جميع أعماله وأقواله خالصة له تعالى، وأن تكون أحواله في عبادته وطاعته تعالى دائما، وألّا ينقطع عن هذه الطلبات، فلا جرم أنّه إن مات فإنما يموت على الاسلام، «يا ربّ أسألك... أن تجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورة، وبخدمتك موصولة، وأعمالي عندك مقبولة، حتّى تكون أعمالي وأورادي كلّها ورداً واحداً، وحالي في خدمتك سرمداً»[٣].

٢ـ التذكير بالموت في هذه الوصيّة، وبالاسلوب الّذي جاء فيها، وهو التحذير من الموت لا على الاسلام كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، إنّما هو إشارة إلى ضرورة تهيئة «الايمان الثابت».

توضيح ذلك:

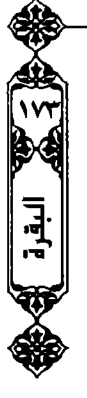
إن الضغط الّذي يتعرّض له المرء من جرّاء الموت ليس من قبيل الضغط الّذي يتعرض له جراء الامراض المعروفة لكي يكون قابلا للتحمّل من قبل الشخص؛ لو كان الموت ممّا يمكن تحمله، لما فارقت الروح البدن جرّاء الموت، وإنّما هو أمر عظيم وطامّة كبرى لا يمكن وصفه، بحيث لا يملك الانسان بكلّ ما أوتي من قوّة إلا الاستسلام والخضوع في قباله.

---

١ . سورة الأنعام، الآيات ١٦٢ ـ ١٦٣.

٢ . الكافي، ج٣، ص٣١٠ ـ ٣١١. وقد ورد هذا الذكر حين ذبح العقيقة أيضاً. (الكافي، ج٦، ص٣١).

٣ . مصباح المتهجّد. مفاتيح الجنان، دعاء كميل.




فلو لم يكن للشخص إيمان راسخ وعقيدة ثابتة بحيث تكون ملكة من ملكاته، فإنّ ضغط الموت سيؤدي إلى إزالة ذلك الايمان والعقيدة من القلب وقلعهما بسهولة، كما يقلع غيرهما من ذكريات الانسان غير الراسخة في الروح، فتترك البدن كما تتركه الروح، فلا تواصل الرحلة مع الروح إليه سبحانه وتعالى، وإنّما يواصل تلك الرحلة الايمان الراسخ والعقيدة الراسخة اللّذين يعتبران مصدر الامن والامان للروح في رحلتها إليه تعالى في عالم البرزخ، وفي يوم المعاد، فالسعيد من كان له إيمان راسخ وعقيدة ثابتة، وأمّا غيره، فلا.

الأمر السابق هو السرّ في عجز بعض الافراد عن جواب أسهل الاسئلة في مجال المسائل الدينية في القبر؛ إذ لما كان ضغط الموت عظيما إلى الحد الّذي لا يوصف، فإنّه يكتسح كلّ المعلومات غير المستقرّة لدى الانسان من عقله، فيكون الانسان في القبر كالكافر، فلا يتمكن من الإجابة على ما يسأل عنه ولو كان سهلا، كما في السؤال عن الربّ والنبيّ والائمّة والدين والكتاب والقبلة، الأمور التي تعدّ الاجابة عليها في الظروف الطبيعية الغاية في السهولة واليسر، مع أنّ الانسان في الامتحانات المتعارفة إنّما يسأل أسئلة صعبة لا بهذه السهولة التي يعرفها الناس العاديّون في الحياة الدنيا.

والمغزى: أنّ معرفة العادل والفاسق في الحياة الدنيا بأجوبة ما سيسأل عنه في ذلك العالم لا يعني أنّهما سيتمكّنان من الاجابة حينئذ؛ لما قلناه من شدّة الضغط الّذي يتعرض له الانسان حال الموت بحيث لا يترك له إلا ما كان راسخا مستقرّا من المعلومات، ليكون الانسان من المعذّبين في البرزخ لسنين متمادية لا يعلم أجلها إلا الله سبحانه وتعالى، ليسترد ـ في بعض الحالات ـ بعض تلك الذكريات شيئا فشيئا، فيتمكّن من الاجابة على ما يوجه له من أسئلة في ذلك العالم.

بناء على ما سبق، فالتذكير بالموت حين الوصيّة بـالتحلّي بـالايمان الراسـخ، يعدّ أمرا عظيم الاثر في تطبيق تلك الوصيّة والعمل بها. وهـي النكتـة الـواردة أيضاً في دعاء حضرة يوسف عليه السلام، عمـلا بوصـية يعقـوب عليه السلام، حيـث قـال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِـنَ الْمُلْـكِ وَعَلَّمْتَنِـي مِـنْ تَأْوِيـلِ الاحَادِيـثِ فَـاطِرَ السَّـمَاوَاتِ وَالارْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾[1]؛ بمعنى: أن أصل إلى حالة بحيث يكون الايمان قد عجن مع روحي، فكان ملكة من الملكات التي لا يمكن اكتساحها من قبل الموت إذا حل بي.

والسر في جميع ما سبق، هو أن لا ضغط للموت على الانسـان الّـذي يتمتّـع بالايمان الراسخ[2]، ما يفسّر ما يحسّ به هكذا إنسان من حلاوة حين تسليم الروح له تعالى ما بعدها حلاوة. فلأنّه لا يتعرض لأيّ ضغط من قبل الموت، فلا يفارق جوهر الايمان روحه ولا ذهنه، على عكس من لم يستقرّ الايمان في روحه؛ إذ يترك هكذا إيمان الروح على أثر ما تتعرض له من ضغط الموت فـلا يعـود لهـا إلا بعـد عذاب طويل.

## إشارات ولطائف

### ١ ـ التوصية بالحق

التوصية بالدين سيرة جميـع الانبيـاء عليهم السلام، مـا يفسّر ـ كـون تلـك التوصـية والتواصي بالحق من جملة البرامج التي جاء بهـا الـدين، وفي عـداد المسـؤوليات التي تقع على عاتق الانسان الملتزم، بحيث يعدها القرآن الكريم مـن أركـان مـا

---

١ . سورة يوسف، الآية ١٠١.

٢ . الكافي، ج٣، ص١٢٧ ـ ١٢٨: «فما شيء أحب إليه من استلال روحـه» و ص١٣١: «... يسلّ نفسه سلّا رفيقاً».





ينجي الانسان من الخسران، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الانسان لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1].

فمن يكتب له النجاة من الخسران، هو من كان من أهل الايمان بلحاظ العقيدة، ومن أهل العمل الصالح بلحاظ العمل، فحين يتوفّر عند الانسان الصفتان السابقتان، يؤمر عندها بإيصالهما إلى الآخرين، بمعنى: أنّ الحقّ الّذي تحقق عنده، والعمل الصالح الّذي عمل به بنفسه، يوصي الآخرين بهما، بناء على ذلك، ففي مقابل الركنين السابقي الذكر، أي: «الركنِ الشخصي»، و«الركن الاجتماعي» اللّذين يعدّان من أوصاف أهل النجاة، هناك أيضاً مسؤولية تقع على عاتق المؤمن، فـ ﴿تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ هي في مقابل: ﴿آمَنُوا﴾، كما أنّ ﴿تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إنّما هي في مقابل: ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ إذ إنّ عصارة العمل الصالح ورأسه هي الصبر، كما جاء في الرواية: «رأس طاعة الله الصبر والرضا عن الله...»[2]، وجاء أيضاً «الصبر رأس الايمان»، وجاء أيضاً «الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد...»[3].

فالصبر أصل جميع أوامره تعالى؛ فإنّ الانسان المؤمن يصبر عن المعصية وعند المصيبة وعلى الطاعة كما في الرواية الشريفة: «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية...»[4].

ومن الجدير بالانتباه، هو أنّ التواصي يعتبر أمرا مختلفا عن مسألة العمل على أساس العلاقات؛ فإنّ تشخيص موارد العمل على أساس العلاقات وتمييزها عن موارد التوصية بالحق والتوصية بالصبر هو أمر قائم على أساس الصّراط

---

١ . سورة العصر، الآيات ١ ـ ٣.

٢ . الكافي، ج٢، ص٦٠.

٣ . المصدر السابق، ص٨٧.

٤ . المصدر السابق، ص٩١.

مستقيم الّذي هو أدقّ من الشعرة وأحدّ من حدّ السيف[١]. قد يحتاج الانسان أحيانا إلى الانفاق مما أنعم الله عليه من نعمة ماء الوجه لكي يتوفّق في ما أمر به من التوصية بالحق وحلّ مشاكل الآخرين، ولكنّه لا يقدّم باطله على حق الآخرين على أساس التعصّب المقيت.

## ٢ ـ الموت بالنسة إلى الموجودات المختلفة

لكلّ من «الحياة» و«الموت» مفهوم جامع له مصاديق متعدّدة بلحاظ الموجودات المختلفة، فهو شامل للجمادات، والنباتات، والحيوانات، والانسان، والملائكة وكذا لموجودات عالم العقول.

وقد تعرّض القرآن الكريم للموت في بعض الموجودات بالطريقة التالية: ﴿وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الارْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٢]، ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[٣]، ﴿كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٤].

**توضيح ذلك:** إنّ موت أيّ شيء أمر يتناسب مع حيثية ذلك الشيء الوجودية، فإذا كان ذلك الموجود مركّبا من عناصر ومؤلفا من مادّة وصورة، فموت ذلك الشيء سيكون عبارة عن زوال ذلك التركيب ونفاد ذلك التأليف، فبزوال الهيئة التركيبية يتلاشى ذلك الشيء وينتفي.

وأمّا إذا كان الموجود منزّها ذاتا عن العناصر المادية، إلا إنّه كان ماديا في مقام الفعل، بحيث لا يتمكن من أيّ فعل لولا المادّة، فإنّ موت موجود مجرّد من هذا النوع إنّما هو بزوال ارتباطه بالمتعلّق، والشيء المجرّد نفسه وإن كان

١ . الكافي ، ج٨، ص٣١٢.
٢ . سورة النحل، الآية ٦٥.
٣ . سورة الأنعام، الآية ٩٥.
٤ . سورة آل عمران، الآية ١٨٥.



موجودا، إلا أنّه محروم من عمل أيّ عمل؛ لاعتماد موجود من ذلك النوع على المادّة في مقام العمل، وبزوال الارتباط تنعدم المادّة التي هي المتعلَّقة.

وأمّا اذا كان الموجود نوع موجود مجرّد محض مبرأ عن أيّ ارتباط بالمادّة في مقام الذات والفعل، فليس لموجود من هذا النوع موت من النوع المعهود، من الممكن طبعا أن نفترض لهكذا موجود موتا من قبيل موت نفس الموت ومن قبيل موت عزرائيل وما شابهه، الّذي قد يرجع إلى الظهور والخفاء.

ونحيل الكلام في تفاصيل هذه المسألة إلى الفرصة المناسبة له.

ومن الجدير بالذكر، أنّ الموجود البسيط والمجرّد يمكنه أن ينال «مقام الفناء»، الّذي هو الموت الإرادي لا الطبيعي، وهو ألّا يلتفت الموجود إلى نفسه، ولا يلتهي بإدارة هويّته، في حالة انحفاظ أصل وجوده.

## البحث الروائي

### ١ ـ السنة الابراهيمية للوصية بالاسلام

قال عليٌّ أمير المؤمنين عليه السلام: **«أوصيكما وجميع وَلدي وأهلي ومن بلغه كتابي...»**[1]، **«وصيّتي لكم ألّا تشركوا بالله شيئاً...»**[2].

**إشارة:** إعتبر سبحانه وتعالى الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله والمؤمنين ومن اتّبع حضرة إبراهيم أولى به من غيرهم حيث قال عزّ من قائل: **﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبراهيم لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[3]. والأولى بإبراهيم عليه السلام هو من يحيي سنتّه وملّته.

---

١ . **نهج البلاغة**، الرسالة ٤٧.

٢ . المصدر السابق، الرسالة ٢٣. وهذان الخطابان النورانيان من جملة وصاياه عليه السلام بعد أن ضرب على رأسه ضربة الموت.

٣ . **سورة آل عمران**، الآية ٦٨.




وقد كان أبرز أساليبه عليه السلام هو توصية بنيه بالاسلام، ومن لا يذكر في وصيّته إلا الاموال والاملاك، ولا يدعو الباقين بعده إلى الاسلام ومعارف الدين كتابة أو مشافهة، فإنه لم يحفظ أسلوب حضرة إبراهيم ولا أحياه.

وأمّا حضرة أمير المؤمنين عليه السلام، فهو ـ طبقا للسنّة الإبراهيمية في الوصيّة بالدين والدعوة إلى الاسلام ـ يوصي الجميع بالكتاب ويدعوهم إلى الاسلام، وإلى الحج والسنّة والصلاة وغيرها مما شابه.

## ٢ ـ الولادة والموت والحشر على سلامة

قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «**إنّ أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد ويخرج من بطن أمّه فيرى الدنيا، ويوم يموت فيعاين الآخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا؛ وقد سلّم الله عزّ وجلّ على يحيي عليه السلام في هذه المواطن، وآمن روعته، فقال: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾[1] وقد سلّم عيسى بن مريم عليه السلام على نفسه في هذه المواطن الثلاثة، فقال: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾**»[2].

إشارة: الإنسان مسافر طوى بعض المحطّات من سفره وبقي له أخرى، وأهمّ تلك المحطّات ثلاث: الولادة والموت والبعث يوم القيامة.

وقد طوى حضرة عيسى ويحيى عليهما السلام هذه المحطات الثلاث بسلامة، فقد بيّن الله سبحانه وتعالى ذلك في كتابه الكريم في الآيات الشريفة المزبورة، فيسلّم على حضرة يحيى عليه السلام في تلك المراحل الثلاث[3]، وينقل سلام حضرة

١ . سورة مريم، الآية ١٥.

٢ . سورة مريم، الآية ٣٣، بحار الانوار، ج٦، ص١٥٨.

٣ . سورة مريم، الآية ١٥.

المسيح عليه السلام على نفسه ممضيا له[١].

يرافق ميلاد بعض الاشخاص الشيطان؛ فهو شريك في أموال بعض الاشخاص وأولادهم كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الامْوَالِ وَالاولادِ﴾[٢]. ولربّما كان السرّ في تقديم «المال» على «الولد» في الآية الشريفة، هو أنّ المال الحرام والغذاء الحرام غير الطاهر لا يؤدّي إلى الولد الصالح، وعليه، فلو كان الشيطان شريكا لأحدهم في المال، فإنّه سيكون شريكا في ما سينتج عنه هذا المال الحرام من ولد، فيكون له دور في ولادته.

وفي مقطع من مقاطع الرحلة، يتذوّق السالك إلى الله سبحانه وتعالى طعم الموت الّذي هو عصارة حياته، معنى ذلك: إن ذلك السالك يقوم بحذف الموت الّذي يعتبر مرحلة تحوّل وانتقال إلى نشأة الثبات فيموت، قال تعالى: ﴿كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾[٣]، لا أنّ الموت يعدم الحياة الانسانية؛ فإنّ النفس الذائقة لا المذاقة.

الموت عصارة حياة الانسان، الأمر الّذي يفسر كونه شديد المرورة بالنسبة إلى المجرمين وحلوا جدا بالنسبة إلى الصالحين.

وعليه، فلا أمر من لحظة الموت بالنسبة إلى المجرم، وفي المقابل، لا ألذّ ولا أهنأ من تلك اللحظة بالنسبة إلى المؤمن، وهذا ما يفسر ما ورد من أن الموت قرّة عين المؤمن[٤].

ومن يعبر محطّتي الحياة والموت بسلامة، فإنّه سيكون على سلامة في ما بعد الموت، وعليه، فمن يموت مسلما، فإنّه سيحشر مسلما أيضاً كما ورد في الرواية

---

١ . سورة مريم، الآية ٣٣.

٢ . سورة الاسراء، الآية ٦٤.

٣ . سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

٤ . الكافي، ج٣، ص١٢٨ ـ ١٣٥. تفسير العياشي، ج١، ص٢١٠.




الشريفة: «كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تبعثون، وكما تبعثون تحشرون»[١] وهذا هو السرّ في سلامه تعالى في تلك المحطّات الثلاث، وهو السرّ ـ أيضاً في وصيّة حضرة إبراهيم ويعقوب عليهما السلام بالموت على الاسلام في قوله تعالى: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

## ٣ ـ الموت الحَسَن والموت القبيح

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**من أصبح من هذه الأمّة لا إمام له من الله عادل، أصبح تائهاً متحيراً، إن مات على حاله تلك مات ميتة كفرٍ ونفاقٍ**»[٢].

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ألا ومن مات على بغض آل محمّد مات كافراً، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات على الايمان**»[٣].

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «**يا علي، لاتبال بمن مات وهو مبغض لك، فمن مات على بغضك مات يهوديّاً أو نصرانياً**»[٤].

**إشارتان: أ** ـ الموت ـ شأنه شأن الحياة ـ أمر وجودي لا عدمي؛ إذ إنّ الموت إنّما هو انتقال من الدنيا والهجرة إلى الآخرة، وإن كان هناك أمر عدمي نسبي في كلّ هجرة وانتقال.

ب ـ يتقبّل الأمر الوجودي بعض الصفات الخاصّة، صفات من قبيل: الجهل والعقل، التعرّب والمدنية، الكفر والاسلام. وما ورد في الحديث: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهليّةً»[٥] من هذا القبيل، وهو تقبّل الموت

---

١ . **عوالي اللئالي**، ج٤، ص٧٢.
٢ . **بحار الانوار**، ج٢٣، ص٨٧.
٣ . المصدر السابق، ج٢٧، ص١١٥.
٤ . المصدر السابق، ج٣٩، ص٢٥٠.
٥ . **الكافي**، ج٢، ص٢١.



لوصف خاص، ومن قبيل ما ورد في معرفة أهل البيت عليهم السلام ومحبتهم كما في قوله عليه السلام: «من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حقّ ربّه وحقّ رسوله وأهل بيته، مات شهيداً»[1]، وما ورد من قولهم عليهم السلام: «فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين»[2] من هذا القبيل أيضاً.

الآية الّتي هي محلّ البحث، والاحاديث الواردة في هذا المجال، كلّها وردت لتبيّن وصف الموت الحَسَن، ليستطيع الانسان اجتناب الموت القبيح.

### ٤ـ طريق استقرار الايمان ورسوخه

قال أبو عبد الله عليه السلام: **«إنّ العبد يصبح مؤمناً ويمسي كافراً، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً، وقومٌ يعارون الايمان ثمّ يسلبونه، ويسمّون المعارين»**[3].

ـ قال أبو الحسن عليه السلام: **«إنّ الله... أعار قوماً إيماناً، فإن شاء تمّمه لهم وإن شاء سلبهم إياه... وفيهم جرت: ﴿فمستقرٌّ ومستودعٌ﴾**[4] **و... إنّ فلاناً كان مستودعاً إيمانه، فلما كذب علينا سلب إيمانه»**[5].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: **«إنّ الله... جبل بعض المؤمنين على الايمان فلا يرتدّون أبداً، ومنهم من أُعير الايمان عاريةً، فإذا هو دعا وألحّ في الدعاء مات على الايمان»**[6].

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠.
٢ . المصدر السابق، الخطبة ٥١.
٣ . الكافي، ج٢، ص٤١٨.
٤ . سورة الأنعام، الآية ٩٨.
٥ . الكافي، ج٢، ص٤١٨.
٦ . المصدر السابق، ص٤١٩.

إشارة: العامل الاهم في استقرار الايمان ورسوخه، والمانع من زواله، هو المداومة على العمل الصالح والخالص على أساس معيار العلم الصائب والعلاقة الناصحة؛ فإنّ المداومة العملية هي التي تهيّئ الارضية المناسبة للرسوخ وصيرورة الامر ملكة، وهي التي تصون من خطر الزوال.

## ٥ـ الإيمان بالولاية من عناصر الدين الصفوة

قال أبو جعفر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَوَصَّى بِهَا إبراهيم بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾: «بولاية عليّ عليه السلام»[١].

**إشارة:** للدين الصفوة الّذي اصطفاه الله سبحانه وتعالى عناصر محورية تشكّل الولاية واحدا منها، كما يستظهر أيضاً من آية إكمال الدين وإتمام النعمة، وعليه، فإنّ ذكر الولاية في الرواية السابقة إنّما هو من باب التطبيق المصداقي لا من باب التفسير المفهومي.

* * *

---

١. بحار الانوار، ج٢٣، ص٣٧١. وفي نقل آخر ورد بدلا عن «بولاية» كلمة «الولاية». (بحارالانوار، ج٣٥، ص٣٤١).

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

## التفسير المختار

يخاطب الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة أهل الكتاب، رادّا ما ادّعاه اليهود والنصارى من أنّ حضرة يعقوب عليه السلام على ملّتهم وأنّه وصّى بنيه عند الموت باليهودية أو المسيحية، قائلا لهم: «إنّكم لم تكونوا ممّن حضر زمان وصيّة حضرة يعقوب لبنيه، ولا كنتم شهودا على ما جرى في ذلك الوقت».

يسأل حضرة يعقوب عليه السلام ـ حذرا من أخطار عبادة الاوثان التي كانت فكرا رائجا ودينا حاكما على مصر ذلك الزمان ـ قائلا: «ماذا تعبدون من بعدي»؟

فقالوا: «إلهك الواحد وإله آبائك من قبل من نعبد، وديننا الراسخ الاسلام».

فما كان ذلك الوقت ليس الا الوصيّة بالاسلام لا اليهودية أو النصرانية.

## تفسير المفردات

أم: يذهب بعض المفسرين إلى أنّ كلمة «أم» متعينة في الانقطاع، ما جعلهم لا يطرحون احتمال اتصالها بما قبلها.

كما أنّ البعض ـ كالزمخشريّ ـ رجّح الاتّصال حيث قال: «ولكن الوجه أن

تكون أم متصلة على أن يقدّر قبلها محذوف، كأنه قيل: أتدّعون على الانبياء اليهودية؟ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت﴾ يعني: أنّ أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد وملّة الاسلام، وقد علمتم ذلك، فما لكم تدّعون على الانبياء ما هم منه برآء؟»[1].

وقد رد البعض ما ذهب إليه الزمخشري من جهة أنّ كون المعادل محذوفا ممّا يحتاج إلى الدليل، وأنّ الاقوال في «أم» ثلاثة:

«(المشهور): أنّها هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة. (الثاني): أنّها للإضراب فقط، بمعنى بل. (الثالث): بمعنى همزة الاستفهام فقط»[2]

والذي يظهر للنظر هو أن تكون للانقطاع المذكور سابقا.

## تناسب الآيات

مع التوجّه إلى ما جاء في الآية الشريفة السابقة من وصيّة حضرة إبراهيم ويعقوب عليهما السلام، جاءت هذه الآية توضيحا وتبيينا لوصية حضرة يعقوب وما جرى من حديث بينه عليه السلام وبين بنيه.

وتكرار بيان وصيّة يعقوب دون غيره، وتأكيد تلك الوصيّة وتقريرها بصيغة السؤال والجواب بين يعقوب وبنيه، إنّما هو لإتمام الحجّة مرّة أخرى على أهل الكتاب الذين يعتبرون أنفسهم من بني يعقوب (إسرائيل) عليه السلام، وبالاخص اليهود الذين يدّعون أنّ الدين الّذي اختاره يعقوب وبنوه هو اليهودية مع كلّ ما عليه من اعوجاج وانحراف عن التوحيد، مع أنّ يعقوب وبنيه (الاسباط) لم يتبعوا إلا التوحيد والاسلام والعبادة الخالصة له تعالى.

* * *

---

١ . الكشاف، ج١، ص١٩٢.

٢ . تفسير البحر المحيط، ج١، ص٤٠١.

## توهّم اتحاد ملّة يعقوب عليه السلام وما عليه اليهود والنصارى

يذهب اليهود والمسيحيون إلى أن حضرة إبراهيم ويعقوب عليهما السلام على ملّتهم وديانتهم على ما بها من شرك وادّعاءات لا أساس لها، والتي عدّوها من الاسلام والانقياد له سبحانه وتعالى.

وقد ردّ سبحانه وتعالى هذه الادعاءات مخاطبا أهل الكتاب بأنهم لم يحضروا وصيّة يعقوب عليه السلام لبنيه، ولم يكونوا شهودا على ما جرى في ذلك اليوم، إذ ما جرى في ذلك اليوم لم يكن غير الحث على الاسلام والوصية به، لا باليهودية ولا بالنصرانية ولا بغيرهما.

نعم، من الطبيعي أن مجرد عدم حضور اليهود والنصارى ذلك اليوم لا يعني أبدا صحة ما خالفهم؛ إذ عدم الوجدان لا يعني عدم الوجود كما هو معروف، الا أن المقطوع به هو أن عدم حضورهم لن يعني الا عدم صدق ادعاءاتهم، الا أن يثبت دليل آخر، كذكر ذلك في التوراة أو الانجيل مثلا بعد عدم حضورهم الوصيّة.

فإثبات مدعى اليهود والنصارى إما أن يثبت بحضورهم وصيّة يعقوب عليه السلام لبنيه باليهودية والنصرانية اللّتين يدعونها، وأمّا أن يقوم على ذلك دليل خاص من نقل في التوراة أو الانجيل كما قلنا، والحال أنهم كفاقد الطهورين، فلا كانوا قد حضروا الوصيّة ولا قام بذلك شاهد من السماء.

وشبيه ما جاء قبل قليل من النهي عن نقل شيء ليس للانسان علم صحته جاء في آيات أخرى من القرآن الكريم، من قبيل ما جاء في مجال أصل الخلقة، من قوله تعالى: **﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾**[1]، خطابا لمن جعل له سبحانه وتعالى شريكا في

---

١ . سورة الكهف، الآية ٥١.

الخلق مع أنهم لم يشهدوا حادثة الخلق، ومن قبيل قوله تعالى أيضاً: ﴿وَمِنَ الابِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الانْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الانْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، خطابا لمن حلل بعض الحيوانات وحرم بعضها الآخر بلا علم ولا حضور لحادثة التحليل والتحريم[1].

## تحليل السؤال والجواب الواردين في الآية المباركة

كانت الوثنية الدين الحاكم على مصر القديمة والفكر الرائج في ذلك العصر، حتّى إنّ فرعون نفسه ـ وهو من كان يدعي الالوهية كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[2]، وكذا في قوله تعالى: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الاعْلَى﴾[3] ـ كان ممن يخضع أمام الاوثان، ومن هنا حذره من يعمل عنده من أن يذر موسى وقومه يعبدونه سبحانه وتعالى؛ بحجة أن ذلك يعني إفناء ديانته وما يعبد من الاوثان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الارْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[4]. وعليه، فمراد فرعون من ادعاء الالوهية والربوبية، هو أن يكون قانونه وأوامره مطاعة ليس الا، فلم يكن المقصود ادعاء الخالقية كما يدعيه بعض السلاطين من أصحاب الانانيّة اليوم.

والمغزى: أنّ عبادة الاوثان كانت رائجة إلى الحد الّذي شملت فيه الفرعون المدعي للالوهية والربوبية فجعلته خاضعا خانعا أمام الاوثان.

---

١ . سورة الأنعام، الآية ١٤٤.

٢ . سورة القصص، الآية ٣٨.

٣ . سورة النازعات، الآية ٢٤.

٤ . سورة الاعراف، الآية ١٢٧.

ويمكن إثبات بدعة عبادة الاوثان المنحوسة من خلال الاحتجاجات التي قام بها الانبياء الابراهيميون إلى عصر حضرة موسى عليه السلام؛ فحضرة لوط عليه السلام من جهة، وحضرة شعيب عليه السلام من جهة أخرى، وحضرة يوسف عليه السلام الّذي ذكر في القرآن الكريم دعوته لمن كان معه في السجن بقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1] بينهما عليهما السلام من جهة ثالثة، كلّ أولئك كانوا مبتلين بمصيبة عبادة الاوثان والاصنام.

وقد حذر حضرة يعقوب عليه السلام ـ وهو الشاهد على حضور تلك الخرافات والعقائد الفاسدة ـ بنيه من تلك الافكار المريضة، سائلا إياهم عما يعبدونه من بعده عليه السلام. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾؟

ولم يكن مراد حضرة يعقوب عليه السلام في تلك اللحظة الاعلام الابتدائي لبنيه؛ لوضوح أنهم كانوا قبل ذلك وبعده موحدين؛ يشهد بذلك احتجاجات حضرة يوسف عليه السلام السابقة، وعليه، فالحديث السابق إنّما هو في الحقيقة إعادة تعليم وتجديد بيعة.

وقد أجاب بنو حضرة يعقوب عليه السلام، وهم في جو الخلوص الّذي كانوا يعيشون معه لحظة وفاة والدهم بأنهم يعبدون إلهه وإله آبائه الطاهرين: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إبراهيم وَإسماعيل وَإِسحاق﴾.

وقد كان الشرك أمرا مشهورا جدا في مصر القديمة، إلى الحد الّذي كان يلزم فيه من يريد الحديث عن ربوبيته سبحانه وتعالى والايمان به وعبادته، أن يأتي بقرينة مُعيّنة لكي يشخص أنّه يتكلم عنه سبحانه وتعالى، كما في ما جاء على لسان السحرة التائبين: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[2]، وكما قال

---

١ . سورة يوسف، الآية ٣٩.

٢ . سورة الشعراء، الآيات ٤٧ ـ ٤٨.

فرعون حين غرقه: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أنّه لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ﴾[1].

الوضع المؤسف السابق الذكر، كان الباعث على عدم اكتفاء توصية حضرة يعقوب عليه السلام وقبول أوليائه بمجرد التوحيد ومضمون «لاإله الا الله»، بل يذكر بالاضافة إلى ذلك قرينة هي قولهم: ﴿إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ﴾.

ولأجل ألّا يتوهم أن إله يعقوب غير إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام، قال بنو يعقوب عليه السلام: إنهم يعبدون الله المعبود الواحد، ثم أردفوا كلامهم ذلك بقولهم: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، ذلك الاسلام الّذي كان لجدنا إبراهيم عليه السلام، حيث دعا بتوفيق التشرف به منه تعالى عندما قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[2] وما اجاب به عليه السلام الامر الالهي: ﴿أسلم﴾، حيث أجاب بقوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3].

فنحن سنكون حماة ذلك الاسلام الّذي وصلك من حضرة إبراهيم عليه السلام، والذي وصيتنا به حيث قلت: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[4].

مرد محاورة من النوع السابق إلى ما يلي:

١ ـ قال سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام: «أسلم»، فقال: «أسلمت لرب العالمين».

٢ ـ يقول يعقوب لبنيه: «ماذا تعبدون من بعدي؟ أي: «أسلموا واحفظوا الاسلام»، فقالوا: «أسلمنا لرب العالمين».

---

١ . سورة يونس، الآية ٩٠.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٢٨.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٣١.

٤ . سورة البقرة، الآية ١٣٢.



وأمّا الجزء النهائي من كلام بني يعقوب، يعني: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، فهو مما يتّسق تمام الاتساق مع ما جاء في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

والحاصل: أنّ العنصر المحوري في الوصايا السابقة هو رعاية الاسلام؛ فإنّ العقدة في القصة كلها هو عنوان الاسلام، الاسلام الّذي ليس هو قوانين محضة ولا مجرد تقاليد، ولا مجرد عقائد خالية، وإنما هو أمر يتجلى في القلب والقالب، والجانحة والجارحة، والباطن والظاهر، يعني: ما له ظهور يشمل العقيدة والاخلاق والعمل الصالح، لذا يرافقه عنوان العبادة لكي يحفظ تجليه العملي على طول الخط.

**نكات مهمة:** ١ ـ السرّ في التعبير بكلمة «ما» عوضا عن كلمة «مَنْ» في سؤال حضرة يعقوب عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾، هو عموم كلمة «ما» في بعض الموارد، لتشمل ذوي العقول وغيرهم، كما تستعمل في بيان حدّ الاشياء والانواع من عاقل وغير عاقل، كما في قولهم: «الانسان ما هو»؟، وفي قولهم: «الشجر ماهو»؟

ومن ناحية أخرى، تستعمل «ما» أحيانا لوصف العاقل، كما في قولنا: «ما زيدٌ، فقيه أم أديبٌ؟». ويمكن أن يكون ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1] من هذا القبيل.

٢ ـ مع الاخذ بنظر الاعتبار أن هناك مزية للحاضر ليست للغائب، فقد قدم في جملة: ﴿إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إبراهيم وَإسماعيل وَإسحاق﴾ ضمير الخطاب إشارة إلى يعقوب عليه السلام، وكذا اسمه عليه السلام على أسماء آبائه الطاهرين، ومع رعاية مقتضى الحال وهو الاهتمام بالمطلب، فقد لوحظ التكرار المحمود والمطلوب؛

١ . سورة الشعراء، الآية ٢٣.




فإنّ تعبير ﴿إلَهَكَ﴾ قد كان كافيا، الا أن ذكر ﴿وَإِلَـهَ آبَائِكَ إبراهيم وَإسماعيل وَإسحاق﴾ إنّما هو من باب الاهمية التي يتمتّع بها المطلب، وهو نظير ما جاء من تكرار في آيات شريفة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾[3]، وغيرها من الآيات الشريفة. وهو أمر مشهود ومرافق للتوحيد الاصيل الخالص من شوب تثنية اليهود حيث قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ الله﴾[4]، ومن شوب تثليث النصارى حيث قالوا: ﴿إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾[5].

٣ ـ أطلقت كلمة «أب» في الآية الّتي هي محلّ الكلام على ما يشمل الجدّ والعم والاب؛ فإنّ حضرة إبراهيم جدّ يعقوب، وإسماعيل عمه، وإسحاق أبوه. وهذا الاطلاق يمكن أن يكون إطلاقا حقيقيا، كما أنّه يحتمل أن يكون من باب التغليب.

والنكتة في الاطلاق السابق هي لزوم احترام الجدّ والعم، كما في تعبير يوسف عليه السلام عنهم بالاباء كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ ملّة آبَائي إبراهيم وَإسحاق وَيَعْقُوبَ﴾[6]. وإن لم يذكر اسم إسماعيل عليه السلام.

٤ ـ السرّ في تقديم إسماعيل على إسحاق عليهما السلام في الآية الّتي هي مورد البحث هو التقدم السِنّي له على إسحاق.

---

١ . سورة الفرقان، الآية ٧٢.

٢ . سورة الاسراء، الآية ٧.

٣ . سورة الشعراء، الآيات ١٣٢ ـ ١٣٣.

٤ . سورة التوبة، الآية ٣٠.

٥ . سورة المائدة، الآية ٧٣.

٦ . سورة يوسف، الآية ٣٨.

**جواب شبهة:**

تعتبر محطة الاحتضار من أهم محطات الحياة، كما أنّ الاسلام وعبادة التوحيد من أبرز أعمال تلك الحياة.

وسلامة خط النبوّة من لوث الوثنية ورجس الصَنَميّة هي حسنى النعم الالهية، كما أنّ تعليم المجتمع الانساني وسوقه باتجاه انتخاب الاسلام في أكثر لحظات العمر حساسية، يعتبر من أحلى ما جاء به الانبياء.

لقد قامت سيرة الانبياء عليهم السلام على الاهتمام بالموت مسلما والتوصية بالاسلام، وما كان يطلبه الانبياء حين الدعاء (وهو طلب تدين نسلهم) كانوا يحرصون على الالتفات إليه وعدم الغفلة عنه حتّى في حال التوصية حال الاحتضار، ومجموع هذه المفاخر هو سند تنظيم هكذا توصية ووصية من هذا النوع.

ويجب الالتفات إلى أن ما جاء في كلام الانبياء والاولياء من التوصية بالاسلام، إنّما هي دعوة إلى الدين القائم على البرهان، والتشجيع على الاستفادة من البرهان والبحث والتحقيق وليست دعوة إلى التقليد المقيت؛ إذ إنّه سبحانه وتعالى قد أقام البرهان على الاسلام، كما أنّ حضرة إبراهيم ويعقوب عليهما السلام لم يدعوا بنيهما إلى الاسلام القائم على البرهان الا بعد إقامة ذلك البرهان لا قبله.

الشاهد على المدّعى السابق الذكر، هو دعوة أحد بني يعقوب، يعني: يوسف عليه السلام إلى الاسلام القائم على البرهان في سجن مصر قبل تلك الوصيّة وقبل رحلة الاب بسنين عديدة؛ فقد أقام البرهان على صحة ما دعا إليه من توحيد المعبود، ملفتا إلى أنّه ليس لأحد الحقّ في الشرك بعد لزوم عبادة الرب الواحد، كما نقل لنا ذلك القرآن الكريم، حيث يقول: **﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ**

دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أنتم وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾[1].

إنّ تصديق أيّ مدعٍ من أي شخص، إمّا أن يكون عن طريق البرهان، وإمّا أن يكون عن طريق الوحي، بينما الشرك والوثنية لا تتناسب لا مع البرهان العقلي ولا مع الوحي، الأمر الّذي دفع حضرة يوسف عليه السلام في الاحتجاج السابق إلى مخاطبة عبدة الاصنام قائلا: إنّكم لا سلطان ولا برهان لكم على ما تدّعونه من الوثنية. حيث يقال للبرهان «سلطان» من جهة أنّه محكم ومسلّط على الوهم والخيال وعلى الشكّ والشبهات.

والحاصل: أنّه لا يمكن القول بأنه كما أنّ حضرة إبراهيم ويعقوب عليهما السلام قد أوصيا بنيهما بسنتهما، وكما أنّ أولاد يعقوب قد أكّدوا على اتباع دين آبائهم واجدادهم والمحافظة عليه، فإنّ للآخرين أن يفعلوا ذلك أيضاً فيحفظوا دين آبائهم؛ فإنّ القرآن كريم إنّما أكّد على حفظ سنّة الانبياء والاولياء وتقديسها والتشجيع عليها، تلك السنّة المتّسقة تمام الاتّساق مع العقل والبرهان والوحي، لا كلّ سنّة مهما كانت، أو ميراث فكري حتّى لو كان خرافيا.

## إشارات ولطائف

### عدم انحصار طريق علم المعرفة وعلم الوجود

ودّ فريقان تأرجحاً بين الافراط والتفريط ـ أعني: فريق «المقلّدة» وفريق «التعليمية»[2] ـ أن يحمّلا الآية ما كان لهما من أهواء ممّا هو بعيد عن مراد الآية الشريفة.

---

١. سورة يوسف، الآيات ٣٨ ـ ٤٠.

٢. راجع: التفسير الكبير، ج٤، ص٧٥.







أمّا الفريق الاوّل (وهم «المقلّدة»)، فقد كان يعتبر جاهليّة الآباء القديمة ميراثا ثقافيا يجب المحافظة عليه وعلى معتقدات الاباء والاجداد مهما أمكن، كما أنّه كان يعتقد بانحصار الدليل على المعرفة بالنقل، فما لم يقم النقل عليه، فليس صحيحا ولا ثابتا.

وقد أراد هؤلاء أن يستفيدوا من الآية الّتي هي محلّ البحث لصالحهم، فقالوا: إن أبناء يعقوب اكتفوا بالتقليد، وهو عليه السلام لم ينكره عليهم، فدلّ على أنّ التقليد كاف بلا حاجة إلى إقامة برهان، الامر الّذي مضى بطلانه.

وأمّا الفريق الثاني، فهم أهل النقل الذين لا يعترفون بالبرهان العقلي، فقد كانوا يعتقدون بأنّ طريق معرفة الحقائق منحصر بالنقل عن المعصومين وبتعليمهم.

وقد استدلّ هؤلاء على ما ذهبوا إليه بهذه الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث أيضاً؛ فإنّ أولاد يعقوب لم يقولوا: «نعبد الإله الّذي دلّ عليه العقل»، بل قالوا: «نعبد الإله الّذي أنت تعبده وآباؤك يعبدونه»، وهذا يدلّ على أنّ طريق المعرفة هو التعلّم. والحال أنّ هذا المدّعى بنفسه مستند إلى العقل لا إلى شيء آخر.

يعتبر العقل طرقا ثلاثة للوصول: البرهان العقلي تحت شرائط خاصّة، والدليل النقلي المعتبر، وطريق الشهود.

ومن الطبيعي أنّ البرهان والعرفان ـ شأنهما شأن النقل ـ لهما من الشرائط الشيء الكثير بلحاظ الصدور، وجهة الصدور، وتمامية الدلالة، وفقد المعارض، وغيرها من اللحاظات.

نعم، كلّ من البرهان القطعي للحكماء وشهود العرفاء الخالي من أيّة شائبة، كلاهما خاضع يطأطئ رأسه في ساحة وحي الانبياء المقدسة، فكلاهما يعتبرانها أمرا ضروريا ومرجعا منحصرا تقع سلطنة إقليم معرفة الحقائق بيده لا بيد غيره.

والمغزى: أنّ الآية الّتي هي محلّ البحث ليست في مقام حصر طريق المعرفة ولا في مقام حصر طريق الوجود بطريق دون آخر؛ فقد كان حضرة إبراهيم ـ وهو رأس سلسلة الانبياء الابراهيميين عليهم السلام ـ يستفيد من الطرق العقلية في احتجاجاته، فاتحا بذلك الطريق في وجه الآخرين، مشجّعا لهم على استخدامه والاستفادة منه.

فما كانت الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث بصدده بعيدا عمّا ذهب إليه الفريقان السابقان، هو ما أشرنا إليه قبل ذلك، وهو بطلان التقليد من جهة، وصحّة التعليم في الجملة لا بالجملة من جهة أخرى، وأنّ النقل المعتبر إنّما هو طريق من طرق المعرفة لا أنّه طريق منحصر لها.

## البحث الروائي

### المصداق البارز للتوصية بالاسلام والامتثال التامّ لذلك

عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**سألته عن تفسير هذه الآية من قول الله: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً﴾، قال: «جرت في القائم 3**»[1].

**إشارة**: لربّما يكون مراد الحديث هو أنّ الانسان الكامل المعصوم ـ الّذي يعتبر حضرة ولي العصر 3 المصداق البارز له ـ بغرض إحياء التوحيد ونشر مآثر الاسلام الخالص، كان ـ ويكون دائما ـ ممّن يوصي بما ذكر في الآية الشريفة، فإنّه ممّن يمتثل تمام الامتثال تلك الوصيّة الالهية الصادرة من الانبياء السابقين عليهم السلام.

* * *

١ . تفسير العياشي، ج١، ص٦١.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

## التفسير المختار

عمل كلّ أمّة مختصّ بتلك الامّة ومتعلّق بها، ولا يقع على عاتق أيّة أمّة ما وقع على عاتق أمّة أخرى، فلا تؤاخذ أيّة أمّة بما كسبت أمّة أخرى من وزر وتقصير.

## تفسير المفردات

**أمة**: للأمّة معان متعددة ترجع جميعها إلى أصل واحد.

وقد تستعمل الأمّة في مقابل الإمام، كما قد تستعمل أحيانا في مجموع الإمام والرعية[1].

والمراد بالامّة في ما نحن فيه هو الامّة بمعنى المجتمع الّذي يتشكّل من إمام ورعيّة، وعلى هذا، فليس المقصود في المقام هو شخص إبراهيم وشخص إسماعيل وشخص إسحاق عليهم السلام منفردينَ ولوحدهم.

**خَلَتْ**: من مادّة «خلوّ»، وقد ذكر له معان متعددة، من قبيل: البراءة، الانتهاء، والخلوّ من الشي، والانفراد، والتعرّي، والمضيّ، والترك وغيرها من المعاني التي لا تعتبر معنى حقيقيا للكلمة.

---

١. راجع: **معجم مقاييس اللغة**، ج١، ص٢١ـ٢٢.




والخلوّ بمعنى الانتهاء من الوظيفة وإتمام العمل يختلف عن «الفراغ»، في أنّ هذا الاخير يتحقّق بعد الخلوّ[١].

وقد يذكر في مقام التفريق بين الخلوّ والفراغ أنّ الخلوّ إنّما هو في ما إذا لم يكن مع الشيء غيره، بينما قد يفرغ من الشيء وهو معه، فيقال مثلا: «فرغ من البناء» و هو معه، فإذا قيل: «خلا منه»، فليس معه[٢]، إلا أنّ الصحيح هو أنّ الفراغ من البناء بمعنى إقامة المبنيّ وعمله، فإنّه لا يجتمع أبدا مع البناء بهذا المعنى، وأمّا ما يمكن أن يجتمع معه، فإنما هو البناء بمعنى المبني، أي: المبنى لا العمل.

وقد تأتي الخلوّ بمعنى خلوّ الزمان من المتزمّن والمكان من المتمكّن، كما أنّها قد تأتي أحيانا بمعنى الانقضاء والمضيّ، وهو المراد في ما نحن فيه، إلا أنّه ليس بمعنى الزوال المحض والعدم الصرف؛ إذ إنّ الزائل المحض والمعدوم الصرف ليس لهما ثواب أو عقاب أبدا، كما ليس من منتفع أو متضرّر حينئذ.

فالمقصود إذن هو الزوال النسبي لا النفسي، فإنّ الموت أمر وجودي بعد كونه هجرة وانتقالا، وليس السفر زوالا محضا وعدما صرفا مهما كان ذلك السفر، وإن كان يرافقه الزوال من محلّ معين، وما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾[٣] من قبيل هذا الزوال النسبي لا النفسي.

ما: كلمة «ما» يمكن أن تكون موصولة، كما يمكن أن تكون مصدرية من قبيل ما قيل في ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ للانسان إِلَّا مَا سَعَى**﴾[٤] كما

---

١ . **التحقيق**، ج٣، ص١٢٣ ـ ١٢٤، «خ ل و».
٢ . **التبيان**، ج١، ص٤٧٧ . **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٤٠١ .
٣ . سورة البقرة، الآية ١٤ .
٤ . سورة النجم، الآية ٣٩.



يستظهر من قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾[1]، وإن كان لموصوليتها وجه.

وفي الحالات التي تكون فيها كلمة «ما» موصولة، يكون الضمير «ه» في كلمات من قبيل: ﴿كَسَبَتْ﴾ و﴿كَسَبْتُم﴾ محذوفا، فالمراد: (كَسَبَتْهُ) في الاوّل، و(كَسَبْتُمُوهُ) في الثاني[2].

## تناسب الآيات

بالإضافة إلى أنّ أهل الكتاب ـ خصوصا اليهود ـ كانوا يعتبرون الانتساب إلى إبراهيم فخرا لهم بحيث يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار في الدنيا، والشعب الافضل من أيّ شعب آخر، فقد كانوا يحسبون أنّ ذلك الانتساب إليه عليه السلام سيكون المنجي لهم يوم الحساب أيضاً، فما صدر من آبائهم وأجدادهم الطاهرين من أعمال طاهرة، وما كان لدى هؤلاء من كمالات ومكارم أخلاق، يحسبون أنّه سيشفع لهم يوم القيامة في ما صدر منهم من معاصٍ وما خالطهم من شوائب.

جاءت الآية الّتي هي محلّ الكلام ردّا على ذلك الوهم الّذي كان يعيش هؤلاء معه ولكي تؤدّي إلى هؤلاء رسالة، مفادها: أنّ كلّ شخص مسؤول عن عمله، وأن كلّ أمّة مسؤولة عما يصدر عنها، وأنّ حاصل أعمال الشخص الصالحة أو الطالحة متعلقة به دون غيره، وكذا الأمر في أعمال كلّ أمّة من الأمم.

والاحتمال الآخر في تناسب الآية الّتي هي محلّ الكلام مع ما قبلها من الآيات وارتباطها بها، هو أن تكون الآية الشريفة جوابا ثانيا على ادّعاء كلّ من

---

١ . سورة النجم، الآية ٤٠.

٢ . تفسير البحر المحيط، ج١، ص٥٧٦.





اليهود والنصارى أنّهم على ملّة حضرة إبراهيم وبنيه وخاصة يعقوب، فقد ذهب اليهود إلى أنّه يهودي منهم، فيما ذهب النصارى إلى أنّه نصراني على دينهم، كما ادّعى الفريقان توصيته عليه السلام بدينهم دون غيرهم، فجاء الرد من قبله تعالى على تلك المدّعيات متمثلا في أمرين:

الأمر الأوّل: عدم كون إبراهيم وبنيه إلا مسلمين موحّدين لا هودا ولا نصارى، وأمّا وصيّة هؤلاء الطاهرين، فما كانت إلا بالتوحيد والتسليم.

الأمر الثاني: ولو سلّمنا ما قلتم، فما هو النفع الّذي سيصلكم حينئذ؟ فإنّ كون الآباء أو الاجداد هودا أو نصارى، وما كان من هؤلاء من أعمال صالحة، كلّ ذلك لا يصلح سببا لنجاة الابناء أبدا، وكذا بالنسبة إلى الاعمال الطالحة من الآباء والاجداد، فإنّ مردّها لا يقع إلا على هؤلاء بلا أيّة علاقة لذلك بالابناء.

* * *

## خصوصيات الاعمال ومردوداتها

إنّ تقريرا عن أمّة من الأمم ينقل مجرد انقضائها يعدّ خبرا بديهيا لا نفع فيه، إلا أن يكون بلحاظ القيد الّذي يرافقه.

البحث عن قصص الانبياء عليهم السلام بملاحظة كونهم أسوة وقدوة له فوائده ومردوداته التعليمية، كما جاء في قوله تعالى في سورة هود خطابا للرسول الاكرم صلى الله عليه وآله: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[١]، وأمّا مجرّد التحقيق واثبات ما كانت عليه أمّة ما من الأمم السابقة من تديّن والتزام، فإنّه بحث عقيم لا فائدة منه؛ إذ هب أنّه قد ثبت تديّن تلك الامّة، فما الّذي سيؤثره ذلك في تديّن من جاء بعدها؟ وهب أن تديّن تلك الامّة لم يكن

---

١ . سورة هود، الآية ١٢٠.



بالمستوى المطلوب، فما الّذي سيؤثره ذلك على من كان بعدها؟ قال تعالى: ﴿لَها مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وكما هو الحال في المسائل الشخصية من عدم مسؤولية أيّ أحد عما يصدر من أحد آخر، أو ما لا يصدر منه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى﴾[1]، فكذلك هو الحال في المسائل الاجتماعية؛ إذ لا يتحمّل نوع أو صنف أو أمّة مسؤولية ما صدر أو لم يصدر من نوع أو صنف آخر أو أمّة أخرى، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وما تقرره الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث من القانون والاصل الكلي السابق الذكر، أعني: عدم مسؤولية أيّ أحد أو أمّة عما يصدر أو لا يصدر من أحد آخر أو أمّة أخرى: ﴿وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، هو ما تقرّره آيات شريفة أخرى، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أنتم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3]، وكذا قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[4].

وفي الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، لو كانت «لام» ﴿لها﴾ للاختصاص، فإنّ معنى صدر الآية سيكون الاصل الجامع والكلّي وهو اختصاص العمل بالعامل، سواء أكان ذلك العمل صالحا أم طالحا، وسيكون المعنى الوارد في ذيل تلك الآية ناظرا إلى بعض فروع ذلك الاصل الكلّي الجامع؛

---

١ . سورة الأنعام، الآية ١٦٤.

٢ . سورة يونس، الآية ٤١.

٣ . سورة السبأ، الآية ٢٥.

٤ . سورة الاسراء، الآية ٧.




إذ لا علاقة بين عمل أيّ شخص وشخص آخر، إذ الفرد الآخر لن يستفيد من عمل ذلك الشخص الصالح، كما أنّه لن يتحمّل أيّ ضرر جرّاء عمل ذلك الشخص الطالح، بلا أيّ اختيار له في ذلك.

وأمّا إذا كانت «لام» ﴿لها﴾ لإفادة النفع كما أنّ «عَلىٰ» لإفادة الضرر، فإنّ معنى صدر الآية سيكون مختصا حينئذ بخصوص العمل النافع الّذي لا ينفصل عن العامل، وأمّا الذيل في هذه الآية، فسيكون مختصّا بالعمل الضار الّذي لا ينفكّ بدوره عن العامل أيضاً، كما أنّ الضلع الآخر لهذا الجزء سيكون محذوفا يعلم من القرينة المقامية، يعني: «ولا يُسألون عمّا تعملون»، الّذي يعلم من فحوى الكلام، كما في قولهم: «كلّ شاةٍ برجلها تُناط»[١].

وممّا ينبغي ذكره في المقام، أنّ تقديم الجار والمجرور: ﴿لها﴾، ﴿لكم﴾ يمكن أن يكون بغرض الحصر.

وأمّا الفرق المحوري بين الآية الّتي هي مورد البحث وما شابهها وبين الآيات الاخرى التي تعتبر انقطاع الارتباط بين عمل العامل وغيره من الاشخاص، فهو أنّ للآية الّتي هي محلّ الكلام وما شابهها رسالة خاصّة تريد إيصالها بالاضافة إلى ما سبق من القانون والاصل الكلّي، وتلك الرسالة هي أنّ النافع أو الضارّ إنّما هو العمل، أعمّ من أن يكون ذلك العمل قلبيا أم بدنيا، أي: ما يشمل العقيدة والخلق وعمل الجوارح، وأمّا النَسَب وعلاقة القرابة، فلا علاقة لها بالشخص نفعا ولا ضررا، كما سيأتي في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

**تنويه:** ١ ـ الفحوى الاصلية للآية الّتي هي محلّ الكلام، هي عدم نفع أو ضرر لشخص في عمل شخص آخر، سواء أكان ذلك العمل صالحا أم طالحا،

---

١ . تفسير البحر المحيط، ج١، ص٥٧٧.




وإن كان ذلك الشخص الآخر على صلة قرابة مع الآخر، وليست ناظرة إلى عمل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام الطالح أبدا، فلا يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ما يخالف عصمة الانبياء، لكي يحتاج إلى التكلّف فيقال باحتياج الآية إلى التوجيه لمخالفتها عصمة الانبياء.

٢ ـ ذكر الآلوسي في تفسيره عن بعضهم: «حمل الاشارة على كلّ من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وأن المعنى: كلّ واحد منهم أمّة، أي: بمنزلتها في الشرف والبهاء، قد خلت، أي: مضت، ولستم مأمورين بمتابعتهم. لها ما كسبت: وهو ما أمرها الله تعالى به. ولكم ما كسبتم مما يأمركم به سبحانه وتعالى. ولا ينفعكم مكتسبهم؛ لأنّه ليس مقبولاً منكم؛ لأنّه ليس في حقّكم، إنّما ينفعكم ما يجب عليكم كسبه، ولا تسألون عما كانوا يعملون هل عملتم به؟ وإنّما تسألون عما كان يعمل نبيكم الّذي أمرتم بمتابعته، فإنّ أعماله ما هو كسبكم المسؤول عنه، فدعوا أن هذا ما أمر به إبراهيم أو غيره، وتمسكوا بما أمر به نبيكم...».

ثم قال: «ولا يخفى أنّه لو كانت هذه الآيات كلام هذا المفسر، لأمكن حملها على هذا التفسير الّذي لا فرع ولا أصل له، لكنّها كلام رب العالمين الّذي يجلّ عن الحمل على مثل ذلك»[1].

## كيفية ارتباط العمل بالعامل

العمل الّذي يختصّ بعامله يرتبط بذلك العامل، إما بنحو المباشرة أو بنحو التسبيب.

والعمل المباشر بأيّة صورة كان، أي: سواء أكان بصورة مستقلة أم بنحو الاشتراك، أم بنحو المظاهرة والمعونة وما شابه ذلك، فإنّه داخل في الآية الشريفة

---

١ . روح المعاني، ج١، ص٦١٦ ـ ٦١٧، مع التلخيص.





الّتي هي محلّ البحث، وإن كان على نحو مشكّك، أي: لا على نحو واحد في المصاديق المختلفة.

وأمّا بالنسبة إلى العمل التسبيبي حيث يكون شخص نائبا عن شخص آخر في عمل من الأعمال، فيصدر عن النائب بنيّة كونه عن المنوب عنه، فهو مشمول للآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام أيضاً، شأنه في ذلك شأن العمل المباشر، وما ذلك إلا لأنّ التسبيب في العمل يعتبر نوعا من العمل وإن كان للتسبيب والاستنابة مراتب مختلفة يكفي بعضها في إيقاع العمل عن المنوب عنه، حسب ما دلت عليه الأدلة في الشريعة الاسلامية؛ حيث لا يعتبر المباشرة في بعض الاعمال.

ممّا سبق، يعلم أنّ استدلال البعض بالآية الّتي هي محلّ الكلام، وبما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ للإنسان إِلَّا مَا سَعَى﴾[1]، لنفي صحّة النيابة في الاعمال البدنية أمر غير تام.

وقد ذهب بعض أهل المعرفة بعد التعرّض للاستدلال السابق، وفي معرض طرحه لمسألة إهداء الثواب، إلى أن ليس للانسان أن يطلب جزاءه إلا عمّا سعى فيه، وأمّا عمل غيره، فلا يتعدّى إلى غيره من حيث هو عمل، فإنّ العمل لا يتّصف به إلا عامله، وأمّا الجزاء الّذي عيّنه سبحانه وتعالى لذلك العمل، فالعامل فيه بالخيار، له أن يهبه لمن شاء، فالذي يوهب له ذلك الثواب ليس له جزاء؛ لأنّه وصل إليه من غير عمله، ولكن من باب الهدية والمنّة من صاحبه[2].

وفي مقام بيان الموقف من هذا الكلام، يجب الالتفات إلى أنّ إهداء الثواب مسألة لا تواجه أيّ محذور، كما أنّها لا تصطدم مع ما جاء في الآية الشريفة الّتي

---

١ . سورة النجم، الآية ٣٩.

٢ . راجع: تفسير رحمة من الرحمان، ج١، هامش ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.



هي محلّ الكلام؛ كما أنّها ليست مورد ردّ منكر النيابة؛ إذ إنّ محور كلام من يرفض النيابة إنّما هو خصوص عنوان الجزاء، وهذا إنّما يمكن فيما إذا كان هناك استحقاق وحقّ مطالبة لا في غير هذه الحالة.

بالإضافة إلى ما سبق، فإنّ إهداء الثواب (وهو العمل الصحيح)، لا يتضمن معنى الجزاء والاستحقاق، كما أنّه لا ينفي صحّة النيابة التي يرافقها معنى الجزاء واستحقاق المطالبة.

### إسناد العمل ونتيجته إلى الانسان

ظاهر الآية الّتي هي مورد البحث إسناد العمل إلى الانسان، وإسناد نتيجة ذلك العمل إليه عن طريق الكسب؛ إذ إنّ ضمير ﴿**يعملون**﴾ يرجع إلى الامّة، وكذا ضمير ﴿**كسبت**﴾، كما أنّ المقصود بضمير ﴿**كسبتم**﴾ هم الناس المخاطبون.

وأمّا في مجال تحليل كيفيّة فاعلية الانسان، فقد ذكرت آراء متعدّدة من قبل المتكلّمين والحكماء والعرفاء، وسنتطرّق إلى بعض تلك الآراء في ما سيأتي من الاشارات واللطائف إن شاء الله تعالى.

## إشارات ولطائف

### ١ ـ التأثير المتبادل للعمل والعامل

بناء على نظام العلّية والمعلولية، يعتبر عمل الفرد أو الجماعة أثرا لذلك الفرد أو لتلك الجماعة، كما أنّ كلّ أثر مرتبط بمؤثره، بمعنى أنّه ليس خاليا من ارتباط بشيء آخر، كما أنّ ارتباطه ليس بنحو غير منسجم وبنحو متناثر بحيث يرتبط بكلّ شيء أو بكلّ شخص، بل العمل الحقيقي هو ذلك الّذي يوجد في حيطة

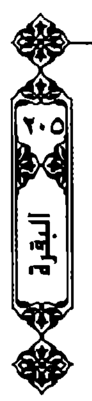
حياة الانسان، وأمّا ما يوجد خارج مجال وجوده، فمجرّد حواش وأمور جانبية لذلك العمل.

فمثلا: متعلّق عمل الشخص ـ سواء أكان ذلك العمل خيرا أم شرا ـ هو أمر خارج عن حيطة وجود ذلك الشخص، إلا أنّ أصل ذلك العمل عبارة عن الامانة أو الخيانة الكائنتين في إقليمه الوجودي، وليس لهما أي وجود خارج ذلك الاقليم أبدا.

فما هو خارج حيطة عمل العامل الوجودية هو متعلَّق العمل، وهو ما ليس له أيّ تأثير في روح العامل، فما قام به من بناء محكم، وما أوجده من جدار ضعيف، أمران خارجان عن روح العامل، وأمّا تلك الامانة أو هذه الخيانة، فإنهما تجدان مكانهما في داخل حياته، فترتقيان من طور الاثر إلى طور المؤثر، كما أنّ العامل ينحطّ من مرتبة المؤثّر إلى المتأثّر، فالعامل في ربقة عمله وتابع لتأثيره، ومن هنا يكون ذلك العمل سببا لسعادة العامل أو شقاوته، وأساسا لترقّيه أو انحطاطه.

وقد ضمّ القرآن الحكيم جميع هذه المسائل البرهانية بين دفّتيه باعتبارها «تعليما للحكمة»، فجعلها سراجا للسائرين على طريق التحقيق والتحقق، يعني: أصل النظم العلّي والمعلولي، وأصل حياة العمل، وأصل الارتباط الانحصاري للعمل بالعامل، وأصل التفكيك بين العمل الحقيقيّ وبين متعلَّق العمل، وأصل تحوّل العمل إلى مقام العاملية وانحطاط العامل إلى المعمولية، وغيرها من المسائل المختلفة.

ويجب البحث عن المعارف المذكورة في متن الاسلام وأصله، دين جميع الانبياء الواحد، لا في خصوص الشريعة والمنهاج.



ويمكن استفادة بعض الاصول المزبورة من الآيات الكريمة التالية:

١ ـ قوله تعالى في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى * وَأَنْ لَيْسَ للانسان إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الاوْفَى * وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى﴾[1].

٢ ـ قوله تعالى في سورة الطور: ﴿كلّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[2].

٣ ـ قوله تعالى في سورة المدّثر: ﴿كلّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[3].

٤ ـ قوله تعالى في سورةالبقرة: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾[4].

٥ ـ قوله تعالى في سورةالمطففين: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[5].

٦ ـ قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[6]، فإنّه لمّا كان الكلم الطيّب متّحدا مع روح العامل، فإنّ العمل الصالح يكون سببا في ارتفاع الكلم الطيّب، فيكون عاملا على ارتفاعِ روح صاحب العمل، وهذا هو عين تحوّل العمل إلى العامل، وتنزل العامل إلى المعمول، الّذي أشرنا إليه قبل قليل، كما يكون المتاع المرهون تحت اختيار المرتهن لا ينفك بدون اذنه وإجازته.

---

١ . سورة النجم، الآيات ٣٦ ـ ٤٠.

٢ . سورة الطور، الآية ٢١.

٣ . سورة المدثّر، الآية ٣٨.

٤ . سورة البقرة، الآية ٨١.

٥ . سورة المطفّفين، الآية ١٤.

٦ . سورة فاطر، الآية ١٠.

## ٢ ـ الآراء المختلفة في إسناد العمل ونتيجته إلى الانسان

تقدّم في البحث التفسيري أنّ ظاهر الآية الّتي هي مورد البحث هو إسناد العمل إلى الانسان، وإسناد نتيجة ذلك العمل إليه عن طريق الكسب.

وقد وقع موضوع كيفيّة فاعلية الانسان من قبيل الجبر، والتفويض، والاختيار والتوحيد الافعالي محلّا لنقاش المتكلمين والحكماء والعرفاء، فلم يقصّر أيّ واحد في ما عليه من دور في هذا المجال، مستفيدا مما يحسنه من فنون الكلام والحكمة والعرفان.

وقد تعرّضنا إلى قسم من هذا البحث الصعب، بل المستصعب، في بعض ما تقدّم من مباحث في سورة البقرة المباركة، ولربّما توقفنا في المستقبل لنزيل بعض الابهامات في هذا المجال إن شاء الله تعالى.

وما سنكتفي به في المقام، هو إلقاء إطلالة على ما ذكره أبو حيّان الاندلسي ـ حيث فاق في براعته في هذا المجال ما قدّمه الفخر الرازي، كما أنّه كان أكمل بمراتب متعدّدة مما تقدم به الزمخشري في المقام، وهو كما يلي:

ذكر أبو حيّان أن مذاهب أهل الاسلام في المقام أربعة:

المذهب الأوّل: قول الجبرية: وهو أنّ العبد مجبور على فعله، وأنّه لا اختيار له في ذلك، بل هو ملجأ إليه، وأنّ نسبة الفعل إليه كنسبة حركة الغصن إليه إذا حرّكه محرّك.

والمذهب الثاني: قول القدرية: وهو أنّ العبد ليس مجبورا على الفعل، بل له القدرة على إيجاد الفعل.

والمذهب الثالث: قول المعتزلة: وهو أنّ العبد له قدرة يخلقها الله له قبل الفعل، وهو متمكّن من إيقاعه وعدم إيقاعه.

والمذهب الرابع: مذهب أهل السنّة والجماعة: وهو أنّ الله يخلق للعبد تمكيناً




وقدرة مع الفعل يفعل بها الخير والشر، لا على سبيل الاضطرار والالجاء، وهذا التمكين هو مناط التكليف الّذي يترتّب عليه العقاب والثواب.

ثم ذكر أبو حيّان أنّهم بعد اتفاقهم على هذا الاصل، اختلفوا في تفسيره على ثلاثة تفاسير:

أحدها: قول أبي الحسن: وهو أنّ القدرة صفة متعلقة بالمقدور من غير تأثير في المقدور، بل القدرة والمقدور حصلا بخلق الله، لكنّ الشيء الّذي حصل بخلق الله ـ وهو متعلق القدرة الحادثة ـ هو الكسب.

والثاني: قول الباقلّاني: وهو أنّ ذات الفعل لم تحصل له صفة، كونه طاعة ومعصية، بل هذه الصفة حصلت له بالقدرة الحادثة.

والثالث: قول أبي إسحاق الاسفرائيني: وهو أنّ القدرتين: القديمة والحديثة، إذا تعلّقتا بمقدور وقع بهما، فكان فعل العبد يوقع بإعانة، فهذا هو الكسب[1].

وقد يصعب تصور بعض ما يذهب إليه الاشاعرة من مذاهب مختارة أو مدّعاة، مع أنّ التصديق ببطلانها قد يكون أمرا هينًا جدًّا في الوقت نفسه، الامر الّذي يقال في خصوص الحال البَهْشَمي والكسب الاشعري.

## البحث الروائي

### عدم تأثير النَسَب يوم القيامة

قال رسول الله ﷺ: **«يا بني هاشم، لا يأتيني الناس بأعمالهم ولا تأتوني بأنسابكم»**[2].

---

١ . تفسير البحر المحيط، ج١، ص٥٧٦.

٢ . الكشاف، ج١، ص١٩٤.

ـ عن النبي ﷺ: «**يا فاطمة، لا أُغني عنكِ من الله شيئاً**»[1].

**إشارة:** ليس المقصود أن النسب مؤثر يوم القيامة إلا أنّ ذلك التأثير ليس على حدّ تأثير العمل الصالح، بل المقصود ـ بقرينة ما جاء في كلامه ﷺ لفاطمة عليها السلام ـ هو أن صِرف النَسَب لا تأثير له أبدا يوم القيامة، وأنّ ذلك اليوم ليس كأيّام الدنيا حيث للانساب بعض الامتيازات والايجابيّات.

* * *

١ . تفسير البحر المحيط، ج١، ص٥٧٦.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

## التفسير المختار

ذهب اليهود والنصارى إلى أنّ الدين المحرّف الّذي هم عليه هو الدين الحقّ، وأنّه الطريق الوحيد للهداية والنجاة، وأمّا غيره من الاديان، فهي أديان باطلة لا صحّة لها أبدا، كما أنّ أهل تلك الاديان من الكافرين.

وانطلاقا من هذه العصبية الجاهلية، فقد كان كلّ من اليهود والنصارى يدعون المسلمين إلى دينهم، ومن هنا، نسمعه سبحانه وتعالى يأمر رسوله الاكرم ﷺ بأن يقول لهم: نحن لا نحكم ببطلان اليهودية أو النصرانية مطلقا، وإنّما نعتقد ببطلان تلك الطائفة التي لا تعمل بالكتاب السماوي الاصيل وغير المحرّف من التوراة والانجيل من أهل الكتاب، وأمّا الدينان المحرفان، فنحن لا نؤمن بأيّ واحدٍ منهما، وإنّما نؤمن بدين حضرة إبراهيم عليه السلام وملّته المنزّهة عن الشرك والميل إلى الباطل، فنكون له من التابعين، وهو ما ندعوكم إليه أنتم أيضاً.

ما تقدّم، يعني أنّ اليهودية والنصرانية المحرّفتين لم تكونا ملّة إبراهيم عليه السلام، كما أنّه يعتبر تأكيدا على نزاهة حضرة إبراهيم عليه السلام من الشرك، لإبطال اليهودية والمسيحية المحرّفتين اللتين تبعثان على الشرك والكفر.





## تفسير المفردات

ملّة: ذكرت وجوه متعددة لنصب هذه الكلمة في المقام نقل أكثرها أبو حيّان في تفسيره (البحر المحيط)[1]، كم أنّ هناك من قال بالرفع.

والذي يبدو، هو أنّ الراجح أنّ الكلمة منصوبة بالاتّباع؛ من جهة نصبها بذلك في جملة من الآيات الاخرى، كقوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾[4]، وقوله عزّ من قائل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[5].

والمهمّ في المقام هو هذا السؤال: إنّ الفعل الناصب هل هو «نَتَّبع»، أو إنّه «اتّبعوا»؟ إذ على الأوّل، إذا كان المقصود اتّباع خصوص المسلمين، فالنتيجة ستكون حينئذ أن عدم قبول اليهودية والمسيحية سيرافقه قبول ملّة إبراهيم عليه السلام لا غير، وأمّا بناء على الوجه الثاني، وهو أنّ الجميع مأمور، فإنّ النتيجة هي دعوة الآخرين أيضاً إلى ملّته عليه السلام.

والسرّ في رجحان الاحتمال الثاني، هو أنّ الآية الّتي هي محلّ البحث يمكن أن تكون كالآية الكريمة: ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ الله﴾[6]

---

١. ج١، ص٥٧٧ ـ ٥٧٨.

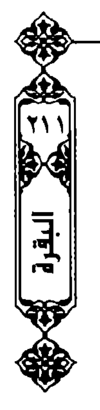
٢. سورة آل عمران، الآية ٩٥.

٣. سورة النساء، الآية ١٢٥.

٤. سورة يوسف، الآية ٣٨.

٥. سورة النحل، الآية ١٢٣.

٦. سورة آل عمران، الآية ٦٤.





دينا متّسقا ومشتركا بين جميع أصحاب الكتب السماوية، فمعنى الآية إذن: أولئك الذين يدعون إلى خصوص اليهودية أو المسيحية، ولكنّنا على أساس الاصول المشتركة بين جميع الانبياء الالهيين ندعو الجميع إلى ملّة إبراهيم عليه السلام.

**تنويه:** سيأتي بالتفصيل أنّ الآية ١٣٦ يمكن أن تكون تبيينا للآية الّتي هي محلّ البحث، أي: أن ملّة إبراهيم في الحقيقة هي ملّة جميع الانبياء عليهم السلام.

**حنيفاً:** «الحنيف» هو الماشي وسط الطريق، ومن هنا، فهو يمشي ـ باستقامة وبدون ميلان إلى أيّ ناحيةٍ من الناحيتين، ولهذا يصل إلى هدفه دائما، على خلاف «الجنيف»، الّذي ينحرف نحو حاشية الطريق، الانحراف الّذي يبدأ حين بداية الانحراف قليلا إلا إنّه لا يفتأ يكبر ويكبر حتّى يؤدّي في الاخير إلى الهاوية.

وقد عبّر عن الظلم في الوصيّة ـ وهو الّذي يعكس نوعا من الانحراف ـ بالجنف، كما عبّر عمّن يميل إلى الاثم والعصيان بالمتجانف، قال تعالى: **﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾**[1]، وقال عزّ من قائل: **﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[2].

ويمكن استفادة اختصاص الحَنَف بالعدول عن الباطل من قوله تعالى: **﴿اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الاوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾**[3]. إذ إنّ اجتناب الباطل حَنَف، إلا أن يكون قد استعمل في المعنى الجامع، أي: في أصل العدول، لا في المصداق الخاص.

وأمّا كلمة «حنيفاً»، فهي حال لـ «إِبْراهيم» أو لـ «ملّة» باعتبار معنى الدين.

والمؤيّد للاحتمال الاوّل هو قوله تعالى: **﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا**

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٨٢.

٢ . سورة المائدة، الآية ٣.

٣ . سورة الحجّ، الآيات ٣٠ـ ٣١.

وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١]، وأمّا المؤيّد للاحتمال الثاني، فهو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢]، وأمّا كونه مذكّرا، فإنما هو بلحاظِ كون الدين ملّة.

وقد رجّح الطبري الاحتمال الاوّل[٣] فيما رجّح أبو حيّان الاحتمال الثاني[٤].

وقد ذكر الطبري وغيره من المفسّرين أنّه قيل: إنّ الرجل الّذي تقبل إحدى قدميه على الاخرى، إنّما قيل له: «أحنف»، نظرا له إلى السلامة، كما قيل للمهلكة من البلاد: «المفازة»، بمعنى الفوز بالنجاة منها والسلامة، وكما قيل للّديغ: «السليم»، تفاؤلا له بالسلامة من الهلاك، وما أشبه ذلك[٥]، كما قيل لعزرائيل عليه السلام: أبو يحيى.

## تناسب الآيات

هذه الآية الشريفة ناظرة إلى روح الأنانيّة والعصبية القبيحة التي يحملها أهل الكتاب؛ حيث إنّهم على الرغم من جميع الانحرافات والشرك والضلال التي هم عليها في دينهم المحرّف، فإنّهم يعتبرون اليهودية والنصرانية طريقي الهداية ومعياري الصلاح الاوحد.

جوابا لهؤلاء، تعرّض الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام ملّة إبراهيم عليه السلام ودينه ـ وهو التوحيد والتسليم في مقابل الحقّ لا غير ـ ميزانا للنجاة والهداية.

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٦٧.
٢ . سورة الأنعام، الآية ١٦١.
٣ . جامع البيان، ج١، ص٦١٦.
٤ . تفسير البحر المحيط، ج١، ص٥٧٨.
٥ . جامع البيان، ج١، ص٦١٦.



ولمّا لم تبيّن سيرة حضرة إبراهيم عليه السلام وملّته قبل هذه الآية الشريفة، فمن الممكن أن يكون ذلك باعثا على بروز توهّم أن جملة: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ هي مجرّد جواب اجمالي قد أحيل تفصيله إلى المستقبل، وهذا توهّم باطل؛ إذ إنّ ظاهر المناظرة التي تعرّضت لها الآية الشريفة، هو أنّ الجملة المذكورة إنّما جيء بها لتعطي نتيجة ختامية لما تمّ طرحه من مباحث في الآيات السابقة عليها.

❀ ❀ ❀

## التكفير المتبادل بين اليهود والمسيحيين

إعتبر القرآن الكريم دين حضرة إبراهيم عليه السلام المعيار للعقل والرشد، وأنّ الاعراض عنه علامة السفاهة.

ومع انحراف اليهود والنصارى عن ملّة إبراهيم عليه السلام التوحيدية، فقد شابوا تلك الملّة بالكثير من الانحرافات والشرك والبدع النابعة من هوى النفس ووساوسها، ومع هذا كله، فقد كانوا يدّعون سفها أنّ ما هم عليه من دين محرف هو الدين الحقّ وأن غيره الباطل، فقد ذهب كلّ منهما إلى أنّ ما هو عليه من دين هو طريق النجاة الاوحد، وهو ما أشارت إليه الآية الشريفة: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ﴾.

وليس المقصود بقوله تعالى السابق أنّ اليهود والنصارى قد اتفقوا على تخيير الناس بين دينيهما، فما اختاره كلّ انسان من يهودية أو نصرانية فهو الهدى والحقّ، لكي يكون المدّعى هو الجميع في مقابل الجميع بدون تكذيب لكلّ فرقة من قبل الأخرى، بل المقصود أنّ كلّ فرقة من الفرقتين كانت تكذّب الاخرى، فكان اليهود يقولون: «كونوا هودا تهتدوا»، وإلا، كنتم من الضالّين ولو كنتم من النصارى، كما أنّ النصارى كانوا يقولون في المقابل: «كونوا نصارى تهتدوا»، وإلا، كنتم ضالّين ولو اخترتم اليهودية.

بناء على ما سبق، فالذي يدّعيه اليهود، هو أنّ من لم يكن يهوديا فلن يكتب له النجاة والفوز بالجنة، سواء أكان مسيحيا أم مسلما، وكذا الّذي يدّعيه النصارى، أي: من لم يكن نصرانيا فهو في النار، سواء أكان يهوديا أم مسلما: **﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[1]، فكلّ واحدة من الطائفتين تكون قد وقفت الجنّة على أتباعها دون غيرهم.

تفصيل ما سبق من اجمال، والشاهد على تكفير وتفسيق كلّ واحدة من الطائفتين للأخرى، هو آية أخرى ذكر فيها ذلك، وهي قوله تعالى: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾**[2].

وما حكمت به كلّ طائفة على الاخرى انطلاقا من العصبية الجاهلية والسفاهة، فقد حكمت به كلّ طائفةٍ منهما على الاسلام، فكما كفّرت كلّ طائفةٍ منهما الاخرى، فقد كفّرت كلّ طائفةٍ منهما من كان مسلما، كما قال تعالى: **﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾**[3].

وقد كانت الفكرة العصبية الجاهلية السابقة في أذهان أهل الكتاب راسخة إلى درجة أنّهم لا يقبلون أيّ برهان على خلاف ما يذهبون إليه، كما بيّنت تلك الفكرة الآية الشريفة: **﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾**[4].

---

١. سورة البقرة، الآية ١١١.
٢. سورة البقرة، الآية ١١٣.
٣. سورة البقرة، الآية ١٢٠.
٤. سورة البقرة، الآية ١٤٥.

إنّ الاعتقاد الباطل السابق وما شابهه من قبل أهل الكتاب أمر لا يقوم على أيّ برهان، وإنما هو محض موقف قائم على الأنانية والعصبية الجاهلية والسفاهة؛ يشهد بذلك أنّهم لم يقتصروا على اعتبار أنفسهم في مرتبة يكونون فيها أعلى من المسلمين، بل إنّهم ـ على الرغم من ارتباطهم بالكتاب الالهي ـ قد قبلوا بالجبت والطاغوت، واعتبروا المشركين أهدى من المسلمين، كما جاء ذلك في قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا﴾**[1].

ومقصود أهل الكتاب من الهداية بالنسبة إلى المشركين ليس الهداية المؤدّية إلى الجنة وما شابهها؛ لوضوح عدم اعتقاد المشركين بالمعاد والقيامة لتصل النوبة إلى الكلام عن الجنّة والنار، بل المقصود هو المدنية والتمدّن البشري والتقدّم الدنيوي المادّي.

## المعيار القرآني لبطلان ما عليه أهل الكتاب أو حقانيته

ولو راجعنا ما صدر عن الاسلام في ما نحن فيه من كلام على أساس العقل والعلم والانصاف، لوجدناه مختلفا تمام الاختلاف عما تقدم من اليهود والنصارى؛ فقد تقدم تكفير اليهود للنصارى والمسلمين، وتكفير النصارى لليهود والمسلمين، حتّى لو عمل كلّ واحدٍ منهم بكتابه.

وأمّا الاسلام، فإنّه لم يكفر أيّ طائفة من الطائفتين بصورة مطلقة، فلم يصدر منه أن «ليست النصارى على شيء»، كما أنّه لم يصدر منه أن «ليست اليهود على شيء»، بل ما كان قد صدر عن الاسلام في هذا المجال، هو أن اليهودي غير العامل بالتوراة غير المحرفة على باطل، وأمّا لو عمل بها، فإنّه على حق بعد كون التوراة غير المحرفة حقا.

---

١ . سورة النساء، الآية ٥١.

وكذا الامر بالنسبة إلى النصراني؛ إذ لو عمل بالانجيل الصحيح غير المحرف لكان على حق، والا، كان على الباطل؛ فإنّ الانجيل غير المحرف حق.

وما ذكرناه قبل قليل من عقيدة قائمة على العلم والمنطق والعقل تعرّض له قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالانجيل وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾[1]، وهذا ما أدى إلى مدح القرآن الكريم لطائفة من أهل الكتاب، وعدم التسوية بين الجميع في قوله تعالى: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أهل الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ**﴾[2].

وأمّا السرّ في اعتبار القرآن الكريم اليهودي أو النصراني العامل بالتوراة أو الانجيل غير المحرفين عاملا بالحق، فهو أن شخصا ما لو عمل بأي كتابٍ من الكتابين الالهين غير المحرفين، لأدى به ذلك إلى قبول الاسلام والايمان به بصورة قهرية؛ فإنّ أوصاف النبي الاكرم ﷺ وخصائصه بالاضافة إلى أوصاف المؤمنين، كلها قد ذكرت في كلّ واحد من العهدين الشريفين، كما تحدث عن ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الامِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالانجيل**﴾[3]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ الله وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الانجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ...**﴾[4]، كما أنّ علماء اليهود والنصارى كانوا يعرفونه ﷺ بجميع خصوصياتِه ومميزاته كما جاء في قوله عزّ من قائل:

---

١ . سورة المائدة، الآية ٦٨.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١١٣.

٣ . سورة الاعراف، الآية ١٥٧.

٤ . سورة الفتح، الآية ٢٩.




﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١].

هذا النوع من الآيات التي تأتي انطلاقا من إلزام أهل الكتاب بالحقّ، مطالبة هؤلاء بالكشف عن التوراة والانجيل الحقيقيين، وإخراجهما من الصوامع والبيع وقراءتهما على مرأى ومسمع من الناس جميعا لو كانوا على حق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢]، تعكس حقيقة مهمة جدا، وهي أن أكثر التحريفات التي حصلت للتوراة والانجيل، إنّما حدثت بعد ظهور الاسلام لا قبله، مع أن أصل التحريف والشرك كان قد سرى إلى الكتابين ابتداء من انحراف علماء كلّ طائفةٍ من الطائفتين عن خط أنبيائهما الالهيين.

من الجدير بالذكر أنّ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالانجيل وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٣] قد فسّر بتفسير آخر، مفاده أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ خطابا لليهود والنصارى، هو عدم أيّ أساس فكري صحيح وقاعدة محكمة قائمة على التوحيد لتتمكنوا بعد ذلك من إقامة التوراة والانجيل وتحفظوا دينكم؛ كناية عن عدم اعتمادهم على شيء تثبت عليه أقدامهم، فيقدرون بذلك على إقامة التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم، فيعود المعنى إلى أنكم فاقدون للعماد الّذي يجب عليكم أن تعتمدوا عليه في إقامة دين الله الّذي أنزل إليكم في كتبه، وهو التقوى والانابة إلى الله بالرجوع إليه مرّة بعد أخرى، والاتّصال به والايواء إلى ركنه، بل أنتم

---

١. سورة البقرة، الآية ١٤٦.
٢. سورة آل عمران، الآية ٩٣.
٣. سورة المائدة، الآية ٦٨.

مستكبرون عن طاعته، ومتعدّون لحدوده؛ إذ لا يتّسق ذلك مع ما عليه اليهود من عقيدة الثنوية في قولهم الّذي نقله القرآن الكريم عنهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾[1]، كما أنّه لا يتّسق مع ما ادّعاه النصارى من التثليث في قولهم الّذي نقله القرآن الكريم عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾[2].

ولو كان المراد من الآية الشريفة هو ما سبق عن العلّامة الطباطبائي ﷺ[3]، فإنّه يجب التأمل في الاستفادة السابقة الّتي يلازمها الموعظة من جهة، وبلحن يفيد المؤاخذة من جهة أخرى.

وسيأتي التحقيق في هذه المسألة حين البحث في تلك الآية الشريفة إن شاء الله تعالى.

## الدين الحنيف دين الفطرة

لقد كان لكلّ واحدٍ من التحجّر الجاهلي بلحاظ الفكر، والتجمّد السَفَهي بلحاظ المحفزية، دورهما في الدفع بالمصابين بهما نحو توليد الاعتقاد الخاطئ بحقّانية ما عليه هم من دين مدّعى في ما بينهم، فيدعون الآخرين إلى ذلك الدين، تلك الدعوة التي تكون على صورة الشرط والجزاء، لتوقع بمنطوقها في نفوس الآخرين التأثير الايجابي المطلوب، ولتخلق بمفهومها التأثير السلبي لما خالفها من آراء وأفكار، يتمّ من خلال المجموع من ذلك المنطوق المنحوس وهذا المفهوم المشؤوم الانحصار المطلوب، لتأتي بعد ذلك مرحلة إلقاء ذلك الشرط وذلك الجزاء من منطلق الامر والاحتكار على هيأة أمر للغير بالكون

١ . سورة التوبة، الآية ٣٠.
٢ . سورة المائدة، الآية ٧٣.
٣ . الميزان، ج٦، ص٦٤ ـ ٦٦.



هودا أو نصارى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ﴾.

والجزم في قوله تعالى على لسانهم: ﴿تَهْتَدُواْ﴾، إنّما هو لأجل أنّ كلمة ﴿كُونُواْ﴾ مفيدة للشرط المنحصر، يعني: الشرط الوحيد للهداية ـ على ما كان يدّعيه هؤلاء ـ هو أن يكون الشخص يهوديا أو نصرانيا، فأنتم (أيها المخاطبون أعمّ من أن تكونوا مسيحيين أو مسلمين أو...) إذن كونوا هودا أو... .

ولا طريق إلى مقابلة الفكرة الخاطئة السابقة إلا إزالة الغبار الّذي أخذ بعقل المقابل وفكره، وهذا ما يفسّر ما جاء عنه سبحانه وتعالى في مجال مواجهة الافكار السابقة، من إعلان السّلم، ووقف إطلاق النار، والبدء بنقاش موضوعي صحيح بين الطرفين، وهذا ما لا يشبه ما كانت تقتضيه مرحلة متقدّمة وضرورة مرحلية من قبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]، وإن كانت الآية أيضاً تفيد بطلان الوثنية وعبادة الاصنام ضمنا، بل إنّها من سنخ خطّ البطلان على شرطية التهوّد أو التنصّر، والتصريح بعدم ارتباطهما بالهداية، وبتبديل ذلك الامر المنحوس بأمر من عالم الوحي المبارك، وبدعوة عامّة إلى ملّة الانسان الكامل المعصوم والموحّد، حيث تتمتّع محوريّة هدايته بالقبول من قبل الجميع.

الميزة التي تتمتع بها هذه الدعوة العامّة تنطلق من خصوصية لملّة إبراهيم الحنيف عليه السلام، وهي أنّها ملّة تتمتّع بالمعقولية والمقبولية جنبا إلى جنب.

أما المعقولية، فإنها إنّما تنشأ من كونها ملّة قائمة على المنطق والبرهان، وأمّا المقبولية، فإنها خصوصية تنشأ من انطلاقها من الجدال بالتي هي أحسن؛ فإنّ إبراهيم الحنيف عليه السلام هو الامام في الهداية.

---

١ . سورة الكافرون، الآية ٦.

الحنيفية فطرة البشر، وبعبارة أخرى: بالنسبة إلى الحقّ والباطل، ليس في داخل الانسان أيّ ميل، لا إلى عدم الرغبة ولا إلى الباطل، وإنّما هناك الميل نحو الحقّ.

وقد كان الدين الحنيف الّذي كان عليه حضرة إبراهيم عليه السلام، هو ذلك الدين الفطري الّذي خلق الله سبحانه وتعالى البشر عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الاكرم صلى الله عليه وآله أن يجيب على دعوة اليهود والنصارى المتقدمة، بأنّ المسلمين لن يختاروا اليهودية ولا النصرانية، ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ إذ إنّ حضرة إبراهيم عليه السلام كان موحّدا وحنيفا، وكانت ملّته منزّهة عن كلّ شرك، فلم يكن لها ميل نحو اليمين الباطل ولا نحو يسار الضلال: «اليمين والشمال مضلّة، والطريق الوُسطى هي الجادّة»[2]، وأمّا أنتم، فمشركون وجنيفون، كما أنّ ما أنتم عليه من دين محرّف مصدر للشرك والضلالة.

هذا، وقد ذهب الفخر الرازي إلى أنّ جملة: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ إنّما هي جواب إقناعي إلزامي لأهل الكتاب، وأمّا الجواب البرهاني لدعاواهم، فإنّه ما سيأتي بعد ذلك[3].

ويجب الالتفات إلى أنّ الجواب السابق ليس مجرّد جواب إلزامي كما ادّعاه الرازي؛ إذ قد سبق تلك الآية بيانه سبحانه وتعالى لحقّانية ملّة إبراهيم على

---

١ . سورة الروم، الآية ٣٠.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ١٦.

٣ . التفسير الكبير، ج٤، ص٨٠ ـ ٨٢.

أساس من البرهان والمنطق، معتبرا تلك الملّة فاقدة لذلك المعيار من العقل والرشد، وأنّ الاعراض عنها علامة السفاهة وقلّة العقل، ليتعرّض سبحانه وتعالى بعد ذلك كلّه إلى مسألة أنّ المسلمين على دين إبراهيم وملّته، وأنّ اليهود والنصارى قد انحرفوا عن ذلك الدين وانفصلوا عن تلك الملّة، ومن هنا، نجد القرآن الكريم يخاطب أهل الكتاب قائلا: إن أساس الدين هو الوحي والعقل والبرهان لا الأماني والاهواء، فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1].

## سرّ التأكيد على نزاهة إبراهيم عليه السلام من الشرك

أكّد القرآن الكريم على بعض الصفات الثبوتية لحضرة إبراهيم عليه السلام، من قبيل حنيفيته في قوله تعالى: ﴿**كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا**﴾[2]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لله حَنِيفًا**﴾[3]، كما أنّه أكّد على بعض صفاته عليه السلام السلبية، من قبيل نزاهته عن الشرك في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[5].

الحقيقة السابقة المذكورة في الآية الّتي هي محلّ الكلام، هي إشارة إلى أنّ اليهودية والمسيحية ليستا على دين إبراهيم عليه السلام ولا ملّته؛ فإنّه لم يكن مشركا، على عكس ما كانوا عليه هم؛ فإنّهم باعتقادهم التثنية والتثليث من الكافرين،

---

١ . سورة البقرة، الآية ١١١.
٢ . سورة آل عمران، الآية ٦٧.
٣ . سورة النحل، الآية ١٢٠.
٤ . سورة آل عمران، الآية ٦٧.
٥ . سورة النحل، الآية ١٢٠.




قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾[2].

إنّ الاصرار المثير للاستفهام من قبل القرآن الكريم على نزاهة إبراهيم خليل الرحمان عن الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، إن هو إلا من أجل إبطال اليهودية والمسيحية الباعثتين على الشرك، وصونه عليه السلام من هاتين النحلتين المثيرتين لغبار الشرك، وإلا، فإنّ أحدا لم يتوهم الشرك فيه عليه السلام، إذ إنّ ذكر أوصافه عليه السلام الاخرى كانت بصورة مناسبة لمواردها بحيث تبعث في النفس القبول، إلا أنّها لم تتضمّن الخاصية المزبورة.

اليهودية أو المسيحية المدّعاة كانت باعثةً على شوب دين حضرة إبراهيم التوحيدي بالشرك، وكما أنّ البعض قطّع القرآن أوصالا يؤمن ببعضها ويكفر بالبعض الآخر كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[3]، والذي هو بمنزلة ترك القرآن كله، فإنّ أهل الكتاب فعلوا ذلك بالنسبة إلى دين إبراهيم التوحيدي؛ فقطّعوه أوصالا متفرّقة أخذ كلّ فرقة من الفرق ببعضها معتبرة ذلك البعض الحقّ وما عداه الباطل، فابتعدوا عن الدين الحقّ وزاغوا عنه، قال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ * مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[4].

من هنا، إعتبر القرآن الكريم أولئك كالطوائف الاخرى من المشركين والكافرين، قال عزّ من قائل: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾[5]، وقال

١ . سورة المائدة، الآية ٧٣.
٢ . سورة التوبة، الآية ٣٠.
٣ . سورة الحجر، الآية ٩١.
٤ . سورة الروم، الآيات ٣١ ـ ٣٢.
٥ . سورة المائدة، الآية ٧٣.

أيضاً: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾[1].

ما سبق، يكشف عن أنّ السرّ في قوله تعالى بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، هو بيان عدم كون أهل الكتاب على دين إبراهيم وملّته؛ لانحرافهم عن التوحيد الّذي كان عليه عليه السلام من جهة، وبيان أنّه على الرغم من أنّ إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا أو نصرانيا لبطلان هاتين النحلتين، إلا أنّه لا مجال لتوهّم أنّ ذلك يكون باعثا على كونه من المشركين بعد عدم كونه على واحدة من النحلتين، وبعد أن لم يكن في ذلك العصر إلا هذه النّحل الثلاث من جهة أخرى.

الدليل على بطلان التوهّم السابق، هو أنّ الحنيف ليس معناه المشرك، وإنّما هو في مقابله، كما هو المستفاد من قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

لم يرد في القرآن الكريم اصطلاحات منطقية، إلا أنّ نوع المطالب التي طرحت كانت على صورة القياسات الاقترانية أو الاستثنائية، وفي ما نحن فيه، طرح المطلب المزبور بالصورة الثانية، بالبيان التالي:

لم يكن حضرة إبراهيم عليه السلام مشركا.

أنتم (اليهود والنصارى) مشركون.

إذن: لم يكن هو عليه السلام على دينكم، كما أنّكم أيضاً لستم على دينه.

وببيانه سبحانه وتعالى نزاهة إبراهيم عليه السلام من الشرك، أخبر سبحانه وتعالى نبيه الاكرم صلى الله عليه وآله بأن يقبل بدينه عليه السلام التوحيدي والمصون عن الشرك،

---

١ . سورة التوبة، الآية ٣٠.

٢ . سورة الحجّ، الآية ٣١.

٣ . سورة يونس، الآية ١٠٥.




فيؤكّد بذلك بعده عن الشرك وبراءته منه، فقال عزّ من قائل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، كما أنّه يدعو الآخرين أيضاً إلى هذه الملّة التوحيدية.

## إشارات ولطائف

### ١ ـ القرآن الكريم محيي الاديان السماوية

ذكر كاشف الغطاءِ رحمه الله أنّ بقاء اليهودية والنصرانية إنّما هو ببركة القرآن الكريم[2]؛ من جهة أنّ التوراة والانجيل المحرّفين لا طاقة لهما على البقاء في ظلّ تطور العلومِ التجريدية العقلية والحسية التجريبية، ولا يذعن أحد إلى ما جاءت به اليهودية والمسيحية المحرّفتان؛ إذ قد نسب في هاتين النحلتين إلى الانبياء والاولياء الالهيين من الامور ما لا يقبله العقل البرهاني أبدا.

ولو لم يكن القرآن الكريم موجودا، ولو كان الامر منحصرا بالتوراة والانجيل المحرّفين، لم يصف أحد من الناس الانبياء والاولياء بالعصمة، ولما ذكر أحد حضرة مريم وعيسى وموسى عليهم السلام والآخرين ممّن اختارهم الله تعالى بالطهارة، ولكانوا شيئا فشيئا من القادة العاديين الذين ولدوا وماتوا وانقضى أمرهم.

لقد أحيى القرآن الكريم التوراة والانجيل، وعرّف بالاديان الإلهية الاصيلة غير المحرّفة للناس، وأثنى على الانبياء بالعصمة، ووصف حضرة مريم بالطهارة والاصطفاء من قبله سبحانه وتعالى، ولهذا كله، يصحّ أن نقول بأنّه لولا القرآن الكريم، لما كان ذكر للدين الالهي على وجه الارض.

---

١ و٢ . سورة النحل، الآية ١٢٣.

## ٢ ـ سرّ بطلان اليهودية و المسيحية المحرّفتين

لم يكتف اليهود والنصارى ببدعهم الباعثة على الشرك، بل اعتبروا ما هم عليه حقّا وما عليه الآخرون باطلا، ولهذا، ذهبوا إلى أنّ الجنة حصرت عليهم لا يدخلها غيرهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾[1].

وفي معرض تذكير القرآن الكريم بخطر البدعة في الدين وكشف النقاب عن تلك البدع، ذكر أنّ دين جميع الانبياء عليهم السلام هو الاسلام لا غير، فلم يأت أولئك عليهم السلام إلا بحقيقة واحدة وإن تفاوتوا في مقدار ما أتوا به من تلك الحقيقة؛ حيث جاء البعض بالحقيقة كاملة دقيقة وجاء البعض بالحقيقة بصورتها الدُقّى والكُمْلى، فلم يكن أيّ دين من تلك الاديان ناقصا، بل كلّها كاملة منزّهة عن أيّ نقص، وإن كان الاسلام ـ طبعا ـ هو الدين الاكمل من تلك الاديان والمهيمن عليها جميعا.

وأمّا الآخرون، فقد قطّعوا تلك الحقيقة أوصالا فقرّروا حقّانية ما كان عندهم من تلك الاوصال وأبطلوا جميع ما سواها كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كلّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2].

وفي الحقيقة، فإنّ اليهود والنصارى، ومن خلال ما قاموا به من فتح المجال أمام العقائد الباطلة للتغلغل في اليهودية والنصرانية، من خلال اعتبار عزير وعيسى ابنين له سبحانه وتعالى، فقد قاموا هم بأنفسهم بإبطال ما هم عليه من دين؛ إذ إنّ ضمّ العاطل إلى الكامل وفتح الطريق إلى الحقّ للباطل، لن يؤدّي إلى

---

١ . سورة البقرة، الآية ١١١.

٢ . سورة المؤمنون، الآيات ٥٢ ـ ٥٣.

جعل ذلك العاطل والباطل حقّا فحسب، بل سيؤدّي إلى تعطيل الحقّ وإبطاله أيضاً.

وما يقبله الله سبحانه وتعالى هو الدين الخالص، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدْ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * ألا لله الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[1]، وهذا ما يبطل العبادة كلّها بالرياء ولو في جزء صغير من أجزائها، كما يؤدّي ضمّ المجهول إلى المعلوم في البيع والشراء إلى مجهولية ما كان معلوما، فيؤدّي بالتّبع إلى بطلان الصفقة كلّها وبجميع أجزائها.

بناء على ما سبق، فإنّ قيام البعض بتقطيع الدين الالهي إلى قطع يضيفون إليها الباطل، هو أمر على حدّ الشرك، وهو ما يعني بطلان هذا الدين المركّب من الحقّ والباطل بكامله، قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إليه وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ * مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كلّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2].

تنويه: تعرّضنا في ما سبق إلى بيان أنّ الدين الالهي واحد هو ما جاء به جميع الانبياء، وأنّه الاسلام الّذي لا يقبل التثنية، فكيف بالجمع؟! وأمّا استعمال كلمة (الاديان) هنا وهناك، فإنّما هو بلحاظ تعدّد الشريعة والمنهاج.

### ٣ ـ إبطال دعوى أهل الكتاب الكاذبة في ما يرجع إلى الولاية

لم يقتصر الامر في آثار عقيدة اليهود والنصارى الباطلة في ما يرتبط بكونهم على الحقّ والصواب دون غيرهم على اعتبارهم أنفسهم أولياء لله سبحانه وتعالى، بل تعدّى الامر ذلك شيئا فشيئا إلى ادعائهم البنوّة التشريفية

---

١ . سورة الزمر، الآيات ٢ ـ ٣.

٢ . سورة الروم، الآيات ٣١ ـ ٣٢.

ـ لا الطبيعية ـ له تعالى، فصاروا ـ بملاحظة النسبة القريبة بين الاب والابن ـ أبناءاً معنويين له تعالى، قال سبحانه وتعالى حاكيا تلك العقيدة الفاسدة عنهم: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[1].

وقد تعرّض القرآن الكريم لإبطال هذه الدّعوى الكاذبة بالقول بأنّ علامة الولاية تمنّي لقاء المحبوب، وأمّا حجاب هذا الشهود، فهو الحياة الظاهرية الّتي لا يميطها إلا الموت.

فلو كنتم أولياء لله حقيقيين، فيجب أن تكونوا على شوق للقاء الوليّ سبحانه وتعالى فتتمنّوا الموت، في حين أنّكم تخافون الموت لما اقترفتموه في حياتكم الدنيا من الآثام والمعاصي، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لله مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمُوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[2].

علامة حبّ الله تعالى هو النجاة من النار وعذابها، في حين أنّكم ستعذّبون في النار جزاء ما اقترفتموه من الآثام، قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[3].

وقد ذكر سبحانه وتعالى أنّ ما سبق من هؤلاء من معاصٍ وآثام كان مانعا عن تمنّيهم الموت، فهؤلاء لا أنهم يعدمون الشوق إلى الموت فقط، بل هم أحرص الناس على الحياة، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾[4].

---

١ . سورة المائدة، الآية ١٨.

٢ . سورة الجمعة، الآيات ٦ ـ ٧.

٣ . سورة المائدة، الآية ١٨.

٤ . سورة البقرة، الآية ٩٦.





## ٤ ـ صعوبة التوحيد الاصيل

أشرنا في البحث التفسيري إلى سرّ تأكيد القرآن الكريم على نزاهة إبراهيم خليل الرحمان عليه السلام عن العصيان الاعتقادي والخُلقي والعملي، وعن ارتباط هذه النكتة بما جاء في الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام.

واحد من الامور المستفادة من التأكيد المزبور، هو الاشارة إلى قيمة التوحيد الخالص وأهميته، وندرة الموحّدين الاصيلين.

إنّ التوحيد ـ خلافا لما يتصوره أكثر المؤمنين من أنّه أمر سهل، فيعتبرون أنفسهم من الموحّدين الاصيلين ـ وصف ممتاز من أصعب الاوصاف الاعتقادية، والافراد العاديّون يتّكون في أغلب الموارد على غيره سبحانه وتعالى، ولهذا، لو حلّلنا المعتقدات الداخلية للافراد، لما وجدنا أثرا يذكر للتوحيد الخالص.

وفي معرض بيانه سبحانه وتعالى لحقيقة أنّ أكثر المؤمنين مشركون، نراه يحذّر من هذا الخطر الكبير، فيقول عزّ من قائل: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾[1].

الحقيقة السابقة هي السرّ في إشارة بعض الروايات إلى أنّ التواضع في مقابل بعض الاغنياء لغناهم أمر يذهب بثلثي الدين، كما في قوله عليه السلام في نهج البلاغة: «من أتى غنيّا فتواضع له لغناه، ذهب ثُلُثا دينه»[2]؛ فإنّ علل الشرف وعوامل الفخر ـ يعني الاسلام والتشيّع والولاية ـ موجودة في الفقير كما هي موجودة في الغنيّ، فاحترام الغنيّ من قبل بعض الافراد إنّما هو لأجل أنهم يرونه

---

١ . سورة يوسف، الآية ١٠٦.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة ٢٢٨.



أقرب إلى الدنيا، وهذا هو خطر الشرك وخسارة التوحيد الاصيل الّذي هـدّدت به بعض الآيات الكريمة وبعض الروايات الشريفة.

لقد حذّر القرآن الكريم من خطر بعض المعاصي التي يصل خطرها إلى حـدّ الشرك، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّـذِينَ لا يُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ﴾[١]، فالمعصية تؤدّي بالانسان شيئا فشيئا إلى الشرك العملي، ومنه إلى الشرك الخُلقـي، ثم من هناك إلى الشرك الاعتقادي من حيث لا يشعر.

لقد كانت صعوبة التوحيد الاصيل سببا في ألّا يكون في البين كثقـل وأهميـة وقيمة كلمة «لا إله الا الله» الطيّبة، كما ورد عنه ﷺ: «ما قلتُ ولا قال القائلون قبلي مثل لا إله الا الله»[٢]، فهذه الكلمة المباركـة وإن كانـت سـهلة وخفيفـة عـلى اللسان، إلا أنّها ثقيلـة جـدّا في ميـزان الاعتقـاد والخُلـق والعمـل[٣]، بحيـث لـو وضعت السماوات والارض في إحدى كفّتي الميزان ووضعت كلمـة «لا إلـه الا الله» في الكفّة الاخرى، لما كان للسماوات والارض طاقة على تحمّل تلك الكلمـة الطيبة، ولقصرت عن مكافأتها، كما ورد في الحديث عنه ﷺ: «لو أنّ السّماوات وعامريهنّ والارضين السبع في كفّة، ولا إله إلا الله في كفّة، مالت بهـنّ لا إلـه الا الله»[٤].

---

١ . **سورة فصّلت**، الآيات ٦ ـ ٧.

٢ . **التوحيد**، ص١٨.

٣ . **بحار الانوار**، ج٩٠، ص١٧٥.

٤ . **التوحيد**، ص٣٠. والحديث هو: عن عيسى بن عبد الله ـ من ولد عمر بن علي (أمير المؤمنين) ـ عن أبيه، وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: قال الله عزّ وجلّ لموسى بـن عمـران: يـا موسى، لو أنّ السماوات السبع وعامريهن عنـدي والارضـين السـبع في كفّـة، ولا إلـه إلا الله في كفّة، مالت بهن لا إله الا الله». (المترجم).

# البحث الروائي

## ۱ ـ دين الله المحبوب

قال رسول الله ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[1].

ـ عن ابن عباس قال: «**قيل يا رسول الله، أيّ الاديان أحبّ إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة**»[2].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إن الحنيفة هي الاسلام**»[3].

**إشارة:** العدول من الضلال إلى الهدى، والانصراف عن الباطل إلى الحقّ، والميل عن الاعوجاج إلى الاستقامة، و... كلّ ذلك ملحوظ في الاسلام الاصيل، ومن هنا، كانت ملّة الاسلام حنيفة؛ فإنّ (حَنَف) بمعنى الاستقامة والميل عن الباطل إلى الحقّ[4]، المعنى الّذي يتّسق تمام الاتّساق مع الفطرة الاصيلة، كما أنّه المعنى الملحوظ في ما جاء في الحديث القدسي: «خَلَقْتُ عبادي حُنفاء»[5].

## ۲. جامعية الدين الحنيف وخلوده.

عن أبي جعفر عليه السلام: «**ما أبقت الحنفية شيئاً، حتّى أنّ منها قصّ الشارب وقلم الاظفار والختان**»[6].

ـ «**﴿ملّة إبرهيم حنيفاً﴾ وهي الحنفية العشر التي جاء بها إبراهيم** عليه السلام**، خمسة في البدن وخمسة في الرأس؛ فأمّا التي في البدن: فالغسل من الجنابة،**

---

۱و۲ . الدر المنثور، ج۱، ص۳۳۸.

۳ . تفسير العياشي، ج۱، ص٦۱.

٤و٥ . مجمع البحرين، ج۱ ـ ۲، ص٥٨٨، «ح ن ف».

٦ . تفسير العياشي، ج۱، ص٦۱.




والطهور بالماء، وتقليم الاظفار، وحلق الشعر من البدن، والختان. وأمّا التي في الرأس: فطمّ الشعر، وأخذ الشارب، وإعفاء اللحى، والسواك، والخلال، فهذه لم تنسخ إلي يوم القيامة»[١].

إشارة: يجب الالتفات إلى أنّ الامور المذكورة في الروايات السابقة لا تعني أبدا التفسير المفهومي للحنيف، ولا الحصر التطبيقي والمصداقي له، وإنّما هي بصدد ذكر بعض من السُنَن الرائجة والاوامر المعروفة في هذا المجال.

* * *

---

١ . تفسير القمي، ج١، ص٣٩١. البرهان، ج١، ص٣٣٧.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾

## التفسير المختار

في مقابل العصبية القومية لليهود والنصارى في الاقتصار على قبول الانبياء المبعوثين من قبائلهم، يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله الاكرم ﷺ وسائر المسلمين بالايمان بالنبوّة العامّة وما أتت به، بدون النظرة العصبية والقومية والقبلية، على نحو إيمانهم بالنبوة الخاصّة وما أتت به، بدون أيّ فرق بين النبوّتين.

على المسلمين أن يقولوا: نحن على إيمان بالله سبحانه وتعالى وبجميع ما أنزله سبحانه من معارف إلهية. من الطبيعي أنّ الايمان بـ «ما أنزل الله» من لوازم الايمان بـ «الله» سبحانه وتعالى، وأمّا تقدم ذكر الايمان بالله وفصله عن الايمان بالله في الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام، فإنّما هو بمناسبة فطرية التوحيد وأهميته ليس إلا.

القرآن مهيمن على جميع الكتب والصحائف السابقة عليه، والمجتمع الانساني مأمور أيضاً بسبب هذه الحجة المدونة الالهية الاخيرة بالايمان بجميع الانبياء السابقين من قبيل إبراهيم عليه السلام، وهذا ما يفسّر تقدّم الايمان بالقرآن على الايمان بـ **﴿مَا أُنْزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ...﴾**.




القرآن الكريم ـ وهو كتاب المعارف الالهية الاكمل ـ في الوقت الّذي أنـزل عليه ﷺ هداية للبشر، فإنّه قد أنزل نحو البشر ـ أيضاً، مـع انحفـاظ خاصـيّته الوحيانية من بدء إنزاله وإلى وصوله إلى مسامع البشر، وأمّا الفرق، فهو في مجـرد استلامه، فقد يكون بدون الواسطة أحيانا، كما أنّه قد يكون مع الواسـطة أحيانـا أخرى.

المؤمنون المطيعون لله والمنقادون له سبحانه وتعالى يؤمنون بجميع مـا أنـزل على الانبياء، وبجميع ما أعطوا منه تعالى، مـن النبـوّة والكتـاب والمعجـزة ومـا شابهها، كما أنّهم لا يفرّقون بين أيّ نبيٍّ من الانبياء وغيره في أصل النبوّة بحيـث يعتبرون البعض منهم على حقّ والبعض الاخر على باطل، أو يؤمنـون ببعضـهم وبما جاء به من كتاب ويكفرون بالبعض الآخر.

لبعض الانبياء فضل على البعض الآخر بلحاظ التفاوت في درجة الرسـالة، وأمّا بلحاظ النبوّة العامّة، فلا فضل لأحدهم على غـيره، مـا يفسرـ عـدم قبـول أصل النبوّة للتفاوت والاختلاف، فإنّ التفريق بين الانبياء لا يتّسق مـع الايـمان بالمبدأ.

## تفسير المفردات

**أُنزل**: يشعر عنوان (الانزال) في مثل هذه الموارد بوحيانية الشيء النازل، إلا أنّه لا يستلزم كون ذلك النازل كتابا محسوسا.

**ما أُوتي**: عنوان الايتاء مشعر بالاعطاء، والتمليك، والتسليط ومـا شـابهها، ومن هنا، قيل لإلقاء الدلو في البئر (إلقـاء) لا إيتـاء، فيقـال: «أنزلـت الـدلو إلى البئر، ولايقال: آتيته»، إلا أنّه لا يستلزم أن يكون الايتـاء وحيـا نبويّـا، كـما هـو



الحال في الايتاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[1]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾[2]، وقوله عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾[3]؛ فإنّ من أوتي في الآيات الشريفة السابقة لم يكن من الانبياء.

ويشمل (الايتاء) المعجزات غير الكتابية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾[4]، وأمّا عنوان (الانزال)، فلا يستعمل في معجزات من قبيل العصا، واليد البيضاء، وما شابهها.

**الأسباط**: جمع سِبْط بمعنى الحفيد (ولد الولد)، ومن هنا، قيل في حقّ الحسن والحسين عليهما السلام إنّهما سبطا الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله.

ويطلق على القبائل الاثني عشر من بني إسرائيل (الاسباط)، من جهة انتساب كلّ واحد منها إلى ولد من أولاد حضرة يعقوب عليه السلام الاثني عشر، فيعتبرون بذلك من حفدته عليه السلام، والمقصود من الاسباط في الآية الشريفة هو هذا المعنى.

وأمّا (السَبْط)، فهو «الانبساط في سهولة»[5]، ومن هنا، يقال للشجرة ذات الاغصان الكثيرة: «سَبَط»[6]، وللممرّ المنبسط النافذ بين الدارين «ساباط»، وللحفدة الذين هم سبب لامتداد النسل وانبساطه «سِبْط» و«اَسباط»، كما أنّ أغصان الشجرة سبب امتداد وانبساط جذع الشجرة وأصلها.

---

١ . سورة لقمان، الآية ١٢.

٢ . سورة الاعراف، الآية ١٧٥.

٣ . سورة الجاثية، الآية ١٦.

٤ . سورة الاسراء، الآية ١٠١.

٥ . راجع: **المفردات**، ص٣٩٤، «س ب ط».

٦ . راجع: **المعجم الوسيط**، ص٤١٣، «س ب ط».




**لا نُفرّق**: «التفريق» الفصل بين شيئين كانا معا، و«الفَرْق» عدم وضع الشيء مع الشيء الآخر، وعليه، فالتقابل بين التفريق والجمع من تقابل الامرين الوجوديّن غير المتّسقين، وأمّا الفرق بين الفرق والجمع، فهو تقابل بين أمر وجود وأمر عدمي لا يتّسق معه[1].

## تناسب الآيات

يمكن أن تكون الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام تبيينا مفصّلا لملّة إبراهيم عليه السلام، التي أطلق عليها أو على الآتي بها عنوان «الحنيف»، ولمّا كانت ملّة إبراهيم الحنيف عليه السلام تمثّل الاسلام الاصيل، يعني: الدين الوحيد المقبول منه تعالى بحيث لا يقبل غيره، فإنّه يمكن إسناد تلك الملّة إلى جميع الانبياء الآخرين.

بناء على ما سبق، ومع الالتفات إلى تعرّض الآية السابقة على الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام بنحو الاجمال إلى الاقتداء بدين إبراهيم وملّته الحنيفة جوابا على دعوة اليهود والنصارى إلى اليهودية والنصرانية، تأتي الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام لتبيّن تفاصيل هذا الاقتداء في مقام الاعتقاد، والقول، والفعل، كما أنّها تعتبر إرشادا ضمنيّا لليهود والنصارى إلى طريق الحقّ الّذي يلزم السير عليه.

فكأنّ الآية الشريفة تريد القول: إنّ ملّة إبراهيم ودينه عبارة عن الشهادة بالتوحيد وبحقّانية ما أنزل على الانبياء بدون أيّ تفريق بينهم، وبالتسليم في مقابله سبحانه وتعالى.

وبعبارة أخرى: الآية الشريفة تخاطب المؤمنين قائلة: لا تكونوا كاليهود الذين كفروا بحضرة عيسى عليه السلام وحضرة محمّد صلى الله عليه وآله وبالانجيل والقرآن، ولا تكونوا كالنصارى الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وبكتابه الّذي أتى به وهو القرآن.

❋ ❋ ❋

---

١. راجع: **المعجم الوسيط**، ص٦٨٥، «ف ر ق».





## معيار أهل الكتاب في قبول الانبياء

في مقابل كلام اليهود والنصارى المنبعث عن عصبيّتهم حين قالوا: ﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾[1]، يأمر سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يجيبوا بقولهم: ﴿آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالاسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

وأمّا السرّ في التأكيد على أن إيمان المؤمنين بالنبوة العامّة يجب أن يكون على حدّ إيمانهم بالنبوّة الخاصّة وبدون لحاظ العشيرة أو القبيلة أو غير ذلك من أنحاء العصبية، وبدون التفريق بين الانبياء، فهو تذكير أهل الكتاب بما يقومون به من التفريق بين الانبياء، وعدم قبولهم لهم جميعا بل لمن كان منهم من قبيلتهم خاصّة، فجعلوا المحوريّة للنفس لا للحق، فمعيار القبول بالنبوّة لدى هؤلاء هو قبيلة النبي لا نفس نبوّته.

وفي معرض تحليل القرآن الكريم لهذه المسألة النفسية، يقول: إنّ موقف بعض الافراد في مقابل ما يدعى إليه من الوحي والنبوّة هو العمل بما يوافق الهوى والميول الشخصية، ورفض ما تصادم معها من نبيّ أو وحي وتكذيبه.

إنّ هؤلاء لا يتبّعون الوحي أبدا، وأمّا في حالة قبولهم بالحق في بعض الحالات، فإنّما يتبعونه لمصادفته ميولهم وأهواءهم، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ الحقّ يَأْتُوا إليه مُذْعِنِينَ﴾[3].

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٣٥.

٢ . سورة البقرة، الآية ٨٧.

٣ . سورة النور، الآيات ٤٨ ـ ٤٩.

بناء على ما سبق، فإنّ ميزان التمييز بين الوحي المقبول وغير المقبول عند هؤلاء هو الاهواء والميول الشخصية؛ حيث جعل هؤلاء الهوى أصلا والوحي فرعا.

وقد أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام في واحدة من كلماته النورانية التي تتكلم عن زمان ظهور حضرة بقية الله 3 إلى النقطة التي أشرنا اليها قبل قليل، حيث يصف عليه السلام الحجة قائلا: «يعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي»[١]، فاللازم عرض الرأي على القرآن لا عرض القرآن على الرأي.

## شمول خطاب الآية للنبي صلى الله عليه وآله

الخطاب الالهي ﴿قولوا﴾ المذكور في صدر الآية الشريفة لا يختصّ بالأمّة في مقابل القائد، وإنما هو شامل للرسول الاكرم صلى الله عليه وآله أيضاً، كما توجّه إليه صراحة وبصورة مباشرة في آيةٍ أخرى، حيث يقول عزّ من قائل: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالاسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٢]

إنّ مضمون هذه الآية الشريفة الاخيرة ومضمون الآية الّتي هي محلّ الكلام واحد، فصدر هذه الآية مفرد يخاطب الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، ولكن، لّما كان صلى الله عليه وآله نبيا لأمّة، كان خطابه خطابا لجميع تلك الامّة في الوقت نفسه، وهو ما يفسر عدم قوله تعالى: «قل آمنت بالله...»، بل جاء الخطاب على صيغة الجمع: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ...﴾.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٣٨.

٢. سورة آل عمران، الآية ٨٤.

الشاهد الآخر على شمول خطاب «قولوا» للنبي الاكرم ﷺ، هو الآية الشريفة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إليه مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[1].

بناء على جميع ما سبق، فإنّه ﷺ مكلّف ـ كالأمّة ـ بأن يقول: «آمنت بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلي إبْرهيم و...».

**نكتة:** يعتبر قول: «قولوا ءَامنّا بالله» دليلا على بطلان قول أهل التعليم وأهل التقليد[2]، وقد تقدّم في مبحث إشارات ولطائف الآية ١٣٣ التعرّض إلى عقيدة «التعليميّة» و«المقلّدة».

## الإيمان بـ «الله» و بـ «ما أنزل الله» توأمان

الايمان بـ «ما أنزل الله» من لوازم الايمان بـ «الله» تعالى؛ فإنّ من يؤمن به تعالى، لا شكّ في أنّه يؤمن بالحكم النازل من ناحيته.

ومن ناحية أخرى، فإنّ «ما أنزل الله»، كما يشمل المبدأ، فإنّه يشمل المعاد والوحي والنبوّة كذلك.

إنّ السرّ في تقدم الايمان بالله وإفراده بالذكر في الآية الشريفة الّتي هي مورد البحث، هو كونه أمرا فطريا، وكفاية الفطرة التوحيدية وعدم الحاجة إلى المعجزة وما شابه تلك الامور بالنسبة إلى الايمان بالله تعالى، إضافة على أهمّية هذا الايمان، إلى الدرجة التي كان فيها نقطة الشروع في جميع البحوث العقديّة.

بناء على ما سبق، فإنّ الايمان بالله تعالى يستلزم الايمان بجميع ما ينزل من ناحيته، ما يعني بالتبع أنّ الايمان ببعض ما نزل من ناحيته ورفض البعض

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

٢ . التفسير الكبير، ج٤، ص٧٨.




الاخر، كالايمان ببعض الرسل وعدم الايمان بالبعض الآخر، يعتبر إيمانا بالمبدأ وكفرا بالحكم الصادر عنه، وهو ممّا يستلزم التناقض.

## نزول القرآن إلى الناس

﴿ما أنزل إلينا﴾ التي يعتبر القرآن الكريم من مصاديقها أيضاً، تشمل جميع المعارف، وعليه، فإنّ القرآن الكريم لا يقتصر نزوله على كونه «لأجل» هداية الناس، بل هو نازل «إليهم» أيضاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، وقال: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[3].

إنّ المعنى المتداول لهذه التعبيرات، هو أنّ القرآن الكريم قد أنزل إلى الرسول الاكرم ﷺ، ولمّا كنا نحن أمّته ﷺ، فكأنّما قد أنزل القرآن الكريم إلينا أيضاً، فالقرآن ـ في الحقيقة ـ لم ينزل علينا طبقا للمعنى المتداول السابق.

إلا أنّ المعنى الدقيق لتلك التعبيرات، هو أنّ القرآن في الوقت الّذي قد نزّل فيه على الرسول الاكرم ﷺ، فإنّه قد نزّل إلى الناس أيضاً.

توضيح ما تقدم، هو أن القرآن الحكيم يعتبر تجلّيا من تجلّياته سبحانه و تعالى الخاصّة؛ إذ إنّ أصل الخلقة هي تجلّ له تعالى حسب ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة حيث يقول: «الحمد لله المتجلّي لخلقه بخلقه»[4]، وأمّا إنزال القرآن الكريم، فهو تجلّ خاص له تعالى، كما جاء عن

١ . سورة النساء، الآية ١٧٤.

٢ . سورة النحل، الآية ٤٤.

٣ . سورة الانبياء، الآية ١٠.

٤ . نهج البلاغة، الخطبة ١٠٨.

أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة حيث يقول: «فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه»[١] والتجلّي الخاص له تعالى الّذي لم يتحمّله الجبل فاندك، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فلمّا تجلّى ربُّه للجبل جَعَلَه دكّاً﴾[٢].

وعين هذا المطلب الّذي حصل بشأن جبل طور، قد جاءت على شكل فرض نزول القرآن على الجبل[٣]، ما يفسّر تعبيره تعالى عن القرآن الكريم بـ «القول الثقيل» في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا﴾[٤].

ولمّا لم يكن للافراد العاديين طاقة على حمل هذا «القول الثقيل» والوحي النفيس، فإنّ الطريق إلى نزول هذا الشلّال العظيم إلى الناس لا يمكن أن يكون مباشرا وبلا واسطة، فكان لا بدّ مِن أن يكون هناك واسطة من الوسائط، وهي أن ينزل أوّلا على قلبه صلى الله عليه وآله ليقلّل ذلك من وزنه وضغطه، فتبقى المعارف والحقائق والتأويل والباطن هناك، فلا يتعدّى منه إلى الظاهر والناس إلا رشحات، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الامِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ﴾[٥].

---

١ . المصدر السابق، الخطبة ١٤٧ .

٢ . سورة الاعراف، الآية ١٤٣ .

٣ . تشترك جميع الموجودات الارضية وغيرها في الخضوع التكويني له تعالى، قال عزّ من قائل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَللارْضِ اِئْتِيَا طوْعاً فقال لها وللارْض اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. (سورة فصّلت، الآية ١١)، وعليه، فليس المقصود في المقام هو أنّه لما كان الجبل قابلا للامر تكوينا فهو يتلاشى، بل المقصود هو بيان ما تتمتع به معارف القرآن من منزلة عظيمة ومن حرمة؛ إذ مع غض النظر عما تحمله من كمالات علمية وقيمية، فإنّه أصل حياة الفرد والمجتمع وأساسها، ومن المعلوم أن لا شيء أهم من ذلك الاصل وهذا الاساس، على الرغم مما نشاهده أحيانا من عدم انتفاع البعض بذلك مع الاسف بسبب عدن التفكر اللازم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الامْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. (سورة الحشر، الآية ٢١).

٤ . سورة المزمّل، الآية ٥.

٥ . سورة الشعراء، الآيات ١٩٣ ـ ١٩٤.




فلو كان القرآن الكريم قد نزل بصورة مباشرة على قلب الانسان العادي، فإنّه لا جرم سيتلاشى، كما ورد في فرض نزوله على الجبل في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ الله وَتِلْكَ الامْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وأمّا الانسان الكامل ـ وهو الافضل من السماوات والارض ـ فله القوّة على تحمّل ذلك القول الثقيل بدون أيّة واسطة من الوسائط.

على أساس ما سبق من حقائق، يكون القرآن الحكيم نازلا على الناس أيضاً، وهذا ما يفسّر عدم كون قلبه المبارك ﷺ نقطة الوحي القرآني الاخيرة، وإنما هو وحي في سيره من قلب الرسول الامين ﷺ، إلى شفتيه المباركتين، ومنهما إلى أذن الامّة الاسلامية، وهو السرّ في التعبير الّذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ الله ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾[2]، وهو ما يفسّر استحباب قول: «لبّيك» حين قراءة أو استماع قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين ءامنوا﴾[3]. فقد نقل عن الامام الصادق عليه السلام قوله: «ينبغي للعبد إذا صلّي أن يرتّل قراءته... وإذا مرّ بـ﴿يا أيّها الذين ءامنوا﴾ قال: لبّيك ربّنا»[4].

الحكم الاستحبابي السابق يؤيّد استمرار خطابه تعالى للبشر إلى هذا اليوم، ويؤيّد فعلية ذلك الخطاب الالهي، وعليه، فلو كان له تعالى أمر يتعلّق بالقول، فإنّ من اللائق أن نجيب على ذلك القول مع حفظ المضمون، كما ورد عن

---

١ . سورة الحشر، الآية ٢١.

٢ . سورة التوبة، الآية ٦.

٣ . وفي بحار الانوار، ج٨٢، ص٣٤: «كان الرضا عليه السلام... إذا قرأ ﴿يا أيّها الذين ءامنوا﴾، قال: «لبّيك اللّهمّ لبيك»، سرّاً».

٤ . تهذيب الاحكام، ج٢، ص١٢٤. بحار الانوار، ج٨٢، ص٣٤.

أمير المؤمنين عليه السلام من الامر بقول: «آمنّا» عند المرور بقوله تعالى: ﴿قولو آمنا﴾، كما أنّ من المناسب الجواب بالفعل في حالات تعلّق الامر بالفعل، كما في حالة الامر بالسجدة الواجبة أو المستحبة[1].

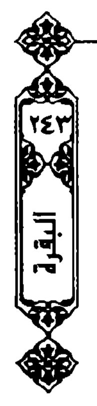
وكما أنّ الملائكة رسل وحي كما قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[2] ومجرى لذلك الوحي، فكذلك قلب الرسول الامين صلى الله عليه وآله، فهو مجرى للوحي أيضاً، ومن قلبه صلى الله عليه وآله إلى شفتيه المباركتين، ومنهما إلى آذان مستمعي الآيات القرآنية المباركة، كلّ ذلك ملحق بالوحي، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[3].

وفي كلّ جزء من أجزاء هذا المسير الّذي يطويه الوحي، من مبدأ تنزُّله إلى حين وصوله إلى سمع الامّة الاسلامية، يقوم ملائكة خاصّون بمسؤولية حراسته ومراقبته والحفاظ عليه من بين يديه ومن خلفه من كيد الشياطين الذين يريدون به شرّا، فيحافظ عليه من الزيادة والنقصان والتحريف وأيّ نوع من أنواع العيوب والعاهات الاخرى، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فإنّه يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كلّ شَيْءٍ عَدَداً﴾[4].

أخذ الحقائق السابقة بنظر الاعتبار، يكشف الستار عن سرّ التعبير عن القرآن الكريم بالحبل الالهي في حديث الثقلين[5]، الحبل الّذي يكون أحد طرفيه بيده تعالى والطرف الآخر بيد الناس.

---

١ . **بيان السعادة**، ج١، ص١٤٨.
٢ . **سورة عبس**، الآيات ١٣ ـ ١٦.
٣ . **سورة النجم**، الآيات ٣ ـ ٤.
٤ . **سورة الجنّ**، الآيات ٢٦ ـ ٢٨.
٥ . **بحار الانوار**، ج٨٦، ص١٣. إثبات الهداة، ج١، ص٧٣٥.





**والحاصل**: أنّ هناك العديد من الآيات الكريمة تدلّ على أن القرآن قد أنـزل «إلى» الناس، كما أنّه ليس هناك أيّ دليل عقلي أو نقلي على خلاف ذلك ليصار إلى مخالفة ظواهر تلك الآيات الكريمة أو الحمل على المعنى المجازي لما ورد في تلك الآيات، ليكون المعنى كما ادّعي هو الانزال «لأجل» البشر.

فكما أنزل القرآن الكريم لأجل الانسان، فقد نـزل للانسـان أيضـاً، نعـم، نزوله على قلبه ﷺ يختلف عن نزوله على الامّة؛ فإنّ نزوله عـلى قلبـه لا يكـون بواسطة على خلاف نزوله على غيره، فإنّه يحتاج إلى الواسطة كما تقدم؛ فإنّه ﷺ حيث إنّه الرسول الالهي، فإنّه يقوم بمهمّة أداء الرسالة وإيصالها إلى الناس.

والرسول هو الشخص الّذي يؤدّي الرسالة إلى المرسل إليه بدون أيّة زيـادة أو نقيصة، فبعد استلامه ﷺ للـوحي، فهـو عـلاوة عـلى كونـه رسـولا، فهـو ترجمان الوحي والمفسّر والمبيّن لذلك الوحي.

وبعد قيامه ﷺ بإبلاغ الـوحي إلى النـاس بعنـوان كونـه حجّـة الله تعـالى البالغة، يختلف الناس في ما بينهم من حيث قبول تلك الحجّة أو عدم القبول بها، قال تعالى: **﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾**[1].

من الجدير بالملاحظة، أنّ الانزال إلى الرسول الاكرم قد ورد مقابلا للتنزيـل إلى الناس في الآية الكريمة: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَـيْهِمْ﴾**[2]، ويمكن أن يكون الاختلاف في التعبير هنا من حيث الدفعة في أحدهما والتدريج في الآخر، كما أنّه يمكن أن يكون بلحاظ التفاوت في تلقّي الوحي؛ حيث يكـون بلا واسطة في الرسول وبالواسطة في غيره من أفراد الامّة.

---

١ . سورة الأنفال، الآية ٤٢.

٢ . سورة النحل، الآية ٤٤.

**نكات:** ١ ـ على الرغم من أنّ الوحي ينزل «إلى» الامّة، إلا أنّه يبقى مشرفا على الجميع ملقيا بأشعته عليهم، لكي يشمل الرسول والأمّة بالتربية، ما يفسّر أنّ الانزال الّذي ورد في الآية الّتي هي محلّ البحث ﴿**آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلى...**﴾ مع حرف «إلى»، قد ورد في آية أخرى مع الحرف «علىٰ» ليدلّ على الاستعلاء، قال تعالى: ﴿**آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى...**﴾[1]، ومن هنا، يصف سبحانه وتعالى الدين بوصف «القيّم» في موارد متعددة، كما في قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[2].

فدين الله سبحانه وتعالى قيّم الامّة؛ إذ إنّ المعارف، والعقائد، والاخلاق، والفقه والحقوق قائمة بذاتها لا تحتاج إلى تتميم وتكميل خارجي، كما أنّها لها من القوّة ما يمكّنها من اقامة الآخرين، وعليه، فإنّ السرّ في التعبير بحرف «علىٰ» في الآية الشريفة المذكورة، هو كون الانسان تحت قيّومية الدين الالهي لا أنّ الانسان أفضل منه بحيث يمكنه أن يغيره، كما أنّه ليس من مستواه بحيث يستطيع الاستغناء عنه والاكتفاء بنفسه.

٢ ـ إن السرّ في تقديم ﴿**ما أُنزِلَ إِلَيْنَا**﴾ يعني: القرآن، على ﴿**مَا أُنزِلَ إِلى إبراهيم و...**﴾ يعني: صُحُفه عليه السلام على الرغم من تقدّم تاريخ نزول الصُحُف على القرآن الكريم، إضافة على كون القرآن مُهَيمنا على جميع الكتب والصحف الالهية، هو أنّ القرآن ـ وهو الحجّة الالهية المدونة الاخيرة ـ كان سببا في أمر المجتمع البشري بالايمان بجميع الانبياء السابقين، كإبراهيم عليه السلام وغيره من الانبياء؛ فقد أمر بتصديق كونهم حقّا إضافة على الايمان بهم جميعا.

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٨٤.

٢ . سورة التوبة، الآية ٣٦.

٣ ـ الغرض من تكرار كلمة «ما» في قوله تعالى: ﴿ما أُنزِلَ إِلَيْنَا ومَا أُنـزِلَ إلى إبراهيم و...﴾، هو الاشارة إلى الفرق بين ما أنزل إلى المسلمين عن طريق النبي الاكرم ﷺ، وبين ما أنزل إلى حضرة إبراهيم وغيره من الانبياء عليهم السلام.

٤ ـ هناك عدّة طرق لإثبات استقلال إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام عما كان عند موسى وعيسى عليهما السلام، أحدها: تكرار «الانزال» في الآية الكريمة الّتي هي محلّ الكلام، وثانيها: تكرار «الايتاء»، وثالثها: التفكيك بين الانزال والايتاء، كما هو الحال في استعمال الاوّل بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام، واستعمال الثاني بالنسبة إلى موسى وعيسى عليهما السلام.

٥ ـ نسب الانزال إلى أهل الكتاب أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿ومَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[1]، إلا أنّه لم ينسب الايتاء إليهم، ولربّما يكون ذلك لأجل تحريف ما عندهم فعلا.

## سرّ إسناد الوحي والكتاب إلى «الاسباط»

إسناد إنزال الكتاب إلى «الاسباط» في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالاسْبَاطِ﴾، من جهة أنّ كلّ واحدة من تلك القبائل الاثنتي عشرة كان لها نبيّ من الانبياء، لا أنّ كلّ واحد من أبناء يعقوب عليه السلام الاثني عشر كان نبيّا من الانبياء؛ إذ طبقا لنقل عن الامام الباقر عليه السلام[2]، لم يكن من هؤلاء نبيّ إلا يوسف عليه السلام.

إستناد نزول الوحي على هؤلاء الانبياء الذين كانوا من بني إسرائيل من قبيل استناد نزول الوحي على إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، إنّما هو بسبب

١ . سورة المائدة، الآية ٦٨.

٢ . راجع: الكافي، ج٨، ص٢٤٦. تفسير العياشي، ج١، ص٦٢.

صُحُف إبراهيم عليه السلام التي كانت جارية عندهم إلى زمان حضرة موسى عليه السلام، حيث كانوا مكلّفين بالتعبّد بها والعمل بما فيها، وإلا، فإنّ نزول الكتاب على هؤلاء الانبياء لم يكن أمرا معهودا[١].

وسيأتي بعض التوضيح في ما يرجع إلى الأسباط في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

## تفاوت التعبير بـ«ما أنزل» وبـ«ما أوتي»

أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بقول: ﴿آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالاسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

الاختلاف في التعبير بالانزال مرّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ الوارد في حضرة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب واسباط عليهم السلام، وبالايتاء مرّة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيَ﴾ الوارد في حضرة موسى وعيسى عليهما السلام، إذا لم يكن المراد به صرف التفنّن في التعبير، فإنّه يمكن أن يكون ناظرا إلى ما أشرنا إليه قبل ذلك بداية البحث التفسيري، أو إلى نكات أخرى سيأتي التعرّض لها بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

ومن الجدير بالذكر التعبير بالايتاء في حق مجموعة من الانبياء الذين ذكرهم سبحانه وتعالى في آيات من سورة الانعام بدون التفريق بينهم في التعبير، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ... * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾[٢].

---

١. آلاء الرحمٰن، ج١، ص٢٥٢.
٢. سورة الأنعام، الآيات ٨٤ـ ٨٩.



وعلى الرغم من أنّ كلمة «إيتاء» ليس لها من الظهور في الرسالة والنبوّة كما لكلمة «إنزال»، لاستعمالها في غير الانبياء أيضاً، كما هو الحال في قوله تعالى في حقّ لقمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[1]، إلا أنّ ذلك النقص والابهام يرتفع في المقام بذكر متعلق الايتاء، وبناء على ذلك، فإيتاء النبوّة والكتاب وما كان من هذا القبيل، له صراحة وظهور تام في الوحي والنبوّة والرسالة، كما ورد في وصفه تعالى للكثير من الانبياء عليهم السلام في الآيات المذكورة، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾[2].

وقد ورد في آيات أخرى التعبير بإيتاء الكتاب والبيّنات وما شابههما في حقّ حضرة موسى وعيسى عليهما السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾[3].

وقد احتمل أنّ النكتة في الفرق في التعبير، هي أنّ الايتاء أوسع من الانزال في هكذا موارد؛ فإنّ الانزال الّذي يقابل الارسال في الموارد المذكورة لا يشمل إلا الكتاب، وإن كان يمكن أن ينطبق على خصوص تعليم الاحكام في مورد من الموارد، وأمّا الايتاء، فإنّه كما يشمل الكتاب، يشمل المقام والمعجزة أيضاً، وإن كان استعمال الانزال والتنزيل في ما يرجع إلى المعجزات قليلا.

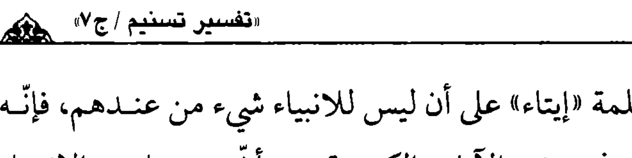
بناء على ما سبق، فإنّ المراد من الايمان بما أعطي موسى وعيسى عليهما السلام، كما يكون شاملا للايمان بمقام نبوّتهما والرسالة التي جاءا بها، فإنّه شامل للايمان بالتوراة والانجيل أيضاً، كما أنّه شامل للايمان بالمعجزات التي وقعت منهما كذلك، كما في اليد البيضاء، وانقلاب العصا حية، وإحياء الموتى، وإرجاع البصر إلى الاعمى، وغير ذلك من المعجزات.

---

١ . سورة لقمان، الآية ١٢.

٢ . سورة الأنعام، الآية ٨٩.

٣ . سورة البقرة، الآية ٨٧.



وإلى جانب دلالة كلمة «إيتاء» على أن ليس للانبياء شيء من عندهم، فإنّه يمكن الاشارة إلى ما جاء في بعض الآيات الكريمة، من أنّ جميع ما عند الانبياء فإنما هو منه تعالى، كما ورد في قوله عزّ من قائل: ﴿**وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ**﴾.

إنّ عدم تفاوت الانبياء في النبوّة العامة، هو الاصل والاساس في التوجيه إلى الدعوة الالهية إلى التوحيد والايمان، كما هي سيرة المؤمنين الحقيقيين، وهو ما يوجه التعرض إلى الايمان بـ ﴿**ما أنزل إلينا**﴾ صدر الآية الّتي هي محلّ الكلام، والتعرض في آخرها إلى الاسلام له تعالى في قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾. فالاسلام والانقياد في مقابل جميع الانبياء، وجميع ما أنزل على هؤلاء الانبياء، وجميع ما أوتوا، هي الخصلة التي يجب أن يتحلّى بها المؤمن الواقعي والمنقاد الالهي الحقيقي، مهما كان عدد هؤلاء الانبياء، ومهما كان عدد الكتب الالهية المنزّلة عليهم، ومهما كان من المعجزات التي جرت على أيديهم، وإن كانت مسؤولية تعيين تلك الارقام والحقائق ـ طبعا ـ على عاتق الدليل النقلي المعتبر.

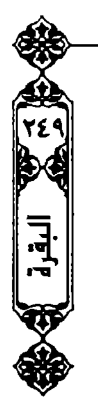
بناء على ما سبق، ألزم القرآن الكريم بالايمان بجميع الانبياء عليهم السلام، وبجميع صحف الانبياء السابقين، كما أنّ على المؤمنين الواقعيين ألّا يفرّقوا في النبوّة العامّة بين نبيّ ونبيّ آخر من الانبياء، ولا بين صحيفة لنبيّ وصحيفة أخرى لنبيّ آخر، قال تعالى: ﴿**لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إليه مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**﴾[2]

إنّ التفريق قد يكون داخليا أحيانا، كما أنّه قد يكون خارجيا أحيانا أخرى.

---

١. سورة البقرة، الآية ١٣٦. سورة آل عمران، الآية ٨٤.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٨٥.




أمّا الداخلي، فمن قبيل ما ابتلي به المحرّفون للتوراة والانجيل، فقد آمن اليهود بأصل نبوّة حضرة موسى الكليم عليه السلام، كما أنّهم آمنوا بأصل التوراة، ولكن، في الجملة لا بالجملة؛ فقد حرّفوا ما لم يكن من ذلك موافقاً لأهوائهم ومصالحهم الشخصية.

وأمّا التفريق الخارجي، فمن قبيل ما ابتلي به المفرّقون بين الانبياء في النبوّة العامّة.

وقد اجتمع كلا نوعي التفريق عند الجاحدين والنصارى؛ فإنّهم كما لم يؤمنوا ببعض ما جاء في كتابهم الالهي، فقد كفروا بنبوّة غير نبيّهم، ومن الطبيعي أنّ الباعث على إنكار نبوّة نبيّ آخر صار بدوره الباعث على التفريق الداخلي وتحريف ما يرتبط بذلك النبيّ من آيات.

إنّ الّذي يفرق بين الانبياء، فهو ـ في الحقيقة ـ يفرق بينه سبحانه وتعالى وبين أنبيائه، فقد قال عزّ من قائل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾**[1].

إنّ من يؤمن ببعض الانبياء دون بعض، أو من يؤمن ببعض ما جاء عنهم دون البعض الآخر ظنّاً منه بالحصول على طريق جديد ووسط بذلك، فهو ـ في الحقيقة ـ منكر للنبوّة الخاصّة والعامّة وبأصل المبدأ، وهو ما يفسر التعبير في صدر الآية عن هؤلاء بالكافرين به تعالى، حيث يقول عزّ من قائل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾**، فإنكار بعض الانبياء أو إنكار حكمه تعالى القطعي، كإنكار أصل وجوده سبحانه وتعالى، فمن لم يقبل بأصل المبدأ لا يصدر منه قوله: «نؤمن ببعض ونكفر ببعض».

---

١. سورة النساء، الايتان ١٥٠ ـ ١٥١.

إنّ التفريق بين الانبياء عليهم السلام لا يتوافق أبدا مع التوحيد الالهي والايمان بمبدأ العالم؛ فإنّ جميع هؤلاء الانبياء هم رسله سبحانه وتعالى الواحد، فلا يمكن لمن يؤمن بالله سبحانه وتعالى وبأصل الوحي وبالنبوة العامّة أن يفرّق بين الانبياء في النبوّة العامة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[1].

إنّ التفريق بين الانبياء والمرسلين عليهم السلام ليس من قبيل العصيان والاطاعة في موارد «الواجب الاستقلالي» الّذي يذكر في علم الاصول، لكي لا يكون في البين علاقة بين الاطاعة في مورد والعصيان في مورد آخر، بل إنّ سلسلة نبوّة الانبياء من قبيل موارد «الواجب الارتباطي» الّذي يرتبط جميع أجزائه ببعض، بحيث لا يمكن التفريق بين جزء وجزء آخر من تلك الاجزاء.

فكما أنّ ترك جزء من أجزاء الواجب الارتباطي عمدا يبطل جميع ذلك الواجب، فكذلك الحال في ما نحن فيه؛ فإنّ ترك الايمان عمدا بواحد من الانبياء يبطل جميع الايمان ويزيله من الوجود؛ إذ إنّ النبوّة العامّة لا تقبل التفريق.

ولمّا كان التفريق في الجملة ينتهي إلى الانكار الكلّي، فقد ورد في شأن الكفار الذين كفروا بنبيّهم أنّهم قد كذبوا بجميع الانبياء، حيث نسمعه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ...﴾[2]، وعليه، فعلى الانسان الموحّد أن يكون منقادا إلى الحدّ الّذي يصله شعاع الحجّة الالهية، فإن ثبت له شيء تفصيلا، فعليه أن يؤمن بالتفصيل، وإن ثبت له شيء إجمالا، فعلى الإجمال.

**تنويهان:** ١ ـ تساوي الانبياء عليهم السلام جميعا في النبوّة العامّة وأصل النبوّة لا

---

١ . سورة النساء، الآية ١٥٢.

٢ . سورة الحجر، الآية ٨٠.



يعني أنّهم متساوون في درجة النبوّة والرسالة التي يحملها كلّ واحد منهم بدون أيّ فرق في البين، فقد ذكر سبحانه وتعالى الفرق بينهم في الفضل والدرجات في بعض الآيات الشريفة، من قبيل قوله سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[1]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾[2].

التفضيل السابق بين النبيّين من قبله تعالى، يتّسق تماما مع حقّانية جميع هؤلاء عليهم السلام في أصل النبوّة والرسالة؛ فإنّ ذلك التفاضل إنّما هو في درجة النبوّة والرسالة.

٢ ـ إحتمل البعض أن يكون المراد من قوله تعالى: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ...﴾، هو أنّنا لا نقول: إنّهم متفرّقون في أصول الديانات، بل هم مجتمعون على الاصول التي هي الاسلام، كما قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾[3].

والتفسير المزبور إضافة على أنّه لا يتوافق مع ما ورد في الآية الشريفة من قوله تعالى: ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾، فإنّه لا يتوافق مع الآيات الاخرى، وشأن النزول، والاحداث الخارجية والتاريخية، وهو ما قد يكون أدّى بالفخر الرازي إلى عدم قبوله[4].

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٥٣.

٢ . سورة الاسراء، الآية ٥٥.

٣ . سورة الشورىٰ، الآية ١٣.

٤ . راجع: **التفسير الكبير**، ج٣، ص٩٢.





# البحث الروائي

## ١ ـ المخاطب الأصلي بأمر «قولوا»

عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، قال: «**إنّما عنى بذلك عليًّا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وجرت بعدهم في الائمة، ثمّ رجع القول من الله في الناس فقال: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ يعني: الناس ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ﴾ يعني: علياً وفاطمة والحسن والحسين والائمة عليهم السلام، ﴿فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾[1] يعني: الناس**»[2].

**إشارة:** لمّا كان الايمان بالله تعالى وبما جاء أو نزل من عنده، أو آتاه أحدا من الانبياء عليهم السلام بعنوان المعجزة واجبا على الجميع بلا أيّ اختصاص بإمام أو أمّة دون غيرها، فإنّ جميع ما يشعر بالاختصاص في هذا المجال لا بدّ من حمله على المصداق الاكمل، وعدم اعتباره دليلا على الاختصاص في المقام.

## ٢ ـ الأسباط

قال النبي صلى الله عليه وآله: «**إنّ الاسباط كانوا من ولد يعقوب، وكانوا اثني عشر رجلاً**»[3].

ـ قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**... وكان بين هودٍ و إبراهيم من الانبياء عشرة أنبياء... فجري بين كلّ نبيٍّ ونبيٍّ عشرة آباء وتسعة آباء وثمانية آباء، كلّهم أنبياء... حتّى انتهى إلى يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ثمّ صارت**

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٣٧.

٢ . **الكافي**، ج١، ص٤١٥ ـ ٤١٦. **تفسير العياشي**، ج١، ص٦٢، مع بعض الاختلاف. وسيأتي التعرض لهذه الرواية في البحث الروائي للآية اللاحقة للعلاقة بينهما إن شاء الله تعالى.

٣ . **بحار الانوار**، ج٣٦، ص٣١٢.



**بعد يوسف في الاسباط إخوته [في أسباط إخوته خ ل]...**»[١].

ـ عن نشيط بن صالح البجلّي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أكان إخوة يوسف عليه السلام أنبياء؟ قال: «**لا، ولا بررةً أتقياء، وكيف وهم يقولون لأبيهم يعقوب: ﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾**»[٢].

ـ عن سليمان بن عبد الله الطلحي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما حالُ بني يعقوب، هل خرجوا من الايمان؟ فقال: «**نعم**». قلت له: فما تقول في آدم؟ قال: «**دع آدم**»[٣].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إنّ بني يعقوب بعد ما صنعوا بيوسف أذنبوا فكانوا أنبياء؟!**»[٤].

ـ عن الحسن بن أسباط قال: سألت أبا الحسن: في كم دخل يعقوب من ولده على يوسف؟ قال: «**في أحد عشر إبناً له**». فقيل له: أسباط؟ قال: «**نعم**»[٥].

ـ عن حنّان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: كان ولد يعقوب أنبياء؟ قال: «**لا، ولكنّهم كانوا أسباط أولاد الانبياء، ولم يكونوا يفارقون الدنيا الا سعداء، تابوا وتذكّروا ما صنعوا**»[٦].

ـ عن ابن عبّاس قال: «الاسباط بنو يعقوب، كانوا اثني عشر رجلاً، كلّ واحد منهم ولد سبطاً أمّة من الناس»[٧].

---

١ . المصدر السابق، ج١١، ص٤٧.

٢ . **سورة يوسف**، الآية ٩٥. **تفسير العياشي**، ج٢، ص١٩٤. وقد نقلت الرواية عينها مع بعض الاختلاف البسيط في السند والالفاظ في الصفحة ١٩٥ من هذا التفسير.

٣و٤ . **تفسير العياشي**، ج٢، ص١٩٤.

٥ . المصدر السابق، ص١٩٧.

٦ . المصدر السابق، ج١، ص٦٢.

٧ . **الدر المنثور**، ج١، ص٣٣٩.




إشارة: ذهب الكثير من المفسّرين من أمثال الطبري[١] وابن عربي[٢] وغيرهما إلى أنّ الاسباط كانوا أنبياء، بينما أصرّ آخرون على خلاف ذلك، من أمثال الطوسي والطبرسي وغيرهما، ذاهبين إلى أنّ الاسباط لم يكونوا أنبياء وإنما هم أولاد يعقوب وإخوة يوسف؛ فإنهم لم يكونوا معصومين والنبيّ يجب أن يكون معصوما[٣].

ويجب الالتفات إلى أنّه على الرغم من ذكر الاسباط في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث والآية ٨٤ من سورة آل عمران وغيرهما من آي القرآن في عداد أصحاب الفضيلة، إلا أنّه ليس هناك أيّة آية في القرآن الكريم تدلّ على نبوّة هؤلاء، وأمّا الانزال إليهم، فإنّه لا يدلّ بمجرده على كونهم أنبياء؛ إذ يمكن أن يكون ذلك من قبيل الانزال إلى الامّة، كما في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾.

وأمّا الروايات الواردة في المقام، فمع غضّ النظر عن سندها، فإنّها متعارضة يجب عرضها على القرآن الكريم.

إنّ لزوم عصمة الانبياء ونزاهتهم عن أيّ نقص وعيب أصل قرآني بعد عرض الاحاديث عليه، ومن الواضح أنّ إخوة يوسف لا يتمتّعون بصلاحيّة أن يكونوا ممّن يحمل صفة النبوّة التي هي من الصفات الراقية الممتازة، وقد كان من أولاد وأسباط وأحفاد حضرة إبراهيم عليه السلام ـ طبعا ـ صالح وطالح، محسن وظالم...، فمن كان محسنا وصالحا، فقد شمله أو يشمله فيض الامامة الالهية الخاص، وأمّا من كان طالحا وظالما منهم، فلن يصل إلى ذلك المقام الشامخ، وما دامت الرواية الموافقة للقرآن هي المقدّمة على غيرها حين المعارضة، فإنّ الاحاديث التي تنفي نبوّة الاسباط هي المقدّمة في المقام.

* * *

١ . **روح البيان**، ج١، ص٦١٨.
٢ . **رحمة من الرحمان**، ج١، هامش ص٢٠٨.
٣ . **التبيان**، ج١، ص٤٨٢ ـ ٤٨١. **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٤٠٥.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

## التفسير المختار

الدين الالهي الاوحد هو الاسلام، ولّما لم يكن له مماثل في حقّانيته، فالمهتدي هو من يؤمن بهذا الدين دون غيره، ومن يعرض عن هذا الطريق الاوحد للهداية، فلم يكن على إيمان كإيمان المسلمين، فأخرج نفسه عن زمرتهم، فهو خارج عنهم داخل في شقّ آخر غير شقّهم، وهو مهدّد من قبله تعالى بعذاب النار والعقوبة الشديدة.

وقد وعد سبحانه وتعالى المؤمنين إصافةً على كفايته الخاصّة للرسول الاكرم ﷺ والمؤمنين، بالنصر والغلبة، وأوعد الكفار وأهل الشقاق وهددهم بالهزيمة والانكسار.

الله السميع العليم المحض يسمع كلام أهل الشقاق والنفاق، وكلام المسلمين، ويعلم ما يسر كلّ منهم.

## تفسير المفردات

**شقاق**: وقع اختلاف في اشتقاقِ الشقاق. وهذا اللفظ اسم مصدر من أصل شَقَّ يَشُقُّ شَقّاً (الانصداع وجعل الشيء نصفين، وجعل الفرجة في الشيء)،

ويطلق على العداوة الناتجة عن النزاع والاختلاف والانصداع[١]. ومن هذا القبيل ما جاء في الآية الّتي هي محلّ البحث، حيث قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾، والمعنى: في حالة تولّيهم وإدبارهم عنكم، فلن يكون منهم إلا العداوة والبغضاء.

وأمّا تنوين شقاق، فإنّه لأجل التفخيم وبيان الاهمّية.

ويستفاد من متابعة موارد استعمال هذا اللفظ أنّه قد استفيد منه أحيانا بالمعنى المصدري أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾[٢]، فمع الالتفات إلى أنّ ياء المتكلّم في ﴿شقاقي﴾ مفعولٌ به لشقاق، فمعنى الآية سيكون حينئذ هو: لا تؤدّ عدواتكم لي بكم إلى... .

والمعنى التكويني للفظ هو الكون في شق آخر، نظير الكون في حد آخر في لفظ (المحادة)، والجانب الآخر في (المجانبة)، وأمّا المعنى الاخلاقي والاجتماعي للفظ، فهو اتّخاذ موضع العداوة وقصد الفتنة وايجاد الصدع.

وبأيّ معنى كان الشقاق، فإنّه إذا استعمل مع كلمة «في»، فإنّه سيكون ظاهرا في أنّ خطر الشقاق بمنزلة بئر ركس فيه المبتلون به، نظير تعبير: ﴿...فِي ضَلالٍ﴾[٣]، وتعبير: ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾[٤]، وتعبير: ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[٥] وغيرها من التعبيرات، خلافا لموارد عدم ورود كلمة «في»، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقْ اللهَ وَرَسُولَهُ فإنّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٦].

---

١. راجع: المصباح، ج١ ـ ٢، ص٣١٩. معجم مقاييس اللغة، ج٣، ص١٧٠. التحقيق، ج٦، ص١٠٥، «ش ق ق».
٢. سورة الهود، الآية ٨٩.
٣. سورة الأنعام، الآية ٧٤.
٤. سورة الاعراف، الآية ٦٦.
٥. سورة الأنعام، الآية ٩١.
٦. سورة الأنفال، الآية ١٣.

## تناسب الآيات

ليس للآية الكريمة الّتي هي محلّ الكلام ارتباط مباشر بالمناقشة التي وقعت بين المسلمين من جهة واليهود والنصارى من جهة اخرى، وإنّما هي في مقام بيان بعض آثار الايمان الراسخ الحقيقي، وهذا ما جعل أستاذنا العلامة الطباطبائي تتئُن[1] وبعضاً آخر من المفسرين[2] يعتبر الآية جملة معترضة.

من الطبيعي أنّ تناسب الآية الّتي هي محلّ الكلام مع سابقها ولاحقها محفوظ على الرغم ممّا تقدم، بالبيان التالي:

بعد أن تعرضت الآية السابقة إلى بيان معيار الملّة الحنيفة، وإلى ثمرة تبعيّة الدين الابراهيمي، تأتي الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام لتشير إلى ما يرتبط باليهود والنصارى في هذا المجال، بمعنى: أنّ من يتخلّص من هؤلاء من الأنانيّة وحبّ الذات والنعرات العصبية والقبلية فيؤمن كما آمنتم أنتم أيّها المسلمون (كما تقدم في الآية السابقة)، فيسلم الاسلام الاصيل ولا يفرّق بين الانبياء، فينقاد الانقياد التامّ لجميع الاوامر الالهيّة، فهو من المهتدين حينئذ، وإلا، فليعلم من كان كذلك أنّه قد خرج عن حيطة الاسلام والمسلمين، وعن حيطة الحقّ، وتلوّث بلوث العداوة والبغضاء والنزاع.

❋ ❋ ❋

## الدعوة إلى الإيمان بالأصول المشتركة

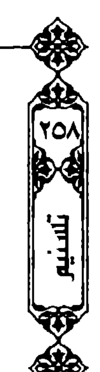
إنّ الاسلام هو دين الله سبحانه وتعالى الاوحد، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الاسْلامُ**﴾[3] والاسلام هو ما أمر الله سبحانه تعالى الجميع بالايمان به

---

١ . الميزان، ج١، ص٣١٢.

٢ . تفسير التحرير و التنوير، ج١، ص٧٢٠.

٣ . سورة آل عمران، الآية ١٩.




وإظهاره، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1]، وكلّ دين غير ذلك فليس من الاسلام في شيء، فقد ورد عنه سبحانه وتعالى بعد آية بالمضمون السابق[2] قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الاسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الاخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[3]، ومن هنا، فقد قال للمؤمنين: ﴿فإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ كما اهتديتم. والتعبير بقوله تعالى: ﴿اهتدوا﴾، إنّما هو في قبال ما ادّعاه اليهود والنصارى في ما تقدّم من قولهم: «كونوا هوداً أو نصَارى تهتدوا».

ولأجل ألّا يكون في البين تحميل، ولأجل ألّا يرفض اليهود ما دعاهم إليه المسلمون بداعي اللجاج، لم يعبّر سبحانه وتعالى بقوله: «فإن آمنوا بما آمنتم به»، بل عبر بقوله: ﴿بِمِثْلِ...﴾.

وأمّا التبكيت والتعجيز الّذي ذهب إليه الزمخشري وحسّنه غيره من المفسّرين من قبيل أبي حيّان في تفسيره[4]، فإنّه وإن كان محتملا ذا صبغة فنية في نفسه، إلا أنّ استفادته من الآية المباركة تحتاج إلى عناية لا دليل عليها في المقام.

قال سبحانه وتعالى: المسلمون مؤمنون بالحقائق المذكورة، ولو كان إيمان غيرهم كإيمانهم، فإنّ إيمان هؤلاء حقّ وهم من المهتدين، ومن هنا، نرى أنّ الرسول الاكرم ﷺ يدعو أهل الكتاب إلى الاصول المشتركة بين جميع الشرائع: ﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾[5]، ولم يدّع ﷺ أنّ تلك

١ . سورة البقرة، الآية ١٣٦.

٢ . سورة آل عمران، الآية ٨٤.

٣ . سورة آل عمران، الآية ٨٥.

٤ . تفسير البحر المحيط، ج١، ص٤١٠.

٥ . سورة آل عمران، الآية ٦٤.




الاصول هي حكر علينا فآمنوا بما لدينا من أصول واستندوا إليها، وفي الواقع أنّ مفاد هذه الآية قريب من مفاد الآية الّتي هي محلّ الكلام.

ظاهر الآية هو ما بيّناه، إلا أنّ من الممكن أن يكون مفادها هو ما أشار إليه الزمخشري وغيره من المفسرين من التبكيت[1] الّذي أشرنا إليه قبل قليل، ليكون المعنى: إن آمن أهل الكتاب بدين حقّ مماثل ومساو لدين الاسلام في الصحة والحق والسداد، فقد اهتدوا، ولكن، لمّا لم يكن هناك مماثل من القبيل السابق، ولا دين حقّ إلا دين الاسلام، فلا يوجد إذاً دين آخر يماثل دين الاسلام في كونه حقاً، حتّى يكونوا مهتدين إن آمنوا بذلك الدين المماثل له.

ومن اللازم الالتفات إلى أنّ السرّ في دعوة هؤلاء إلى الايمان المماثل، هو الاشارة إلى أنّ المبتلين بالتثنية: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾[2] والمبتلين بالتثليث: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾[3]، والوثنيين المبتلين بالقسمة الضيزى واعتبار الملائكة بنات له تعالى، كلّ أولئك مبتلون بالتشبيه والتجسيم، والحلول، والاتّحاد وما شابه ذلك، وأنّ ذلك التشبيه لن يكون كالتنزيه الطاهر أبدا. وإنما يكون إيمان هؤلاء مماثلا للايمان الراسخ للمؤمنين الواقعيين، إذا هاجروا من التشبيه الباطل إلى التنزيه الحقّ.

والمغزى أنّ الدعوة الالهية مترافقة مع التكريم، بمعنى. أنّه لم يكن ما ورد هو: «آمنوا بما آمنا به» لكي يقولوا جوابا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ...﴾[4].

---

١ . الكشاف، ج١، ص١٩٥.

٢ . سورة التوبة، الآية ٣٠.

٣ . سورة المائدة، الآية ٧٣.

٤ . سورة البقرة، الآية ٩١.

**والحاصل**: ١ ـ الدين الحقّ الوحيد هو الاسلام، والطريق الوحيد للهداية هو التدين والايمان بذلك الدين.

٢ ـ لا مماثل للدين الحقّ، بمعنى: ليس هناك دين يشترك مع حقيقة الاسلام في جامع مشترك ذاتي يجتمع الدينان تحته.

٣ ـ سرّ امتناع التماثل، وأن الاسلام ﴿**ليس كمثله شيء**﴾، هو أن المبدأ والمعاد في الاسلام هو الله سبحانه وتعالى، كما أنّ النبوّة والرسالة العامة، وكذا الخاصّة أيضاً، أمر محدود مشخّص، ولمّا لم يكن لهذه الحقائق العينيّة مماثل أبدا، فلن يكون للاسلام ـ وهو الدين الحقّ والقانون الصدق ـ مماثل أيضاً.

٤ ـ تديّن فرد بالدين الواحد يماثل تديّن الفرد الآخر بذلك الدين، بمعنى: أنّ تديّن فرد بالاسلام بجميع ما له من عناصر محورية مثل إيمان فرد آخر بذلك؛ من جهة أنّ أولئك الافراد مصاديق من نوع واحد، فينطبق عليهم تعريف التماثل.

٥ ـ لمّا كان التماثل في أفراد التديّن ومصاديقِ الايمان ممكنا، كان ذلك ممكنا في أفراد الاهتداء ومصاديقه أيضاً، فلو كان إيمان هؤلاء مثل إيمانكم، لكان اهتداؤهم مثل اهتدائكم أيضاً.

**تنويه**: دكر في مجال قوله تعالى: ﴿**بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ**﴾ وجوه، منها:

أ ـ زيادة حرف «الباء».

ب ـ زيادة حرف «الباء» وكلمة «مثل»، من قبيل زيادة «الكاف» في قوله تعالى: ﴿**كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**﴾[1].

ج ـ ليس هناك أيّة زيادة، فيكون المعنى: «بمثل هذا».

---

١ . سورة الفيل، الآية ٥.



والوجه الثالث أفضل من الوجه الاوّل، والوجه الثاني أضعف الوجوه الثلاثة، بالتوضيح التالي:

إنّ روح تعبير ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ ترجع إلى «بمثل إيمانكم»، وعليه، فليس المقصود هو الايمان بمثلِ متعلّقِ إيمان المؤمنين لكي يقال بأنّ متعلّق إيمان المؤمنين هو الله، والله لا مثل له ولا نظير، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]، وعليه، فتكون «مثل» في الآية الكريمة زائدة[2].

نقل الطبري والشيخ الطوسي رواية عن ابن عباس، وهي أنّه قال: «لاتقولوا: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به؛ فإنّه ليس لله مثل، ولكن قولوا: فإن آمنوا بالذي آمنتم به». ثم ذكرا أنّ هذه رواية شاذّة مخالفة لما أجمع عليه القرّاء، ومتى صحّت، فالوجه فيها أن يكون أراد أن يفسر المعنى، فكأنّه قال: لا تتأوّلوه على الجعل لله عز وجل مثلا، فإنّه شرك، لكن تأوّلوه على ما يصح تأويله[3].

وهناك قراءات عديدة للآية الّتي هي محلّ البحث أيضاً، وقد نقل الفخر الرازي ـ بعد ما ذكرناه قبل قليل من رواية ابن عباس ـ عن القاضي قوله: «لا وجه لترك القراءة المتواترة من حيث يشكل المعنى ويلبس؛ لأنّ ذلك إن جعله المرء مذهباً، لزمه أن يغيّر تلاوة كلّ الآيات المتشابهات، وذلك محظور»[4].

ويستفاد من جامع القرطبي أنّ المقصود من اختلاف القراءت في موارد من قبيل ما نحن فيه من آية شريفة، هو الاختلاف في التأويل والتفسير وليس شيئا آخر[5]، وعليه، فلا يمكن توهّم سهولة التحريف اللفظي من جهة اختلاف القراءة.

---

١ . سورة الشورىٰ، الآية ١١.

٢ . الجامع لأحكام القرآن، مج١، ج٢، ص١٣٣.

٣ . جامع البيان، ج١، ص٤٤٣. التبيان، ج١، ص٤٨٤.

٤ . التفسير الكبير، ج٣، ص٩٣.

٥ . الجامع لأحكام القرآن، مج١، ج٢، ص١٤٢ ـ ١٤٣.




## اِعراض أهل الشقاق عن طريق الهداية

إنّ طريق الهداية واحد كما تقدم، فإن آمن اليهود والنصارى كإيمان المسلمين، فسيكونون مهتدين أيضاً يسيرون مع المؤمنين على طريق واحد، وإلا، فسيعلم أنّهم على شقاق لا وفاق.

وبانفصالهم عن المسلمين، فإنّهم سيؤدّون بذلك إلى شقّهم المجتمع بجعلهم الفرجة بينهم وبين غيرهم، فيكونون في شقّ والمسلمون في شقّ آخر غير ذلك الشق، لتكون النتيجة سقوطهم في وادي النفاق: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾.

إنّ الاعراض عن المجموع يؤدّي أحيانا إلى الاعراض عن الجميع، كما أنّه يؤدّي أحيانا أخرى إلى الاعراض عن البعض لا الجميع، تبعا لطبيعة ما يعرض عنه الفرد ممّا للجميع، فإنّه يصدق على المصداقين الاعراض عن المجموع من حيث المجموع.

من الجدير بالذكر، أنّه بناء على ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ «الشقاق» مأخوذ من «المشقّة»[1]، فإنّ جملة (فإنّما هم في شقاق)، سيكون معناها أنّ المعرضين يبذلون جهدهم لإيقاع أندادهم في المشقّة والعذاب، فهذه المجموعة إن لم تكن على الصراط المستقيم، فإنّها بصدد قلب النظام الالهي المستقيم، ليضعوا من لا يلتقي معهم في العقيدة بالنتيجة في المشقّة والعذاب.

## تمتّع المؤمنين بالكفاية الالهية الخاصّة

تعرّضت بعض الآيات القرآنية الشريفة إلى خصوص التهديد والوعيد لأهل الشقاق، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ

---

١ . التبيان، ج١، ص٤٨٤.



الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2]، بينما تعرّضت آيات أخرى إلى خصوص وعد المؤمنين، وأمّا جملة ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللهُ﴾، فقد اشتملت على مطلبين: أوّلهما: الوعد بالنصرة وبانتصار المسلمين، وثانيهما: الوعيد للكافرين والتهديد لأهل الشقاق.

والقاعدة العامّة بتمتّع المؤمنين بالكفاية الالهية الخاصّة، هي أنّ فردا مّا لو صار «عبدا» له تعالى، فإنّه تعالى سيكفيه أعماله، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[3]، وقال عزّ من قائل: ﴿فإنّ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ﴾[4]، وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾[5].

وينجز الله سبحانه وتعالى ما وعد به المؤمنين من كفايتهم، وهذا الوعد الّذي بيّن بالفعل المضارع الدال على الاستمرار: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللهُ﴾، باق مستمر، ليكفي الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالمساعدات المادية والمعنوية على طول التاريخ.

**تنويهات:** ١ ـ الكفاية من الاعداء إنّما هو لأجل عدائهم لا بسبب ذواتهم، وعليه، فالكفاية منسوبة إلى ذواتهم بلحاظ ما عليه وصف العداوة من أهمية وحساسية، يعني: «فسيكفي شقاقهم»[6].

٢ ـ مع الاعلان عن حالة أعداء الاسلام من كونهم على شقاق وعناد، توفّرت الارضيّة لاضطراب المسلمين وقلقهم من هؤلاء المنشقين؛ إذ كان هؤلاء

---

١ . سورة النساء، الآية ١١٥.

٢ . سورة الأنفال، الآية ١٣.

٣ . سورة الزمر، الآية ٣٦.

٤ . سورة التوبة، الآية ١٢٩.

٥ . سورة الأنفال، الآية ٦٤.

٦ . تفسير البحر المحيط، ج١، ص٤١٠.

على قدر كبير من العدد والقوة والتجهيزات الهجومية، وحياكة المؤامرات الداخلية والخارجية، وغيرها من الامور، إلا أنّ الوعد الالهي بالكفاية لم يبق أرضيّة الاضطراب والقلق فحسب، بل كان السبب الباعث على طمأنينة المسلمين وبثّ السكينة في قلوبهم.

٣ ـ السنة الالهية بكفاية المؤمنين لا تختص بجيل دون جيل آخر منهم، كما أنّها لا تقف على عصر دون عصر آخر أو مصر دون آخر، بل هي سنّة جارية في كلّ أرض وبأيّ لسان كان النقاش، بشرط أن يكون المسلمون متمتّعين بالايمان الحقيقي الراسخ، فذلك الوعد وعد إلهي لا يقبل التخلّف.

٤ ـ تعرّض القرآن الكريم لجملة من مصاديق الكفاية الالهية الخاصّة التي سنتعرّض لها بالتفصيل في مبحث الاشارات واللطائف إن شاء الله تعالى.

وبتعرّض الآيات القرآنية الشريفة إلى بعض مصاديق الكفاية الالهية الخاصّة، يتّضح الجواب على بعض ما شكّك فيه بعض الملحدين في مجال إعجاز هذا الوعد الالهي؛ فقد ذكر هؤلاء أنّ المعجز هو الّذي يكون ناقضاً للعادة، وقد جرت العادة بأنّ كلّ من كان مبتلى بإيذاء غيره فإنّه يقال له: «إصبر، فإنّ الله يكفيك شره»، ثم قد يقع ذلك تارة وقد لا يقع أخرى، وإذا كان هذا معتاداً فكيف يقال بأنّه معجز؟![1]

والجواب ـ كما نبّه عليه الطبري والشيخ الطوسي والشيخ الطبرسي[2] ـ : أنّه بعد ثبوت اعجاز القرآن الحكيم بالنسبة إلى حقّانية هذا الوعد الالهي الّذي جاء بصورة الاخبار الغيبي عن المستقبل القطعي، فإنّه لن يبقى أيّ ترديد وتشكيك في المقام، ومع غضّ النظر عن مسألة إعجاز القرآن الكريم، فإنّ الوعد القطعي

١ . التفسير الكبير، ج٢، ص٨٥.

٢ . جامع البيان، ج١، ص٤٤٤. التبيان، ج١، ص٤٨٤. مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤٠٦.



في ظروف صعبة قاهرة، وتحقّق ذلك الموعود به، سيكون بأعين الاعداء المعاندين الذين ما فتئوا ينتظرون تخلّف ذلك الوعد، علامة على الاطلاع الثابت على المستقبل المجهول من قبل النبي ﷺ، فيكون علم الغيب من جهة، وتملّك القدرة القاهرة من جهة أخرى، علامة على النبوّة ودليلا عليها.

### كفاية الله السميع والعليم

«السميع» و«العليم» اسمان من أسمائه سبحانه وتعالى الحسنى، فسبحانه وتعالى ـ وهو السميع والعليم المحض ـ يسمع كلام أهل الشقاق والنفاق، كما أنّه يسمع دعاء المسلمين وابتهالهم، وهو يعلم ما بدواخل كلّ واحدة من الطائفتين، فهو ﴿السميع العليم﴾.

وأمّا استقلال «السميع» و«البصير» عن «العليم» أو اندراج هذين تحت عنوان «العليم»، فهو مبحث خاص في فنّ الاسماء، وله بحث خاص في الحكمة والكلام.

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ ذكر عنوان «العليم» بعد ذكر عنوان «السميع»، يستظهر منه أنّ معنى «السميع» أمر غير العلم بالمسموعات[1]، والموقف النهائي من هذا المذهب من وظائف فنّ الحكمة.

## إشارات ولطائف

### ١. تهديد أهل الشقاق بالعقوبة الشديدة

تعرّض القرآن الكريم إلى مسألة «الشقاق» في موارد متعددة، مهدّدا اهل الشقاق أشدّ تهديد.

---

١ . التفسير الكبير، ج٤، ص٨٥.





وما جاء في هذا المجال في ما نحن فيه من الآية الكريمة، هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾، والتي تمثّل صغرى قياس ذكرت كبراه في آيات كريمة اخرى، من قبيل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[1]، فمن يعرض عن الحقّ ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾؛ فالانسان مهما يختاره من طريق، ومهما انتخب من وجهة ـ حتّى لو كانت الوجهة جهنم ـ فإنّه على الرغم من كون ذلك الانسان هو المختار، إلا أنّه تعالى هو الآخذ بذلك الانسان، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[2].

وهذه الكبرى التي تهدّد أهل الشقاق بحبط الاعمال، وعذاب جهنّم والابتلاء بالعذاب الشديد، قد ذكرت في آيات أخرى مع بعض صغرياتها، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾[4]، وقوله عزّ من قائل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقَّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[5].

وبعض هذه الآيات وإن كانت قد نزلت في المشركين، إلا أنّه لا فرق في شمول تلك الكبرى الكلية المذكورة في تلك الآيات بين كون المشاقّ كافرا أو من أهل الكتاب ما دام مشاقا.

---

١ . سورة النساء، الآية ١١٥.
٢ . سورة البقرة، الآية ١٤٨.
٣ . سورة الأنفال، الآية ١٣.
٤ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٣٢.
٥ . سورة الحشر، الآية ٤.

## ٢ ـ الكفايات الالهية الخاصّة

كان نجاح جميع الانبياء والديانات الالهية بالامدادات الغيبية لا بالسيف، وإن كان بعض الهمّة والحركة لازما في هذا المجال.

وقد يكون للكفاية الالهية والمدد الغيبي تأثير مادّي في بعض الاحيان، من قبيل طوفان الرمل الّذي أخذ بالاعداء وتجهيزاتهم في حرب الاحزاب، كما أنّها قد يكون لها أثر معنوي أحيانا اخرى، من قبيل بعث السكينة في قلوب المؤمنين وتثبيت أقدامهم وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين والمشركين، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[1].

ونشير هنا إلى بعض مصاديق الكفاية الالهية الخاصّة التي تعرّض لها القرآن الكريم في موارد متعددة:

١ ـ كان النبيّ الاكرم ﷺ مأمورا بالدعوة السرية لا العلنية في بداية نبوته، وبعد أن أتاه الامر بالاعلان بالدعوة، وعده سبحانه وتعالى بأن يكفيه شرّ المشركين والمستهزئين، قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[2].

٢ ـ وفي حرب بدر التي لم يكن من المتيسّر للمسلمين فيها النصر بالطرق والاسباب العادية، كفى الله سبحانه وتعالى المسلمين بالملائكة، بحيث لم يكن حتّى المسلمون متوجّهين إلى كيفية ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ الافٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾[3].

---

١ . سورة الأنفال، الآية ١٢.

٢ . سورة الحجر، الآيات ٩٤ ـ ٩٥.

٣ . سورة آل عمران، الآيات ١٢٣ ـ ١٢٤.

٣ ـ وأمّا في حرب الاحزاب، فقد كفى الله سبحانه وتعالى المسلمين بحيث لم يضطرّوا حتّى إلى القتال، فقد أرسل الله الرياح العاصفة الباردة والعواصف الرملية التي ملأت قلوبهم بالرعب وأجبرتهم على الفرار بدون أيّ قتال، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[١]. وأمّا من كان يطلب النزال من المشركين ممّن عبر الخندق، فقد هرب والرعب يملأ قلبه بعد هلاك عمرو بن عبدِ وَدّ بيد أمير المؤمنين عليه السلام.

## البحث الروائي

### ١ ـ ضرورة تحصيل الايمان المماثل لإيمان الائمة عليهم السلام

عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾[٢]، قال: «إنّما عنى بذلك عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وجرت بعدهم في الائمّة، ثمّ يرجع القول من الله في الناس، فقال: ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ يعني: النّاس، ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ﴾ يعني: عليّاً وفاطمة والحسن والحسين والائمّة عليهم السلام، ﴿فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾، يعني: الناس»[٣].

إشارة: مضت الرواية في البحث الروائي للآية السابقة، فليراجع.

### ٢ ـ كفر أهل الشقاق

روي عن الصادق عليه السلام [في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾] إنّه قال: «يعني: في كفرٍ»[٤].

---

١ . سورة الاحزاب، الآية ٢٥.
٢ . سورة البقرة، الآية ١٣٦.
٣ . الكافي، ج١، ص٤١٥ ـ ٤١٦. تفسير العياشي، ج١، ص٦٢، مع بعض اختلاف.
٤ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤٠٦.




**إشارة:** هذا الحديث ناظر إلى الحيثية الكلامية للتولي عن الدين والاعراض عن الاسلام والانحراف عن طرق الانبياء، وأمّا الحيثية الفقهية والحقوقية والسياسية والاجتماعية للشقاق والعداوة، فهو على عاتق الادلة الاخرى التي ورد بعضها في الآيات القرآنية الشريفة وبعضها الآخر في بعض الروايات ويؤيّدها التاريخ أيضاً.

* * *

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

# التفسير المختار

يخاطب الله سبحانه وتعالى الجميع ـ وخاصة أهل الكتاب الذين يقومون بغسل أولادهم غسل التعميد بماء ملون[1] ـ بالقول: إصطبغوا بصبغة الاسلام التي تطهّر الانسان من أيّ لون من ألوان الالواث، والتي تظهر آثارها على الموحّد الخالص، فلا لون أحسن من اللون الالهي فاقد اللون؛ إذ ليس لأحد أن يصبغ أحلى وأجمل من صبغته تعالى، الصبغة الباعثة على تزكية النفس، وإثارة الفطرة الالهية الدفينة وإحيائها.

و«صبغة الله» عند المسلمين؛ إذ لا يعبده سبحانه وتعالى حقّ عبادته إلا هؤلاء، العبادة الثابتة الدائمة.

## تفسير المفردات

صِبْغَة: على وزن جِلْسَة (بكسر الجيم)، مصدر نوعي بمعنى نوع من أنواع الصبغ التي توجد الاختلاف والفرق.

وفي ما يرجع إلى عامل نصب «صِبْغَةَ» في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ الله﴾ يحتمل وجوه، فقد ذكر البعض أنّ ذلك لكون ﴿صِبْغَةَ الله﴾ بدلا تفسيريا لـ

---

١ . باعتقاد أن ذلك يطهّرهم من الذنب الذاتي الموروث من آدم عليه السلام!! (المترجم).



﴿ملّة إبرهيم﴾[1]، فقالوا بأنّ ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ بمعنى: «بل اتّبعوا ملّة إبراهيم حنيفا»[2].

ولو بنينا على هذا الاحتمال، فإنّ ما بين الآيتين ١٣٦ ـ ١٣٧، سيكون مجموعة من الجمل المعترضة التي لا يمكن عطفها على الآية السابقة.

وأمّا الاحتمال الآخر، فهو أنّه لمّا كان يمكن لقوله تعالى: ﴿صبغة الله﴾ أن يكون مؤكّدا لمتعلقِ قوله تعالى: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ...﴾[3]، فإنّ الناصب له هو ﴿ءَامنّا بالله﴾ نفسه[4].

والاحتمال الثالث في المقام، هو أن تكون ﴿صبغة الله﴾ كـ ﴿فطرة الله﴾ في الآية ٣٠ من سورة الروم، منصوبة على الاغراء[5]، فيكون التقدير: «إتبعوا والزموا صبغة الله»[6]، فكما قال الله سبحانه وتعالى للانسان: «خذ حقيقتك وفطرتك واحفظهما»، قال أيضاً: «خذ صبغة الله».

## تناسب الآيات

تعتبر هذه الآية الشريفة تتمّة وتأكيدا وتوضيحا لما مضى في الآية ١٣٦ من خطاب مع اليهود والنصارى، فكأنّما قيل: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ...﴾ وصَبَغَنَا الله صِبْغَةً[7].

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٣٥.
٢ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤٠٧.
٣ . سورة البقرة، الآية ١٣٦.
٤ . الكشاف، ج١، ص١٩٦. التفسير الكبير، ج٤، ص٨٧، نقلا عن سيبويه.
٥ . إطلاع المخاطب بأمر مطلوب لكي يلازمه. (المعجم الوسيط، ص٦٥١، «غ ر ي»).
٦ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤٠٧.
٧ . راجع: تفسير أبي السعود، ج١، ص٣٠٣.

وأمّا بناء على الاحتمال السابق الذكر، وهو كون «صبغة الله» بدلا تفسيريا لـ ﴿ملّة إِبْراهيم﴾[1]،[2] فكأنّما قيل: إنّ دين إبراهيم وملّته هي صبغة الله وتطهيره وتزيينه سبحانه وتعالى.



## الصبغة الالهية

المراد من «صبغة الله» هو دين الاسلام، والتعبير عن دين الله بالصبغة يمكن أن يكون استعارة، والمصحّح لهذا المجاز والداعي إليه هو «المشاكلة»، وهي من المحسّنات البديعية؛ فإنّ أهل الكتاب قد دأبوا على غسل أولادهم «غسل التعميد» بماء ملوّن ظنّا منهم أنّهم يطهرون بهذا التغسيل، فأخبر الله سبحانه وتعالى بأن يتخذوا لون الله الّذي لا لون له، والذي يطهّر الانسان من كلّ لوث ولون، وكما يظهر أثر اللون على الجسد، فإنّ آثار الاسلام والايمان وعلائمهما تنعكس على حياة الانسان وواقعه.

التوحيد والتسليم في مقابله سبحانه وتعالى، والايمان بعلوم الانبياء العالية هي التي يمكنها تطهير البشر من الالواث والاخباث لتضفي عليه أفضل وأحسن صبغة وزينة، لا الماء الاصفر الّذي يسمّى ـ حسب بعض النقولات ـ «المعمودية»، والذي يغمسون المولود فيه من أجل التطهير كما يدّعون[3]، ولا ذلك اللون الّذي يصبغ به كلّ واحدٍ من اليهود والنصارى مواليدهم[4].

١. سورة البقرة، الآية ١٣٥.
٢. راجع: روض الجنان، ج٢، ص١٨٩.
٣. راجع: تفسير أبي السعود، ج١، ص٣٠٣.
٤. راجع: روض الجنان، ج٢، ص١٨٨.



**نكتة: ١** ـ ليس المقصود من الصبغة نوع صبغة طبيعية؛ فإنّ جميع ألوان الجمادات والحيوانات والنباتات والانسان هي من خلقته سبحانه وتعالى، وقد ذكرت قدرته سبحانه وتعالى المعجبة والباهرة في تعدّد الالوان واختلافها باعتبارها آية من آياته سبحانه وتعالى في آي القرآن الكريم، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالارْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿**مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا** * ... **مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ**﴾[2]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام في النهج الشريف: «... على اختلافها في الاصابيغ»[3]، وقال أيضاً: «... بخلاف ما صُبِغَ»[4]، وجميع هذه الاصباغ تنتسب إليه سبحانه وتعالى، وهو ما يعني عدم اختلاف فيما بينها وإن كان بعضها يبعث في النفس السرور كما جاء في قوله تعالى: ﴿**بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ**﴾[5].

٢ ـ ﴿**صبغة الله**﴾ سبحانه وتعالى إذا كانت الاضافة فيها لاميّة، فإنّ المعنى سيكون حينئذ: التحوّل المعنوي والروحاني من جانب المؤمنين من أجله سبحانه وتعالى، وأمّا إذا كانت الاضافة بمعنى «مِن»، فإنّ المعنى سيكون حينئذ هو الصبغ المعنوي من جانبه تعالى للمؤمنين.

ونظم الآيات وسياقها يقتضي المعنى الثاني؛ فإنّ إرسال الرسل وإنزال الكتاب صبغ خاص من جانبه تعالى يبعث على تغير المجتمع ومسيرته باتجاه السعادة، لتكون النتيجة تحقّق العبودية التامّة التي تعتبر قمّة الكمال ومنتهاه[6].

---

١ . **سورة الروم**، الآية ٢٢.

٢ . **سورة فاطر**، الآية ٢٧ ـ ٢٨.

٣و٤ . **نهج البلاغة**، الخطبة ١٦٥.

٥ . **سورة البقرة**، الآية ٦٩.

٦ . راجع: **التحقيق**، ج٦، ص٢١٦، «ص ب غ».

## أجمل الصّبغ

ليس هناك لون أفضل من لونه تعالى؛ إذ ليس هناك من يحسن الصبغ أحسن وأجمل منه تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾.

توضيح ذلك: كلّ ما صدق عليه عنوان (شيء) فإنّه مخلوق من مخلوقاته تعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كلّ شَيْءٍ﴾[1]، وكلّ ما كان مخلوقا له تعالى، فقد خلقه سبحانه وتعالى على وجهه الاحسن: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[2]، وعليه، فوجود نظام للوجود بحيث يكون أجمل من ذلك النظام الّذي خلقه الله سبحانه وتعالى يعدّ أمرا مستحيلا؛ إذ لو كان ذلك ممكنا ولم يخلقه الله سبحانه وتعالى، فإنّ منشأ ذلك إمّا أن يكون الجهل أو العجز أو البخل، ولمّا كانت جميع هذه التوالي فاسدة مستحيلة عليه سبحانه وتعالى، فالمقدّم ـ لا جرم ـ يكون كذلك باطلا أيضاً، وعليه، يستحيل خلق عالم أجمل ممّا خلقه تعالى.

والمقصود من الحُسن والجمال ـ طبعا ـ ليس الجمال الحسّي المقصود في قوله تعالى: ﴿وَالانْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[3]، بل المقصود الحُسن الوجودي من جهة، والحُسن الاخلاقي والفقهي والحقوقي من جهة أخرى، بحيث يعتبر ذلك الحُسن الوجودي ظهيرا لهذا الحُسن الاخلاقي.

كما أنّ الدين من خلقته سبحانه وتعالى أيضاً، خلقه من أجل تربية الانسان الّذي قال في خلقه: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[4]، وقد اختار سبحانه وتعالى

---

١ . سورة الرعد، الآية ١٦.

٢ . سورة السجدة، الآية ٧.

٣ . سورة النحل، الآية ٥ ـ ٦.

٤ . سورة المؤمنون، الآية ١٤.



أحسن الاديان، وهو دين الملائكة، ومن هنا نسمعه تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ الله صِبْغَةً﴾، وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ الله حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[١]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[٢].

والمقصود من قوله تعالى ﴿أَحْسَنُ﴾ هو التعيين لا التفضيل؛ فإنّ الاسلام حقّ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الحقّ إِلَّا الضَّلالُ﴾[٣]، ومن هنا نسمعه تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الاسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[٤]، وعليه، فليس غير صبغة الله صبغة حقّ وصِدق وحسن، ما يعني أنّ الاستفهام المعمول في الآية يستبطن الانكار أيضاً.

وأمّا سرّ انحصار الحُسْن في الصبغة الالهية، فهو أنّ هذه الصبغة هي أساس تزكية النفس والباعث على إثارة الفطرة الدفينة وإحيائها بالتبع، وأمّا غير هذه الفطرة، فإنّه أساس تدسيس النفس كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٥]، كما أنّها الباعثة على دفن الفطرة وإطفاء مصباح الهداية الداخلي للانسان، والتقابل بين الاحياء والاماتة من التقابل بين الحَسَن والقبيح لا من التقابل بين الحَسَن والاحْسَن.

**نكتة:** ذهب البعض إلى أنّ الصبغة هي الماء الّذي كان اليهود يستفيدون منه بعنوان غسل التوبة، وأمّا النصارى، فقد كانوا يتطهّرون من نهر الاردن، مدعين أنّ ذلك كان سنّة حضرة يحيي بن زكريا عليه السلام، وقد كانوا يسمون ذلك بـ «معمُوذيت»، أو «معموذيتا» بزيادة الالف أحيانا، والتي صارت بعد التعريب «معموديّة». فأصل الصبغة كان عند اليهود، إلا أنّه استمرّ عند النصارى،

---

١ . سورة المائدة، الآية ٥٠.

٢ . سورة النساء، الآية ١٢٥.

٣ . سورة يونس، الآية ٣٢.

٤ . سورة آل عمران، الآية ٨٥.

٥ . سورة الشمس، الآية ١٠.




ولا يعلم بداية تاريخه[١].

وقد احتمل أبو حيّان احتمالا آخر في المقام، وهو «المعمورية» بالراء بالاضافة إلى المعمودية بالدال[٢].

وأمّا أصل كلمة «معموذِيت»، فهي اللغة الآرامية التي تعني الطهارة[٣].

## ثبات المسلمين ومداومتهم على العبادة

وفي آخر الآية الكريمة الّتي هي محلّ الكلام، نسمعه سبحانه وتعالى يأمر المسلمين بقوله: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**﴾، فصبغة الله على هذا عندنا.

وعلى الرغم من مجيء الفعل «آمنّا» في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ...**﴾[٤] بصورة الفعل الماضي، إلا أنّ المقصود منه الاستمرار بنحو الدوام والثَبات، ومن هنا، فإنّ على المتديّنين الحقيقيين بملّة إبراهيم ـ وهي الاسلام الاصيل ـ في مقام عرض عقيدتهم بالنسبة إلى المعارف الالهية، أن يستعملوا من الالفاظ ما يفيد الثبات والبقاء والاستمرار، من قبيل: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ مسلمون**﴾[٥]، و﴿**نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**﴾، و﴿**نَحْنُ لَهُ مخلِصون**﴾[٦]؛ لما للجملة الاسمية من الدلالة على الدوام والثبات.

والرسالة التي تؤديها هذه الجمل ـ طبعا ـ ليس هي أنّهم استعملوا الجمل الاسمية في بداية قبولهم للاسلام، بل المراد أنّه على أثر دوام إسلامهم واستمرار عبادتهم وثبات خلوصهم، فقد سمع ـ وسيسمع ـ من هويتهم الايمانية دائما قبولهم الملكوتي ذلك، كالذي ورد في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً**

---

١. تفسير التحرير و التنوير، ج١، ص٧٢٤، بتصرّف.

٢. تفسير البحر المحيط، ج١، ص٤١١.

٣. تفسير التحرير و التنوير، ج١، ص٧٢٢.

٤و٥. سورة البقرة، الآية ١٣٦.

٦. سورة البقرة، الآية ١٣٩.




وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالارْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1].

## البحث الروائي

### تفسير (صبغة الله) بالاسلام والولاية

عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾، قال: «**الإسلام**»[2].

ـ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: «**الصبغة: الاسلام**»[3].

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾، قال: «**صبغ المؤمنين (المؤمنون خ ل) بالولاية في الميثاق**»[4].

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾، قال: «**الصبغة: معرفة أمير المؤمنين بالولاية في الميثاق**»[5].

**إشارة:** لا تعارض بين الطائفتين السابقتين من الروايات؛ إذ إنّ تفسير إحداهما «صبغة الله» بالاسلام وتفسير ثانيتهما بالولاية، إنّما هو من ناحية أنّ الولاية هي حقيقة الاسلام وباطنه. فهي من ناحية يمكن أن تكون إشارة إلى أهمّ عنصر من عناصر الاسلام؛ فإنّ الحصن الحصين للتوحيد مشروط بالولاية، كما ورد عن الرضا عليه السلام في الحديث المعروف: «... وأنا من شروطها»[6].

* * *

١ . سورة آل عمران، الآية ١٩١.
٢ . الكافي، ج٢، ص١٤.
٣ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٢.
٤ . الكافي، ج١، ص٤٢٢ ـ ٤٢٣.
٥ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٢.
٦ . عيون اخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص١٤٤ ـ ١٤٥.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

## التفسير المختار

ليس هناك أيّ مجال لاحتجاج المتديّنين الحقيقيين بالاديان التوحيدية فيما بينهم في ما يرجع إلى قرارات المبدأ (الله سبحانه وتعالى).

فأوّلا: معبود الجميع واحد.

وثانيا: أنّ نسبة ذلك المعبود الواحد إلى المتديّنين بجميع الاديان واحدة.

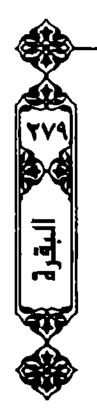
وثالثا: أنّ العلاقة بين جميع هؤلاء المتديّنين وذلك المعبود الواحد واحدة.

العمل ـ سواء أكان صلاحا أم طلاحا، في الدنيا كان أم في الاخرة ـ هو أمر متعلق بالعامل مختص به، وجميع الموحّدين على ارتباط به سبحانه وتعالى عبر ما يقومون به من أعمال، فيتقرّبون إليه عبر تلك الاعمال، وليس غير العمل الصالح معياراً للارتباط به تعالى والتقرّب إليه.

بناء على ما سبق، ليس هناك أيّة علاقة خاصّة بين مدّعي التبعية للكتب السماوية السابقة وبينه سبحانه وتعالى، بل هم مشركون من حيث العقائد والعبادة، ولا يعبده سبحانه مخلصا إلا المسلمون، وإخلاصهم الثابت والدائم.

### تناسب الآيات

الآيات ١٣٩ ـ ١٤١ أيضاً ـ شأنها شأن الآيات الثلاث السابقة ـ تعتبر جوابا عمّا ادّعاه اليهود والنصارى من أن لا دين معتبر عنده تعالى إلا دينهم.




ففي الآية الّتي هي محلّ الكلام، يأتي الجواب منه تعالى حيث يقول: تصوّرتم أنّكم أقرب إلى الله من غيركم، واستبعدتم نزول الوحي والهداية على الآخرين؟ والحال إنّه:

أوّلا: إن كان سبحانه وتعالى ربّكم وخالقكم ورازقكم، فهو ربّنا وخالقنا ورازقنا أيضاً.

ثانيا: إن كان لكم من اعمال تتقرّبون بها إليه سبحانه وتعالى، فكذلك الحال بالنسبة إلينا؛ فإنّ لنا أعمالا نتقرّب بها إليه سبحانه وتعالى، لتكون معيار تقربنا إليه، ونكون موردا لعنايته سبحانه وتعالى الخاصّة.

ثالثاً: نحن أحقّ منكم بعنايته سبحانه وتعالى الخاصّة؛ إذ عندنا إخلاص ونحن عن الشرك في العقيدة مبرّأون، وأمّا أنتم، فبالشرك مبتلون.

وفي الآية الشريفة التالية، تتمّة لإبطال ادّعاء هؤلاء من كون أنبياء عظماء من قبيل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام من اليهود أو النصارى، يقول سبحانه وتعالى مخاطبا إياهم: أأنتم أحسن اطّلاعا أم الله سبحانه وتعالى؟ إن كنتم تعتقدون بأنّه تعالى الاحسن اطّلاعا وعلما منكم، فهو يخبركم ـ كما مضى ـ في الآيات الشريفة السابقة ـ بأنّ هؤلاء العظماء منزّهون تمام التنزيه ممّا نسبتم إليهم من دين الشرك الّذي تذهبون إليه.

وأمّا في الآية الثالثة، فكأنّما قال سبحانه وتعالى: ولو سلّمنا صحة ذلك الانتساب، فكان هؤلاء الانبياء العظماء هودا أو نصارى، فبماذا سيفيدكم ذلك؟! فمعيار سعادة أو شقاوة أو ثواب أو عقاب كلّ فرد من الافراد أو أمّة من الامم ليس إلا ما صدر عن ذلك الفرد أو الامّة لا ما صدر عن غيرهما.

❋ ❋ ❋






## المحاجة في الله

ظاهر اليهودية والمسيحية أنّهما من الاديان التوحيدية الابراهيمية، وأنّ المتديّنين بهاتين الديانتين يعتبرون في عداد الموحّدين، ومن هنا، أمر سبحانه وتعالى نبيه الاكرم ﷺ بأن يقول: هل تحاجّوننا في أصل كونه تعالى معبودا: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ﴾.

يعتبر في كلّ جدال واحتجاج أن يكون علميا وناشئا عن علم أو وحي الهي أو برهان عقلي متّسق مع الوحي أو النقل المعتبر عن العلوم الوحيانية. وأمّا إذا لم يكن الجدال مستندا إلى أيّ واحد من هذه الطرق العلمية، فهو غير قابل للاهتمام عقلاً ولا نقلاً، قال تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[١].

وأمّا ما صدر عن المشركين من مجادلات، من قبيل أنّ الملائكة بنات الله[٢]، وأنّ النبي المرسل من قبله تعالى يجب أن يكون ملكا[٣]، وأنّ النبي المرسل لو كان من جنس البشر فإنّه يلزم أن يكون من أصحاب الاموال المعروفين: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٤]، فإنّ جميع تلك المجادلات تعتبر من القسم الّذي لا يصغى له من الجدال.

وعلى آيّ حال، فإن الجدال في ما يرتبط به تعالى إنّما يكون سائغا في حالات ثلاث وهي هذه:

١ ـ كلّما كان للعابدين معبودان وإلاهانِ مستقلّان.

---

١ . سورة الحج، الآية ٨.

٢ . سورة الاسراء، الآية ٤٠.

٣ . سورة المؤمنون، الآية ٢٤.

٤ . سورة الزخرف، الآية ٣٠.



إذ في هذه الحالة، سيفتح الباب أمام كلّ واحدٍ من الفريقين لادّعاء استحقاق معبوده بالعبودية والربوبية وعدم صلاحية معبود الفريق الآخر لذلك. من قبيل محاجّة حضرة إبراهيم عليه السلام عبدة الاصنام؛ فقد كان معبوده الله سبحانه وتعالى فيما كان معبود قومه الاصنام والنجوم وما شابه، قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كلّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾[1]، فمثل هذا الاحتجاج معقول على الرغم من أنّ كلام عبدة الاصنام كلام لا يستند إلى برهان ولا حجّة صحيحة.

وانطلاقا من هذه الحالة المزبورة، نرى الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله يحاجّ وثنيّي الحجاز المعتقدين بأرباب متفرّقين والكافرين بربوبيته سبحانه وتعالى في ما يرتبط بالتوحيد، قال تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[2]، وعليه، فللموحد أن يحاجّ الوثني على الرغم من كون حجة الوثني داحضة هالكة باطلة وحجة الموحّد المسلم حقّةٌ بالغة: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[3].

٢ ـ أن يكون معبود الفريقين واحدا مع اختلاف النسبة بينه وبين أحد الفريقين؛ بأن يكون أقرب إلى أحدهما من الآخر، ففي هذه الحالة يمكن لأيّ واحدٍ من الفريقين أن يحاجّ الآخر بكونه الاقرب إليه سبحانه وتعالى.

---

١ . سورة الأنعام، الآية ٨٠.

٢ . سورة الشورىٰ، الآيات ١٥ ـ ١٦.

٣ . سورة الأنعام، الآية ١٤٩.

٣ـ أن يتمتّع أحد الفريقين بمزية تقتضي قربه إليه تعالى دون الفريق الآخر، وهذا في حالة كون ارتباط كلّ فرد أو فريق به سبحانه وتعالى قائما على أساس قانون مستقل وضابطة مستقلة مختلفة.

وعليه، فإذا كان لكلّ واحدٍ من الفريقين معبود واحد، بحيث كانت نسبة هذا المعبود (الله) الواحد إلى كلّ واحدٍ من الفريقين واحدة لا اختلاف فيها، ولم يكن في البين أيّة مزيّة قانونية لأحد الفريقين تميّزه في ارتباطه بذلك المعبود (المبدأ)، فلن يكون هناك مجال للمحاجّة؛ إذ في الحقيقة لا نزاع حقيقي في البين من الاساس لكي يدّعيه أحد الفريقين ويقابله الآخر بالرفض والانكار لترتسم حينئذ خطوط المحاجّة بصورة صحيحة.

وقد تعرّضنا في المباحث السابقة إلى بيان مدّعيات أهل الكتاب في قربهم إليه سبحانه وتعالى كنسبة الابن إلى الاب، وكذا في ما يرجع إلى ادّعائهم وقف الجنّة عليهم دون غيرهم، وقد بيّن سبحانه وتعالى الموقف من كلّ من المدّعين، فقد بيّن أنّ ادّعاء القرب السابق أمر لا أساس له، كما اعتبر قضية الوقف أمرا باطلا لا دليل عليه، مبيّنا أنّ أساس الدين هو التحقيق العلمي لا الأماني، والكلام بغير حجة ولا برهان لا يعدو أن يكون أمنيّة ورجاءاً غير قائم على أيّ أساس علمي، قال عزّ من قائل: **﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أنتم بَشَرٌ﴾**[1]، وقال أيضاً: **﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[2].

وأمّا الرسول الاكرم ﷺ، فقد ردّ على اليهود والنصارى بأن ربّ الجميع واحد كما ورد في قوله تعالى: **﴿هُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾**، كما أنّ النسبة بين ذلك الربّ

---

١. سورة المائدة، الآية ١٨.

٢. سورة البقرة، الآية ١١١.



وجميع المربوبين واحدة كما هو الحال في فيضه على الجميع: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1]، وعليه، فليست النسبة بين ذلك الربّ وبين أحد الفريقين مختلفة.

إنّ المعيار والضابطة في ارتباط العبيد به سبحانه وتعالى أمر مشخص محدد، وهو واحد في الجميع، فكلّ فريق يرتبط به تعالى عن طريق ما يصدر عن ذلك الفريق من الاعمال: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، ولا يتمتّع أيّ واحدٍ من الفريقين بمعيار في هذا المجال يختلف عن المعيار الّذي يتمتّع به الآخر، كما لا مزيّة في البين يتمتّع بها أحد الفريقين دون الآخر؛ إذ إنّ الجميع يتقربون إليه تعالى عن طريق العمل ليس إلا.

والحاصل: لا امتياز في ما يرجع إلى وحدة وكثرة المعبود، ولا في ما يرجع إلى نسبة ذلك المعبود إلى أيّ واحدٍ من الفريقين، لا بالنسبة إلى العابد، ولا بالنسبة إلى المعبود.

نخلص من جميع ما سبق إلى عدم أيّ مجال بين الموحّدين لادّعاء الافضليّة بالنسبة إلى أحد المعبودين ولا بالنسبة إلى رابطة خاصّة في البين بين العابد والمعبود، ليصحّ المحاجّة في مجال ادّعاء الاقربية من قبل أحد الفريقين، أو ادّعاء القرب من قبل أحدهما وبعد الآخر، ليقام الدليل من قبل المدّعي على إثبات ما يدعيه.

**نكتة**: السرّ في اختصاص الخطاب في الآية الشريفة الّتي هي مورد البحث بالرسول الاكرم ﷺ، هو كونه ﷺ المسؤول عن المحاورة والنقاش والمحاجّة والنقض والابرام في المسائل العقائدية وما شابهها، الامر الّذي أدّى إلى الفرق في الخطاب بين الآية الّتي هي محلّ الكلام وبين الآيات السابقة التي كانت تبدأ بالامر: ﴿قُولُوا...﴾[2].

---

١ . سورة طه، الآية ٥.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٣٦.

أصل الحِجاج والجدال والمناقشة العلمية ـ طبعا ـ ليس أمرا مختصّا به ﷺ، ما يفسّر الرجوع بعد الامر الخاص به ﷺ الوارد في قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ إلى المحاجّة العامّة في قوله تعالى: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ...﴾، خلافا لما كان حضرة إبراهيم الخليل عليه السلام قد ابتلى به لوحده في قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾[1]؛ إذ إنّ أساس تلك المحاجة إنّما كان فرديا بين إبراهيم عليه السلام من جهة وقومه من جهة أخرى.

### إختصاص العمل بالعامل

الرسالة الواردة في قوله تعالى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، والتي تستفاد من تقديم الخبر أيضاً، من قبيل ما ورد في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2]، وهي: أنّ العمل مختص بالعامل فلا يصل من عملنا أيّ ضرر اليكم؛ فإنّ خير وشرّ السلف والخلف والصالح والطالح لا يصل إلى الغير، وهو تعبير منصف، من قبيل ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[3].

النكتة الاخرى، هي أنّ العمل الصالح أو الطالح في جميع الحالات إنّما تكون نتيجته نتيجة ذلك العمل لا غير، فتختص بالعامل دون أن تتعدّى إلى غيره، وعليه، فإنّ حقيقة العمل في المعاد بأيّ وضع خاص ظهرت، فإنها صادقة في ذلك الوضع أيضاً: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، بدون الحاجة إلى قول: «لنا جزاء أعمالنا، ولكم جزاء أعمالكم».

---

١ . سورة الأنعام، الآية ٨٠.

٢ . سورة الكافرون، الآية ٦.

٣ . سورة سبأ، الآية ٢٤.



## الايمان المشوب لأهل الكتاب

يشترك الجميع في أصل اختصاص العمل بالعامل، إلا أنّ ما يمتاز به الموحدون في هذا المجال بعد الاشتراك في الجنس العام المزبور، هو الفصل الخاص (الاخلاص)، الّذي هو الاساس في: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ﴾[1]، وفي: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[2]، وهذا الاخلاص الثابت والباقي كما يستظهر من اسميّة الجملة، هو الأساس في بركات كثيرة. الاخلاص في مجال النيّة ـ طبعا ـ وهو ما يحقق الحُسن الفاعلي، وما يرجع إلى إقليم المنويّ، هو التوافر على نصاب الحُسن الفعلي.

إنّ ما يجعل الاخلاص سرّا من الاسرار الغيبية، إنّما هو إضافة على كون تحريره صعبا، كون تحصيله أمرا مستصعبا أيضاً.

لقد اعتبر البعض أنّ ترك عمل الخير فرارا من كلام الناس عملا ريائيا ليس إلا، كما اعتبر أنّ القيام بعمل ما لأجل كلامهم شركا. كما اعتبر البعض أنّ القيام بالعمل الصالحِ الناصح والخالص أمرا صعبا يشابه إخراج اللبن الصافي من بين فرث ودم[3].

وبعد نفيه ﷺ لوجود أيّ ارتباط خاص بين أهل الكتاب وبينه سبحانه وتعالى، وبعد نفي ابتلاء المسلمين بحرمان خاص لم يبتل به اليهود والنصارى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، قال معرّضا بهؤلاء: هذا وأنتم مشركون في عقائدكم وعباداتكم، وأمّا نحن، فلا: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾.

---

١ . سورة الأنفال، الآية ٣٧.

٢ . سورة يس، الآية ٥٩.

٣ . تفسير البحر المحيط، ج١، ص٤١٣.

إنّ إيمان أولئك الذين يقولون: «عزير ابـن الله تعـالى» أو: «المسـيح ابـن الله تعالى»: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَـتْ النَّصَـارَى الْمَسِـيحُ ابْـنُ اللهِ﴾، هـو إيمان مشوب غير خالص؛ إذ إنّهم من قبيل المشركين الوثنيين من بعض الجهات، حيث كان هؤلاء يعتقدون بأنّ الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى[1]، مع أنّـه تعـالى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[2]، فليس له بنت كما كان يعتقد المشركون، ولا ولـد كـما كـان يدّعي اليهود والنصارى.

إنّ ما يقبله الله سبحانه وتعالى، إنّما هـو الـدين الخـالص الواصـب والتـام: ﴿ألا لله الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[3]، ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾[4]، وأن يكون الـدين لله خالصـا منزّهاً عن كلّ شوب ولوث، وهذا أمر نـاظر إلى كيفيـة الـدين، وأمّـا أن يكـون الدين واصبا تامّا، فهو ناظر إلى كميّة الدين، يعني: جميع الـدين يجـب أن يكـون منظما من قبله تعالى.

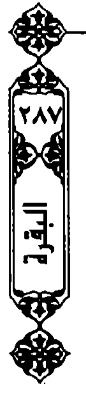
## البحث الروائي

### ١ ـ السرّ الالهي والوديعة الالهية

عن حذيفة بن اليمان، قال: سألت النبي ﷺ عن الاخلاص ما هـو؟ قـال: **«سألت جبريل عليه السلام عن ذلك، قال: سألت ربّ العزّة عن ذلك، فقال: هـو سرّ من سرّي، استودعته قلب من أحببته من عبادي»**[5].

---

١ . تفسير القمي، ج٢، ص٣٣٣.
٢ . سورة الاخلاص، الآية ٣.
٣ . سورة الزمر، الآية ٣.
٤ . سورة النحل، الآية ٥٢.
٥ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤٠٩.



**إشارة**: ما عبر الشهادة والظهور إلى الغيب والبطون هو السرّ، والسرّ حرم آمن ليس للامور الغريبة كالخواطر النفسية والشيطانية طريق إليه، والاخلاص سرّ من الاسرار الالهية التي لا تجد مكانا لها إلا في قلوب أحبّائه سبحانه وتعالى.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى هذا السرّ وديعة في قلوب محبوبيه؛ إذ من الممكن أن يحبّ شخص مّا الله سبحانه وتعالى بدون أن يكون محبوبه عزّ وجلّ، وما لم يصر الانسان محبوبا له تعالى، فهو ليس أهلا لأن يحمل ذلك السرّ ويحافظ عليه، فلا يصل إلى مرحلة الاخلاص.

توضيح ذلك: أنّ للصراط المستقيم مراحل يجب طيّها الواحدة تلو الاخرى، فمن عبر مرحلة الخوف والطمع، فقد ورد وادي المحبة الوسيع الّذي لا بدّ من طي المراحل التي يحتوي عليها للعبور من مرحلة «محبّ الله» التي تمثل نصف الطريق، إلى مرحلة «محبوب الله» التي تمثل فخر الانسان وكماله النهائي.

من الطبيعي أنّ لمحبوبية الله درجات لا عدّ لها، ولا يمكن لأيّ أحد أن ينال تلك الدرجة النهائية التي نالها الرسول الاكرم ﷺ في هذا المجال.

من كان من السالكين يعبده سبحانه وتعالى «خوفاً من النّار» أو «شوقاً إلي الجنّة»، والذين ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[1]، جميع هؤلاء لن يضعوا أقدامهم في وادي المحبّة. إنّ أحبّاء الله يعلمون أنّه سبحانه وتعالى سينجيهم من النار ويدخلهم الجنة، إلا أنّهم لا يعبدونه سبحانه وتعالى من أجل هذا العطاء المعلوم أبدا.

لقد حدّد الله سبحانه وتعالى مميّزات منطقة المحبة ومنازلها وعلاماتها، كما أنّه عرّف بمحبوبيه بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]، وبقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ

١ . سورة السجدة، الآية ١٦.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٩٥.

التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[١]، وبقوله: ﴿فَإِنّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٢]، وبقولـه: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[٣]، وبقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٤]، وبقولـه: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٥]، وبقوله: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[٧].

لأجل أن يكون الانسان «حبيبا لله»، لا بدّ من أن يكون متّبعا للرسول الاكرم ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللهُ﴾[٨]، وحينما يصير الانسان محبوبا له تعالى، فسيكون حينئذ في طمأنينة وسكينة؛ إذ لن يحبّ حينئذ كلّ ما يقبل النفاد، كما أنّ ما يحبّه لا يقبل الزوال، حينئذ تظهر آثار لطفه سبحانه وتعالى المحبّ في المحبوب السالك الواصل.

وبناء على الرواية المذكورة سابقا، فإنّ وادي المحبّة هو أرض الاخلاص، ما يعني أنّ الشخص ما لم يصر محبوبه تعالى، فإنّه لا حظّ له في الاخلاص التامّ.

وكما أنّ محبوبيته تعالى لها درجات، فإنّ الاخلاص له درجات أيضاً، وفي هذا الوادي الوسيع، لأجل أن يعبر السالك مرحلة «المخلِص» ليصل إلى مرتبة «المخلَص»، فإنّه لا بدّ له من قطع عدة مراحل ليكون ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٩]، وممّن «قد أخلص لله فاستخلصه»[١٠].

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٢٢.
٢ . سورة آل عمران، الآية ٧٦.
٣ . سورة آل عمران، الآية ١٤٦.
٤ . سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
٥ . سورة المائدة، الآية ٤٢.
٦ . سورة الصف، الآية ٤.
٧ . سورة الصف، الآية ٤.
٨ . سورة آل عمران، الآية ٣١.
٩ . سورة يوسف، الآية ٢٤.
١٠ . نهج البلاغة، الخطبة ٨٧، الفقرة ٧.



المخلَصون في الامان المحض، ومن هنا، لا طريق للوساوس الشيطانية وما شابهها إلى حريمهم، كما أنّهم يوم القيامة ـ وهو يوم إحضار الجميع ـ منزّهون مصونون عن ذلك الاحضار: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

وأفضل وصف ذكر في القرآن الكريم للمخلَصين، هو أنّهم يجوز لهم دون غيرهم أن يصفوه سبحانه وهو من صفاته عين ذاته، وهذا من جهة أنّهم على أثر قرب النوافل والفرائض في مقام الفعل لا في مقام الذات ولا في الصفة التي هي عين الذات، سيكون فهمهم فهما إلهيا، كما أنّ لسانهم سيكون لسانه تعالى، فكلّما ذكروه وصفا له تعالى فإنّه حقّ: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[2].

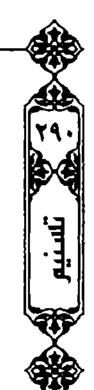
**تنويه:** إنطلاق العقل النظري من قيد الوهم والخيال، ووصوله إلى الواقع الاصيل، وخاصّة في ما يرجع إليه سبحانه وتعالى، أمر مستبعد بدون تهذيب الروح، وأمّا إذا كان مرافقا لتزكية النفس وفي ظلّ قرب الفرائض ونور قرب النوافل، فإنّ من المستقرب أن يصل إلى مقام يكون سبحانه وتعالى في مقام فعل المجاري الادراكية والتحريكية هو المؤمن.

ما نريد قوله، هو: طبقا للابحاث التفسيرية، فإنّه ليس لأحد من حقّ في وصفه تعالى إلا من كان مخلَصا من عباده، وظاهر إخلاص العبد: ﴿عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ على أساس تعليق الحكم على الوصف، هو خلوص عبوديته الّذي يجعل منه (مخلِصا)، ومن بين العباد المخلِصين يصير البعض من المخلَصين، بحيث يكون سهم العقل العملي والعقد القلبي عندهم في وصولهم إلى الخلوص أكثر من سهم العقل النظري، أو لا أقل مساويا لذلك.

---

١ . سورة الصافّات، الآيات ١٢٧ ـ ١٢٨.

٢ . سورة الصافّات، الآيات ١٥٩ ـ ١٦٠.


## ٢ ـ معيار تشخيص نيل حقيقة الاخلاص

عن النبيّ ﷺ: «إنّ لكلّ حقٍّ حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الاخلاص حتى لايحبّ أن يحمد على شيء من عمل الله»[1].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «الابقاء علي العمل حتّى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص: الّذي لاتريد أن يحمدك عليه أحدٌ الا الله عزّ وجلّ»[2].

إشارة: يحبّ بعض الناس أن يحمدوا بما لم يفعلوا، كما ورد في قوله تعالى: «﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنْ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]، كما أنّ البعض الآخر منهم ممن يعمل الخيرات ويحبّ ذلك العمل، إلا أنّه يحب أيضاً أن يذكر بذلك، وهؤلاء أبرز من الفريق الاوّل، إلا أنهم لم يصلوا إلى المقصد أيضاً لحدّ الان.

وأعلى من هؤلاء مرتبة، من يتساوى عندهم مدحهم وعدم مدحهم بالنسبة إلى ما قاموا به من عمل صالح، والافضل من جميع هؤلاء، أولئك الذين لا يحبّون أن يمدحوا على عمل صدر منهم لله سبحانه وتعالى، والسالك الصالح لا يصل إلى وادي الاخلاص أبدا إلا أن يكون ممن «لايحبّ أن يحمد على شيء من عمل الله».

يستهدف الشيطان الانسان دائما بسهامه، إلا أنّ الفرصة الفضلى والنجحى للشيطان في هذا المجال، تتحقق عندما يبتلى الانسان بالعجب والزهو، فيحبّ أن يصدر من الآخرين المدح والثناء والتملّق بالنسبة إلى ما يقوم به من أعمال، كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في النهج، حيث نسمعه يقول محذرا: «وإيّاك

---

١. مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤٠٩.
٢. الكافي، ج٢، ص١٦.
٣. سورة آل عمران، الآية ١٨٨.



والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحبّ الاطراء، فإنّ ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين»[1]، فإنّ الانسان في مثل هذه الحالة، أشبه ما يكون بالانسان المخدّر الذي لا يحسّ بالضربات وهو في حالته تلك، وقبل أن يقوم أحد بتنبيهه وإخراجه من حالته تلك.

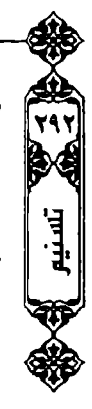
إنّ الوصول إلى حقيقة الاخلاص عمل صعب جدا، فهي عقبة كؤود حسب ما يفهم من حالات المعصومين عليهم السلام وقد كانوا من المخلَصين وهم يعبرون إلى تلك الحالة، فهؤلاء ـ وهم من كان نورا في قوس النزول ـ لأجل الرجوع إلى الحديقة المزهرة التي كانوا فيها، يتوجّب عليهم المرور عبر أشواك الدنيا ومكائدها، وما لم يئنّ السالك المتكامل من هذا العالم المملوء بالعقبات والاشواك، فإنّه لن يصل إلى بر الامان؛ إذ إنّ الاسلحة الوحيدة في يد هذا السالك في ميدان جهاد النفس والشيطان، ليست إلا البكاء: «وسلاحه البكاء»[2].

إنّ من غير الممكن التصدّي للشيطان وكسر شوكته وهزيمته بالسيف وما شابه ذلك من الاسلحة، فإذا ضجّ السالك ولم ير نفسه شيئا، فحينئذ يرجع الشيطان مهزوما منكسرا فارّا، وما لم يكن الانسان مجهّزا بهذه الاسلحة، أعني: البكاء والعويل والضجيج والمناجاة، فإنّه لا جرم سيصبح أسيرا من أسرى الشيطان يفعل به ما يشاء، وأمّا الانسان المجهّز بالسلاح المناسب للمعركة، فإنّه لا شكّ في أنّه سيصل إلى هدفه، فإمّا النصر وإمّا الشهادة في هذا الطريق.

---

١ . **نهج البلاغة**، الرسالة ٥٣، الفقرة ١٤٥.

٢ . **مصباح المتهجد**. مفاتيح الجنان، دعاء كميل. وراجع (منطق الطير)، ص٢٩٦، فإنّ له شعرا جميلا بالفارسية في هذا المجال.


## ٣ ـ هوس غير المخلَصين

عن علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**لو ارتفع الهوى، لأنف غير المخلص من عمله**»[1].

**إشارة**: إبتلاء الكثيرين من الافراد ببعض الاوهام، من قبيل كونهم محمودين ممدوحين في المجتمع، وذكرهم بعناوين وألقاب مختلفة من قبل الاخرين، وغير ذلك، يصل إلى درجة بحيث لو رفع الهوى والهوس من المجتمعات، لرفع هؤلاء أيديهم من عمل الخير وانزووا مثلهم مثل الاخرين، وهذا ليس إلا عبادة الاوثان الداخلية، فبعض الافراد ـ لا سيّما من قضوا عمرا في عمل الخير ومراعاة الظواهر الدينية ـ في الحقيقة، لما كانوا يقيسون أنفسهم بالمشركين على أثر ما يحملونه داخلهم من روح ملوّثة بألواث الشرك، فإنّهم سيكونون في عداد اليهود والنصارى الذين كانوا يقولون: ﴿**لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى**﴾[2]، في اعتقادهم بأنّ الجنّة وقف عليهم، والحال أنّ الحجب لو ارتفعت، أو كان هؤلاء من أهل الحساب الدقيق والانصاف، لرأوا أنّهم لم يقوموا بأي عمل إخلاصا له تعالى، ما يفسّر التعبير عن الانصاف بسيد الاعمال في الحديث المروي عن الصادق عليه السلام: «سيد الاعمال: إنصاف الناس من نفسك، ومؤاساة الاخ في الله، و ذكر الله عزّ وجلّ على كلّ حال»[3].

* * *

١ . شرح غرر الحكم، ج٥، ص١١١.

٢ . سورة البقرة، الآية ١١١.

٣ . الكافي، ج٢، ص١٤٥.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

## التفسير المختار

كما أنّ اليهود والنصارى فسّروا التوراة والانجيل بالرأي، فإنّهم حملوا سيرة وسنّة حضرة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وحفدته إلى موسى الكليم عليه السلام سفها على دينهم، وبأسلوب متحكّم اعتبروا هؤلاء عليهم السلام مثلهم ومنهم، مع أنّ الانبياء المزبورين عليهم السلام قد عاشوا قبل نزول التوراة والانجيل وهما منشأ اليهودية والمسيحية بسنين عديدة.

إنّ الله سبحانه وتعالى قد شهد في التوراة والانجيل بحنيفية حضرة إبراهيم عليه السلام وإسلامه، إلا أن الاحبار والرهبان يكتمون تلك الشهادة، ولمّا لم يكن ظلم أكبر من كتمان شهادته سبحانه وتعالى في مجال التوحيد والنبوّة وما كان من قبيلها، فإنّه ليس هناك أظلم من هؤلاء الذين كتموا الشهادة من علماء اليهود و النصارى.

يجب ألّا يخدع أهل الكتاب أنفسهم بما ذهبوا إليه من نسبة دينهم إلى هؤلاء الانبياء عليهم السلام، ومن كتمانهم شهادة الله سبحانه وتعالى؛ فإنّه سبحانه وتعالى العليم

بعمل هؤلاء ليس غافلا عنهم، بل يعلم سبحانه وتعالى بما خفي على الآخرين أو نسوه ويحصيه.

## دين الانبياء الماضين

تعرّضنا في الآية الشريفة السابقة إلى بيان سرّ عدم صحة محاجّة أهل الكتاب المسلمين في ما يرجع إليه سبحانه وتعالى، وفي هذه الآية الشريفة، يبيّن سبحانه وتعالى عدم صحّة ما قاله هؤلاء في ما يرجع إلى الانبياء الماضين عليهم السلام.

لم يكتف اليهود والنصارى ـ وهم من كان يذهب إلى انحصار النجاة بهم ـ بسعيهم إلى تهويد الآخرين أو تنصيرهم حيث كانوا يقولون: **﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾**[1]، بل كانوا يبذلون الجهود الحثيثة من أجل التعريف بأنّ الانبياء السابقين كانوا منهم أيضاً، فكانوا يقولون إنّ حضرة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وحفدته (الاسباط) كانوا يهودا أو نصارى: **﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالاسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾**.

وكلمة «أو» في الآية الشريفة للتنويع لا الترديد والتشكيك، فليس المراد من الجملة السابقة أنّهم كانوا يقولون: «إن الانبياء السابقين كانوا إمّا هودا أو نصارى»، بل المراد أنّ اليهود كانوا يقولون بأنّ أولئك الانبياء جميعهم كانوا هودا، كما أنّ النصارى كانوا يدعون أنّ جميع هؤلاء عليهم السلام كانوا نصارى.

وبناء على هذا، فكما أنّ أهل الكتاب كانوا يمارسون تفسير الكتب السماوية من التوراة والانجيل طبقا لآرائهم وميولاتهم وأهوائهم الشخصية عوضا عن أن يكون منهجهم السعي إلى جعل أفعالهم موافقة لسنّة الانبياء وتنظيمها على أساس تلك السنة، فإنّهم كانوا يدّعون أنّ هؤلاء الانبياء عليهم السلام كانوا منهم هودا أو نصارى.

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٣٥.





وقد اعتبر سبحانه وتعالى الكلام الصادر من هؤلاء وما اعتقدوه سفها، أمرا مردودا غير موافق للعقل ولا للنقل.

## الدليل العقلي على البطلان في المقام

وأمّا الدليل العقلي على البطلان في ما نحن فيه، فهو أنّ هؤلاء الانبياء عليهم السلام ـ أعني: حضرة إبراهيم وبنيه وحفدته إلى زمان موسى الكليم عليه السلام ـ كانوا قد عاشوا وماتوا قبل أن تنزّل التوراة والانجيل.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أنّ منشأ ظهور اليهودية والمسيحية هو التوراة والانجيل، والحال أنّ ما عليه اليهود والنصارى من دين خاص عصر النبي صلى الله عليه وآله لم يظهر إلا بعد نزول الكتابين السماويين المزبورين.

وعليه، فإصرار أهل الكتاب على يهودية أو نصرانية الانبياء السابقين عليهم السلام مجرد تحكّم، كما أنّ ما صدر عنهم من ادّعاءات لا يدور حول محور علمي عقلي، قال تعالى: **﴿يَا أهل الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالانجيل إِلّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ * هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾**[1].

إنّ الخطوط العامّة والاصول المشتركة بين الاديان الالهية ـ وهي ما قام اليهود والنصارى بتلويثه بالشرك وعرضه بصورة شريعة خاصّة تحت اسم اليهودية والمسيحية ـ إن هي إلا الاسلام، وهو الدين الوحيد المعقول والمقبول عنده سبحانه وتعالى: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الاسْلامُ﴾**[2].

---

١ . سورة آل عمران، الآيات ٦٥ ـ ٦٧.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٩.



إن الله سبحانه وتعالى لم يقل: إنّ الاسلام قد ظهر بعد التوراة والانجيل، إذن ـ طبقا لما سبق توضيحه ـ دين جميع الانبياء عليهم السلام هو الاسلام، كما ذكر الله سبحانه وتعالى في ما يرجع إلى حضرة إبراهيم عليه السلام من أنّه ﴿كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً﴾[1]، واليهود والنصارى لم يقبلوا بهذا الدين الحنيف، بل عمدوا إلى مجموعة من الحقّ والباطل، التوحيد والشرك، والسنة والبدعة، تحت مسميات من قبيل اليهودية والمسيحية، فأسموها الدين.

اليهودية والمسيحية دينان مشوبان لا يمثّلان عين الاسلام الحنيف ولا يعادلانه لكي يقعا موقع القبول منه سبحانه وتعالى، بل هما دينان خاصان ظهرا بعد التوراة والانجيل، ما يعني: أنّنا عندما نقول بأنّ جميع الانبياء كانوا مسلمين، وأنّ دين حضرة إبراهيم عليه السلام ومن كان بعده من الانبياء المعترف به هو الاسلام، فإنّما يكون ذلك إستنادا إلى أنّ الدين الوحيد الثابت عنده سبحانه وتعالى هو الاسلام، وحيث لم تكن اليهودية ولا المسيحية عين الاسلام ولا معادلة له، فلا يمكن حينئذ أن نقول بأنّ الانبياء السابقين على نزول التوراة والانجيل كانوا هودا أو نصارى.

من الطبيعي أنّ مدعي اليهودية والنصرانية لم يكن قصدهم أن يدّعوا أنّ أجداد موسى وعيسى عليهما السلام كانوا من المتديّنين بدين أحفادهم الذين لم يروهم، بل كان قصدهم أن يكون عندهم ما كان قاله ويقوله المسلمون في ما يرجع إلى إسلام الانبياء السابقين الاصيل، فجاء القرآن الحكيم ليبطل رأيهم ويفنّده عن طريق التحليل الدقيق والتعليل العميق في بيانه للفرق بين الاسلام المستمرّ وبين اليهودية والمسيحية المقطعيّين.

هذا كلّه في ما يرجع إلى الدليل العقلي على بطلان مدعيات اليهود والنصارى في المقام.

---

١. سورة آل عمران، الآية ٦٧.



## الدليل النقلي على البطلان في المقام

تقدّم الدليل العقلي على بطلان مدّعيات اليهود والنصارى في المقام. وأمّا بالنسبة إلى البرهان النقلي على ذلك، فهو ما يستند إلى الوحي. والبرهان هو ما يلي:

إنّه سبحانه وتعالى تعرّض في التوراة والانجيل إلى ملّة حضرة إبراهيم ومن بعده من الانبياء عليهم السلام وهي الحنيفية، فهو ـ وهو خالق أولئك الانبياء ومنزّل الكتب والصحائف عليهم ـ قد شهد بذلك وبأنّ دين جميع هؤلاء ما كان إلا الاسلام، فلم يكن إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللهُ﴾، وتلك الشهادة منه سبحانه وتعالى مذكورة في ما نزله على هؤلاء الانبياء وما كان بيد الاحبار والرهبان من كتب سماوية، إلا أنّهم كتموا تلك الشهادة فما أظلمهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللهِ﴾.

**نكات:** ١ ـ كان المحاجّون والمجادلون من أهل الكتاب يذهبون إلى أن نبيّ الله سبحانه وتعالى يتعين أن يكون من سلالة إسرائيلية، محتجين في ذلك بأن العرب أناس جهلة من ناحية، كما أنّهم وثنيّون من عبدة الاصنام من ناحية أخرى، وبعدم نبيّ في أجدادهم من ناحية ثالثة، والحال أنّ ذلك لا يمنع أبدا من أن يكون النبيّ منهم؛ إذ لا أميّتهم ولا وثنيتهم ولا عدم كون نبيّ من أجدادهم تصلح مانعةً في المقام، شأنهم في ذلك شأن أنبياء بني اسرائيل، وهم أبناء إبراهيم الخليل عليه السلام الّذي لم تصلح تلك الامور موانع من وصولهم إلى مرتبة النبوّة العالية، إذ على الرغم من أنّ أجداد بني اسرائيل كانوا مبتلين بعبادة البقرة، فقد بعث من نسل هؤلاء (لا من عائلتهم) من كان نبيا، فالله سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1].

---

١ . سورة الأنعام، الآية ١٢٤.

٢ ـ كما أنّ اليهود والنصارى كانوا بصدد مصادرة دين حضرة الخليل، ذاهبين إلى أنّه والانبياء الذين أتوا من بعده منهم، فقد كان وثنيّو الحجاز يذهبون إلى أنّه عليه السلام منهم أيضاً، ومن هنا، نرى القرآن الحكيم ينفي كونه عليه السلام مشركا كما كانت عليه اليهودية والمسيحية، حيث يقول عزّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، ما يوجّه ما قام به الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله في فتح مكّة، عندما رأى تمثال حضرة إبراهيم عليه السلام في الكعبة وهو في حال الاستقسام بالازلام من تلاوته صلى الله عليه وآله الآية الشريفة: ﴿... وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ محطّما لذلك الصنم[2].

## التوبيخ العام والتهديد الخاص

اختصاص الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ في الآية الشريفة: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللهُ﴾، إنّما هو من جهة ما ذكرناه في الآية الشريفة السابقة؛ من أنّه صلى الله عليه وآله المسؤول عن الاحتجاج على الرغم من أنّ للجميع أن يتناقشوا في هذا المجال بل هم مأمورون به، فجملة: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ معادلة لقوله تعالى: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾ في الآية الشريفة السابقة.

وأمّا كلمة ﴿أم﴾ وتعبير ﴿ءَأنتم أعلم﴾ في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، فإنّها هما لأجل التوبيخ نظير ما في قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾[3].

وخطاب ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ...﴾ وإن كان عامّا شاملا لجميع المدّعين المذكورين في المقام، إلا أنّ التَعْيير والتهديد الواردين في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللهِ﴾ أمر خاص؛ من جهة أنّ من له الاطلاع الكامل على التوراة

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٦٧.

٢ . تفسير التحرير والتنوير، ج١، ص٧٢٧.

٣ . سورة النازعات، الآية ٢٧.




والانجيل وما ورد فيهما، إنّما هو الاحبار والرهبان ليس إلا؛ وأمّا الافراد العاديون، فلم يكونوا على اطلاع في ما يرجع إلى دين الانبياء السابقين الحنيف.

وأمّا المراد من كلمة ﴿أَعْلَمُ﴾، فليس هو المعنى التفضيلي للكلمة؛ فإنّ المدعين السابقي الذكر كانوا جاهلين بالكامل، وحتى أحبارهم كانوا على علم بالخلاف لاطّلاعهم على شهادته سبحانه وتعالى، وعليه، فالمقصود هو إثبات أصل العلم في مقابل الجهل لا زيادة العلم.

## حرمة كتمان شهادة الحقّ

لقد صرح القرآن الكريم مرارا بكتمان الحقّ من قبل علماء اليهود والنصارى وأكد عليها، فهؤلاء لم يقتصروا على كتمان الملّة الحنيفة لحضرة إبراهيم عليه السلام ومن جاء بعده من الانبياء الذين ذكرت أسماؤهم في التوراة والانجيل، بل تعدوا ذلك إلى إنكار نبوّة نبيّ الاسلام الاكرم صلى الله عليه وآله وهو من كان معروفا عندهم بالحس كمعرفتهم بأبنائهم، على الرغم من مجيء البشارة به ومن ذكر مواصفاته ومميزاته في العهدين كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحقّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاعِنُونَ﴾[2]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمْ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٤٦.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٥٩.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٧٤.




إنّ للشهادة في ما يرجع إلى المسائل الحقوقية والمالية مرحلتين:

الأولى: حضور الشاهد في ساحة الواقعة وتحمل الشهادة.

المرحلة الثانية: أداء الشهادة في حالة الاستشهاد من قبل المحكمة.

وتحمّل الشهادة لا يعتبر أمرا واجبا إلا في حالات خاصّة، وأمّا أداء الشهادة في المحكمة امام القاضي، فإنّه واجب كفائي يعتبر كتمانه أمرا محرما، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فإنّه آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[1].

فكتمان كلّ شهادة حق حرام، فإذا كان الحقّ المكتوم من حقوقه تعالى بحيث يرجع إلى التوحيد والنبوّة وما شابهها، وكان الله سبحانه وتعالى قد أعلن ذلك، فإنّ الكتمان حينئذ لا ظلم أعظم منه، ما يفسر عظمة العقوبة التي جعلها الله سبحانه وتعالى عليه.

إنّ الشهادة التي شهد بها سبحانه وتعالى على نبوّة الانبياء الابراهيميين من حقوقه تعالى، وقد شهد سبحانه وتعالى في التوراة والانجيل بالنسبة إلى الملّة الحنيفة لحضرة إبراهيم عليه السلام، ونبوة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله ورسالته، فمن قامت عنده هذه الشهادة، وكان مطلعا عليها، فقد ارتكب ظلما لا أعظم منه في حالة كتمانه لتلك الشهادة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللهِ﴾.

من الجدير بالذكر أنّ المراد من الشهادة في مثل ما نحن فيه هو أداء الشهادة لا تحملها أو العلم بها وما شابه، فعندما يقول نبيّ من الانبياء لمنكري رسالته: «إنّه تعالى شاهد على كوني نبيا مرسلا من عنده»، فالمراد به: أنّه تعالى يعلم بذلك، وهذا ما لا يرفع شك أولئك المنكرين أو ترددهم بالنسبة إليه: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[2]، فلو كانت هذه الشهادة

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٨٣.

٢ . سورة الرعد، الآية ٤٣.



بمعنى العلم، لأمكن للمنكرين أن يقولوا: «الله يعلم أنك لست نبيا»، وعليه، فمراد مدعي النبوّة من قوله: «الله شاهد على نبوتي»، هو أنّه تعالى يشهد على ما ادّعيت ومطلع عليه، وهذه هي الشهادة بمعنى الاداء لا العلم، وحينئذ، فعلماء اليهود والنصارى كانوا يكتمون شهادته تعالى هذه.

**نكات:** ١ ـ إنّ المعارف الاعتقادية أفضل من المسائل الفقهية والحقوقية، ولكن، إذا شهد الله سبحانه على أمر ما، وبين حكم ذلك الامر، فكتم أحد الافراد أو المجموعات فتواه سبحانه وتعالى تلك، فأقدم أو أقدمت على خلاف ذلك عملا، فإنّ المورد سيكون مشمولا لقوله تعالى: ﴿... **مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللهِ**﴾، وبناء على ذلك، فآكلو الربا، والراشون، والمرتشون، والمتعدّون لحدود الله سبحانه وتعالى المنصوصة عن علم، لو كان عملهم ذلك مصبوغا بصبغة الخداع وكتمان الفتوى الالهية، فسيكون جميع هؤلاء حينئذ مشمولين لما ورد في الآية الشريفة من كتمان الشهادة.

٢ ـ إن عنوان (أَظْلَمُ) الّذي يستعمل للدلالة على الاظلمية في مورد خاص، لا يقبل التعدد إلا في حالة قيام القرينة على إرادة النسبية لا الحقيقة والنفسية، وأمّا عنوان ﴿**مَنْ أَظْلَمُ**﴾ الّذي هو بصدد نفي أظلمية ما في مورد من الموارد، فهو ممّا يقبل التعدد.

إنّ السرّ في قبول التعدد في المورد الاخير (نفي الاظلمية) في حالة ابتلاء عدد من الافراد بعدد من الكبائر المختلفة المتساوية في المرتبة بدون أن يكون أحد هؤلاء الافراد الأظلم بصورة مطلقة، هو أنّه ليس هناك أحد أظلم من هؤلاء المجرمين، وأمّا هم، فهم في المرتبة ذاتها بدون أيّ تفاوت حسب الفرض، ما يفسّر الاستفادة من عنوان ﴿**مَن أظلم**﴾ في القرآن الكريم في حالات متعددة متنوّعة وردت في بعض الافراد أو الجماعات.

## إطلاعه سبحانه وتعالى وإحصاؤه

ورد آخر الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث التحذير لأهل الكتاب بألّا يخدعوا أنفسهم في ما قاموا به من نسبة دينهم إلى الانبياء السابقين عليهم السلام، ومن كتمان شهادته سبحانه وتعالى بالنسبة إلى هؤلاء؛ فإنّه سبحانه وتعالى عليم محض عالم بما يقومون به: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ولا ينحصر الامر بعدم غفلته سبحانه وتعالى، بل هو ـ إضافة على ذلك ـ عالم بجميع ما لا يعلم به الآخرون أو نسوه وهو محص لذلك: ﴿أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾[1]، ﴿لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلّا أَحْصَاهَا﴾[2].

ومن الواضح أنّه ليس المقصود علمه سبحانه وتعالى فقط، بل المقصود إطلاع الحاكم العادل، وإطلاع من هو للظالمين بالمرصاد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[3].

* * *

---

١ . سورة المجادلة، الآية ٦.
٢ . سورة الكهف، الآية ٤٩.
٣ . سورة الفجر، الآية ١٤.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

## التفسير المختار

إنّ ما ادّعاه اليهود والنصارى من انتسابهم إلى الانبياء السابقين، لن يحلّ لهم أيّة مشكلة، ولن يفيدهم بشيء؛ إذ كما أنّ الخلف لن يسألوا عما كان من أسلافهم ولن يعاقبوا عليه، فإنّ الانتساب إلى السلف والاستناد إليهم لن يفيد الخلف بأيّ شيء، فليس أيّ فرد أو أمّة بمسؤول عما صدر عن غيره.

### تناسب الآيات

مضى قبل قليل ما جاء في هذه الآية الشريفة من كلمات بدون أيّ تفاوت مع تفسيرها، وأمّا السرّ في التكرار في المقام، فهو تكرار أهل الكتاب لما تقدّم منهم من ادّعاء انتسابهم إلى الماضين منهم.

إنّ تكرار الآية قد يكون في قبال تكرار الدعوى أو الطلب من قبل الطرف المقابل، كما أنّه قد يكون من جهة إزالة غبار الجاهلية والرسوبات القومية والعصبية القبلية، فالقومية ومصادرة الحيثيات الدينية والاجتماعية للسلف الصالح بنفع الخلف الطالح، من جملة الخصال المحورية البارزة لبني إسرائيل، وعلاج مثل هذا المرض العضال يحتاج إلى تعدّد الدليل من جهة، وإلى تكرار ألفاظ ذلك الدليل من جهة أخرى.

إنّ رسالة القرآن الحكيم في هذا المجال، هي نفي أيّ تأثير إيجابي أو سلبي بين الغابر والقادم. ويطرح عدم التأثير السلبي السابق بصورة واقعية أو فرضية كما في الآية الّتي هي محلّ الكلام أحيانا، كما أنّه قد يطرح مسألة عدم انتفاع شخص مّا ممّا سبق من أعمال صالحة من قبل الآخرين أحيانا أخرى، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾[1]، كما في عدم نفع المال والسلطة في يوم القيامة، كحال القوم والروابط الأسرية: ﴿**مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ**﴾[2].

**نكتة:** ليس القرآن الكريم كتابا فنّيا كسائر الكتب العقلية أو النقلية التي تكتفي بالبرهان المحض أو النقل الصرف، بل من جهة أنّه كتاب نور وهداية، فإنّه عند إقامة البرهان العقلي أو النقلي ينتقل إلى الاستنتاج من ذلك عن طريق اختتامه لذلك البرهان ببيان العبرة والموعظة، وعلى هذا الاساس، كانت رسالة هذه الآية الشريفة والقسم الختامي للآية السابقة موعظة.

* * *

### كلّ أحدٍ مسؤول عن عمله

كما هو الحال في المسائل الشخصية من عدم مسؤولية أيّ أحد عمّا يصدر من أحد آخر، ومن كون كلّ شخص مسؤولا عن عمله: ﴿**وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى**﴾[3]، فكذلك هو الحال في المسائل القومية والقبلية وما شاكلها؛ إذ لا قبيلة أو جماعة مسؤولة عن أعمال قبيلة أو جماعة أخرى، فلكلّ أمّة عملها وما يترتب

---

١ . سورة الدخان، الآية ٤١.
٢ . سورة الحاقّة، الآية ٢٨.
٣ . سورة فاطر، الآية ١٨.




عليه من نتائج، فقد مضى الاوّلون، وكما أنّ الخلف لا يسألون عما كان من قبل هؤلاء من عمل، فكذلك الانتساب إلى هؤلاء والارتباط بهم والاستناد إليهم لا يرجع على الخلف بأيّة فائدة تذكر.

بناء على ما سبق، يكون ادّعاء الانتساب إلى السابقين من الانبياء من قبل اليهود والنصارى، وادّعاء أنّ الكثيرين من الانبياء قد بعث من هؤلاء السلف، مما لا ينفع هؤلاء شيئا، ولن يحلّ لهم أيّة مشكلة تذكر.

وقد تعرضنا سابقا بالبيان إلى أنّ اللام في ﴿لها﴾ و﴿لكم﴾ هي لام الاختصاص لا لام النفع التي تستعمل في مقابل «علىٰ»، وعليه، فالمراد في المقام، هو أنّ عمل أيّ فرد ـ صالحا كان ذلك العمل أم طالحا ـ أمر مرتبط بذلك الفرد لا بفرد آخر، كما هو المراد من قوله تعالى: ﴿ولنا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[1].

## إشارات ولطائف

### عدم تحمل أي شخص نتائج شخص آخر

الحمل في القيامة ثقيل، وهذا الحمل الثقيل يجب على الانسان نفسه أن يحمله؛ إذ ليس هناك حمالة: ﴿كَلَّا لا وَزَرَ﴾[2]، ولا حمّال: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى﴾[3]، ولا يحمل حمل صاحب الحمل الثقيل لو طلب: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[4]. فحتى الاقارب لن يكونوا في عون الانسان لحمل شيء من أثقاله ذلك اليوم؛ فهؤلاء إمّا أن يكونوا هم أنفسهم ممّن

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٣٩.

٢ . سورة القيامة، الآية ١١.

٣ . سورة فاطر، الآية ١٨.

٤ . سورة فاطر، الآية ١٨. وما يحمل في البطن هو «الحَمْل»، وما يحمل على الظَهر هو «الحِمْل»، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾. (سورة يوسف، الآية ٧٢).

يحمل الحمل الثقيل، وإمّا ألّا يكونوا كذلك بأن كانوا في زمرة الصالحين، فلا يقومون بأيّ عمل إلا بإذنه تعالى.

وأمّا في مسألة الشفاعة التي يأذن بها الله سبحانه وتعالى ذلك اليوم، فإنّه تعالى لا يأذن بذلك إلا في حالة كون المشفوع له على دين يرتضيه سبحانه، لكي تحلّ مشكلته ممّا وقع منه من أمور بسيطة بشفاعة الشفعاء.

وكما مرّت الاشارة، فإنّ الاصل المزبور قد تكرّر ذكره وبيانه في آيات شريفة متعدّدة تناولت المسائل الشخصية بالاضافة إلى المسائل الجماعية.

* * *

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾

## التفسير المختار

الإخبار الغيبي عن اعتراض سفهاء المشركين، واليهود، والمنافقين على تغيير القبلة من القدس إلى الكعبة، وإعطاء الجواب المناسب على ذلك الاعتراض، والذي يعدّ بنفسه معجزة بالاضافة إلى الاعلام القبلي لتغيير القبلة، وكذا تهيئة الارضية لتغيير القبلة، كلّ ذلك مما يهيّئ الرسول الاكرم ﷺ نفسيا لتحمل ذلك الحكم الجديد.

توهّم إِعراض المسلمين عن الحقّ الناشئ عن الاعراض عن القبلة السابقة، يعني: القدس، كان الاساس في اعتراض سفهاء اليهود الذين كانوا يذهبون إلى أنّ القبلة الحقّ هي بيت المقدس لا غير.

وقد أجيب عن هذا الاعتراض في الآية الشريفة بأنّ جميع الجهات لله سبحانه وتعالى ملك له، وأنّ المبدأ الفاعلي للقبلة هو إقرارها من قبله تعالى.

إنّ كون جهة ما قبلة بذاتها ليس أمرا ذاتيا لأيّة جهة لكي يكون الاعراض عن تلك الجهة محالا عقلا أو قبيحا كذلك، وعليه، فإنّ تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، يعتبر تحويلا من الحقّ إلى الحقّ، ومن يعترض على العدول عن حقّ مقطعي إلى حقّ في مقطع آخر فلا يلتزم بحكمه تعالى، ليس إلا سفيها.

كان الهدف من تغيير القبلة الهداية الالهية، وكما كان اتّخاذ بيت المقدس قبلة مواجهة مع التعصّب الجاهلي للمشركين، فإنّ اتخاذ الكعبة قبلة كان ردّا على

توهّم تبعية المسلمين لليهود في ما يرجع إلى القبلة التي يتوجّه إليها المسلمون في صلاتهم.

إنّ الصراط المستقيم للأمّة الاسلامية في ما يرجع إلى مسألة القبلة هو التوجّه إلى الكعبة، الامر الّذي كان عن هدايته سبحانه وتعالى للمسلمين.

## تفسير المفردات

**السفهاء**: السفاهة: الوهن والخفّة في مقابل الصلابة والصعوبة، ومن هنا قيل للثوب الرديء النسج: «ثوبٌ سفيه»، وللجام الناقة المضطرب: «زمامٌ سفيه»، وللانسان خفيف العقل ضعيف الارادة ومن لا يمكنه الجزم في المسائل العلمية: «سفيه».

وكما تقدّم سابقا، فإنّ «السفيه» يقابل الرشيد والعاقل والحليم.

**وَلَّاهُمْ**: «ولّي» و«تولية» من باب التفعيل، وهي في الاصل بمعنى: إيقاع شيء في أمر هو وراء شيء سابق مع وجود العلاقة الحسنة أو السيئة بينهما.

وأمّا «القرب» و «المحبّة»، و«النصرة» و«المتابعة»، فهي من آثار ولوازم المعنى المزبور[1].

وإذا جاءت التولية مع الحرف «إلى»، فهي بمعنى الاقبال والمواجهة، كما في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾**[2]، وأمّا إذا جاءت مع الحرف «عن»، فإنّها ستكون بمعنى الادبار والاعراض كما في ما نحن فيه من الآية الشريفة، حيث يقول عزّ من قائل عن لسان اليهود: **﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ﴾**، وهي في

---

١ . التحقيق، ج١٣، ص٢٠٣، «و ل ي».

٢ . سورة الاحقاف، الآية ٢٩.




ذلك مشابهة لأصل «عدل» و«انصرف»، حيث إنّها تدل على الاعراض مع الحرف «عن»، وعلى الاقبال مع الحرف «إلى»، وكذا الأصل في «انقطاع»؛ حيث يدل على الانفصال مع الحرف «عن» وعلى الاتصال مع الحرف «إلى»، كما في قوله عليه السلام: «ربّ هب لي كمال الانقطاع إليك»[1].

**قبلتهم:** «القبلة» أصلها «القُبول» و «الاقبال» بمعنى المواجهة والمقابلة، وهي من قبيل «قِبَل» اسم للجهة المقابلة: **﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾**[2].

ومع التوجّه إلى هيئة «فِعْلَة» التي تفيد بيان نوع خاص وحالة للشخص ووزنها، فإنّ المعنى الاصلي للقبلة بيان لحال المستقبِل، وتعبير قطرب كما نقله عنه الفخر الرازي في تفسيره: «يقولون في كلامهم ليس لفلان قبلة، أي: ليس له جهة يأوي إليها»[3]، إلا أنّ كلمة القبلة في عرف اليوم، بسبب كثرة الاستعمال وغلبة الاستفادة منها في الكعبة، صارت عَلَما للجهة التي يتوجّه إليها المسلمون في أعمالهم العبادية.

وأمّا المراد من «قِبْلَتِهِمْ» في الآية الشريفة الّتي هي مورد البحث، فهي بيت المقدس الّذي كان المسلمون يتوجّهون إليه قبل الهجرة الشريفة وبعدها لبعض الاشهر في صلاتهم.

**يهدي:** «الهداية» في مقابل «الضلالة»، بمعنى: إراءة طريق الرشد، وتعيين الطريق لنيله[4].

---

١ . **مفاتيح الجنان**، المناجاة الشعبانية.

٢ . **سورة البقرة**، الآية ١٧٦.

٣ . **التفسير الكبير**، ج٤، ص٩٣.

٤ . **التحقيق**، ج١١، ص٢٤٧، «هـ د ي».

## تناسب الآيات

طبقا لما يراه بعض المفسّرين، ليس للآية الّتي هي مورد البحث ارتباط لفظي بالآيات السابقة عليها، فهي استئناف محض[١]. ولكنّها على الرغم من ذلك ـ طبعا ـ من جهة تعرضها لعقائد اليهود ومن كان معهم ومواقفهم وتصرفاتهم في ما يرتبط بتغيير القبلة، فإنها تدل على استمرار ضلالة هؤلاء وسفاهتهم[٢]، كما أنّها تعتبر بلحاظ آخر استمرارا لمحاجّة أهل الكتاب[٣].

وقد ذهب الآلوسي في تفسيره إلى أنّ المناسبة بين هذه الآية لما قبلها، هو أنّ الآية السابقة قدح في الاصول، والآية الّتي هي محلّ الكلام قدح في أمر متعلق بالفروع، وأمّا عدم العطف بينهما، فإنما هو تنبيه على استقلال كلّ منهما في الشناعة[٤].

تشكّل هذه الآية والآيات العشر التالية لها فصلا من فصول سورة «البقرة» وقسما من أقسامها، وقد اختلف المفسرون الذين اعترفوا بوجود الارتباط المفهومي والمحتوائي بين هذا القسم والآيات السابقة، والذين صرحوا بوجود مناسبة بديعة بين القسمين[٥]، في تحليل وتبيين هذا الارتباط. وأهمّ الوجوه في المقام هي:

١ ــ إنّ بيان قصّة تأسيس الكعبة وتطهيرها على يد حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في الآيات السابقة، كانت تهيئة لأرضية حادثة تغيير القبلة

---

١ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٧.
٢ . إعراب القرآن، ج١، ص٢٠٠، التفسير المنير، ج٢، ص٧، نظم الدرر، ج١، ص٢٥٩ ـ ٢٦٠.
٣ . تفسير المنار، ج٢، ص٣.
٤ . روح المعاني، ج٢، ص٤.
٥ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٥.



العظيمة وبيانا لهذا الحكم الالهي المهم. وبعد تهيئة الارضية تلك، قام الله سبحانه وتعالى في الآية الّتي هي مورد البحث بالاخبار عمّا سيكون من اعتراضات من قبل اليهود ومشركي الحجاز في هذا المجال، وقام بتعليم جواب تلك الاعتراضات للرسول الاكرم ﷺ[1].

وقد ذهب البقاعيّ في تفسيره إلى أنّ هناك خمسة موارد في الآيات السابقة ممّا كان يهيئ الارضية لهذا الاخبار، خامسها: كان ضمن الاشارة إلى الامر بتأسيس الكعبة وتعظيمها واتّخاذها مصلّى[2].

٢ ـ إنّ الآيات التي قبل الآية الّتي هي محلّ الكلام قد تكرّر فيها التنويه بإبراهيم وملته، والكعبة، وأنّ من يرغب عنها قد سفِه نفسه، فكانت مثاراً لأن يقول المشركون: ما ولّى محمداً وأتباعه عن قبلتهم التي كانوا عليها بمكة (أي: استقبال الكعبة)، مع أنّه يقول إنّه على ملّة إبراهيم ويأبى اتّباع اليهودية والنصرانية، فكيف ترك قبلة إبراهيم واستقبل بيت المقدس؟

ولأنّه قد تكرّرت الاشارة في الآيات السابقة إلى هذا الغرض، وقد علم الله ذلك منهم، أنبأ رسوله بقولهم وأتى فيه بهذا الموقع العجيب، وهو أن جعله بعد الآيات المثيرة له وقبل الآيات التي أُنزلت إليه في نسخ استقبال بيت المقدس والامر بالتوجه في الصلاة إلى جهة الكعبة، لئلّا يكون القرآن الّذي فيه الامر باستقبال الكعبة نازلاً بعد مقالة المشركين فيشمخوا بأنوفهم يقولون: غيّر محمّد قبلته من أجل اعتراضنا عليه، فكان لموضع هذه الآية هنا أفضل تمكّن وأوثق ربط.

---

١ . الميزان، ج١، ص٣٢٠ـ ٣٢١.

٢ . نظم الدرر، ج١، ص٢٦٠.

وبناء على هذا الوجه، يكون المقصودُ من السفهاء في الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام هو المشركين أو المنافقين[١].

وفي مقام بيان الموقف من هذا الوجه، يجب أخذ النقاط التالية بنظر الاعتبار:

١ ـ لمّا كان ظاهر ﴿**سيقول**﴾ هو الاستقبال، فإنّه يجب العمل طبقا لهذا الظاهر ما لم تأت قرينة على الخلاف، وعند مراجعة التاريخ الصحيح المقبول لحضرة الرسول الاكرم ﷺ والمؤمنين به، فإنّ توجّه المسلمين إلى بيت المقدس كان ثلاث عشرة سنة في مكّة وسنة وبعض السنة في المدينة المنورة، ولم يكن أيّ طعن من قبل المشركين والمنافقين، فيعلم بذلك أنّ المقصود بالسفهاء ليس خصوص المشركين، وأنّ المقصود من التولّي عن القبلة هو التولّي عن الكعبة التي كانت محل احترام من قبل الانبياء السابقين عليهم السلام.

٢ ـ إنّ الاعتراض والطعن المذكور من قبل مخالفي الاسلام إنّما بدأ مقارنا لتغيير القبلة، انطلاقا من حجة تحجّج بها كلّ فرد، وهو ما سيأتي خلاصته في قسم التفسير.

٣ ـ لسورة البقرة ستة أقسام أو مقاطع، ومحور القسم الرابع ـ يعني: الآيات ١٢٤ ـ ١٥٢ ـ هو شخصية حضرة إبراهيم عليه السلام[٢]. وفي آيات من هذا القسم جاء الحديث عن الكعبة، وهي التي بينها وبين حضرة إبراهيم عليه السلام رابطة من نوع خاص، ثم جاء التعرض إلى موضوع القبلة التي لها من العلاقة بالكعبة ما لا يخفى[٣].

---

١. تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٥ ـ ٧.
٢. التفسير البنائي، ج١، ص٢١ ـ ٢٢.
٣. تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٨٣ ـ ٨٤.



٤ ـ إنّ الموضوع المحوري للمقاطع المختلفة من سورة البقرة المباركة هو طريق الوصول إلى التقوى، وأنّ الوسيلة الوحيدة لنيل التقوى والفوز بها هي العبودية لله سبحانه وتعالى، وقد عمق هذا المطلب من خلال الآيات المتعلّقة بحضرة إبراهيم عليه السلام مع ذكر بعض العبادات من قبيل الطواف، والاعتكاف، والركوع، والسجود، ولمّا كان الركوع والسجود مما يحتاج إلى القبلة، فهذه المقدمات فيها إشارة إلى أنّ كعبة إبراهيم عليه السلام تستأهل أن تكون قبلة المسلمين في الصلاة، وكان قلب الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله المبارك مريدا لذلك منتظرا له، وهذا ما جعل المقطع التالي، يعني: الآيات ١٤٢ إلى ١٥٢ يتحدث عن القبلة.

والمقطع الحالي له صلة واضحة بكلّ واحد من المقاطع السابقة، ويعتبر ذكره بعد تقدم جميع المقدمات اللازمة دلالة على أهمية مسألة القبلة[1].

٥ ـ إنّ الآيات ١٢٧ إلى ١٢٩ قد تعرّضت إلى ما دعا به كلّ من حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حينما كانا يبنيان جدران الكعبة، من تقبّل عملهما من قبله سبحانه وتعالى، وجعل أمّة مسلمة لله من ذريّتهما، وبعث الرسول فيهم منهم، ثم تأتي الآية الّتي هي محلّ الكلام لتبيّن تقبّله سبحانه وتعالى ما كان من النبيّين العظيمين عليهما السلام، وجعله الكعبة قبلة للمسلمين، ومن جعل الامّة المسلمة من ذريّتهما، الامّة المسلمة له تعالى في مسألة القبلة وما شابهها[2].

٦ ـ إنّ المقايسة بين بني إسرائيل وبني إبراهيم عليه السلام التي مرّت قصتها في الآيات السابقة، تظهر أن بني إسرائيل مع جميع ما كانوا عليه من لوث الكفر والظلم وعدم التقوى، لم يكونوا أهلا لخلافة الارض وللامامة فيها، والأهل لذلك إنّما هم المسلمون التابعون لملّة حضرة إبراهيم الحنيف، ومن كان نبيّهم

---

١ . الأساس في التفسير، ج١، ص٢٩٥ ـ ٢٩٨.

٢ . التفسير الكاشف، ج١، ص١٦١.

نتيجة لدعاء حضرة إبراهيم عليه السلام، ومن هنا، نجده سبحانه وتعالى يعلن عن استقلال المسلمين عن اليهود عن طريق تغيير القبلة[١].

والنتيجة التي نخلص إليها مما تقدم من وجوه في بيان الارتباط والصلة بين ما نحن فيه من هذه الآية الشريفة والآيات السابقة عليها، هي ما يلي:

١ ـ إنّ أصل تناسب الآيات محفوظ ومحرز؛ فإنّ الآية الّتي هي محلّ البحث وما سيتبعها من آيات ليست جملة معترضة ولا استينافا صرفا.

**إشارة**: تبيين كيفية بناء الكعبة، ذكر مؤسّسي الكعبة وبيان بعض أوصافهم، أمره سبحانه وتعالى الانبياء الالهيين بتطهير الكعبة وذكر بعض أهداف الكعبة ومميزاتها في الآيات، كلّ ذلك كان مقدّمة وتهيئة للارضية لتقديم الكعبة قبلة ومطافا للمسلمين.

٢ ـ إختلاف الوجوه المذكورة فيما بينها؛ ففيما كان بعضها غير منسجم مع سياق الآية أو سياق الآيات، كان بعضها الآخر منسجما متناسبا أو يمكن أن يكون كذلك.

٣ ـ ما ابتلي من تلك الاوجه بالضعف الداخلي أو المانع الخارجي، فهو خارج عن حريم تناسب الآيات، وما لم يكن كذلك من تلك الاوجه، فمن الممكن أن يذكر وجها للتناسب بين الآيات الشريفة في المقام.

٤ ـ كما يطرح في مجال استظهار المطلبِ التفسيري في الآية آراء مختلفة متنوعة، فكذا الحال في ما يرتبط بمسألة تناسب الآيات، بل يمكن القول بالتأثير والتأثّر المتقابل بين البحثين.

❋ ❋ ❋

---

١. **التفسير الكاشف**، ج١، ص١٤٠.




## الإخبار الغيبي بتغيير القبلة والإعلام المسبق عن ذلك

الإعلام المسبّق عن تغيير القبلة، والاخبار الغيبي باعتراض السفهاء على ذلك مع جوابه، يعتبر كلّ واحد منهما أو مجموعهما مما يمكن طرحه كمعجزة من معجزاته ﷺ؛ إذ إنّه سبحانه وتعالى ببيان ذلك في هذه الآية الشريفة، إضافة على تهيئة الارضية لمسألة تغيير القبلة، يهيّئ الرسول الاكرم ﷺ لتحمّل تبعات ذلك؛ إذ اعتبر سبحانه وتعالى مسألة تحويل القبلة امتحانا صعبا، كما جاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿... وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً...﴾[1].

للحادث بعد وقوعه مجموعة من الآثار الطبيعية، وأمّا قبل ذلك، فإنّ العلم بذلك يرجع إلى العلم بالغيب، فإنّ تعيين المجموعة التي ستعترض، وما ستقدّمه من اعتراض، والطريقة التي ستطرح بها ذلك الاعتراض، والجواب الناجع على ذلك الاعتراض، كلّ واحد من تلك الامور ليس أمرا عاديا طبيعيا أبدا، بل هي أمور خارقة للعادة يمكن اعتبار مجموعها ظاهرة معجزة.

الإطلاع السابق على الحادثة قبل وقوعها، ومعرفة الموقف منها، من العوامل المساعدة جدا على تحمّل الحادثة حين وقوعها، بخلاف ما لو كان تغيير القبلة قد كان بشكل غير متوقّع؛ إذ سيواجه الرسول الاكرم ﷺ حينئذ جملة من الاعتراضات غير المنتظرة ولا المتوقّعة التي لا يسهل التعامل معها على الاقل من قبل الامّة الاسلامية.

وقد تعرّض القرآن الكريم لجملة من نماذج الاخبار الغيبي والاعلام القبليّ عن الحوادث المهمّة، وقد كان ذلك من مفاتيح حل المشاكل التي كان الرسول الاكرم ﷺ يواجهها خلال رسالته، بحيث كان يمكنه حينئذ مواجهتها واتخاذ

---

١. سورة البقرة، الآية ١٤٣.

المواقف الصحيحة حيالها، من قبيل ما قام به بعض المنافقين وضعفاء الايمان من دسائس في ما يرتبط بالحضور في جبهات القتال، في ما ورد في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنْ الاعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَو أَرَادَ بِكُمْ نَفعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِليهم قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾[٢].

هذا، وقد ذهب البعض إلى وجود تقديم وتأخير في هذه الآيات، يعني: خلافا للترتيب الحالي للآيات، فإنّ نزول الآية الّتي هي مورد البحث يكون بعد الآية الشريفة: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[٣].[٤]

والصحيح: عدم أيّ تقديم وتأخير في المقام؛ إذ كما سبق، فإنّ الآية الّتي هي محلّ الكلام تتضمّن الاخبار الغيبي والاعلام القبلي بتغيير القبلة وما سيكون من قبل السفهاء من اعتراضات في هذا المجال، فليس هناك أيّ تقديم وتأخير.

### السرّ في سفاهة المعترضين على تغيير القبلة

كان حضرة إبراهيم عليه السلام مظهرا للرشد، وكانت سيرته معيارا للعقل والحجى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[٥]، ومن هنا، يعتبر الاعراض عن

١ . سورة الفتح، الآية ١١.

٢ . سورة التوبة، الآية ٩٤.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٤٤.

٤ . تفسير القمي، ج١، ص٦٣.

٥ . سورة الانبياء، الآية ٥١.



ملّته، والاعتراض على حكمِ تغيير القبلة من القدس إلى الكعبة التي أقام أسسها، علامة على السفاهة، كما يعتبر المعرض عن تلك الملّة وهذه القبلة سفيها: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[1].

السرّ الآخر في سفاهة المعترضين على تغيير القبلة ـ كما سنتعرّض إليه إن شاء الله تعالى ـ هو أنّهم لم يكونوا يعلمون بأنّ كون جهة خاصّة قبلة ليس أمرا ذاتيّا لتلك الجهة لكي يكون العدول عن تلك الجهة مستحيلا عقلا؛ فإنّه سبحانه وتعالى يحدّد كيفية العبادة والجهة التي يجب التوجّه إليها خلالها على أساس ما يعرفه من المصلحة، فيصدر الامر على طبق تلك المصلحة، ومن يعترض على أمره سبحانه وتعالى حينئذ فلا يلتزم به، فلا جرم مِنْ أنّه يعتبر سفيها.

المعيار العام للرشد ــ الذي قدّم حضرة إبراهيم عليه السلام كنموذج كامل ومصداق بارز له من قبله سبحانه وتعالى ـ هو حبّ الايمان به سبحانه وتعالى والاندكاك بذلك الايمان، والانزجار من الكفر والفسق والمعصية: ﴿... وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الايمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ﴾[2].

**تنويه:** السفاهة ليست صفة من صفات البدن؛ فإنّ الروح والنفس سفيهة لا البدن، وإن كان من الممكن أن تظهر بعض علامات السفه على البدن.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنّ المنافقين سفهاء بلحاظ الروح: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمْ السُّفَهَاءُ﴾[3]، وإن كانت أجسامهم معجبة حين النظر إليها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾[4].

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٣٠.

٢ . سورة الحجرات، الآية ٧.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٣.

٤ . سورة المنافقون، الآية ٤.





## كلام الكافرين والمشركين السفيه بالنسبة إلى تغيير القبلة

لم يكن المعترضون على تغيير القبلة من أصناف الناس المحترمة، من قبيل الحكماء أو الفقهاء أو الاطباء أو المنجّمين أو غير هذه الاصناف، وإنّما كانوا من الاصناف الدنيئة.

والمقصود من السفهاء ما هو الاعم من المشركين واليهود والمنافقين، ولو كان التعبير القرآني قد ورد: «ما ولّاهم عن قبلتنا»، فإضافة على عدم صحة الجواب على هؤلاء حينئذ، فإنّه لن يشمل السفهاء المشركين والجبهة الداخلية من المنافقين.

وشمول السفهاء لليهود له ظهور اقوى من غيره؛ إذ إضافة على دعمهم لكون القدس قبلة، فقد كانوا يمنعون من وقوع النسخ، ما أدّى إلى عدم قبولهم بالتوجه إلى الكعبة بأيّ وجه من الوجوه.

وعلى أيّ تقدير، فإنّ كلمة «سفهاء» في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، تشمل المشركين واليهود والمنافقين، وإن كان الباعث على الاعتراض في كلّ مجموعة من هؤلاء يختلف عن الآخر.

أمّا المشركون والمنافقون، فقد كان اعتراضهم السفيه ناشئا من عدم قيام قبلة المسلمين الحالية وقبلتهم السابقة على أساس المنطق والعقل، فلا ثبات لما ذهبوا إليه إذن.

وأمّا اعتراض اليهود السفيه، فهو أنّهم كانوا يتساءلون عن السبب الّذي جعل المسلمين يغيّرون قبلتهم من بيت المقدس الّذي كان محل اهتمام الانبياء السابقين، والذي يعتبر مكانا مقدّسا، ويتوجّهون إلى جهة اخرى؟: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.



وأمّا السرّ في عدم ذكر الرسول الاكرم ﷺ والمسلمين بعناوين من قبيل النبوّة والاسلام من قبل هؤلاء السفهاء، والتعبير عنهم بضمير الجمع للغائب ﴿ماولّاهُم﴾، هو عدم اعتقاد هؤلاء بنبوة نبيّنا الاكرم ﷺ، فهؤلاء لو كانوا قد قبلوا بذلك، لما اعترضوا عليه من أول الامر؛ لعلمهم حينئذ بتبعيته للوحي، ولو كان الوحي قد نزل بتغيير القبلة من القدس إلى الكعبة، فيجب عليهم الاطاعة حينئذ.

وهؤلاء قد وصلت بهم الحالة حتّى إلى عدم استخدام كلمة ﴿مَنْ﴾ وما شاكلها في طرحهم للاعتراض، لكي يعكسوا أنّ تغيير القبلة لم يكن من قبله سبحانه وتعالى، بل من قبل جهة آخرى مجهولة، ولربما كانت تلك الجهة المجهولة بادّعاء هؤلاء الاهواء والميولات النفسية مثلا.

**نكتة:** تضاربت الآراء حول عامل تعيين القبلة الاولى، وقد أشار أبو حيّان الاندلسي إلى أربعة وجوه هي:

الأوّل: الوحي المتلوّ.

الثاني: الأمر غير المتلوّ.

الثالث: تخييره سبحانه وتعالى رسوله الاكرم واختياره ﷺ بيت المقدس.

الرابع: إجتهاد النبيّ الاكرم ﷺ بدون وحي ولا أمر إلهي[1].

ومن اللازم الالتفات إلى أن الاجتهاد المصطلح نقص بالنسبة إلى النبوي والولوي؛ فإنّ هذه الذوات القدسية عليهم السلام تعلم بالاحكام الالهية بالوحي والالهام وتعمل بها، وأمّا الاحتمالات الثلاث الاخرى فلا محذور عقلي فيها، إلا أن المستفاد من ظاهرِ قوله تعالى: ﴿... **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا**

---

١. راجع: **تفسير البحر المحيط**، ج١، ص٥٩٤. **الجامع لأحكام القرآن**، مج١، ج٢، ص١٤٠.

﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ...﴾[1] هو الاصل الوحياني للامر الالهي وإن لم يظهر للعلن على شكل آية تتلى.

## جوابه سبحانه وتعالى على اعتراض المعترضين

وفي معرض جوابه سبحانه وتعالى على الاعتراض المزبور، نسمعه تعالى يقول: إنّ له تعالى جميع الجهات: ﴿لله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، وذلك لما يلي:

أوّلا: بناء على كروية الارض وحركتها الوضعية، فإنّ كلّ نقطة من نقاط الارض مشرق لتكون النقطة المقابلة لها المغرب، فجميع نقاط الارض بسبب طبيعة حركة الارض الكروية مشرق ومغرب، وعليه، فالمراد من المشرق والمغرب في الآية الكريمة هو جنس المشرق والمغرب لا المشرق والمغرب الخاصّانِ، ما يفسّر مجيء الجهتين بصيغة الجمع في آية أخرى، حيث يقول عزّ من قائل: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾[2].

ثانيا: لو لم يكن المشرق والمغرب موجودين لما كان هُناك شمال وجنوب، وعليه، فجميع الجهات له تعالى، كما أنّ المبدأ الفاعلي لتعيين القبلة، وأنها أيّة جهة من تلك الجهات هو تعالى أيضاً. فكلّ جهة من تلك الجهات الأربع له تعالى على نحو واحد بلا أيّة مزيّة لواحدة من تلك الجهات على الأخرى، ما يعني أنّ الجهة التي يقع فيها بيت المقدس لا أفضلية لها على الجهة التي تقع فيها الكعبة، كما أنّ بيت المقدس بنفسه ليس بأفضل من الكعبة لكي يكون العدول عن جهته قبيحا عقلاً.

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٤٣.

٢ . سورة المعارج، الآية ٤٠.




ومن هنا، تبرز سفاهة عقلية المعترضين على تغيير القبلة؛ فإنّهم لا يعرفون أنّ كون بيت المقدس قبلة ليس أمرا ذاتيا لكي يكون العدول عن جهته قبيحا عقلاً.

إنّ الله سبحانه وتعالى حقيقة غير محدودة لها حضورها في جميع الجهات والاتجاهات، وله شهوده على جميع الامكنة، فليس سبحانه وتعالى في جهة أو مكان خاصين دون غيرهما.

إنّ جميع الجهات عنده سبحانه وتعالى على نحو واحد، كما أنّ كلّ مكان وجهه تعالى، ما يفسّر أنّ الانسان أينما وجّه وجهه فقد وجّهه إليه سبحانه وتعالى، قال عزّ من قائل: ﴿وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[1]. ولو كان سبحانه وتعالى في جهة خاصّة، لكان غائبا عن الجهات الاخرى وآفلا عنها، وما يغيب ويأفل لا يكون إلها.

فالمراد إذن بالمشرق والمغرب في مثل هذه الآيات هو جميع الجهات الأربع؛ فإنّ المراد لو كان غير ذلك، بأن كان جهة خاصّة دون غيرها، لكان الدليل المذكور أخص من المدعى حينئذ فلم يتم، فإنّ المدعى هو أن الانسان أينما يتجه فإنّه إنّما يتجه إليه سبحانه وتعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾، وأمّا الدليل، فسيكون أن مشرقا ومغربا خاصين له تعالى: ﴿وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، ومن الواضح أن الدليل على هذا سيكون أخص من المدعى.

بناء على ما سبق، فإنّ وجه مناسبة الدليل في المقام للمدعى، هو:

أوّلا: أنّ جميع نقاط الارض مع التوجّه إلى الحركة الوضعية للارض مشرق ومغرب؛ فإنّ ما يجعل المشرق والمغرب إنّما هو شروق الشمس وغروبها، ولما كانت الارض كروية، ومع أخذ طبيعة حركة الارض بنظر الاعتبار، فإنّ

---

١ . سورة البقرة، الآية ١١٥.





الشمس في كلّ لحظة من اللحظات تشرق على نقطة فيما تغرب عن نقطة أخرى، فجميع نقاط الارض مشرق ومغرب.

ثانيا: أنّ الجهات الاخرى ـ يعني: الشمال والجنوب و... ـ ترجع إلى هاتين الجهتين، ما يعني أنّ المشرق والمغرب المذكورين في الآية الشريفة: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، ليسا في مقابل الشمال والجنوب أو الفوق والتحت، بل يشملان جميع الجهات، فيكون معنى الجملة السابقة، هو: أنّ لله تعالى جميع الجهات، ما يعني أنّ الانسان أينما يتّجه فهو إنّما يتّجه لوجهه سبحانه وتعالى وفيضه وآياته، والذي يعني بدوره أنّه ما لم يعيّن جهة خاصّة من قبله تعالى من أجل العبادة، فإنّه يمكن التوجّه إلى أيّة جهة شاء الانسان.

وأمّا في غير الاعمال والعبادات التي يعتبر فيها التوجّه إلى الكعبة، فمع أن التوجّه إليها قد يكون أفضل، إلا أنّه لا تعيّن لذلك، وأمّا ما نشاهده في بعض حالات العبادات المشروطة باستقبال القبلة، من قبيل الصلاة المستحبّة حال الحركة من صحة التوجّه إلى غير الكعبة، لا يعني عدم مشروطية الصلاة في تلك الحالة بالتوجه إلى القبلة، وإنّما هو من باب التوسعة فيها، فلا يتعيّن استقبال الكعبة في مثل هذه الحالات، إلا أنّها تبقى مع ذلك مشروطة بالتوجّه إلى القبلة.

والحاصل: أنّ التوجّه السابق من قبل المسلمين سابقا إلى القدس، وتحوّلهم بعد ذلك إلى الصلاة باتجاه الكعبة، كلاهما حق؛ فإنّ تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، تحويل من حقّ مقطعي إلى حقّ في مقطع آخر، لا من باطل إلى باطل، أو من حقّ إلى باطل، أو من باطل إلى حقّ. وليس لأيّة جهة من الجهتين رجحانٌ ذاتيٌّ لكي لا يمكن العدول عنها.

فالله سبحانه وتعالى ـ على أساس المصلحة ـ جعل بيت المقدس قبلة في مقطع من مقاطع الزمان، بينما جعل الكعبة قبلة في مقطع آخر طبقا للمصلحة



أيضاً، فكيفية عبادته سبحانه وتعالى وجهتها، أمر عائد إليه يأمر به عباده، والمعترض حينئذ لا يكون إلا سفيها.

**نكات:** ١ ـ على الرغم من إمكانية تمتّع بعض الامكنة كبيت المقدس والكعبة بقداسة خاصّة على أثر مجموعة من الاسباب، ككونها مدفنا لكثير من الانبياء السابقين أو المؤسّسين لتلك الامكنة، إلا أنّ ذلك ليس مؤثّرا في تعيين القبلة، بل المؤثّر هناك هو الجهة لا البناء المعيّن، خلافا للطواف وصلاته طبقا لبعض العناوين الواردة في الادلة؛ حيث الكلام عن خصوصية المكان.

٢ ـ حياة المسلمين وموتهم متعلقان بالكعبة؛ كونها القبلة الرسمية والعامّة لهم. فهناك الكثير من الممارسات في حياة الانسان ترتبط ارتباطا وثيقا بالكعبة كقبلة، من قبيل: وجوب التوجّه إليها في الصلاة والطواف والذبح والنحر، وكذا استقبالها أو استدبارها حرام حين التخلي. وكذا يجب ملاحظة الكعبة بنظر الاعتبار حال الاحتضار والموت وما بعد الموت. كلّ ذلك، جعل الشعار الرسمي للاسلام هو: «... والكعبة قبلتي»[1].

من الطبيعي أنّ القبلة هي ذلك البُعْد الخاص الّذي يستقر فيه بناء الكعبة؛ إذ تعرّضت الكعبة خلال التاريخ للكثير من الحوادث الطبيعية وغير الطبيعية السياسية والاجتماعية التي أثّرت فيها، من قبيل السيول، والهدم بالمنجنيق، وإزالة البناء لإعادته أو تعميره، فلو كان البناء الخاص هو القبلة، للزم انعدام القبلة حين زوال البناء خلال تلك الحوادث، ما يفسّر ـ ما قلناه من أنّ القبلة الحقيقية هي خصوص ذلك البُعْد المعيّن الّذي يقع فيه ذلك البناء لا نفس البناء.

٣ ـ لقد كان سعي الرسول الاكرم ﷺ في صلاته قبل الهجرة من مكّة ـ حيث كانت القبلة الرسميّة للمسلمين هي بيت المقدس ـ هو أن يتوجّه في

١ . **بحار الانوار**، ج٦، ص١٧٥، ٢٢٨ ـ ٢٢٩ و ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

صلاته بحيث يكون متوجّها قدر الامكان إلى بيت المقدس والكعبة في آن واحد[1].

مع الالتفات إلى إمكانية الصلاة إلى أيّة جهة من جهات الكعبة، فقد كان الرسول الاكرم يقف إلى جنوب الكعبة بحيث تقع الكعبة بينه وبين بيت المقدس، وأمّا في المدينة، وفي الجانب الشرقي أو الغربي أو الشمالي للكعبة، فلم يكن ذلك ممكنا، ولهذا لم يكن ﷺ يصلّي في المدينة إلّا إلى بيت المقدس في المدّة التي سبقت تغيير القبلة.

## تفاوت الخطوط الخاصّة للدين في الشرائع المختلفة

إستعمل السفهاء في سؤالهم عن عامل تغيير القبلة كلمة «ما» المفيدة للابهام فقالوا: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾، فأجابهم الله سبحانه وتعالى بأنّ ذلك هداية إلهية: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فالجهة التي يتوجّه إليها المصلّون ـ شأنها شأن أصل الصلاة وكيفيتها ـ إنّما هي أمر إلهي يجب العمل به.

إنّ هيأة الصلاة، وعدد ركعاتها، والاذكار المطلوبة فيها، والجهة التي يجب التوجّه إليها خلالها، كلّها أمور تختلف من أمّة إلى أخرى، ومن شريعة إلى أخرى؛ فإنّه تعالى يأمر كلّ أمّة من الامم بما يعلمه من المصلحة لتلك الامّة، ومن ذلك ما يرجع إلى القبلة واتّجاهها، لكي يكون صراط تلك الامّة المستقيم هو ذلك الّذي أمر به سبحانه وتعالى، يعني: رعاية ما كان من قبيل هذه الخصوصيات والجزئيات التي أمر بها تعالى، فإنّ هذا ما يضمن وصول تلك الامة إلى ذلك الطريق القويم.

---

١. الكافي، ج٣، ص٢٨٦، بحارالانوار، ج٨١، ص٥٩ و ج٩٢، ص٢١٨. وستأتي هذه الاحاديث في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.




ولمزيد التوضيح نقول:

إنّ الخطوط العامّة للدين في ما يرجع إلى المبدأ والمعاد والنبوّة واحدة في جميع الشرائع لا تقبل التغيير، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الاسْلامُ﴾[1]، ما يفسّر عدم تكذيب الرسول التالي للرسول السابق في هذه الخطوط العامّة المشتركة بل تصديقه له فيها، قال تعالى: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[2].

وأمّا في الفروع والخطوط الفرعية للدين، والتي يطلق عليها «الشريعة» و«المنهاج»، فهي أمور قابلة للتغيير تختلف من أمّة إلى أمّة أخرى، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[3].

وفي هذه الفروع يأتي الكلام في نسخ المنهاج والشريعة لا التصديق، بعبارة أخرى: ليس هناك نبيّ صاحب كتاب بعث لكي يحافظ على جميع خصوصيات شريعة النبيّ السابق عليه، فهذا النبيّ وإن كان يصدّق الخطوط العامّة لكتب الانبياء السابقين، إلا أنّه يحمل شريعة ومنهاجا مستقلين خاصّين به.

والصلاة والصيام واستقبال جهة خاصّة دون غيرها في بعض العبادات، كلّ تلك الامور تعتبر جزءا من أجزاء المنهاج والشريعة ومن جملة الفروع لتلك الشريعة لا من أصول الدين، ما يعني إمكانية تعرّضها للنسخ والتغيير والتبديل على أساس ما يراه الشارع من المصلحة.

يرجع النسخ ـ طبعا ـ من زاوية علمه سبحانه وتعالى غير المحدود إلى التخصيص الزماني، بمعنى انقضاء زمان الحكم القبلي وحلول زمان الحكم البعدي.

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١٩.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٩.

٣ . سورة المائدة، الآية ٤٨.

وقد أكّد بعض المفسّرين على مسألة أنّ حادثة تغيير القبلة هي من سنخ التخصيص لا من صنف النسخ أوّلا، وأنّ المعيار في العلم هو الحاكم (وهو الله سبحانه وتعالى)، لا المحكوم عليه (وهو الناس) ثانيا[1].

## السرّ في تنكير الصراط المستقيم في الآية الكريمة

كما كانت هجرة الرسول الاكرم ﷺ من مكّة إلى المدينة وتشكيل الحكومة الاسلامية المستقلة من قبله ضربة قاصمة للمشركين، كذلك كان الامر بالنسبة إلى تغيير القبلة من القدس إلى الكعبة، فقد كان مسألة مهمة في تأسيس نظام ديني مستقل ذلك الزمان، الامر الّذي كان بدوره يشكّل ضررا كبيرا على اليهود ونفعا عظيما للمسلمين في الوقت نفسه.

ما سبق، أدّى إلى اعتبار القرآن الكريم هذا التحوّل والتغيير أمرا إلهيا وهداية من جانبه سبحانه وتعالى إلى الصراط المستقيم، يختص به تعالى من تعلّقت مشيأته الحكيمة بهدايته إلى طريق الحقّ.

وأمّا مجيء تعبير ﴿**صراط مستقيم**﴾ نكرة في الآية الّتي هي محلّ الكلام، فليس المقصود به الابهام وعدم التعيّن الواقعي له لكي يكون مرافقا للتعدّد ومؤيّدا للتعددية (البلوراليزم) في المجال الاعتقادي، والاخلاقي، والفقهي والحقوقي، وإنما هو ناظر إلى العصور المتعدّدة التي يتطلّب كلّ واحد منها صراطا مستقيما خاصا به.

وللتوضيح نقول:

لقد تعرّض القرآن الحكيم إلى بيان أقسام متعددة من الصراط المستقيم وهي:

---

١ . رحمة من الرحمان، ج١، هامش ص٢١٢.

١ ـ في ما يرجع إلى نظام التكوين.

إنّ لكلّ موجود عيني طريقه الخاص للتكامل يمثّل صراطه المستقيم في هذا المجال، بحيث لو أراد موجود آخر أن يستفيد من ذلك الطريق في تكامله، لما أصابه إلا النصب والخسارة والخذلان.

فعلى سبيل المثال: أن الطريق المائي يعتبر صراطا مستقيما للاسماك، بينما يعتبر طريقا إلى الهلاك بالنسبة إلى الطيور، كما أنّ الطريق الهوائي صراط مستقيم للطيور، بينما هو طريق موت لغيرها، وهكذا الامر بالنسبة إلى المواد الغذائية وعشرات الامور المختلفة الأخرى.

ومن هنا، قد يأتي الصراط المستقيم في القرآن الكريم منكرا، فيقول عزّ من قائل مثلا: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

٢ ـ في ما يرجع إلى نظام التشريع.

لقد أتى كلّ رسول في عصره الخاص به بمنهاج وشريعة تعتبر الصراط المستقيم للمجتمع البشريّ في ذلك الزمان، ولقد شبّه هذا الامر في بعض الاحاديث التي سنتطرق إليها في البحث الروائي بالفصول الاربعة والليل والنهار وما شابه ذلك، والتي يعتبر كلّ واحد منها الحقّ في المقطع الزماني الخاص به.

وحدة الشرائع والمناهج ليست حقا، كما أنّ تعدّدها باطل أيضاً، من الطبيعي أنّ وحدة الدين ـ يعني الاسلام بالمعنى الّذي ذكرناه سابقا ـ حقّ يعتبر كلّ ما دونه باطل، الامر الّذي جعلنا نرى في القرآن الحكيم تعبيرا من هذا القبيل بواسطة ذكر الصراط المستقيم نكرة: ﴿لله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ﴿... وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

---

١ . سورة هود، الآية ٥٦.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢١٣.

٣ ـ بالنسبة إلى نظام التشريع العائد إلى نبيّ خاصّ في عصر ـ خاصّ وأمّة خاصّة، كما أنّ الدين ـ يعني الاسلام ـ والخطوط العامّة للاعتقاد، والاخلاق، والفقه والحقوق واحدة لا تقبل التعدد، فإنّ الامر كذلك بالنسبة إلى المنهج والشريعة، فإنّها ستكون واحدة لا تقبل التعدّد، ما يفسّر دعوة القرآن الكريم إلى دين واحد ومنهج فارد وشريعة واحدة، معتبرا أنّ جميع ما دونها ضلالة بصورة المعرفة لا النكرة، وبالاشارة إلى الواحد لا المتعدد، وبصورة الحصر ـ لا التخيير، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾[1]، ويقول عزّ من قائل: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾[2]، ويقول أيضاً: ﴿**فإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ**﴾[3].

## إشارات ولطائف

### ١ ـ نسخ القبلة

يعتقد البعض بأنّ الحكم في القبلة قد نسخ مرتين؛ إذ إنّ الفرض هو أنّ الصلاة قد كانت باتّجاه الكعبة أوّلا، وأنّ الرسول الاكرم ﷺ كان يصلّي إلى جهة الكعبة ما دام في مكّة، كما كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يصلّيان باتجاهها.

وأمّا في المدينة، فقد كانت الصلاة تؤدّى باتجاه بيت المقدس، ثمّ حصل النسخ فرجعت الكعبة قبلة في الصلاة.

بناء على ما سبق، يمكن القول بأنّ من خصائص القبلة ما يلي:

---

١ . سورة الحمد، الآية ٦.

٢ . سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٣٧.




١ ـ أنّها مورد أوّل نسخ جاء في القرآن الكريم.

٢ ـ أنّ الحكم المتعلق بها قد نسخ لمرتين.

٣ ـ أنّ نسخ السنّة بالقرآن جائز بل واقع؛ فإنّ كون بيت المقدس قبلة قد ثبت بالسنّة لا بالقرآن، وأنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[1]، هو: «أنت عليها»[2].

ومن الصعب إثبات المدعى المزبور، وأمّا الرأي الصائب، فهو ما مضى بيانه، وهو:

أوّلا: أنّ النسخ يرجع إلى التخصيص.

ثانيا: أنّ النسخ لم يقع أكثر من مرّة بالنسبة إلى القبلة، وقوله تعالى: ﴿... الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ مشعر بالوحي الالهي على الرغم من أنّه سيكون قابلا للانطباق على السنّة حينئذ.

## ٢ ـ حقيقة النسخ

يعتبر بحث «النسخ» واحدا من الابحاث الواسعة، وقد مضى بعض الكلام فيه عند تفسيرنا للآية ١٠٦، إلا أنّ بعض المفسّرين قد نقل ذيل الآية الّتي هي محلّ البحث مطلبين عن منكري النسخ، نرى أنّ من اللازم التعرّض لهما بالتحليل والنقد الفني، فنقول:

أ ـ إنّ نسخ أيّ حكم من الاحكام يعني أن يكون الناسخ إما جاهلا أو مخادعا، ولمّا كان الجهل والتجهيل مستحيلينِ في حقه تعالى ـ وهو صاحب الاسماء الحسنى من الكمال والجمال والجلال ـ فمن بطلان التالي يلزم بطلان المقدّم، فيثبت أنّ النسخ الالهي محال وإن كان أصل النسخ ممكنا.

---

١. سورة البقرة، الآية ١٤٣.

٢. الجامع لأحكام القرآن، مج١، ج٢، ص١٥٠ ـ ١٥١.

ولا كلام في بطلان تالي القياس الاستثنائي المزبور، فالمهمّ إثبات التلازم بين المقدّم والتالي، وهو يثبت بالبيان التالي:

إنّ الحكم المزبور إمّا أن يكون مطلقا بلا قيد وإمّا أن يكون مقيّدا.

فإن كان مطلقا بلا قيد يرافقه، فإنّه يكفي في امتثاله المرّة الواحدة؛ إذ يسقط أيّ حكم من الاحكام بالامتثال ولو مرّة واحدة، فلا يحتاج إلى الاسقاط لكي يسقط بالنسخ.

وأمّا إذا كان الحكم المزبور مقيّدا بقيد، فلا يخلو ذلك القيد من إحدى حالتين؛ إذ إنّ ذلك القيد إما أن يكون مع الدوام أو مع عدم الدوام.

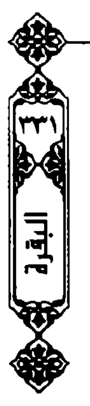
فإذا كان ذلك القيد هو مع عدم الدوام، فإنّ حاله حال ما ذكرناه في الفرض السابق من السقوط بمجرد الامتثال ولو لّمرة واحدة، فيكون عدم النسخ فيه ـ كما كان في الفرض السابق ـ من باب السالبة بانتفاء الموضوع، وبعبارة أخرى: لا حكم من الأساس لكي ينسخ.

وأمّا إذا كان مقيّدا بالدوام، أو كان ذلك الحكم دائميا في الواقع بحيث لا يمكن نسخه حينئذ، أو لم يكن دائميا في الواقع إلا أنّه على الرغم من إمكان نسخه قد بيّن على شكل أمر دائم، ففي مثل هذه الحالة، إذا لم يكن الحاكم عالما بأنّه ليس دائما واقعا، فسيكون جاهلا، وأمّا إذا كان يعلم بذلك وعلى الرغم من ذلك أصدر القانون على هيأة قانون دائم وقام بإعلانه، فسيكون حينئذ بصدد خداع المجتمع أو تجهيل الآخرين.

ففي كلّ نسخ حقيقي إذن، إمّا أن يكون الناسخ جاهلا أو مخادعا بصدد تجهيل المجتمع، وهذا التالي مستحيل في حقّه تعالى، فتكون النتيجة: أنّ النسخ في حكمه تعالى ممتنع[1].

---

١ . التفسير الكبير، ج٤، ص٩٠ ـ ٩١.



وجواب التوهّم الطويل السابق هذه:

أوّلا: رجوع النسخ في مجال حكمه سبحانه وتعالى إلى التخصيص الزماني.

ثانيا: أنّ المخصّص قد يكون أحيانا لفظيا، كما أنّه قد يكون لبيا أحيانا أخرى.

ثالثا: أنّ المخصّص اللفظي أو اللبّي قد يكون متّصلا أحيانا، كما أنّه قد يكون منفصلا أحيانا اخرى.

رابعا: على الرغم من بطلان تالي القياس الاستثنايي المزبور، إلا أنّه لا تلازم بين التالي والمقدم في المقام؛ إذ قد تقتضي ـ المصلحة عدم بيان المخصّص حتى بلحاظ جماعة أهل التكليف.

إذن: كما أنّ الحاكم ليس جاهلا، فإنّه لم يكن ـ ولن يكون ـ مخادعا، ولا بصدد التجهيل أيضاً.

ب ـ التوهّم الآخر الّذي وقع فيه منكرو النسخ، هو أنّه لو سلم إمكان النسخ، فهو إنّما يقع في صورة تفاوت المصلحة، الامر غير الصادق في مسألة تغيير القبلة؛ إذ لا اختلاف بين الجهات والنواحي بالنسبة إليه سبحانه وتعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[1]، وعليه، سيكون النسخ مجرّد عبث يستحيل عليه سبحانه وتعالى[2].

والجواب على هذا التوهّم الضعيف: هو أنّ الجهات بالنسبة إليه سبحانه وتعالى واحدة لا فرق بينها بالنسبة إليه كما جاء في التوهّم، إلا أنّ توجّه الممارسين للعبادة حين العبادة بالنسبة إليهم أنفسهم مختلف ليس بواحد؛ إذ من الممكن أن

---

١ . سورة البقرة، الآية ١١٥ .

٢ . التفسير الكبير، ج٤، ص٩١ . وقد كان الامام الرازي بصدد نقل كلام منكري النسخ في الموردين لا بصدد تصحيحه.

تكون مصلحة مجتمع مّا في توجّهه إليه سبحانه وتعالى عبر التوجّه إلى جهة خاصّة، بينما تكون مصلحة مجتمع آخر في توجّهه إليه سبحانه وتعالى عن طريق التوجّه إلى جهة أخرى.

فالخلط بين الخالق والمخلوق من جهة، وبين الجهة والتوجّه من جهة اخرى، هي التي هيّأت الارضية لولادة هذا التوهّم الثاني.

## البحث الروائي

### ١ـ سرّ تغيير القبلة

قال أبو محمّد العسكري عليه السلام: «**لّما كان رسول الله صلى الله عليه وآله بمكّة، أمره الله تعالى أن يتوجّه نحو البيت المقدس في صلاته، ويجعل الكعبة بينه وبينها إذا أمكن، وإذا لم يتمكّن، استقبل البيت المقدّس كيف كان. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يفعل ذلك طول مقامه بها ثلاث عشرة سنة، فلـمّا كان بالمدينة وكان متعبّداً باستقبال بيت المقدس، استقبله وانحرف عن الكعبة سبعة عشر شهراً** [أو ستّة عشر شهراً]، **وجعل قوم من مردة اليهود يقولون: والله ما دري محمّد كيف صلّى حتّى صار يتوجّه إلى قبلتنا ويأخذ في صلاته بهدينا ونسكنا، فاشتدّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لما اتصل به عنهم، وكره قبلتهم، وأحبّ الكعبة، فجاءه جبرئيل عليه السلام، فقال له رسول الله: يا جبرئيل، لوددت لو صرفني الله عن بيت المقدس إلى الكعبة، فقد تأذّيت بما يتّصل بي من قبل اليهود ومن قبلتهم. فقال جبرئيل: فاسأل ربّك أن يحوّلك إليها، فإنّه لايردّك عن طلبتك، ولايخيّبك من بغيتك، فلـمّا استتمّ دعاءه، صعد جبرئيل عليه السلام ثمّ عاد من ساعته فقال: اقرأ يا محمّد: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾**»[١]. الآيات.

---

١. سورة البقرة، الآية ١٤٤.



فقالت اليهود عند ذلك: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾، فأجابهم الله بأحسن جواب فقال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، وهو يملكهما، وتكليفه التحوّل إلي جانب كتحويله إلى جانب آخر ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وهو مصلحتهم، وتؤدّيهم طاعتهم إلى جنّات النعيم».

قال أبو محمّد عليه السلام: «و جاء قوم من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا: **يا محمّد! هذه القبلة بيت المقدس قد صلّيت إليها أربع عشر سنة ثمّ تركتها الان، أفحقّاً كان ما كنت عليه فقد تركته إلى باطل، فإنّما يخالف الحقّ الباطل، أو باطلاً كان ذلك فقد كنت عليه طول هذه المدّة، فما يؤمننا أن تكون الآن على باطل؟**

**فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بل كان ذلك حقّاً وهذا حقّ؛ يقول الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، إذا عرف صلاحكم يا أيها العباد في استقبال المشرق أمركم به، وإذا عرف صلاحكم في استقبال المغرب أمركم به، وإن عرف صلاحكم في غيرهما أمركم به، فلا تنكروا تدبير الله في عباده وقصده إلى مصالحكم.**

**ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قد تركتم العمل يوم السبت، ثمّ عملتم بعده سائر الايّام، ثمّ تركتموه في السبت، ثمّ عملتم بعده، أفتركتم الحقّ إلى باطل، أو الباطل إلى حقّ، أو الباطل إلى باطل، أو الحقّ إلى حقّ؟ قولوا كيف شئتم، فهو قول محمّد وجوابه لكم. قالوا: بل ترك العمل في السبت حق والعمل بعده حق. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فكذلك قبلة بيت المقدس، في وقته حقّ ثمّ قبلة الكعبة في وقته حقّ.**

**فقالوا: يا محمّد! أفبدا لربّك فيما كان أمرك به بزعمك من الصلاة إلى بيت المقدس حين نقلك إلى الكعبة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما بدا له عن ذلك؛ فإنّه العالم بالعواقب والقادر على المصالح، لايستدرك على نفسه غلطاً، ولايستحدث**

رأياً يخالف المتقدّم، جلّ عن ذلك، ولايقع أيضاً عليه مانع يمنع من مراده، وليس يبدو الا لمن كان هذا وصفه، وهو عزّ وجلّ متعالٍ عن هذه الصفات علوّاً كبيراً.

ثمّ قال لهم رسول الله: أيها اليهود، أخبروني عن الله، أليس يمرض ثمّ يصحّ ويصحّ ثمّ يمرض، أبدا له في ذلك؟ أليس يحيي ويميت؟ أليس يأتي بالليل في أثر النهار ثمّ بالنهار في أثر الليل؟ أبدا له في كلّ واحدة من ذلك؟ قالوا: لا. قال: فكذلك الله تعبّد نبيّه محمّداً بالصلاة إلى الكعبة بعد أن تعبّده بالصلاة إلى بيت المقدس وما بدا له في الاوّل.

ثمّ قال: أليس الله يأتي بالشتاء في أثر الصيف والصيف في أثر الشتاء؟ أبدا له في كلّ واحد من ذلك؟ قالوا: لا. قال: فكذلك لم يبد له في القبلة».

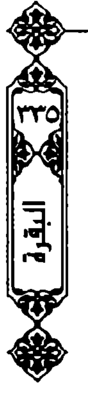
قال: «ثمّ قال: أليس قد ألزمكم في الشتاء أن تحترزوا من البرد بالثياب الغليظة وألزمكم في الصيف أن تحترزوا من الحرّ، أفبدا له في الصيف حتّي أمركم بخلاف ما كان أمركم به في الشتاء؟ قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: فكذلك الله تعبّدكم في وقت لصلاح يعلمه بشيء ثمّ تعبدكم في وقت آخر لصلاح آخر يعلمه بشيء آخر، فإذا أطعتم الله في الحالين، استحققتم ثوابه. وأنزل الله: ﴿وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١]، أي: إذا توجّهتم بأمره فثمّ الوجه الّذي تقصدون منه الله وتأملون ثوابه.

ثمّ قال رسول الله ﷺ: يا عباد الله! أنتم كالمرضى والله ربّ العالمين كالطبيب، فصلاح المرضى في ما يعلمه الطبيب يدبّره به لا في ما يشتهيه المريض ويقترحه، الا فسلّموا لله أمره تكونوا من الفائزين».

فقيل له: يابن رسول الله! فلم أمر بالقبلة الاولى؟ فقال: «لما قال الله عزّوجلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾، وهي بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ

---

١. سورة البقرة، الآية ١١٥.



مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[1]، الا لنعلم ذلك منه موجوداً بعد أن علمناه سيوجد، وذلك أنّ هوى أهل مكّة كان في الكعبة، فأراد الله أن يبيّن متّبع محمّد من مخالفه باتباع القبلة الّتي كرهها ومحمد ﷺ يأمر بها، ولما كان هوى أهل المدينة في بيت المقدس، أمرهم بمخالفتها والتوجّه إلى الكعبة؛ ليبين من يوافق محمّداً فيما يكرهه، فهو مصدّقه وموافقه. ثمّ قال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾[2]، إنّما كان التوجّه إلى بيت المقدس في ذلك الوقت كبيرة الا على من يهدي الله، فعرف أنّ الله يتعبّد بخلاف ما يريده المرء ليبتلي طاعته في مخالفة هواه»[3].

إشارتان: أ ـ لو غضضنا النظر عن مسألة السند، فإنّ التمثيل في الرواية السابقة بالفصول، والحياة والممات، والصحة والمرض و...، والتي تعتبر حقّا في مقطع خاص من مقاطع الزمن، ومن النظام الاحسن للوجود، يعتبر إضافة على كونه من الجدال بالتي هي أحسن، من البيان اللطيف لكون الناسخ والمنسوخ حقّا؛ فقد ذكرت بعض المقاطع الزمنية المختلفة في دين اليهود.

والامر المهمّ الّذي يجب عدم الغفلة عنه، هو أنّ ما يستفاد من ظاهر آية القبلة وظاهر آية الاعطاء في المعاد[4]، هو اهتمامه سبحانه وتعالى الشديد برضا ختام النبوّة ﷺ، إلا أنّه لّما كان ﷺ على منزلة لم يدانيها منزلة منه تعالى على أثر قرب الفرائض والنوافل، بحيث لم يكن يرضيه إلا ما يرضيه سبحانه وتعالى، فإنّ طلب رضاه يرجع إلى طلب رضا الله سبحانه وتعالى، ففي الحقيقة: ما قام به

---

١ و٢ . سورة البقرة، الآية ١٤٣.

٣ . بحارالانوار، ج٨١، ص٥٩ ـ ٦١. من جملة أسرار تغيير القبلة، إضاعة الفرصة على اليهود بالنسبة إلى تكذيب الرسول الاكرم ﷺ، فقد ورد في التوراة في مجال التعريف بنبيّ الاسلام ﷺ أنّه «صاحب القبلتين». (بحارالانوار، ج١٩، ص١٩٣).

٤ . سورة الضحىٰ، الآية ٥. ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.





سبحانه وتعالى من مسألة تغيير القبلة ومسألة الاعطاء يوم القيامة، فإنّما قام به طبقا لرضاه الخاص، وعليه، فطلب رضا الرسول الاكرم ﷺ مع أخذ التحليل السابق بنظر الاعتبار، إنّما يرجع إلى تحصيل رضاه سبحانه وتعالى، كما أنّ مقتضى التوحيد الافعالي هو ذلك أيضاً.

ب ـ مسألة البداء من المباحث الخارجة عما نحن فيه، ولكنها إجمالا هذه:

البداء بمعنى الظهور بعد الخفاء، ما يعني عدم جريانه عليه سبحانه وتعالى بعد كونه العلم المحض والنور الصرف، إلا أنّه ممكن في حقه تعالى فيما لو كان بمعنى الاظهار بعد الاخفاء على اثر مصالح موجبة للاخفاء في مقطع زمني خاص.

وأمّا العلم بالبداء، فهو غير ممنوع بالنسبة إلى الصادر أو الظاهر الاوّل، وأمّا ما ورد في بعض الاحاديث من سلب العلم به من الافراد الكاملين المعصومين، فإنّ المقصود من ذلك إنّما هو أنّ تلك الذوات القدسيّة لا تظهر ذلك لا أنّها لا تعلم به؛ إذ الظاهر من بعض أحاديث الباب نفسه هو أنّهم ليسوا مكلّفين بالاظهار على الرغم من علمهم بذلك في الوقت نفسه.

والجمع الآخر بين الروايات التي ظاهرها التعارض، هو أنّهم لا يعلمون ذاتا وأنّهم يتعلمون بالتعليم الالهي.

## ٢ ـ قبلة الانبياء السابقين والامم السابقة

قال أبو عبد الله عليه السلام: **«إنّ الله عزّ وجلّ لمّا أصاب آدم وزوجته الحنطة، أخرجهما من الجنّة وأهبطهما إلى الارض... وبعث إليه جبرئيل عليه السلام...، فانطلق به إلى مكان البيت...، فقال: ... سيخرج لك بيتاً من مهاة يكون قبلتك وقبلة**



عقبك من بعدك...»[1].

ـ قال السيد: رأيت في الاحاديث المأثورة: «أنّ الله تعالى أمر آدم أن يصلّي إلى المغرب ونوحاً أن يصلّي إلى المشرق وإبراهيم عليه السلام يجمعهما وهي الكعبة، فلمّا بعث موسى عليه السلام، أمره أن يحيي دين آدم، ولمّا بعث عيسى عليه السلام، أمره أن يحيي دين نوح، ولمّا بعث محمدا صلى الله عليه وآله، أمره أن يحيي دين إبراهيم»[2].

ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ رسول الله لمّا بعث كانت القبلة إلى بيت المقدس على سنّة بني إسرائيل، وذلك أنّ الله تبارك وتعالى أخبرنا في القرآن أنّه أمر موسى بن عمران عليه السلام أن يجعل بيته قبلة في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[3]»[4].

إشارات: أ ـ ظاهر الآية الشريفة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[5] بمعونة الاحاديث المأثورة، هو كون الكعبة مكرّمة محترمة عند جميع الانبياء عليهم السلام، وعلى الرغم من أنّ ظاهر الآية ليس ناظرا إلى خصوص كون الكعبة قبلة، ولكن، على فرض ظهورها الاطلاقي في انحصار القبلة بالكعبة، يمكن تقييد الاطلاق المزبور بدليل معتبر آخر على فرض وجوده.

ب ـ لا شكّ في حرمة الكعبة منذ القدم كما هو الامر في استمرار كونها مطافا، وأمّا الحكم بكونها قبلة، فمن الممكن أن يتغير من زمان إلى آخر عبر العصور والقرون، كما كان الامر عليه في صدر الاسلام حتّى استقرّ الحكم على

---

١ . الكافي، ج٤، ص١٩١.
٢ . بحارالانوار، ج٨١، ص٥٧ ـ ٥٨.
٣ . سورة يونس، الآية ٨٧.
٤ . بحارالانوار، ج٨١، ص٧١.
٥ . سورة آل عمران، الآية ٩٦.

اعتبارها قبلة على الدوام.

وعلى فرض أنّ الكعبة هي القبلة الاولى لعباده سبحانه وتعالى، فإنّ القبلة الاخرى على فرض وجودها فيما بعد تعتبر جزءا من المنهاج والشريعة التابعين لما يصدر منه سبحانه وتعالى من أوامر خاصّة.

ج ـ يعتبر «بيت المقدس» المبنيّ من قبل حضرة داود وسليمان عليهما السلام[1] قبلة بني إسرائيل منذ زمان بنائه، وهو القبلة لهم اليوم أيضاً طبق ما يذهبون إليه، وقد كان المسلمون يصلّون إليه قبل تغيير القبلة إلى الكعبة، وأمّا بالنسبة إلى الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله عندما كان في مكّة، فقد كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس حين صلاته مهما كان ذلك ممكنا كما تقدّم، لكي يكون متوجّها إليهما معا في الوقت نفسه[2].

هذا، ويعتقد بعض المفسرين بأنّ بيت المقدس لم يكن له وجود زمان حضرة موسى الكليم عليه السلام، وإنّما بني بعد ذلك على يد حضرة سليمان عليه السلام، ثمّ صار قبلة منذ ذلك الحين بأمره عليه السلام المستند إلى الوحي والالهام الالهي طبعا، وأنّه ليس في أسفار «التوراة» الخمسة ذكراً لاستقبال جهة معيّنة في عبادة الله تعالى والصلاة والدعاء، ولم يذكر استقبال بيت المقدس إلا في سفر الملوك الاوّل[3].

* * *

---

١ . **بحارالانوار**، ج١٤، ص٧٧.

٢ . المصدر السابق، ج٤، ص١٠٥ و ج٨١، ص٥٩ و ج٩٢، ص٢١٨.

٣ . **تفسير التحرير والتنوير**، ج٢، ص٩.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٤٣)

## التفسير المختار

لله سبحانه وتعالى عباد منتقون من قبله من بين الامّة الاسلامية نالوا المرتبة السامية على أثر ارتباطهم بالرسول الاكرم ﷺ، فصاروا واسطة بينه وبين الناس يستلمون الفيض من العالي فيوصلونه إلى الداني، والمصداق الكامل لهذه المجموعة الخاصّة هو الائمة المعصومون عليهم السلام، فهؤلاء ـ وهم في مشهد ومحضر ـ النبي الاكرم ﷺ ـ شهود على عقائد الاخرين وأعمالهم وأخلاقهم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نعمة الوسطية بالتجليل والتفخيم، وذلك باستعماله تعالى كلمة ﴿**كذلك**﴾ التي تستعمل للاشارة إلى البعيد.

محور هذه الوسطية هو «الشهادة»، وأحد طرفيها الرسول الاكرم ﷺ، فيما طرفها الآخر الناس العاديّون، ومن هنا، فإنّ المراد من «وسط» في الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام هو الكون بين إفراط اليهود وتفريط المسيحيين، كما أنّ المراد من «الامّة الوسط» ليس هو الامّة الاسلامية.

والمراد من الشهادة في هذه الآية الشريفة هو الشهادة على أعمال الناس. فالشهداء على اطّلاع بعقائد الناس وأعمالِهم فيشهدون بها يوم القيامة.

والشهادة في مجال المسائل العَقَدِيّة والاخلاق والاعمال أمر قائم على أساس الشهود العرفاني والملكوتي لا المُلكي، فهي بمعنى البصيرة الداخلية، ما يعني لزوم أن يكون الشهداء على اطلاع بداخل أفراد المجتمع أيضاً.

شهادة الرسول الاكرم ﷺ على أعمال الناس تمتدّ بامتداد شعاع رسالته ﷺ، ما يعني أنّها عامّة دائمية، ومن هنا، كان عليه وعلى آله الصلاة والسلام شهيد الشهداء.

الطريق إلى نيل مقام الشهادة على أعمال الناس والاطلاع على بواطنهم هو التبعية لدين حضرة إبراهيم عليه السلام، والعمل بالاوامر الدينية، والارتباط بالرسول الاكرم ﷺ عن طريق التعليم والتزكية.

لقد كان تغيير القبلة حين الصلاة من بيت المقدس الّذي اعتاد المسلمون على الصلاة إلى جهته امتحانا صعبا لهم كصعوبة توجّههم إلى بيت المقدس قبل ذلك بالنسبة إلى عرب الجاهلية، بعد كون الكعبة محلّ تكريم من قبلهم على أثر عصبيتهم العمياء.

وفي معرض بيانه سبحانه وتعالى لسرّ تغيير القبلة، ذكر أنّ ذلك إنّما كان ليعلم المترقّي والمطيع والتابع للدين من الناس فيتميّز عن غيره، والمراد من العلم في مثل هذه الموارد هو العلم الفعلي لا العلم الذاتي.

والعلم الفعلي ـ وهو عين الفعل لا عين الذات ـ أمر حادث، وهو من هذه الناحية متّحد معه سبحانه وتعالى في مقام فعله تبارك وتعالى لا في مقام ذاته، ولمّا كان علمه سبحانه وتعالى شهوديا وحضوريا، فإنّ من الطبيعي أن يكون من قبيل الفعل المشهود حقا، كما أنّ الفعل ما لم يوجد ويحضر لا يكون معلوما فعليا، بل لا يصير كذلك إلا بعد الوجود، ففي الحقيقة: المعلوم هو الحادث لا العلم.

تابع الرسول يتخذ مسيره ﷺ مسيرا له، وهدفه ﷺ هدفا يريد الوصول إليه، وأمّا صاحب العصبية، فقد اتّخذ الانقلاب على الاعقاب سبيلا لا تزيده حركته على هذا السبيل إلا بعدا عن الحقّ وقربا إلى الضلال.

لقد كان تغيير القبلة امتحانا صعبا للمتعصّبين والمتحجّرين ثقيلا عليهم؛ لعدم موافقته لأهوائهم وتعصباتهم، وأمّا من هداهم الله سبحانه وتعالى وأيّدهم، فقد كان ذلك عليهم سهلا يسيرا.

إنّ تحويل القبلة هو من التغيير من الحقّ إلى الحقّ؛ لرجوع روح النسخ في التشريع الالهي إلى التخصيص الزماني لا إلى بطلان الحكم السابق كما تقدم، ما يعني صحة ما أدّي من الصلوات باتّجاه بيت المقدس وعدم الحكم ببطلانه.

إنّ الصلاة أهمّ مظهر من مظاهر الايمان، وأصل جميع الفضائل، والعلاج لكثير من الرذائل الاخلاقية، ما يفسّر التعبير عن الصلاة في الآية الكريمة الّتي هي محلّ الكلام بالايمان.

## تفسير المفردات

**كذلك:** هذه الكلمة التي تستعمل للاشارة إلى البعيد ناظرة إلى فخامة وجلالة النعمة المذكورة في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث.

**وَسَطاً:** «الوَسْط» و«السِطة» من قبيل «الوَعْد» و«العِدة» بمعنى صيرورة الشيء بين شيئين أو عدّة أشياء، سواء أكان الشيئان أو الاشياء مادية أم معنوية، متّصلة ـ من قبيل الاجسام ـ أم منفصلة من قبيل الاعداد.

«الوَسَط» و«الواسِط» من قبيل «اليَبَس» و«اليابس»: إسم فاعل من هذه المادّة، وهو الشيء الواقع بين الشيئين أو الاشياء، كما أنّ «الاوسط» ومؤنثه ـ وهو «الوُسطى» ـ بهذا المعنى أيضاً.

وكلمة «الوسط» تستعمل في موارد المذكر والمؤنث على نحو واحد.

تستعمل كلمة (وسط) بمعان متعدّدة، منها: العدل، والخير، المكان الّذي يعدل المسافة منه إلى أطرافه، التوسّط بين المقصر والغالي، الوسط بين الناس وبين أنبيائهم. وواسطة القلادة، وهو الجوهر الّذي في وسطها، إلا أنّ لكلّ تلك المعاني جامعا، وتستعمل الكلمة أكثر الاحيان في المكان الّذي يعدل المسافة منه إلى أطرافه[1] ولهذا يعبر عن ذلك بتعبير «المعتدل»، «الاعدل»، «الافضل» و«الخير»[2].

وقد يراد بالوسط «مَا يُكْتَنَفُ مِنْ جَوَانِبِهِ وَلَوْ مِنْ غَيْرِ تَسَاوٍ» كما في المصباح[3]. كما تقول العرب لخير الناس وأعدلهم: الوسيط والاوسط، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾[4] أي: خيرهم وأعدلهم[5].

لِـ: اللام في ﴿لتكونوا﴾ بمعنى (كَيْ)، وفي ﴿لكبيرة﴾ للتأكيد، وأمّا في ﴿ليضيع﴾، فهي للجحد والانكار.

**الرسول:** أصل «رسل» و«إرسال» بمعنى إرسال شخص أو شيء بحيث يكون المرسل (بفتح السين) حاملا لرسالة من قبل المرسل (بكسر السين) إلى الاخرين، أو يكون مكلفا بالقيام بعمل ما.

وأمّا الارسال المقابل للامساك كما في قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ﴾[6]، فمن الممكن أن يتحقق عن طريق إرسال الملائكة،

---

١ . **المفردات**، ص٨٦٩، «و س ط».
٢ . **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٤١٤.
٣ . **المصباح**، ص٦٥٩، «و س ط».
٤ . سورة القلم، الآية ٢٨.
٥ . **كشف الاسرار**، ج١، ص٣٩٠.
٦ . سورة فاطر، الآية ٢.



وبعث الانبياء عليهم السلام، وتسخير الحيوانات والظواهر الطبيعية، أو إرسال الشياطين وعدم إمساكها، ومن هنا، فإنّ الرسول والمرسل، إمّا أن يكون ملكا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾[1]، وإمّا أن يكون انسانا ونبيا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[2]، وإمّا أن يكون حيوانا أو ظاهرة طبيعية من قبيل الطوفان والمطر، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً﴾[4]، كما أنّ من الممكن أن يكون من شياطين الجن والانس أيضاً كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾[5].

ولفظ «رسول» يستعمل للمذكر، والمؤنث، والمفرد، والتثنية والجمع، كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[6].[7]

وأمّا المراد من «الرسول» في الآية الّتي هي محلّ البحث ببركة ألف ولام العهد، فهو شخص الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله.

**ينقلب**: ذكر بعض أهل الفنّ لمادّة «قلب» معنيين مستقلين، أوّلهما: خالص الشيء وشريفه، ومنه قلب الانسان؛ فإنّه أخلص شيء فيه وأرفعه. والثاني: ردّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهة، كما في: «قلبت الثوب قلباً»[8] كما نقل عن حضرة أمير

---

١ . سورة هود، الآية ٨١.
٢ . سورة آل عمران، الآية ١٤٤.
٣ . سورة الاعراف، الآية ١٣٣.
٤ . سورة الأنعام، الآية ٦.
٥ . سورة مريم، الآية ٨٣.
٦ . راجع: المفردات، ص٣٥٣، «ر س ل».
٧ . سورة الشعراء، الآية ١٦.
٨ . معجم مقاييس اللغة، ج٥، ص١٧، «ق ل ب».

المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: «لبس الاسلام لبس الفَرو مقلوباً»[1]، يعني: في زمان حكومة الغاصبين، صار الاسلام كما يلبس الفرو مقلوبا.

وبنظر بعض آخر، القلب له أصل واحد في المادّة، وهو التحوّل المطلق، وأمّا قلب الانسان (وهو العضو الصنوبري الواقع في الجانب الايسر من صدر الانسان)، فهو دائما في قبض وبسط وتقلب، ولا شيء في أعضاء البدن يكون في تقلب بالاصالة مثله، ولهذا سمّي بالقلب[2].

وأمّا المشتقّات من مادة (قلب)، فهي تستعمل في التحوّل والتغيّر المكاني كما في قوله تعالى: ﴿**وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ**﴾[3]، وكذا في التغيّر والتحوّل الزماني، كما في قوله تعالى: ﴿**يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأبْصَارِ**﴾[4]، وكذا في التغيّر والتحوّل الفكري والروحي، كما في قوله تعالى: ﴿**مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾ في الآية الّتي هي محلّ الكلام، كما أنّها تستعمل في التغيّرات السياسية والاجتماعية من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾[5].

**عَقِبَيْه**: (العَقِب) صفة مشبّهة بمعنى مُؤَخَّرُ القَدَمِ. ومادّة «عقوب» بمعنى المجيء خلف شيء مباشرة.

وأمّا الفرق بين «عَقِب» و«خَلْف»، فهو في أنّ الاوّل يستعمل في المتأخر المتصل، وأمّا الثاني، ففي الأعم من ذلك؛ حيث يشمل المتصل والمنفصل.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٨.

٢. التحقيق، ج٩، ص٣٠٤، «ق ل ب».

٣. سورة الكهف، الآية ١٨.

٤. سورة النور، الآية ٢٤.

٥. سورة الشعراء، الآية ٥٠.

ويمكن مشاهدة المعنى المزبور في هيئات مختلفة لهذه المادّة، كما في «العاقبة» بمعنى الختام والمصير، كما في قوله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1]، وفي خلف الرجل وولده (وهم السبب في بقائه واستمرار نسله)، كما قولهم: «ليس له عاقبة»، وفي العقوبة والعقاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[2]، وأمّا «العُقبى»، فهي الآخرة التي تخلف الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[3]، وأمّا «العَقَبة»، فهي طريق الجبل حيث يصعب سلوكه، كما في قوله تعالى: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾[4].[5]

﴿عَقِبَيْه﴾ في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث مثنّى «عَقِب»، حذفت نونه لأجل الاضافة، وجمع العَقِب أعقاب كما في قوله تعالى: ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[6]، ولأنّ دوران الانسان بصورة كاملة لا يكون إلا بالاستفادة من مؤخر رجليه، فإنّ تعبير ﴿ينقلب علي عقبيه﴾ إنّما يستعمل في مورد يهجر فيه الانسان منهجه السابق بصورة كاملة إلى منهج آخر مختلف، المعنى الجامع الّذي يشمل الارتداد الحادث والاستمرار في الكفر السابق، ومن هنا جاء في القرآن الكريم في وصف الكافر: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾[7].

**إنْ:** «إنْ» مخفّف «إنّ» أداة التأكيد، وقد حذف اسمها لأجل التخفيف، وقد وردت على الفعل.

---

١ . سورة الصافّات، الآية ٧٣.

٢ . سورة النحل، الآية ١٢٦.

٣ . سورة الرعد، الآية ٢٤.

٤ . سورة البلد، الآية ١١.

٥ . التحقيق، ج٨، ص١٨٥، «ع ق ب».

٦ . سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

٧ . سورة المدثّر، الآية ٢٣.




ولام التأكيد التي يلزم مجيؤها مع الخبر، هي علامة أنّ المراد من «إن» هو التأكيد لا النفي، فأصل الجملة كان: «إنّها كانت لكبيرة».

وضمير التأنيث في (إنّها) يعود إلى القبلة، أو التحويلة، أو الصلاة، وقد ذهب البعض إلى أن عودها إلى التحويلة أولى من غيره، ولكن، لمّا كانت حادثة تغيير القبلة في البداية والنهاية امتحانا مهمّا، فرجوع الضمير إلى القبلة أولى من غيره.

**لِيُضيعَ**: الضياع: بمعنى انمحاء الصورة والنظم في الشيء، وعدم ترتّب الاثر منه بحيث لا ينتظر ترتب الاثر المتوقع منه بعد ذلك، فيصبح بلا فائدة. و«الاضاعة» من هذه المادّة أيضاً، وهي إمحاء صورة الشيء ونظمه ليفقد خواصه[1].

**لَرَءُوف**: «الرأفة» بمعنى الرِقّة والرحمة، بل شدّة الرحمة[2].

وقد ذكر البعض أنّ الرأفة أشد مراتب الرحمة[3]، وبناء على ذلك، فإنّ الرأفة هي الشفقة الشديدة بحيث لا تقبل وقوع ألم ولا توجب كراهة مّا ولو كانت لمصلحة[4].

وقد ذكر في مقام بيان الفرق بين الرأفة والرحمة المشتركين في أصل المعنى، أنّ «الرأفة تختص بالمبتلى المفتاق، والرحمة أعم»[5].

«رَءُوفٌ»، الرؤوف من أسماء الله الحسنى، وقد أطلق ـ كالرحيم ـ عليه ﷺ أيضاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ**

---

١ . **التحقيق**، ج٧، ص٥٣، «ض ي ع».
٢ . راجع: **معجم مقاييس اللغة**، ج٢، ص٤٧١، **الصحاح**، ج٣، ص١٣٦٢، «ر أ ف».
٣ . **لسان العرب**، ج٩، ص١١٢، «ر أ ف».
٤ . **التحقيق**، ج٤، ص٦، «ر أ ف».
٥ . **الميزان**، ج١، ص٣٢٥.

﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[١]. نعم، إستعماله في غيره سبحانه وتعالى إنّما يكون بمعنى المصداق التبعي أو العرضي للمعنى.

## تناسب الآيات

كان حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حين بنائهما الكعبة يدعوان الله سبحانه وتعالى أن يجعل من ذريتهما أمّة مسلمة متّبعة: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[٢]. فاستجاب سبحانه وتعالى دعاءهما فاختار أمّة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، فهداها إلى الصراط المستقيم وإلى التسليم بأوامره، جاعلا إياها الواسطة بين الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله والناس، لتكون شاهدة على أعمالهم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وبناء على ذلك، يتضح الارتباط بين صدر الآية الّتي هي محلّ البحث وبين تلك الآيات التي تعرّضت للادعية التي صدرت من حضرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لتكون الشهادة المذكورة فيها من صلاحيّات الامّة الاسلامية[٣].

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ هذا القسم من الآيات إنّما هو جملة معترضة، فلا مورد لتناسبها مع ما بعدها وما قبلها من آيات شريفة، إلا أنّ بعضا آخر خالف ذلك، ذاهبا إلى أنّ ما نحن فيه ليس جملة معترضة أبدا، وسوف نتطرق لكلّ واحدٍ من الرأيين خلال البحث إن شاء الله تعالى.

وبناء على الرأي الاوّل، فما جاء في صدر الآية جملة معترضة بين الآية السابقة وتتمّة الآية الّتي هي محلّ البحث، لتكون «الواو» المذكورة أول الآية

---

١. سورة التوبة، الآية ١٢٨.

٢. سورة البقرة، الآية ١٢٨.

٣. الميزان، ج١، ص٣٢٦.

الشريفة واوا اعتراضية من قبيل الواو الاستئنافية، والظاهر أنّ هذه الجملة لا علاقة لها بمسألة القبلة، مع أنّ الآية السابقة والآيات التي لحقتها كانت حول القبلة[1].

ومع هذا، فقد ذكرت بعض الوجوه في مجال الارتباط بين الجملة المذكورة والآية السابقة، من قبيل:

١ ـ إنّ عبارة ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في الآية السابقة، تعتبر تكريما للكعبة وللمسلمين، وعلامة على عنايته سبحانه وتعالى الخاصّة بهم، وفي الجملة التي نحن فيها، يشير سبحانه وتعالى إلى وسطية واعتدال قبلة المسلمين، ومن هنا، نراه سبحانه وتعالى يتعرّض في تتمّة ذلك إلى نقطة مفادها: كما أنّ قبلتكم ـ يعني: الكعبة ـ وهي بناء أوسط الانبياء ـ يعني حضرة إبراهيم عليه‌السلام ـ والبيت الّذي اختاره الله سبحانه وتعالى، هي من أوسط البيوت، وقد جعلها الله تعالى وسط الارض، فقد جعلناكم الامّة الوسط والاشرف والاحسن بهدايتكم إلى التوجّه إلى الكعبة وغيره من التوجيهات، ومن كان في الوسط، فلن يغيب عنه شيء ممّا كان في أطرافه، ومن هنا، سيكون الشاهد على الآخرين، ويكون الرسول ـ وهو وسط الوسط ـ شاهدا على هذه الامّة[2].

٢ ـ إنّ الآية السابقة قد تضمّنت الاشارة إلى فضيلة من فضائل المسلمين، وهي أنّ المهديين إلى الصراط المستقيم إنّما هم المسلمون، فناسب ذلك ذكر فضيلة أخرى أفضل من تلك الفضيلة، وهذه الفضيلة هي أنهم عدول منتخبون من قبله تعالى، ما مهّد الطريق أمام كونهم شهودا على غيرهم من الامم[3].

---

١ . تفسير **التحرير والتنوير**، ج٢، ص١٥.

٢ . **نظم الدرر**، ج١، ص٢٦١ ـ ٢٦٣.

٣ . تفسير **التحرير والتنوير**، ج٢، ص١٥.




٣ ـ يشير سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة إلى أنّ تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة الواقعة وسط الارض أمر متّسق تمام الاتّساق مع واحد من أوصاف الامّة الاسلامية، وهو كونها أمّة وسطا؛ وبعبارة أخرى: لمّا كنتم ـ أيها المسلمون ـ أمّة وسطا، فقد اخترنا لكم قبلة وسطا[1].

٤ ـ إنّ ما يشير إليه سبحانه وتعالى، هو أنّه تعالى إنّما أرجع المسلمين إلى قبلة حضرة إبراهيم عليه السلام واختار تلك القبلة لهم، لكي تكون الامّة الاسلامية فضلى الامم ومختارها، والشاهد على سائر الامم يوم القيامة؛ إذ الكل معترف مسلم بفضلكم وأفضليتكم[2].

نبأ الله سبحان وتعالى في الآية السابقة المسلمين بقول المعترضين السفهاء، وبالجواب على ذلك الاعتراض، فبسر تحويل القبلة بذلك. وفي ذيل الآية الّتي هي محلّ البحث، يبين سبحانه وتعالى علة تشريع أصل استقبال القبلة السابقة[3]، وعليه، ستكون الواو في قوله تعالى ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا**﴾، واو عطف، لتعطف هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ...**﴾، وما جاء في تتمتها من الجواب[4].

**تنويه:** القطع بكون جملة من آية جملة معترضة أمر يحتاج إلى دليل معتبر. وقد تذكر مجموعة من الجمل باعتبارها مقدّمة لمطلب منسجم مع ما يسبق تلك الجملة أو ما يلحق بها، وتكون تلك الجملة متناسبة مع أصل المطلب لا مع الجملة السابقة على سبيل المثال، وعليه، لن يمكن القول بكون تلك الجملة جملة معترضة.

❋ ❋ ❋

---

١ . **الاساس في التفسير**، ج١، ص٣٠٠.

٢ . **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، ج١، ص١٩٦.

٣ . **نظم الدرر**، ج١، ص٢٦٣ ـ ٢٦٤، **تفسير التحرير والتنوير**، ج٢، ص١٥.

٤ . **تفسير التحرير والتنوير**، ج٢، ص١٥.

## وساطة الامّة الاسلامية في الفيض

كما هدى الله سبحانه وتعالى المسلمين إلى الصراط المستقيم وجعل لهم قبلة خاصّة مستقلّة باسم الكعبة، فقد خصّهم بفضيلة أن يكونوا الواسطة بين الرسول الاكرم ﷺ وسائر الناس، بهدف أنّه كما أنّ الرسول الاكرم ﷺ واسطة الفيض والهداية الالهية للمؤمنين ومشرفا على أعمالهم، فإنّ المؤمنين يكونون واسطة الهداية للناس ومشرفين على أعمالهم، فيستلمون الفيض منه ﷺ فيوصلونه إلى الناس، بجعلهم مبيّنين لسنّة الرسول الاكرم ﷺ، فقد سموا على أثر ارتباطهم به ﷺ عن طريق التربية والتزكية، فيكونون بذلك شهداء على أعمال الآخرين: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾**، وهذه الميزة من أعظم النعم التي أنعم بها سبحانه وتعالى على الأمّة الاسلامية.

وإضافة على كون الآية الشريفة تكريما للمسلمين، فإنّها تنبّههم إلى مسألة مهمة جدا، وهي: أنّه كما يجب على المسلمين أن يشملوا الآخرين بشهادتهم على أعمالهم، فإنّهم أنفسهم يجب أن يعلموا بأنّهم تحت نظر الرسول الاكرم ﷺ وفي مشهده، ومثل هذا المجتمع المطلع على إشراف هذا النوع من الشهود عليه، سيكون أكثر اهتماما بما هو عليه من عقائد واخلاق، وبما يصدر عنه من أعمال، كما أنّه لن يأل جهدا في سبيل إصلاح سائر الناس.

وليست هذه الآية بصدد وصف أصل الدين بالكمال، الوصف الّذي يستفاد بوضوح من قوله تعالى: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلامَ دِيناً﴾**[1]، بل الآية الّتي هي محلّ البحث بصدد

---

١ . سورة المائدة، الآية ٣.



التعريف بالمتدينّين العاملين بهذا الدين، والواصلين إلى درجة الكمال؛ لما للتعريف بعاملي الخير تحت ضوء العمل بالدين ومن نال السعادة بالحركة على الصراط المستقيم، ومن بلغ المقصد، من تأثير تربويّ يكون أقوى بكثير من مجرد التعريف بمفهوم الدين.

النقطة الاخرى هي بيان ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ بنحو القضية الموجبة الجزئية، يعني: من بينكم من هو شاهد على أعمال الآخرين، فلا يمكن القول بأنّ المخاطب بهذه الجملة وما شابهَهَا من جمل، من قبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[1]، هو جميع المسلمين على نحو العام الاستغراقي. فإنّ مراد القرآن مجموعة خاصّة من الامّة الاسلامية؛ وذلك لما يلي:

أوّلا: وجود آيات كريمة قد صرّح فيها سبحانه وتعالى بعدم رضاه عن بعض المسلمين.

ثانيا: أنّ عنوان الامّة قد استعمل في القرآن الكريم في الاشارة إلى جماعة خاصّة في موارد عديدة، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ أهل الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[3]، وقوله عزّ من قائل: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[4]، في قبال اطلاق الامّة على جميع الناس، من قبيل قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١١٠.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٠٤.

٣ . سورة آل عمران، الآية ١١٣.

٤ . سورة المائدة، الآية ٦٦.



نَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[2]. ولو أثنى الله سبحانه وتعالى في الآية الّتي هي محلّ البحث على الامّة بالعظمة وجملة من الاوصاف البارزة، فإنّ المصداق الكامل لذلك هو الائمة المعصومون عليهم السلام، وهو ما سيأتي مزيد توضيح له في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

## محور وساطة الامّة الاسلامية وتوجيهها

جعل بعض المسلمين عنوان الامّة الوسط بين العالي والداني، أو عنوان العالي بين الاعلى والادنى، فكانوا المشرفين على من هم أدنى منهم من جهة: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وكانوا بدورهم ممّن يشرف عليهم من قبل الاعلى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ من جهة أخرى، فلا هم بمستوى الانبياء، ولا غيرهم من الامم بمستواهم، بل هم الحدّ الفاصل والرابط والواسطة بين الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وبين الناس.

ما لم يكن الانسان على ارتباط بالعالي فإنّه لن يكون مشرفا على الداني، من هنا، فإنّ الطريق الوحيد للشهادة على أعمال الاخرين هو الارتباط بالرسول الاكرم صلى الله عليه وآله عن طريق التعليم والتزكية، وما لم يعتبر الرسول شاهدا على أعماله، فإنّه لن ينال صفة الشهادة على أعمال الاخرين.

وخاصية هذه الوساطة هي استلام الفيض واللطف والقوانين الالهية من الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وإيصالها إلى الناس، وتقريب الناس إلى النبيّ وسنّته، وعليه، فإنّ المراد من «الوسط» في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾، هو

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢١٣.

٢ . سورة المائدة، الآية ٤٨.

الوسطية بلحاظ الامتداد العمودي بين العلو والدنو، لا بين اليمين واليسار بلحاظ الامتداد الافقي، وطرفا هذا الوسط هما الرسول ﷺ من جهة، والناس العاديّون من جهة أخرى، مع أنّ عدم الاشارة إلى هذين الطرفين بعد قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾، ممّا يفتح الباب أمام ذكر وجوه لهذين الطرفين.

محور الوساطة المزبورة ـ كما تقدمت الاشارة إليه ـ هو الشهادة على الناس، وعلى الرغم من عدم ذكر عنوان «الوسط» في قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[1] أيضاً، إلا أنّ محور الوساطة (يعني: الشهادة) أمر مشخص.

**نكتة:** كما تقدّم بيانه، فإنّ طرفي الوسط في الآية الّتي هي محلّ البحث قد عُيِّنا، فإنّ أحد الطرفين هو الرسول الاكرم ﷺ، وهو من على الصراط المستقيم: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2]، ومن هنا، فإنّ ما ورد من حديث في ذيل الآية الشريفة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3]، مع أنّه لا يناسب تلك الآية الشريفة، إلا أنّه ليس مراد الآية الّتي هي محلّ البحث، فقد نقل في ذيل تلك الآية أنّه ﷺ «خطّ خطاً هكذا أمامه فقال: هذا سبيل الله، وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال: هذا سبيل الشيطان. ثم وضع يده في الخط الاوسط وتلا ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ...﴾ الآية»[4].

---

١ . سورة الحجّ، الآية ٧٨.

٢ . سورة يس، الايتان ٣ ـ ٤.

٣ . سورة الأنعام، الآية ١٥٣.

٤ . الدر المنثور، ج٣، ص٣٨٥.





## عدم ارادة الوسط بينِ الافراط والتفريط في ما نحن فيه

ذهب بعض المفسّرين الذين غفلوا عن النقطة السابقة في تفسير الوسطية إلى أنّ المراد من «الوسط» في هذه الآية الشريفة هي الوسطية بين الافراط والتفريط، فقالوا: «إن المسلمين خيار وعدول؛ لأنّهم وسط، ليسوا من أرباب الغلو في الدين المفرطين، ولا من أرباب التعطيل المفرّطين، فهم كذلك في العقائد والاخلاق والاعمال.

ذلك أن الناس كانوا قبل ظهور الاسلام على قسمين: قسم تقضي عليه تقاليده بالمادية المحضة، فلا هم له الا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين، وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية، كالنصارى والصابئين وطوائف من وثنيّي الهند أصحاب الرياضات، وأمّا الامّة الاسلامية، فقد جمع الله لها في دينها بين الحقّين: حق الروح، وحق الجسد، فهي روحانية جسمانية، وإن شئت قلت: إنّه أعطاها جميع حقوق الانسانية، فإنّ الانسان جسم وروح، حيوان وملك، فكأنّه قال: جعلناكم أمّة وسطا تعرفون الحقين، وتبلغون الكمالين (لتكونوا شهداء) بالحق (على الناس) الجسمانيين بما فرّطوا في جنب الدين، والروحانيين إذ أفرطوا وكانوا من الغالين... وتسبقون الامم كلها باعتدالكم وتوسّطكم في الامور كلّها، ذلك بأنّ ما هديتم إليه هو الكمال الانساني الّذي ليس بعده كمال؛ لأنّ صاحبه يعطي كلّ ذي حقّ حقه، يؤدّي حقوق ربّه، وحقوق نفسه، وحقوق جسمه، وحقوق ذوي القربى، وحقوق سائر الناس»[1].

---

١ . تفسير **المنار**، ج٢، ص٤ ـ ٥. وقد أشار كلّ واحدٍ من النيشابوري والفخر الرازي إلى هذا الاحتمال قبل ذلك أيضاً، مع اختلاف في معنى إفراط وتفريط أهل الكتاب (**الوسيط**، ج١، ص٢٢٤ ـ ٢٢٥، **التفسير الكبير**، ج٢، ص٩٨).

وبناء على هذا المبنى، فإنّ الرسول الاكرم ﷺ كما هو النموذج الكامل للأمّة الاسلامية والحجة عليها، فإنّ الامّة الاسلامية ستكون حجة وشاهدةً والنموذج الكامل لسائر الامم أيضاً، وعليه، فالمراد من «الشاهد» في الآية الّتي هي محلّ البحث هو النموذج الكامل والحجة.

وكما نبّه عليه أستاذنا العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسيره، فإنّ المعنى المزبور معنى دقيق وفي محله، إلا أنّ الآية الشريفة ليست في مقام النظر إلى هذا المعنى، الامر الّذي تؤيّده جملة من الشواهد الداخلية والخارجية في مورد الآية الشريفة[1].

فالمعنى المزبور حقّ من جهة تصديق القرآن الكريم به في الجملة، فقد تعرّض سبحانه وتعالى إلى حرص اليهود وتعلّقهم بالدنيا في قوله تعالى: **﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾**[2]، كما أشار إلى رهبانية المسيحيين وانعزالهم وانطواءهم المبتدع بقوله تعالى: **﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الانجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَامَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾**[3]، فهذا التعبير إمضاء ضمني للرهبانية، بمعنى: أنهم لو كانوا راعوا حقّ الرهبانية حقّ الرعاية، لما كانت مذمومة، ولكانت من السنّة الحسنة التي يعدّ ابتكارها محمودا لا مذموما، إلا أنّهم لم يراعوا أصول تلك الرهبانية وأحكامها وآدابها الصحيحة، فكانت بدعة وسنّة سيئة قد ابتلوا بها.

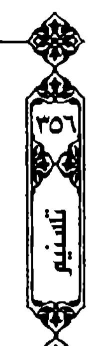
كما أنّه تعالى قد صدّق تنزّه الاسلام عن أيّ إفراط وتفريط عن طريق تأديب الامّة الاسلامية وقائدها بالاعتدال ومدحهم بذلك، فقال عزّ من قائل في مقام

---

١ . الميزان، ج١، ص٣١٩ ـ ٣٢٠.

٢ . سورة البقرة، الآية ٩٦.

٣ . سورة الحديد، الآية ٢٧.




إبعاده الرسول الاكرم ﷺ عن الافراط والتفريط: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾[1]، وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[2]، ولما كان ﷺ أسوة السالكين والمؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الاخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾[3]، فإنّ من آمن به واتبّعه سيكون مبرّأ عن الافراط والتفريط منزّها عنه أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[4].

وأمّا الشاهد الداخلي على عدم إرادة المعنى المزبور من الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام، فهو ذكر طرفي «الوسط» في الآية نفسها كما مضى توضيحه. فلو كانت الآية الشريفة قد أطلقت من هذه الناحية فلم تبيّن المراد من الوسط، لكانت مما يقبل الانطباق على ذلك المعنى، أي: الاعتدال بين الافراط والتفريط، وحينئذ سيتوافق هذا المعنى مع «الوسط» بمعنى النموذج والاسوة، إلا أنّ الآية الشريفة إضافة على تشخيصها لطرفي الوسط، فقد جعلت «الشهادة» محور الوساطة.

وقد فسّرت هذه الشهادة بقرينة آيات كريمة أخرى، وكذا بواسطة الروايات التي وردت في ذيل الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، بالشهادة على الاعمال، ما يعني أنّ المراد من الوسط هو الوساطة من حيث المحور العمودي، يعني: بين العلو والدنو، لا من حيث المحور الافقي وبين الافراط والتفريط.

١ . سورة الاسراء، الآية ٢٩.
٢ . سورة الكهف، الآية ٢٨.
٣ . سورة الاحزاب، الآية ٢١.
٤ . سورة الفرقان، الآية ٦٧.



كما أنّه يجدر الانتباه إلى ملاحظة أخرى في المقام، وهي أنّ المراد من الوساطة في ما نحن فيه لو كان وسطية الامّة الاسلامية بين اليهودية والمسيحية، للزم دخول النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم) نفسه في العنوان المزبور أوّلا، ولما كان حاجة إلى ذكر شهادة الرسول الاكرم ﷺ على الامّة ثانيا؛ إذ إنّ كلّ نبيّ هو شاهد على أعمال أمّته بلا أيّ اختصاص لذلك به ﷺ، على الرغم من كونه ﷺ شهيد الشهداء كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: **﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كلّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾**[1].

وبناء على ما سبق، فإنّ كلّ أمّة يمكن أن تحوي جماعة خاصّة وأمّة وسطا، غايته، من جهة عدم عمل اليهود بالتوراة، فمالوا إلى الحياة الدنيا واطمأنوا بها كالمشركين، ومن جهة أنّ المسيحيين لم يلتزموا بالانجيل ويعملوا بتوجيهاته كأصحاب الرياضات فسلموا أنفسهم إلى الرهبانية المبتدعة، فإنّ جميع هؤلاء لم ينالوا الفضيلة السابقة الذكر، وهي فضيلة كونهم شهداء على الآخرين.

من الجدير بالذكر، أنّ ظاهرة الانعزال والانزواء والرهبانية وعدم مقارعة الطغاة والبغاة، كلّها أمور أدخلت في المسيحية بغير حق، وإلا، فإنّ الإنجيل الأصيل ـ شأنه شأن التوراة والقرآن العظيم ـ قد أمر بالتصدّي إلى الكفر والظلم وبتقديم الغالي والنفيس في هذا الطريق، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالانجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾**[2]، ومن هنا، نرى أنّه سبحانه وتعالى يأمر المسلمين بأن يكونوا مقاتلين كالمسيحيين حيث يقول عزّ من قائل: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلى**

---

١ . سورة النساء، الآية ٤١.

٢ . سورة التوبة، الآية ١١١.

الله قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ الله فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[1]. ولربّما كان السرّ في ما جاء عن الرسول الاكرم ﷺ من قوله: «رهبانية أُمّتي الجهاد في سبيل الله»[2] هو ما أشرنا إليه هنا في النقطة السابقة.

## نقد احتمال ارادة «الوسط» بلحاظ القبلة

من الممكن أن يقال في تأييد أنّ طرفي الوسط المذكور في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث هما الطرفان الواقعان على المحور الافقي، وأنّ جملة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ ناظرة إلى الوسطية بين اليهودية والمسيحية: إنّ جماعة من أهل الكتاب كانت تتجه حين العبادة إلى الشرق، وجماعة منهم إلى الغرب، وأمّا قبلة المسلمين، فإنها واقعة بين الجهتين، فلا هم يتجهون إلى المشرق ولا إلى المغرب[3].

وهذا الكلام ـ شأنه شأن الكلام السابق ـ غير تام أبدا؛ من جهة أنّ الكعبة قبلة لجميع المسلمين الساكنين في بقاع مختلفة من العالم، ما يعني: أنّه على الرغم من أنّ قبلة ساكني المناطق الشمالية والجنوبية للارض ستكون بين الشرق والغرب، إلا أنّ قبلة من يقطن غير تلك المناطق لن تكون كذلك، فمن يسكن المناطق الشرقية أو الغربية للكرة الارضية، ستكون القبلة بالنسبة إليه بين الشمال والجنوب وباتجاه الشرق أو الغرب، وعليه، فالمراد من «الوسط» في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث ليس ما كان بين الشرق والغرب.

---

١ . سورة الصفّ، الآية ١٤.

٢ . بحارالانوار، ج٨، ص١٧٠.

٣ . التفسير الكبير، ج٤، ص٩٥ ـ ٩٦، تفسير غرائب القرآن، ج١ ـ ٢، ص٤٢٠.

## نقد حمل «الوسط» على اعتدال المسلمين بلحاظ الايمان بالانبياء

وجّه البعض وسطية الامّة الاسلامية بأنّها بلحاظ موقفها من الانبياء وتكريمهم؛ إذ لم تكن من قبيل من أفرط من الناس في هذا المجال فاتّخذوا النبيّ ولدا له سبحانه وتعالى، نظير ما ذهب إليه البعض بالنسبة إلى عيسى عليه السلام، ولا من قبيل بعض من فرّط في هذا المجال فأقدم على قتل بعض الانبياء عليهم السلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[1].

من الطبيعي أنّ هذا المعنى يندرج في الكمالات المذكورة، وهو أمر صحيح طبقا لما جاء في بعض الآيات الشريفة الاخرى، إلا أنّه ليس المراد من المحور الاصلي للآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، إضافة على أنّ في هذه الامّة أيضاً مجموعة من الطغاة الذين بادروا إلى قتل الائمة المعصومين عليهم السلام الذين هم عدل الانبياء السابقين.

والمغزى: أنّ دين جميع الانبياء هو الاسلام، كما أنّ جميع الامم في جميع العصور والامصار قد ابتليت بالمفرّطين والافراطيين: «هلك فيّ اثنان: محبٌّ غالٍ، ومبغضٌ قال»[2]، وإن اختلفت كيفية الافراط والتفريط بين هذه الامّة وتلك.

في ختام بيان الموقف من بعض الاحتمالات في مجال المقصود بوسطية الامّة الاسلامية، من المناسب أن نذكّر بنقطتين مهمّتين، هما:

١ ـ أنّ جميع المعاني التي ذكرت للوسطية، تتعلّق بالدرجة الاولى بالقرآن الحكيم، وبالامّة الاسلامية التي تحركت ـ وتتحرّك ـ طبق قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[3] بالدرجة الثانية.

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٢١، التفسير الكبير، ج٤، ص٩٨.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة ١١٧.

٣ . سورة الاسراء، الآية ٩.

٢ ـ إذا اتصفت الامّة بالجملة بوصف الوسطية، فإنما هو بلحاظ المنهج الالهي الّذي تعتقد وتلتزم به، وإن كانت الامّة نفسها بلحاظ الافراد الموجودين خارجةً يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أصناف: مُفْرط، مُفَرّط، ومعتدل.

## الشهادة على الاعمال

الشهادة تعني الحضور والاطلاع، وكما تقدم بيانه، فإنّ المراد من الشهادة في الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام هو الشهادة على أعمال الناس.

لقد قدّم القرآن الكريم عددا من الناس بعنوان الحاضر والشاهد على أعمال الناس، وهذه الجماعة تشاهد أعمال المجتمع البشري في الدنيا التي هي ظرف تحمّل الشهادة، لتقوم بأدائها في الاخرة التي هي ظرف أداء الشهادة، فيوم القيامة هو يوم الفصل والقضاء والحكومة: ﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾[١].

وفي القضاء والحكم كما يعتبر وجود القانون ضروريا باعتباره المرجع في الحكم: ﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ**﴾[٢]، فإنّ هناك حاجة إلى الشهادة أيضاً، ومن هنا، سمي ذلك اليوم بيوم قيام الاشهاد في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الاشْهَادُ**﴾[٣].

وإنّما تكون الشهادة في محكمة العدل مسموعة في حالة كون الشاهد الموثّق حاضرا حين وقوع الحادثة ومطّلعا عليها اطلاعا كاملا، لكي يؤدّي الشهادة بما اطلع عليه اطلاعا دقيقا؛ إذ إنّه يعتبر في الشهادة أن تكون عن حسّ أو ما كان قريبا منه، نعم، بالنسبة إلى الامور غير المحسوسة من قبيل العقائد والاخلاق

---

١ و٢ . سورة الزمر، الآية ٦٩.

٣ . سورة غافر، الآية ٥١.

والنيّات، تكون الشهادة قائمة على أساس الشهود العرفاني والملكوتي لا المُلكـي. ففي هذا النوع من الشهادة التي تعني البصيرة الداخلية، لا تكون الشـهادة يـوم القيامة إلا من قبل من لهم القدرة على الاطلاع على داخل الافراد ومـا يجـري في قلوبهم، ومن الواضح أنّ هؤلاء أفراد خاصّون محـدودون، ففـي القيامـة يحـاكم الافراد على ما صدر منهم من أعمال على طبق ما نووه من تلك الاعـمال؛ فإنّـه لا فرق في الظاهر بين عمل المؤمن والمنافق، والفارق الوحيد بين العملـين إنّـما هـو النيّة التي انطلق على أساسها العمل، ومن هنا، يعتبر في الشهود أن يكونـوا عـلى اطلاع ببواطن الناس بالنسبة إلى المسائل العلمية والعملية لهؤلاء، ومن قبيل هذا مـا ورد في مـا يـرتبط بـالمقرّبين بالنسـبة إلى الابـرار، كـما جـاء في قولـه تعـالى: ﴿... **يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾[1].

## إمكان نيل مقام الشهادة على الاعمال

ليست الشهادة على أعمال الآخرين من قبيل النبوّة والرسالة والامامة مقاما خاصا بالانبياء والمعصومين عليهم السلام على أساس قوله تعالى: ﴿**اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾[2]، فلا ينال النصاب الخاص لهذا المقام ـ ولو بدرجاته الدنيا ـ غير تلـك الذوات النورانية، بل هي من قبيل العصمة التـي يمكـن للآخـرين نيـل بعـض درجاتها.

مقام الشهادة على الاعمال والاطلاع على بواطن الاخرين هـي مـن نصـيب أولياء الله تعالى، وأصحاب الائمة عليهم السلام الخاصين، وتلاميـذهم المقـربين، الامـر الّذي لا يقف على عدم الدليل على خلافه، بل هناك ما يثبته من أدلة، كـما صرّح

١ . سورة المطفّفين، الآية ٢١.

٢ . سورة الأنعام، الآية ١٢٤.

القرآن الكريم بأنّ أصحاب علم اليقين يرون جهنم ويطّلعون عليها الآن، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[1]، فهذه الآية ليست في مقام النظر إلى الشهادة بعد الموت؛ إذ حتّى الجناة يرون الجحيم بعد الموت.

وكذا ما جاء في القرآن الكريم بالنسبة إلى أصحاب الجنّة المقرّبين، حيث يقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّ كِتَابَ الابْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[2]، وعليه، فالمقرّبون مطلعون على عقائد الآخرين، وأخلاقهم، ونيّاتهم، وأعمالهم منذ الآن.

وقد صرّح القرآن الكريم بمسألة رؤية النبيّ والمؤمنين أعمال الناس في الدنيا، حيث قال تعالى: ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[3]، فإنّ «السين» في قوله تعالى ﴿فَسَيَرَى﴾ هي سين التحقيق لا سين التسويف؛ لدليلين:

الدليل الاوّل: ما جاء بعد قوله تعالى السابق مباشرة، من الردّ إليه سبحانه وتعالى في المستقبل، حيث نسمعه تعالى يقول: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4].

الدليل الثاني: عدم اختصاص رؤية الاعمال في القيامة به سبحانه وتعالى أو بالنبيّ ﷺ أو بالمؤمنين، بل حتّى الكافر والمنافق يريان أعمالهما وأعمال بعض الافراد الاخرين؛ إذ ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[5] تظهر الاعمال فلا تبقى سرا، ولا يبقى لأحد قدرة على كتمانها؛ ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمْ الارْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾[6].

---

١ . سورة التكاثر، الآيات ٥ ـ ٦.
٢ . سورة المطفّفين، الآيات ١٨ ـ ٢١.
٣و٤ . سورة التوبة، الآية ١٠٥.
٥ . سورة الطارق، الآية ٩.
٦ . سورة النساء، الآية ٤٢.





ومن الجدير بالذكر، أنّه كما أنّ أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام من مصاديق قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾، وقوله تعالى: ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ طبقا لما جاء في الروايات الواردة في ذيل الآية الّتي هي محلّ البحث، فإنّ المصداق الكامل والبارز للمؤمنين في الآية الشريفة المذكورة هم تلك الذوات النورانية أيضاً؛ بناء على ما ورد من الروايات المفسّرة لتلك الآية الشريفة[١].

وأمّا الطريق إلى نيل مقام الشهادة على أعمال الآخرين والاطلاع على بواطنهم، فهو التبعية لدين حضرة إبراهيم عليه السلام وملّته الحنيفة: ﴿وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ملّة أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ﴾[٢].

إنّ الالتزام بالدين والعمل بتوجيهاته، ورعاية ما جاء قبل هذه الآية وما جاء في تتمّتها ممّا أعطى رسما بيانيا للدين الحنيف، هو الطريق العملي للوصول إلى المقام المزبور، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * ... فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِالله هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[٣].

ومن المفيد ذكر هذه النقطة في المقام، وهي أنّه بناء على قوله سبحانه وتعالى في الآية الشريفة: ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾[٤]، فإنّ المطيعين له سبحانه وتعالى، وله صلى الله عليه وآله، يحشرون مع الشهداء ويكونون من رفقائهم، ومن البعيد أن يكون هكذا أفراد (جميع المطيعين) من الشهداء؛ إذ إنّهم لو كانوا من

---

١ . الكافي، ج١، ص٢١٩ ـ ٢٢٠، بحارالانوار، ج٢٣، ص٣٣٣ ـ ٣٥٣.
٢ . سورة الحجّ، الآية ٧٨.
٣ . سورة الحجّ، الآيات ٧٧ ـ ٧٨.
٤ . سورة النساء، الآية ٦٩.




جملة الشهداء، وكان عنوان (الشهيد) صادقا عليهم، لما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَعَ﴾ الشهداء.

كما أنّ التأمّل في الآية الشريفة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[1]، يقضي بعدم إمكان المصير إلى القول بأنّ جميع المؤمنين أو أكثرهم هم شهداء على أعمال الآخرين؛ إذ ـ كما نبه عليه العلامة الطباطبائي ـ أنّ قوله تعالى ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ دليل على أنّهم ملحقون بالشهداء لا أنّهم هم الشهداء[2].

بناء على ما تقدم، فإنّ كلتا الآيتين المذكورتين متفقتان على هذا المعنى، ونظيره ما جاء في ما بيّنه سبحانه وتعالى في ما يرتبط بإلحاق الذريّة المؤمنة بالآباء المؤمنين المكرّمين يوم القيامة، حيث قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[3]، فليست تلك الذريّة في الدرجة نفسها التي عليها الآباء، بل هم ملحقون بهم ليس الا.

## الاستدلال بشهادة الامّة على حجّية الاجماع

إستدلّ جماعة من العلماء بشهادة الامّة الواردة في الآية الّتي هي محلّ البحث على حجية الاجماع؛ فلو أجمعت الامّة على مسألة من المسائل فأفتت على طبق ما أجمعت عليه، فإنّ معقد ذلك الاجماع حجّة، وهو حكمه سبحانه وتعالى في تلك المسألة.

وقد انتقد المحقّقون من الامامية ما تقدّم من هذه الدعوى من الإستدلال، فردّوا ما جاء فيها من دلالة الآية الكريمة على حجية الاجماع في كتبهم

---

١. سورة الحديد، الآية ١٩.
٢. الميزان، ج١، ص٣٢٢.
٣. سورة الطور، الآية ٢١.



الاصولية[1]، ذاهبين إلى أنّ ما توصله الآية الشريفة من رسالة، إنّما هو خاص بالائمة المعصومين عليهم السلام؛ لجملة من الاسباب، منها:

أوّلا: تعريفه سبحانه وتعالى العليم بالظاهر والباطن بهم بالوسط والعدل. فالشهداء ـ على هذا ـ عدول ظاهرا وباطنا، وليست هذه إلا العصمة (وأمّا احتمال السهو والنسيان والخطأ في الاجتهاد، فهو أمر آخر طبعا).

ثانيا: أنّ شهادة الشهداء المذكورين في الآية الشريفة قد وصفت بأنّها إلى جنب شهادة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، ومن كانت شهادته إلى جنب شهادته صلى الله عليه وآله، فلا بدّ من أن يكون معصوما.

ثالثا: أنّ شهادة الشهداء المذكورين إنّما هي شهادة في محكمته سبحانه وتعالى العليم بالظاهر والباطن، وشهادة من هذا النوع لا بدّ من أن تكون من قبل شاهد مطلع على الظاهر والباطن أيضاً، وهذا لا يعني إلا أن يكون الشاهد معصوما.

رابعا: في حالة إجماع الامّة على مسألة من المسائل، فإنّ حجية مثل هذا الاتفاق واعتباره، إنّما هو أمر تابع لحضور المعصوم وورود رأيه وفتواه في ضمن تلك الامّة، وأمّا بدون ذلك، فلا اعتبار ولا حجية لذلك الاجماع والاتفاق[2].

وقد تعرّض بعض العلماء بالنقد لما قد يدّعى من دلالة الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام على حجية إجماع علماء كلّ عصر من العصور، ما أدّى إلى اعتراض البعض الآخر على ذلك، وفي ما يلي نتعرّض لشيء من تلك النقود.

١ ـ أنّ الاستدلال المزبور قائم على أساس تفسير (الوسط) في الآية الشريفة بالعدل، مع أنّه يمكن تفسيره بالخير، وكون الامّة أمّة خير لا يدل على كون جميع آراء وأفكار تلك الامّة خيرا؛ إذ قد يكون واحد من تلك الآراء خطأ.

---

١ . التبيان، ج٢، ص٧ ـ ٨.

٢ . روض الجنان، ج٢، ص١٩٨.





٢ ـ وعلى فرضِ إرادة (العدل) من الوسط، فإنّ الامّة العادلة لا يصدر منها المخالفة عن عمد، وأمّا عن خطأ في الاجتهاد أو سهو، فلا؛ إذ يبقى ذلك محتملا دائما ما دام هذا غير متعارض مع العدالة، كما أنّ المجتهد المُخطيء مأجور بعد بذله جميع ما في وسعه للوصول إلى الحكم الشرعي.

٣ ـ وسطية الامّة الاسلامية إنّما هي وسطية بالنسبة إلى سائر الامم، الامر الّذي يعتبر أجنبيا بالمرة عن الاجماع وحجيته.

٤ ـ مع القطع بعدم عدالة بعض الافراد، لن يكون هناك معنى لعدالة المجموع؛ إذ إنّ المجموع إنّما يتكوّن من الافراد ليس إلا.

٥ ـ من كان وسطا وعادلا، يجب أن يكون كذلك في زمن الشهادة (يعني: يوم القيامة)، وأمّا إذا كان فاسقا قبل ذلك ولكنّه مات تائبا، فإنّه يمكنه في هذه الحالة أن يؤدّي الشهادة يوم القيامة، وعليه، فإذا كان قد أمضى حكما مّا حين فسقه، فإنّه لن يكون مقبولا منه؛ إذ المفروض أنّه لم يكن عادلا ذلك الوقت.

٦ ـ ومع غض النظر عن جميع ما مضى، فإنّ الحجة حينئذ هو إجماع جميع الامّة، أو جميع أهل الحل والعقد، لا إجماع علماء كلّ عصر من العصور.

والجواب على النقود السابقة هذه:

١ ـ أنّ العدالة في خصوص هذا المورد مقارنة للعصمة في العقيدة والقول والفعل.

٢ ـ لمّا لم يكن من الممكن التعرّف على الاشخاص الذين هم عدول واقعا، فإنّه يجب أن يحصل اتّفاق الجميع لكي يتحقق دخول جامعي الشرائط في ضمن أولئك...[١].

---

١ . روح المعاني، ج٢، ص٦ ـ ٧، والتلخيص.

وقد أنصف الآلوسي في ما ذهب إليه في المقام من عدم نظر الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام إلى حجية الاجماع أو عدم حجيته، حيث ذكر ذلك بعد أن نقل النقود السابقة وما ردّت به من ردود، ثم تعرّض بعد ذلك لمذهب الشيعة في المقام من ذهابهم إلى أنّ مقصود الآية من الامّة الوسط هم الائمّة المعصومون الاثنا عشر عليهم السلام قائلا: «دون اثبات ما قالوه خرط قتاد»[1]، نعم، النتيجة المرّة لـ «حسبنا كتاب الله»[2] من جهة، وقلّة التدبّر في الآية نفسها من جهة أخرى، تحققان عنوان السهل الممتنع.

وقد قبل البعض بأنّ الرسالة التي جاءت بها الآية الشريفة هي أمر يرتبط بالامّة لا بخصوص العلماء، وبأنّ الآية دليل على حجّية إجماع جميع الامّة، وبأنّ إجماع جميع الامّة هذا هو التواتر الّذي يعبّر عنه عادة بالضروري في الدين.

وليست الآية ناظرة إلى حجّية إجماع المجتهدين إلا على مستوى الاستيناس لا أكثر؛ وذلك لجملة من الامور، منها:

أوّلا: يستفاد من الآية الّتي هي محلّ البحث كمال عقول الامّة التي تتوافر على العقائد الصحيحة، والتي تجتنب الاوهام والخرافات، وتتلقّى الشريعة من الخبراء العدول.

ثانيا: كمال العقل في كلّ طبقة من الطبقات يكون متناسبا وتلك الطبقة.

ثالثا: لّما كان وصف الوسطية متعلّقا بمجموع الامّة، فإنّ ذلك المجموع لن يقع في الضلال، لا عمدا؛ من جهة أنّهم عدول، ولا خطأ؛ من جهة ما يحملونه من استقامة الفكر.

رابعا: ما يعود على عامّة الناس من هذه العصمة يعود إلى النقل.

---

١ . روح المعاني، ج٢، ص٦ ـ ٧، والتلخيص.

٢ . بحارالانوار، ج٢٢، ص٤٧٣ ـ ٤٧٤.





ومن خلال هذه الامور الاربعة ينتظم الاستدلال المزبور[١].

وبغضّ النظر عن التحقيق السابق في ما يرجع إلى رسالة الآية الكريمة التي لا تتماشى مع الاراء السابقة أبدا، فإنّه يبقى قضية لزوم التفريق بين التواتر الّذي يستفاد منه في الامور الحسّية، وبين الاجماع التامّ الّذي يكون العنصر المحوري فيه كونه الموجّه في الامور الاستنباطية والحدسية؛ إذ لا يكون إجماع الجميع بمعنى التواتر أبدا. نعم، نقل الجميع هو التواتر نفسه، إلا أنّه خارج عن حيطة الاجماع.

النقطة الاخرى التي يجب أخذها بنظر الاعتبار في المقام، هي أنّ الاجماع بأيّ تقريب قرّبناه لا يخرج عن السنّة لا في مقابلها، وبعبارة أخرى: لا يمكن أن نقول: إن الادلة الشرعية هي العقل والقرآن والسنة والاجماع، بل اللازم أن نقول: إنّ دليل الحكم الشرعي إمّا أن يكون العقل البرهاني أو النقل المعتبر، والنقل المعتبر إمّا أن يكون قرآنا أو سنّة، والسنة إمّا أن يكون الكاشف عنها الخبر أو الشهرة أو الاجماع. وحينئذ ينقسم كلّ واحد من الخبر والشهرة والاجماع إلى أقسامه الخاصّة.

والمغزى: أنّ مجال الاجماع هو الامور غير الحسّية، ويعتبر كاشفا عن أحكامه تعالى، الامر الّذي لا سبيل إليه بدون الكشف عن رضا المعصوم عليه السلام، أو امضائه أو دخول المعصوم بنفسه في المجمعين.

فالله سبحانه وتعالى ـ الّذي هو وجود محض وعلم صرف وقدرة محضة لا حد لها ـ لا يصدر أيّ أمر من أموره الحكيمة إلا على أساس الارادة والاختيار، وهذا الصدور الخاص يحدث طبق نظام العلّة والمعلول، ولا يمكن المصير إلى خروج إرادة المبدأ الفاعلي واختياره عن حيطة العلّة والمعلول، وعليه، فما قاله

---

١. نفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص١٩،.

الحكماء الالهيون كما هو مطابق للبرهان العقلي، فهو ممّا قام عليه الدليل المعتبر النقلي أيضاً.

كما أنّه ينبغي عدم الغفلة عن أنّ العدالة بنظر الحكماء الالهيين هي عدم اقتراف الكبيرة، وأمّا الصغيرة، فإنها لا تنافي العدالة عندهم، وعليه، فإذا كانت الامّة الوسط العادلة بهذا المعنى قد توافقت على أمر من الامور بصورة عملية ـ يعني: إذا صدر عن الجميع عمل مّا ـ فإنّه لا يمكن اعتبار ذلك الامر حكما شرعيا؛ إذ يمكن أن يكون ذلك العمل صغيرة من الصغائر.

## إمتحان تغيير القبلة الالهي

كان تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة امتحانا صعبا من جانبه سبحانه وتعالى، لكي يتميّز من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وهو ما شهد به قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾.

وصعوبة الامتحان الالهي في تغيير القبلة وشدّته، إنّما كانت من جهة أنّ المسلمين كانوا قد اعتادوا الصلاة والعبادة إلى جهة بيت المقدس لسنين متمادية، وكان التوجّه إلى بيت المقدس نفسه صعبا جدّا على عرب الحجاز؛ لما تحتلّه الكعبة في نفوسهم التي كانت تغذيها العصبية والقومية، ما جعل الامر بالتوجّه إلى بيت المقدس بنفسه امتحانا صعبا بالنسبة إليهم.

وقد كان في التوجّه إلى بيت المقدس في العبادة والصلاة في بداية الاسلام منافع سياسية واجتماعية للمسلمين؛ إذ كان لذلك تأثير كبير في جذب بعض ذوي الحجج الواهية من اليهود والنصارى إلى الاسلام في ذلك الوقت.

وقد تقدّم في البحث التفسيري للآية السابقة أنّ جميع الجهات له سبحانه

وتعالى، وأنّ الانسان أينما ولّى وجهه فإنما يولّيه لوجهه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[1]، ومن هنا، فإنّه ليس لأيّة جهة امتياز ذاتي على الجهة الاخرى لكي يكون تغيير القبلة عن تلك الجهة مستحيلا عقلاً؛ إذ المقصود في القبلة هو الجهة لا البناء الخاص أو الصخرة الخاصّة.

هذا أوّلا، وأمّا ثانيا، فهو أنّ كون جهة مّا قبلة ليس قائما على أساس استحقاق ذاتي لتلك الجهة، وإنما هو امتحان إلهي ليس إلا.

بعد ما تقدم، يبرز سؤال مهم في المقام، وهو عن السبب الكامن وراء جعل بيت المقدس قبلة مرّة، والكعبة مرّة أخرى. فلماذا لم تكن الكعبة هي القبلة على طول الزمن وإلى نهايته؟ ثم عندما تحولت القبلة إلى بيت المقدس فصار الواجب التوجّه إلى هذا البيت، فما الوجه في تغيير القبلة إلى الكعبة مرّة أخرى؟

وكما تقدمت الاشارة إليه، فقد كان عرب الحجاز يكرّمون الكعبة تكريما ناشئا عن عصبية جاهلية لا عن كونها بيتا له سبحانه وتعالى بني بيد المكرّمين من الانبياء الالهيين: إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. فلو كان الله سبحانه وتعالى أوّل ظهور الاسلام قد جعل الكعبة قبلة للمسلمين، لتوهّم عرب الجاهلية أنّ ذلك إنّما كان من جهة احترام الاسلام لقوميتهم وقبليتهم، ومع الالتفات إلى أنّ من جملة البرامج الاساسية للاسلام هو القضاء على العصبية الجاهلية، فقد جعلت القبلة ذلك الوقت بيت المقدس لا الكعبة.

وبعد هجرة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله إلى المدينة، قال اليهود الذين كان بيت المقدس عندهم كريما مقدّسا، من منطلق التعصب والطعن والتعيير: بيت المقدس لنا، وليس لكم أيّة استقلالية في ما يرجع إلى القبلة، بل أنتم تابعون لنا في هذا المجال.

---

١. سورة البقرة، الآية ١١٥.




ولأجل التصدّي إلى هذا التعصّب من جهة، ولدفع توهم التبعية الّذي كان يدعيه اليهود من جهة اخرى، غيّرت القبلة إلى الكعبة، بغضّ النظر عما للكعبة من خصوصيات كثيرة ليست لغيرها، من قبيل:

١ ـ كونها هي أول معبد أقيم لعبادة جميع الناس.

٢ ـ كون حجرها الاسود ممّا يذكّر بأحجار الجنّة الكريمة.

٣ ـ أنّ استلام الحجر الاسود مظهر من مظاهر البيعة لله سبحانه وتعالى والميثاق الملكوتي.

٤ ـ أنّ هندسة الكعبة وعمارتها والعمل فيها من قبل الانبياء العظام كانت إلهاما من جانبه تعالى.

٥ ـ تمامية جميع بنائها تحت ظلّ الدعاء الخاضع والخالص الّذي ورد في قوله تعالى عن لسان إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾[1].

٦ ـ أنّها سميت بالبيت العتيق لأنّها محور الحرية ومدرسة التحرر.

٧ ـ أنّها إنّما كانت مربّعة من جهة محاذاتها لبيت الملائكة المعمور المربّع، والذي يستند في تربيعه بدوره إلى تربيع العرش، والذي اكتسب تربيعه من الكلمات الالهية الاربع: ﴿سبحان الله، والحمد لله، ولا إله الا الله، والله أكبر﴾، وبإضافة السطح والسقف تكون الكعبة مسدّسة مكعّبة، فتكتسب اسم الكعبة من ذلك[2].

٨ ـ أنّها واقعة في أمّ القرى، وهي خصوصية إقليمية.

إلى غير ذلك من الخصوصيات الكثيرة.

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٢٧.

٢ . بحارالانوار، ج٩٦، ص٥٧.






## توهّم وقوع نسخين في حكم القبلة

إحتمل الزمخشري أنّ كلمة ﴿التي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾، هي صفة لموصوف محذوف هو المفعول الثاني للفعل «جعل»، وليست صفة «القبلة»، ما يعني أنّ تقدير الآية الشريفة حينئذ سيكون كالتالي: «وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها أوّلا...»[1]، يعني: كنت تصلّي إلى جهة القبلة سابقا، ثمّ أمرت بالتوجه إلى بيت المقدس في مقطع من المقاطع الزمانية، وجعلنا القبلة الآن ما كنت عليه سابقا، وهو الكعبة.

ويجب الالتفات إلى أنّ التقدير المزبور خلاف الظاهر؛ إذ لا آية أو رواية في البين تثبت أنّ قبلة المسلمين الاولى قبل بيت المقدس قد كانت الكعبة لكي يثبت النسخ مرتين، كما أنّ معنى «كنت عليها» ليس: «صرت إليها» أو «أنت عليها».

﴿التي﴾ صفة للقبلة، وبناء على أنّ معنى ﴿ما جعلنا...﴾ هو: «ما صرفنا...»[2]، سيكون معنى الآية الشريفة هو: ما غيّرنا القبلة التي كنت عليها وكنت تصلّي إليها إلى الكعبة إلا للامتحان.

ولو لم يكن الجَعْل بمعنى الصرف، لكانت الرسالة التي تؤدّيها الآية عائدة إلى الامتحان الاهي أيضاً.

## العلم الفعلي لله سبحانه وتعالى

ذكر سبحانه وتعالى في مقام بيان السرّ في تغيير القبلة، أنّ ذلك لم يكن ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾، التعبير الّذي ورد في حالات اخرى لامتحانات إلهيّة مختلفة، من قبيل ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ

---

١. الكشاف، ج١، ص٢٠٠.

٢. التبيان، ج٢، ص٨.

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[١]، وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾[٢]، وقوله عزّ من قائل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾[٣]. هذا، والحال إنّه سبحانه وتعالى عالم بجميع الاشياء حتّى قبل وجودها، قال تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٤]، وقال أيضاً: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الارْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٥]، وقال عزّ وجلّ ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾[٦]، «عالمٌ إذ لا معلوم»[٧]، وهذا العلمُ الازلي السابق عين ذاته سبحانه وتعالى.

ولا يقتصر علمه سبحانه وتعالى على سرّ الانسان وما خفي منه على الآخرين كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[٨]، بل هو ـ سبحانه وتعالى ـ عالم بسرّ السرّ وما هو أخفى حتّى بالنسبة إلى الانسان نفسه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿فإنّه يَعْلَمُ السرّ وَأَخْفَى﴾[٩].

ومع أخذ النقطة السابقة بنظر الاعتبار، صار المفسّرون بصدد توجيه تعبير من قبيل: ﴿لنعلم...﴾، والواقع في الآية الّتي هي محلّ البحث أيضاً، فذكروا في هذا المقام وجوها متعدّدة نتطرق إلى بعضها في ما يلي:

---

١ . سورة آل عمران، الآيه ١٤٢.
٢ . سورة آل عمران، الآيات ١٦٦ ـ ١٦٧.
٣ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٣١.
٤ . سورة البقرة، الآية ٢٩.
٥ . سورة يونس، الآية ٦١.
٦ . سورة البقرة، الآية ٢٢٠.
٧ . نهج البلاغة، الخطبة ١٥٢، الفقرة ٥.
٨ . سورة يس، الآية ٧٦.
٩ . سورة طه، الآية ٧.

١ ـ أنّ الله سبحانه وتعالى إنّما يجري الامور بواسطة الملائكة المدبّرين: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾[1]، وكما ينسب السلاطين والقادة ما يقوم به من تحت أيديهم إلى أنفسهم، كما في قولهم: «فتح الامير البلد» مع أنّ الفاتح للبلد هو العمّال لا الامير بنفسه، فكذلك الامر في ما نحن فيه، فإنّه تعالى ينسب العلم الحاصل لمأموريه من الملائكة والانبياء والاولياء الالهيين عليهم السلام على أثر امتحانهم من قبله سبحانه وتعالى إلى نفسه، الامر الّذي جعله تعالى يعبّر عن ذلك العلم بصيغة التكلم مع الغير فيقول عزّ من قائل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[2].

٢ ـ أنّ المعنى هو: إلا ليحصل المعلوم موجودا، فقيل على هذا: إلا لنعلم، لانّه قبل وجود المعلوم لا يصح وصفه بأنّه عالم بوجوده.

٣ ـ أنّ المعنى هو: إلا لنعاملكم معاملة المختبر الممتحن الّذي كأنه لا يعلم أنّ العدل يوجب ذلك، من حيث لو عاملهم بما يعلم إنّه يكون منهم كان ظلما لهم[3].

٤ ـ الوجه اللطيف الّذي ذكره السيد المرتضى وقبله الشيخ الطوسي: وهو أنّ قوله «لنعلم» يقتضي حقيقة أن يعلم هو وغيره، ولا يحصل علمه مع علم غيره إلا بعد حصول الاتّباع، وأمّا قبل حصوله، فإنّما يكون هو تعالى العالم وحده، فصحّ حينئذ ظاهر الآية.

وبعبارة أخرى: أنّ مجموع القديم والحادث حادث، يعني: «ليعلم الله سبحانه وتعالى والانبياء»[4].

---

١ . سورة النازعات، الآية ٥.

٢ و٣ و٤ . التبيان، ج٢، ص٩.

٥ ـ أنّ المعنى هو: أن يعلموا أنّا نعلم؛ لأنّه كان منهم من يعتقد أنّ الله لا يعلم الشيء حتّى يكون[1].

٦ ـ أن المراد من العلم في ما كان من قبيل هذه الموارد، هو العلم الفعلي الخارج عن الذات لا العلم الذاتي الّذي هو عين الذات. وسيأتي توضيح هذا الوجه الخالي عن التكلّفات التي ابتليت بها الوجوه السابقة في مبحث الاشارات واللطائف إن شاء الله تعالى.

**الانقلاب على الاعقاب والبعد المستمر عن الهدف**

هناك شبه بين ما ورد في قوله تعالى: ﴿**لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾ الوارد في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، وبين تعبير قرآني آخر ورد في القرآن الكريم، وهو قوله عزّ من قائل: ﴿**لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾[2].

لقد وصف الله سبحانه وتعالى الانسان بالخبيث والطيّب أحيانا بلحاظ الباطن، كما أنّه وصفه بالرجعي والتقدمي بلحاظ الطريق والمسير والهدف، كما أنّه وصف الانسان ـ مرّة ثالثة ـ بالتابع والمنقلب على عقبيه بلحاظ التبعية أو المخالفة: ﴿**مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾؛ إذ إنّ كلّ فرد من الافراد بالنسبة إلى براجمه الدينية، إمّا أن يكون تابعا للرسول الاكرم ﷺ فيتّخذ مسيره مسيرا له يخطو عليه للوصول إلى الهدف، يعني: الحقّ، وإمّا أن يكون مخالفا له ﷺ يختار غير مسيره، فينقلب على عقبيه عن تعصّب، فلا يزداد إلا بعدا عن الهدف السابق وضلالا يوما بعد يوم.

---

١ . التبيان، ج٢، ص٩.

٢ . سورة الأنفال، الآية ٣٧.

وكلّما أسرع الانسان في خطاه ومسيرته، فإنّه إمّا أن يصل إلى الهدف بسرعة، وإمّا أن يبتعد عنه بتلك السرعة، ليكون ممّن ورد فيهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1]، ومن هنا نسمعه سبحانه وتعالى يخاطب الضالّين بقوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[2].

الانسان الرجعي الغافل عن كونه في حالة سير قهقرائي إلى الخلف، يظن أنّه في حالة تقدم وتطوّر ولا يعلم أنّه على العكس من ذلك في حالة رجوع وقهقريرة، وهو ما يوجّه قوله تعالى واصفا الكافرين الذين يحسبون أنّهم يتقدّمون الاخرين ويسبقونهم: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾[3]. فأولئك يسيرون إلى الوراء الطريق كله، فلا يزيدهم ذلك إلا بعدا عن الهدف كلّما أوغلوا في المسير، وإضافة على أنّ مسيرهم ذلك لا يجعلهم يخرجون عن قدرته سبحانه وتعالى غير المحدودة ويخلّفونها وراءهم، فإنّهم لن يصلوا إلى الهدف مهما ساروا وبذلوا الجهد في ذلك المسير.

## شدة امتحان القبلة

تكلّم الله سبحانه وتعالى عن تحويل القبلة معتبرا ذلك الحدث امتحانا شديدا، فقال عزّ من قائل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾، فإنّ الانتصار على الهوى في ميدان جهاد النفس، وترك العادات، وهجر المألوف، وبعبارة أخرى جامعة: محورية الحقّ، أمر شديد غايته، ما يوجّه كون أصل

---

١ . سورة فصّلت، الآية ٤٤.
٢ . سورة التكوير، الآية ٢٦.
٣ . سورة الأنفال، الآية ٥٩.

الصلاة، والتوجّه إلى الجهة غير المتوافقة مع العصبية والقومية والاهواء أمرا شديدا، الامر الّذي لا ينفع الصالحين فيه إلا سلاح الخشوع له سبحانه وتعالى، ما يوجّه استثناء الخاشعين والمهتدين في مثل هذه الموارد المهمّة الحساسة.

إنّ التعبير بقوله تعالى: ﴿لَكَبِيرَةً﴾ في ما يرجع إلى القبلة، بالاضافة إلى إبرازه التأكيد المكرّر، فإنّه يعكس عظم مسألة تغيير القبلة وأهميتها، بحيث لا ينال ثواب قبولها إلا المهتدون، كما صرح في الآية السابقة أنّ تقبّل الامر بالقبلة الجديدة مصداق من مصاديق الهداية إلى الصراط المستقيم، ولا يكون إلا من نصيب من تعلّقت المشيئة الالهية الحكيمة بهدايته: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

إنّ الامتحان الالهي عندما يكون مترافقا مع تكليف آخر، وعلى خلاف ما يريده الانسان، سيكون مصبوغا بصبغة الاكراه بالنسبة إلى ذلك الانسان، فيكون صعبا شديدا، والحال في تغيير القبلة كذلك؛ إذ إنّه كان على خلاف إرادة المتعصّبين المتحجّرين وميولهم، سيّما وهم خلو من هدايته سبحانه وتعالى، فكان امتحانا شديدا، من قبيل الصلاة أو الاستعانة بالصبر والصلاة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[2].

إنّ أصل الصلاة ليس عملا شديدا لو لاحظنا الجانب البدني لها ومقدار الطاقة التي يصرفها المصلي فيها، إلا أنّ هناك الجانب الباطني للصلاة، والذي هو عبارة عن الانقياد إلى الامر الالهي بإقامتها، وكونها مصدر الطمأنينة للخاشعين وقرّة أعينهم[3]، فهذا الجانب أمر ثقيل للجامحين ومن يركب الهوى،

١. سورة البقرة، الآية ١٤٢.

٢. سورة البقرة، الآية ٤٥.

٣. بحارالانوار، ج٧٣، ص١٤١.





ولهذا، نرى هؤلاء يمتنعون عن أداء الصلاة، ومن هنا، كان نوع تعامل الافراد مع الصلاة، من حيث الاهتمام بوقتها وآدابها ومستحبّاتها وعدمها، مقياسا لدرجة خشوع كلّ فرد من هؤلاء في هذا المجال.

بعد قيام الدليل العقلي على عدم محدوديته سبحانه وتعالى، وعلى عدم كونه في جهة خاصّة من الجهات دون غيرها، بل له الجهات جميعها، ما يعني عدم امتياز لأيّة جهة من الجهات على غيرها، وبعد أن كان الدليل النقلي مؤيّدا لما سبق من قيام الدليل العقلي عليه، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[1]، لا يبقى أيّ مجال للاعتراض؛ فمن يعترض بعد ما قام البرهان العقلي والنقلي عليه ليس إلا سفيها، ولهذا، سيكون هذا الامتحان شديدا على السفهاء الخاوين من العقل وقوة التفكير، وأمّا غير هؤلاء من الافراد المتعبّدين الخاضعين له سبحانه وتعالى، فإنّهم سوف يجتازون الامتحان بجدارة وسهولة: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾، ولهذا، سيكون المراد من الهداية هنا هو التسديد والتأييد؛ فإنّه سبحانه وتعالى بعد أن يهدي الانسان بالعقل والنقل، فقد جعله رصينا كريما، وإنسان من هذا النوع لا جرم من أنّه سيتحمل الامتحان مهما كان صعبا شديدا.

إنّ الامتحانات الصعبة بالنسبة إلى الآخرين، لن تكون كذلك بالنسبة إلى من منّ الله سبحانه وتعالى عليه فجعله متسلّحا بسلاح الهداية الالهية، وأمّا بالنسبة إلى من ابتلي بحبّ النفس ووقع في شرك الهوى، فإنّ إطاعته سبحانه وتعالى ستكون صعبة شديدة بالنسبة إليه، خلافا لمن لم يبتل بهذا الداء، فإنّه سيكون مصدرا للخير والاعمال الخيرة بكلّ يسر: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[2].

---

١ . سورة البقرة، الآية ١١٥.

٢ . سورة الليل، الآيات ٥ ـ ٧.



ملاحظة: الكبيرة في محلّ البحث نظير ما ورد في الآية الشريفة: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إليه﴾[1]، كما أنّه ذكر أنّها تشبه من بعض الجهات ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾[2].

## حكم الصلوات السابقة

نفيت إضاعة الايمان والعمل الصالح عنه سبحانه وتعالى في آيات متعدّدة من القرآن الكريم من جملتها الآية الّتي هي محلّ البحث؛ فإنّه تعالى لا يضيع إيمان المؤمنين وعملهم الصالح أبدا، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾، وقال عزّ من قائل: ﴿أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾[3]، وقال أيضاً: ﴿وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

بعد تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، برز لبعض الافراد سؤال يرجع إلى حكم الصلوات السابقة التي أدّاها المسلمون إلى بيت المقدس، فما هو حكم تلك الصلوات؟ هل هي مقبولة من قبله سبحانه وتعالى أم لا؟

والجواب: أنّ الكعبة ليست قبلة بذاتها، وإنّما صارت قبلة من جهة أمره سبحانه وتعالى بالتوجّه إليها في الصلاة والعبادة بعد أن كانت القبلة بيت المقدس قبل ذلك بأمره سبحانه وتعالى أيضاً، ما يعني أنّ الصلوات التي أدّيت من قبل إلى القبلة السابقة لا تعدّ ضائعة، بل ستكون مقبولة منه سبحانه وتعالى.

وبعبارة أخرى: لّما كان الحقّ السابق هو التوجّه إلى تلك القبلة السابقة التي عيّنها الله سبحانه وتعالى، وهي بيت المقدس، والحقّ اللاحق هو استقبال

---

١ . سورة الشورى، الآية ١٣.

٢ . سورة الأنعام، الآية ٣٥.

٣ . سورة آل عمران، الآية ١٩٥.

٤ . سورة آل عمران، الآية ١٧١.

الكعبة، وكان تعدّد الزمان وتغيّر الملاك وتنوع المصلحة مصحّحةً لاختلاف الامر في القبلتين، فإنّ من صلّى سابقا إلى القبلة السابقة يعدّ مؤدّيا لما فرض عليه من فرائض مأجورا عليها، ولا يضيع الله سبحانه وتعالى أبدا ايمانه وعمله الصالح.

ولمزيد التوضيح نقول:

إنّ روح النسخ في التشريع الالهي ترجع إلى التخصيص الزماني كما أشرنا سابقا لا إلى بطلان الحكم السابق المنسوخ؛ إذ إنّ نسخ الاحكام الالهية بصورة عامّة إنّما هو من الحقّ إلى الحقّ. البداء في التكوينيات والنسخ في التشريعيات لا ينشآن أبدا عن جهل الحاكم أو تجهيل الناس؛ إذ إنّه سبحانه وتعالى علم محض وشهود محض، وهو ما لا يتلاءم أبدا مع الجهل والنسيان: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾[1]، ولمّا كان الحكيم عادلا محضا وحقا صِرفا، وليس لأيّ نوع من النقص والعيب طريق لحرم أمْنه، فكلّ حكم يبيّن على صورة النسخ في مجال التشريع الالهي، فإنّه لُبّاً تخصيص أزماني، بمعنى أنّ الحكم مترتب واقعاً على ذلك الموضوع الواقعي، والآن لا مصلحة في الاستمرار عليه، ما يؤدّي إلى ولادة حكم جديد غير ذلك الحكم.

**ملاحظة:** لم يتعرّض في الآية الّتي هي محلّ البحث بالذكر إلى عنوان الكعبة أو بيت المقدس، بل لم يكن في البين إلا عنوان «القبلة»، وذلك لسببين:

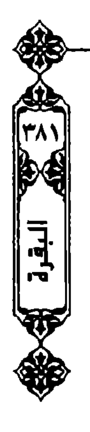
الاوّل: أنّ المهم في البين إنّما هو حيثية القبلة لا الجهة الخاصّة.

الثاني: أن يكون الكلام مطابقا للسؤال الاستنكاري للسفهاء حيث قالوا: ﴿**مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**﴾[2]؛ إذ لم يرد في ذلك الاستفهام عنوان الكعبة أو بيت المقدس أصلا.

---

١ . سورة مريم، الآية ٦٤.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٤٢.




## الصلاة مظهر الايمان

إنّ السرّ في التعبير عن الصلاة بالايمان في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾، هو أنّ الصلاة أهمّ مظهر من مظاهر الايمان، ومن هنا، كانت أوّل ما يسأل عنه الانسان بعد الموت، وكون قبولها أو ردها ملاكا في قبول سائر الاعمال أو ردّها من قبله سبحانه وتعالى[١].

ما سبق، لا يعني أنّ الصلاة تقع في مقابل جميع الاعمال، وإنّما هو من جهة أنّ الصلاة أصل جميع الفضائل، والمانعة من كثير من الرذائل الاخلاقية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[٢]، فقد ذكر سبحانه وتعالى للمصلّي صفات كثيرة في بعدي النفي والاثبات؛ فقد اعتبره بعيدا عن الهلع والجزع والمنع، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الانسان خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[٣].

## الرأفة والرحمة الالهيتان

وفي القسم الاخير من الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، يذكّر سبحانه وتعالى برأفته ورحمته، فيقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ولمّا كان الرؤوف أهمّ من الرحيم، قدّم في الآية الشريفة ذكره، فكان المقدّم المتبوع والآخر المؤخّر التابع.

---

١ . الكافي، ج٣، ص٢٦٨.

٢ . سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

٣ . سورة المعارج، الآيات ١٩ ـ ٢٣.

إنّ رحمته سبحانه وتعالى مطلقة عامّة شاملة للجميع، إلا أنّ أحدا مّا لو ابتلي بالشدة والحاجة، فإضافة على تلك الرحمة العامّة، فإنّه سينتفع بتلك الرأفة الالهية أيضاً؛ فإنّ الرأفة رحمة مقيّدة بالتفقّد لمن ابتلي بالشدة والحاجة فكانت لدفع البلاء، وأمّا الرحمة، فمطلقة، فإنّها كما تكون للرفع، تكون للدفع أيضاً.

مصداق الرأفة والرحمة الخالصة في الآية الكريمة الّتي هي محلّ البحث ـ بالاضافة إلى قبول ما كان من الايمان والصلوات السابقة قبل النسخ ـ هدايته سبحانه وتعالى المؤمنين إلى تقبّل الحكم بتغيير القبلة إلى جهة الكعبة؛ إذ إنّ ذلك التغيير كان امتحانا شديدا لم يجتزه بنجاح إلا من أيده الله سبحانه وتعالى من المؤمنين المطيعين المنقادين لأحكامه، الذين يعتبرون قوام دينهم التسليم الكامل في مقابله تعالى: «وقد علمت أنّ قِوام دِيني التسليم لأمرك...»[1].

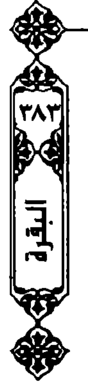
## إشارات ولطائف

### ١ ـ الشهداء على الاعمال

إضافة على كونه سبحانه وتعالى الشاهد بذاته على جميع الاشياء، فقد جعل الانبياء والاولياء الربانيين والملائكة وأعضاء الانسان وجوارحه شهودا في محكمة عدل القيامة.

فأوّل شاهد على الاعمال هو الله سبحانه وتعالى؛ إذ ليس من شأن من شؤون الانسان، ولا عمل من أعماله، إلا وكان سبحانه وتعالى عليه شهيدا كما ورد في قوله عزّ من قائل: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، كما أنّ ما جاء بعد هذه الآية

١ . من لايحضره الفقيه، ج٢، ص٥٢٧.



الشريفة من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الارْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1]، هو استدلال بأصل كلي عامّ في هذا المجال.

وهو تعالى ـ الشاهد اليوم على جميع الاعمال ـ القاضي غدا: «إتّقوا معاصي الله في الخلوات؛ فإنّ الشاهد هو الحاكم»[2]، ولو كان القاضي العادل حاضرا في ساحة العمل فيحكم طبق علمه بالعدل، فلن يكون في البين أيّ ظلم وجفاء، كما أنّ شيئا لن يصمد أمام قدرته اللامتناهية في إجراء الحكم وتنفيذه.

ومن الجدير بالذكر، أنّ تعبيرات من قبيل: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[3] في حقّه تعالى، إنّما هي إرشاد إلى نفي الموضوع. فهذه الجملة وما كان من قبيلها لا تعني أنّ هناك غيبا وشهادة بالنسبة إليه سبحانه وتعالى وأنّه عالم بالاثنين؛ فإنّ العلم ـ الّذي يعني الحضور والشهود ـ لا يتعلق بالغيب بعنوان كونه غيبا أبدا، كما أنّ الغيب من تلك الزاوية التي يكون الغيبُ فيها غيبا لن يكون معلوما في يوم من الايام، بل المراد من الغيب في هذه الموارد وما شابهها إنّما هو الغيب النسبي لا الغيب النفسي، بمعنى: أنّ ما يكون غيبا بالنسبة إلى الآخرين هو شهادة بالنسبة اليه سبحانه وتعالى، وما كان سّرا لا يطّلع عليه الآخرون، هو علن له سبحانه وتعالى وللاولياء الالهيين تبعا لذلك.

الشاهد الآخر على أعمال البشرـ هو المأمورون الالهيون والملائكة، وهم الحاضرون حين صدور العمل من الانسان، والكاتبون له، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[4].

---

١ . سورة يونس، الآية ٦١.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة ٣٢٤.

٣ . سورة التوبة، الآية ٩٤.

٤ . سورة الانفطار، الآيات ١٠ ـ ١٢.

وقد ذكر القرآن الكريم الانبياء عليهم السلام في عداد الشهداء على الاعمال، فقد ذكر المسيح عليه السلام في مجال شهادته تلك ما جاء في الآية الشريفة: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[1]، كما أنّه سبحانه وتعالى وصف الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله في آيات متعددة بالشاهد، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[2]، فقد ذكرت الشهادة في هذه الآية المباركة مطلقة، ما يعني أنّه كما أنّ رسالة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله عامّة دائمية، فإنّ شهادته صلى الله عليه وآله على أعمال المجتمعات البشرية عامّة دائمية بوسعة رسالته.

وعليه، فإنّه صلى الله عليه وآله كما هو شهيد على أعمال أمّته، فإنّه شهيد على أنبيائه سبحانه وتعالى السابقين وعلى أعمال أمم أولئك الانبياء عليهم السلام، فهو شهيد الشهداء، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كلّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ﴾[3].

وكما أنّ الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله مصدّق الانبياء السابقين في الدنيا حقا وعدلا، فإنّه صلى الله عليه وآله يشهد بحقّانيتهم في الآخرة صدقا وعدلا أيضاً، الامر الّذي يبعث على افتخارهم ومباهاتهم جميعا عليهم السلام.

الجماعة التي عبّر عنها في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث بأنّهم «الامّة الوسط»، هي أيضاً من جملة الشهداء يوم القيامة، وكما تقدمت الاشارة إليه، فإنّ المصداق الكامل للأمّة الوسط في هذه الآية هو الائمة المعصومون عليهم السلام؛ فإنّ شهادة من هذا القبيل متوقّفة على علم الغيب والاطلاع على بواطن الانسان، والحال أنّ الانسان العادي غير مطلع على الكثير من الامور المتعارفة، وعلى

---

١ . سورة المائدة، الآية ١١٧.

٢ . سورة الاحزاب، الآية ٤٥.

٣ . سورة النحل، الآية ٨٩.



فرض اطلاعه، فمن جهة أنّه فاقد للعدالة، فإنّه لن تقبل منه الشهادة حينئذ؛ فإنّ كلام غير العادل لا يسمع في محكمة العدل الالهي؛ إذ كيف يمكن قبول شهادة الآخرة ممّن لا تقبل شهادته على أبخس الامور في الدنيا؟!

شاهد آخر على كيفية حياة الانسان، وخصائصه الباطنية، يعني: ملكاته، هو ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاءَتْ كلّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[1]. إذ يستقبل المؤمنون يوم القيامة بما يليق بهم من التكريم والتجليل، وأمّا غيرهم، فيحشرون كما جاء في الآية الكريمة المزبورة مع السائق والشهيد.

والسائق هو الّذي يحرّك الانسان ويسيطر على حركته من الخلف، خلافا للقائد الّذي يقود من الامام، وأمّا الشهيد، فإنّ الهدف منه الشهادة في المواقف المختلفة التي يسأل عنها الانسان، وهذان المرافقان (السائق والشهيد) لن يفترقا عن الانسان، ما يعني أنّ إنسانا مّا لن يمكنه التوقّف في موقف من المواقف؛ إذ إنّ السائق لن يترك له مجالا لذلك بسوقه من الخلف، كما أنّه لن يمكنه إنكار عمل مّا قد صدر عنه في الدنيا بعد وجود الشهيد معه يرافقه.

المجموعة الاخرى من الشهود هي مجموعة أعضاء الانسان وجوارحه، ومثل هذه الشهادة قد تكون على صورة النطق أحيانا، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إلى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كلّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مرّة وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

---

١ . سورة ق، الآية ٢١.

٢ . سورة فصّلت، الآيات ١٩ ـ ٢٢.

كما أنّها قد تكون على صورة العمل، فيحشر كلّ إنسان على صورة العمل الّذي صدر عنه في الدنيا؛ حيث يحشر كلّ إنسانٍ على صورة الخصائص النفسية التي كانت له، وقد يحشر على صورة حيوان من الحيوانات، فتشهد كلّ جارحة من جوارحه وكلّ عضو من أعضائه عليه بلسان الحال فلا حاجة إلى السؤال والجواب اللفظيين، قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾[١]؛ إذ يعرف الانسان يومئذ بعلامته وسيماه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾[٢].

فالانسان المغرور المتكبّر مثلاً على هيئة الذر[٣]، تشهد جميع أعضائه وجوارحه على ما كان عليه في الدنيا من التكبر، ما يوجّه ما جاء بعد قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الانسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[٤] مباشرة من استدراك، حيث يقول عزّ من قائل: ﴿بَلْ الانسان عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾[٥]، فهو على اطّلاع كامل بما قدّمت يداه.

والحاصل: أنّ أفواه المجرمين يوم القيامة مختوم عليها، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾[٦]، ولكن، وكما سبق، فإنّ جميع أعضاء الانسان وجوارحه تشهد عليه، إمّا بلسان المقال كما في قوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٧]، وإمّا بلسان الحال كما يشهد وجود الكافر على كفره، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾[٨]، فإنّ المشرك لا يشهد على

---

١ . سورة الرحمان، الآية ٣٩.
٢ . سورة الرحمان، الآية ٤١.
٣ . بحار الانوار، ج٧، ص٢٠١.
٤ . سورة القيامة، الآية ١٣.
٥ . سورة القيامة، الآية ١٤. و«التاء» في كلمة «بصيرة» للمبالغة لا للتأنيث.
٦و٧ . سورة يس، الآية ٦٥.
٨ . سورة التوبة، الآية ١٧.

نفسه بلسانه بالكفر ولا يقر به، وأمّا ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾[1] من نفي الشرك عن أنفسهم يوم القيامة كذبا، فإنّما هو من جهة صيرورة المخالفة ملكة عند هؤلاء، الملكة التي تظهر يوم القيامة فتجعلهم يقولون ما تقدم، لا أنهّم مختارون في ما قالوا من الكذب، من قبيل الكذّاب الّذي يكذّب حتّى في المنام، فيتكلم بما تمليه عليه ملكاته.

جميع الاسرار يوم القيامة تكون علانية، ويكون كلّ فرد بمشهد من الفرد الآخر، ما يعني عدم كون الكذب (وهو الاخبار الجدّي على خلاف الواقع) ميسورا لأيّ أحد من الناس، ويومئذ لا مجال للكلام بدون إذن الله سبحانه وتعالى، كما لا مجال للكلام الباطل والكذب، قال تعالى: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾[2].

## ٢ ـ المقصود من (العدالة) المعتبرة في الشاهد

للشهادة بحث فقهي يطرح في محله، إلا أنّ من المفيد أن نشير إلى بعض الامور التفسيريّة التي تعرّض لها بعض المفسّرين في المقام:

١ ـ المقصود بالعدالة المعتبرة في الشاهد هو الايمان.

٢ ـ الشهادة مقبولة من كلّ مؤمن.

٣ ـ المقصود من قوله تعالى في الآية الشريفة: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾[3] هو الايمان نفسه، والمعنى: أدعوا مؤمنين للشهادة.

---

١ . سورة الأنعام، الآيات ٢٣ ـ ٢٤.

٢ . سورة النبأ، الآية ٣٨.

٣ . سورة الطلاق، الآية ٢.

٤ ـ العلامة على أنّ المراد من العدالة هو الايمان نفسه لا غيره كعنوان العدالة مثلا، هو أنّ من تقبل شهادته هو من يقابل من تردّ شهادته، وهذا الاخير هو الكافر لا الفاسق؛ إذ إنّ المذكور في مجال الوصيّة حال السفر، هو أن يكون الشاهد عادلين «منكم»، يعني: من أهل الايمان، أو من «غيركم»، يعني الكفار في صورة عدم حضور المؤمن. ومن هذا التقابل بين العادل والكافر، يعلم أنّ المراد من العادل هو المؤمن، وإلا، لم يوضع مقابلا للكافر بل مقابلا للفاسق[1].

والجواب:

أوّلا: أنّ بيان جميع الخصوصيات المعتبرة في الشاهد هو وظيفة فنّ الفقه.

ثانياً: إستنادا إلى الروايات المفسرة التي وردت في ذيل الآية الّتي هي محلّ البحث، فإنّ شهادة الفاسق لا تقبل حتّى في الامور الحقيرة، فكيف بالامور الخطيرة من قبيل الشهادة على أعمال الناس يوم القيامة؟!

ثالثاً: أنّ رسالة القرآن الحكيم في مجال القضاء والشهادة أمر واضح جدا، وهو أنّ القيام بالقسط، والقوّام بالقسط، والقوّام بالشهادة، أمور لازمة لا تنازل عنها، بما لا يدع أيّ مجال لقبول شهادة الفاسق في هذه المدرسة.

### ٣ـ نكات في مجال علم الله سبحانه وتعالى الفعلي

العلم ـ الّذي هو في الحقيقة إحاطة العالم بالمعلوم وحضور المعلوم عند العالم ـ من الصفات المشتركة بين ذات الله سبحانه وتعالى وفعله. والمراد من ﴿لنعلم﴾ في الآية الّتي هي محلّ البحث هو العلم الفعلي المنتزع من مقام الفعل وعين فعله، وأمّا حدوثه، فهو باعتبار حدوث المعلوم لا باعتبار أصل العلم.

---

١ . رحمة من الرحمان، ج١، ص٢١٣. الهامش.

وللتوضيح نقول:

أ ـ صفات الله سبحانه وتعالى نوعان: صفات الذات، من قبيل: الحياة والقدرة، وصفات الفعلِ، من قبيل: الخلق والرزق.

وصفة الذات غير محدودة، قديمة، أزلية، وعين الذات، وينتزع مفهومها من مقام الذات، وأمّا صفة الفعل، فهي محدودة ممكنة، ومن هنا، لا بدّ من انتزاعها من محل الامكان، يعني: فعله سبحانه وتعالى، لا من محل الوجوب، يعني: ذاته سبحانه وتعالى، وفي الحقيقة: صفة الفعل عين الفعل، وأفعال الحقّ حادثة، وعليه، فتكون الاوصاف الفعلية له تعالى حادثة.

ب ـ لبعض الاوصاف بلحاظ كونها ذاتية أو فعلية اسمان، من قبيل القدرة والقبض والبسط، فالقدرة صفة ذات والقبض والبسط صفتان فعليتان تحت ظلّ القدرة.

كما أنّ لكلّ واحدة من صفة الذات والفعل اسم واحد، من قبيل العلم والارادة، فإضافة على أنّ له سبحانه وتعالى علما ذاتيا وإرادة ذاتية، فإنّ له علما فعليا وإرادة فعلية ايضاً.

ج ـ علمه سبحانه وتعالى بالاشياء من جنس العلم الحضوري لا الحصولي. وفي العلم الحضوري يكون العلم عين المعلوم، وأمّا في العلم الحصولي، فإنّ هناك فاصلا بين العالم والمعلوم هو «الصورة العلمية»، كما قيل من أنّ: «العلم هو الصورة الحاصلة من الشيء لدى النفس».

بناء على ما سبق، ففي العلم الحصولي، تكون الصورة العلمية معلومة بالذات، وأمّا وجودها الخارجي، فمعلوم بالعرض، وأمّا في العلم الحضوري، فنفس ذلك الوجود الخارجي معلومة، وليس في البين شيء اسمه الصورة العلمية، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ليس بينه وبين معلومه علم غيره»[1].

---

١ . الكافي، ج٨، ص١٨.

فليس الامر أن تكون صورة الاشياء حاضرة عنده سبحانه وتعالى، بل الشيء نفسه معلوم حاضر عنده، وأمّا تعبير «غيره (غير المعلوم)»، فهو مجرّد مؤكّد لكون العلم حضوريا، وأنّ الموجود الخارجي سيكون عين العلم.

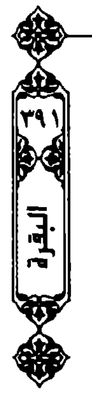
د ـ لّما كان الفعل نفسه مشهودا، فإنّ الفعل قبل مرحلة الوجود والحضور لن يكون معلوما، بل سيكون معلوما بعد الوجود، وهذا العلم الفعلي الّذي هو عين الفعل والمعلوم لا عين الذات والعالم، حادث؛ إذ قبل وجود الشيء لم يكن وجود للعلم الفعلي أيضاً، ومن هنا، فإنّ العلم المزبور ينتزع من مقام فعله سبحانه وتعالى لا من مقام ذاته عزّ وجلّ.

وممّا سبق، يتّضح أنّ المعلوم لّما كان حادثا، فإنّ العلم سيكون كذلك لا محالة.

هـ ـ لّما كان العلم الفعلي خارجا عن ذاته سبحانه وتعالى، وكان ممكنا مسبوقا بالعدم، ولا يكون الممكن عين الواجب، فإنّه سيكون متّحدا معه سبحانه وتعالى في مقام الفعل لا في مقام الذات.

توضيحه: أنّ مصحّح الحمل في جميع القضايا هو اتّحاد الموضوع والمحمول، والمعيّن لمحور اتّحاد هذين الامرين هو محمول القضية لا موضوعها، كما في القضايا الثلاث: «زيدٌ ناطق»، «زيدٌ عالم»، و«زيد قائم»، فإنّ الموضوع، يعني: زيد، متّحد مع المحمول؛ إلا أنّ محور الاتحاد في القضية الاولى هو مقام الذات، بينما هو في القضية الثانية مقام الوصف، وفي الثالثة مقام الفعل.

وجميع الاسماء الفعلية التي تحمل عليه تعالى في النصوص النقلية، من قبيل: الرازق، والشافي، والآخذ، والقابض، والباسط، وغيرها، متّحدة معه تعالى في مقام الفعل، وهذا الاتحاد في مقام الفعل هو المصحّح لحملها عليه سبحانه وتعالى، والعلم الفعلي من هذا القبيل أيضاً.




ومن غفل عن هذه النكتة وقع في حيص وبيص من حيث كيفية اتحاد الموضوع والمحمول في مسائل من قبيل علمه تعالى الفعلي، فمن جهة: هناك الواجب والقديم، ومن جهة اخرى: هناك الممكن والحادث، وفي مقابل السؤال عن كيفية اتحاد الواجب والممكن، والقديم والحادث، ذهبوا إلى أمور من قبيل المَجاز في الاسناد والمجاز في الكلمة.

و ـ بناء على ما ذكره الكليني في كتابه الشريف الكافي معيارا لتشخيص صفة الذات وصفة الفعل[1] وتلقّاه حكماء الاسلام بالقبول، فإنّ صفات الذات تطلق على تلك الصفات من صفات الكمال التي لا مقابل لها ولا حدّ، فلا يقع في مقابلها إلا العدم والنقص، من قبيل العلم والحياة والقدرة التي ليس مقابلها إلا الجهل والموت والعجز، والله سبحانه وتعالى لا يتّصف بها قابل العلم والحياة والقدرة أبدا.

وأمّا صفات الفعل، فهي تلك المجموعة من الصفات التي لها مقابل يقابلها من الكمال أيضاً مع وجود الحدّ المشخص بينهما، مع اتصافه سبحانه وتعالى بالطرفين، من قبيل الضارّ والنافع، والمحيي والمميت، والراضي والغضبان، وغير ذلك من الصفات، فإنّه تعالى ضارّ بالنسبة إلى بعض نافع بالنسبة إلى بعض آخر، كما أنّه محيي بالنسبة إلى البعض مميت بالنسبة إلى البعض الآخر، وكذا بالنسبة إلى أوصاف الفعل الاخرى له سبحانه وتعالى.

وذلك العلم الّذي لا مقابل له، والذي يعبّر عنه بتعبيرات من قبيل: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]، و«عالمٌ إذ لامعلوم»[3]، إنّما هو العلم الذاتي الّذي هو عين ذاته

---

١. ج١، ص١١١ ـ ١١٢.

٢. سورة البقرة، الآية ٢٩.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٥٢، الفقرة ٥.




سبحانه وتعالى، كما أنّه ـ شأنه شأن الاوصاف الذاتية الاخرى ـ أزلي ابدي، وأمّا العلم الفعلي الحادث الّذي له مقابل يقابله، فهو عين المعلوم وصفته لا عين العالم أو صفته؛ إذ إنّ ذلك الموجود الحادث عندما كان معدوما لم يكن معلوم علمه تعالى الفعلي، بل صار كذلك بعد وجوده وحضوره، لا أنّ الله سبحانه وتعالى لم يكن عالما في مقام ذاته قبل وجود ذلك الحادث وصار عالما بعد ذلك؛ إذ كما تقدّم، العلم الفعلي صفة المعلوم لا صفة العالم.

ومن الطبيعي أنّنا إذا أخذنا بنظر الاعتبار علمه سبحانه وتعالى في مقام الذات بالموجود الحادث الّذي لم يوجد بعد، فإنّ من الممكن أن نقول بأنّه غير عالم به علما فعليا في مقام الفعل.

والحاصل من النكات المزبورة، هو أنّ العلم صفة من صفات الذات وهو صفة من صفات الفعل أيضاً. وما كان من العلم عين ذاته سبحانه وتعالى، هو العلم بجميع الاشياء، وهو ثابت له تعالى قبل خلق تلك الاشياء وبعده، وأمّا ما ورد من العلم في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث وما شابهها من الموارد، فهو العلم الفعلي الخارج عن الذات القدسية، وهو علم حادث منتزع من مقام فعله سبحانه وتعالى.

ز ـ إنّ العلم حقيقة لن يكون لها وجود بدون المعلوم، وعليه، فإنّ التحقق الفعلي لعلمه تعالى في الازل، والتحقق الاستقبالي للمعلوم في الحال أو الاستقبال مستلزم لانفكاك العلم عن المعلوم ـ يعني تحقّق حقيقة ذات الاضافة بدون طرف الاضافة الآخر ـ وهذا سيكون محالا، ما يؤدّي بالتبع إلى بطلان ما ذهب إليه بعض العرفاء[1].

---

١ . **رحمة من الرحمان**، ج١، ص٢١٣.

# البحث الروائي

## ١. الامّة الوسط

عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تبارك وتعالي: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، قال: «**نحن الشهداء على الناس بما عندهم من الحلال والحرام، وما ضيّعوا منه**»[1].

ـ عن بريد العجليّ قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله تبارك وتعالي: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾، قال: «**نحن الامّة الوسط، ونحن شهداء الله تبارك وتعالى على خلقه، وحججه في أرضه... فرسول الله صلى الله عليه وآله الشهيد علينا بما بلّغنا عن الله تبارك وتعالي، ونحن الشهداء علي النّاس، فمن صدّق يوم القيامة صدّقناه، ومن كذّب كذّبناه**»[2].

ـ عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ الله تعالى إيّانا عنى بقوله: ﴿لِتكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، فرسول الله شاهد علينا، ونحن شهداء الله على خلقه، وحجّته في أرضه، ونحن الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾**»[3].

ـ في قول الله تعالي: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾، قال أبو جعفر عليه السلام: «**منّا شهيد على كلّ زمان، عليّ بن أبي طالب في زمانه، والحسن في زمانه، والحسين في زمانه، وكلّ**

---

١ . **بحار الانوار**، ج٢٣، ص٣٤٣. وفي نقل العياشي بعد الآية الشريفة: قال: «بما عندنا من الحلال والحرام، وبما ضيّعوا منه» (ج١، ص٦٣).

٢ . **الكافي**، ج١، ص١٩١.

٣ . **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٤١٦.

**من يدعو منّا إلى أمر الله»**[1].

ـ عن أبي بصير، قال: سمعت أباجعفر عليه السلام يقول: «**نحن نمط الحجاز**»، فقلت: وما نمط الحجاز؟ قال: «**أوسط الانماط؛ إنّ الله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾**». قال: ثمّ قال: «**إلينا يرجع الغالي، وبنا يلحق المقصّر**»[2].

إشارة: على الرغم من أنّ المراد من «الامّة وسط» في الآية الشريفة: **﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾** بناء على هذه الروايات هو خصوص الائمة المعصومين عليهم السلام، حتّى أنّها لا تشمل خواص صحابتهم وتلاميذهم عليهم السلام، إلا أنّه بواسطة عموم التنزيل، نظير ما ورد من قولهم: «سلمان منّا أهل البيت»[3]، والذي يرجع أصله إلى ما جاء في قوله تعالى: **﴿... فَمَنْ تَبِعَنِي فإنّه مِنِّي﴾**[4]، فإنّ أولئك سيكونون مشمولين بالروايات السابقة المفسّرة للآية الشريفة، وبهذا الطريق يرتفع التعارض بين هذه الطائفة من الروايات والروايات المفسّرة الاخرى.

## ٢. وساطة الشيعة وشهادتهم

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**... وأيم الله، لقد قضي الامر ألّا يكون بين المؤمنين اختلاف، ولذلك جعلهم شهداء على الناس ليشهد محمّد صلى الله عليه وآله علينا، ولنشهد علي شيعتنا، ولتشهد شيعتنا على الناس؛ أبى الله عزّ وجلّ أن يكون في حكمه اختلاف، أو بين أهل علمه تناقض...**»[5].

---

١ . بحارالانوار، ج٢٣، ص٣٣٧.
٢ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٣.
٣ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٧٢٦.
٤ . سورة إبراهيم، الآية ٣٦.
٥ . الكافي، ج١، ص٢٥١.

إشارة: يعتبر هذا الحديث واحدا من غرر الاحاديث التي تعطي المنزلة للشيعة وتكرّمهم، ومن الطبيعي أنّ نقطة البداية في طريق تعاليهم هو نبذ جميع الاختلافات والغلّ: ﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[1].

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في رواية نقل مضمونها الامام الصادق عليه السلام عن جدّه الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله أيضاً[2]: «لاتباغضوا، فإنّها الحالقة»[3]، فيشبّه عليه السلام أثر الاختلاف والتباغض بالحلاقة بالموسى التي لا تذر بعدها شيئا.

والخطر السابق إنّما ينشأ من أنّ كلّ طرف من الطرفين المتخاصمين يجتهد في الحفاظ على منزلته والحطّ من منزلة غيره ومن شخصيته، الامر الّذي يقتلع الايمان من الجذور، وعليه، فمن يريد أن يكون من زمرة الشيعة، ويكون شاهدا على أعمال المجتمع، وواسطة بين المعصومين عليهم السلام والناس، يلزمه أن ينبذ الاختلاف بعد العلم، وينبذ البغضاء، فيكون من قبيل أهل الجنّة، منزّهاً عن البغضاء، مبرّأ عن أيّ حقد: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[4].

### ٣ ـ إمكان نيل غير الامام المعصوم مقام الشهادة على الناس

**قال أبو عبد الله عليه السلام: «قال الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾، فإن ظننت أنّ الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين، أفترى أنّ من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة، ويقبلها منه بحضرة جميع الامم**

---

١ . سورة الحشر، الآية ١٠.

٢ . وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢٤٠.

٣ . نهج البلاغة، الخطبة ٨٦، الفقرة ١٢.

٤ . سورة الحجر، الآية ٤٧.




**الماضية؟ كلّا، لم يعنِ الله مثل هذا من خلقه، يعني: الامّة التي وجبت لها دعوة إبراهيم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، وهم الامّة الوُسطى، وهم خير أُمّة أخرجت للناس»[2].**

**إشارة:** لم يحصر الامام صادق عليه السلام في هذه الرواية مصداق الشهيد في المعصوم، فلم يقل: «نحن الامّة الوسط» كما كان عليه الحال في بعض الروايات المتقدمة التي يفهم منها الحصر، بل المذكور في الرواية أنّ من لم يكن من الامّة الوسط فإنّما هو لأجل عدم عدالته، فالرواية لا تنفي دخول خواص الائمة وأصحابهم عليهم السلام، بل على العكس من ذلك؛ إذ استنادا إلى ما جاء فيها من قوله تعالى: **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾**، فإنّها تمهّد الارضية لشمول هؤلاء.

وقد جاءت رواية صحيحة عن الامام الصادق عليه السلام تؤيّد بوضوح امكان نيل تلامذة المعصومين عليهم السلام مقامات معنوية خاصّة، من قبيل: «بشّر المخبتين بالجنّة: بريد بن معاوية العجلي، وأبو بصير ليث بن البختري المرادي، ومحمّد بن مسلم، زرارة، أربعة نجباء، أمناء الله على حلاله وحرامه، لولا هؤلاء انقطعت آثار النبوّة واندرست»[3].

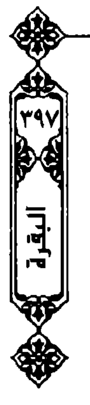
والاخبات: كمال الخضوع له سبحانه وتعالى في جميع الحوادث، والعظام المذكورون في الحديث الشريف السابق كمصداق من مصاديق المخبتين، وقفوا مع الدين ونصروه وقت الحاجة والخطر، ذلك اليوم الّذي كانت الحوزة العلمية فيه محلّ تهديد وخطر عظيمين من قبل طغاة الامويين والعباسيين، فوقف هؤلاء ـ وهم أمناء الله في حلاله وحرامه ـ بوجه ذلك بجدّهم وجهدهم، فحفظوا الاثار النبوية والعلوية علماً وعملاً.

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١١٠.

٢ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٣.

٣ . وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٤٢.




بناء على ما سبق، فإنّ طريق نيل مقام الاخبات العالي وما كان من قبيله من المقامات السامية، هو أن يكون السالك العالم بأحكامه تعالى أمين الله عزّ اسمه، فلو صار شخص ما عالما بقوانينه تعالى لأجله، فيعمل بما علمه في مجال العقيدة والاخلاق والعمل، فإنّ طريق الشهادة على أعمال الناس سيكون أمامه سالكا.

**٤ ـ السرّ في عدم إرادة عموم الناس من «الامّة الوسط»**

عن أبي جعفر عليه السلام: «إنّما أنزل الله **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾**، يعني: **عدلاً لـ﴿تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾**». قال: **«ولا يكون شهداء على الناس إلا الائمة والرسل؛ فأمّا الامّة، فإنّه غير جائز أن يستشهدها الله تعالى على النّاس وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة بقل»**[1].

إشارة: مضمون هذه الرواية هو الحصر، فلو دلّ دليل آخر على شهادة غير الامام المعصوم عليه السلام، كان هذا الحصر إضافيا قابلا للتقييد، وإلا، بقيت الحالة على ما كانت عليه من الحصر الحقيقي.

واستدلال هذه الرواية على عدم إرادة جميع الناس من عنوان «الامّة الوسط»، قائم على أساس تلك النكتة التي أشير إليها في الرواية السابقة، وهي أنّه كيف يمكن لله سبحانه وتعالى أن يقبل أن يكون من لا تقبل شهادته في الدنيا على أبخس الاشياء كحزمة البقل، شهيدا على أعمال الناس يوم القيامة؟!

إنّ المستفاد من مجموع الروايات التي وردت في ذيل الآية الشريفة **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾**، هو أنّ المراد من تلك الامّة، هم الاشخاص البارزون في تلك

---

١ . بحارالانوار، ج٢٣، ص٣٥١.

الامّة، فلا يكون إرادة الائمة المعصومين عليهم السلام من ذلك العنوان مجازا، كما هو الحال في ما جاء في قوله تعالى خطابا لبني إسرائيل: ﴿جَعَلَكم ملوكاً﴾[1]، إذ ليس المراد هو جعلهم جميعا ملوكا كما هو واضح، بل المراد جعل بعضهم كذلك.

والآية الكريمة الّتي هي محلّ البحث من هذا القبيل، فمعناها: أنّ أفرادا من الامّة الاسلامية واسطة بين الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وبين الناس، وشهداء على أعمالهم، نظير ما ورد في رواية أخرى مذكورة في البحار: «ممّا أعطى الله أمّتي وفضّلهم به علي سائر الامم، أعطاهم ثلاث خصال لم يعطها إلا نبيّ، وذلك أنّ الله تبارك وتعالى كان... إذا بعث نبيّاً جعله شهيداً على قومه، وإنّ الله تبارك وتعالى جعل أمّتي شهداء على الخلق حيث يقول: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[2]»[3].

**تنويه:** يجب حمل ما كان من الاحاديث ظاهرا في المقام في عموم الامّة على إرادة الامّة في الجملة لا بالجملة؛ إذ مع صرف النظر عن كون الروايات السابقة خاصّة ويجب حمل العام على الخاص بعد توفر صلاحية التخصيص لذلك الخاص، فإنّها معلّلة معقولة مقبولة، ما يجعل من ظهورها أقوى من ظهور الاحاديث الظاهرة في إرادة جميع الامّة.

### ٥ ـ شهادة الامّة الاسلامية للانبياء

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يجيء النبيّ يوم القيامة ومعه الرجل، والنبيّ ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعي قومه، فيقال لهم: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون:**

---

١ . سورة المائدة، الآية ٢٠.

٢ . سورة الحجّ، الآية ٧٨.

٣ . بحارالانوار، ج٢٣، ص٣٤٠.




**لا. فيقال له: هل بلّغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمّد وأمّته، فيقال لهم: هل بلّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبيّنا فأخبرنا أنّ الرسل قد بلّغوا، فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾. قال: «عدلاً ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾»**[1].

**إشارتان: أ ـ** ظاهر هذا النحو من الاحاديث هو بيان بعض موارد الشهادة ومصاديقها لا تفسيرها المفهومي، ومن هنا، لا منافاة بينها وبين الشهادة بمعنى تحمّل الحوادث والوقائع، وبمعنى أدائها في محكمة العدل الالهي في المعاد من قبل أفراد آخرين.

ب ـ شهادة الرسول الاكرم ﷺ إنّما تكون استنادا إلى ما يتمتّع به من شهود ملكوتي ورؤية قلبية، كما أنّ شهادة الائمة المعصومين عليهم السلام من هذا القبيل أيضاً، وأمّا شهادة متبعي القرآن والعترة العدول، فإنها من سنخ «شهدوا بما علموا»، بناء على أنّ علم الشاهد أعمّ من أن يكون حاصلا عن الحسّ أو معلوما عن طريق قول المعصوم عليه السلام.

ج ـ يمكن استظهار حضور الانبياء الالهيين في محكمة العدل الالهي من قوله تعالى في الآية الشريفة: **﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾**[2]، إلّا أنّ ذلك لن يكون بمعنى إحضارهم أبداً؛ إذ لن يخلو ذلك من شوب خزي وهتك وجفاء، الامر الذي لا يتلاءم أبدا مع قداسة النبوّة والرسالة والولاية.

---

١ . **الدر المنثور**، ج١، ص٣٤٩. وقد نقل السيوطي في ذيل الآية الّتي هي مورد البحث روايات متعدّدة بهذا المعنى.

٢ . **سورة الاعراف**، الآية ٦.

٦ ـ تفسير «الوسط» بـ «العدل»

عن النبي ﷺ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾، قال: «عدلاً»[١].

**إشارتان:** أ ـ ذكر «العدل» في الرواية المزبورة إنّما هو بعنوان ذكر بعض الاوصاف الكمالية للامّة الوسط لا جميعها بحيث يتنافى مع ما جاء في الاحاديث السابقة من كون الامّة الشاهدة متوسّطة بين الرسول الاكرم ﷺ وعموم الناس، نعم، الصفة الْبُرزى لهؤلاء هي العدل الّذي له تمام الدخالة في قبول الشهادة.

ب ـ ليس المقصود من العدل هو الوسط بين الافراط والتفريط؛ إذ سيكون العدل بناء على هذا المعنى هو المقياس للطرفين، بحيث يكون تعديل كلّ طرف منهما بعرضه على النقطة المركزية للعدل، والحال أنّ طرفي الوسط قد ذكرا في الآية الّتي هي محلّ البحث كما أشرنا إلى ذلك سابقا، فإنّ أحدهما هو الرسول الاكرم ﷺ، وهو الحاكم نفسه على الوسط، وإن الطرف الثاني هو الناس، وعليه، فالمراد من العدل هو ذلك الوصف الكمالي المعتبر في الشاهد، والمقصود من وسطية الامّة أمران:

الأمر الاوّل: المحدودية من الفوق بشهادة الرسول الاكرم ﷺ وكون الامّة مشهودا عليها، وكونها شاهدةً بالنسبة إلى الناس.

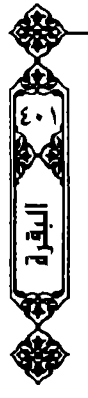
الأمر الثاني: كون الامّة شاهدةً بين الرسول الاكرم ﷺ والناس.

٧ ـ تأثير شهادة المسلمين بصلاح أو طلاح المتوفى

عن جابر، قال: «**شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني سلمة، وكنت إلى جانبه، فقال بعضهم: والله يا رسول الله لنعم المرء كان، لقد كان عفيفاً مسلماً،**

---

١ . الدر المنثور، ج١، ص٣٤٨.




وكان... وأثنوا عليه خيراً، فقال رسول الله ﷺ: أنت الّذي تقول؟ فقال: يا رسول الله ذلك بدا لنا والله أعلم بالسرائر، فقال رسول الله ﷺ: وجبتْ. قال: وكنّا معه في جنازة رجل من بني حارثة أو من بني عبد الاشهل، فقال رجل: بئس المرء ما علمنا، إن كان لفَظّاً غليظاً، أن كان... فقال رسول الله ﷺ: أنت الّذي تقول؟ فقال: يا رسول الله، الله أعلم بالسرائر، فأمّا الّذي بدا لنا منه فذاك، فقال: وجبتْ، ثمّ تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾»[1].

ـ عن أنس، قال: «... فقال النبي ﷺ: من أثنيتم عليه خيراً، وجبت له الجنّة، ومن أثنيتم عليه شرّاً، وجبت له النّار. أنتم شهداء الله في الارض، أنتم شهداء الله في الارض، أنتم شهداء الله في الارض»[2].

ـ عن أنس، أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يموت فتشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الادنين: أنّهم لايعلمون منه إلّا خيراً، إلّا قال الله: قد قبلت شهادتكم فيه، وغفرت له ما لا تعلمون»[3].

إشارات: ١ ـ شهادة العدل بتقوى الصالحين أو طغوى الطالحين كاشفةٌ عن حكمه تعالى لا مثبتةٌ له.

٢ ـ في مسألة العدة لا شك في إنجاز الحكم بالثواب، فكلمة «وَجَبَتْ» ظاهرة في الثبوت القطعي.

٣ ـ وأمّا في مسألة الوعيد، فيبقى احتمال العفو الالهي قائما، فكلمة «وجَبَت» في مثل هذه الموارد تفيد أصل استحقاق العذاب لا الانجاز والاعمال الحتميّ لما توعّد به؛ فإنّ خُلف الوعيد ليس منافيا للحكمة.

---

١ . الدر المنثور، ج١، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠. وقد ذكر في هذا التفسير روايات اخرى لها المضمون نفسه.

٢ . المصدر السابق، ص٣٥٠.

٣ . المصدر السابق، ص٣٥١.

٤ ـ بعض القضايا النقلية يكون من سنخ الموارد الشخصية الفاقدة للعموم أو الاطلاق؛ فإنّ تعبير: «وجَبَت»، (أي: الجنة) ـ كما احتمله بعض المفسرين ـ إنّما هو من جهة كون عليّ عليه السلام، والحسن والحسين، والائمة المعصومين عليهم السلام من جملة الشهود[1].

٥ ـ في الموارد التي اكتفي فيها بشهادة عدد من الجيران، فإنّما هو من باب الكشف النوعي عن صلاح المتوفى، أو من باب سبق الرحمة الالهية التي توفّر الارضية لمغفرته سبحانه وتعالى.

## ٨. معنى «خير الامور أوسطها»

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**خير الامور أوسطها**»[2].

**إشارة:** «خير الامور أوسطها» التي تذكر أحيانا بعنوان الحديث النبوي الشريف هي أمر نسبي لا نفسي، فليس الامر أنّ الوسط هو خير الامور مطلقا، بل ذلك خاصّ بما كان من الامور له طرفان من قبيل الافراط والتفريط، والمبتلاة بالنقص والعيب والضرر، وأمّا في الامور العلمية والكمالات النفسانية التي ليست من سنخ الاعمال العادية، فخير تلك الامور هو أعلاها، وأشدها، وأكثرها، وأوفرها، و... .

فمثلاً: في مورد بذل الجهد والطاقة، لمّا كان الطرفان فيه الافراط والتفريط، فإنّ السعي الوسط والمعتدل هو السعي الافضل، إلّا أنّ العلم نفسه ـ وهو ذو المراتب المختلفة ـ فإنّ خير تلك المراتب ليس أوسطها، بل أعلاها، والامر نفسه يجري في الفضائل، من قبيل العدل، والتقوى، والكرم وغيرها من الفضائل، فخير تلك الصفات: الاكرم، والاتقى، والاعدل، و...، والامر في الآية الّتي هي

---

١. روض الجنان، ج٢، ص١٩٨.

٢. **بحارالانوار**، ج٤٨، ص١٥٤ و ١٧٦، ج٦٩، ص٦٠، ٢٩٢ و... .




محلّ البحث كذلك أيضاً، فإنّ الافضل من الوسط ما كان مشرفا على ذلك الوسط، المنزلة السامية التي يتمتّع بها الرسول الاكرم ﷺ، وكلمة «على» لإفادة الاشراف والسيطرة.

### ٩ ـ التعبير عن «الصلاة» بـ «الايمان»

قال أبو عمرو الزبيري عن ابي عبد الله عليه السلام قال: «**قلت له: ألا تخبرني عن الايمان، أقولٌ هو وعمل أم قولٌ بلا عمل؟ فقال: الايمان عمل كلّه، والقول بعض ذلك العمل، مفرض من الله، مبيّن في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجّته، يشهد له بها الكتاب ويدعو إليه. ولمّا أن صرف نبيّه إلى الكعبة عن بيت المقدس، قال المسلمون للنّبي: أرأيت صلاتنا الّتي كنّا نصلّي إلى بيت المقدّس ما حالنا فيها؟ وما حال من مضى من أمواتنا وهم يصلّون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، فسمّي الصلاة إيماناً. فمن اتّقي الله، حافظاً لجوارحه، موفياً كلّ جارحة من جوارحه بما فرض الله عليه، لقي الله مستكملاً لإيمانه من أهل الجنّة، ومن خان في شيء منها أو تعدّى ما أمر الله فيها، لقي الله ناقص الايمان**»[١].

إشارة: الصلاة عمود الدين، وخيمة الدين لا تقوم إلّا بذلك العمود، ما يصحّح إطلاق عنوان الايمان على الصلاة، كما أنّ رعاية فرائض الصلاة وآدابها وسننها تستلزم رعاية الكثير من احكام الاسلام. إضافة على ارتباط القبلة بالكثير من احكام الاسلام الاخرى، من قبيل الذبح والنحر، ونظير حرمة استقبال القبلة واستدبارها في بعض الاحوال المنافية للادب، واستحباب استقبالها أو استدبارها أو كراهة ذلك في بعض الاحوال الاخرى.

* * *

---

١ . **تفسير العياشي**، ج١، ص٦٣ ـ ٦٤.

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

## التفسير المختار

نجح جعل بيت المقدس قبلة في الوقوف أمام انتشار العصبية الجاهلية للمشركين، إلّا أنّ الهجرة إلى المدينة جعلت النبيّ يواجه بعصبية اليهود، فقد كانوا يدّعون أنّ بيت المقدس قبلتهم، وأنّ المسلمين تبع لهم في ذلك غير مستقلّين، العصبية التي كانت تخلّف وراءها الكثير من الاحساس بالذلّة عند المسلمين، كما أنّها كانت منشأ لتوهّم البعض بتبعيّة المسلمين لليهود في هذا المجال و عدم استقلالهم في ذلك.

المسألة السابقة، جعلت النبيّ الاكرم ﷺ يدعو بلسان الحال في هذه القضية الحسّاسة، وكان لا يفتأ يقلّب وجهه في السماء ينتظر الوحي ليأتيه بالحل، التقليب الّذي كان عن اذنه سبحانه وتعالى، وكان يؤدّى بالوجه الظاهري مرّة، وبالتوجّه القلبيّ من قبله ﷺ أخرى، وبالدعاء الحالي والباطني ثالثة.

كانت رغبة الرسول الاكرم ﷺ بتغيير القبلة وطلبه بإذنه سبحانه وتعالى، إذ لم يكن له ﷺ أيّ رضا شخصي أو قومي أو قبلي في قبال رضاه تعالى، فهو



يرضى بالقبلة التي يرضاها له الله سبحانه وتعالى، ولم يكن سبحانه وتعالى ليرضى إلّا بقبلة إضافة على كونها تحفظ حرمة الانبياء، فإنها تمنع عن الطعن الّذي كان يتوجّه إلى المسلمين من قبل السفهاء، وقد كانت الكعبة توفّر جميع ذلك؛ إذ إضافة على كونها البيت العتيق للانبياء عليهم السلام والمطاف لهم، فقد كانت القبلة المصونة من كلّ طعن وتصغير من قبل غير المسلمين.

إنتهت مرحلة امتحان القبلة، وطلعت شمسها الخالدة، القبلة المرضيّة من قبل الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، رضاه الّذي هو آية الرضوان الالهي.

وفي مسألة تغيير القبلة، لم يقتصر الحال على نزول الامر باستقبال الكعبة، بل تجاوز ذلك إلى أن اسند سبحانه وتعالى مسألة التغيير تلك إليه بنفسه، فوجّه الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله باتّجاه الكعبة.

إنّ توجّهه صلى الله عليه وآله باتّجاه الكعبة في الصلاة، وتركهه للتوجّه إلى بيت المقدس، يعتبر معجزة من المعجزات التي ظهرت على يديه صلى الله عليه وآله.

والمراد من «الوجه» في الامر الالهي السابق جميع مقاديم البدن لا الوجه فقط.

التوجّه إلى الكعبة شرط صحّة أصل الصلاة، ومن هنا، لا اختصاص له بالرسول الاكرم صلى الله عليه وآله بل هو عامّ شامل لجميع المصلين في جميع الاعصار.

القبلة هي الكعبة لا المسجد الحرام أو مكّة أو الحرم. فالقبلة هي صرف ذلك البُعد الخاص الّذي تقع الكعبة فيه، ما يعني أنّ الانسان كلّما ابتعد عن الكعبة، إتسع شعاع استقباله لها، أي: إنّ الاستقبال يتّسع لا القبلة، والمراد من الاستقبال حال الصلاة هو الاستقبال الحقيقي العرفي لا الاستقبال الحقيقي الهندسي والرياضي.

وعلى الرغم من أنّ أهل الكتاب كانوا على اطلاع بحقّانية قبلة المسلمين والتغيير الّذي سيطرأ عليها، إلّا أنّهم كانوا يطعنون على المسلمين في ذلك، ولكنّه سبحانه وتعالى بالمرصاد للمجرمين غير غافل عما يصدر عنهم من أعمال، وسيعاقبهم بما يستحقونه من العقاب.

**تفسير المفردات**

قد: تفيد كلمة (قد) التحقيق، كما يستظهر من متعلّقها الكثرة لا من الكلمة نفسها[١]. وسيأتي في البحث التفسيري حكاية كلمة «تقلّب» عن التحوّل المتكرر.

وقد لاقى ما ذكره الزمخشري من افادة (قد) للكثرة النقد من قبل أبي حيّان[٢]، المسألة التي تعرّض لها الزمخشري بنفسه بتعبير «ربّما» المفيدة للقلة[٣].

شطر: طبقا لما جاء في بعض التفاسير، فإنّ (الشطر) بمعنى: النحو (الناحية)، والقصد وتِلقاء[٤]، على الرغم من أنّ له معاني أخرى من قبيل النّصف، والبعض، والجزء أيضاً. وقد فسّر الطريحي الشطر بالجهة (السمت) والنحو (الناحية)، ثم ذكر أنّه قد يأتي بمعنى النصف والجزء أحيانا[٥].

ولو كان المراد بالشطر هو البعض، فلربما يكون السرّ في التعبير عن الكعبة بالشطر لا بتعبير: (الكعبة)، هو الموازنة بين الكعبة وبيت المقدس؛ فمن جهة:

---

١و٢ . تفسير: **البحر المحيط**، ج١، ص٦٠٢.

٣ . **الكشاف**، ج١، ص٢٠١.

٤ . **جامع البيان**، ج٢، ص٢٣ ـ ٢٤. **التبيان**، ج٢، ص١٤. **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٤٢٠. راجع أيضاً: **المفردات**، ص٤٥٣، «ش ط ر».

٥ . **مجمع البحرين**، ج١ ـ ٢، ص٥١٠. راجع أيضاً: **معجم مقاييس اللغة**، ج٣، ص١٨٨. **النهاية**، ج٢، ص٤٧٣، «ش ط ر».

الصَخْرة[1] شطر المسجد الاقصى وبعضه، ومن جهة اخرى: الكعبة جزء المسجد الحرام وبعضه.

**تنويه:** من المحتمل أن يكون الشطر بمعنى الناحية، والمراد من المسجد الحرام هو الكعبة لأنّها مسجودٌ إليها، وكما هو الحال في اشتهار مكان السجود باسم (المسجد)، فإنّه يمكن أن يشتهر سَمْت السجود بهذا الاسم أيضاً. من المحتمل ـ طبعا ـ أن يكون المراد هو المسجد الحرامِ المعهود؛ من جهة أنّ السعة في الاستقبال لا في القبلة كما سيتضح مما سيأتي إن شاء الله تعالى.

**المسجد:** إسم مكان من مادّة «السجود»، ولمّا كانت السجدة كمال الخضوع ونهاية التذلّل في حضرته سبحانه وتعالى[2]، سمّيت اماكن العبادة بالمسجد، كما جاء في قوله تعالى في سورة الجنّ: **﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله فَلا تَدْعُوا مَعَ الله أَحَداً﴾**[3].

**الحرام:** صفة مشبهة بمعنى الشيء الّذي له حرَمة واحترام، إمّا من ناحية الشرع، أو من ناحية العقل، أو من ناحية العرف[4]، وأصل «الحرم» بمعنى المنع والغلق في مقابل «الحلّ» بمعنى الفتح. و«الحرمة» بمعنى ما لا يحلّ هتكه من الاشياء[5].

وللكعبة وأطرافها حرمة واحترام خاصان، ويحرم القيام ببعض الاعمال فيها كما يتعرّض لذلك في علم الفقه الشريف، ما يوجّه وصفها بالحرام، بحيث أدّت كثرة الاستعمال والغلبة إلى صيرورة «المسجد الحرام» عَلَمًا لها.

---

١ . الصخرة: حجر في بيت المقدس كالحجر الاسود في مكّة، وهو مزار، وإذا قيل: الحجران، فإنّ المراد منه الصخرة والحجر الاسود. راجع: **قاموس دهخدا** بالفارسية، ج١٠، ص١٤٨٧٨، كلمة: «صخره».

٢ . **معجم مقاييس اللغة**، ج٣، ص١٣٣، «س ج د».

٣ . **سورة الجنّ**، الآية ١٨.

٤ . **التحقيق**، ج٢، ص٢١٩. النهاية، ج١، ص٣٧٣، «ح ر م».

٥ . **النهاية**، ج١، ص٣٧٣. المصباح، ص١٣١، «ح ر م».




## تناسب الآيات

يبدأ الفصل الاخير من آيات سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ...﴾[١]، وكان هذا الفصل يستهدف هدفا محوريا هو تشريع استقبال الكعبة ونسخ استقبال بيت المقدس الّذي تتكلم عنه الآية الّتي هي محلّ البحث.

ولقد هيّأ الله سبحانه وتعالى الارضيّة المناسبة لهذه العملية من خلال الآيات السابقة، فابتداء: بقوله تعالى: ﴿وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾[٢]، ثمّ بقوله تعالى في الآية الشريفة: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ...﴾[٣]، ومن بعدها بقوله تعالى في الآية الشريفة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ...﴾[٤]، وأخيرا بقوله عزّ من قائل: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ...﴾، وذلك بأساليب وطرق متعدّدة متنوّعة، بحيث تجعل السامع بانتظار الحكم بالنسخ[٥]، وخاصّة مع ما لاحظناه في الآيتين الشريفتين المتقدّمتين من اشعار بصدور أمر يرجع إلى القبلة، أسلوب جعل أهل البلاغة يتوقّعون خبرا في هذا المجال منه سبحانه وتعالى[٦].

ومن جهة اخرى، كان هناك الكلام عن رحمته سبحانه وتعالى ورأفته بجميع البشر في الآية السابقة، وأمّا الآية الّتي هي محلّ البحث، فهي تتكلّم عن رأفته سبحانه وتعالى الخاصّة به ﷺ.

إستنادا إلى البيان السابق، فإنّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، إضافة على اشتماله على الفوائد والثمرات المذكورة في الآيات السابقة، فإنّه رأفة

---

١ . الآية ١٤٢.

٢ . سورة البقرة، الآية ١١٥.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٢٠.

٤ . سورة البقرة، الآية ١٢٥.

٥ . تفسير: التحرير والتنوير، ج٢، ص٢٦ ـ ٢٧.

٦ . نظم الدرر، ج١، ص٢٦٥.

ورحمة منه سبحانه وتعالى بالنسبة إلى الرسول الاكرم ﷺ[١].

بناء على ما ذهب إليه بعض المفسّرين، فإنّ في ذيل الآية الّتي هي محلّ البحث ـ يعني: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ...﴾ ـ والآيات الاربع التالية لها، جمل معترضة واقعة بين الجملة السابقة والآية الشريفة: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ...﴾[٢]،[٣] وتعود إلى مناقشة أهل الكتاب واعتراضهم[٤]، وبعد التذكير بحكم استقبال الكعبة وتقريره صدر الآية الشريفة، تأخذ في بيان علم هؤلاء بحقّانية هذا التحويل والتغيير، بل كانوا يعتبرونه من علامات صدق نبوّة نبيّ الاسلام ﷺ[٥]. فهذا القسم من الآية الشريفة يرجع إلى بيان حال السفهاء، أولئك الذين يعترضون على تحويل القبلة، محاولين إثارة الفتن بوجه النبيّ ﷺ، وبوجه المسلمين عن هذا الطريق[٦].

* * *

## سرّ اهتمام الرسول الاكرم ﷺ بتغيير القبلة

كما بيّنا في السابق، فإنّ جعل بيت المقدس قبلة بالاضافة إلى تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، كانا امتحانين للوقوف بوجه نوعين مختلفين من عصبيّة المشركين وأهل الكتاب. أوّلهما: عصبيّة العرب الجاهلية بالنسبة إلى الكعبة، وأمّا الثاني، فهو عصبية اليهود بالنسبة إلى بيت المقدس. فجعل بيت المقدس قبلة كان

---

١ . نظم الدرر، ج١، ص٢٦٥.
٢ . سورة البقرة، الآية ١٤٩.
٣ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٣٤.
٤ . التفسير المنير، ج٢، ص٢٢.
٥ . نظم الدرر، ج١، ص٢٦٧.
٦ . تفسير المنار، ج٢، ص١٦.

تصدّيا للنوع الاوّل من العصبية، النوع الّذي كان ينتشر في مكّة قبل الهجرة أكثر من غيرها.

وأمّا في المدينة المنوّرة وأطرافها، فقد كانت تعيش مجموعات من اليهود أيضاً، ما أدّى إلى أن يكون ما يواجهه المسلمون أوّل الهجرة هو النوع الثاني من نوعي العصبية السابقي الذكر، فقد كان اليهود يدّعون أنّ بيت المقدس هو قبلتهم، وأنّ المسلمين تابعون لهم في ذلك غير مستقلّين عنهم.

وقد كان الرسول الاكرم ﷺ ـ القلق بشأن هذا التهديد الجديد الّذي كان يثير مشاكل عديدة لربّما كان أهمّها الاحساس بالذلة والحقارة التي كان يولّدها في نفوس المسلمين، إضافة على ما كان يثيره من توهّم التبعية لليهود عند بعض المسلمين ـ كان ينتظر الوحي بفارغ الصبر: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾.

وقد نشأت حالة الانتظار السابقة عند الرسول الاكرم ﷺ، إمّا من الاخبار الغيبيّ ووعده سبحانه وتعالى له ﷺ في ما يرجع إلى تغيير القبلة من بيت المقدس إلى سمت الكعبة، وإمّا أن يكون دعاءاً ومناجاة حالية لا مقالية؛ فإنّه ﷺ كان يرى أنّ عظمة الاسلام هي باستقلال قبلة المسلمين عن غيرهم، وأمّا الميل القلبي نحو جعل الكعبة قبلة على فرض وجوده، فهو إنّما كان ناشئا من كونها البيت العتيق من جهة، ومن كونها مطاف الانبياء عليهم السلام وقبلتهم من جهة اخرى.

الاستفادة من كلمة التحقيق والفعل المضارع (قد نرى) في بيان هذا المطلب، وعدم الاستفادة من جملة «رأينا» مثلا، يظهر منها أنّ الحالة المذكورة للرسول الاكرم ﷺ كأنّما قد كانت منه عدة مرات، بحيث كان ينتظر الوحي في كلّ حين، كما أنّه كان يكرّر الرمي بنظره إلى أطراف السماء، ولم يكن ذلك لمرّة واحدة فقط، ما يوجّه عدم قوله سبحانه وتعالى: «قد نرى توجّهك في السماء»،




بل قال عزّ من قائل: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾. وكلمة التقليب والتقلّب تحكي عن التحوّل المتكرر أو المستمرّ أو الشديد، من قبيل ما ورد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾[٢]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾[٣].

وتعلّق الفعل المضارع «نرى» بعنوان التقلّب مطاوع التقليب، دليل على اهتمام الرسول الاكرم ﷺ بتغيير القبلة. ذلك الاهتمام الّذي كان يظهر على شكل كثرة تقليب وجهه ﷺ في السماء أحيانا، وعلى شكل الشدّة في ذلك أحيانا اخرى، وباب التفعيل ـ يعني: عنوان التقليبِ المستفاد من كلمة (تقلب) ضمنا ـ يتناسب مع كلّ وجه من الوجهين.

وهذا التقليب كما يمكن أن يكون بالوجه الظاهري، فإنّه يمكن أن يكون بواسطة التوجّه القلبي، يعني: الدعاء الحالي الباطني أيضاً، كما أنّ تقليب الرسول الاكرم ﷺ كان مسبوقا حتما بإذنه سبحانه وتعالى؛ فإنّ الانسان الكامل المعصوم عليه السلام ليس له أيّ فكر ولا باعث بدون الاذن السابق منه سبحانه وتعالى.

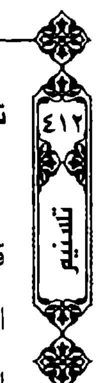
ولا يظهر من جملة: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أنّ انتظار الوحي كان بخصوص أيّ شيء، ولكن، بالاضافة إلى إفادة الجملة اللاحقة للجواب المثبت بالنسبة إلى هذا الانتظار، فإنّها تعلن متعلّق الانتظار أيضاً، وأنّه نزول الوحي بتغيير القبلة: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

---

١ . سورة الشعراء، الآية ٢١٩.

٢ . سورة غافر، الآية ٤.

٣ . سورة الكهف، الآية ١٨.


## تألم الرسول الاكرم ﷺ من طعن اليهود وتعييرهم

تحويل القبلة امتحان عظيم، إلّا أنّه للمهتدين ليس كذلك أبدا كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾[1]. والرسول الاكرم ﷺ المصداق الاكمل للمهتدين وفي متن الصراط المستقيم، كما أنّ على الاخرين أن يمشوا في ركابه ويتّبعوا خطواته: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2]، ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3].

وقد كان ﷺ مطيعا للوحي، محترما له أشدّ احترام، ممتثلا لما يأتي به أحسن امتثال، ولهذا، لم تكن مسألة القبلة بالنسبة إلى شخصه ﷺ أمرا صعبا شديدا بكلّ ما اشتملت عليه من ناسخ ومنسوخ، وعبارة: ﴿فلنولّينّك قبلة ترضٰها﴾ لا تعني أنّه ﷺ كان يكنّ الكره في نفسه إلى القبلة السابقة فلا يرضى إلّا بالقبلة الجديدة؛ فإنّه ﷺ ـ وهو صاحب القلب المتيَّم بحبّ الله سبحانه وتعالى ـ لا هو قلق بسبب بيت المقدس، ولا هو متعلّق بالكعبة وما فيها.

فعنوان «الرضا» في قوله تعالى: ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ ليس في مقابل السَخَط لكي يخالط استقبال الرسول الاكرم ﷺ بيت المقدس السَخَط والكراهة المرّة؛ فإنّ التوجّه صوب قدس حكمه سبحانه وتعالى وأمره لا يختصّ باليهود ولا يمتثل بالكراهة، وإنّما يطاع بكمال الخشوع ونهاية الرغبة.

الرضا في مقابل الهوى والميول النفسية، ومن هنا جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٤٣.
٢ . سورة يس، الآيات ٣ ـ ٤.
٣ . سورة الزخرف، الآية ٤٣.

وَلا نَصِيرٍ﴾[1] في مقابل الهوى، كما وقع هذا الاخير في مقابل العلم والهداية.

الالذّ من العسل بالنسبة إلى الرسول الاكرم ﷺ هو أمره سبحانه وتعالى، وفي مقابل ذلك بالنسبة إليه ﷺ، هو ما كان يصل إلى مسامعه من طعن اليهود للمسلمين وتعييرهم في ما كانوا يدّعونه من تبعية هؤلاء لهم في مجال القبلة، فهم غير مستقلّين في الصلاة، الصلاة التي هي عمود الدين.

والشاهد على أنّ انتظاره ﷺ لِنزول الوحي في مجال تغيير القبلة، إنّما كان بهدف دفع تحقير المحقّرين ورفع طعن الطاعنين وتعيير المعيّرين، هو أنّنا لا نرى أيّ نوع من هذا الانتظار قبل بروز ذلك الطعن والتحقير، فقد كان ﷺ يستقبل في مكّة وردحا من الزمن في المدينة بيت المقدس بدون أيّ نوع من الانتظار. ولو كان سبحانه وتعالى أبقى بيت المقدس قبلة، لتحمّل الرسول الاكرم ﷺ ذلك الطعن والتحقير لوجهه سبحانه وتعالى، شأنه شأن المطاعن الاخرى التي كانت تصدر بين الحين والاخر من الجهلة، كوصفه بالساحر والمجنون والكاهن وغيرها من المطاعن.

وظاهر الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، هو أنّ الرسول الاكرم ﷺ كان يريد تغيير القبلة إلى جهة يكون في التوجّه إليها عظمة الاسلام والمسلمين وأبّهتهما من جهة، والنَزاهة من الطعن والتحقير السابقين من جهة اخرى، وكان ذلك ما يوفّره التوجّه إلى الكعبة على الظاهر؛ إذ لو كان التوجّه إلى جهة يطعن بها النصارى، فإنّ معنى ذلك عدم التخلص من الطعن، بل انتقلنا من نوع من الطعن إلى نوع آخر منه، فلا تكون المسألة قد حلت، ولهذا، كان لا بدّ للقبلة الجديدة من أن تكون سالمة من أيّ نوع من أنواع الطعن، هذا النوع من القبلة هو الّذي كان يرتضيه الرسول الاكرم ﷺ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٢٠.

**والخلاصة**: أنّ الرسول الاكرم ﷺ ـ وهو حبيبه سبحانه وتعالى ـ قد حاز قرب الفرائض والنوافل، القرب الّذي كانت ثمرته توفير المجاري الادراكية والتحريكية للسالك الصالح والواصل في مقام الفعل من قبله تعالى، ليكون رضاه سبحانه وتعالى رضا الرسول الاكرم ﷺ وبالعكس، وأثر هذا التلفيق المبارك هو أن يكون جميع ما يصدر منه ﷺ من تقليب باطن أو تحويل ظاهر منسوبا إليه تبارك وتعالى.

**نكتة**: يمكن أن يكون السرّ في عدم ذكر قبلة معيّنة في طلبه ﷺ هو وضوح المسألة، ولو كان من اللازم التصريح بذلك، لأجرى الله سبحانه وتعالى ذلك على لسان حبيبه ﷺ.

## تحقيق ما يرضيه ﷺ

إنّ بناء الكعبة نظير بناء «هيكل سليمان» محترم ومكرم، إلا أنّ أحجارها لا تختلف عن أحجار الهيكل لا تخرج عمّا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام حين قال في كلامه المنير: «ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الاوّلين من لدن آدم عليه السلام إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ لاتضرّ ولا تنفع، ولاتبصر ولاتسمع، فجعلها بيته الحرام الّذي جعله للناس قياماً...»[1]، ولكنّ عبادته سبحانه وتعالى ـ سواء أكانت بصيغة عمود الدين المسمى بالصلاة، أم كانت على هيئة إحرام وزمزم وتلبية وطواف وسعي ورمي وذبح... تحت عنوان الحج ـ إنّما هي تلفيق بين عمل القلب، وأمّا العمل، فهو القالب، فالقلب بحضوره العقلي يدرك المعنى المجرّد بحده، ويعبد بمقدار معرفته، إلا أنّ ذلك يحتاج إلى قالب مظهر ويطلب ساحة محسوسة لكي يزاول العبادة إليها وحولها.

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

وبهدف توافق العقل والحس، فإنّ الكعبة ـ وهي بيته سبحانه وتعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾[١] ـ والمؤمن ـ وهو عبده تعالى ـ والصلاة والحج ـ وهما عبادته عزّ وجلّ ـ كلّ ذلك اتّحد بحيث صار «العابد» و«العبادة» و«المعبد» و«القبلة» منه وإليه وله، وهذه الوحدة المرضيّة هي محلّ رجاء أكمل الناس المعصومين من اولهم إلى آخرهم ورضاه، يعني: حضرة خاتم النبوّة والرسالة ﷺ، الّذي كان ينظر بنافد الصبر والقلق إلى السماء، لكي ينال القبلة المرضية من قبله، وهو سبحانه وتعالى لا يتجاهل ما يرضي خليفته الكامل أبدا، إن في الدنيا وإن في الآخرة، ولهذا، ففي مورد القبلة في الدنيا، نسمعه سبحانه وتعالى يقول: ﴿... فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا...﴾، وفي ما يرجع إلى العطاء الالهي في الآخرة، نسمعه عزّ من قائل يقول: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[٢]. ولم يقل سبحانه وتعالى في أيّ واحدٍ من الموردين: «أَرْضاها»، بل ما سمعناه هو قوله تعالى في الموردين: «ترضاها»[٣].

الله سبحانه وتعالى في مقام الفعل لا في مقام الذات ولا في مقام اكتناه الوصف الذاتي ـ وهما المنطقتان المحروستان ـ وراء رضا خليفته الكامل، لكي يجتهد عبيده في قبول قيادته وجلب رضاه، من الطبيعي أنّ هذا النوع من اللطائف والنكات التفسيرية لا يتوافق مع جمود ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[٤] وتحجّر عدم تعليل فعله سبحانه وتعالى بالاغراض الّذي ابتلي به الاشاعرة كما اعترف بذلك الامام الرازي[٥].

---

١ . سورة الحجّ، الآية ٢٦.
٢ . سورة الضحى، الآية ٥.
٣ . التفسير الكبير، ج٣، ص١١٢.
٤ . سورة الانبياء، الآية ٢٣.
٥ . التفسير الكبير، ج٣، ص١١٢.




ومن هنا، ففي مقام الفعل لا في مقام الذات ولا في مقام اكتناه الوصف الذاتي، في الحرب أو في الصلح، فإنّ يده ﷺ هي يد الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[1]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّما يُبَايِعُونَ اللهَ﴾[2]. وهكذا بالنسبة إلى رضاه؛ فإنّه ليس لإنسان كامل من هذا النوع رضا نابع من الشخص أو القوميّة وما شابه، ومن هنا قال تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

مع أخذ الحقائق السابقة الذكر بنظر الاعتبار، ستكون القبلة المرضية عنده سبحانه وتعالى هي القبلة المرضية عنده ﷺ، كما أنّه ﷺ إنّما يرضى بالقبلة التي ارتضاها له الله سبحانه وتعالى؛ فإنّ الانسان الكامل الّذي نال مقام الرضا، فرضي عنه الله سبحانه وتعالى ورضي هو عنه تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[3]، ليس له رضا شخصي ـ أو قومي أو قبلي، الانسان الّذي كانت جميع شؤونه مرضيّة عنده سبحانه وتعالى، وكان رضاه تعالى رضاه: «رضى الله رضانا أهل البيت»[4] يطلب القبلة التي يرتضيها الله سبحانه وتعالى ويرتضيها، وهو سبحانه وتعالى لا يرتضي إلّا القبلة التي تسلم من الطعن والتحقير، ويكون فيها عظمة الاسلام وعزته.

الرسول الاكرم ﷺ، هو المصداق الابرز لصاحب النفس المطمئنّة، وصاحب مقام الرضا الشامخ، الّذي يقول سبحانه وتعالى عنه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[5]. ولو كان هناك نفس راضية عنه سبحانه وتعالى ـ يعني: راضية بجميع قضاء الله وقدره ـ فلن يقف رضاه سبحانه

١ . سورة الأنفال، الآية ١٧.
٢ . سورة الفتح، الآية ١٠.
٣ . سورة المائدة، الآية ١١٩.
٤ . بحار الانوار، ج٤٤، ص٣٦٧.
٥ . سورة الفجر، الآيات ٢٧ ـ ٢٨.



وتعالى حينئذ على الاوصاف والاعمال التي تنشأ من تلك النفس، بل سيتعدّى رضاه سبحانه وتعالى ذلك لينفذ إلى جوهر الذات، ما يعني أنّ رضاه سيكون كاشفا عن رضا الله سبحانه وتعالى، وفي المقابل، فإنّه سبحانه وتعالى سيشمله بما يرضيه من العطايا: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[1]، وأمّا من لم يصل إلى ذلك المقام، فإنّ رضاه لن يكون كاشفا عن رضاه سبحانه وتعالى، كما ورد في قوله عزّ من قائل: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[2].

إذا كانت حقيقة شخص مّا وهويّته كشخصية الرسول الاكرم ﷺ وحقيقته، بحيث كان مرضيّا من قبله سبحانه وتعالى، فإنّه تعالى سينسب جميع شؤون ذلك الشخص إلى نفسه تبارك وتعالى.

## معجزة الرسول الاكرم ﷺ الخالدة

لم يقتصر الامر في حادثة تغيير القبلة على نزول الامر بالتغيير والحكم باستقبال الكعبة، بل تعدّى ذلك إلى وصفه سبحانه وتعالى نفسه في مقام العمل بالمُوَلّي (بكسر اللام) ووصف الرسول الاكرم ﷺ بالمُوَلّي (بفتح اللام)، فقال عزّ من قائل: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ...﴾، وبناء على هذا، نرى الامين جبرائيل عليه السلام يأخذ بيده ﷺ وهو في حال الصلاة ليوجّهه إلى الكعبة[3]، أو أنّ جميع الموانع بين مكّة والمدينة قد زالت حتّى كان الرسول الاكرم ﷺ يشاهد الكعبة ليصلّي وهو في تلك الحالة اليها[4]. كما أنّه يمكن الجمع بين النقلين السابقين.

---

١. سورة الضحىٰ، الآية ٥.

٢. سورة التوبة، الآية ٩٦.

٣. بحارالانوار، ج١٩، ص١٩٥ و ٢٠١.

٤. المصدر السابق، ج٨١، ص٥٤.

وعلى هذا الاساس، يكون نزول: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ مشتملا على خرقين للعادة، أوّلهما: الكرامة للرسول الاكرم ﷺ، وثانيهما: المعجزة العامّة الشاملة التي اشتملت عليها.

أما الخرق الاوّل، فقد كان الكرامة الشهودية المتمثّلة برؤيته ﷺ لملك الوحي وسماع كلامه سبحانه وتعالى عن طريقه، وقد كان هذا الوحي لبيان الحكم.

وأمّا الخرق الثاني، فقد تمثّل بالمعجزة في تشخيص موضوع هذا الحكم، أعني: تعيين جهة القبلة، وهي جهة المسجد الحرام؛ إذ بناء على ما نقله المحدّثون شيعة وسنة، فقد كان الرسول الاكرم ﷺ يرى وهو في حال الصلاة ميزاب الكعبة، ووقف إزاءه[1]، بحيث صدّقت المحاسبات البعدية لعلماء الهيئة والنجوم محاذاته ﷺ.

وحسب تعبير الاستاذ العلامة الطباطبائي ﵀، فقد كان ذلك كرامة باهرة من كراماته ﷺ[2].

وأمّا وجه الاعجاز في هذا المجال، فهو ما يلي:

أوّلا: على الرغم من الموانع الكثيرة بين مكّة والمدينة، وعلى الرغم من المسافة الكبيرة بينهما (وهي ما يقارب الثمانين فرسخا)، فقد رأى ﷺ الكعبة وصلّى إليها.

ثانيا: لم يكن في ذلك الوقت قد عيّنت الاستفادة من النجوم في تشخيص التوجّه إلى القبلة بعد، هذا إضافة على أنّ الاستفادة من علائم من هذا القبيل تختصّ بوقت الليل كما هو واضح، مع أنّ الحادثة وقعت وسط صلاة الظهر كما

---

١ . الدر المنثور، ج١، ص٣٥٥. بحارالانوار، ج٨١، ص٥٤.

٢ . الميزان، ج١، ص٣٣٦.



هو المنقول، فقد ترك استقبال بيت المقدس ليتوجّه إلى الكعبة وسط الصلاة بدون أيّ انحراف عنها[1].

ثالثا: لم يكن في الحجاز في ذلك الوقت آلات للقياس والهيئة لكي يستفاد منها في الحساب والتوجّه إلى الكعبة، فحتّى على فرض وجود المتخصّص، فإنّه لا يتسنّى له التشخيص إلّا بالالات الخاصّة والحسابات الدقيقة، وإلّا، وقع في حيرة كاملة، وكما سبقت الاشارة، فإنّ الرسول الاكرم ﷺ قد قام بالتوجّه من بيت المقدس إلى الكعبة وهو في حال الصلاة، العمل الّذي لا يمكن اعتباره إلّا معجزة من معجزاته ﷺ اختصّه بها سبحانه وتعالى.

من الجدير بالذكر التنبيه على ما وقع فيه بعض القدماء من علماء الرياضيّات وبعض المحدثين بالتبع، حيث ظنّوا تغير وضع القبلة بالنسبة إلى مسجد النبيّ بحيث لا يكون محاذيا للكعبة وميزابها[2].

وكما نبّه عليه الاستاذ العلامة الطباطبائي ﵀، فقد ثبت بجهود المختصّين المتأخّرين في فنّ الهيأة والنجوم من قبيل السردار الكابلي، أنّ مدّعي التغيير والاختلاف كانوا مخطئين في ما ذهبوا إليه من تغيير قبلة مسجد النبيّ ﷺ[3]. فقد أثبت في كتابه (تحفة الاجلة في معرفة القبلة) المحاذاة.

**نكتة:** السرّ في عدم تصريح الآية الشريفة بحالة الصلاة التي كان عليها ﷺ حين نزول الآية الكريمة، وتوجيه الملك له (عليه وعلى آله الصلاة والسلام)، على الرغم من لزوم الاستقبال في حالات خاصّة من قبيل الصلاة لا مطلقا، هو أنّه ﷺ كان حالة الصلاة حين التغيير، الامر الّذي يعتبر قرينة كافية في المقام.

---

١ . **وسائل الشيعة**، ج٤، ص٣٠١.

٢ . **بحار الانوار**، ج٩٧، ص٤٣٣ ـ ٤٣٤.

٣ . **الميزان**، ج١، ص٣٣٥ ـ ٣٣٦.

## توجيه جميع مقاديم البدن باتجاه القبلة

قال الله سبحانه وتعالى للرسول الاكرم ﷺ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. و«الوجه» في هذه الآية إمّا أن يكون كناية عن مقاديم البدن، أو بمعنى النفس، أي: وجّه نفسك شطر المسجد الحرام. ما جعل بعض الفقهاء يحتاط بلزوم توجيه أصابع القدم أيضاً صوب القبلة[١].

وللتوضيح نقول:

إنّ «الوجه» إذا ذكر في مقابل عضو آخر من اعضاء البدن، فإنّ المقصود به حينئذ الوجه الخاصّ، كما هو الحال في ما يجب غسله من الوجه، وما يجب مسحه من الرأس والقدمين، وأمّا في الحالات التي ليس فيها هكذا قرينة كما في الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام، وكما لو قيل مثلا: ولّ وجهك صوب الجهة الفلانية، فإنّ الفهم العرفي حينئذ يعيّن أنّ المقصود من الوجه هو جميع مقاديم البدن، ولا حاجة في مثل هذه الموارد إلى أن يقال: «وجّه جميع مقاديمك إلى الجهة الفلانية».

بناء على ما مضى، يكون المراد من «الوجه» في الآية الشريفة جميع مقاديم البدن لا «الوجه» الخاصّ للانسان، وهو ما يفهمه العرف من قولهم مثلا: «جلس فلان إلى القبلة»، أو: «وقف فلان إلى القبلة»، فإنّه يفهم أنّه جلس أو وقف وجميع مقاديم بدنه إلى القبلة لا مجرّد وجهه بحيث تكون مقاديم بدنه إلى جانب آخر.

## الحكم الخاص والقانون العام

ولأجل أن يبيّن الله سبحانه وتعالى أنّ الحكم غير مختصّ به ﷺ، بل هو

---

١. **العروة الوثقى**، ج١، ص٤١٢.




عامّ شامل لجميع المسلمين في جميع الامصار والاعصار، جاء قوله سبحانه وتعالى في تتمّة الآية المباركة: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾. فالصلاة تتوقف على القبلة، وقبلتها الكعبة، فهذا الحكم من قبيل الطهارة لأجل الصلاة لا لأجل المصلّي، سواء أكان ذلك المصلّي الرسول الاكرم ﷺ أم كان غيره.

**توضيح**: تنقسم الاحكام الاسلامية بلحاظ اختصاصها بالرسول الاكرم ﷺ أو عدم اختصاصها به إلى القسمين المعهودين، فبعض أحكام الاسلام مُختصٌّ به ﷺ لا تشاركه فيه الامّة الاسلامية، فيما بعضها الآخر عامّ شامل للجميع.

ولكي يكون الحكم مختصا بالرسول الاكرم ﷺ، فلا بدّ من قيام قرينة مخصّصة معتبرة على ذلك، وإلّا، علم ببركة أصل الاشتراك في التكليف أنّ الحكم المزبور عامّ شامل للجميع.

نموذج القسم الاوّل ـ يعني الحكم المختص به ﷺ ـ هو وجوب صلاة الليل؛ حيث ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾[1]؛ فإنّ كلمة ﴿لك﴾ شاهد على اختصاص الحكم به ﷺ، وكذلك الامر بالنسبة إلى النكاح في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]؛ فإنّ تعبير: ﴿لَكَ﴾، وتعبير: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرينتان على التخصيص، الامر الجاري في قوله تعالى أيضاً: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾[3]، الوارد في مجال الدفاع.

وأمّا القسم الثاني، فهو جميع الاحكام الاسلامية الخالية من قيد أو شرط أو وصف معيّن يصلح شاهدا على إختصاص الحكم بالرسول الاكرم ﷺ.

---

١. سورة الاسراء، الآية ٧٩.

٢. سورة الاحزاب، الآية ٥٠.

٣. سورة النساء، الآية ٨٤.

وتغيير القبلة وإن كان قد شرع بخطاب ظاهر في الاختصاص، ولكن، بعد التصريح بالعموم ينتفي احتمال الاختصاص تماما.

## الفرق بين الاستقبال والقبلة

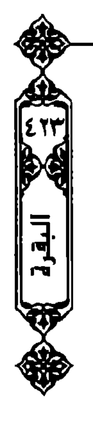
تقدّم أنّ واحدا من المعاني المحتملة بالنسبة إلى كلمة «الشطر» في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هو «الجزء». والمقصود ـ طبعا ـ هو جزء المسجد الحرام المعيّن ـ يعني: الكعبة ـ لا الاجزاء الاخرى.

وفي حالة إرادة هذا المعنى في المقام، فلا يبعد طرح هذا السؤال: إذا كان المراد هو هذا الّذي ذكر، ألم يكن من الانسب حينئذ أن يعبّر بتعبير به «الكعبة»، أو «البيت الحرام» وما شابه ذلك بدلا عن عبارة ﴿شطر المسجد الحرام﴾؟ إذ إنّ مثل هذه التعبيرات أمر متعارف في القرآن الكريم، فقد عظّم الله سبحانه وتعالى هذا البيت بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[1]، وذكره بهذه العناوين في آيات شريفة متعدّدة، حيث قال عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ الله وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾[2]، وقال: ﴿... هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾[3]، وقال: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾[4].

ومن الجدير بالذكر أنّ جميع ما قدّم في مجال الجواب عن السؤال المتقدّم لم يكن جوابا ناجعا أبدا.

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٩٦.
٢ . سورة المائدة، الآية ٢.
٣ . سورة المائدة، الآية ٩٥.
٤ . سورة المائدة، الآية ٩٧.




وهذا القسم من الآية الشريفة يخالف ما جاء في الروايات من ذكر الكعبة أو المسجد الحرام بعنوانهما، من قبيل ما جاء في بعض تلك الروايات من أنّ الكعبة قبلة لمن صلّى في المسجد الحرام، والمسجد الحرام قبلة ساكني مكّة، ومكّة قبلة أهل الحرم، والحرم قبلة النائي والبعيد[1].

ووجه المخالفة، هو أنّ الآية الشريفة قد نزلت في المدينة، والمدينة تبعد عن مكّة بفراسخ عديدة، فهي بعيدة عنها، ومع هذا كله، نجد أنّه تعالى يأمر بالتوجّه إلى جانب المسجد الحرام، يعني: الكعبة. المسألة التي أكّد عليها في الآيات التالية، بل حتّى أولئك الذين بنوا على الروايات المذكورة، لم يعبّروا أبدا بأنّ المسجد الحرام أو مكّة أو الحرم هو القبلة.

الرابطة الدائمية المباشرة بين الانسان وبين ما يسمىّ بالقبلة هو الكعبة، وحسب تعبير صاحب الجواهر بالنسبة إلى ذكر «الكعبة قبلتي»[2]: «من الضروريات التي تلقّن بها الاموات وتكرّره الاحياء في كلّ يوم، بل يعرفه الخارج عن الاسلام كاليهود والنصارى من أهله فضلا عنهم»[3].

العلاقة الدينية الممتدّة طول اليوم بين المسلمين والكعبة على نحو من القوّة بحيث تصل في بعض الاعمال والحالات إلى أن يكون التوجّه إليها واجبا أو مستحبا، كما قد يكون استقبالها أو استدبارها في بعض الامور أو الحالات حراما.

المطلب الاساسي هو أنّه ينبغي عدم الخلط بين القبلة والاستقبال؛ فإنّ شعاع الاستقبالِ يختلف بين حالتي القرب والبعد؛ إذ كلما بعد الانسان اتّسع معه شعاع الاستقبالِ، ما يعني اتساع الاستقبال لا القبلة.

---

١ . **وسائل الشيعة**، ج٤، ص٣٠٣ ـ ٣٠٥.

٢ . **بحار الانوار**، ج٦، ص١٧٥، ٢٢٩ و ٢٣٨.

٣ . **جواهر الكلام**، ج٧، ص٣٢٠ و ٣٢٢.




ومع ما بينّاه قبل قليل، يتّضح الجواب عن توهّم في المقام، وهو أنّه في الحالات التي يتّسع فيها صفّ الجماعة، فإنّ من يقف في آخر الصف على يقين من بطلان صلاته؛ لكونه على يقين من عدم محاذاته للكعبة إذا رسمنا مجموعة من الخطوط المتوازية تنطلق من كلّ من المصلّين إلى الكعبة، فأولئك المصلّون على علم اجماليّ بأنّ بعضهم أو الامام أو الكلّ قد انحرف عن الكعبة، وفي مثل هذه الحالة كيف يمكن الحكم بصحة الصلاة؟!

**والجواب**: والجواب عن الاشكال السابق يقوم على أساس ما ذكرناه قبل قليل من نكتة مهمة، وهي اتساع شعاع استقبال الكعبة في المناطق البعيدة، خلافا لما لو كانت القبلة للبعيد هي الكعبة أيضاً، وعليه، فمن يصلّي في المدينة مستقبلا المسجد الحرام، فإنّه يصدق عليه حقيقة أنّه قد استقبل الكعبة.

إنّما يرد الاشكال المزبور في صورة كون المراد من الاستقبال هو الاستقبال الهندسي والرياضي، إلّا أنّ المراد من الاستقبال إنّما هو الاستقبال العرفي، والاستقبال العرفي الحقيقي لا المجازي. والاستقبال الحقيقي عند العرف إنّما يتحقق بتوجه الانسان باتّجاه القبلة، ومن هنا، تكون صلاة المنحرف أقلّ انحراف عن ذلك متعمدا باطلة.

**تنويه**: إنّ مسألة استقبال القبلة تختلف عن مسألة الاقتداء بإمام الجماعة من جهتين:

الاولى: كفاية صرف استقبال القبلة والتوجّه إليها، خلافا لمسألة الاقتداء؛ إذ لا يكفي ذلك في صحة الصلاة ما لم يكن مع نيّة الائتمام.

الثانية: لزوم التوجّه إلى القبلة في مسألة الاستقبال وإن كان المصلّي بعيدا، خلافا لمسألة الاقتداء؛ حيث لا يلزم وقوف المصلّي خلف الامام تماما، بل تصح صلاته حتّى لو صلّى إلى يمين الامام أو يساره.




وبهاتين النقطتين يتّضح عدم تماميّة ما ذكر في جامع البيان[١]، نعم، لو رجعت قضية الاتساع المزبورة إلى الفرق بين الاستقبال والقبلة، لكان ذلك الكلام تامّا لا عيب فيه (في خصوص التوسعة).

**نكات:** ١ ـ كما تبيّن تصريحا وتلويحا، فإنّ الكعبة هي القبلة الرسميّة للمسلمين في جميع الاعصار والامصار ولجميع الاجيال، وليس المقصود من ذلك هو تلك الاحجار والموادّ التي بنيت بها الكعبة، وإنّما المقصود ذلك البعد الخاص الّذي تقع الكعبة فيه، والذي يمتد بلحاظ العمق إلى باطن الارض، وبلحاظ الارتفاع إلى عنان السماء[٢].

ومن هنا، ففي الاوقات التي لم يكن للكعبة فيها بناء، إن كان بسبب طبيعي وإن كان بسبب غير طبيعي على أثر طغيان الطغاة والبغاة، فإنّ القبلة محفوظة قائمة حتّى في تلك الحالات.

كما أنّ القبلة ليست هي المجموع من ذلك البعد الخاصّ والبناء، وإلّا، لم يبق للقبلة وجود في الحالات السابقة كما هو واضح بعد زوال المركّب بزوال أحد أجزائه.

كما أنّ القبلة ليست هي عين تلك الصورة والكيفية التي رسمها وصوّرها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أيضاً؛ إذ إنّها قد تغيّرت بعد ذلك عدّة مرّات على مر العصور كما هو معروف.

والشاهد على أنّ القبلة ليست هي تلك الاحجار والمواد، هو أنّ تلك الاحجار والمواد لو نقلت بأيّة صورة من الصور إلى مكان آخر، لما صار ذلك المكان قبلة أبدا.

---

١ . ج٢، ص٢٥.

٢ . وسائل الشيعة، ج٤، ص٣٣٩.




٢ ـ كان وصف الكعبة بالبيت الحرام واتّصاف مكّة بالحَرَم في الجاهلية أمرا رائجا، إلّا أنّ وصف المسجد واسمه لمنطقة الكعبة وأطرافها لم يكن كذلك، بل هو ممّا جاء به الاسلام؛ إذ لم يكن لعبدة الاصنام والاوثان سجود لكي يكون للمسجد وجود في ذلك الزمان، ولّما كانت الاستفادة من هذا العنوان لهذه المنطقة استفادة خاصّة، سمّيت المنطقة المحيطة بالكعبة المسجد الحرام، وأمّا بالنسبة إلى المسجد الاقصى، فإنّه وإن كان هذا العنوان قائما موجودا قبل الاسلام وبعد موسى الكليم عليه السلام، إلّا أنّه كان على نطاق الموحّدين الساجدين لا أوسع من ذلك النطاق بحيث يشمل المستكبرين المدبرين.

٣ ـ إتّصاف المسجد بالحرام كان باعثا على اتّصاف الكعبة بالحرمة الخاصّة، ومن الطبيعي أنّ جميع الحرمة التي يتمتّع بها الحرم ومكة والمسجد الحرام ستكون ناشئة من احترام الكعبة ليس إلّا.

## تهديد معوجّي التفكير

وأمّا في القسم الختامي من الآية الّتي هي محلّ البحث، فقد تعرّض القرآن الكريم إلى أنّ أهل الكتاب ـ وبالاخص اليهود المعوجّي الفكر الذين كانوا يتعرّضون للمسلمين بالطعن في مسألة القبلة، والذين كانوا يدّعون تبعية المسلمين لهم وعدم ثبات الدين الاسلامي في هذا المجال ـ كانوا على علم بحقّانية قبلة المسلمين الجديدة وتغيير جهتها، وأنّ ذلك إنّما كان على أساس الوحي الالهي؛ إذ إنّ جميع جزئيات تلك المسألة أو الخطوط العامّة لها قد ذكرت في كتابهم السماويّ، فقال عزّ من قائل: ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ إِنّه الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ**﴾.

لقد كان أهل الكتاب منشأ الفتنة والدسائس التي حيكت للمسلمين في مجال القبلة وتغييرها، فكان اليهود والنصارى، والاحبار والرهبان ـ يعني:



العلماء الذين غرّتهم الدنيا وزبرجها ـ هم الجذور التي كانت تغذّي تلك الفتن والدسائس، ما جعل القرآن الكريم يشير إلى ذلك المنشأ بقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّه الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ فإنّ الاحبار والرهبان وقد كانوا على اطلاع بمضمون التوراة والانجيل، يعلمون بما جاء فيهما في ما يرجع إلى تغيير القبلة، ولم يكونوا كعامّة مشركي الجاهلية أو اليهود والنصارى، ما يفسّر توجيه التعنيف الشديد منه سبحانه وتعالى في هذه المسألة إلى مريضي ـ التفكير من هؤلاء.

والخلاصة: أنّ الجريمة التي أقدم عليها الاحبار والرهبان من الطّعن على المسلمين في مسألة تغيير القبلة، قد كانت عن علم واّطلاع مسبق منهم بالحقّ، الجريمة التي لم يكن الله سبحانه وتعالى بغافل عنها أبدا: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

والاصل الكلي والقاعدة العامّة للمطلب الاخير، هو أنّه سبحانه وتعالى عليم بكلّ شيء: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١].

وقد لا يمكن استفادة الانذار والتهديد من هذا الاصل الاخير، إلّا أنّ عبارة: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾، تعتبر إنذارا وتهديدا ضمنيّا لهؤلاء؛ إذ إنّ معناها هو أنّ الدوائر ستدور عليهم في النهاية؛ فإنّه سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[٢]، فنهاية الاجرام هي السقوط وعذاب الآخرة الشديد، ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الابْصَارُ﴾[٣].

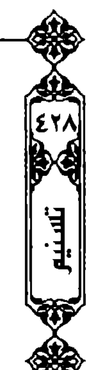
**تنويه:** الغفلة غير السهو، ويمكن تلخيص الفرق بين هذين الامرين بصورة العموم والخصوص المطلق.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٣١.

٢ . سورة الفجر، الآية ١٤.

٣ . سورة الابراهيم، الآية ٤٢.


# إشارات ولطائف

## ١ ـ عدم نسخ القرآن بالقرآن في مسألة تغيير القبلة

أشرنا في تفسير الآية السابقة إلى أنّ روح النسخ في مجال التشريع الالهي ترجع إلى التخصيص الازماني، وعليه، فإنّ مسألة تغيير القبلة حتّى لو كانت من باب النسخ، فإنّه لا يمكن التمسّك بها في الاستدلال على وقوع النسخ في القرآن؛ إذ إنّ الواقع في هكذا نسخ هو نسخ السنّة بالقرآن لا نسخ القرآن بالقرآن.

توضيح ذلك:

إنّ اتّخاذ بيت المقدس قبلة إنّما كان بواسطة السنّة المطهرة لا بالقرآن، وإن كانت سنّته ﷺ وحيا إلهيا ايضاً، فإنّ الرسول الاكرم ﷺ لا يبيّن حكما من الاحكام إن كان بعنوان القرآن وإن كان بعنوان السنّة بدون وحيه سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[1]، إلّا أنّ الوحي ليس كلّه قرآنا، ولا يذكر هكذا وحي في عداد القرآن أبدا، ما يعني أنّ الآية الشريفة محلّ البحث تعتبر ناسخة لحكم قد ثبت بالسنّة لا بالقرآن.

وهناك تقريبان لمن تمسّك في اثبات وقوع النسخ في القرآن بمسألة تغيير القبلة، نتعرّض لهما مع بيان الموقف من كلّ منهما:

التقريب الاوّل: أنّ اتّخاذ بيت المقدس قبلة قد ثبت بالقرآن، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾[2]. والمستفاد من هذه الآية هو أنّ بيت المقدس كان قبلة،

---

١ . سورة النجم، الآيات ٣ ـ ٤.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٤٣.

فما جاء بعد تلك الآية ممّا أمر باستقبال الكعبة من القرآن الكريم يعتبر ناسخا لها[١].

وضعف البيان السابق يتبيّن من خلال أنّ الآية الكريمة السابقة لا يستفاد منها أنّ جعل بيت المقدس قبلة إنّما كان ببركة نزول آية شريفة من آي القرآن، بل غاية ما تدلّ عليه هو: «القبلة التي كنت عليها»، من دون أيّ تعرّض إلى أنّ تلك القبلة قد ثبتت بطريق هو القرآن الكريم، بل الامر ما ذكرناه قبل ذلك من أنّ ذلك إنّما ثبت بالسنّة لا بالقرآن.

التقريب الثاني: أنّ الآية الّتي هي محلّ البحث ناسخة لقوله تعالى في الآية الشريفة: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[٢]؛[٣] إذ إنّ المستفاد من هذه الآية، هو جواز التوجّه إلى أيّة جهة من الجهات بعد كونها وجه الله سبحانه وتعالى، وأمّا الآية الّتي هي محلّ البحث، فإنّها تأمر بالتوجه إلى الكعبة حيثما كان الانسان، فهي ناسخة لتلك.

والتقريب السابق غير تامّ أيضاً، لما يأتي:

أوّلا: أنّ الآية الشريفة: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ بيان مطلق عامّ؛ وهو أنّ الانسان إلى أيّة جهة توجّه فقد توجّه لوجهه سبحانه وتعالى من غير تخصيص لحال دون أُخرى، من قبيل الصلاة الواجبة أو المستحبة، ومن قبيل السفر أو الحضر، وأمّا في خصوص حالة الصلوات الواجبة، فقد صدر الامر باستقبال الكعبة في قوله تعالى: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، فغاية ما تدل عليه هذه الآية الشريفة هو تقييد إطلاق الآية المذكورة لا أكثر، وعلى الرغم من أنّ حقيقة النسخ في مجال التشريع الالهي هي التخصيص الازماني، إلّا أنّ الحكم الجديد

---

١. **التبيان**، ج٢،: ص١٥. روي عن ابن عباس إنّه قال: «أوّل ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا شأن القبلة. وقال قتادة: نسخت هذه الآية ما قبله».

٢. **سورة البقرة**، الآية ١١٥.

٣. راجع: **التبيان**، ج٢، ص١٥.

يجب أن يكون معلنا عن انقضاء زمان الحكم السابق بصورة كاملة.

ثانيا: يجب أن يحرز أنّ الآية الّتي هي محلّ البحث قد نزلت بعد الآية الشريفة: ﴿وَلله الْمُشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، والحال أنّ احتمال نزول الآية الّتي هي محلّ البحث قبل الآية الشريفة الاخرى أمر وارد.

وما يؤيد هذا الاحتمال، هو إشارة الآية السابقة إلى منع المشركين من ورود المسلمين المسجد الحرام لعبادته سبحانه وتعالى، بالاضافة إلى سعيهم إلى تخريب المسجد الحرام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾[2].

ووجه التأييد، هو ما جاء بعد ذلك من قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾، ما يعني أنّ ما كان يقوم به المشركون إنّما كان بعد اتخاذ الكعبة قبلة، الامر الّذي يؤيد أنّ قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ قد نزل بعد قوله عزّ من قائل: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وعليه، فإنّ التقريب المزبور يستلزم نزول الناسخ قبل المنسوخ، وهو ما لا يقول به أحد.

### ٢ ـ عدم جواز التساهل في الدين

تعرّض الاستاذ العلامة الشعراني ﵀ في إحدى تعليقاته المفيدة على كتاب الوافي إلى إشكال يرجع إلى السؤال عن توجيه الوجوب في مسألة القبلة إلى عامّة الناس مع أنّه مسألة دقيقة وأمر تخصصي ـ لا يفقهه إلّا المتخصّصون في الفن، والحال أنّ الاسلام شريعة سهلة وسمحة[3]، فالمفروض الاكتفاء بالجهة مثلا.

---

١ . سورة البقرة، الآية ١١٥.

٢ . سورة البقرة، الآية ١١٤.

٣ . الكافي، ج٥، ص٤٩٤. من لايحضره الفقيه، ج١، ص١٢.



وجواب الاشكال حسب نظره ﷺ، يكمن في أنّ الناس بلحاظ التمتّع بالتخصّص والفنون التخصّصية على قسمين، وأمّا بالنسبة إلى الامور الفنية التخصصية التي لا يتمتّع بها إلّا المتخصّصون، فاللازم على غير المتخصّصين الرجوع إلى المتخصّصين في مجال المسألة الّتي هي محل الابتلاء.

وضرورة الامر السابق تصل إلى الحد الّذي يجب فيه تحمّل ما يلزم تحمّله ولو كان ذلك الذلّة في سبيل الحصول على العلم والتخصّص من غير المسلمين، وإن كان تحصيل العلوم والمهارات والتخصصات المختلفة التي يحتاج إليها النظام والمجتمع الاسلامي من الواجبات الكفائية.

فكما يجب على الانسان أن يكون مجتهدا أو يرجع إلى مجتهد جامع للشرائط في مسألة استنباط المسائل الفقهية التي تعتبر من العمليات التخصصية الدقيقة الصعبة، فكذا هو الحال بالضبط في مسألة من قبيل تشخيص القبلة، فيجب على الانسان إمّا أن يحصّل العلوم اللازمة للتشخيص فيكون بنفسه متخصّصا بحيث يمكنه التشخيص، وإمّا أن يرجع في هذه العملية إلى المتخصّصين في هذا المجال؛ فإنّه على الرغم من صعوبة الوصول إلى مرحلة العالم في الرياضيات مثلا، إلّا أنّ الرجوع إلى المتخصّص في هذا المجال ليس صعبا.

كما أنّ هناك مسألة البوصلة التي هي حصيلة جهود المتخصصين والاستفادة منها في تشخيص القبلة، وهي عملية ليست صعبة أبدا، كما هو الحال في الاستفادة من بعض النجوم والكواكب كالجدي، العملية التي تعتبر مصداقا من مصاديق الرجوع إلى العالم من قبل الجاهل.

وكما هو الحال بالنسبة إلى المسائل المعقّدة في مجال الامور المالية والديون وتعيين الحدود المائية والهوائية التي تكون محل النزاع بين الافراد أو الدول المتجاورة، حيث لا يقبل بالتساهل في موردها أيّ مسلم أو دولة اسلامية، ولا يرى للتسامح فيها والاغماض عنها مجال أبدا، بحيث يستعان لو لزم الامر




بالمتخصصين غير المسلمين في بعض الاحيان، فكذا هو الحال بالنسبة إلى الامور العبادية؛ حيث يلزم عدم التساهل فيها، فيجب ألّا يخلط بين مسألة كون الشريعة سهلة سمحة وبين التساهل في امتثال أحكامها كما هو الحال في ما طرحناه من إشكال.

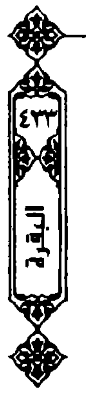
والمغزى: أنّه لا ملازمة بين كون مسألة مّا دقيقة وبين رفع اليد عن لزوم الدقّة والقول بلزوم التساهل في تلك المسألة والتنازل عمّا يلزم من دقة وتخصص، وأمّا كون الشريعة سهلة سمحاء، فإنّه لا يعني أبدا التساهل في الامور التي تستلزم الدقة أبدا، فالدين دقيق ولا مجال للتساهل فيه أبدا، نعم، الشريعة سمحاء بمعنى أنّها تشتمل على القوانين القابلة للفهم والتطبيق، كما أنّ تلك القوانين والتشريعات ليست حرجة شاقّة بحيث لا تتحمّل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1].

والحاصل: أنّ ابتناء مسألة تشخيص القبلة على جملة من الامور والمقدّمات الفنية التخصصية الدقيقة من الرياضيات والهيئة والنجوم لا يشكّل أيّ إشكال بالنسبة إلى أصل التكليف في هذا المجال، كما أنّه لا يعني أبدا التساهل في هذا المجال والتعامل الساذج مع مسائل الدين والشريعة، كما أنّه بعد تشخيص القبلة بالبوصلة أو ما شابه من الوسائل والآلات، فإنّ فقيها لا يجوّز أيّ انحراف وإن كان ضئيلا عنها، بحيث يعتبر الانحراف العمدي عن جهة القبلة حينئذ مبطلا للصلاة.

**تنويه**: إكتفاء الضيف بإخبار مضيّفه وتشخيصه وما شابه في مسألة تشخيص القبلة، في حالة عدم صلاة إمام معصوم أو كون المضيّف من أهل الاختصاص أو الاعتماد على المتخصّص في ذلك، يعتبر من مصاديق التساهل في

---

١ . سورة الحجّ، الآية ٧٨.




الدين، وهو أمر غير مقبول أبدا؛ إذ يجب إحراز استقبال القبلة من قبل المصلّي، كما أنّ الشهادة إنّما تكون معتبرة في المحسوسات لا في الحدسيّات، وعليه، ففي مسألتنا التي تعتبر من الحدسيّات، إن لم يمكن تحصيل العلم، فإنّه يجب الرجوع إلى أهل الخبرة والتخصّص لتحصيل الاطمئنان، كما أنّ إخبار المضيّف يكون حجّة يمكن الرجوع إليه في ما نحن فيه فيما لو كان قائما على التحقيق مفيدا للاطمئنان بالنسبة إلى الضيف.

كما أنّه لا يمكن التمسك بأصالة الصحة في اكتفاء الضيف بإخبار مضيّفه؛ فإنّ مجال العمل بهذا الاصل إنّما هو تصحيح ما مضى من الاعمال الصادرة عنه أو عن غيره وحملها على الصحّة، لا في الاعمال التي يريد أداءها ولم يشرع فيها بعد.

### ٣ ـ نشر العلوم الرياضية

لا يتضح بعض المسائل الاسلامية بدون الاطلاع على فنّ الرياضيات الشريف بالمعنى العامّ، ويجب على كلّ مكلّف من المكلّفين تحصيل الاطلاع عليه بالواسطة أو بدون الواسطة، فلو كانت القبلة جهة المشرق، سواء أكانت سمت القدس أم لم تكن كما يقول به النصارى، أو كانت إلى جهة المغرب، سواء أكانت إلى طرف بيت المقدس أم لم تكن كذلك كما هو اعتقاد بعض اليهود أو كما ينسب إليهم، فإنّ تشخيص جهة القبلة لن يكون عملا صعبا حينئذ؛ فإنّ شروق الشمس وغروبها أمرانِ محسوسانِ، كما أنّ تشخيص المشرق من المغرب أمر سهل ليس بعسير.

وأمّا لو كانت القبلة خصوص بيت المقدس أو الكعبة، بحيث يجب على جميع المصلّين حيثما كانوا التوجّه إليها، فإنّ تشخيص القبلة لا يعدّ أمرا هيّنا بدون الرجوع إلى أهل الخبرة في الهيأة والنجوم والفلك في هذا المجال، ومن هنا،

كانت القبلة من أولها إلى آخرها، ومن منسوخها إلى ناسخها ولا تزال، عاملةً مساعدةً من عوامل انتشار العلوم الرياضية؛ إذ بذل محقّقون مشهورون الجهود العظيمة خلال التاريخ في سبيل تعيين القبلة وتشخيصها، وتركو مؤلّفات قيّمة في هذا المجال، كما أنّهم ربّوا جيلا من العلماء الذين أفادوا في هذا المجال من بعد هؤلاء.

## البحث الروائي

### ١ ـ أهمية القبلة

عن زرارة قال: «**سألت أبا جعفر عليه السلام عن الفرض في الصلاة. فقال: الوقت، والطهور، والقبلة، والتوجه، والركوع، والسجود، والدعاء. قلت: ماسوى ذلك؟ فقال: سنّة في فريضة**»[1].

ـ قال أبو جعفر عليه السلام: «**لا تعاد الصلاة إلّا من خمسة: الطهور، والوقت، والقبلة، والركوع، والسجود**»[2].

ـ قال أبو جعفر عليه السلام: «**إذا استقبلت القبلة بوجهك فلا تقلّب وجهك عن القبلة فتفسد صلاتك، فإنّ الله عزّ وجلّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله في الفريضة: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، واخشع ببصرك ولا ترفعه إلى السماء، وليكن حذا وجهك في موضع سجودك**»[3].

**إشارة**: إختلال أجزاء الصلاة أو شروطها إذا كان ناشئا عن السهو والغفلة والجهل بالموضوع أو الجهل القصوري بالحكم، فإنّه لا يجب إعادة الصلاة إلّا

---

١ . وسائل الشيعة، ج٤، ص٢٩٥.
٢ . المصدر السابق، ص٣١٢.
٣ . الكافي، ج٣، ص٣٠٠ ـ ٣٠١.

من خمسة أشياء، وهي: الطهور، والوقت، والقبلة، والركوع، والسجود، وهذا ما يعكس أهمية القبلة وكونها على حدّ الامور الاربعة الاخرى بحيث تبطل الصلاة مع الاخلال بها فيجب إعادتها في مثل تلك الحالات، وهناك ـ طبعا ـ بعض الامور التي قد استثنيت في بعض الحالات الخاصّة، يعني: هذه الامور الخمسة كانت مستثنى منه في حالات خاصّة بحيث لا يلزم إعادة الصلاة مع الاخلال ببعضها.

**٢ ـ المراد من «إقامة الوجه»**

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾**[١]، **قال: أمره أن يقيم وجهه للقبلة، ليس فيه شيء من عبادة الاوثان، خالصاً مخلصاً**»[٢].

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾**[٣]، قال: «**تقيم في الصلاة ولا تلتفت يميناً وشمالا**»[٤].

ـ عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كلّ مَسْجِدٍ﴾**[٥]. **قال: هذه القبلة أيضاً**»[٦].

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: **﴿أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كلّ مَسْجِدٍ﴾**[٧]، قال: «**مساجد محدثة، فأمروا أن يقيموا وجوههم شطر**

١ . سورة الروم، الآية ٣٠.
٢ . وسائل الشيعة، ج٤، ص٢٩٦.
٣ . سورة الروم، الآية ٣٠.
٤ . وسائل الشيعة، ج٤، ص٢٩٧.
٥ . سورة الاعراف، الآية ٢٩.
٦ . وسائل الشيعة، ج٤، ص٢٩٦.
٧ . سورة الاعراف، الآية ٢٩.

المسجد الحرام»[١].

**إشارة:** جاءت بعض التعابير الدينيّة على صورة الدعوة إلى الحضور إلى المسجد الّذي يعتبر مكانا خاصا لإقامة الصلاة، كما جاء بعض تلك التعابير بصيغة الامر باستقبال القبلة في محل الصلاة، يعني: في كلّ مكان أقمت فيه الصلاة فاتّجه إلى القبلة، وهو المطابق لذيل الآية الّتي هي محلّ البحث.

### ٣ ـ عظمة الكعبة

قال النبي ﷺ: «**لن يعمل ابن آدم عملاً أعظم عند الله عزّ وجلّ من رجل قتل نبياً، أو هدم الكعبة التي جعلها الله عزّ وجلّ قبلة لعباده، أو أفرغ ماءه في امرأة حراماً**»[٢].

ـ قال الصادق عليه السلام: «**إنّ لله عزّ وجلّ حرمات ثلاثاً ليس مثلهنّ شيء: كتابه، وهو حكمته ونوره، وبيته الّذي جعله قبلةً للناس لايقبل من أحد توجهاً إلى غيره، وعترة نبيّكم ﷺ**»[٣].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام، وقد أنكر عليه الطواف بالكعبة: «**وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محلّ أنبيائه، وقبلة للمصلّين إليه...**»[٤].

إشارات: أ ـ تعبيرات من قبيل: «جَعَلَه... قبلةً للمصلين إليه» يؤيّد أنّ القبلة هي الكعبة لا المسجد الحرام أو مكّة أو الحرم، كما مضى التعرض إلى ذلك في البحث التفسيري، وعليه، فالعنوان الّذي انتخبه الشيخ الحرّ العاملي لهذا

---

١. وسائل الشيعة، ج٢، ص٢٩٦.

٢. المصدر السابق، ص٢٩٩.

٣. وسائل الشيعة، ج٤، ص٣٠٠.

٤. المصدر السابق، ص٢٩٨ ـ ٢٩٩.

الباب من كتابه الشريف وسائل الشيعة، يعني: عنوان: «باب أنّ القبلة هي الكعبة مع القرب وجهتها مع البُعد»[1]، غير صحيح؛ فإنّ القبلة هي البعد الّذي تقع فيه الكعبة، والذي يمتد من أعماق الارض إلى عنان السماء[2]، فقبلة سكنة المناطق البعيدة الكعبة أيضاً لا أمرا آخر من قبيل جهتها، وصدق الاستقبال عرفا سيكون أوسع بالنسبة إلى هؤلاء طبعا، يعني: الاستقبال واسع لا القبلة.

ب ـ على الرغم من إباء ظاهر الرواية الثانية التقييد من حيث حصرها حرمه سبحانه وتعالى بما ذكر فيها من القرآن والعترة والبيت الحرام والتأكيد على عدم مثيل لتلك الثلاثة، إلّا أنّ هذا النوع من الروايات مما يقبل التقييد بما ورد من أحاديث ذكر فيها حرم اخرى إضافة على تلك الثلاثة.

ج ـ المراد من المنكرين الذين اعترضوا على الامام الصادق عليه السلام بالنسبة إلى الطواف حول الكعبة، هو الزنادقة والملحدون زمان خلافة العباسيين.

### ٤ ـ إراءته سبحانه وتعالى آدم عليه السلام حدود الكعبة

قال أبوعبد الله عليه السلام: «**إنّ الله بعث جبرئيل إلى آدم فانطلق به إلى مكان البيت، وأنزل عليه غمامة فأظلت مكان البيت، فقال: يا آدم، خطّ برجلك حيث أظلّت هذه الغمامة، فإنّه سيخرج لك بيت من مهاة يكون قبلتك وقبلة عقبك من بعدك...**»[3].

**إشارة:** تشير هذه الروايات وما ماثلها من روايات إلى سابقة الكعبة الدينية والعقديّة، فتبيّن أنّها كانت محدّدة معينة زمان حضرة آدم عليه السلام، ما يوجّه ما جاء

---

١ . **وسائل الشيعة**، ج٤، ص٢٩٧.

٢ . المصدر السابق، ص٣٣٩.

٣ . **وسائل الشيعة**، ج٤، ص٢٩٩.

في القرآن الكريم من أمر حضرة إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[1]، كما أنّ حضرة إبراهيم عليه السلام حين أسكن زوجته وطفله إسماعيل عليه السلام في أرض مكّة، قال مخاطبا الله سبحانه وتعالى بما ورد في الآية الشريفة: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾[2] وحين أراد الوداع، أجاب زوجته التي كانت قلقة من تركها وابنها لوحدهما حين سألته: «لمن تتركنا»؟ بقوله: «إلى ربّ هذه البنيّة»[3]. والحال أنّ الكعبة لم تكن قد بنيت ذلك الوقت بعد على يده ويد ابنه إسماعيل عليه السلام، إذ لم يكن حينذاك إلّا طفلا رضيعا بعد.

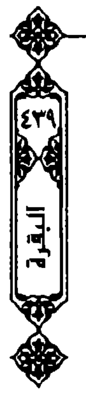
وبناء على ما سبق، فإنّ هندسة بناء الكعبة ـ يعني مكانها وحدودها ـ كانت مشخّصة محدّدة من قبل.

### ٥ ـ دعاء النبي صلى الله عليه وآله الحالي أو المقالي من أجل تغيير القبلة

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[4] أمره به؟ قال: نعم، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقلّب وجهه في السماء، فعلم الله عزّ وجلّ ما في نفسه، فقال: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾**»[5].

---

١ . سورة الحجّ، الآية ٢٦.
٢ . سورة إبراهيم، الآية ٣٧.
٣ . بحار الانوار، ج١٢، ص١١٦.
٤ . سورة البقرة، الآية ١٤٣.
٥ . وسائل الشيعة، ج٤، ص٢٩٦.




**إشارتان:** أ ـ إمّا أن يكون الرسول الاكرم ﷺ منتظرا لوعد سابق منه سبحانه وتعالى فكان يدعو دعاء حاليا، وإمّا أنّه كان يدعو بلسانه الشريف منتظرا الوحي، وعلى أيّ حال، فإنّه لمّا كان ﷺ المصداق البارز للعبد الصالح الّذي لا يصدر منه ما لم يكن بإذن سابق، ﴿**لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[1]، فإنّ جميع حاله ومقاله لا جرم من أنّه كان مسبوقا بإذنه سبحانه وتعالى ورضاه.

ب ـ على الرّغم من نزول الوحي على قلب الرسول الاكرم ﷺ المبارك، ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الامِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾[2]، إلّا أنّ تمثّل الملك يكون مع تمثّل الزمان والارض، يعني: الموجود العقلي المجرد التامّ إنّما يتمثّل في زمان معيّن، في مكان معلوم، ومن جهة معيّنة لا غير، وهذا التمثّل ذو الجهة ليس له أيّ تناف مع التجرّد العقلي، كما أنّه لا يستلزم القول بماديّته أيضاً.

## ٦ ـ قبلة النبي ﷺ، وكيفية استقباله قبل الهجرة

عن الحلبيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**سألته هل كان رسول الله ﷺ يصلّي إلى بيت المقدس؟ قال: نعم. فقلت: فكان يجعل الكعبة خلف ظهره؟ فقال: «أمّا إذا كان بمكة فلا، وأمّا إذا هاجر إلى المدينة، فنعم، حتّى حوّل إلى الكعبة»**[3].

ـ روي أنّ النبي ﷺ كان يصلّي مقابل الحجر الاسود ويستقبل الكعبة ويستقبل البيت المقدس...[4].

---

١ . سورة الانبياء، الآية ٢٧.

٢ . سورة الشعراء، الآيات ١٩٣ ـ ١٩٤.

٣ . الكافي، ج٣، ص٢٨٦.

٤ . بحارالانوار، ج٩٢، ص٢١٨.

ـ بالاسناد إلى أبي محمّد العسكري عليه السلام قال: «**لمّا كان رسول الله صلى الله عليه وآله بمكّة، أمره الله تعالى أن يتوجّه نحو البيت المقدس في صلاته، ويجعل الكعبة بينه وبينها إذا أمكن، وإذا لم يتمكّن، إستقبل البيت المقدّس كيف كان...**»[١].

إشارة: لم تكن الكعبة قبل الهجرة القبلة شرعا، والتوجّه إليها وإن كان مصداق الاستقبال لغة، إلّا أنّه لم يكن كذلك من حيث الفق والاصطلاح الشرعي، ليكون التوجّه إليه وإلى بيت المقدس من قبيل التوجّه إلى القبلتين في آن واحد، وتكون الصلاة إلى جهة القبلتين في زمان واحد، بل استقبال الكعبة ذلك الوقت لم يكن إلّا احتراما لها وتكريما معقولا ومقبولا.

وقد أظهر بعض المفسّرين ممن خسر فيوضات مصادر أهل بيت العصمة عليهم السلام، أو القليلي الانتفاع بها، أظهر عدم عثوره على نقل هذا الحديث[٢].

كما ادّعى البعض أنّ الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله لم يتوجّه أبدا إلى بيت المقدس في صلاته، وإنّما كان توجّهه إلى ذلك البيت بعد أن هاجر إلى المدينة إلى زمان نزول الامر بالتوجّه إلى الكعبة المعظمة.

وعلى أساس هذا النقل، فإنّ الكعبة ستكون هي القبلة الاولى، ثمّ بيت المقدس، ثمّ الكعبة مرّة اخرى[٣].

وهذا الكلام يمكن أن يكون ناظرا إلى وقوع النسخ مرّتين في مسألة القبلة، فمن الكعبة أوّلا إلى بيت المقدس، ومنه إلى الكعبة مرّة اخرى.

وقد تعرّض الاستاذ العلامة الشعراني قدس سره في واحدة من تعليقاته على كتاب الوافي الشريف إلى رد الكلام السابق، فذكر أن الروايات وكذا الاقوال الكثيرة،

---

١. **بحارالانوار**، ج٨١، ص٥٩.

٢. **تفسير التحرير والتنوير**، ج١، ص١٢.

٣. **الجامع لأحكام القرآن**، مج١، ج٢، ص١٤٠ ـ ١٤١. راجع أيضاً: **التبيان**، ج٢، ص١٧.





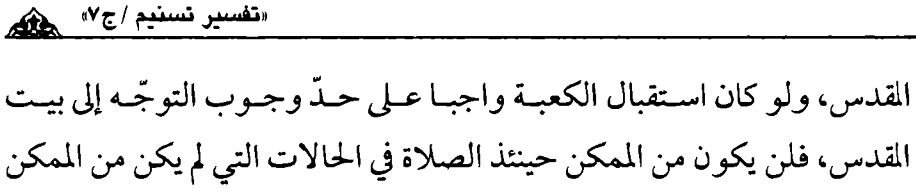
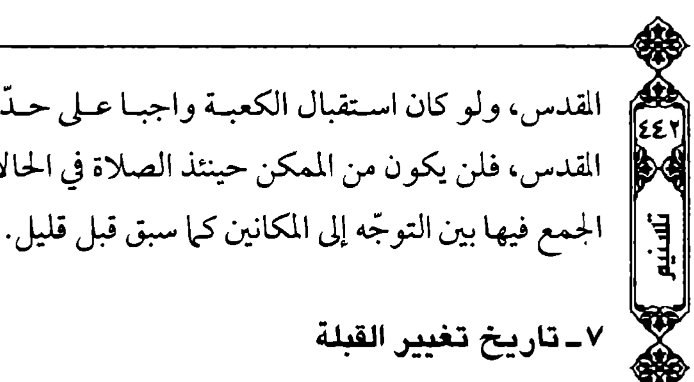
وردت في أنّ الرسول الاكرم ﷺ كان يتوجّه في صلاته قبل الهجرة إلى بيت المقدس.

والرأي الآخر في المقام، هو أن تكون قبلة المسلمين في ذلك المقطع هو الكعبة بالاضافة إلى بيت المقدس.

وقد ذكر الاستاذ العلامة الشعراني ﷺ في هذا المجال، أنّ بيت المقدس هو القبلة الرسميّة للمسلمين في ذلك المقطع الزماني المذكور، وأمّا توجّه الرسول الاكرم ﷺ إلى الكعبة في ذلك المقطع، فإنّما كان تشريفاً وتأدّبا؛ إذ لم يكن بعض صلواته ﷺ ذلك الزمان إلى الكعبة، فقد كان سفره إلى الطائف في ذلك الوقت، ولمّا كانت الطائف شرق مكّة، فمن غير الممكن أن يكون ﷺ قد جمع بين التوجّه إلى الكعبة وبيت المقدس في الوقت الواحد، وهكذا الامر بالنسبة إلى الفترة الزمنيّة التي عاشها ﷺ أيّام الحصار في شعب أبي طالب، وهكذا الامر أيضاً بالنسبة إلى المسلمين الذين هاجروا إلى حبشة؛ إذ من غير الممكن أيضاً أن يكونوا قد جمعوا بين التوجّه إلى الكعبة وبيت المقدس في الوقت نفسه، وإنّما كان ميسورا لمن يقع جنوب مكّة والكعبة، وأمّا بالنسبة إلى من لم يكن كذلك، كمن كان شرق الكعبة أو غربها أو شمالها، فلا.

وأمّا توهّم أن تكون القبلة الكعبة وبيت المقدس في الوقت نفسه، وأنّ الواجب هو التوجّه إلى كلا المكانين، فإنّه يستلزم أمرا غير تامّ، وهو أن يكون الرسول الاكرم ﷺ قد ترك الصلاة زمان سفره إلى الطائف والعياذ بالله، وهكذا بالنسبة إلى المسلمين جميعا زمان الحصار في شعب أبي طالب، وزمان الهجرة إلى الحبشة، أو أنّهم كانوا يصلّون إلى غير القبلة، أو أن يكون هناك فرق بين المختار والمضطر والسفر والحضر بالنسبة إلى القبلة حال الصلاة.

والحاصل: يجب الاعتراف بأنّ الكعبة لم تكن القبلة إلى زمان نزول الامر بالتوجّه اليها بعد الهجرة؛ إذ المتيقّن أنّ القبلة ذلك الزمان إنّما كانت بيت

المقدس، ولو كان استقبال الكعبة واجبا على حدّ وجوب التوجّه إلى بيت المقدس، فلن يكون من الممكن حينئذ الصلاة في الحالات التي لم يكن من الممكن الجمع فيها بين التوجّه إلى المكانين كما سبق قبل قليل.

## ٧ـ تاريخ تغيير القبلة

عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قلت له: متى صرف رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة؟ قال: بعد رجوعه من بدر**»[1].

ـ عن معاوية بن عمّار، قال: «**قلت لأبي عبد الله عليه السلام: متى صرف رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة؟ قال: «بعد رجوعه من بدر، وكان يصلّي في المدينة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً، ثمّ أعيد إلي الكعبة**»[2].

ـ عن جعفر بن محمّد عن أبيه: «**أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله استقبل بيت المقدس تسعة (سبعة) عشر شهراً، ثمّ صرف إلى الكعبة وهو في العصر**»[3].

ـ محمّد بن محمّد بن النعمان المفيد في مسارّ الشيعة قال: «في النصف من رجب سنة اثنتين من الهجرة حوّلت القبلة من البيت المقدس إلى الكعبة، وكان الناس في صلاة العصر، فتحوّلوا فيها إلى البيت الحرام»[4].

**إشارتان: أ**ـ وقعت معركة بدر في شهر رمضان المبارك من السنة الثانية من الهجرة، وعليه، فالمراد من قوله عليه السلام: «بعد رجوعه من بدر» بعد شهر رمضان المبارك، فإنّ ذلك الوقت سيكون تسعة عشر شهرا بعد الهجرة، وبناء على ذلك، فمن الممكن أن يكون هناك خطأ في قراءة «سبعة» بدلا عن «تسعة». والسبب هو اختلاف النسخ واختلاف الروايات بالتبع.

---

١ . **وسائل الشيعة**، ج٤، ص٢٩٧.
٢ . المصدر السابق، ص٢٩٨.
٣ . المصدر السابق، ص٣٠٣.
٤ . المصدر السابق، ص٣٠٢.

كما أنّ تصريح الشيخ المفيد بالنصف من شهر رجب من السنة الثانية من الهجرة، إلى جانب تأكيد رواية: «بعد رجوعه من بدر»، لا تتناسب مع الاحتمال المذكور.

ب ـ الحالة المذكورة وقعت في صلاة ظهر الرسول الاكرم ﷺ، ثمّ في صلاة عصر مصلّي مسجد آخر.

**تنويه:** يجب الالتفات إلى أنّ عنوان الاعادة الوارد في قوله عليه السلام: «أُعيد إلى الكعبة»، لا يعتبر دليلا على كون الكعبة قبلة قبل بيت المقدس؛ فإنّ العنوان المزبور في هذا المورد إنّما هو بمعنى التحويل والصَرْف، إلّا أن يكون بلحاظ كون الكعبة القبلة الاولى للانبياء السابقين عليهم السلام.

## ٨ ـ كيفية تغيير القبلة في الصلاة

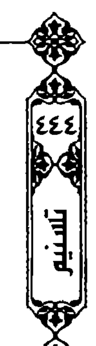
عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«أنّ رسول الله ﷺ كان في أوّل مبعثه يصلّي إلى بيت المقدس جميع أيام مقامه بمكة، وبعد هجرته إلى المدينة بأشهر، فعيّرته اليهود وقالوا: إنّك تابع لقبلتنا. فأحزنه ذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ وهو يقلّب وجهه في السماء وينتظر الامر: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾»**[1].

عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام في حديث قال: **«قلت له: إنّ الله أمره أن يصلّي إلى بيت المقدس؟ قال: نعم، الا ترى أنّ الله يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ الآية[2]. ثمّ قال: إنّ بني عبد الاشهل أتوهم وهم في الصلاة قد صلّوا ركعتين إلى بيت المقدس، فقيل لهم: إنّ نبيكم**

---

١ . وسائل الشيعة، ج٤، ص٣٠١.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٤٣.




صرف إلى الكعبة، فتحوّل النساء مكان الرجال والرّجال مكان النساء، وجعلوا الركعتين الباقيتين إلى الكعبة، فصلّوا صلاة واحدة إلى قبلتين، فلذلك سمّي مسجدهم مسجد القبلتين»[١].

علي بن إبراهيم بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: «تحوّلت القبلة إلى الكعبة بعد ما صلّى النبي صلى الله عليه وآله بمكّة ثلاث عشرة سنة إلى بيت المقدس، وبعد مهاجرته إلى المدينة صلّى إلي بيت المقدس سبعة أشهر»[٢]. قال: «ثمّ وجّهه الله إلى الكعبة، وذلك أنّ اليهود كانوا يعيّرون رسول الله صلى الله عليه وآله ويقولون له: أنت تابع لنا تصلّي إلى قبلتنا، فاغتمّ رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك غمّاً شديداً، وخرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السّماء ينتظر من الله تعالى في ذلك أمراً، فلمّا أصبح وحضر وقت صلاة الظهر، كان في مسجد بني سالم قد صلّى من الظهر ركعتين، فنزل عليه جبرائيل عليه السلام فأخذ بعضديه وحوّله إلى الكعبة، و أنزل عليه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وكان صلّى ركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة، فقالت اليهود والسفهاء: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾[٣]»[٤].

ـ «صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيت المقدس بعد النبوّة ثلاثة عشر سنة بمكة

---

١. وسائل الشيعة، ج٤، ص٢٩٧ ـ ٢٩٨.

٢. ذكر في مجال تحديد الفترة الزمنية بين هجرة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله ونزول حكم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة عدة آراء، منها: ٩ أشهر، ١٠ أشهر، ١٣ شهرا، ١٦ شهرا، ١٧ شهرا (مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤١٣) و١٨ شهرا (بحارالانوار، ج١٩، ص١٩٣). كما اختلف في يوم وشهر ذلك، فذكر أنّه كان الثلاثاء في النصف من شهر شعبان، والاثنين في النصف من شهر رجب (بحارالانوار، ج١٩، ص١٩٣).

٣. سورة البقرة، الآية ١٤٢.

٤. مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤١٣. وقد جاء المتن المذكور مع بعض التقديم والتأخير والتفاوت في بعض الالفاظ والعبارات وبدون استناد إلى المعصوم عليه السلام في تفسير القمّي (ج١، ص٦٣).

وتسعة عشر شهراً بالمدينة، ثمّ عيّرته اليهود فقالوا له: إنّك تابع لقبلتنا. فاغتمّ لذلك غمّاً شديداً، فلمّا كان في بعض الليل خرج عليه السلام يقلّب وجهه في آفاق السماء، فلمّا أصبح صلّى الغداة، فلمّا صلّى من الظهر ركعتين جاء جبرئيل عليه السلام فقال له: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾، ثمّ أخذ بيد النبيّ صلى الله عليه وآله فحوّل وجهه إلى الكعبة وحوّل من خلفه وجوههم، حتّى قام الرجال مقام النساء والنساء مقام الرجال. فكان أوّل صلاته إلى بيت المقدس وآخرها إلى الكعبة، وبلغ الخبر مسجداً بالمدينة وقد صلّى أهله من العصر ركعتين، فحوّلوا نحو الكعبة (القبلة)، وكان أوّل صلاتهم إلى بيت المقدس وآخرها إلى الكعبة، فسمّي ذلك المسجد مسجد القبلتين...»[١].

ـ عن عليّ بن موسى، عن أبيه، عن آبائه، عن عليّ عليه السلام قال: «**لمّا صرفت القبلة أتى رجل قوماً في الصلاة، فقال: إنّ القبلة قد صرفت، وتحوّلوا وهم ركوع**»[٢].

ـ عن العسكري عليه السلام في احتجاج النبيّ صلى الله عليه وآله على المشركين، قال: «**إنّا عباد الله مخلوقون مربوبون، نأتمر له فيما أمرنا وننزجر له عمّا زجرنا ـ إلى أن قال: فلمّا أمرنا أن نعبده بالتوجه إلى الكعبة، أطعناه، ثمّ أمرنا بعبادته بالتوجّه نحوها في سائر البلدان التي تكون بها، فأطعناه، فلم نخرج في شيء من ذلك من اتّباع أمره**»[٣].

**إشارات: أ** ـ يقع بيت المقدس في شمال غرب المدينة، وتقع مكّة في جنوبها،

---

١ . **وسائل الشيعة**، ج٤، ص٣٠١.
٢ . المصدر السابق، ص٣٠٢.
٣ . **وسائل الشيعة**، ج٤، ص٣٠٢.

وعليه، يكون الرسول الاكرم ﷺ ـ الّذي أمر بتغيير القبلة في حال إقامته للصلاة جماعة ـ قد أدار وجهه إلى المأمومين واتّخذ مكانه أمامهم، ثم غيّر الرجال أماكنهم بعد أن صاروا خلف النساء، فوقفوا أمامهم، ثمّ أتى النساء فصاروا خلف الرجال باتّجاه القبلة، فصار الجميع باتّجاه القبلة الجديدة.

وقد أشار الاستاذ العلامة الشعراني ﵀ في إحدى تعليقاته على كتاب الوافي، إلى أنّ تغيير أماكن الرجال والنساء قد يكون معناه هو أنّه بعد أن غيّر الرسول الاكرم ﷺ توجّهه من بيت المقدس إلى الكعبة، فقد صار النساء أمام الرجال قهرا فبقوا على تلك الحالة لا أنّهم غيّروا أماكنهم، وبهذا يتخلّص من إشكال بطلان الصلاة بالتحّرك، ولا يضطر إلى التخلص منه بالقول بأنّ الحركة للضرورة لا تبطل الصلاة.

والوجه المذكور إنّما يكون محتملا من جهة أنّ الفقهاء جميعهم ليسوا متّفقين على شرطية تقدّم الرجل على المرأة حال الصلاة جماعة؛ إذ ذهب بعضهم إلى أنّه جائز وإن كان مع الكراهة.

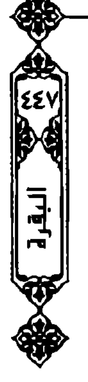
ومن الجدير بالذكر أنّ الروايات المتقدّمة لم يكن فيها إشارة إلى تغيير الرسول الاكرم ﷺ لمكانه، بل لم يتعرّض فيها إلى توجّهه ﷺ إلى الكعبة بعد أن كان متوجّها نحو بيت المقدس، وعليه:

أوّلا: عندما غيّر الرسول الاكرم ﷺ قبلته فتوجّه إلى الكعبة، صار مواجها للمأمومين.

ثانيا: ومع توجّه المأمومين إلى الكعبة، يكون الرسول الاكرم ﷺ خلف المأمومين لا أمامهم، إلّا أن يكون المأمومون قد قاموا بعملين:

أوّلها بالنسبة إلى الامام، والثاني بالنسبة إلى بعضهم البعض، أي: تقدّم الرجال على النساء (بناء على وجوب التقدم).

ولو كان الرسول الاكرم ﷺ قد تحرّك، فلن يكون حاجة حينئذ بالنسبة إلى




حركة المأمومين بالنسبة إلى الامام، وبناء على هذا الاحتمال، لن يكون هناك مجال للبحث في التقدّم والتأخر.

ب ـ لمّا كان تحوّل المأمومين في توجّههم من القبلة القديمة إلى القبلة الجديدة مستلزما للحركة، فإنّه يمكن القول بأنّ من أمر بالاستقرار والطمأنينة حال الصلاة (وهو الله سبحانه وتعالى) هو نفسه الّذي جوّز الحركة أثناء الصلاة بإصداره للامر بالتوجّه إلى الكعبة أثناء الصلاة، فيكون الامر في المقام من قبيل الموارد الاخرى التي جوّز فيها الشارع الحركة أثناء الصلاة، من قبيل من يريد الاقتداء بالامام الراكع مع وجود الفاصل بينه وبين الامام، بحيث لو اراد أن يتحرّك إلى الصفوف ليبتدئ الاقتداء من هناك لما أدرك الامام في ركوعه، فيجوز لهذا الشخص الائتمام من مكانه، فيركع، ثمّ يتحرّك حال ركوعه إلى أن يصل إلى الصف. كما يمكن اعتبار الصلاة متحرّكا حال النافلة من جملة الموارد المستثناة في ما نحن فيه أيضاً.

ج ـ لقد رأى الرسول الاكرم ﷺ الكعبة بعينه الباطنية، ولما كان هذا النحو من الشهود معصوما لا يقبل الخطأ وحجّة شرعا، فقد توجّه ﷺ إلى الكعبة بذلك الشهود، وأمّا المأمومون، فقد كانت قبلتهم اعتمادا على تشخيصه ﷺ.

د ـ كما جاء في الروايات عن أهل بيت العصمة عليهم السلام أيضاً، فقد كانت صلاة صبح يوم تغيير القبلة إلى بيت المقدس، كما أنّ من صلّى جماعة خلفه ﷺ في صلاة الظهر التي نزل فيها الامر بالتوجّه إلى الكعبة، قد صلّوا الركعتين الاخيرتين من تلك الصلاة بالاضافة إلى جميع ركعات صلاة العصر إلى الكعبة، كما أنّ الجماعة الاخرى التي كانت قائمة في مسجد آخر قد صلّت الركعتين الاخيرتين من صلاة العصر إلى الكعبة أيضاً.

وهذا الّذي جاء في الروايات السابقة تؤيده مجموعة أخرى من الروايات،




وهي الروايات التي ورد فيها عبارة اليهود التي نقلها القرآن الكريم بقوله: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾[1] والتي اعتبرت ناظرة إلى مسألة تغيير القبلة، بتقريب أنّ اليهود كانوا يقولون: آمنوا بما صدر عن الرسول أوّل النهار (وهو توجّهه إلى بيت المقدس)، واكفروا بما صدر عنه آخره (هو توجّهه إلى الكعبة)[2].

بعض المفسرين طبعا يذهب إلى أنّ الآية المذكورة لا علاقة لها بما نحن فيه من مسألة تغيير القبلة وموقف اليهود من هذه المسألة، بل هي مؤامرة حاكها المشركون المنافقون، حيث كانوا يأتون صباحا مع المسلمين إلى الرسول الاكرم ﷺ مؤمنين، ويرجعون العصر وهم كفّار، مدّعين أنّهم درسوا دين المسلمين وعقائدهم فلم يروها تستحق الايمان فرجعوا عن الاسلام، وقد كان الهدف من وراء ذلك إثارة حالة التشكيك والتردّد في نفوس الاخرين: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3].

**تنويه:** بعد أن ذهب الآلوسي إلى أنّ السرّ في عدم تقييده سبحانه وتعالى التولية في الصلاة؛ لأنّ المطلوب لم يكن سوى ذلك فأغنى عن الذكر، ذكر أنّ البعض قد ذكر أنّه لمّا كانت الآية قد نزلت حال الصلاة، فقد كان التلبّس بالصلاة مغنيا عن ذكرها، ثمّ تعرّض بعد ذلك إلى ما استدل به هذا القائل تبعا

---

١ . سورة آل عمران، الآيه ٧٣.

٢ . وقد جاء في تفسير القمي في ذيل الآية المذكورة: قال: «نزلت في قوم من اليهود قالوا: آمنّا بالّذي جاء به محمّد بالغداة وكفرنا به بالعشي». وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: «أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لما قدم المدينة وهو يصلّي نحو بيت المقدس أعجب اليهود من ذلك، فلمّا صرفه الله عن بيت المقدس إلى بيت الحرام، وجدت [أي حزنت]، وكان صرف القبلة صلاة الظهر، فقالوا: صلّى محمّد الغداة واستقبل قبلتنا فآمنوا بالّذي أنزل على محمّد وجه النّهار واكفروا آخره، يعنون القبلة حين استقبل رسول الله صلّى الله عليه وآله المسجد الحرام، لعلّهم يرجعون إلى قبلتنا» (ج١، ص١٠٥).

٣ . **مجمع البيان**، ج١ ـ ٢، ص٧٧٣ ـ ٧٧٤.



للقاضي الّذي تبع فيه بدوره غيره، من أنّه ﷺ قدم المدينة فصلّى نحو بيت المقدس ستّة عشر شهرا، ثمّ وجّه إلى الكعبة في رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين، وقد صلّى بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر فتحوّل في الصلاة واستقبل الميزاب، وتبادل الرجال والنساء صفوفهم، فسمّي المسجد مسجد القبلتين.

ثم تعرّض بعد ذلك إلى ردّ هذا الاستدلال، ذاكرا ما ردّ به السيوطي من أنّه تحريف للحديث، فإنّ قصة بني سلمة لم يكن فيها النبيّ ﷺ إماما ولا هو الّذي تحوّل في الصلاة، بل القصة أنّه بعد نزول الآية مرّ شخص من الاشخاص على بني سلمة، فرآهم يصلون الفجر جماعة إلى بيت المقدس، فأخبرهم بتغيير القبلة وهم ركوع، فغيّروا توجّههم وهم في هذه الحال إلى الكعبة...[1].

وأمّا بالنسبة إلينا، فإننا يكفينا ما ورد عن طريق أهل بيت العصمة عليهم السلام في هذا المجال كما مرّ بيانه.

هـ ـ ذكر في الرواية الاولى من الروايات السابقة أنّ الاصل في جعل بيت المقدس قبلة هو أمره سبحانه وتعالى، واستشهد على ذلك بالقرآن الكريم.

ويجب الالتفات إلى أنّ ما جاء في هذه الرواية ليس معناه قرآنية المعنى المذكور لكي يتمسّك به لوقوع النسخ في القرآن، بل الصحيح ـ كما مر معناه ـ أنّ الحكم إنّما ثبت عن طريق سنّة الرسول الاكرم ﷺ، السنّة التي تقوم بدورها على الوحي الالهي.

و ـ الصلاة إلى قبلتين من جملة الامور التي افتخر بها أمير المؤمنين عليه السلام في مقابل الناكثين والمارقين والقاسطين، فقد جاء عنه عليه السلام قوله:

---

١ . روح المعاني، ج٢، ص٩. بتصرف.

«أنا صاحب القبلتين»[١].

ولم يكن هذا ممكنا طبعا في مقابل أصحاب السقيفة الذين كانوا قد صلّوا القبلتين ظاهرا بدورهم.

كما ورد أنّه من جملة ما افتخر به الامام المجتبى عليه السلام في مقابل معاوية، فقد ذكر عليه السلام أنّ ذلك من جملة فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، قائلا له: «وأنت يا معاوية بالاولى كافر، وبالاخرى ناكث»[٢].

### ٩ ـ وجه تشبيه الامام المعصوم بالكعبة

عن أبي الحسن موسى، عن أبيه عليهما السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: **«إنّما مثلك في الامّة مثل الكعبة التي نصبها الله علماً، وإنّما تؤتى من كلّ فجّ عميق، ونأي سحيق، ولا تأتي...»**[٣].

**إشارتان:** أ ـ كما أنّ الكعبة مأتيّة لا آتية، ولا تأتي أبدا إلى شخص من الاشخاص بل يجب الحضور عندها والذهاب اليها، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام كالكعبة علامة يجب الحضور عندها من كلّ زاوية من زوايا الدنيا، وأمّا هو عليه السلام، فلن يذهب ليحضر عند أحد.

ب ـ كما أنّ التوجّه إلى الكعبة مظهر من مظاهر احضار المعقول في إقليم المثال، فإنَ التوجّه إلى الانسان المعصوم الكامل عليه السلام من هذا القبيل كما ورد في بعض أدعية افتتاح الصلاة، وإلّا، فإنّه يقتضي أنّ غيره سبحانه وتعالى لا يكون موردا للتوجّه الاصيل أبدا.

* * *

---

١. بحارالانوار، ج٢٥، ص٣٣.
٢. المصدر السابق، ج٤٤، ص٧٤.
٣. وسائل الشيعة، ج٤، ص٣٠٢.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

## التفسير المختار

قبلة كلّ ملّة شعار كيان دين تلك الملّة، وقبول ذلك الشعار بمنزلة قبول أصل الدين، وهذا ما يفسر أنّ أهل الكتاب على الرغم من وقوفهم على حقّانية قبلة المسلمين، وعلى الرغم من المعجزات الكثيرة التي رأوها، فإنّهم لم يقبلوا بتلك القبلة، وهكذا بالنسبة إلى نبيّ الاسلام ﷺ في ما يرجع إلى قبلة أولئك وشريعتهم المنسوخة، فإنّه ﷺ لن يتبعهم في ذلك.

واليهود والنصارى بعضهما لا يقبل قبلة بعض؛ إذ لا يعترف كلّ منهما إلّا بنفسه حقّا دون غيره، وأمّا غيرهم، فهو باطل لا حق فيه بنظر هؤلاء.

بعد ظهور الحقّ والعدل، يكون استقبال بيت المقدس هوى من الاهواء لا غير، كما أنّ من يستقبله بعد أن علم الحقّ ظالم من الظالمين.

## التفسير

### تناسب الآيات

تقدّم قبل ذلك قول السفهاء بالنسبة إلى تحويل القبلة، كما تقدّم اعتراض




الكثير من اليهود على تحويل القبلة على الرغم من علمهم بحقّانية ذلك التحويل، فكانوا يمكرون ويتربّصون بالمسلمين ويحيكون لهم الفتن، كما أنّ توجّه المسلمين السابق إلى بيت المقدس لم يفلح في استمالة اليهود إلى الاسلام، ولا في تحطيم تحجّرهم الّذي كانوا عليه.

وأمّا في الآية الّتي هي محلّ البحث، فيتعرّض القرآن الكريم إلى علّة ذلك الانكار وذلك الموقف المتحجر الّذي كان عليه اليهود، وهو العناد والمكابرة، لا خفاء الحقّ عليهم وعدم ظهوره لهم، ولا وجود أيّة شبهة يجب إزالتها من البين[١].

ومن جهة أخرى، فإنّ صدر الآية السابقة على الآية الّتي هي محلّ البحث، كان يثير عند الرسول الاكرم ﷺ الامل بالنسبة إلى أهل الكتاب وفي قبولهم بالحقّ، كما أنّ ذيلها قطع ذلك، لتأتي الآية الّتي هي محلّ البحث لتصرّح بما كان قد جاء في ذيل الآية الشريفة السابقة، ولكي تهدّئ قلب الرسول الاكرم ﷺ وتخلّصه من ضيق التكذيب وألم انتظار هداية تلك الطائفة، لتخبره ﷺ بأنّه لن يكون بين الاسلام واليهود والنصارى سلام ولا تقبّل أبدا، فهم لم يقبلوا الحقّ ولم يرضخوا له، ولم يقبلوا غير العداء له سبيلا[٢].

ولكي يقطع الله سبحانه وتعالى أيّ انتظار له ﷺ، فقد استعمل لام القسم في المقام، مؤكّدا على عدم تقبّل هؤلاء للحق مهما رأوا من آية. وعليه، فالآية الّتي هي محلّ البحث قد عطفت على الجملة المذكورة ذيل الآية السابقة، والمستفاد من مجموع الجملتين، هو أنّ الكثير من أهل الكتاب يعلمون الحقّ ولا يعملون به[٣].

❋ ❋ ❋

---

١. جامع البيان، ج٢، ص١٥ ـ ١٦. التبيان، ج٢، ص١٩ ـ ٢٠. مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤٢٢. الميزان، ج١، ص٣٢٩. تفسير المنار، ج٢، ص٢٠.

٢. نظم الدرر، ج١، ص٢٦٨. التفسير المنير، ج٢، ص٢١.

٣. تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٣٥.

## القبلة شعار كيان الدين

قبلة كلّ ملّة شعار كيان دين تلك الملّة، وقبول ذلك الشعار بمنزلة قبول أصل الدين على الرغم من عدم التلازم في البين، ومن هنا، نرى أنّ اليهود والمسيحيين على الرغم من أنّهم كانوا يوافقون المسلمين في بعض المسائل الجزئية التي جاء بها الاسلام، إلّا أنّهم وقفوا موقفا رافضا بالنسبة إلى القبلة، مع علمهم المسبق بحقّانية ما عليه المسلمون في هذا المجال، بعد رجوع ذلك إلى أصل الاسلام وقبوله.

لقد كان لكلّ واحدٍ من اليهود والنصارى قبلته الخاصّة المنسوخة، إلّا أنّ ما كانوا عليه من عناد وهمجية لم يكن ليسمح لهم باتباع الحقّ. كما أنّ رسول الاسلام ﷺ مهما يأتيهم به من معجزة فإنّهم لن يقبلوا به ولن يرضخوا لما جاء به من الحقّ: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**﴾، الرسول الاكرم ﷺ لن يتّبع قبلة هؤلاء وقبلتهم المنسوخة طبعا: ﴿**وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ**﴾.

العلامة على كيان الدين هو وجود القبلة كما أشرنا، فكما أنّ المسلمين معروفون بـ «أهل القرآن»، فإنّهم معروفون أيضاً بـ «أهل القبلة» أيضاً، وإن حاول بعض المعاندين أن ينسبهم إلى شخص حضرة الرسول ﷺ لا إلى شخصيّته الحقوقية والنبَويّة، فسمّاهم بالمحمديين في قبال الموسويين والعيسويين مثلا.

وبسبب هذه الاهمية الخاصّة التي أولاها الله سبحانه وتعالى للمسألة بحيث اعتبرها امتحانا واختبارا كبيرا للآخرين كما مضى في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ**﴾[1]، نرى أنّ القرآن الكريم يتعرّض للمسألة خمس

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٤٣.

مرات بدون فاصلة طويلة بين المرّة والاخرى، بحيث لا يوازي ذلك مسألة من المسائل الاخرى في القرآن.

إنّ استقبال الكعبة على الرغم من ذكره في عداد سائر شروط صحّة الصلاة، إلّا أنّه بلحاظ ما ذكرناه من نكتة مهمة يعتبر من جملة الامور الخاصّة التي لها حسابها الخاصّ الّذي تختلف فيه عن سائر شروط الصلاة وأجزائها.

وفي ما يرجع إلى الاخبار الالهي عن عدم اتّباع قبلة المسلمين من قبل أهل الكتاب، على الرغم من أنّهم مأمورون بذلك، فإنّه يجب الالتفات إلى أنّ علمه سبحانه وتعالى بإطاعة الافراد أو عصيانهم لا يمنع أبدا من تكليفهم؛ من جهة أنّ الانسان الصالح إنّما يطيع بإرادته واختياره، كما أنّ الشخص الطالح يعصي بإرادته واختياره أيضاً، وأمّا علمه سبحانه وتعالى بإطاعة السعيد وتمرّد الشقي، فإنّه مرافق للعلم بمبادئ كلّ واحدٍ منهما الاختيارية، وللاطلاع على أنّ كلّ واحد منهما يمكنه باختياره أن يغيّر من مسير حياته إلى جهة أخرى غير التي هو عليها.

بناء على ما سبق، فإنّ سبق علمه سبحانه وتعالى لن يكون باعثا على ضرورة المعلوم وتحقّق الجبرِ الّذي تقول به الاشاعرة، كما هو الحال معه سبحانه وتعالى؛ حيث إنه عالم بوقوع ما سيصدر منه من عمل، إلّا أنّه لا يمكن القول أبدا بأنّ عمله تعالى صار ضروري الوقوع بذلك العلم، وإلّا، لزم جهله تعالى بما علمه سابقا، وأنه مجبور عليه، وبهذا، يتبيّن بطلان توهّم جواز التكليف بما لا يطاق، الّذي يقول به أصحاب الفخر الرازي استنادا إلى الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، وخاصّة عبارة: ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾[1].

---

١ . التفسير الكبير، ج٤، ص١٢٥.

## الجهالة العملية لللوجي أهل الكتاب

يرتفع الجهل العلميّ بالبرهان أو الوجدان (الشهود) أو النقل المعتبر الموثوق، وأمّا الجهالة العمليّة، فإنّها إلّا ترتفع إلا بالعقل العملي الّذي بيده زمام العزم وقيادة القرار والميول والبواعث.

وما سبق ولحق مضمون الآية الّتي هي محلّ البحث، هو مسألة علماء اليهود والنصارى الذين لم يكن عندهم أيّ جهل علمي في ما يرجع إلى حقّانية قبلة المسلمين؛ فقد جاء في الآية السابقة قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، ومضمون الامرين الاخبار عن اطّلاع علماء أهل الكتاب على رسالة الرسول الاكرم ﷺ وحقّانية قبلته، وعليه، فعلى الرغم من انكشاف الحقّ عند هؤلاء، فإنّهم لا يرضون إلّا باتباع الباطل وترك الحقّ، فعلم من هذا القبيل ليس علما نافعا، وقد ورد في الادعية الاستعاذة من هكذا علم لا ينفع[1]، وقد كان المؤمنون يجدّون في سبيل ألّا يكون سمعهم إلّا وقفا على العلم النافع[2].

والمغزى: أنّ العلم مقتض للامتثال وليس علة تامّة له، ومن هنا، نرى أنّه لا يكون له أيّ أثر بمجرد اصطدامه بالمانع.

ولأجل إتمام المطلب وبيان أنّ العلماء غير العاملين ضالّون ومضلّون، لم يكتف في الآية الّتي هي محلّ البحث بالضمير، بل استفاد القرآن الكريم في المقام من الاسم الظاهر المشابه للاسم الظاهر الّذي استفيد منه في الآية السابقة.

ليست الجهالة العملية والجهل العلمي من سنخ واحد، ما يفسّر عدم

---

١ . بحار الانوار، ج٨٣، ص١٨.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

ارتفاعها بأيّ دليل مقتض، أعمّ من أن يكون ذلك الدليل شهودا أو برهانا عقليا أو نقلا موثّقا، ولهذا، قال سبحانه وتعالى: ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾.

من المعلوم ـ طبعا ـ أنّ الآية الالهية إذا لم تكن نافعة في علاج داء التحجّر والركود العملي العُضالِ، فإنّه لن يكون للبرهان العقلي سبيل إلى ذلك فضلا عن الدليل النقلي. ومن هنا، يعلم أنّ العنصر ـ المحوريّ للآيات السابقة والحالية والمستقبلية هو خصوص اللجوجين من أهل الكتاب لا جميعهم؛ إذ إنّ بعض أولئك قد عرفوا الحقّ واتبعوه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أهل الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[1].

تنويه: المقصود من ﴿كلّ آيَةٍ﴾ هو العموم النسبي لا النفسي، من قبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿مِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ﴾[2]، يعني كلّ آية ومعجزة يقترحونها وتكون ممضاةً من قبله سبحانه وتعالى، أو: كلّ آية ومعجزة تتجلّى ابتداء منه سبحانه وتعالى بدون اقتراحهم، فإنهم سوف لن يتّبعوا قبلة الرسول الاكرم ﷺ؛ فإنّ المرض المزمن الّذي ابتلوا به هو العناد، والتأثير السلبي للّجاج لا يقف عند حدّ سلب العلم لتأثيره على نفوس هؤلاء، بل يتعدّى ذلك إلى إقفال أبواب قلوبهم، كما جاء في الآية الشريفة: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4]. وقلوب من هذا النوع مقفلة ران عليها، ستكون محرومة من أيّ نوع من أنواع التدبّر، وستكون أبعد ما يكون من الاتعاظ والتقرّب.

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١١٣.
٢ . سورة الاعراف، الآية ٥٧.
٣ . سورة محمّد، الآية ٢٤.
٤ . سورة المطفّفين، الآية ١٤.




## سرّ إسناد القبلة إلى الرسول الاكرم ﷺ

سرّ إسناد القبلة إلى الرسول الاكرم ﷺ في قوله تعالى: ﴿... قِبْلَتَكَ﴾، هو أنّه ﷺ كان ينتظر هكذا قبلة بفارغ الصبر، مع الاخذ بنظر الاعتبار ـ نَعَمْ ـ إنّ محصول قرب الفرائض والنوافل من قبله ﷺ هو ظهور الرضا الالهي في لباس رضاه.

وأمّا السرّ في وحدة قبلة اليهود والنصارى في قوله تعالى: ﴿قِبْلَتَهُمْ﴾ مع أنّها مختلفة بينهما، فهو أنّ القبلتين باطلتان، واشتراكهما في هذا الجامع (البطلان) هو الّذي أدّى إلى جمعهما في قبلة واحدة.

هذا مع غضّ النظر عما جاء في بعض النقولات من أنّ حضرة المسيح عليه السلام كان يصلّي إلى بيت المقدس، وأنّ انتخاب الشرق قبلة بدعة ابتدعها العلماء المسيحيّون بعده عليه السلام[1]، فالقبلة الاصلية للطائفتين كانت واحدة.

## الانشاء بلباس الاخبار

تعبّر جملة: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ عن بيان الفعل الخارجي والسيرة العملية للرسول الاكرم ﷺ، كما أنّها جملة خبرية ألقيت بداعي الانشاء، بمعنى: أنّك لست تابعا لقبلتهم ولن تكون كذلك أيضاً، وبعبارة اخرى: يجب ألّا تتبّع هؤلاء في قبلهم.

وإضافة على ذكر هذا المطلب بصورة صريحة في الجملة التالية بعنوان النهي والتحريم: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ﴾، فإنّ جملة ﴿مَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ تختلف اختلافا جوهريا من جهة

---

١ . روح المعاني، ج٢، ص١٦ ـ ١٧.




السياق الداخلي ومن جهة السياق الخارجي مع جملة: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾.

وما يخاطب به الله سبحانه وتعالى في هذا القسم من الآية الرسول الاكرم ﷺ هو نفس ما أمره به خطابا للوثنيين تقريبا، من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1]، ويقول الله سبحانه وتعالى في أهل الكتاب: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾. أصل عمومية الدعوة محفوظ ـ نَعَمْ ـ حتّى في مثل هذه الموارد، كما أنّ التكليف والمسؤولية الفقهية والحقوقية تجاه هؤلاء مشخّصة معروفة، إضافة على انحفاظ الثمرة الكلامية في المقام، من استحقاق المتمرّدين للعذاب الاليم.

ومن اطلاق جملة: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ...﴾، يستفاد أبديّة كون الكعبة القبلة، وأنّه لا رجوع إلى التوجّه إلى بيت المقدس؛ لدوران الامر في القبلة بين الكعبة وبيت المقدس، ومع النفي الابدي لبيت المقدس، لا يبقى في البين إلّا الكعبة قبلة أبدية.

ومع غضّ النّظر عن تأييد أبدية هذا الحكم، فإنّ انقطاع رجاء أهل الكتاب من عودة القبلة إلى بيت المقدس أمر مطروح أيضاً، ومن الجهة الاخرى، فهناك أيضاً قطع انتظار أيّة مداهنة من جانب منحرف في التفكير.

## تعصب أهل الكتاب بالنسبة إلى القبلة

لا يقبل اليهود والنصارى بعضهما قبلة البعض الآخر، فلا يعترف من يصلّي

---

١ . سورة الكافرون، الآيات ١ ـ ٦.

إلى القدس أو الغرب بكون الشرق قبلة، كما أنّ من يصلّي إلى الشرق لا يقبل الغرب قبلة بالمقابل: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾.

وأساس هذا التعصّب هو التفكير الاعوج لكلّ طائفة في احتكار الحقّ والجنّة بما تذهب إليه، فاليهود يعتبرون النصارى على باطل تامّ، والنصارى ـ بدورهم ـ يعتبرون اليهود واليهودية باطلين جملة وتفصيلا، كما أنّ الطائفتين ـ بدورهما ـ تعتبران المسلمين على خطأ وباطل: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَو نَصَارَى﴾[1]، ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾[2]. وقد ذكرنا في ما سبق أنّ كلمة (أو) في الآية السابقة للتنويع لا للترديد.

وأمّا التوجيه الالهي الاسلامي في المقام، فهو مختلف تماما مع ما سبق عن اليهود والنصارى، فهو قائم على أساس أن اليهود لو كانوا يعملون بالتوراة غير المحرفة، وأنّ النصارى لو كانوا يعملون بالانجيل غير المحرّف، فكلاهما على حقّ، وإلّا، فكلاهما على باطل، فاليهودية بدون التوراة غير المحرّفة ليست إلّا باطلةً، شأنها في ذلك شأن المسيحية بدون الانجيل غير المحرّف: ﴿قُلْ يَا أَهلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالانجِيلَ﴾[3]؛ فإنّ الكتابين الالهين المزبورين نور الهي[4]، قد بشّر فيهما ببعثة رسول الاسلام ﷺ[5].

ومن الجدير بالانتباه أنّ الخطوط العامّة للاسلام التي تجعله الدين العالمي، موجودة في كلّ واحدةٍ من اليهودية والمسيحية التي تتمتّع كلّ واحدة منهما

---

١ . سورة البقرة، الآية ١١١.

٢ . سورة البقرة، الآية ١١٣.

٣ . سورة المائدة، الآية ٦٨.

٤ . سورة المائدة، الآيات ٤٤ و ٤٦.

٥ . سورة الاعراف، الآية ١٥٧.





بشريعة ومنهاج خاصّين بكلّ واحدة منهما، ومن هنا، نجد الرسول الاكرم ﷺ وهو يجادل اليهود بالحسنى، يطالب هؤلاء بتلاوة التوراة غير المحرّفة، قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

## تقبيح جمود الجاحدين

المشكلة الاساسية في الافراد المُبطِلين هي مبارزة الحقّ، المبارزة التي تظهر على شكل صور مختلفة، فقد تظهر على شكل مجرّد الاعراض أحيانا، كما أنّها تظهر على شكل الاعتراض أحيانا أخرى، كما أنّها تظهر على شكل المعارضة أحيانا ثالثة.

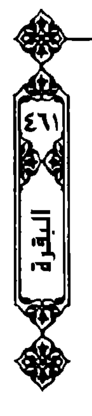
ومن تقابل الحقّ والباطل في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ﴾، يتّضح أن لا مجال لتعدّد المنهاج وتكثّر الشريعة وتشتّت القبلة في حيطة رسالة نبيّ معيّن من قبيل الرسول الاكرم ﷺ، ومن هنا، فلا مجال للتعددية الدينية التي يدّعيها البعض.

ولا يقف بطلان التعدد على حيطة الاسلام، بل الامر كذلك في حيطة توراة اليهود وإنجيل المسيحية؛ فإنّ معنى جملة: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ...﴾ ليس توجيه تعدّد اليهودية والمسيحيّة في العصر الواحد، بل المقصود تقبيح جمود الجاحدين الذين واجهوا المعجزات الباهرة والآيات البيّنات لحضرة المسيح عليه السلام ولم يؤمنوا به مع ذلك.

ولقد وقع قسم من أقسام التعددية الممزوجة بالعناد واللجاج في حيطة المسيحيّة، والذي يضعفها بصورة كبيرة، وهو ظهور الكاثوليكية والبروتستانتية المتناحرتين تناحرا شديدا، بحيث لا تعترف إحداهما بالاخرى وتعتبرها على باطل.

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٩٣.



ولا يقتصر الامر على التناحر الداخلي بين الطائفتين السابقتين، بل تعدى ذلك إلى تناحرات خارجية بينهما من جهة واليهودية من جهة أخرى، التناحر الّذي كان أشدّ من تناحرهما مع الاسلام وعنادهما له، بحيث يمكن لبعض اليهود أو النصارى قبول الاسلام أحيانا، إلّا أنّه من غير الممكن أن يصير اليهودي مسيحيا أو المسيحي يهوديا يوما من الايام[1].

**تنويهان:** ١ ـ عنوان «المجيء من عند الله»، الّذي يتعلق أحيانا بالعلم، فيقال: «جاء العلم»، ويتعلق بالحق أحيانا أخرى فيقال: «جاء الحقّ»، قد يكون بدون توسّط الرسول الاكرم ﷺ تارة، وبواسطته تارة أخرى، فما يأتي إلى الامّة يكون بواسطته ﷺ، كما في قوله سبحانه وتعالى في الآية الشريفة: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾**[2]، وقوله تعالى في الآية الشريفة: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الحقّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾**[3]، وأمّا ما يحصل للنبيّ ﷺ، فهو بدون توسّط نبيّ آخر، من قبيل الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث ونظائرها.

٢ ـ لّما علم سابقا بطلان الملّة المنسوخة والمنهاج السابق، فقد جاء هنا قوله تعالى: **﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ﴾**، ومن هنا، يعلم أنّ تكليف علماء الدين يسبق تكليف غيرهم من الناس.

## تحذيره سبحانه وتعالى بالنسبة إلى استقبال بيت المقدس

الفرق بين الرسول الاكرم ﷺ وأهل الكتاب بالنسبة إلى عدم قبول البعض لقبلة البعض الآخر، يكمن في أنّه ﷺ على الحقّ وتابع له، فيما أولئك

---

١ . **تفسير البحر المحيط**، ج١، ص٤٣١.

٢ . **سورة النساء**، الآية ١٧٤.

٣ . **سورة يونس**، الآية ١٠٨.

يتّبعون أهواءهم الباطلة لا غير؛ إذ بعد اتضاح الحقّ والعدل ونزول الوحي بتغيير القبلة إلى الكعبة، يكون استقبال بيت المقدس هوى من الاهواء لا من الهدى، بحيث يكون المستقبل بعد اتضاح الحقّ ظالما من الظلمة: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ﴾؛ إذ إنّ هؤلاء لا ينطلقون إلّا من عبادة الاهواء، وعبادة الاهواء ظلم.

وفي جهة أخرى، كان تحذيره سبحانه وتعالى على شكل عدم صحّة تحصيل رضا أهل الكتاب ظنا بأنّه طريق لتحصيل رضاه سبحانه وتعالى؛ فإنّ أهل الكتاب لن يرضوا أبدا إلّا باتّباع ملتهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[1]، وقوله عزّ من قائل﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ﴾[2].

وجملة: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ﴾ إذا كانت ناظرة إلى الاتباع العملي، فهي وإن كانت خطابا للرسول الاكرم ﷺ، إلّا أنّ ذلك إنّما هو من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة»، فالمراد الامّة الاسلامية، والتهديد والتحذير متوجّه إليها، من حيث إنّها يجب ألّا تتوجّه من الآن فصاعدا إلى بيت المقدس.

وأمّا إذا كانت الجملة السابقة ناظرة إلى أصل الحكم وتغييره، فهذا الخطاب موجّه إلى الرسول الاكرم ﷺ؛ فإنّ تغيير الحكم (في مقام الظاهر والتنفيذ) إنّما هو بيده لا غير، مع أنّه ﷺ لا يفعل ذلك يقينا، إلّا أنّه سبحانه وتعالى قد كلّفه

١ . سورة البقرة، الآية ١٢٠.

٢ . سورة الرعد، الآية ٣٧.




بذلك؛ فإنّ العصمة على الرغم من كونها رادعة عن المعصية، فإنّها ليست مانعة عن التكليف، ومن هنا، نسمعه سبحانه وتعالى يخاطب رسوله الكريم ـ وهو المعصوم والمصون من الشرك يقينا ـ قائلا: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

**تنويه:** لا التكليف الالهي يتنافى مع عصمة الانسان الكامل، ولا تهديده سبحانه وتعالى مباين لذلك؛ إذ اوّلا: إبتلاء المعصوم بالمعصية محال عادي لا عقلي، وأمّا ثانياً، فلأن التهديدات الالهية إنّما تبيّن على شكل قضيّة شرطيّة لا تحكي إلّا عن فعليّة التلازم بين المقدّم والتالي، لا عن فعليّة المقدّم لكي يكون التالي فعليا، ومن هنا، ليس في البين أيّ تناف أو تباين بين التكليف والتهديد من جهة والعصمة من جهة أخرى.

* * *

١ . سورة الزمر، الآية ٦٥.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

## التفسير المختار

لقد تعرّضت الكتب السماوية السابقة على القرآن إلى أوصاف نبيّ الاسلام ﷺ وخصائصه التي تعود إلى شخصه وشخصيته إضافة على سيرته ﷺ إلى الدرجة التي كان ﷺ معروفا عند علماء أهل الكتاب معرفة قريبة من الحس، بل كانوا يعرفونه كما يعرف الانسان أبناءه، ومن هنا، فإنّهم كانوا واقفين تماما على حقّانية رسالته، وحقّانية قبلة المسلمين بالتبع بحيث كانوا مسلّمين بذلك تمام التسليم، إلّا أنّ العصبية التي ابتلوا بها، بالاضافة إلى الجهالة العملية والبغي والحسد، وبكلمة واحدة: حبّ الدنيا، صار ذلك كلّه مانعا عن قبول الحقّ المعلوم الواضح والاعتراف به، ما جعل جماعة منهم يكتمون الحقّ وينكرونه وهم يعلمون.

### تفسير المفردات

**يعرفونه**: المعرفة ـ التي هي أخص من العلم وفي مقابل الانكار ـ بمعنى معرفة الشيء عن طريق التفكّر والتدبّر في آثار ذلك الشيء[1].

---

١ . المفردات، ص٥٦٠، «ع ر ف».



**لَيَكتُمُون**: «الكِتمان» في اللغة بمعنى كلّ نوع من أنواع الاخفاء والستر[١]، وفي الاستعمالات القرآنية بمعنى «ستر الحديث»[٢] وإخفاء مطلب من المطالب في الضمير والقلب، والذي هو مصداق من مصاديق الاخفاء والستر[٣].

## تناسب الآيات

تتعرّض هذه الآية الشريفة إلى ذكر الدليل على علم أهل الكتاب بحقّانية قبلة المسلمين ومعرفتهم بذلك[٤]. فقد كان هؤلاء ـ من جهة وقوفهم على البشارات المذكورة في الكتب السماوية ـ يعرفون نبيّ الاسلام ﷺ وأوصافه حقّ المعرفة، ومن ذلك ما يرجع إلى القبلتين اللتين ستكونان له على طول تاريخه ﷺ.

بناء على ما سبق، فإنّ معرفتهم بنبوّة الرسول الاكرم ﷺ كانت تعزّز من معرفتهم وبصيرتهم بحقّانية تحويل القبلة، كما أنّ العلم بحقّانية تحويل القبلة كان يمكنه أن يثبّتهم على حقّانية نبوّة نبيّ الاسلام ﷺ؛ إذ إنّ تحويل القبلة من العلامات الثابتة على نبوّته ﷺ[٥].

العلم والمعرفة المزبوران يعتبران حجّة، ما يعني أنّ الآية الّتي هي محلّ البحث ـ شأنها شأن ذيل الآية التي سبقتها ـ إحتجاج على أهل الكتاب، ببيان: الآن وقد ثبتت نبوّة حضرة محمّد ﷺ، وكان كلّ حكم ورسالة يأتي بها حقّا من

---

١ . **معجم مقاييس اللغة**، ج٥، ص١٥٧، «ك ت م».

٢ . **المفردات**، ص٧٠٢، «ك ت م».

٣ . **التحقيق**، ج١٠، ص٢٤، «ك ت م».

٤ . **التفسير المنير**، ج٢، ص٢٣.

٥ . **نظم الدرر**، ج١، ص٢٧٠.

عند الله سبحانه وتعالى، فلماذا النقاش وإشعال الفتنة في ما يرجع إلى القبلة وتغييرها؟![1]

وأمّا بيان شدّة معرفة أهل الكتاب بالنسبة إلى نبوّة حضرة محمّد ﷺ وصحة رسالته وحقّانيتها، وأنّها بمثابة المعرفة الحسية، وكمعرفة الانسان بأبنائه، فإنّها تعتبر توضيحا أيضاً لما سبق من مطالب، يعني العناد والاستكبار في مقابل الحقّ (قبول الاسلام) اللذين ابتلي بهما أهل الكتاب[2].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنّ هذه الآية الشريفة جملة معترضة بين الآية السابقة عليها والآية الشريفة ﴿لِكُلٍّ وِجْهَةٌ...﴾[3] وقد جاءت استطرادا؛ إذ قبل هذا، كان الكلام عن مطاعن أهل الكتاب بالنسبة إلى قبلة المسلمين، والآن، يستطرد في بيان أنّ طعن هؤلاء واعتراضهم بالنسبة إلى مسألة القبلة، إنّما هو واحد من الطعونات التي تعرّض لها الاسلام والرسول الاكرم ﷺ من قبلهم.

والدليل على كون الجملة استطرادا، هو الآية الشريفة: ﴿لِكُلٍّ وِجْهَةٌ...﴾ التي ستأتي بعد ذلك؛ حيث يعود الكلام فيها عن استقبال القبلة[4]، إلّا أنّ الظاهر هو عدم أيّ اعتراض أو استطراد في البين، وأنّ انسجام الآيات محفوظ، وهو ما يوضّحه تمام التوضيح التأمّل في ما سبق والتدبر في ما سيأتي من مطالب.

❋ ❋ ❋

## سرّ كتمان الحقّ وإنكاره

حقّانية قبلة المسلمين وتغييرها من بيت المقدس إلى الكعبة، كان أمرا

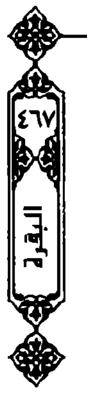
---

١ . تفسير المنار، ج٢، ص٢١.

٢ . التفسير المنير، ج٢، ص٢٧.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٤٨.

٤ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٣٩.




واضحا ومسلّما به بالنسبة إلى أهل الكتاب، وهذه المعلومية إمّا أن يكون منشأها التعرّض لها في الكتب السماوية السابقة، وإمّا أن تكون قائمة على أساس توجيهات تلك الكتب والبشارات التي جاءت فيها؛ فقد كانوا يعرفون نبيّ الاسلام ﷺ بنفسه رسولا من قبله سبحانه وتعالى، ومن هنا، فإنّهم كانوا يعلمون تمام العلم أنّ جميع أعماله إنّما هي على أساس الوحي الالهي وأمره، إلّا أنّهم كتموا هذا الحقّ وأنكروه.

وللتوضيح نقول:

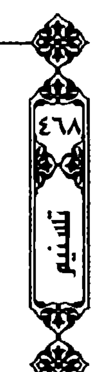
لقد تعرّضت الكتب السماوية السابقة إلى بيان جميع خصائص الرسول الاكرم ﷺ أو أوصافه، إلى درجة جعلت علماء أهل الكتاب يعرفونه معرفة تقرب من الحسّ، وكما يعرف الانسان ابنه: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾، وحيث كانت المعرفة على هذا النحو، فلن يكون هناك أيّ مجال للشكّ والترديد.

إستعمال تعبير ﴿**يعرفونه**﴾ في الآية الّتي هي محلّ البحث بدلا عن «يعلمونه»، يعكس حقيقة قوّة معرفة علماء أهل الكتاب بخصائص النبي الاكرم ﷺ ومميزاته، بحيث لا يمكن عدم تصديقه ﷺ من أيّ فرد منصف؛ فقد عكست التوراة والانجيل الاصيلان غير المحرّفين صورة تفصيلية كاملة للنبي الاكرم ﷺ، وشخصيته وخصائصه ومميزاته، بحيث أصبحت معرفة هؤلاء به ﷺ من قبيل معرفتهم بأبنائهم، فلا يشتبه الحال عليهم بينهم وبين غيرهم من أبناء غيرهم، إلّا أنّ بعضهم منعته العصبية واللجاجة من الايمان به ﷺ وقبول رسالته.

«المعرفة»: **﴿يعرفونه كما يعرفون...) تستعمل في الاشخاص والذوات، من قبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾**[1]. وفي الآية الّتي

---

١ . سورة المطفّفين، الآية ٢٤.



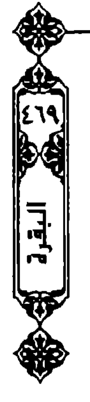

هي محلّ البحث أيضاً، يرجع ضمير ﴿يعرفونه﴾ إلى الرسول الاكرم ﷺ ؛ فقد ذكر اسمه ﷺ قبل ذلك عن طريق تعبيرات من قبيل: ﴿تَقَلُّبَ وجهك... فلنولينّك... فولّ وجهك... * أتيتَ... ما تبعوا قبلتك﴾[1]، والآن، يشار إليه بواسطة الضمير، ومن هنا، نرى انتقاد أبي حيّان لما ادّعاه الزمخشري من أنّ ذكر الضمير بدون الذكر القبلي لمرجعه إنّما هو لأجل التفخيم وادّعاء الشهرة[2]، فقد ذكر أبو حيّان سبق ضمائر كثيرة ترجع إليه ﷺ[3].

وأمّا ما ذهب إليه الطبري في تفسيره من رجوع الضمير في ﴿يعرفونه﴾ إلى القبلة، على الرغم من ذكر اسمه ﷺ في الاخير[4]، وكذا ادّعاء رجوع الضمير إلى الرسول الاكرم ﷺ، فقد ذهب ابن عربي في تفسيره إلى كونهما تكلفا[5]. ولأجل التخلّص من التكرار، فإنّ رجوع الضمير إلى حادثة تحويل القبلة أمر مرجوح.

وعلى كلّ تقدير، فكما مرّت الاشارة إليه، فإنّ ذلك الضمير يرجع إلى الرسول الاكرم ﷺ لا الاسلام، أو القرآن، أو الوحي وما كان من هذا القبيل. وفي هذه الحالة، يكون التشبيه المذكور في الآية من باب تنزيل المحسوس منزلة المحسوس، وأمّا إذا أرجعنا الضمير إلى الاسلام، أو القرآن، أو الوحي أو ما شابهها، فإنّ التشبيه المزبور سيكون من سنخ تنزيل المعقول منزلة المحسوس، وأمّا بناء على رجوع الضمير إلى الرسول الاكرم ﷺ، فالمراد هو أنّ أهل الكتاب يعرفونه ﷺ ـ وهو الموجود المحسوس ـ كما يعرفون أبناءهم.

---

١. سورة البقرة، الآيات ١٤٤ ـ ١٤٥.
٢. الكشاف، ج١، ص٢٠٤.
٣. تفسير البحر المحيط، ج١، ص٦٠٩.
٤. جامع البيان، ج٢، ص٢٨ ـ ٢٩.
٥. رحمة من الرحمان، ج١، ص٢١٩.



والسرّ في معرفتهم هذه، هو مجيء جميع خصوصيات الرسول الاكرم ﷺ الراجعة إلى شخصه أو شخصيته، وكذا سيرته، بل حتّى اسمه ﷺ في كتبهم السماوية: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الامِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالانجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1]، وعلى الرغم من جميع ذلك، نجد أنّ جملة من هؤلاء يكتمون الحقّ وينكرون نبوّته ﷺ جرّاء ما ابتلوا به من العصبية الجاهلية والاهواء الباطلة: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحقّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

إنّ الجذور المعروفة لكتمان الحقّ أو انكاره هي حبّ الدنيا، الّذي يمنع من التأثير العملي لبعض العلوم. ونموذج ذلك في ما يرجع إلى أصل توحيده سبحانه وتعالى وربوبيّته الحقّة، هو طريقة تعامل آل فرعون مع الآيات الالهية الواضحة التي جاء بها الكليم موسى عليه السلام على حقّانية رسالته وكونها وحيا الهيا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾، ومن هذا القبيل موقف علماء أهل الكتاب إزاء نبيّنا الاكرم ﷺ، من جهة كتمان الحقّ أو انكاره.

إنكار الحقّ على الرغم من معرفته والوقوف الكامل عليه، من قبيل المرض الّذي له أسباب متعدّدة، فإنّه قد يكون على أثر التعصب الجاهلي، كما أنّه قد يكون بسبب الجهالة العملية، من قبيل البغي والحسد وما شابه، وأمّا حبّ الدنيا الّذي هو رأس كلّ خطيئة، فهو الجامع الانتزاعي للعلل المذكورة، إلّا أنّه في كلّ مورد من موارد إنكار الحقّ المعلوم، يقوم واحد من جملة تلك الاسباب بالصدّ

---

١ . سورة الاعراف، الآية ١٥٧.

عن الحقّ وقبوله والايمان به، وقد تعرّضنا إلى بيان هذا المطلب عند تفسيرنا للآية الشريفة: ﴿... فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[١].

**سرّ تشبيه معرفة الرسول بمعرفة الابن.**

إنّ السرّ في تشبيه معرفة الرسول الاكرم ﷺ بمعرفة الابن في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، هو أنّ هؤلاء كانوا واقفين على جميع خصوصيّات النبيّ الاكرم ﷺ وما يتميّز به عن طريق كتبهم السماوية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالانجِيلِ﴾[٢]، وقوله عزّ من قائل ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٣].

ويجب الالتفات إلى أنّ المسألة في هذا التشبيه هو أصل المعرفة لا كيفيتها ولا خصوصية المعروف.

والسرّ الكامن وراء اختيار الابن لا البنت للتشبيه في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، هو قوة العلاقة والرابطة بين الاب والابن، كما هي الحالة في العلاقة بين الامّ والبنت في حالة عدم التغليب.

التشبيه المزبور (تشبيه معرفة النبوّة بمعرفة البنوة) هو الشاهد على رجوع الضمير إلى الرسول الاكرم ﷺ لا القرآن أو القبلة، وإلّا، لكان المشبّه به هو التوراة أو الانجيل أو صخرة القدس، فمرجع الضمير ليس هو القرآن أو القبلة وتغييرها، وإلّا، لكان التشبيه بالامور المذكورة.

---

١. سورة البقرة، الآية ٨٩.
٢. سورة الاعراف، الآية ١٥٧.
٣. سورة الصفّ، الآية ٦.

## إختلاف أهل الكتاب في انكار الحقّ أو قبوله

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ...﴾ أهمّ من ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾[1]، كما أنّ تكرار ﴿الّذين﴾ وعدم الاكتفاء بالضمير، إنّما هو من أجل إظهار الاهتمام بالمطلب وبيان علّة المعرفة.

والمقصود من هذه الطائفة هو خصوص علماء أهل الكتاب لا جميع اليهود والنصارى؛ فإنّ عددا كبيرا من هؤلاء مشمولون بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾[2,3] وليس عندهم أيّ وقوف على المطالب المذكورة في الكتب السماوية.

وأمّا المقصود من كاتمي الحقّ، فهو مجموعة خاصّة من علماء سوئهم، وإلّا، فإنّ عددا من هؤلاء قد آمن بالاسلام دينا وبالنبيّ ﷺ رسولا وأعينهم تفيض من الدمع، كما ورد في قوله تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحقّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[4].

ليس جميع أهل الكتاب ممّن كتم الحقّ أو أنكره؛ إذ ليس الجميع على نحو واحد، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[5].

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٤٥.

٢ . سورة البقرة، الآية ٧٨.

٣ . جامع البيان، ج٢، ص٢٨ ـ ٢٩.

٤ . سورة المائدة، الآية ٨٣. رحمة من الرحمان، ج١، ص٢١٩.

٥ . سورة آل عمران، الآيات ١١٣ ـ ١١٤.




بعض أهل الكتاب يكتم الحقّ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحقّ﴾، إلّا أنّ بعضهم الآخر كان مصونا من التعصّب الجاهلي الاعمى فآمن به، كما أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى بقوله عزّ من قائل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[1]؛ فإنّ هذه الكتب نور كما هو الحال مع القرآن الكريم، وليس فيها أيّة خدشة أو شكّ أو ابهام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[2]، وكما ورد في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الانجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[3]، كما جاء بحقّ القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾[4]، وهذا هو الاساس في عدم إسناد كتمان الحقّ وإنكاره في الآية الّتي هي محلّ البحث إلّا إلى مجموعة منهم لا إلى جميعهم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحقّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ...﴾.

العدل والانصاف ـ طبعا ـ هو ما قام به القرآن الحكيم من التفكيك بين المجموعات، حيث يتعرض إلى المجموعة غير العالمة من هؤلاء بقوله عزّ من قائل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾[5]، ويقول بشأن بعضهم الصالح: ﴿... أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[6]، كما يتعرّض لمن ابتلي بالبَغي والحسد والاستكبار من هؤلاء بقوله تعالى: ﴿لَيَكْتُمُونَ الحقّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ...﴾.

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٢١.

٢ . سورة المائدة، الآية ٤٤.

٣ . سورة المائدة، الآية ٤٦.

٤ . سورة النساء، الآية ١٧٤.

٥ . سورة البقرة، الآية ٧٨.

٦ . سورة آل عمران، الآية ١١٢.





# البحث الروائي

## كتمان النبوّة والولاية عن علم

قال أبو عبد الله عليه السلام: «هذه الآية نزلت في اليهود، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة والانجيل، ﴿يعرفونه﴾ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾؛ لأنّ الله عزّ وجلّ قد أنزل عليهم في التوراة والزبور والانجيل صفة محمّد صلى الله عليه وآله، وصفة أصحابه، ومبعثه، وهجرته، وهو قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الانْجِيلِ﴾[1] هذه صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه في التوراة والانجيل، فلمّا بعثه الله عرفه أهل الكتاب كما قال جلّ جلاله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾»[2].

ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «... خلق الله عزّ وجلّ الناس على ثلاث طبقات، وأنزلهم ثلاث منازل، وذلك قول الله عزّ وجلّ في الكتاب: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون[3] ... فأمّا أصحاب المشأمة، فهم اليهود والنصارى، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، يعرفون محمّداً و الولاية في التوراة والانجيل كما يعرفون أبناءهم في منازلهم ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحقّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ...﴾، ﴿الحقّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أنك الرسول إليهم ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[4]، فلمّا جحدوا ما عرفوا ابتلاهم [الله]

---

١ . سورة الفتح، الآية ٢٩.

٢ . سورة البقرة، الآية ٨٩. تفسير القمي، ج١، ص٣٢ ـ ٣٣.

٣ . إشارة إلى الآيات ٧ ـ ١٠ من سورة الواقعة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً * ...﴾.

٤ . سورة البقرة، الآية ١٤٧.




**بذلك، فسلبهم روح الايمان و...»**[1].

**إشارات: أ** ـ المقصود من «اليهود والنصارى» في هذه الروايات ليس جميع أهل الكتاب، وإنّما هو مجموعة خاصّة منهم، وهم من رجّح كتمان الحقّ وإنكاره على إظهاره والاعتراف به؛ فإنّ الآية الّتي هي محلّ البحث لم تتعرّض إلّا إلى فريق من هؤلاء قد ابتلي بكتمان الحقّ عن علم ومعرفة.

ب ـ قبح عقيدة المجموعة السابقة وسوء أخلاقها وعملها كان السبب من وراء كتمان هذه المجموعة للحقّ، كما أنّ كتمان الحقّ بنفسه أمر مشؤوم، وعليه، فإنّ من كتم الحقّ من اليهود يكون قد ابتلي بذلك بأسباب مختلفة.

ج ـ يستفاد من الحديث الثاني أنّ أهل الكتاب ـ يعني علماء التوراة والانجيل ـ كما كانوا على علم واطلاع بنبوّة نبيّنا الاكرم ﷺ، فقد كانوا مطّلعين كذلك على مسألة الولاية وما سيجري فيها، فقد ذكر فيها كلا المطلبين.

* * *

---

١. الكافي، ج٢، ص٢٨١ ـ ٢٨٤.

ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

## التفسير المختار

الله سبحانه وتعالى هو أصل كلّ حقّ ومنشأه، فهو الحقّ المحض، ولا ينشأ منه إلّا الحقّ، كما أنّ كلّ ما يصدر منه أو يظهر منه، سواء أكان نبوّة النبي ﷺ، أم كون الكعبة قبلة، أم غير ذلك من المطالب، فإنما هو الحقّ، ففي حيطة التوحيد والافاضة الالهية وحريمهما لا مجال للبطلان والمرية والشكّ والتردّد، وهذا ما يوجّه النهي عن الشكّ والريبة بالنسبة إلى هؤلاء الذين وردوا حريم التوحيد الالهي.

لقد عبّر الله سبحانه وتعالى عن العلم والوحي الذين أرسلهما إلى الرسول الاكرم ﷺ بالحقّ أيضاً، لكي يكون ذلك باعثا على تثبيته ﷺ ومن يتّبعه من المسلمين.

### تفسير المفردات

الممترين: «المُمترين» من قبيل «المُهتدين» جمع «ممتري» إسم فاعل، ومصدره هو «الامتراء» من مادة «مري» بمعنى الشكّ والتردد[1].

### تناسب الآيات

كانت الاشارة في ذيل الآية السابقة على الآية الّتي هي محلّ البحث إلى

---

١ . المفردات، ص٧٦٦، «م ر ي».

مسألة كتمان الحقّ من قبل أهل الكتاب، وأمّا الآية الّتي هي محلّ البحث، فتعتبر ردّا على الكاتمين وتثبيتا لحقّانية الامر مورد الكتمان، يعني نبوّة الرسول الاكرم ﷺ وما جاء به[1]، وعلى هذا الاساس، فالآية التي نحن فيها تعتبر تذييلا لجملة: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحقّ﴾ في الآية السابقة[2]، وتأكيدا لما جاء قبلها من المطالب[3].

والمستفاد من تلك المطالب، هو أنّ الناس في ما يرجع إلى الاهتداء أو الابتلاء بالفتنة مقهورون لمشيّته سبحانه وتعالى وإرادته. وهذا الحقّ هو نفسه التي يبتغيه الرسول الاكرم ﷺ، ومن هنا، فإنّ الآية الّتي هي محلّ البحث تخاطبه ﷺ ـ وهو الحريص على هداية الناس، والحامل للامر بالعفو والصفح ـ بأنّ تقسيم العلماء بالحقّ والعارفين به وتصنيفهم إلى التابع والمنكر والكاتم ـ وهم من نال بعضهم درجات الجنة، كما أنّ بعضهم الآخر في دركات الجحيم ـ هو أمر حقّ، ومنشأ الحقّ هو الله سبحانه وتعالى[4].

التأكيد على هذا الامر بعناوين مختلفة من قبيل العلم والمعرفة وما شابه ذلك، هو تأكيد على وجوب متابعة الرسول ﷺ، ورفع للشبهات التي كان يلقيها السفهاء العالمون بذلك الحقّ[5].

❋ ❋ ❋

### منشأ كلّ حقّ هو الله

كلّ حق فإنّما هو من الله سبحانه وتعالى، وكلّ مايظهر أو يصدر منه سبحانه

---

١ . روح المعاني، ج٢، ص٢٠.
٢ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٤٠.
٣ . الميزان، ج١، ص٣٣٠.
٤ . نظم الدرر، ج١، ص٢٧٠.
٥ . المصدر السابق. ص٢٧١.




وتعالى فهو الحقّ، فلا مجال للباطل في حريم فيضه تعالى، وإذا لم يكن مجال للبطلان في حيطة الافاضة، فلن يكون مجال للمرية والشكّ أيضاً؛ فإنّ الشك إنّما هو بين الحقّ والباطل، كما أنّه لا مجال للامتراء في إقليم الهوى؛ إذ ليس في وَيْل الطغيان والبَغْي إلّا الباطل، وإذا لم يكن في مورد من الموارد إلّا البطلان، فلن يكون مجال للشك أبدا.

والمغزى: أنّه لا طريق إلى حَرَم التوحيد الالهي إلّا الحقّ، فلن يكون للشكّ إلى هناك طريق، فمن ورد حريم التوحيد فهو جازم بأنّ كلّ ما وجده هناك فهو حقّ، كما أنّ المبتلى بإقليم الشيطنة على يقين بأنّ كلّ ما هناك فهو باطل، إلّا إذا لم يميّز الانسان بين الحقّ والباطل، فيرى الحقّ باطلا.

ولمّا كان الرسول الاكرم ﷺ قد ورد حريم التوحيد الالهي بالاصالة، كما أنّ من تبعه قد ورد ذلك الحريم بالتبع، فهم على علم بأنّ ما سيكون منه سبحانه وتعالى فهو حقّ، سواء أكان ذلك نبوّته ﷺ، أم كون الكعبة قبلة، أم غير ذلك من الامور، وهذا ما يوجّه مجيء التأكيد على النهي عن أيّ نوع من أنواع الامتراء والشكّ بالنسبة إلى هؤلاء.

وعلى هذا الاساس ـ وهو أنّ الله سبحانه وتعالى حقّ محض لا ينشأ منه إلّا الحقّ، وكلّ ما كان حقّا فهو منه تعالى: ﴿**الحقّ من ربّك**﴾ ـ فإنّ ما نجده عند بعض المدارس الالحادية من مطالب حقّة، فإنّها ليست نتاج تفكيرهم أنفسهم، وإنّما هي ببركة أنبياء الظاهر عليهم السلام أو رسل الباطن ـ يعني الفطرة ـ فإنّ السابقة القديمة للانبياء عليهم السلام، وهم من علّم المجتمع البشري الحقّ والعدل، وأمّا المدارس الالحادية، فهي متأخرة في وجودها لم تظهر إلّا في الازمنة الاخيرة، فما عند هؤلاء من مطالب حقّة إنّما اقتاتوها على سفرة الانبياء والمرسلين عليهم السلام فلم ينسبوها إلى هؤلاء عليهم السلام بل نسبوها إلى أنفسهم.

وما يشهد على الحقيقة السابقة، هو الروايات التي تشير إلى وجود الرسول قبل خلق الانسان، من قبيل: «الحجة قبل الخلق، ومع الخلق، وبعد الخلق»[١]. والانسان الاوّل على الارض، ومن جميع من جاء بعده إلى يومنا هذا من نسله كان رسولا من الرسل وحجّة من حججه سبحانه وتعالى، وهو حضرة آدم عليه السلام، وعلى فرض وجود أجيال قبله عليه السلام، فإنّ هؤلاء قد انقرضوا قبل نزوله عليه السلام إلى الارض، فقد خلق بدون أب وأم من الصلصال بصورة تدريجية أو دفعة واحدة.

### سرّ التعبير عن العلم بالحقّ

وأمّا السرّ في التعبير بأنّ العلم قد جاء منه سبحانه وتعالى أحيانا، كما في قوله تعالى: ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ**﴾[٢]، وأحيانا ـ كما في الآية الّتي هي محلّ البحث ـ بأنّ الحقّ قد جاء منه تعالى، كما في قوله عزّ من قائل: ﴿**وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الحقّ**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكَ الحقّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ**﴾[٤]، السرّ في ذلك هو أنّ العلم الوحياني للرسول صلى الله عليه وآله ليس علما حصوليا كسبيا، وإنّما هو وحي إلهي وعلم حقيقي وشهودي ينزل فيكون من نصيب الانبياء عليهم السلام، وهو ما يفسّر قوله تعالى مخاطبا نبيه الكريم صلى الله عليه وآله: ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ**﴾[٥].

---

١. الكافي، ج١، ص١٧٧.
٢. سورة البقرة، الآية ١٤٥.
٣. سورة المائدة، الآية ٤٨.
٤. سورة يونس، الآية ٩٤.
٥. سورة البقرة، الآية ١٤٥.

والفرق بين علم الانبياء والعلوم العادية الاخرى، هو في أنّ الاوّل موهبة الهية لا تخطئ أبدا ولا يمكن الوصول إليها بالسعي بأيّة طريقة من الطرق، وأمّا العلوم الاخرى، فهي تخطئ من جهة، كما أنّها تقبل التحصيل من جهة أخرى.

ويشير سبحانه وتعالى إلى موهبة من هذا النوع بعنوان «العلم» أحيانا كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ﴾، كما أنّه يعبّر عنها بتعبير الحقّ كما في قوله تعالى: ﴿الحقّ مِنْ رَبِّكَ﴾ وكلّ ذلك من أجل تثبيت الرسول الاكرم ﷺ وأتباعه وتقويتهم: ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ﴾.

وقد جاء مضمون الآية الّتي هي محلّ البحث في الآية الشريفة: ﴿الحقّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِين﴾[1] أيضاً، والفرق بين الآيتين في قوله تعالى: ﴿لاتكوننَّ﴾ في إحداهما وقوله: ﴿لاتكنْ﴾ في الاخرى.

### شدّة قبح الشكّ في النبوّة

التحذير من القبيح والترهيب من الظلم له مراحل متعدّدة تختلف باختلاف شدّة الاهتمام وضعفه، فقد يقال في بعض الاحيان مثلا: «لا تظلم»، كما أنّه يقال أحيانا: «لاتكن ظالماً»، كما يقال أحيانا: «لاتكن من الظالمين».

والنهي عن الامتراء والشكّ من هذا القبيل أيضاً، وفي الآية الّتي هي محلّ البحث قد طرح ذلك بأشدّ مراحله وحالاته؛ إذ إنّ الشك في النبوّة أو في حقّانية القبلة أو في أصل الدين بعد الاتضاح الكامل لذلك، قبيح إلى الدرجة التي لو صدر فيها ذلك عمّن عاش في أجواء الوحي والنبوّة، ووقف على العناصر المحورية في هذا المجال، لكان في زمرة الممترين بلا أيّ شك، ولو كان ذلك قد صدر منه مرّة واحدة لا غير.

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٦٠.





ساحة القدس النبوية مبرّأة منزّهة عن ذلك نعم إنّ الآخرين مأمورون ـ في سبيل التخلّص من ظاهرة مشؤومة من هذا النوع، ناشئة من القياس والخيال والظن والوهم ـ بالتدبر التامّ في الآيات الالهية، لكي يصلوا عبر ذلك ـ في حالة عدم الابتلاء بأقفال القلب: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1] وبرين القلوب: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2] ـ إلى المعرفة الاصيلة، وليكونوا مصونين ببركة ذلك من تبعات الشكّ العلميّ والترديد العملي.

## تنوّع نفي الامتراء بلحاظ انتفاء الموضوع أو المحمول

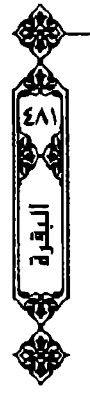
قد يكون نفي الامتراء أحيانا على شكل السالبة بانتفاء الموضوع، كما أنّه قد يكون من قبيل السالبة بانتفاء المحمول أحيانا أخرى؛ من حيث إنّ البحث قد يكون في حيطة المُخلَصين مرّة، كما قد يكون في حيطة الآخرين مرّة اخرى، كما أنّ الكلام قد يكون في الفعل الصادر أو الظاهر من الصقع الربوبي الّذي لا طريق لأيّ موجود إليه إلّا للمطيعين المعصومين والمدبّرين المصونين ومجاري العصمة الالهية تارة، كما قد يكون الكلام في فعل يكون للمُحرّفين والمُبدّلين ومن باع الآخرة بالدنيا وتاجر بدينه يد مبسوطة فيه تارة أخرى.

أمّا بالنسبة إلى نفي الشك بلحاظ المجال الاوّل، فإنّه سيكون من سنخ السالبة بانتفاء الموضوع؛ إذ طبقا للتحليل الّذي طرحناه قبل قليل، لا طريق أبدا للباطل إلى تلك المنطقة وذلك المجال، ومعناه بالتبع أنّ كلّ ما يوجد في تلك الحيطة ليس إلّا الحقّ لا غير، ولمّا كان المقابل للحق ـ يعني الباطل ـ منتفيا جملة وتفصيلا، فلن يكون أيّ مجال للشك بعد ذلك.

وأمّا بالنسبة إلى نفي الشكّ بلحاظ المجال الثاني، فإنّه سيكون من سنخ

١ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٢٤.

٢ . سورة المطفّفين، الآية ١٤.



السالبة بانتفاء المحمول؛ فأصل الشكّ في هذا المجال أمر ممكن كما قد ابتلي به بعض، إلّا أنّ السالكين الواصلين وعارفي سبيل المعرفة الذين يفكّرون بلا أيّ قفل من أقفال القلب، والذين يتفكّرون وقد خلت قلوبهم من أيّ رَيْنٍ، فهؤلاء كما أنّهم منزّهون من ذلك في موطن الملكوت، فهم مبرّأون منه في وطن الملك أيضاً، وخاصّة من كان معلّم الطاهرين ومربّيهم المنزّه من كلّ قفل ورَيْن، من قبيل ما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يقول: «ما شككت في الحقّ مُذْ أُريته»[1]، إلّا أنّه كما تقدم بيانه، فإنّ عصمة الانسان الكامل لا تصلح مانِعَةً للتكليف، كما أنّها لا تصح رادعةً عن التهديد، كما أنّ التكليف ليس منافيا للعصمة ولا التهديد مباينا لها.

## إشارات ولطائف

### ١ ـ المصداق الاكمل للحق

الحقّ يعني الموجود الثابت، ولهذا المفهوم الجامع مصاديق، والمصداق الاكمل له هو ما كان من الموجودات وجوده عين ذاته، وكان ثباته على نحو ازلي وأبدي، يعني على نحو سرمدي، وبالنتيجة: له وجود لا محدود، وثبات لا منتهى له، وهي أمور هي عين بعضها من حيث المصداق وإن كانت مختلفة من حيث المفهوم.

ولازم الاطلاق السرمدي الوجود والثبات، العنصران المحوريان، وقد تقدّم في البحث التفسيري أنّ أحدهما على أثر تناسب الآية وذي الآية، يعني كلّ ما صدر أو ظهر من ذلك الحقّ اللامتناهي فهو الحقّ يقينا: ﴿**وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾[2]، مع الالتفات إلى أنّ قوله سبحانه وتعالى هو ذلك الفعل

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٤.

٢ . سورة الاحزاب، الآية ٤.





الجامع بين إيجاد اللفظ وإنشاء المادّة والصورة من كلّ شيء.

وأمّا الآخر، فهو على أساس التوحيد ـ يعني كلّ ما يعثر عليه في عالم الامكان من الحقّ ـ فهو منه سبحانه وتعالى، فلا اتّكاء له على نفسه؛ حيث إنّه ممكن، ولا إنّه من غيره سبحانه وتعالى؛ من جهة أن اقتضاء التوحيد نفي تأثير أيّ شيء موهوم آخر.

## ٢ ـ الحقّ السرمدي والحقّ المقطعي

الحقّ بمعنى الموجود السرمدي ليس له مقابل؛ فإنّه ليس في مقابل الوجود اللامحدود إلّا العدم، وعليه، فلو كان الباطل مقابل حق من هذا القبيل، فإنّ المقصود من ذلك الباطل لن يكون إلّا العدم والمعدوم، بحيث يكون التقابل بينهما على نحو التناقض لا العدم والملكة.

وأمّا الحقّ بمعنى الموجود المحدود والثابت المقطعي الّذي له وجود في حدّ دون آخر، وله ثبات في مقطع دون آخر، فله مقابل وهو الباطل، كما أنّ التقابل بينهما يكون على نحو تقابل العدم والملكة.

وما جاء في بعض التعبيرات الدينية من جملة: «الموت حق»، أو: «الجنة حقّ»، أو: «النار حقّ»، أو: «القيامة حقّ» مثلا، فهي بمعنى الموجود الثابت المحدود والمقطعي، وكلّ موجود محدود، وكلّ ثابت مقطعي صادر أو ظاهر من الحقّ المطلق فهو ثابت سرمدي: ﴿الحقّ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ إذ إنّ الالف واللام في هذه الكلمة تفيد الاستيعاب والاستقرار، ومن هنا، تجد أنّه لا يمكن لأيّ شخص من الاشخاص أن يكون مالكا مستقلّا للحقّ، حتّى الحقّ بمعنى الصدق في القول والصواب في الفعل؛ إذ إنّ جميع هذه الامور من سنخ الوجود، وكمال الوجود، وكلّ ما وقع في حيطة الوجود والكمال، فإنّه صادر أو ظاهر عن الموجود السرمدي.

* * *

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

## التفسير المختار

كما أنّ لكلّ أمّة شريعة ومنهجا ومنسكا خاصّا، فإنّ لها كذلك وجهة وقبلة خاصّة، من الطبيعي أنّ المولّي والقائد في جميع الامور هو الله سبحانه وتعالى، مع بقاء اختيار الانسان.

وبدون أن يتوجّه المؤمنون إلى الشرق أو الغرب، فإنّهم يجب عليهم أن يسيروا باتجاه الخير، وأن يسرعوا في أعمال الخير والصلاح، ويسبقوا غيرهم في ذلك، والخير والاستباق في طيّ الصراط القويم وامتثال الاوامر الالهية للوصول إلى الهدف، الهدف الّذي له منهاجه الخاص للوصول إليه، يختلف باختلاف العصور والامصار، وهو في عصرنا المنهاج المحمّدي والشريعة المحمّدية التي جاء بها النبيّ محمّد ﷺ.

الطرق مختلفة متنوعة، ويسير كلّ واحد من الناس على ما اختاره من تلك الطرق وارتضاه لنفسه مسيرا، إلّا أنّ ختام كلّ طريق ومنتهى كلّ مسير هو الله سبحانه وتعالى.

كلّ شيء بمحضره سبحانه وتعالى ومشهده، لا يخرج أيّ شيء من الاشياء عن حيطة علمه سبحانه وتعالى اللا محدود وقدرته المطلقة، فأين ما يكون الانسان فإنّ له تعالى القدرة التامّة على إحضاره للحساب.

الرسالة التي تؤديها الآية الشريفة مع أخذ النكتتين الاخيرتين بنظر الاعتبار، هي عدة الصالحين ووعيد الطالحين.

**تفسير المفردات**

**وجهة**: من «الوجه»، وبمعنى الشيء الّذي يتوجّه إليه من قبيل القبلة[1].

«الواو» ـ وهو الحرف الّذي تبدأ به كلمات من قبيل الوجه، الوعد والوصل ـ يحذف أحيانا من اوّل الكلمة وتعوّض الكلمة عنه بحرف «التاء» المربوطة (ة) في آخرها، من قبيل: «جهة»، و«عدة» و«صلة»، كما أنّه قد يجمع الاثنين في بعض الاحيان، وفي هذه الحالة لا تكون «التاء» (ة) عوضا عن «الواو» المحذوفة، من قبيل الوجهة، والوعدة والوصلة.

والوجهة بمعنى ظرف المكان، ومن هنا، لم يحذف الحرف الاوّل فيها لكي يفرّق بينها وبين المصدر، من قبيل عدة وزنة، وقد ذهب البعض إلى أنّ (وجهة) مصدر، وأنّ ذكر الحرف الاوّل فيها خلاف للقياس، بينما اختار البعض الآخر أنّها اسم يحذف أوّله إن أريد به المصدر[2].

والوجه بمعنى القسم المعروف من بدن الانسان، وهو ما يواجه به الاشياء. و«واجَهْتُ فلاناً»، يعني استقبلته وجها لوجه.

و«الوجه» أوّل قسم من أقسام كلّ شيء يواجه به الآخرين، وهو أشرف جزء من أجزاء البدن الظاهرية، كما يطلقون على القسم الامامي من كلّ شيء، وأشرف أجزائه، ومبدأه «الوجه» من قبيل: ﴿وجهَ النّهارِ﴾[3] يعني بداية اليوم.

---

١ . الميزان، ج١، ص٣٢٧.

٢ . الجامع لأحكام القرآن، مج١، ج٢، ص١٦٥.

٣ . سورة آل عمران، الآية ٧٢.

والقصد والمقصد (وهما محلّ توجه الانسان) وجه أيضاً؛ حيث يتوجّه إليهما الجميع[١].

ومن المصاديق الاخرى للوجه، الجاه، والمنزلة، والمرتبة والحالة المخصوصة التي تجلب الالتفات والتوجّه، والجهة: الجانب والمكان الّذي يتوجّه إليه[٢].

و«**وجه الله**» الّذي جاء في آيات متعدّدة بمعنى الفيض الوسيع له سبحانه وتعالى، من قبيل الخلق، والتدبير، والرزق التي بواسطتها يفيض خيره ورحمته سبحانه وتعالى على المخلوقات، ومعنى: «عمل لوجه الله»، أنّ الباعث في ذلك العمل هو جلب رضاه سبحانه وتعالى والوصول إلى رحمته الخاصّة لا غيرها من رضا الناس: ﴿**إِنّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً**﴾[٣].

**فاستبقوا:** «السَبْق» في مقابل «اللحوق»، بمعنى التقدّم في المسير إلى منظور معيّن في حركة أو عمل أو فكر أو علم، والاستباق في الخيرات، هو المجاهدة في الاعمال الصالحة، والملازمة الدائمية للطاعات[٤].

**الخيرات:** خيرات: جمعِ سالمِ من (الخَيْرَة) مؤنث خير. وجمع خير: خيور وخيار. والخَيْرَة بمعنى «الفاضلة» والشيء الافضل هو ما اختير وانتقي[٥].

**قدير:** القدير من له القوّة على فعل ما يريده بمقتضى الحكمة بدون نقيصة أو زيادة.

واستعمال هذه الكلمة بصورتها المطلقة منحصر به سبحانه وتعالى، فلا

---

١ . **معجم مقاييس اللغة**، ج٦، ص٨٨ ـ ٨٩. **المفردات**، ص٨٥٥ ـ ٧٥٦، «و ج ه».

٢ . **التحقيق**، ج١٣، ص٤٥، «و ج ه».

٣ . **سورة الدهر**، الآية ٩. الميزان، ج٢٠، ص١٢٧.

٤ . **التحقيق**، ج٥، ص٤٣، «س ب ق».

٥ . المصدر السابق، ج٣، ص١٥٩، «خ ي ر».

يتّصف بالقدرة إلّا هو القدير، وكلمة (المقتدر) قريبة في المعنى من القدير، إلّا أنّها تستعمل أحيانا في البشر[١].

### تناسب الآيات

هذه الآية الشريفة أيضاً تتمّة الآيات التي تؤيّد استقبال رسول الاسلام الاكرم ﷺ للكعبة، وتبطل ادّعاءات المنكرين ومفترياتهم[٢]، وبالاضافة إلى الجمل الاستئنافية المشتملة عليها، فإنّها معطوفة على الآية الشريفة: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا...﴾[٣] أو على جملة: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ...﴾[٤] ومتمّمة لها[٥].

وقد تعرّض سبحانه وتعالى في تلك الآيات إلى مسألة عدم تقبّل أيّة فرقة أو طائفة لقبلة فرقة أخرى، وعدم اتّخاذها قبلة من قبل تلك الطائفة الاخرى، ومضمون هذا الكلام، هو أنّ لكلّ فرقة من فرق أهل الكتاب قبلة، المضمون الّذي تتعرّض له الآية الّتي هي محلّ البحث بشكل أكثر شمولا من حيث الاثبات والبيان[٦].

بناء على ما سبق، فاحتجاج الآية الّتي هي محلّ البحث على أهل الكتاب يتلخّص في أنّ لكلّ أمّة قبلة، وليس هناك أيّة جهة معيّنة من الجهات لم تكن ركنا ثابتا من أركان أيّ دين من الاديان بعنوان القبلة، وليس هناك أيّة قبلة معينة كانت من أصول الدين ومن الاحكام التكوينية والذاتية غير القابلة للتغيير،

---

١ . المفردات، ص٦٥٦، «ق د ر».
٢ . الاساس في التفسير، ج١، ص٣١.
٣ . سورة البقرة، الآية ١٤٥.
٤ . سورة البقرة، الآية ١٤٦.
٥ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٤١.
٦ . نظم الدرر، ج١، ص٢٧١.

ومن هنا، فلا وجه لأن يكون تغيير القبلة إلى جهة مّا سببا للطعن في النبوّة والشريعة، بل القبلة مسألة من المسائل الفرعية للدين، التي تختلف باختلاف مصالح الامم المختلفة وأحوالها، كما أنّها من جملة الامور التي يجب التسليم في مقابل الوحي في جميع ما يرجع إليها وإن كانت حكمتها خافية على الناس[1]، ومن هنا، يجب ألّا تكون سببا للبحث والمشاجرة بحيث تخرج الامور عن حدّها الطبيعي[2]، وعلى هذا الاساس، يمكن القول بأنّ الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث تعتبر تلخيصا للمطلب المتقدم وبيانا آخر له، بحيث تكون منارا وهداية للناس تهديهم إلى عدم متابعة المسألة والاكثار من الكلام فيها.

توضيح ذلك:

أنّه سبحانه وتعالى بعد أن تعرّض إلى تعليم الرسول الاكرم ﷺ جواب المعترضين عليه من أهل الكتاب، وإلى فضيلة قبلة المسلمين وحقانيتها، قاطعا رجاء المسلمين في أهل الكتاب من قبيل اليهود في متابعتهم على قبلتهم، بعد ذلك كله، ذيل سبحانه وتعالى جميع تلك المطالب ببيان جامع في الآية الّتي هي محلّ البحث، فيطلب من المسلمين في ما يرجع إلى مجادلة أهل الكتاب في مسألة القبلة أن يتركوا تلك المجادلة، فلا تخرجنكم مجادلتهم عن التفكير السوي الصحيح، فإنّ مخالفة هؤلاء لن تضيق الخناق على الحقّ وتجعله في حرج، بعد ذلك، توجه الآية الّتي هي محلّ البحث المسلمين إلى الاهتمام المناسب بالمقاصد والانشغال باصلاح المجتمع، ما يوجه ما جاء في آخرها من قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[3].

---

١ . تفسير المنار، ج٢، ص٢١ ـ ٢٢.

٢ . الميزان، ج١، ص٣٣٠ ـ ٣٣١.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٤٨ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٤١ . الميزان، ج١، ص٣٣٠ ـ ٣٣١.




كما يمكن الاشارة إلى هذا المطلب في الآية الّتي هي محلّ البحث، وهو أنّ إطاعة المسلمين له سبحانه وتعالى في ما يرجع إلى الامر الصادر في مسألة القبلة، وهكذا موقف أهل الكتاب الرافض من تلك المسألة وما صدر منه تعالى من امر في هذا المجال الّذي تعرّضت له الآيات السابقة، كلّ ذلك، إنّما هو بحسن اختيار الانسان أو سوء اختياره، وحينئذ، وعلى أساس التدبير الالهي العام، فكلّ واحدة من هذه الفرق تتّجه إلى القبلة التي عندها، فالمسلمون ـ إذن ـ يجب أن يشكروه سبحانه وتعالى على اختياره لهم في أمر القبلة، وعلى أن وفّقهم إلى إطاعة ما أمر به في مسألة القبلة من التوجّه إلى الكعبة وترك التوجّه إلى بيت المقدس، فإنّ نعمة الهداية ـ شأنها شأن النعم الاخرى ـ كلّها من الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللهِ﴾[1].

ولأجل أن يربط سبحانه وتعالى الآيات السابقة باللاحقة، ومن أجل التثبيت المجدّد لمسألة القبلة، وكذا لأجل أن يثبّت الرسول الاكرم ﷺ والمسلمين في هذا المجال، جاء قوله عزّ من قائل: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

* * *

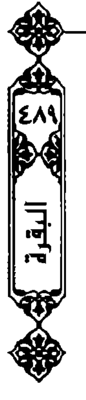
## توجّه كلّ أمّة إلى جهة خاصّة

وضمن تطبيق الاستاذ العلّامة الطباطبائي ﵀ الآية الّتي هي محلّ البحث على مسألة القبلة، ذكر ما تعرّض له الآخرون من أنّها قابلة للانطباق كذلك على النظام التكويني والقضاء والقدر بدون لزوم الجبر[2]، ولا تقف على المعنى الاخير.

---

١ . سورة النحل، الآية ٥٣.

٢ . الميزان، ج١، ص٣٢٧.



التولية والوجهة والقبلة أعمّ من جعل قانون الاستقبال ومن التطبيق العملي، ومن هنا، نرى أنّها كما أسندت إلى الله سبحانه وتعالى في بعض الاحيان، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، فقد أسندت إلى الانسان في أحيان أخرى، كما ورد في قوله عزّ من قائل: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾[2].

المبتدأ والخبر وجملة: ﴿هو مولّيها﴾، صفة لـ ﴿وجهة﴾[3]. لو كان مرجع ضمير ﴿هو﴾ في قوله تعالى: ﴿هو مولّيها﴾ هو الله سبحانه وتعالى، من جهة أنّه تعالى معروف ومعهود دائما، لم يكن من اللازم ذكر اسم من أسمائه تبارك وتعالى، وإن كان قد ذكر عنوان «الربّ» في الآية السابقة.

وأمّا رجوع ضمير ﴿هو﴾ إلى «كلّ» كما اختاره الطبري[4]، فهو صحيح بناء على كونه قائما على اعتباره مضافا إليه[5]، إلّا أنّه مع ذلك ليس جامعا، خلافا لرجوعه إليه سبحانه وتعالى، الّذي يعتبر جامعا إضافةً على كونه صحيحا.

وبناء على رجوع الضمير ﴿هو﴾ إلى «كلّ» لا إليه سبحانه وتعالى، فإنّ معنى جملة ﴿لكلٍّ وجهة هو مولّيها﴾، هو: أنّ لكلّ أمّة جهة خاصّة تتوجّه إليها، وفي هذه الحالة، سيكون ذلك مطابقا لما جاء في قوله سبحانه وتعالى في الآية الشريفة: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾[6].

---

١ . سورة البقرة، الآيات ١٤٤ و١٤٩ ـ ١٥٠.

٢ . سورة البقرة، الآيات ١٤٤ و١٥٠.

٣ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤٢٤.

٤ . جامع البيان، ج٢، ص٣٢.

٥ . والمضاف إليه في: ﴿ولكلٍّ﴾ محذوف. نظير: ﴿كلّ ءامن بالله﴾، (البقرة، الآية ٢٨٥) و: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾، (المائدة، الآية ٤٨).

٦ . سورة البقرة، الآية ١٤٥.

وبناء على هذا المبنى، فإنّ كلّ أمّة من الامم كما لها شريعة ومنهج ومنسك خاص: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[1]، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[2]، فإنّ لها وجهة وقبلة خاصّة أيضاً، وكل أمّة من تلك الامم ترتضي القبلة التي اختارتها؛ فإنّ كلّ دين من الاديان يبقى مقدّسا لمعتنقي ذلك الدين من تلك الامّة على الرغم من كونه منسوخا، فكلّ طائفة متعلّقة عاطفيةً بما لها من ملّة، وتعتقد أنّها الحقّ دون غيرها: ﴿كلّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[3].

وأمّا إرجاع ضمير «هو» إلى «كلّ»، فهو مستلزم لما يشبه التكرار؛ فإنّ الجملة المذكورة يجب أن يكون معناها حينئذ: لكلّ شخص جهة هي تلك التي يتوجّه إليها.

ومن أجل أن يبقى القرآن الكريم مصونا من شبهة التكرار، ولأجل تطابق الآية الّتي هي محلّ البحث مع الآيات السابقة التي ذكر فيها أنّه سبحانه وتعالى هو «المُولّي» (بالكسر)، قال تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾[4]، وأمّا إرجاع ضمير ﴿هو﴾ إلى الله سبحانه وتعالى، فإنّه فضلا عن كونه أكثر جامعية، فإنّه سيكون أكثر تناسبا أيضاً.

## مصداق من مصاديق الحركة نحو الخير

بعد أن انتهى سبحانه وتعالى من بيان أنّ لكلّ أمّة من الامم الاخرى وجهة وقبلة خاصّة بها، يأمر الامّة الاسلامية بأن تتحرّك باتّجاه الخير والصلاح، فيقول عزّ من قائل: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

---

١ . سورة المائدة، الآية ٤٨.
٢ . سورة الحجّ، الآية ٦٧.
٣ . سورة المؤمنون، الآية ٥٣.
٤ . سورة البقرة، الآية ١٤٤.




والمصداق المشخّص المعلوم من الخير في هذه المسألة هو التوجّه باتجاه الكعبة، والتي عبّر عنها بالصراط المستقيم أيضاً في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1]، وبناء على ذلك، فليس الخير في صِرف التوجّه إلى المشرق الّذي يتوجّه إليه المسيحيون، ولا المغرب الّذي يتوجّه إليه اليهود: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾[2]، كما أنّ الخير ليس في اللجاج والمراء الباطل في مسألة الاختلاف في القبلة، وإنّما هو في امتثال الامر الالهي الّذي هو في جميع الاعصار والامصار في دين واحد، وله في كلّ عصر ـ ومصر منهاج خاص، وفي عصرنا الحاضر، العناصر المحورية للدين الاصيل ـ يعني الاصول الثابتة والخطوط العامّة للعقائد، والاخلاق، والفقه والحقوق ـ في الشريعة المحمّدية والمنهج المحمدي، وهو ما له الاثر في المعاد.

كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إلى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[3] الامور التالية:

١ ـ أنّ الباعث على الامر بالاساليب المختلفة من قبله تعالى للامم المختلفة، هو تغيّر المصالح وتنوّع الملاكات باختلاف المقاطع الزمنية المتعدّدة.

٢ ـ أنّ وحدة الاسلوب على مرّ التاريخ وتنوّع الاعصار مقدور له تعالى، إلّا أنّه لا مصلحة فيه.

٣ ـ الجمود على منهاج منسوخ والركود على حكم انقضى تاريخ نفاذه أمر لا خير فيه.

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٤٢.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٧٧.

٣ . سورة المائدة، الآية ٤٨.

٤ ـ النقاش في استمرار المنهاج السابق أمر غير مرضيّ بأيّ وجه من الوجوه.

٥ ـ أنّ مسؤولية الامّة الاسلامية هي السير على الصراط المستقيم، وخاصّة في ما يرجع إلى التوجّه إلى القبلة والجهة الواردة في الشريعة الاخيرة من الشرائع السماوية.

٦ ـ سوف تنتهي كلّ الخلافات يوم القيامة الّذي هو ظرف الظهور الكامل للحقّ.

٧ ـ لا شيء في الاختلاف قبل العلم.

٨ ـ العقاب في الاختلاف بعد العلم؛ إذ إنّ الباعث عليه حينئذ ليس إلّا البغي والظلم.

٩ ـ السير على الطريق السوي خير ينبغي التسابق فيه، وأمّا تحقيق الهدف، فهو خير آخر يكون فيه الاستباق أيضاً، وباصطلاح أهل الفنّ: طيّ الصراط المستقيم هو الكمال الاوّل، والوصول إلى المقصد هو كمال ثان، والاستباق شامل لكلّ من الكمالين.

## المسارعة والاستباق في الخيرات

«الخيرات» جمع بالالف واللام، تشير إلى كثرة الطرق إلى الخير، وطريق الخير لكلّ شخص وفي أيّ لباس وبأيّة صبغة كانت مفتوح وإن لم يكن ذلك للجميع على نحو واحد.

يجب على المسلم أن يكون مسابقا في طريق الخير، فلا يقتصر على تشخيص ذلك الطريق وسلوكه، بل أن يسرع في ذلك السلوك: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾[1]، وإضافة على ذلك، فإنّه يجب أن يسبق الآخرين ويتقدّمهم في أعمال

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١٣٣.




الخير، لكي تكون تلك الخيرات ـ من قبيل المغفرة، والفضيلة، والعدالة والتقوى التي هي السَبَق والسُبقة والجائزة التي تعطى للسابق ـ من نصيبه.

كما أنّ تلك السرعة هي الارضية للتسابق؛ إذ إنّ من سيكون السابق هو الاسرع على هذا الطريق، ومن الطبيعي أنّ المسارع على هذا الطريق لن يكون نصيبه الضرر والصدمات؛ إذ ليس من تزاحم في المسائل المعنويّة لكي ينشأ من ذلك التزاحم ضرر وصدامات، وإن كان على ذلك الطريق نفسه عقبات كؤودات، نعم، يجب أخذ الحذر والحيطة في الحركة في مجال الامور المادية، فيجب مراعاةُ الهدوء والدقة في الحركة في هذا المجال؛ إذ إنّ المعوّقات الداخلية والخارجية تملأ هذا الطريق وتتخلّل تلك الحركة بأشكال متعددة، من قبيل رفاق السوء.

وأمّا الطريق الّذي لا يسلكه إلّا الرسل والصديقون والشهداء والصالحون، فلا تزاحم بين سالكيه أبدا: ﴿**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً**﴾[1]. فكلام الاناس الالهيّين هو: ﴿**وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾[2]؛ يعني طلب أوصاف أهل الجنة: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الانْهَارُ**﴾[3].

رفاق من هذا النوع هم خير الرفاق؛ إذ لا يقتصر الامر على عدم مزاحمتهم أو معارضتهم للآخرين، بل يتعدّى ذلك إلى أن يكون السابق منهم داعيا إلى توفيق الاخرين من السالكين، كما أنّ الآخرين من السالكين يدعونه سبحانه وتعالى بالمغفرة للسابقين: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالايمَانِ**﴾[4]،

---

١ . سورة النساء، الآية ٦٩.

٢ . سورة الحشر، الآية ١٠.

٣ . سورة الاعراف، الآية ٤٣.

٤ . سورة الحشر، الآية ١٠.

ومن هنا، فلا تزاحم أبدا بين سالكي طريق الخير، مما يهيء الارضية للمسارعة من قبل الجميع على هذا الطريق بكلّ سلامة وطمأنينة، نعم، هناك الشيطان الكامن في أوّل الطريق فقط ليقطع هذا الطريق على من رام السلوك: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1]، وأمّا بعد طيّ هذه العقبة، فإنّ الطريق سالك آمن للسالكين ولمن رام التقدّم على مدّ البصر، وهذا ما يوجّه أمره سبحانه وتعالى بالاسراع في طيّ الطريق في قوله عزّ من قائل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[2]، ولو لم يسرع الانسان، فلن يكون هناك أيّ مجال لأن يسبق غيره ويتقدّمه[3].

لا يقتصر الامر في التسابق في الفضائل على عدم كونه مذموما، بل يتعدّى الامر ذلك إلى كونه ممدوحا أيضاً؛ فإنّ التسابق في التواضع مثلا يجعل الانسان المتواضع أكثر ترابيّة، ومثل هذه المسارعة في مثل هذا الامر مثلا، كما تعتبر أمرا محبوبا بنفسه، فإنها تجعل الانسان بنفسه محبوبا عند الاخرين إضافة على ذلك.

---

١ . سورة الاعراف، الآية ١٦.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٣٣.

٣ . العجلة صفة للمتحرّك قد يرافقها المذمة أحيانا كما ورد في قولهم: «العجلة من الشيطان» (بحار الانوار، ج٦٨، ص٣٤٠)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ الانسَانُ عَجُولاً﴾. (سورة الاسراء، الآية ١١) الوارد ان في مقام الذم، وإن كان قد يؤمر بها أحيانا أخرى، كما في قولهم: «عجّلوا بالصلاة قبل الفوت، وعجّلوا بالتوبة قبل الموت».

وأمّا صفة السرعة المرضيّة، فهي صفة للحركة، فيقال مثلا: «تلك الحركة سريعة» إلّا أنّه لا يقال مثلا: «الحركة الفلانية عجولة».

والمغزى: أنّ العجلة وما شابهها تكون صفة للشخص، خلافا للعجلة التي لا تكون كذلك أبدا، يعني: قد أخذ في اتّصاف الشيء بالعجلة انتسابها إلى فاعل ذي شعور، وأمّا في اتّصاف الحركة بالسرعة، فليس الامر كذلك، كما أنّ الحركة من حيث كونها حركة تتصف بالسرعة والبطء، إلّا أنّها لا تتصف بالعجلة والتأنّي أبدا.




وأمّا التسابق المذموم غير المرضيّ، فهو ما يكون سببا للكبر وإعجاب الانسان بنفسه، أو سببا في تفاقم تلك الحالات المرضية عنده، فمثل هذا التسابق كما أنّه أمر مذموم منهيّ عنه، فهو يؤدّي إلى ذمّ الانسان المتصف بتلك الصفة بنفسه أيضاً.

**تنويه**: ذكر الفخر الرازي وبعض آخر من المفسّرين وجوها كثيرة للاستدلال بالآية الّتي هي محلّ البحث على أفضلية تقديم الصلاة في أوّل وقتها[١]، إلّا أنّ نقل تلك الاوجه، وتشخيص الموقف منها، وتحديد المرجّح منها في هذا المجال، وهو التقديم كما يقول الشافعي، أم عدم ترجيح ذلك كما هي فتوى الحنفيّة، خارج عن حيطة البحث التفسيري[٢].

## الإحضار الظاهر والخفي، والجزئي والكلي

كلّ شخص من الاشخاص يختار الطريق الّذي يرتضيه، إلّا أنّ الطرق كلّها تنتهي إليه سبحانه وتعالى، وليس من الممكن أن ينتهي طريق من الطرق، سواء أكان من طرق الخير أم من طرق الشر إلى سواه تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الانسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ**﴾[٣]

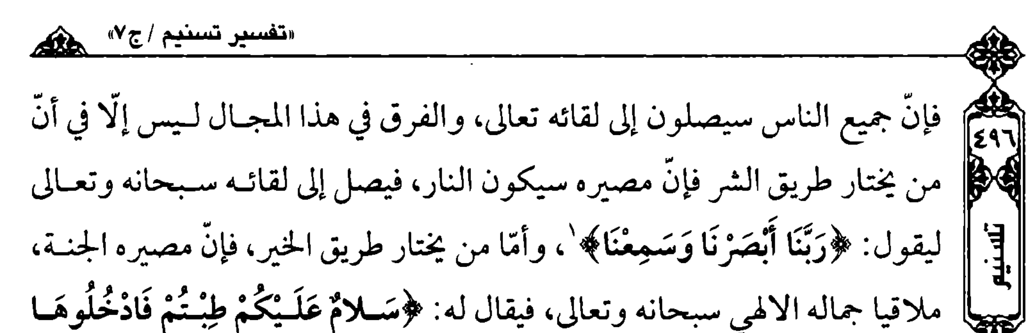
ولمّا كانت صيرورة هذا السير وهذا السير بنفسه ممّا يحتاج إلى المحرّك بالذات، ولمّا كان المبدأ التحريكي الواحد بالذات هو الله سبحانه وتعالى، نجد أنّ القرآن الحكيم يعتبره سبحانه وتعالى العامل الاصلي للجمع بين الكلّ، ومن هنا، نسمعه تعالى يقول: ﴿**أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعاً**﴾، بناء على هذا،

---

١ . التفسير الكبير، ج٤، ص١٣٣.

٢ . المصدر السابق، ص١٣٥.

٣ . **سورة الانشقاق**، الآية ٦.



فإنّ جميع الناس سيصلون إلى لقائه تعالى، والفرق في هذا المجال ليس إلّا في أنّ من يختار طريق الشر فإنّ مصيره سيكون النار، فيصل إلى لقائه سبحانه وتعالى ليقول: ﴿**رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا**﴾[1]، وأمّا من يختار طريق الخير، فإنّ مصيره الجنة، ملاقيا جماله الالهي سبحانه وتعالى، فيقال له: ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾[2]. كما يقال عن هؤلاء أيضاً: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾[3].

والله سبحانه وتعالى الّذي لا يخرج عن حيطة علمه وقدرته اللامحدودة أيّ شيء، قادر على إحضار الانسان حيثما كان من أجل الحساب والحكم: ﴿**أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، كما أنّ الحال في التوفّي وقبض الروح والاماتة كذلك أيضاً، حيث يقول تعالى: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ...**﴾[4].

ويحتاج الاحضار قبل القدرة إلى العلم، فالقادر على إحضار من كان مستورا غائبا من الافراد ليس إلّا العالم بمكانه، ما يعني لزوم أن تكون القدرة إلى جانب العلم، وعليه، فمع أنّه قد استدلّ في هذه الآية بقدرته سبحانه وتعالى، إلّا أنّه استدل في آية اخرى نقلا عن حضرة لقمان بعلمه تبارك وتعالى. فقد كان لقمان الحكيم في مقام الكلام عن علمه سبحانه وتعالى، فنقل عنه القرآن الكريم ذلك بقوله عزّ من قائل: ﴿**يَا بُنَيَّ إنها إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أو فِي السَّمَوَاتِ أو فِي الارْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾[5].

---

١ . سورة السجدة، الآية ١٢.

٢ . سورة الزمر، الآية ٧٣.

٣ . سورة القيامة، الآيات ٢٢ ـ ٢٣.

٤ . سورة النساء، الآية ٧٨.

٥ . سورة لقمان، الآية ١٦.

وأمّا السرّ في الاستدلال بعلم الله سبحانه وتعالى في هذا المجال، فهو أنّ المانع من العلم والشهود إمّا أن يكون دقّة الشيء وظرافته، أو بعده، أو الظلمة والحجاب، فإنّ كان الشيء دقيقا جدّا، أو بعيدا كذلك، أو قابعا في الظلمة، أو كان خلف حجاب أو ستر، فإنّه لن يكون حاضرا عند الانسان ولا مشهودا من قبله، وأمّا بالنسبة إليه سبحانه وتعالى، فإنّه لا يصلح أيّ أمرٍ من الامور السابقة مانعا عن الحضور والشهود، فكلّ شيء إذن مهما كان، وفي أيّ مكان كان، فهو في مشهده عزّ وجلّ.

والحاصل: أنّه تعالى مطّلع على جميع الاشياء لا يخفى عليه شيء منها، ولّما كانت قدرته لا محدودة، فإنّ ما يعلم به فهو قادر على إحضاره، وإن كان حبّة من خردل من خاطرة أو وصف أو عمل خارجي من أعمال الانسان، حيث نحن نسمعه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[1].

**تنويهان:** ١ ـ الفعل «كان» في الآية الّتي هي محلّ البحث: ﴿تكونوا﴾ فعل تامّ لا ناقص، ومن هنا، فإنّه لا يحتاج إلى الخبر.

٢ ـ الرسالة التي تبلغها الآية الشريفة، هي الوعد للصالحين والوعيد للطالحين.

## إشارات ولطائف

### إختيارالانسان في انتخاب الطريق والامداد الالهي للصالحين والطالحين

لكلّ شخص من الاشخاص مسير وجهة تقع مسؤولية انتخابها واختيارهما على عهدته، إلّا أنّ من يسير به في تلك الجهة هو الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

---

١ . سورة الانبياء، الآية ٤٧.




فالله سبحانه وتعالى هو الّذي يعيّن كلّا من طريقي الخير والشرّ ويشخّصهما، ويجعل في نفس الانسان ما يعينه على ذلك التشخيص: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1] كما أنّه أعطى للجميع الميل نحو التقوى والخير، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[2]، بحيث إنّ الجميع قد خلقوا عارفين بالفجور والتقوى، كما أنّهم خلقوا طلّابا للتقوى وتحصيلها، ولم يخلق أيّ واحدٍ من الناس طالبا للفجور، نعم، من الطبيعي أنّ الجميع مختارون أحرار في انتخاب الطريق، وإن كانوا مأمورين شرعا باختيار طريق الخير والتقوى، فكلّ شخص مختار في اختيار ما ينتخبه من طريق ويسلكه، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وأَمّا كَفُورا﴾[3]، وقال أيضاً: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[4]، وقال عزّ من قائل: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[5]، إلّا أنّ الناحية التشريعية تختلف عن ذلك تماما؛ فإن في انتخاب طريق الحقّ والسير عليه الثواب، وفي اختيار طريق الباطل والسير عليه العقاب.

وعلى أيّ حال، فإنّ المَوَلّي ومن بيده أزمّة الامور هو الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، فلو اختار شخص مّا طريق الحقّ، فإنّ ملائكته سبحانه وتعالى ستأخذ بيده لتوصله إلى المقصد، وأمّا لو اختار طريق الباطل، فسيجد الشياطين المأمورين من قبله تعالى، والمظهر لاسم المُضلّ، وكما الكلاب المعلّمة التي تعرف من تأخذ، بانتظاره، تأخذ بزمامه إلى النار، قال تعالى: ﴿كُتِبَ

١ . سورة الشمس، الآيات ٧ ـ ٨.
٢ . سورة الروم، الآية ٣٠.
٣ . سورة الانسان، الآية ٣.
٤ . سورة البلد، الآية ١٠ .
٥ . سورة الكهف، الآية ٢٩.



**عَلَيْهِ أنّه مَنْ تَوَلَّاهُ فأنّه يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾**[1] والملائكة والشياطين تعمل تحت ربوبيته سبحانه وتعالى ربّ الكون بلا أيّ استقلال عنه لكي يلزم محذور الثنويّة وما شابهه.

وكما أنّ الله سبحانه وتعالى لا يجبر أيّ انسان على انتخاب طريق خاصّ دون غيره من الطرق، فإنّه لا يسدّ المجال أمام أيّ طريق من تلك الطرق أمام أيّ إنسان، بل لأجل الامتحان والاختبار، فإنّه تعالى يفتح المجال أمام الفريقين: الصالح والطالح، موفرا الوسائل اللازمة إلى ما يختاره من طريق، فكما يمدّ يد العون إلى هؤلاء الذين يختارون طريق الخير ومن يريد الآخرة، فإنّه يقوم بذلك تجاه مريدي العاجلة والدنيا، قال تعالى: **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً * كُلَّا نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾**[2]

ولا يقتصر الامر على توفيره سبحانه وتعالى لوسائل السير على الطريق الّذي يختاره الانسان بحريّة وبدون إجبار من أيّ شخص، بل يتعدى الامر ذلك إلى تسهيل وتيسير السير على ذلك الطريق، قال تعالى: **﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾**[3]، لكي يصل من يريد الجنة إليها بسهولة ويسر، ويصل من اختار الجحيم إلى الجحيم بسهولة أيضاً، وعلى أساس هذه القاعدة العامّة (تيسير السبيل)، نجد أنّ بعض الافراد يكونُموفّقاً جدا في أعمال الخير، بحيث يكون عمل الخير منه سهلا يسيرا، قال تعالى: **﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ**

---

١ . سورة الحجّ، الآية ٤.

٢ . سورة الاسراء، الآيات ١٨ ـ ٢٠.

٣ . سورة عبس، الآية ٢٠.

لِلْيُسْرَى﴾[١]، كما أنّنا نلاحظ أنّ بعض الاشخاص يختاروا الصفات الرذيلة بسهولة أيضاً وبدون أيّ تكلف، قال تعالى: ﴿وأمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[٢]. والرسل عليهم السلام ـ وهم قدوة جميع الناس ـ لا يخرجون عن تلك القاعدة العامّة، فهم مشمولون للطفه تعالى، فيسهّل الله سبحانه وتعالى عليهم طريق الخير، ومن هنا، نجد الكليم موسى عليه السلام يطلب منه تعالى أن ييسّر له أمره، قال تعالى حاكيا لذلك: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾[٣]، كما نحن نسمعه سبحانه وتعالى مخاطبا الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله قائلا: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾[٤].

## البحث الروائي

### جمع واجتماع أصحاب إمام الزمان 3

عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعاً﴾، قال: **«نزلت في القائم وأصحابه، يجمعون علي غير ميعاد»**[٥].

ـ عن مفضّل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: **«لقد نزلت هذه الآية في المفتقدين من أصحاب القائم 3 ، قوله عزّوجلّ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعاً﴾، إنّهم لمفتقدون عن فرشهم ليلاً، فيصبحون بمكّة وبعضهم يسير في السحاب نهاراً يعرف اسمه واسم أبيه وحليته ونسبه». قال: «فقلت: جعلت فداك، أيّهم أعظم إيماناً؟ قال: الّذي يسير في السحاب نهاراً»**[٦].

---

١ . سورة الليل، الآيات ٥ ـ ٧.
٢ . سورة الليل، الآيات ٨ ـ ١٠.
٣ . سورة طه، الآية ٢٦.
٤ . سورة الاعلىٰ، الآية ٨.
٥ . بحار الانوار، ج٥١، ص٥٨.
٦ . المصدر السابق، ج٥٢، ص٢٨٦.



ـ عن أبي جعفر عليه السلام في قـول الله عزّوجـلّ: ﴿فَاسْـتَبِقُوا الْخَـيْرَاتِ أَيْـنَ مَـا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعاً﴾، قال: «الخـيرات: الولايـة، وقولـه تبـارك وتعـالي: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعاً﴾، يعني أصحاب القائم الثلاثمائـة والبضـعة عشر رجلاً». قال: «وهم والله الامّة المعـدودة». قـال: «يجتمعـون والله في سـاعة واحدة قزع كقزع الخريف»[١].

عن عليّ عليه السلام في قوله تعالي: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَـذَابَ إِلى أُمَّـةٍ مَعْـدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾[٢] قال: «الامّة المعدودة، أصـحاب القـائم الثلاثمائـة والبضـعة عشر»[٣].

ـ عن أبي سمينة عن مولى لأبي الحسن قـال: سـألت أبـا الحسـن عليه السلام عـن قوله: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعاً﴾، قـال: «وذلـك والله أن لـو قـد قـام قائمنا يجمع إليه شيعتنا من جميع البلدان»[٤].

ـ قال أبو جعفر عليه السلام: «والله، لكأنّي أنظر إلى القائم 3 وقد أسند ظهره إلى الحجر... فيكون أوّل من يبايعه جبرئيل، ثمّ الثلاثمائة والثلاثة عشر رجلاً، فمـن كان ابتلي بالمسير، وافاه، ومن يبتل بالمسـير، فقـد عـن فراشـه، وهـو قـول أمـير المؤمنين: هم المفقودون عن فرشهم، وذلك قول الله: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَـا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعاً﴾»[٥].

**إشارة:** على أسـاس مـا تقـدّم مـن روايـات، وكـذلك عـلى أسـاس بعـض الاحاديث الاخرى الواردة في هذا المجال، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ

١ . الكافي، ج٨، ص٣١٣.

٢ . سورة هود، الآية ٨.

٣ . تفسير القمي، ج١، ص٣٢٣.

٤ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٦.

٥ . تفسير القمي، ج٢، ص٢٠٥.

بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ناظر إلى أصحاب حضرة ولي العصر 3 . وهم ٣١٣ نفرا، ففي أيّ وقت يجتمع فيه هذا العدد من جامعي الشرائط الخاصّة، فإنّه سبحانه وتعالى يجمعهم حيثما كانوا ليتشرّفوا بالحضور عند الحجّة 3 ، ليشكّل عليه‌السلام الحكومة العالمية بمعونة هؤلاء.

وهذا النوع من الروايات من باب التطبيق لا التفسير، فلا تنافي بين هذا المعنى التطبيقي والمعنى العامّ الشامل الّذي قدمناه سابقا.

* * *

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

## التفسير المختار

حكم التوجّه إلى الكعبة لا يختصّ بحال الحضور والاقامة في الوطن كالمدينة المنورة مثلا، فالمصلّي سواء أكان في سفر أم حضر، وسواء أكان قريبا أم بعيدا، حتى لو كان إلى جانب صخرة بيت المقدس التي كانت قبلة إلى الآن (نزول الآية الشريفة)، فإنّه يجب عليه التوجّه إلى الكعبة.

المخاطب بهذه الآية الشريفة هو الرسول الاكرم ﷺ، إلّا أنّ الرسالة التي تحملها الآية الكريمة عامّة لا تختصّ به ﷺ؛ فإنّه المستلم الاصلي للوحي وأسوة الجميع، وعدا الموارد القليلة الخاصّة التي قام الدليل فيها على اختصاصه ﷺ بحكم من الاحكام، فإنّه لا حكم خاصّ به، بل هو حكم عامّ للجميع، فقبلة الجميع الكعبة، وهذا الحكم حقّ ثابت غير قابل للنسخ وليس بباطل؛ فإنّه منه تعالى.

### تفسير المفردات

**تعملون:** «العمل» الفعل الّذي يصدر عن الانسان أو الحيوان مع القصد[1].

---

١ . **المفردات**، ص٥٨٧، «ع م ل».

## تناسب الآيات

نشر المجادلات والكلام المثير للفتنة في ما يرجع إلى مسألة القبلة، وخاصّة إذا كان ذلك من قبل أهل العلم والكتاب والمعروفين بالصلاح والصواب، يهيّئ الارضيّة للنفاق والشقاق وازدهار الباطل والفسق، هذا الامر اقتضى مزيد التأكيد في مجال القبلة، للتعظيم من شأن القبلة وتضعيف شبهات السفهاء، ومن هنا، قال سبحانه وتعالى للمرّة الثانية: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ...﴾[1] فهذه الآية الشريفة عطف على جملة: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[2].

وإضافة على كون نسخ حكم من قبيل التوجّه إلى بيت المقدس يعتبر موردا من موارد الفتنة والشبهة، ويعتبر تكرارا للامر باستقبال الكعبة، فإنّ الآية الشريفة تؤكّد على مسألة كون الكعبة قبلة، كما أنّها تعتبر تثبيتا وتقوية لمن يتّبع ذلك الامر[3].

إعادة الامر السابق، وعطف ذلك الحكم على حكم متّسق معه، يستفاد منه:

أوّلا: أنّ لزوم استقبال الكعبة حكم عامّ شامل لكلّ زمان ومكان، وأمّا نزول الامر السابق حال الصلاة، فإنّه لا يصلح سببا لاختصاص الحكم المزبور بتلك الصلاة أو بذلك المكان[4].

ثانياً: لا مجال للتهاون في أمر القبلة واستقبالها أبدا، الامر الشامل لكلّ الحالات التي يمرّ بها الانسان في الصلوات الواجبة حتّى في حال السفر الّذي لا يخلو فيه العلم بالقبلة والتوجّه إليها من الصعوبة[5].

---

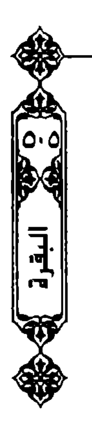
١. نظم الدرر، ج١، ص٢٧٢.

٢. سورة البقرة، الآية ١٤٤.

٣. الاساس في التفسير، ج١، ص٣١٧.

٤. تفسير المنار، ج٢، ص٢٣.

٥. تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٤٤.




**والخلاصة:** ١ ـ القبلة شعار كيان الامّة.

٢ ـ تغيير القبلة كان باعثا على إثارة فتنة البعض وإعراض البعض الآخر، واعتراض البعض ومعارضة آخرين.

٣ ـ أصل النسخ ـ خاصّة أوّله، وهو ما وقع في حادثة القبلة ـ كان موردا من الموارد التي استغلّها السفهاء معوجّو التفكير.

الامور المذكورة وما شابهها، كانت السبب في تكرار حكم القبلة في الآية الّتي هي محلّ البحث والآية التالية لها، وقد ذكر لكلّ مورد نكتة خاصّة به سوف نتعرّض لها في ما بعد إن شاء الله تعالى.

❀ ❀ ❀

## أهمية القبلة وسرّ تكرار حكمها

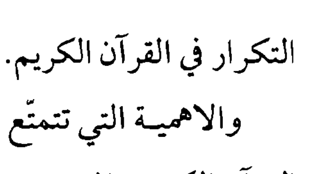
أعلن القرآن الحكيم أنّ مسألة القبلة والتغيير الّذي حصل فيها، حيث غيّرت من بيت المقدس إلى الكعبة، وإعلان الكعبة قبلة دائمة، كانت كلّ تلك المسألة أمرا كبيرا بالنسبة إلى البعض، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾.

وعندما يعتبر الله سبحانه وتعالى أمرا من الامور (كبيرة)، فإنّ من المعلوم أنّ الصبغة السياسية الاجتماعية لذلك الامر شيء مهم جدا، فما يعتبر أمرا عظيما عند المجتمع، فإنّ موقف الآخرين منه، وقبوله أو رفضه والنكول فيه، يستحقّ تمام الاهتمام وكمال التوجّه.

وقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام، أنّه لمّا لم يكن جميع الناس ممّن يحفظ جميع القرآن، بل كان بعض منهم يحفظ بعضا منه، صار ذلك باعثا على تكرار القصص القرآنية في عدّة مواضع من القرآن الكريم، لكي تتمّ الفائدة وتعمّ أكبر عدد منهم[١]، وواضح أنّ مضمون هذا الحديث يصلح توجيها لأصل ظاهرة

---

١ . **الجامع لأحكام القرآن**، مج١، ج٢، ص١٥٨، مع بعض تصرف.



التكرار في القرآن الكريم.

والاهمية التي تتمتّع بها القبلة، كانت بحيث صارت ظاهرة خاصّة في القرآن الكريم؛ إذ نجده تعالى يكرّر الامر بها خمس مرات في فترة قصيرة، وهذا أمر نادر لم يبرز في غير مجال القبلة؛ فقد تعرّض لها القرآن الكريم قبل ذلك مرّتين: في قوله تعالى: **﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾**[1]، ومرّة في الآية الّتي هي محلّ البحث، حيث نسمعه تعالى يقول: **﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾**، ثم يتعرّض القرآن الكريم لها مرّتين في الآية الشريفة التالية، حيث يقول عزّ من قائل: **﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾**.

إنّ في التكرار المزبور نقاطاً عديدةً يمكن الاشارة إلى بعضها في ما يلي:

١ ـ إنّ المصلي إمّا أن يكون في المسجد الحرام، وإمّا في مكّة خارج المسجد الحرام، وإمّا في خارج مكّة، والآيات والاوامر الثلاثة المذكورة تنظر إلى هذه الحالات الثلاث بالترتيب، وسيأتي توضيح هذه النقطة في البحث التفسيري للآية التالية إن شاء الله تعالى.

٢ ـ في كلّ مورد من الموارد التي ذكرت فيها القبلة، تعرّض القرآن الكريم إلى مطلب جديد في ذلك المورد؛ إذ في المورد الاوّل تعرّض القرآن الكريم إلى اطّلاع أهل الكتاب وعلمهم بحقّانية النبوّة والقبلة الاسلامية، وأمّا في المورد الثاني، فنجد القرآن الكريم يتعرّض إلى شهادته سبحانه وتعالى بحقّانية ذلك، وفي المورد الثالث، نسمع القرآن الكريم يتكلّم عن قطع الطريق أمام الحجّة من

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٤٤.




قبل الناس على المسلمين، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[1].

٣ـ في المورد الاوّل (الآية ١٤٤)، جاء الكلام عن تحقيق رضا الرسول الاكرم ﷺ، ولأجل دفع توهّم الرضا الشخصيّ في مجال الحقّانية.

وفي المورد الثاني (الآية الّتي هي مورد بحث) كررت الاشارة لأجل إزالة توهّم البطلان.

وأمّا في المورد الثالث (الآية ١٥٠)، فقد أشير إلى الحقّانية بمعنى ثباتها واستمرارها، من أجل رفع توهّم إمكان النسخ، وبتعبير آخر مع القليل من الاختلاف: في المورد الاوّل أشير إلى إكرام رسول الله ﷺ، وفي المورد الثاني، إلى أنّ لكلّ أمّة من الامم قبلة خاصّة، وأنّ قبلتكم هي القبلة الفضلى، وأمّا في المورد الثالث، فقد أشير إلى قطع مطامع الاجانب من النسخ، وأنّ القبلة دائمة لا رجعة فيها.

إنّ تكرار مطلب من المطالب، مع مرافقة ذلك التكرار في كلّ مورد مورد منه نقطة جديدة لم يتعرّض لها من قبل، وبتعبير أدبي جديد، يبعد كلّ شعور بالملل من التكرار، من قبيل ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2]، ومن قبيل قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3].

النقاط المزبورة يمكن التوصل إليها من مطالعة جملة من التفاسير، من قبيل

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٥٠.

٢ . سورة البقرة، الآية ٧٩.

٣ . سورة الشعراء، الآيات ٨، ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٧٤، و ١٩٠.

تفسير أبي الفتوح الرازي[١]، وتفسير الفخر الرازي[٢] وتفسير الميبدي[٣]، وإن لم تخل بعض هذه النقاط من تكلّف.

## الكعبة قبلة في جميع الاحوال

ولأجل ألّا يظن بأنّ التوجّه إلى الكعبة حكم خاصّ بحالة الحضور والاقامة في الوطن من قبيل المدينة المنورة مثلا، ولأجل أن يقف المسلمون على أنّ القبلة هي الكعبة في جميع الاحوال، السفر والحضر، البعد والقرب، بل حتّى في السفر إلى الشام وبيت المقدس والكون إلى جانب صخرة بيت المقدس التي كانت القبلة إلى حين نزول الآية الشريفة الآمرة بالتحوّل من بيت المقدس إلى الكعبة، من أجل التنبيه على ذلك كله، نسمعه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. فالقبلة ليست من قبيل الصيام من حيث اختلاف الحكم بين السفر والحضر.

**تنويه:** قد يكون الخروج في مقابل الدخول والورود أحيانا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾[٤]، كما أنّه قد يكون في مقابل البقاء أحيانا أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾[٥].

والمطروح من الخروج في الآية الشريفة التي بين أيدينا، هو الخروج بمعنى السفر المقابل للبقاء والحضر. المقصود طبعا ليس هو السفر الفقهي الّذي يشترط

---

١ . روض الجنان، ج٢، ص٢٢٠.
٢ . التفسير الكبير، ج٤، ص١٥١.
٣ . كشف الاسرار، ج١، ص٤٠٩.
٤ . سورة الاسراء، الآية ٨٠.
٥ . سورة الأنفال، الآية ٥.

فيه قصد مسافة خاصّة (ثمانية فراسخ) وضمن ضوابط محدّدة، بل المراد صرف الخروج من الوطن ومحل الاقامة.

## الخطاب العام والمخاطب الخاص

مخاطب الآية الشريفة هو الرسول الاكرم ﷺ، إلّا أنّ الامر هنا ـ شأنه شأن سائر التكاليف والاوامر الدينية ـ يشمل جميع المسلمين، كما هو الحال في الصلوات الخمس وأوقاتها، فمع أن المخاطب هناك هو الرسول الاكرم ﷺ، إلّا أنّ الرسالة التي جاءت بها الآية الشريفة عامّة شاملة للجميع: ﴿أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[1].

والسر الكامن وراء ما تقدّم من كون الخطاب خاصّا والمخاطب عامّا، هو كون الرسول الاكرم ﷺ هو المستلم الاصليّ للوحي من جهة، وكونه ﷺ القدوة للمسلمين جميعا من الجهة الاخرى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2].

بناء على هذا، ليس هناك أيّ حكم مختصّ بالرسول الاكرم ﷺ إلّا أن يكون عائدا إلى الرسالة والنبوّة، أو أن يكون هناك دليل وقرينة خاصّة على اختصاص الحكم به ﷺ، كما هو الحال في ما كان بعد الاشارة إلى الصلوات الخمس وأوقاتها؛ إذ بعد تلك الاشارة جاء قوله سبحانه وتعالى الوارد في صلاة الليل الخاصّة به ﷺ: ﴿وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾[3]. فإنّ عبارة: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ علامة على اختصاص وجوب صلاة الليل به ﷺ. كما أنّ الروايات تثبت الاختصاص المزبور أيضاً[4].

---

١ . سورة الاسراء، الآية ٧٨.

٢ . سورة الاحزاب، الآية ٢١.

٣ . سورة الاسراء، الآية ٧٩.

٤ . بحار الانوار، ج١٦، ص٣٧٧ و٣٨٢ ـ ٣٨٣.

من الجدير بالانتباه ما جاء في القرآن الكريم من أجل بيان أهمية القبلة إضافة على ما سبق وذكرناه؛ حيث نجد القرآن الكريم يخاطب المسلمين إضافة على مخاطبته للرسول الاكرم ﷺ، فلم يقتصر في هذا المجال على مخاطبته ﷺ، بل تعدّى ذلك إلى مخاطبة جميع المسلمين، حيث يقول عزّ من قائل: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[1] وهو خطاب له ﷺ، كما يقول عزّ من قائل: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[2]، وهو خطاب لجميع المسلمين.

## القبلة غير القابلة للنسخ

وبعد ما سبق من كلامه سبحانه وتعالى، يذكر في تتمّة الآية الّتي هي محلّ البحث أنّ استقبال الكعبة والتوجّه إليها باعتبارها قبلة، هو حقّ (ثابت) من طرفه، فيقول عزّ من قائل: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، الجملة الناظرة إلى عدم قابلية نسخ حكم القبلة أيضاً.

إنّ عنوان حقّانية القبلة إنّما هو بمعنى كونها ثابتة في مقابل كونها متغيّرة، لا بمعنى كونها حقا في مقابل الباطل؛ فإنّ جميع الاحكام ـ أعمّ من أن تكون ناسخة أو منسوخة ـ هي منه سبحانه وتعالى ومن طرفه، وهي كلّها حقّ في مقابل الباطل، وفي الوقت نفسه، فإنّ بعضها ليس ثابتا، بل هو ممّا يقبل النسخ، والرسالة التي تؤدّيها الآية الشريفة الّتي هي محلّ الكلام، هي أنّ مسألة القبلة والحكم الّذي أنزل في مجالها ـ وهو ما كان موردا لهجوم السفهاء وانتقاداتهم ـ كما أنّه منه سبحانه وتعالى وليس أمرا باطلا، فهو ثابت غير قابل للزوال والنسخ.

---

١ . سورة البقرة، الآيات ١٤٤ و١٤٩ ـ ١٥٠.

٢ . سورة البقرة، الآيات ١٤٤ و١٥٠.

## عدم غفلته سبحانه وتعالى

بعد التحذير الّذي أطلقه القرآن الكريم في الآية الشريفة: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، يتعرّض في تحذير آخر له إلى أنّه سبحانه وتعالى ليس غافلا عن أيّ عمل من أعمال عباده، فيقول: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وهو المطلب الّذي يتعرّض إلى من كتم حقّانية قبلة الاسلام مع سبق العلم والاطلاع، ومن كان يتعرّض إلى المسلمين بالطعن والتعيير، فيقول عزّ من قائل: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنّه الحقّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[2].

والتعبير السابق مشابه للتعبير التهديديّ الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[3]، ومن كان بالمرصاد فلن يكون غافلا طرفة عين، من الطبيعي أنّ عموم الآية بالنسبة إلى المؤمن وغير المؤمن والصالح والطالح محفوظ في المقام، ومن هنا، فإنّها شاملة لوعد الصالحين كما أنّها شاملة لوعيد الطالحين، وإن كان هناك ظهورات مختلفة تبعا لاختلاف القراءة في المقام بين الخطاب والغيبة.

توضيح ذلك: أنّه بناء على اعتبار ﴿تعملون﴾ خطابا للمؤمنين، فإنّ الوعد وكذا الوعيد سيكوناً مفهومين ضمنا من الآية الشريفة، وأمّا بناء على اعتبار ﴿تعملون﴾ خطابا للمخالفين، فإنّ وعيد هؤلاء سيرافق ذلك، من الطبيعي أن أصل الحكم، يعني نزاهته سبحانه وتعالى من الغفلة أمر مطلق، كما أنّ الوعد في مقابل الحسنة والوعيد في قبال السيّئة عامّانِ أيضاً لا يختصّان بمجموعة خاصّة.

* * *

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٤٨.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٤٤.

٣ . سورة الفجر، الآية ١٤.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

## التفسير المختار

كان لاستقبال المسلمين لبيت المقدس في صلاتهم ردود فعل عديدة، فإضافة على أنّه كان سببا في الطعن والتعيير بالتبعية من قبل اليهود وعدم الاستقلال في القبلة كما تقدّم، كان سببا في إثارة اعتراضين مختلفين يلبسان لباس الانصاف والحجّة في الوهلة الاولى، وهذان الاعتراضان هما:

١ ـ إعتراض المشركين بالنسبة إلى عدم استقبال نبيّ الاسلام ﷺ أثر حضرة إبراهيم الخالد ـ يعني الكعبة ـ مع أنّه كان يدّعي التبعيّة لدينه الحنيف.

٢ ـ الاشكال الّذي كان يثيره أهل الكتاب؛ حيث إنّ الوارد في كتبهم السماوية هو أنّه لا يمكن أن يكون بيت المقدس قبلة دائمية له ﷺ.

وقد كان تغيير القبلة خاتمة لهذا النوع من الطعون والتعييرات والاعتراضات التي أثيرت بوجه المسلمين، إلّا أنّهم وجدوا أنفسهم في مواجهة اعتراض سفيه من نوع آخر، وهو الاعتراض على المسلمين من حيث عدم ثبات قبلتهم واستقرارها.

وقد أجيب على الاعتراض السابق بأنّ الجهات جميعها لله سبحانه وتعالى، وليس لأيّة جهة من الجهات تعيّنا ذاتيا في أن تكون هي القبلة دون غيرها من الجهات.

الجواب السابق أدّى إلى أن تتّخذ الاعتراضات بعده منحرفا خطيرا وتتّخذ شكلا آخر، فقد صارت ظالمة يثيرها اللجاج، إلّا أنّ شدة المسلمين في دينهم وثباتهم على حقّانيتهم التي كان يقودها خشيتهم التوحيدية، كانت السبب من وراء اتّضاح موقفهم إزاء ما كان يثار حولهم من اعتراضات غير موضوعيّة ظالمة.

وقد كان إِتمام النعمة الالهية على المسلمين في ما يرجع إلى مسألة القبلة، وهدايته سبحانه وتعالى لهم إلى الصراط المستقيم في هذه المسألة المهمة والحسّاسة، ما أدّى بالنتيجة إلى تخلّصهم من أغلال التحيّر الّذي كانوا يعانون منه على أثر الاعتراضات التي ما فتأت تصدر من الكافرين والمشركين، كان كلّ ذلك، من النتائج العظيمة الاخرى للقرار الالهي الصادر بتغيير القبلة.

## تفسير المفردات

**حُجّةٌ**: أصل «ح ج ج» بمعنى القصد الملازم للحركة والسعي (البدني أو الفكري). و«حُجّة»: الوسيلة التي يتوصّل بها إلى المقصود في المحاجّة والغلبة الفكرية على الخصم[1].

**فلا تخشوهم**: «الخشية»: الخوف المزوج بالتعظيم، والذي يوجد في أكثر الحالات بسبب معرفة الطرف المقابل الّذي يخاف منه، ومن هنا، نسمع القرآن

---

١ . **التحقيق**، ج٢، ص١٧٩، «ح ج ج».

الكريم يخصّ الخشية بالعلماء، حيث يقول عزّ من قائل: ﴿إنّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[١].

وعلى الرغم من أنّ مفهوم الخشية أضيق من مفهوم الخوف من جهة تقييده بما كان من الخوف عن تعظيم، إلّا أنّه أوسع منه من حيث الاستعمال؛ إذ إنّه يستعمل في الجمادات على نحو استعماله في غيرها، يقول عزّ من قائل: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[٢]، وإن كان إسناد الخوف منه سبحانه وتعالى إليها صحيحا.

وقد ذهب البعض إلى أنّ أصل الخشية هو طمأنينة في القلب تبعث على التوقّي. وأمّا الخوف، فهو فزع القلب تخفّ له الاعضاء، ولخفّة الاعضاء به سمي خوفا[٣].

**نعمتي**: النعمة في مقابل «النقمة»، وهو ما كان فيه للانسان نُعُومة ولطافة.

## تناسب الآيات

جملة ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ تكرار لصدر الآية السابقة بنفس ما كان من ألفاظ لتلك الآية الشريفة، وعطف عليها.

وفي الآية الّتي هي محلّ البحث والآيات السابقة عليها، كرّر الامر باستقبال الكعبة وبيان حقّانيتها عدة مرات، من الطبيعي أنّه على الرغم من وقوع التكرار في أصل قضية القبلة بناء على ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً...﴾[٤]، إلّا أنّ بعض عناوين ذلك، من قبيل ﴿حَيْثُ خَرَجْتَ﴾، و﴿حَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾،

---

١ . سورة فاطر، الآية ٢٨. المفردات، ص٢٨٣، «خ ش ي».

٢ . سورة البقرة، الآية ٧٤.

٣ . الجامع لأحكام القرآن، مج ١، ج٢، ص١٧٠.

٤ . سورة البقرة، الآية ١٤٣.




و﴿مَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، و﴿إنه الحقّ﴾[1]، قد وقع تكراره بعدد خاصّ.

وهذا التكرار ـ كما تعرّضنا لبيانه سابقا ـ كان مترافقا ـ في الكثير من الموارد التي وقع التكرار فيها ـ مع بيان نقطة من النقاط لم ترافق التكرار الآخر، ومن هنا، يمكن اعتبار الحصر المستفاد في الجملة الواردة في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾[2] حصرا إضافيا لا حقيقيّا مطلقا؛ لما كان من حكم اخرى في هذا المجال تعرّضنا لبعضها في ما سبق.

وإضافة على إعادة الاوامر السابقة في الآية الّتي هي محلّ البحث، فإنّه قد جمع فيها بين خطاب الرسول الاكرم ﷺ وخطاب الامّة أيضاً.

وفي مقام إماطة اللثام عن الاسرار الكامنة وراء هذا التكرار والاعادة، ذكرت في هذا المجال ـ إضافة عما ذكرناه في البحث التفسيري للآية السابقة ـ عدّة أمور، منها:

١ ـ تهيئة الارضية لبيان علّة وحكمة تغيير القبلة، الامر الّذي ينظر إليه ذيل الآية الّتي هي محلّ البحث[3].

٢ ـ أنّ إنكار المنكرين لا يكون نتيجته إلّا زيادة صلابة الموقف ممّا هو حق، وهذه الزيادة تستلزم إعادة ما يدل من الكلام عليها؛ فإنّ الاعادة تدلّ على تحقّق الحقّ وعلى الثبات عليه أيضاً[4].

بعض من لم يقبل بالتكرار من المفسّرين ذهب إلى أنّ الاوامر المتكرّرة ناظرة إلى أحوال مختلفة متنوعة؛ فإنّ المصلي قد يكون في المسجد الحرام تارة، كما أنّه قد يكون خارج المسجد الحرام تارة اخرى، وقد يكون في مكّة تارة ثالثةً، وقد يكون

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٤٩.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٤٣.

٣ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٤٤. تفسير المنار، ج٢، ص٢٤.

٤ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٤٥.

في غيرها من المدن تارة رابعةً، وبناء على هذا، فإنّ الامر الاوّل إنّما هو خطاب للمجموعة الاولى ـ يعني من كان يرى الكعبة من الناس ـ وأمّا الامر الثاني، فإنّه لساكني مكّة، والثالث للمجموعة الثالثة ـ يعني من كان يعيش في غير مكّة من المدن الاخرى.

كما أنّه ذكر أنّ الامر الاوّل خطاب لساكني مكّة، والثاني لساكني غيرها من المدن، وأمّا الثالث، فهو لمن كان مسافرا من الناس[1]. وقد صرّح الآلوسي بعدم دليل في البين يدعم المطلب المذكور[2].

❋ ❋ ❋

## سرّ اختلاف التعبير بين ما يرجع إليه ﷺ وبين ما يرجع إلى أمّته

تعبير «الخروج» والسفر في ما يرجع إلى الرسول الاكرم ﷺ هو الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ...﴾، وأمّا التعبير في ما يرجع إلى أمّته، فهو «الكَوْن» الوارد في ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ...﴾.

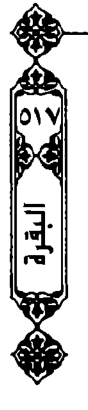
وقد يكون اختلاف التعبير السابق راجعا إلى الاسفار المتكرّرة المتابعة للرسول الاكرم ﷺ، كما هو الحال في ما يمكن أن يكون النظر إليه في ما ورد من وصفه ﷺ من قبل أمير المؤمنين، بقوله عليه السلام: «طبيبٌ دوّارٌ بطبّه»[3].

## إعتراضات المشركين والكافرين بالنسبة إلى القبلة

كان استقبال بيت المقدس في بداية البعثة النبوية الشريفة كما سبق ذكره، كما أنّ تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة كان بعد الهجرة بقليل، وفي كلّ مقطع

---

١. الاساس في التفسير، ج١، ص٣١٨.
٢. روح المعاني، ج٢، ص٢٥.
٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٨.




زمنيّ من المقاطع، واجه المسلمون اعتراضات وإشكالات وطعونا مختلفة متنوّعة من قبل المشركين والكافرين والمنافقين.

وقد سبقت الاشارة أيضاً إلى أنّ تغيير القبلة كان حلّا ناجعا على ما كان يوجّه إلى المسلمين من طعن وتعيير من قبل اليهود، اللذين كانوا يعيّرون المسلمين بعدم الاستقلال في القبلة، وأنّ المسلمين ما هم إلّا تبع لهم في ذلك مقلّدون؛ فإنّهم يتوجّهون في صلاتهم إلى بيت المقدس وهو قبلة هؤلاء قبل المسلمين.

ويمكن تقسيم اعتراضات الآخرين من المشركين وأهل الكتاب إلى أقسام ثلاثة:

القسم الاوّل ـ الاعتراضات التي كان لها ظاهر منصف ومستدل.

القسم الثاني: الاعتراضات السفهيّة.

القسم الثالث: الاعتراضات الظالمة وما كان عن لجاج لا أكثر.

وقد كان اعتراض مشركي الحجاز من قبيل القسم الاوّل من الاعتراضات، وقد كان يتلخّص في الاعتراض على أنّ هذا الّذي يدّعي النبوّة، والذي يدعونا إلى دين إبراهيم عليه السلام وملّته، كيف يترك التوجّه إلى الكعبة، الكعبة التي هي الاثر الخالد لإبراهيم عليه السلام، ويتوجّه بدلا عن ذلك إلى بيت المقدس قبلة اليهود؟!

وأمّا كلام أهل الكتاب الّذي كان ظاهره الانصاف، فملخّصه:

أنّ مراجعة الكتب السماوية السابقة، توصل المراجع إلى أنّ قبلة النبيّ الجديد الدائمية لن تكون بيت المقدس أبدا. فالواجب: إمّا أن يكون للنبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله قبلتان، وإمّا أن تكون تلك القبلة الكعبة لا غير. والحال إنّه ـ بعد مضي ـ أربع عشرة سنة (بناء على تشريع الصلاة أوّل البعثة النبوية الشريفة) ـ لا يزال يتوجّه في صلاته إلى بيت المقدس!

نزول الامر الالهي بتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، كان جوابا عمليا على الاعتراضين المتقدمين؛ ما أخلى يد أهل الاحتجاج بعد ذلك من أيّة حجة في ما يرجع إلى هذه المسألة، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.

بعد تغيير القبلة، كان كلام السفهاء يتلخّص في السؤال عن سبب ترك المسلمين لما كان قبلتهم إلى اليوم، وهو بيت المقدس؟! قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾[1].

وقد أجيب على السؤال السفهيّ السابق بأنّه تعالى ليس في جهة خاصّة دون غيرها، بل لله تبارك وتعالى الجهات كلّها، وليس لأيّة جهة تعيّن ذاتي في أن تكون القبلة لكي يكون التوجّه إليها ضروريا عقلا، وليكون التوجّه إلى غيرها محالا عقلا، بل توجّه المصلّي إلى جهة خاصّة (القبلة) أمر فرعي وفقهي يجب الرجوع فيه إلى ما يصدر عنه سبحانه وتعالى من امر: ﴿قُلْ لله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾[2].

وبعد تغيّر جهة القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وبعد أن انكشف السرّ الكامن خلف ذلك التغيير، فإنّ أحدا لو اعترض وعاند واستمرّ في عناده، فإنّ ذلك الاعتراض سيكون لجاجة وظلما لا غير، كما أنّه سيكشف حينئذ عن عدم اعتقاده بالتوحيد الربوبي من الاساس.

وهذا النوع من الافراد هم أهل اللجاج لا الاحتجاج، ومن هنا، نراهم لا يسلّمون للحجة حين تأتي، كما أنّ إظهار الليونة أمام هؤلاء لن يزيد موقفهم إلّا عنادا ولجاجا، فالموقف الصحيح في مقابل هؤلاء ليس إلّا الثبات وعدم التسليم كالبنيان المرصوص: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، و﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ﴾ بمعنى الوقوف بكلّ صلابة وثبات أمام هؤلاء؛ إذ لا يقال

---

١و٢ . سورة البقرة، الآية ١٤٢.




أبدا لمن كان منزويا بعيدا عن ميدان القتال: «لا تخف»، بل يقال للانسان المقاوم: «لا تخف، وقاوم».

## سرّ إطلاق «الحجّة» على مغالطة الكافرين

تطرّقنا إلى نقاط عديدة في ما يرجع إلى مسألة القبلة، تندرج كلها تحت قوله تعالى: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، وأمّا ذكر بعضها بصورة مستقلّة من قبيل انقطاع حجة الاجانب، فإنما هو من أجل الاهمية والحسّاسية التي تتمتّع بها.

ومن تفصيل الآية، يستفاد جيدا أنّ المعترضين قسمان:

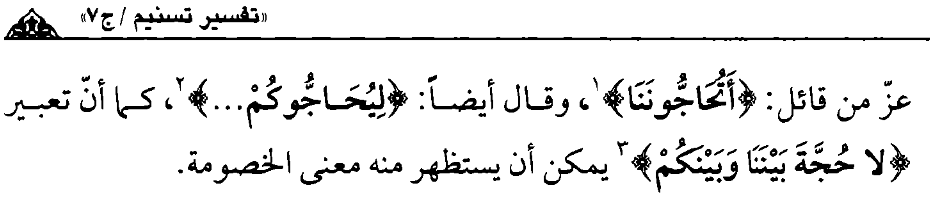
القسم الاوّل: المنصفون ظاهرا أو واقعا بحيث لو وجهوا بالحجّة الالهية لرجعوا عن اعتراضهم وقنعوا.

القسم الثاني: الظلمة الذين يعيشون مع المغالطات.

وهذا القسم الاخير من القسمين ليس مستعدّا أبدا لكي يقتنع بالحجة حيث تظهر، وأمّا تسمية مغالطاتهم ودسائسهم بالاحتجاج في القرآن الكريم، فالسرّ فيه إنّما هو من جهة الشّبه بين ما كان يصدر عنهم من شبه مختلفة وبين الحجّة، وهذا التشابه هو المصحّح للاطلاق المجازي «للحجّة» و«الاحتجاج» على ما كان يصدر عن هؤلاء من شبه واستدلال، كما أنّ هذا الشبه بالحجة الحقيقية كان الموجب لإطلاق «الشبهة» على ذلك، ومن هنا سميت «شُبهة»، على الرغم من أنّ حجّتهم داحضة بمعنى الخصومة والمراء لأجل الخصومة ليس إلّا، وهو ما يستفاد من قوله تعالى في موارد متعددّة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾[2]، وقال

١ . سورة آل عمران، الآية ٦١.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٥٨.







عزّ من قائل: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾[١]، وقال أيضاً: ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ...﴾[٢]، كما أنّ تعبير ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[٣] يمكن أن يستظهر منه معنى الخصومة.

**تنويه:** الاستثناء الوارد في الآية الّتي هي محل بحث، من قبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾[٤] وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ...﴾[٥]، ومن هنا، ذهب البعض إلى كونه استثناء منقطعا، وإن ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ كلمة ﴿إِلَّا﴾ في المقام بمعنى «الواو»، إلّا أنّه وقع موردا لنقد مفسّرين آخرين من قبيل الطبري[٦].

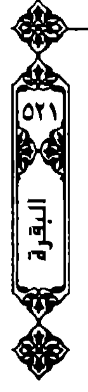
## الاحتجاج على المسلمين أم عليه سبحانه وتعالى؟

سيكون قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ في الآية الّتي هي محلّ البحث راجعا إلى ما ورد في قوله عزّ وجلّ من عبارة: «لئلّا يكون للناس على الله حجةٌ بعد القبلة»، كما أنّ مرجع قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[٧] ـ بناء على أنّ المقصود هو نفي السبيل العلمي، يعني الحجة ـ إلى أنّه سبحانه وتعالى لم يبق مجالا لأيّ نقص في جميع ما بيّنه من براهين في المسألة الّتي هي محلّ الكلام.

**توضيحه:** أنّ جميع ما صدر عن الرسول الاكرم ﷺ أو المسلمين من احتجاجات، فإنّما هو بلسان الدين وبرسالة الوحي الالهي، بناء على هذا، ففي

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٣٩.
٢ . سورة البقرة، الآية ٧٦.
٣ . سورة الشورىٰ، الآية ١٥.
٤ . سورة النساء، الآية ١٥٧.
٥ . سورة النمل، الآيات ١٠ ـ ١١.
٦ . جامع البيان، ج٢، ص٣٧.
٧ . سورة النساء، الآية ١٤١.



الحقيقة، رجوع الحجّة على المسلمين بمثابة رجوع الحجّة عليه سبحانه وتعالى، ما يعني أنّ ثمرة الاسلام يجب أن تكون الجواب على ما كان المعترضون يوجّهونه إليه من اعتراضات وإشكالات، ولمّا كان الاسلام دينه سبحانه وتعالى، ولم يكن لأحد أو شيء أيّ إسهام في تأسيسه أو تحقيقه أو تدوينه، ولن يكون كذلك أبدا، فإنّ هذا يعني أنّه لو كان من احتجاج على الاسلام، فلن يكون ذلك في الحقيقة إلّا احتجاجا عليه سبحانه وتعالى، ما يعني بالتبع أنّ المجيب لا بدّ من أن يكون هو سبحانه وتعالى بعد توجّه الاعتراض والاحتجاج عليه عزّ وجلّ، وإن كان سبحانه وتعالى ليس مسؤولا عن أيّ شيء خارج حيطة الخلقة؛ إذ الخارج عن تلك الحيطة لن يكون شيئا غير العدم المحض، وأمّا في حيطة الخلقة، فإنّ هناك مجالا لسؤاله سبحانه وتعالى، ولكنّه تعالى بعلمه الازليّ وقدرته السرمدية، أزال ـ وسيزيل ـ كلّ ما يفتح المجال أمام السؤال والاعتراض، ومن هنا، نحن نسمعه تعالى يقول: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾[1]، كما أنّه يقول في مجال بعثة الرسل وتكميل الحجّة برسالاتهم: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾[2]، ولمّا كانت كلمة ﴿**بعد**﴾ في مقام التحديد، فإنّ لها مفهوما ومعنى وهو أنّه تعالى لو لم يرسل الرسل إلى المجتمعات الانسانية، لكان هناك مجال للاعتراض والسؤال حينئذ.

## التوحيد في الخوف والرجاء

يجب أن يكون أهل التوحيد موحّدين في الخوف أيضاً، والتوحيد في الخشية والخوف هو ألّا يخاف الانسان إلّا منه سبحانه وتعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿**فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي**﴾.

---

١ . سورة الانبياء، الآية ٢٣.

٢ . سورة النساء، الآية ١٦٥.





ومن لم يكن موحّدا في الخوف، فإنّه لن يكون موحّدا في الرجاء أيضاً، والموحّد في الخوف هو الموحّد في الرجاء أيضاً.

السرّ في الملازمة السابقة، هو أنّ الانسان لو كان له رجاء في غيره تعالى، فكان مبتلى بالشرك من هذه الناحية، فإنّه سيكون خائفا من قطع ذلك الرجاء ومن زوال الظهير، ما يعني أنّه سيكون مشركا في الخوف أيضاً، ولو كان الشخص غير موحّد في الخوف والرجاء، فإنّه لن يكون موحّدا في الرؤية التوحيدية قطعا، فإنّ قائد الخوف والرجاء هو الاعتقاد، والاعتقاد التوحيديّ الاصيل لن يكون مصحّحا للشرك في الخوف والثنوية في الرجاء أبدا.

من الطبيعي أنّه كما أنّ الخوف منه سبحانه وتعالى والخوف من الناس في الوقت نفسه مذموما وعلامة على الشرك، فإنّ عدم الخوف مطلقا غير مرضيّ أبدا أيضاً، فمن لا يخاف الله ولا يخاف خلقه كذلك، فإنّه ليس إلّا وحشا كاسرا متهوّرا؛ إذ يشتمل نظام الطبيعة على عدد غير قليل من الموجودات المهاجمة المؤذية، كما أنّ حكومة أفراد من هذا القبيل لن تكون إلّا الدكتاتورية الصرفة.

ومع الالتفات إلى الدور الّذي تلعبه الخشية التوحيدية في المقاومة وتشكيل الحكومة وإِحياء دينه سبحانه وتعالى وإقامته على جميع المستويات والجنبات، نرى أنّه سبحانه وتعالى يعتبر هاتين الصفتين في المسائل الحسّاسة المهمة ـ أعني: صفتي عدم الخوف من الآخرين ومنه تعالى ـ صفتين تعبّران عن السلب والايجاب، ففيما يرجع إلى إبلاغ رسالات الانبياء عليهم السلام نسمعه يقول: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ﴾[1]، كما نسمعه سبحانه وتعالى في زمان نزول مسألة الامامة والولاية يقول: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾[2]، كما يقول في ما يرجع إلى الحكم على أساس

---

١ . سورة الاحزاب، الآية ٣٩.

٢ . سورة المائدة، الآية ٣.



الاحكام الالهية: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[١]، وفي مسألة الجهاد والمقاومة في وصف المحبّين والمحبوبين الالهيين، يستعمل سبحانه وتعالى تعبيرا يستفاد منه ذلك أيضاً، حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾، فلا ملامة تخيف المؤمنين وتجعلهم يرجعون عن موقفهم الالهيّ الصحيح[٢].

والنهي عن الخشية من المخالفين بالنسبة إلى الموحّدين المشمولين بقوله عليه السلام: «عظم الخالق في أنفسهم فصغر مادونه في أعينهم»[٣]، يعتبر أمرا قابلا للامتثال تماما وإن كان هو سبحانه وتعالى من يؤمّن الوسيلة إلى أمان هؤلاء كما وعد بقوله: ﴿... وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾[٤].

**تنويه:** ليس هناك أيّ تعارض بين النهي عن الخشية من المخالفين وبين دليل التقيّة الحاكم على الادلّة الاوّلية للاحكام، وبناء على هذا، فما نقله الآلوسي عن بعض أهل السنّة من ذهابهم إلى أنّ الآية المزبورة دليل على حرمة التقيّة التي يعتقد بها الامامية[٥] أمر آفل ضعيف.

## ثمرات تغيير القبلة

تشير الآية الّتي هي مورد البحث إلى نقاط يمكن اعتبارها من ثمرات

---

١ . سورة المائدة، الآية ٤٤.

٢ . سورة المائدة، الآية ٥٤.

٣ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

٤ . سورة النور، الآية ٥٥.

٥ . روح المعاني، ج ٢، ص ٢٦.

ونتائج تغيير جهة القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، نتعرّض في ما يلي إلى تلك الثمرات مع بعض التوضيح المختصر:

### ١ ـ قطع حجّة أهل الكتاب

سبقت الاشارة إلى أنّ معرفة أهل الكتاب لنبيّ الاسلام ﷺ، كانت نوع معرفة قريبة إلى الحسّ، فقد كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، كما جاء ذلك في قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾**[1]، إذ إنّ أوصافه ﷺ وخصوصيّاته في ما يرجع إلى شخصه وشخصيّته، وكذا سيرته ﷺ، قد وردت كلّها في التوراة والانجيل بصورة واضحة لا غبش فيها، قال تعالى: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الامِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالانجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾**[2]، وقال عزّ من قائل: **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الانْجِيلِ﴾**[3].

وواحدة من خصائصه ﷺ التي وردت في الكتب السماويّة، وكانت السبب في إشكال أهل الكتاب واعتراضهم عليه ﷺ، هي عدم ديمومة استقباله ﷺ بيت المقدس، وأنّ له قبلتين، بالاضافة إلى ذكر الكعبة قبلة دائمية له عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ومن هنا، فإنّ من أولى ثمرات تغيير القبلة

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٤٦.

٢ . سورة الاعراف، الآية ١٥٧.

٣ . سورة الفتح، الآية ٢٩.

الوارد في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، كانت عدم أيّة حجّة لأهل الاحتجاج على المسلمين من الآن فصاعدا، وإن استمرّ الظالمون من اليهود والنصارى في لجاجهم وعنادهم، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

### ٢ ـ إتمام النعمة

ورد في القرآن الكريم تعبير «إتمام النعمة» في مجال النعم الماديّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[1]، كما ورد في مجال النعم المعنوية وتشريع الاحكام أيضاً، كما أشير إلى تتميم النعمة باعتباره واحدا من علل تشريع ذلك الحكم، كما ورد في ختام الآية الواردة في الطهارات الثلاث: الوضوء، والغسل، والتيمّم، حيث نحن نسمعه تعالى يقول: ﴿... وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾[2]، وهكذا نسمعه تعالى يقول في ختام الآية الّتي هي محلّ البحث أيضاً: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُم﴾، يعني: بتغيير القبلة وتعيين الكعبة قبلة دائمية للموحّدين، حيث يعتبرها نعمة إلهيّة من نعمه سبحانه وتعالى.

ويستفاد من هذه الآيات ـ إضافة على كون أصل الدين نعمة من نعمه تعالى ـ أنّ كلّا من أجزاء ذلك الدين، وكلّ حكم من أحكامه، يعتبران نعمة مستقلّة من نعمه سبحانه وتعالى، التي تأخذ الانسان بنزولها التدريجي شيئا فشيئا إلى نقطة الكمال، لكي ينتهي جميع ذلك إلى الكمال النهائيّ بنزول النعمة العليا،

---

١ . سورة النحل، الآية ٨١.

٢ . سورة المائدة، الآية ٦.

وهي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[1].

والمقصود من اتمام النعمة هو ذلك التتميم النِسْبيّ لا النفسي؛ فإنّ نعمه سبحانه وتعالى لا تحصى ولا تعد ولا تحد، وحاجات الانسان لا محدودة أيضاً.

## تمامية الاسلام علميا وعينيا

أكمل النعم الالهية هي نعمة الاسلام، الدين الّذي يضم في داخله دورتين للتماميّة:

الدورة الاولى: دورة التماميّة من حيث العلم والتقنين، وهبوط الوحي من الغيب إلى أرض الشهادة، وطيّه لمراحل متعددة، من قبيل الطهارات الثلاث، وتغيير القبلة، وفتح مكّة وما شابهها.

لم يكن ما ذكر في مسألة القبلة بمثابة الوعد بفتح مكّة والبشارة بذلك أبدا لكي تكون حادثة فتح مكّة بمنزلة إنجاز ذلك الوعد؛ إذ ـ كما أشار إليه الاستاذ العلامة الطباطبائي قدس سره ـ رافق ما وقع في الآية الّتي هي محلّ البحث، وما ذكر في حادثة فتح مكّة[2] كلمة «اللام»، حيث الرسالة المؤدّاة في المسألتين أمر واحد، وبعبارة اخرى: تغيير القبلة وحادثة فتح مكّة، كلاهما كانا لإتمام النعمة، لا أنّ أحدهما كان وعدا بإتمام النعمة وثانيهما إنجازا لذلك الوعد، ولو كان في القرآن الكريم آية بمثابة إنجاز الوعد بإتمام النعمة، فهي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾[3].

---

١ . سورة المائدة، الآية ٣.

٢ . سورة الفتح، الآية ٢.

٣ . سورة المائدة، الآية ٣.

لقد كان لدورة التمامية العينية، والسيطرة الخارجية، وهيمنة الاسلام الوجودية، على امتداد التاريخ مقاطع لا تعد، لكي تحلّ مرحلة التجلّي التي أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[1]، ولكي يكون لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾[2] تحقق عيني، ولربما كان التعبير عن تلك النعمة بالنور، بلحاظ تحققها العيني، من الطبيعي أنّ حادثة فتح مكّة وما شابهها تعتبر من المسائل العينية لا العلمية للاسلام، إلّا أنّ فتح بقعة من بقاع الارض لن يكون أبدا المصداق لإتمام النور في مقابل ما أعدّه الاسلام من برنامج شاملة.

الحقيقة السابقة تعني عدم تمامية ما جاء في بعض التفاسير من قبيل تفسير المنار[3]، على الرغم من كون ما جاء فيه يصلح توجيها وجيها لتطوّر القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، إذ إنّ الكعبة كانت في أوائل البعثة مكانا رسميا لعبادة الاصنام من قبل الوثنيين، وكان الرسول الاكرم ﷺ مأمورا ـ كإبراهيم الخليل عليه السلام ـ بتطهيرها، واستقبال محل عبادة الاصنام ليس له أيّ توجيه علمي وديني، وبعد الهجرة وتقوية بناء الاسلام الّذي كان الامل في تطهيرها، ولأجل تهيئة الارضية لذلك التطهير، صارت الكعبة القبلة الرسمية للمسلمين.

والمغزى: أنّ التوجيه المزبور يمكن أن يكون السبب في تطور القبلة، إلّا أنّه لا يمكن أن يكون أبدا إنجازا للوعد بإتمام النعمة[4].

### ٣ ـ إهتداء المسلمين وتحررهم

الاهتداء يعني تشخيص الطريق والخروج من التحيّر، ومع تعيين الكعبة

---

١ . سورة التوبة، الآية ٣٣. سورة الفتح، الآية ٢٨. سورة الصفّ، الآية ٩.

٢ . سورة الصفّ، الآية ٨.

٣ . تفسير المنار، ج٢، ص٢٥.

٤ . الميزان، ج١، ص٣٢٩.




قبلة نهائية ودائمية، خرج المسلمون من التحيّر الناشئ عـن اعـتراض المشركين وأهل الكتاب وطعنهم وتحقيرهم؛ فقد تخلّصوا ممّا كان راجعا من ذلك إلى عـدم استقبال الرسول الاكرم ﷺ للكعبة واستقباله لبيت المقدس، وإلى مسألة عـدم الاستقلال في القبلة، ومن هنا، نحنُ نسمعه تعالى بعد أن ذكـر الامـر باسـتقبال الكعبة يخاطب المسلمين بقوله: ﴿ولَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، أي: لعلّ ذلك الامر يكون سببا في اهتدائكم.

يتمثّل صراط الامّة الاسلامية المستقيم في مسألة القبلة بالتوجّـه إلى الكعبـة المقدسة، وهو ما هداهم إليه سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١]، وكما أنّ الشكر واجب في مقابل النعمة، فإنّه كذلك في مقابل الهداية الالهية، والاهتداء في مقابل الهداية الالهية أمـر ضروريّ، وهـو مـا يعتـبر بدوره شكرا على نعمة الهداية.

**تنويه:** تعبير (لعلّ) في قوله تعالى: ﴿ولَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، إنّـما هـو مـن جهـة وجود احتمال عدم الشكر في المقـام، وإن كـان شـكر وكفـر المتقـين والمجـرمين معلومين عنده سبحانه وتعالى.

* * *

١ . سورة البقرة، الآية ١٤٢ .

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾

## التفسير المختار

رسالة نبيّ الاسلام ﷺ دعاء حضرة إبراهيم عليه السلام المستجاب. كون نبيّ من الانبياء أجنبيا غير معروف، والاختلاف القومي والعرقي واللغوي بين النبيّ والمجتمع، يعتبر كلّ ذلك من جملة العوامل التي تمنع من تقبّل رسالة ذلك النبيّ من قبل الناس.

لقد أزال الله سبحانه وتعالى تلك الامور كلّها بالنسبة إلى الرسول الاكرم ﷺ؛ فقد كان من الناس ومن بينهم، فكان من هذه الناحية حائزا على ما يعتبر نصابا في قبوله ومشروعيته من قبل المجتمع.

إنّ تلاوة الآيات الالهية على الناس، وتزكية نفوسهم، وتعليمهم الكتاب ـ يعني مجموعة قوانين الدين ومقرّراته ـ وتعليم الحكمة ـ يعني العلم النظري والعملي والكلام القائم على البرهان، والمتضمّن للاسرار في ما يرجع إلى ما كان وما لم يكن، ومايجب وما لا يجب، في مجالات العقائد، والاخلاق، والفقه والحقوق ـ وهكذا تعليم العلوم التي لا يمكن الوصول إليها إلّا عن طريق الوحي، كلّ ذلك من جملة أهداف رسالة الرسول الاكرم ﷺ. واهتمام المجتمع بهذه البرامج المختلفة يهيّئ الارضيّة لقبول الرسالة من قبله.

والتلاوة: القراءة المترافقة مع التعليم وإراءة طريق السير، أو هي نوع من القراءة تجذب السامع إلى التدبّر في ما يسمعه، وكلامه سبحانه وتعالى علامة على وجوده عزّ وجلّ، ومن هنا، عبّر عنه في المقام بتعبير «الآيات».

والتزكية: العلّة الغائية والهدف الاصلي من بعثة الرسول الاكرم ﷺ، وأمّا التعليم، فهو الوسيلة إلى الوصول إلى ذلك الهدف.

وأمّا التقديم الذكري للتزكية على التعليم في هذه الآية، فإنّما هو بلحاظ تقدّم الهدف على الوسيلة، وتقدم العلّة الغائية بلحاظ الوجود العلمي و....، وفي مقامنا (مقام الامتنان)، فإنّ المبادرة بالذكر لها فائدة أفضل.

كما أنّ التقديم المزبور له هدف آخر، وهو الاشارة إلى أنّه ﷺ يجب أن يطهّر الناس من رجس الشرك أوّلا، لتأتي بعد ذلك مرحلة تعليم هؤلاء الاحكام والمعارف الدينية، هذا إضافةً على أنّ التفنن في تقديم وتأخير التزكية والتعليم في المواضع المختلفة يفيد أنّ كلّ واحد من هذين يعتبر بنفسه نعمة من نعمه سبحانه وتعالى على العباد تستوجب شكرا خاصّا أيضاً.

الوحي والنبوّة أمران ضروريّان دائما للمجتمعات البشرية؛ فإنّ المعارف التي يعلّمها الرسل المجتمعات البشرية معارف يعتبر الوصول إليها أمرا ضروريا من جهة، كما أنّ الوصول إلى تلك المعارف الضروريّة ليس له أيّ طريق غير الوحي، سواء على مستوى العقل الفردي أم على مستوى العقل الجمعي.

## التفسير

### تناسب الآيات

الكاف في ﴿كما﴾ للتشبيه، الامر الّذي يعتبر القرينة على اتّصال الآية الّتي هي محلّ البحث بما سبقها من آيات وارتباطها بها.



١ ـ ما يريده الله سبحانه وتعالى بهذا التشبيه، هو أنّه عزّ وجلّ قد أنعم عليكم ـ أيها المسلمون ـ حيث جعل البيت الّذي بناه إبراهيم عليه السلام ودعا الله سبحانه وتعالى لأجله قبلة لكم، كما أنّنا أرسلنا لكم رسولا استجابة لدعائه عليه السلام، النبيّ الّذي... .

وطبقا لهذا الّذي تقدم، فإنّ إرسال النبيّ ـ شأنه شأن جعل الكعبة قبلة ـ سبب لامتنانه سبحانه وتعالى على المسلمين[1].

والمجيء بكلمة ﴿كما﴾ في بداية الآية الشريفة، الهدف منه الالفات إلى مسألة مهمة جدا، هي أنّ تغيير قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة، والاستقلال الّذي حقّقه ذلك التغيير للمسلمين، كلّ ذلك ليس إلّا نعمة واحدة من النعم الكثيرة التي أنعم الله تعالى بها عليهم، فقد أنعم عليهم قبل ذلك بنعمة أعظم منها، وهي إرسال رسول منهم أنفسهم، وهاتان النعمتان نتيجتان لاستجابة ما دعا به حضرة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام، وقد تقدّم في الآيات ١٢٧ ـ ١٢٩[2].

هذا التشبيه بيان آخر لعظمة نعمة القبلة التي سبق التعبير عنها بتعبير: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً...﴾[3]؛ فإنّ المشبّه به هو تلك الرسالة التي تعتبر «التجلّي الاعظم» طبقا لما جاء في دعاء المبعث في السابع والعشرين من رجب[4].

وعلى الرغم من أنّ ختام حادثة تغيير القبلة كان بالفعل «لعلّ» في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[5]، إلّا أنّ ذكر الرسالة وشؤون الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله

---

١ . الميزان، ج١، ص٣٣٣.

٢ . التفسير الكاشف، ج١، ص١٦١ ـ ١٦٢.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٤٣.

٤ . البلد الامين. مفاتيح الجنان، أعمال ليلة المبعث.

٥ . سورة البقرة، الآية ١٥٠.

الاربعة التي يدخل فيها مسألة تغيير القبلة، كانا مترافقين مع الامر الصريح بذكره سبحانه وتعالى ـ وليس ذكر نعمته ـ بقوله عزّ من قائل: ﴿فَاذْكُرُونِي...﴾[1].

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المشبّه علتان وحكمتان هما ما تقدّم ذكره في ختام الآية السابقة علّة وحكمة لمسألة تحويل القبلة، لا نفس جعل الكعبة قبلة.

وبناء على هذا، سيكون إتمام النعمة والاهتداء في ظلّ تحويل القبلة، نعمة إلهية بمستوى نعمة. وسرّ جعل إرسال حضرة محمّد ﷺ رسولا مشبّها به، هو سبقه على تحويل القبلة، وكون تحقّقه كنعمة أبرز وأظهر[2].

وطبقا لبعض التفاسير، فإنّ وجه الشَبَه بين إتمام النعمة الالهية في مسألة الرسالة ومسألة القبلة، ليس هو صرف كون المسألتين نعمتين من نعمه سبحانه وتعالى، وبناء على هذا، فإنّه يمكن توجيه التشبيه المذكور في الآية الّتي هي محلّ البحث بأحد الوجوه التالية الأربعة:

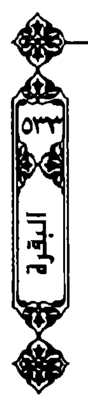
الوجه الأوّل أنّ هذه الآية الشريفة صفة لـ «إتماماً». وهو المصدر المحذوف المستفاد من الآية السابقة، وتقديره: «... لأجل أن أتمّ نعمتي عليكم في مسألة القبلة أو في الآخرة، إتماما كإتمام إرسال النبي ﷺ».

ومن الجدير بالملاحظة، أنّ ذكر «الارسال» وإرادة «الاتمام» منه، هو من باب إقامة السبب مقام المسبّب[3].

الوجه الثاني أنّه جعلنا الكعبة قبلة لكم لكي نتمّ نعمتنا عليكم في الآخرة بإعطاء الثواب، كما أنّنا أتممنا نعمتنا عليكم في الدنيا بإرسال النبيّ محمّد ﷺ[4].

---

١. سورة البقرة، الآية ١٥٢.
٢. تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٤٧.
٣. روح المعاني، ج٢، ص٢٧.
٤. الاساس في التفسير، ج١، ص٣٢٠.



الوجه الثالث أنّه جعل الله سبحانه وتعالى بيته الّذي يقع في قلب أرضكم، والذي يعتبر سببا لافتخاركم وتشرفكم، قبلة لكم، كما أنّه في المستقبل القريب سيجعله تحت أيديكم، ويوفّقكم إلى تطهيره من الاصنام وعبادتها، وبهذا يكون قد أتمّ نعمته عليكم، كما أتمّها بإرساله رسولا منكم، فالقبلة في أرضكم، والنبيّ ﷺ من أمّتكم[1].

٤ ـ كما أنّ بعض المفسرين ذهب إلى تشابه المشبّه والمشبّه به المذكورين في العلّة أيضاً، ذاكرا أنّ معنى العبارة الّتي هي محلّ البحث هو: لما تقدّم من علل جعلناكم تتوجّهون إلى الكعبة، ولأجل عين تلك العلل أرسلنا الرسول، وعليه، فقد أتممنا النعمة عليكم حيث أرسلنا لكم رسولا تتخلّصون بإطاعته من الجهل والذلة وعذاب الكافرين وشماتتهم في الدنيا، ومن عذابه سبحانه وتعالى في الآخرة[2].

ومن الجدير بالذكر ما تعرض إليه بعض التفاسير من احتمال تعلق الآية الّتي هي محلّ البحث بالآية التالية، حيث تريد: كما ذكرتكم بإرسال النبيّ ﷺ، أذكروني بدوركم بطاعتكم لي في ما أمرتكم به، لكي أذكركم بدوري بالثواب[3].

وبعبارة أخرى: «أذكروني كما ذكرتكم بإرسال الرسول»، وبناء على هذا الاحتمال، لو كانت الكاف في ﴿كما﴾ متعلّقة بقوله تعالى: ﴿اذكروني﴾ في الآية التالية، فإنّ معنى ذلك هو: «أذكروني في مقابل إرسال الرسول»، ومن الطبيعي استفادة التشبيه من المقابلة أيضاً في هذه الحالة[4].

---

١ . تفسير المنار، ج٢، ص٢٧.

٢ . نظم الدرر، ج١، ص٢٧٤.

٣ . الاساس في التفسير، ج١، ص٣٢٠.

٤ . روح المعاني، ج٢، ص٢٧.

**تنويهان**: ١ ـ تناسب الآية الّتي هي محلّ البحث مع ما قبلها واضح جدا، إلّا أنّ ارتباطها بما بعدها ليس أمرا واضحا تماما؛ إذ لا يخلو الامر من بعض التكلّف.

٢ ـ تشتمل الآية الّتي هي محلّ البحث على التفاتات متنوّعة سوف نتعرّض إليها خلال التفسير إن شاء الله تعالى.

* * *

### دعاء حضرة إبراهيم عليه السلام المستجاب

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى مسألة تغيير القبلة كنموذج من نماذج نعمه، يذكّر بنعمةٍ واحدة هي من أبرز تلك النعم، وهي نعمة رسالة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، حيث يقول: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ**﴾، فقد بلغت هذه النعمة من الاهمية والعظمة إلى الدرجة التي يعبر عنها سبحانه وتعالى في آية شريفة أخرى بالمنّة، حيث يقول عزّ من قائل: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾[1].

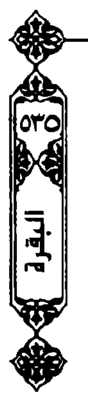
إنّ بعثة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله ثمرة واحدة من ثمرات دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث قال بعد إتمام بناء الكعبة داعيا: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[2]، فإنّ هذا البيت بدون وجود قائد إلهي إلى جانبه، لن يكون إلّا مجموعة من الاحجار لا تضرّ ولا تنفع، ومن هنا، نسمع الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله يقول: «أنا دعوة أبي إبراهيم»[3].

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٢٩.

٣ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٣٩٥.




إنّ بعثة الرسول الاكرم ﷺ كانت الباعثة على حياة المجتمع البشري، والعرب منه على وجه الخصوص، فكما أنّ نفخ الروح الانسانية في الجنين ترتقي به ليكون أحسن المخلوقات، ليتجلّى سبحانه وتعالى بذلك بعنوان أحسن الخالقين، كانت مسائل من قبيل مسألة إقرار الصلح بدل الحرب، والوفاق بدل الشقاق، ومسألة تضييق المسافة بين طبقات المجتمع الاسلامي كما جاء في الحديث: «يسعي بذمّتهم اَدناهم»[1] رسما بيانيا لذلك.

## موانع قبول الرسالة

الظاهر أنّ قبول نبوّة الرّسل عليهم السلام ورسالاتهم كان أمرا ثقيلا بالنسبة إلى الكثير من الناس، بحيث قد يمكن لبعض العوامل العاطفية، والنفسية، والاجتماعية، من قبيل أجنبية الرسول واختلافه عمّن أرسل إليهم من جهة القومية واللغة، أن تكون حجّة من حجج عدم قبول رسالة ذلك الرسول من قبل الناس الذين أرسل اليهم، وقد أزال سبحانه وتعالى جميع هذه الموانع من طريق قبول رسالة الرسول الاكرم ﷺ، ما يعكسه قوله عزّ وجلّ: ﴿رَسُولاً مِنْكُمْ﴾.

وللتوضيح، نستعرض ـ معا ـ النقاط التالية:

النقطة الأُولى أنّه برز الرسول الاكرم ﷺ من الحجاز نفسه، ولم يكن غريبا عنهم.

وقد عبر عن هذه النقطة في بعض الآيات القرآنية التي تصف بعض الرسل بالأخ، كما في قوله تعالى بالنسبة إلى هود عليه السلام: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾[2]،

---

١ . الكافي، ج١، ص٤٠٣. بحار الانوار، ج٢١، ص١٣٨.

٢ . سورة الاعراف، الآية ٦٥.




وبالنسبة إلى صالح عليه السلام حيث يقول تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾[1]، وبالنسبة إلى شعيب عليه السلام حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾[2]، وعندما تصل النوبة إلى نبيّنا الاكرم صلى الله عليه وآله، نجد أنّ الامر يختلف مع ما سبق من الرسل؛ حيث يعبّر الله سبحانه وتعالى عن النقطة الأُولى بتعبير «النفس»، حيث يقول عزّ من قائل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[3]، ويقول عزّ وجلّ في آية كريمة اخرى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾[4].

النقطة الثانية أنّه كانت شخصيّة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، وما يتمتّع به من أخلاق عالية من الصدق والامانة والتقوى وغيرها من الصفات الحميدة أمرا معروفا غاية المعرفة من قبل أهل الحجاز، كيف لا وقد قضى بينهم حياته كلها قبل البعثة؟!

فلم يكن صلى الله عليه وآله شخصا مغمورا غير معروف إلى هؤلاء، وهذا ما أخبر به القرآن الكريم عن لسانه صلى الله عليه وآله، حيث نسمعه يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[5].

النقطة الثالثة أنّه لقد كان نبيّنا صلى الله عليه وآله ـ مثل سائر الرسل عليهم السلام ـ من البشر ـ لا من الملائكة: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[6]، وقد كان يعرّف عن نفسه بأنّه بشر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[7].

---

١ . سورة الاعراف، الآية ٧٣.

٢ . سورة الاعراف، الآية ٨٥.

٣ . سورة آل عمران، الآية ١٦٤ .

٤ . سورة التوبة، الآية ١٢٨ .

٥ . سورة يونس، الآية ١٦.

٦ . سورة إبراهيم، الآية ١١ .

٧ . سورة الكهف، الآية ١١٠ .



النقطة الرابعة أنّه كان الرسول الاكرم ﷺ يتكلّم بلغة قومه كما هـو الحـال في سائر الانبياء والمرسلين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1]، ومن هنا، نجد أنّ القرآن الكريم يؤكّد على هذه الصفة فيه ﷺ، حيث نسمعه يقول: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[2].

ومن الجدير بالانتباه، الاشارة في تتمّة الآية الّتي هي محلّ البحث إلى بعض الامور باعتبارها برامج رسالة الرسول الاكرم ﷺ وأهدافها، بحيث يمكن اعتبار تلك الامور من جملة العوامل التي يؤدّي الالتفات إليها من قبل الناس إلى تهيئة الارضيّة للايمان بالرسالة من قبل هؤلاء، أمور من قبيل تلاوة الآيات الالهية على الناس، تهذيب النفوس وتطهيرها وتزكيتها التي تعتبر من جملة عوامل التكامل عند الانسان، وتعليم الكتاب والحكمة والعلوم التي لا يمكن الوصول إليها إلّا عن طريق الوحي.

**والخلاصة**: لقد أكّدت الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث على العنصرين المحوريين الذين يعتبران الركنين الركينين لقبول أيّة قيادة، أولهما: ﴿فيكم﴾، وثانيهما: ﴿منكم﴾، فإنّ نبيا ما لو كان بين الناس، وكان واقفا على جميع ما يحتاجون إليه، وعلى آدابهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، إلّا أنّه لم يكن من هؤلاء وقبيلتهم، أو كان منهم إلّا أنّه لم يكن بينهم، فإنّه لن يحصل على المشروعيّة والمقبوليّة من قبل المجتمع في مثل هذه الحالة.

وأمّا إذا كان حاملا للعنصرين، فكان بين الناس من جهة، وكان منهم من جهة اخرى، فإنّه سيكون متمتّعا بالشروط المقتضية لمقبوليته ومشروعيته من قبل الآخرين.

---

١ . سورة إبراهيم، الآية ٤.

٢ . سورة الشعراء، الآيات ١٩٤ ـ ١٩٥.

ومن أجل ما تتمتّع به من صفات من قبيل أن يكـون الرسـول مـن النـاس وبينهم وعدم الانزواء عنهم من أهمية خاصّـة في مسـألة المقبوليـة والمشـروعية، ومن أجل التفكيك بين الانزواء عن الـدنيا، الصـفة المحمـودة، والانـزواء عـن الناس والمجتمع، الصفة المذمومة، جاء سـبحانه وتعـالى بكلمـة ﴿فـيكم﴾ قبـل كلمة ﴿رسولاً﴾، من أجل إثارة المجتمع العـربي وتحريكـه تجـاه قبـول الرسـالة والنبوّة.

**نكتة:** التصريح بالعنصرين المحوريين السابقي الذكر في الآية الّتي هي محـلّ البحث من جهة، وعدم التعرّض إلى أيّ واحـدٍ مـنهما في الآيـة: ﴿إِنَّـا أَرْسَـلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[1] والآية: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَـيْكُمْ﴾[2] مـن جهة اخرى، إنّما هو بهدف بيان الفرق بين مقام الامتنان ومقام الاحتجاج؛ فـإنّ مقام الامتنان يقتضي التوجّه إلى ذينكما العنصرين المحوريين الذين حـوّلا الامّـة الخشنة التي اعتادت الحـرب والغـارة وإسـالة الـدماء إلى أمّـة تسـودها الرحمـة والالفة والاهتمام بالآخر، وحوّلا المجتمـع الّـذي كـان لا يـرى في الـزواج مـن زوجة الاب بأسا أو حساسية إلى أمّة تسودها العفّة والطهارة، كما حوّلا الانسان الّذي كان يشعر بالعار من البنـت فيـدفنها حيّـة ويدسـها في الـتراب إلى إنسـان عطوف رحيم، ومن هنا، استظهر البعض أنّ تنوين كلمة ﴿رسولاً﴾ هـو تنـوين التعظيم بهدف بيان عظمة الرسالة ومـا أحدثتـه مـن تغـيّر جـذري في النفـوس والمجتمعات، حيث جعلت الامّة الآكلة للحشرات أمّة ملكيّـة الاخـلاق تمتنـع عن صيد البر حال الاحرام، فمن الواضح جدا ما كان عليه العرب من البدويـة

١ . سورة البقرة، الآية ١١٩ .
٢ . سورة المزمّل، الآية ١٥.

والقومية من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الاعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾[1].

والمغزى: أنّ التصريح بالعناصر المحورية في مورد وعدم التصريح بها في مورد آخر أمران مقصودان ملحوظان، إلّا أنّ مسألة الارسال المهمة غاية الاهمية قد بيّنت في الموردين بصورة فعل المتكلم مع الغير: ﴿أرسلنا﴾، الّذي يتداعى منه الجلال الالهي في ظلّ الجمال الربوبي.

### سرّ التعبير عن «كلام الله» بـ «الآيات»

إنّ كلامه سبحانه وتعالى علامة على وجوده وحكمته عزّ وجلّ، ومن هنا، نجد أنّه تعالى يعبّر عن كلامه بالآيات، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾، فيتلقّى الرسول ﷺ هذه الآيات منه تعالى ليمرّرها بدوره إلى الامّة التي أرسل إليها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾[2].

وقد ذهب البعض إلى أنّ سِمَة الرسول الاكرم ﷺ بالنسبة إلى التلاوة لا تقف عند حدّ قراءة الآيات المدوّنة، بل تتعدّى ذلك إلى التلاوة بمعناها الاعم من ذلك، يعني تبيين الآيات التكوينية، أعمّ من أن تكون تلك الآيات آفاقية أو أنفسيّة، إلّا أنّ بعضاً من المفسّرين خالف ذلك، واقفا بالتلاوة عند معناها الخاص، موسّعا في الوقت نفسه في المتلوّ[3]، والآية: ﴿سَنُرِيهِم...﴾[4] شاهدةٌ على هذه التوسعة أيضاً.

---

١ . سورة الشعراء، الآية ١٩٨ ـ ١٩٩.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٥٢.

٣ . بيان السعادة، ج١، ص١٥٤.

٤ . سورة فصّلت، الآية ٥٣.

إسناد الآيات إليه سبحانه وتعالى، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿آيَاتِنَا﴾، وقوله عزّ من قائل: ﴿آيَاتُ اللهِ﴾[1] يبعث على مزيد الطمأنينة عند المستمع؛ كما هو الحال في عبارة: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾، التي يستفاد منها أنّ الرسول الاكرم ﷺ لا يتفوّه بأيّ حرف من نفسه، وأنّ جميع ما يتلفّظ به إنّما هو من عنده سبحانه وتعالى.

ويمكن أن يكون المراد من التلاوة في هذا النوع من الآيات هو القراءة المترافقة مع التعليم وإراءة طريق السير، أو نوعاً من القراءة بحيث يجب على السامع التدبّر في ما يسمعه فيها.

## سرّ تقدّم وتأخّر «التزكية» و«التعليم»

تأتي التزكية قبل التعليم في القرآن الكريم أحيانا، كما أنّها تأتي بعده أحيانا أخرى، ويمكن الوصول إلى السرّ في هذه الظاهرة من خلال استعراض النقاط التالية:

النقطة الأُولى أنّ الهدف المهمّ لبعثة الرسل عليهم السلام هو التزكية وتهذيب النفوس، الامر الّذي هو بحاجة إلى التعليم؛ إذ إنّ التعليم الفكري هو المقدّمة للتربية الروحية. ومن أجل هذا التقدّم الطبعي للمقدّمة على ذي المقدّمة، تقدّم ذكر التعليم على التربية في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[2]، وإلّا، فإنّ التزكية لّما كانت العلّة الغائية والهدف من الرسالة، وكان تعليم الاحكام والمعارف الالهية وسيلة الوصول إلى تلك العلّة، وكان الهدف مقدّما على الوسيلة، نرى أنّ التزكية والتعليم قد ذكرا جنبا إلى جنب في آيات اخرى، كما جاءت التزكية قبل التعليم أحيانا. وفي الحقيقة: التزكية مقدّم لا مقدّمة، والتعليم مقدّمة لا مقدّم.

---

١ . سورة البقرة، الآية ٢٥٢.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٢٩.



النقطة الثانية أنّ الوجه الآخر لتقديم التزكية على التعليم، هو أنّ الرسول الاكرم ﷺ يقوم بتطهير الناس من رجس الاوثان ولوث الشرك ورجز عبادة الاصنام أوّلا، ليقوم ـ بعد ذلك ـ بالتدريج بتعليمهم أحكام الدين ومعارفه.

إنّ شأن النبيّ هو التعليم والتزكية ليخلّص بذلك الانسان من نقصِ الجهل العلمي ولوث الجهالة العملية، فيهديه بذلك إلى شاطئ نور المعرفة وكمالِ الطهارة والتقوى.

ومع التوجّه إلى أنّ صرف التعليم لا ينفع في الوصول إلى الهدف لوحده، نراه سبحانه وتعالى يتدخّل ليبيّن لنا الطرق العملية للتزكية أيضاً، وهذا ما ستعرّض لبعض نماذجه في بحث «إشارات ولطائف» إن شاء الله تعالى.

النقطة الثالثة أنّ التزكية لها قسمان: إبتدائي ونهائي.

أمّا التزكية البَدْئية، فهي ما كان من التزكية قبل التعليم، فإنّ الكافر العنود ما لم يذق بعض طعم تحوّل وطهارة، فإنّه لن يستمع إلى كلامه سبحانه وتعالى، ولن يعتني بـ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾[1] فهذه التزكية الابتدائية الواقعة قبل التعليم.

وأمّا التزكية النهائية ـ وهي ما كان منها مرافقا لقداسة الروح ـ فهي ما يحصل من التزكية بعد التعليم[2].

النقطة الرابعة أنّ التزكية قسمان، فإنّ التعليم قسمان أيضاً: إبتدائي ونهائي.

أما التعليم الابتدائي، فهو الحاصل على صورة العلم الحصولي وعن طريق الاطّلاع على المبادئ التصوّرية والتصديقيّة، وتعليم من هذا النوع يكون قبل التزكية.

---

١ . سورة الاعراف، الآية ٢٠٤.

٢ . كشف الاسرار، ج١، ص٤١١، بتصرف.

وأمّا التعليم النهائي، فهو ما كان من التعليم بصورة العلم الشهودي، وكان مترافقا مع علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، ويستمدّ من الرسالة التي تؤدّيها الآية الشريفة: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾[١]، ويستعان عليه بتوجيهه سبحانه وتعالى الوارد في قوله عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[٢]، وهذا النوع من التعليم يكون بعد التزكية.

من الطبيعي أنّ أوج عروج التزكية هو عين المعرفة، ولا كلام عن تعدّد التعليم والتزكية في القمّة الرفيعة لكي يفتح المجال أمام الكلام عن مسألة التقدّم والتأخّر التي نحن فيها؛ فإنّ الانسان الكامل والسالك الصالح هو مظهر إلهي تامّ علمه عين قدّوسيته سبحانه وتعالى.

النقطة الخامسة أنّ التزكية العلّة الغائية للتعليم، والعلّة الغائية مقدّمة في وجودها العلمي مؤخّرة في وجودها العيني.

فتقدّم التزكية في بعض العبارات يكون بلحاظ وجودها العلمي، وأمّا تأخّرها في بعض عبارات أُخرى من التعبيرات، فإنما هو بلحاظ وجودها العيني.

النقطة السادسة أنّه على الرغم من وجود المصحّح لكلّ واحدٍ من التقديم والتأخير في المقام، إلّا أنّ نكتة تقديم التعليم على التزكية في دعاء حضرة إبراهيم عليه السلام، هي لحاظ النظم الوجودي والنضد العيني، وأمّا تقديم التزكية على التعليم في الآية الّتي هي محلّ البحث حيث حيطة إتمام النعمة ومجال الامتنان ومنطقة بركة الرسالة، فإنّه بلحاظ الثمرة العملية في المقام؛ فإنّ المبادرة بذكر الفائدة في مقام الامتنان أولى من التأخير[٣].

---

١ . سورة الأنفال، الآية ٢٩.

٢ . سورة التكاثر، الآيات ٥ ـ ٦.

٣ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٤٧.

النقطة السابعة أنّ التقدّم والتأخّر اللفظيّين إذا لم يكونا مع حروف الترتيب، من قبيل «الفاء»، و«ثمّ» فإنّه ليس التأخّر لفظاً صريحا في الترتّب أو ظاهرا تامّا فيه، إلّا أنّه بالاضافة إلى التفنّن في التعبير، يمكنه أن يوصل رسالة مفادها: أنّ الامور المذكورة ليست بمجموعها نعمة واحدة من نعمه سبحانه وتعالى، بل كلّ واحد من تلك الامور يعدّ نعمة مستقلّة عن غيرها من النعم، تستحقّ لوحدها شكره سبحانه وتعالى الخاصّ، ومن هنا، نجد أنّ المطلب المزبور قد أفيد بتقديم التعليم أحيانا، وبتأخيره أحيانا أخرى، لكي تحفظ خصوصيّة استقلال كلّ واحدة من النعم المزبورة عن غيرها.

من الطبيعي أنّ هناك وجوها أخرى يمكن ذكرها للتأخير والتقديم.

## الحكمة النظرية والعملية

أعتبر تعليم الكتاب والحكمة في الآية الّتي هي محلّ البحث ونظائرها من جملة شؤون الرسالة ووظائفها ومسؤوليّاتها، حيث قال عزّ من قائل: ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

و«الكتاب»: هو مجموع مقرّرات الدين وقوانينه، وأمّا «الحكمة»، فهي الكلام المُبَرْهَن والمُسْتَحكِم المتضمّن للاسرار، أعمّ من أن يكون ذلك الكلام الوحي القرآني والالهام النبويّ.

ويفيض القرآن من أوّله إلى آخره بالمحكم والحكمة، حتّى وصفه الله سبحانه وتعالى بالحكيم في قوله عزّ من قائل: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحُكِيم﴾[1]، وهذا لا يمنع من أن تكون بعض الآيات أكثر إتقانا وإحكاما من غيرها؛ إذ لا تستوي الموعظة والجدال الاحسن مع البرهان الّذي يعبّر عنه بالحكمة.

---

١ . سورة يس، الآية ٢.

وفي الوقت الّذي يصف القرآن الكريم فيه الدنيا مع جميع ما فيها من نعم بالمتاع القليل كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[1]، ويصفها أيضاً بأنّها لهو ولعب وتفاخر وتكاثر[2]، في هذا الوقت نفسه، يعبّر عن الحكمة بالخير الكثير، كما جاءت به الآية الكريمة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[3]. يعني أنّها خير لا لهو ولعب، وأنّها كوثر لا تكاثر.

للحكمة قسمان: نظري وعملي، كما عبّر القرآن الكريم عن البراهين التوحيدية (الحكمة النظرية)، وعن النصائح والعبر الاخلاقية (الحكمة العملية) بالحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً * وَقَضَى رَبُّكَ أَلّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً... * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾[4]. شروع وختام هذه المجموعة من الآيات هو توحيده سبحانه وتعالى، وأمّا الآيات الوسطى، فإنّها نصائح وتوجيهات اخلاقية وفقهية وحقوقية، فردية واجتماعية.

هذه النقطة واضحة أيضاً في مواعظ حضرة لقمان الّذي آتاه الله سبحانه وتعالى الحكمة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[5]، إنّ مطلع نصائح لقمان الحكيم لابنه هو الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، نوّه بعد ذلك بجملة من المسائل والآداب الاخلاقية والحقوقية والاجتماعية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا

---

١ . سورة النساء، الآية ٧٧.

٢ . سورة الحديد، الآية ٢٠.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

٤ . سورة الاسراء، الآيات ٢٢ ـ ٢٣ و٣٩.

٥ . سورة لقمان، الآية ١٢.



الانسان بِوَالِدَيْهِ... * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الاصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[1].

والخلاصة: ما يبحث عن العلم النظري الباحث عن «الوجود وعدم الوجود» بالنسبة إلى نظام الوجود، وكذا عن العلم العملي الباحث عن «ما يجب وما لا يجب» بالنسبة إلى النظام الاخلاقي، والفقهي والحقوقي، هو الحكمة، وكلا القسمين أمر مشهود في القرآن الحكيم وسنّة المعصومين عليهم السلام بصورة واضحة جدا.

## ضرورة الحاجة إلى الرسول ودوامها

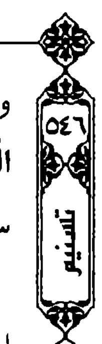
ليست المعارف الالهية من سنخ العلوم البشرية، الامر الّذي يجعل التطور العلمي والصناعي المشهود لا يغني الانسان عن الوحي والنبوّة وما حملته الرسل عليهم السلام إلى المجتمع البشري؛ فإنّ الرسل إنّما تأتي بتلك العلوم والاسرار التي لا طريق لتحصيلها للانسان إلّا عن الوحي، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

لم يقل سبحانه وتعالى: «يعلّمكم ما لا تعلمون»، بل قال عزّ وجلّ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، أي: ما لم يكن ـ ولن يكون ـ لكم إلى فهمه سبيل باستقلالكم؛ فإنّ الفعل المضارع المقرون بالفعل «كان» المنفي في قوله تعالى: ﴿لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، يشعر بعجز البشر وضعفهم عن إدراك المعارف والعلوم، تلك التي لا يمكن الوصول إليها بدون واسطة الوحي.

كما ورد هذا التعبير بالنسبة إلى شخص الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله أيضاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[2]،

١ . سورة لقمان، الآيات ١٣ ـ ١٤ و١٩.

٢ . سورة النساء، الآية ١١٣.




وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الايمان﴾[1]، وله إشارة إلى ضعفه ﷺ وقلّة حيلته لولا عنايته سبحانه وتعالى العليم والحكيم.

إنّ تعليم الكتاب والحكمة، وكذا تعليم ما لا يمكن الوصول إليه من المعارف إلّا بالوحي، أمر لا يمكن تحقيقه إلّا بمعلّم، ومن هنا، نجده سبحانه وتعالى يجهّز الرسول الاكرم ﷺ قبل كلّ شيء بصلاح المعرفة وسلاح العلم، فنسمعه تعالى يقول: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[2]، لكي يتمكّن ﷺ بعد ذلك من إخراج المجتمع من ظلمة الجهل العلمي إلى نور المعرفة، كما أنّ تزكية النفوس لن يكون لها سبيل بدون طهارة المربّي، ومن هنا، نجده سبحانه وتعالى يخلّقه ﷺ بالاخلاق الالهية، مصرّحا بحمله لهذه الشهادة العظيمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3].

ليست حاجة المجتمع البشري إلى النبيّ حاجة مقطعية موقّتة تقف على حدّ التأييد النِسْبي، بل الوحي والنبوّة حاجتان ضروريّتان دائميّتان لجميع الجوامع البشرية في جميع الاعصار؛ فإنّ الرسل عليهم السلام يعلّمون البشر ـ المعارف الضرورية أوّلا، كما أنّ الوصول إلى تلك المعارف مما لا قدرة للانسان عليه، إن بواسطة العقل الفردي، وإن بواسطة العقل الجمعي.

إنّ تعبير: (ما لَمْ تَكونُوا تَعْلَمُونَ﴾ في مجال المعارف العلمية هو من قبيل تعبير: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾[4] في مجال المسائل العينية؛ فكما أنّه سبحانه وتعالى لو لم يرسل المطر لما كان للانسان أن ينمّي الشجرة ويثمرها، فإنّ

---

١ . سورة الشورىٰ، الآية ٥٢ .
٢ . سورة النساء، الآية ١١٣ .
٣ . سورة القلم، الآية ٤ .
٤ . سورة النمل، الآية ٦٠ .

الامر هكذا بالنسبة إلى الوحي؛ فلو لم ينزل الوحي، لما كان من الممكن الوصول إلى العلوم والمعارف الغيبية، فشجرة طوبى هذه لم ينمّها إلّا الانبياء عليهم السلام، وهم من جعلها تثمر.

القسم المهم من العلوم التي لم يكن للانسان أن يصل إليها لولا الوحي النبوي، هو ما يرجع إلى الاسماء الحسنى والغيبية للمبدأ، والتي ترجع إلى المعاد والاحكام التعبّدية للدين. قد يمكن للعقل أن يفهم مستقلاً وبالاجمال أنّ مبدأ حكيما كان وراء خلق العالم، ولكي لا يستوي الصالح والطالح جعل يوما للحساب، إلّا أنّه لا طريق له أبدا إلى الوصول إلى الكثير من الاسماء الحسنى، وكذا إلى المسائل المتعلّقة بما بعد الموت، من قبيل حقيقة القبر وخصوصيّاته، وحقيقة البرزخ ومواقفه، وكيفيّة قيامة القيامة ومَشاهدها، وكيفية الجنة والنار، إلى غير ذلك من المئات من المسائل الاخرى التي لا سبيل للانسان إلى الوقوف عليها وعلى حقيقتها وتفصيلاتها لولا المدد الالهي والوحي الغيبيّ، وأمّا العقل، فإنّه يقف حائرا مستسلما أمام تلك الامور، كما هو الحال في ما يرجع إلى الموارد الدقيقة لعلم المبدأ، فإنّ العقل يستمدّ العون في هذا المجال من الوحي لا غير.

قد يكون أصل المعاد أمرا يقينيا لا سبيل إلى التردد فيه، إلّا أنّ مسائل ما بعد الموت أمور دقيقة غاية الدقّة لا سبيل للعقل إلى إدراكها إلّا بمقدار الخطوط العريضة العامّة فيها، ولمّا لم يكن الوضع بالنسبة إلى تلك المسائل واضحا بالنسبة إلى العقل، فإنّه ليس له أيّ علم بما يجب عليه أن يحمله زادا له في ذلك العالم وتلك النشأة.

فالعقل يدرك لابديّة عبادته سبحانه وتعالى بصورة إجمالية كلية، وأمّا بالنسبة إلى فهم كيفية هذه العبادة وكيفية التعبّديات الدينية، من قبيل الصلاة والصوم والحجّ والاحكام والمسائل الاخرى، بحيث تكون معرفة تمكّنه من

النجاة من خطر مواقف القيامة وأهوالها، لكي يكون من المطمئنيّن الآمنين في تلك النشأة، فليس ذلك بمقدور العقل لوحده أبدا.

**والخلاصة**: لا يمكن بدون الوحي الوقوف على حقائق عوالم ما بعد الموت وفهم الاحكام الدينية، وهذا النوع من العلوم والمعارف ممّا لا وقوف للعقل عليه إلّا بتعليم الوحي، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

**تنويه**: من اللازم الالتفات إلى أنّه على الرغم من أنّ العقل النظريّ يمكنه أن يدرك الاصول العامّة للمبدأ، والمعاد، والاخلاق، والفقه والحقوق، إلّا أنّ مركز القرار في ما يرجع إلى الامور التنفيذية هو العقل العملي لا النظري.

النزوع إلى الدنيا، والحاجة إلى الطبيعة، والارتباط القلبي بلذائذ الحياة الدنيا، والخوف من فقدان ما تشتهيه النفس، وما ماثل ذلك، كلّها ممّا يمنع عزم العقل العملي، ومن هنا، فإنّنا نرى أحيانا قلّة الاهتمام بالاحكام والحِكَم الدينية، ومواجهتها بالانكار والنكول تارة، وبالتسامح والتساهل أخرى، وبالغفلة والذهول ثالثة، قال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[1].

وللاوامر والتوجيهات السمائية الدور الاكبر والاهم في رفع هذا النوع من الموانع، وهو ما سنتعرّض له في بحث الاشارات واللطائف إن شاء الله تعالى.

## شبهة كفاية العقل في الهداية

نقل عن البراهمة في مقام نقد مقولة «ضرورة حاجة المجتمع إلى الوحي وعدم كفاية العقلِ لوحده لهداية البشر»، شبهة مفادها: أنّ البشر ليسوا بحاجة إلى الوحي والرسل؛ من جهة أنّ ما يأتي به الوحي والرسل بلحاظ موافقة العقل أو مخالفته لا يخلو من أحد احتمالين، فإنّه إمّا أن يكون موافقا لإدراك العقل، ما

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١٨٧.



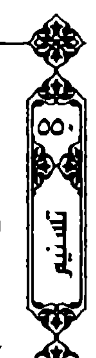
يعني أنّ العقل نفسه كاف في هذه الحالة، وإمّا أن يكون مخالفا لفهم العقل، الامر الّذي يعني أنّه محكوم عليه بالبطلان والردّ بسبب تلك المخالفة[١].

وجواب هذه الشبهة في ظلّ ما تقدّم من توضيح في مجال ضرورة الحاجة إلى الوحي، يتمثل في أنّ العقل إنّما يمكنه إدراك كليّات الرؤية العالمية والخطوط العامّة للدين، وأمّا في ما يرجع إلى معرفة الكثير من العلوم والمعارف، تلك التي تعود إلى جزئيات وفروع المسائل الدينية على الخصوص، فهو عاجز تمام العجز عن إدراكها، صارخا بأعلى صوته في مقابلها: «لا أدري»؛ إذ لا ميزان ولا معيار بيد العقل في هذا المجال يعرض عليه علوم الوحي فيقيسها من حيث الصحّة والسقم، ليكون له موقف علمي صحيح منها، فالموافقة والمخالفة عنده حينئذ من باب تقابل العدم والملكة لا من تقابل التناقض، ما يعني أنّ رفع كلّ من الامرين المتقابلين ممكن في هذه الحالة، بحيث يمكن أن نقول بالنسبة إلى بعض ثمرات الوَحْي بأنّها ليست موافقة للعقل ولا مخالفة له؛ إذ ليس للعقل أيّة معرفة بتلك الامور من الاساس لكي يتمكّن من الافتاء في مجال تلك المسائل، لتصل النوبة إلى جعل ما يفتي به العقل ميزانا ومعيارا يمكن انتزاع عنوان الموافقة والمخالفة عن طريقه، ومع أخذه بنظر الاعتبار.

فبالنسبة إلى الامور التي يفهمها العقل، يعتبر العقل من قبيل السراج الّذي يمكّن الانسان من السير على الطريق الصحيح، ومن التفريق بين الطريق السوي والطريق المعوج، وأمّا الدين، فهو من قبيل المسير والطريق الّذي يوصل الانسان إلى الهدف، ومن الواضح أنّ الانسان في الصحراء المظلمة لا يفيده مجرد الحصول على النور المضيء، بل لا بدّ له مع ذلك من خارطة للطريق في الوقت نفسه، كما تعرّض القرآن الكريم لذلك عندما ذكر أنّ الانسان قبل الاطلاع على معارف

---

١ . كشف المراد، ص٣٤٨.




الوحي غارق في الضلال المبين ليس إلّا، حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1].

والنقطة الجديرة بالانتباه هنا، هي أنّ العقل لو كان كافيا لهداية البشر، لما كان ذلك سببا في عدم بعثة الرسل أيضاً، ولما كان سببا وجيها لكي يكون بيد البشر الحجّة عليه سبحانه وتعالى في هذا المجال، مع أنّ الحصول على حجة من هذا القبيل واحد من علل بعثة الانبياء ونزول الوحي عليهم، قال تعالى: ﴿... لئلّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[2].

بناء على الحقيقة السابقة، يمكن القول بأنّه تعالى لو لم يكن قد بعث الرسل عليهم السلام، لما كان للناس أن يعترضوا بما ورد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قبله لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾[3]. فالتوافر على حقّ من هذا النوع دليل على احتياجهم إلى الوحي والنبوّة، وإلّا، فلو كان العقل كافيا، لكان جوابه سبحانه وتعالى على اعتراض الناس المتقدم، أنّه عزّ وجلّ قد أعطاهم العقل، وأنّه كاف في هدايتهم إلى سواء السبيل.

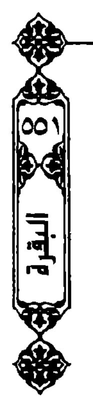
إنّ إمكان اعتراض من النوع المتقدم في الآية الشريفة، لهو أوضح علامة على أنّ العقل بنفسه حاكم بضرورة الوحي والرسالة الالهية، كما كان رد فعل الكافرين في مقابل رسالة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، وهو ما عكسته الآية الشريفة: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ *

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

٢ . سورة النساء، الآية ١٦٥.

٣ . سورة طه، الآية ١٣٤.



رَسُولٌ مِنْ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾[١]، ومن هنا، نجده سبحانه وتعالى لا يترك البشر بلا بيّنة ودليل وهاد، وأنّه بهذه الطريقة يتمّ حجته على الجميع، وبعد إتمام الحجّة، يهلك من هلك عن بيّنة واطلاع، ويحيى من حيّ عن بيّنة واطلاع، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

ما تقدّم من بيان، يمكن أن يكون توضيحا لما جاء في الحديث الشريف: «إنّ لله على الناس حجّتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة؛ فأمّا الظاهرة، فالرسل والانبياء والائمّة عليهم السلام، وأمّا الباطنة، فالعقول»[٣]؛ فقد جعل الله سبحانه وتعالى على الناس نوعين من الحجّة: إحداهما: العقل، وهو الحجّة الباطنة، وثانيتهما: الوحي الواصل إلى البشر عن طريق الرسل، ولا يمكن لأيّ حُجّةٍ من الحجّتين السابقتين أن تكون حجّة تامّة مستقلّة للهداية النهائية للبشر بدون الاخرى، ما يعني أنّ من ينفصل عن الوحي المستمرّ الّذي يبيّن بوسيلة الائمة الاطهار عليهم السلام، فجعل قبلته «القياس» و«الاستحسان» و«المصالح المرسلة»، فقد انحرف عن الصراط المستقيم؛ إذ بدون توجيهات الوحي وهديه لا سبيل أبدا إلى الوصول إلى معارف الدين وأحكامه، كما ورد في الرواية الشريفة: «إنّ دين الله لايصاب بالعقول الناقصة»[٤]، ولو أرخينا العنان للعقل في مجال فهم فروع الدين، فلن تكون النتيجة إلّا الانهدام الكامل لذلك الدين، لكي يسقط الانسان في وادي الضلالة والهلاك، كما جاء في الرواية الشريفة: «إنّ السنّة إذا قيست مُحِقَ الدين»[٥].

---

١ . سورة بيّنه، الآيات ١ ـ ٢.
٢ . سورة الأنفال، الآية ٤٢.
٣ . الكافي، ج١، ص١٦.
٤ . بحار الانوار، ج٢، ص٣٠٣.
٥ . الكافي، ج١، ص٥٧.

فالعقل ـ إذن ـ شرع من داخل في حدود معيّنة، كما أنّ النقل المعتبر عقل من خارج في حدود معيّنة أيضاً، وهو ما يمكن استظهاره مما أرسل عن أمير المؤمنين علي بن أبي اطالب عليه السلام من قوله: «العقل شرع من داخل، والشرع عقل من خارج»[١].

## إشارات ولطائف

### الطرق العملية للتزكية

تقدّم في البحث التفسيري أنّ صرف التعليم لا يمكنه لوحده أن يحقّق لنا الهدف من بعثة الانبياء عليهم السلام، يعني التزكية وتهذيب النفوس، ما يفسّر تعرّض القرآن الكريم إلى أصل تزكية النفس والطرق العملية لها، نشير في ما يلي إلى نماذج من ذلك:

١ ـ التعلّق بالدنيا والركون إليها الّذي هو رأس كلّ خطيئة[٢]، هو الاساس في تلوّث الانسان، ومن هنا، نجد أنّ البخل وتكديس الثروات قد شبّه بالعدو الداخلي المتمركز في روح الانسان ونفسه، بحيث لا يفتأ يرمي الانسان بسهامه: ﴿وَأُحْضِرَتْ الانفُسُ الشُّحَّ﴾[٣]. والسعيد هو من جعل التقوى درعه في هذه الحرب الضروس مع هذا العدو الداخلي لينجو بنفسه في هذه المواجهة: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

إيتاء الصدقة والزكاة والواجبات المالية الاخرى، هو الاساس في تزكية الروح وتطهيرها من لوث تعلّقها بالمال، كما أنّه المخلّص للانسان من نار

١ . مجمع البحرين، ج٣ ـ ٤، ص٢٢٤، «ع ق ل».
٢ . بحار الانوار، ج٧٠، ص٢٠ و٦٠.
٣ . سورة النساء، الآية ١٢٨.
٤ . سورة الحشر، الآية ٩.

الجحيم، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[١].

ومن الواضح أنّ التلوّث المزبور ليس ناظرا إلى أصل المال؛ إذ إنّ المال بعد إخراجه سيكون من موارد بيت المال، ليكون بذلك واحدا من أكثر أموال المجتمع الاسلامي بركة، وممّا يمكن الاستفادة منه في أمور الخير والعمران والاعمال المباركة، من قبيل إعمار الكعبة وسائر المراكز المذهبية، والاماكن عامّة المنفعة، كالمدارس والمستشفيات وغيرها.

وفي هذه الآية الشريفة ـ إعتمادا على أنّ جملة: ﴿تُطَهِّرهم﴾ في محل نصب، صفة لكلمة: ﴿صدقةً﴾ والفعل المضارع مرفوعٌ لا أنّ الفعل المضارع مجزوم وجواب للامر ـ نرى أنّ التطهير قد أسند إلى السبب القريب ـ أداء الحقوق الواجبة ـ وإلى السبب البعيد ـ الرسول الاكرم ﷺ ـ في الوقت نفسه، وعلى أيّ تقدير، فإنّ الفاعل المباشر للطهارة هو الانسان نفسه، فهو الّذي هيّأ الارضيّة لتطهير نفسه حينما قبل بالاسلام دينا، وعمل بما لذلك الدين من أحكام إلهية.

الحقيقة المستفادة من الآية المذكورة يمكن استفادتها من آيات شريفة اخرى أيضاً، من قبيل ما أشار من كلامه سبحانه وتعالى إلى أنّ دفع الانسان الزكاة منج للدافع من النار، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلَّا الاشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الاتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾[٢]، وأنّ المفلح من أدّى زكاة فطرته ذاكرا سبحانه وتعالى بلسانه وقلبه حين يقوم مصليّا، كما في قوله عزّ من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[٣].

---

١ . سورة التوبة، الآية ١٠٣.

٢ . سورة الليل، الآيات ١٤ ـ ١٨.

٣ . سورة الاعلىٰ، الآيات ١٤ ـ ١٥.

٢ ـ الصنم وعبادة الاصنام خبث ورجس، وتوجيه الانبياء عليهم السلام من أجل التزكية والتخلّص من هذا الرجس هو اجتناب ذلك وعبادة مبدأ الخلقة، قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الاوْثَانِ﴾[1]، وقال عزّ وجلّ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّما الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّما الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالانصَابُ وَالازْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

٣ ـ رعاية آداب المعاشرة الاسلامية، من قبيل الاستيذان والاستيناس قبل الدخول إلى بيوت الاخرين، والسلام على أهل ذلك البيت حين الدخول، وعدم الدخول مع حالة خاصّة عند أهل ذلك البيت تمنع من الدخول، كلّ واحد من تلك الامور يصلح أساسا من أسس التزكية وتطهير الروح، فإنّ التواضع وخفض الجناح هو البديل للغرور وحبّ النفس والأنانيّة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فإِن لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[4].

والحاصل: ١ ـ تزكية النفس عامل الفلاح والاستقامة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[5] ولا يتحقّق ذلك إلّا بالتقوى، فبالتقوى يمكن التخلّص من الالواث والادران في مجال العقيدة والاخلاق والاجتماع، وبالتقوى يمكن فتح قمّة الطهارة الرفيعة.

---

١ . سورة الحجّ، الآية ٣٠.
٢ . سورة التوبة، الآية ٢٨.
٣ . سورة المائدة، الآية ٩٠.
٤ . سورة النور، الآيات ٢٧ ـ ٢٨.
٥ . سورة الشمس، الآية ٩.




٢ ـ للتزكية دور مصيري في فتح أقفال القلب، يعني إزالة الغفلة وما شابهها، قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1].

٣ ـ للتزكية تأثير مهمّ في غسل الرَّيْن والغبار والاوساخ عن صفحة النفس والقلب، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]. وبمثل هذه التزكية يكون العلم الرائج نافعا، والعلم النافع مطلوب الاولياء، كما أنّه يستعاذ من العلم غير النافع، كما ورد في الرواية الشريفة: «أعوذ بك من علم لاينفع...»[3].

* * *

---

١ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٢٤.

٢ . سورة المطفّفين، الآية ١٤.

٣ . بحار الانوار، ج٢، ص٦٣ و ج٨٣، ص١٨.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

## التفسير المختار

بعد تعداده سبحانه وتعالى لعدد من نعمه، وانطلاقا من لطفه الخاص، يبرز ذلك اللطف على هيأة معاهدة بينه وبين غيره، فيقول: «أذكروني لأكون ذاكرا لكم».

وكلمة ﴿اذكروني﴾ عامّة شاملة لجميع النعم الظاهرية والباطنية، ولكن، مع الاخذ بنظر الاعتبار اختلاف مراتب الافراد ودرجاتهم، يختلف فهم كلّ واحد من الافراد منها، ومن هنا، يذهب الكثيرون إلى اعتبارها دعوة إلى «ذكر النعمة»، وأمّا من يقول بأنّها «ذكره سبحانه وتعالى» بنفسه، فهم أفراد نادرون.

من المستحيل افتراض الجهل والنسيان والغفلة المحضة في حقه سبحانه وتعالى، وعليه، يكون المراد من ذكره تعالى بالنسبة إلى الانسان، ذكرا خاصّا تشريفيا يكون سببا في بصيرة القلوب.

إنّ مقتضى التلازم الثبوتي بين الاذكار، والتلازم السلبي بين الاسباب المختلفة للنسيان، هو أن يكون الانسان في ذكر دائم للحقّ سبحانه وتعالى.

إنّ شكر الله سبحانه وتعالى مصداق لذكره عزّ وجلّ، ولكن، لمّا كان هذا الذكر في الآية الشريفة مقابلا للكفر، فإنّ ذلك يعني إرادة معناه الخاصّ، فطبقا لهذه الآية الشريفة، المشكور من قبل الانسان يجب أن يكون الله سبحانه وتعالى في جميع الاحوال، فيجب الابتعاد عن الكفران والجحود في مقابله تعالى، فالجمع بين الامر بالذكر والشكر من جهة، والنهي عن الكفران من جهة أخرى في هذه الآية الشريفة، مفيد للزوم دوام ذكره سبحانه وتعالى.

# التفسير

## تناسب الآيات

لم ينس سبحانه وتعالى الرسول الاكرم ﷺ ولا المسلمين أبدا في ما يرجع إلى الهداية إلى الصراط المستقيم والكمال النهائي؛ فقد كان في ذكرهم في إنعامه بنعمة إرسال الرسول الاكرم ﷺ وجعل الكعبة قبلة للمسلمين، النعمة التي كانت الاساس في كمال الدين وتوحيد العبادة وقوام تفضيل المسلمين دينيا واجتماعيا، ومن هنا، فرّع على ذلك الامر بالذكر والدعوة إليه، لكي يذكروه بالمقابل بالطاعة والعبودية، لكي يذكرهم سبحانه وتعالى بدوره بإِنعامه عليهم، فيزيد من ثواب شكره وعدم كفران نعمه، والنقطة الاخيرة وردت في ما نزل من الآيات قبل آيات القبلة[1].

وعلى هذا الاساس، فالفاء في عبارة: ﴿فاذكروني﴾ لأجل التفريع، لتعطف الآية الّتي هي محلّ البحث على ما سبقها من الآيات، والمعنى: «الآن وقد أنعمت عليكم بالنعم المذكورة، آمركم بذكري[2]، من أجل ألّا تنسوا أنّ المفيض لتلك النعم، ولجميع ما ترتّب من ثمرات سابقة على تشريع القبلة، وإرسال النبي ﷺ، هو أنا لا غيري»[3].

أصبح العرب الذين كانوا يعيشون مع الجهالة المطبقة قبل الاسلام ببركة رسالة الرسول الاكرم ﷺ، من جملة الاولياء الالهيّين، ومن أعلم الناس، وأحسنهم سيرة، وأتقاهم، والله سبحانه وتعالى إذ يذكر ما أنعمه على هؤلاء حيث أنقذهم من الشقاء الطويل، والجهل، والفقر، وغير ذلك من المصائب التي

---

١ . الميزان، ج١، ص٣٤٣.

٢ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٤٩.

٣ . تفسير المنار، ج٢، ص٣١.

كانت حاكمة عليهم، وإذ يذكّرهم بما تفضّل به عليهم من نعمة الرسالة والقبلة، فإنّه يدعوهم إلى الاعتراف بهذه النعم، فيرغّبهم في ما يثمر دوام هذا التفضّل واستمراره منه سبحانه وتعالى، وعن طريق تفريع هذا الامر على ما سبق من بيانات له تعالى، فإنّه يطلب منهم ذكره في مقابل تلك النعم العظام، وشكره عليها[1].

**والخلاصة**: المسائل التي يتعرّض لها هذا الفصل من سورة البقرة، وارتباطها بالآية الّتي هي محلّ البحث، يمكن تقريره بما يلي:

من أجل أن يقطع سبحانه وتعالى طريق الاحتجاج، ومن أجل إخراس لسان اعتراض الكافرين والطعن الّذي كان يصدر منهم، ومن أجل إتمام النعمة على المسلمين لكي يكونوا أمّة متميّزة، وهكذا من أجل هدايتهم إلى الحقّ، جعل سبحانه وتعالى الكعبة قبلة لهم، ومن أجل أن يتمّ هدايته لهم، بعث إليهم الرسول الاكرم ﷺ، فبهذه البعثة وهذا الارسال قد أنعم النعم والهداية على المسلمين، نعم كثيرة من قبيل تبيين الآيات، وتعليم الكتاب والحكمة، وتطهير النفوس، وتعليمهم في ما يحتاج إلى التعليم، وبهذه المناسبة، نراه سبحانه وتعالى يذكّر هؤلاء بعمل متناسب وتلك النعم العظام، فكما أرسلت لكم رسولا يقوم لأجلكم بتلك الاعمال، فإنكم مطالبون ـ بالمقابل ـ بالذكر والشكر، فكونوا ذاكرين لي، شاكرين على ما أنعمته عليكم من النعم[2].

**والخلاصة**: بعد أن ذكر سبحانه وتعالى ما أنعم به على المسلمين من نعم عظام، من قبيل البعثة والقبلة وغيرهما من النعم، فرّع على ذلك الامر بذكره بالفاء، فيتّضح بذلك الارتباط بين الجملتين، فيبين الترتّب بينهما بتبع ذلك.

❋ ❋ ❋

---

١ . نظم الدرر، ج١، ص٢٧٦ . الاساس في التفسير، ج١، ص٣٢٠.

٢ . الاساس في التفسير، ج١، ص٣٢٣.



## الذكر الالهي المتبادل

تعرّضنا في ما سبق إلى أهمية الكعبة، والقبلة، والوحي والرسالة وعظمتها. وبعد أن تعرّض سبحانه وتعالى إلى هذا النوع من النعم بالذكر، قال عزّ من قائل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

وقد أبرز سبحانه وتعالى لطفه الخاص ورحمته المميزة بالانسان في عدّة موارد، على شكل عهد متبادل بينه وبين عبيده، من قبيل ما ورد في قوله تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1] ومن قبيل ما ورد في قوله عزّ من قائل: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحْ اللهُ لَكُمْ﴾[2].

وما يتعهّد به سبحانه وتعالى في ما يرجع إلى ذكره والمحافظة على عهده، هو أنّ العبد لو كان من أهل الايمان والعمل الصالح، فإنّه تعالى سيجعل ذلك العبد من أهل الجنة، فيسكنه فسيح جناته، ويمتّعه بما فيها من نعم.

من الطبيعي أنّ ذكره سبحانه وتعالى ـ شأنه شأن التوفيقات الالهية الاخرى ـ محفوف بنعمتين من نعمه عزّ وجلّ، فالاولى: ظهور ذكره سبحانه وتعالى بالنسبة إلى العبد، لكي يخرجه ذلك من الغفلة إلى التنبّه، ومن السهو والنسيان إلى الذكر، فينقله من النوم إلى اليَقَظة، فيكون العبد حينئذ في ذكره سبحانه وتعالى، ليجزيه تبارك وتعالى حينئذ فيكون ذلك العبد موردا للطفه، ليكون الربّ تبارك وتعالى في ذكره.

وقد ذكرت توجيهات متعدّدة في مجال بيان كيفية ترتّب ذكره سبحانه وتعالى على ذكر العبد، وفي معنى ذلك الترتّب في كتب مختلفة، كما في روض الجنان لأبي

---

١ . سورة البقرة، الآية ٤٠.

٢ . سورة المجادلة، الآية ١١.

الفتوح الرازي[١]، والبحر المحيط لأبي حيّان الاندلسي[٢]، وكشف الاسرار للميبدي[٣]، وقد تعرّض الفخر الرازي إلى عشرة من تلك التوجيهات[٤].

وفي هذا النوع من الخطابات، ومن باب ما ذكر في وصفه تعالى من قولهم عليه السلام: «في علوّه دانٍ»[٥]، فإنّه عزّ وجلّ يقرّب نفسه من العبد إلى الدرجة التي يجعل فيها عهدا وعقدا تجاريا بينه وبين عبده، وما ورد أحيانا من الكلام عن العلاقة بينه تعالى وبين العبد ووصفها بالتجارة والاجرة وغيرهما.

## كيفية ذكر الله وحقيقته

الذكر غير الخاطر، فإنّ الذكر أمر ثابت والخاطر أمر وقتيّ زائل، وعلى الرغم من أنّ الفكر غير الذكر، فإنّ عنوان الذكر بمعناه القلبي والعقلي الجامع شامل للفكر أيضاً، وعلى هذا، فالآية الّتي هي محلّ البحث تشتمل على الذكر، والفكر، والشكر، ما يجعلها لهذا من جوامع الكلم.

للذكر اللساني حكمه الخاص، كما أنّه يصدق على جميع الاشياء، وأمّا الذكر القلبي والعقلي بالنسبة إلى ذات ليست من سنخ المفهوم والماهية، ولا ترد إلى الذهن، بل لا بدّ للذهن من أن يصير عينا فيكون في خدمة المذكور والمعلوم لكي يفهم على قدره فيكون في ذكره، أمر غير متصور، بل الممكن بالنسبة إلى هذا الذكر هو ما كان بصورة العلم الحضوري لا الحصولي الّذي لا يفيد في المقام، كما أنّ ذكره سبحانه وتعالى بالنسبة إلى غيره من الاشياء أو الاشخاص، ليس أمرا من سنخ الصورة الذهنية، وإنما هو إضافة إشراقية وإفاضة عينية.

---

١. روض الجنان، ج٢، ص٢٣٢ ـ ٢٣٤.
٢. تفسير البحر المحيط، ج١، ص٦١٩.
٣. كشف الاسرار، ج١، ٤١٤.
٤. التفسير الكبير، ج٤، ص١٤٤.
٥. بحار الانوار، ج٨٧، ص١٨٩.

من الطبيعي أنّه كما للذكر اللساني ثواب محدود، فإنّ للذكر العقلي ـ وهو ذلك الفكر التوحيدي ـ فيضا مضبوطا أيضاً، إلّا أنّ أيَّ ذكرٍ من تلك الاذكار اللفظية أو المكتوبة أو الذهنية، لا يمكنه أبدا أن يكون حقيقة تكون ذاتها عين الواقع العيني، لا من قبيل المفهوم أو الماهية الذهنية.

**نكتة:** لّما كان المحور الاصلي للانسان هو قلبه: «أصل الانسان لبّه»[1] لم يكن للانسان إلّا قلب واحد، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾[2] فلو كان قلب شخص مّا متيّما مملوءا بذكره سبحانه وتعالى، فإنّه سوف ينسى كلّ ما كان غيره تعالى، ومن هنا، كان التوحيد التامّ والتوجّه المحض إلى ذكره تعالى ـ الّذي هو الذكر الحقيقي للقلب ـ سببا لنسيان ما سواه.

## تفاوت الافراد بالنسبة إلى ذكره تعالى

يدعو الله سبحانه وتعالى عباده إلى ذكر نعمه عليهم عن طريق تذكيرهم بتلك النعم أحيانا، كما في قوله تعالى: ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتِي...**﴾[3]، كما أنّه يدعوهم إلى ذكره أحيانا، كما في قوله تعالى: ﴿**اذْكُرُونِي**﴾.

ويشمل قوله تعالى السابق جميع النعم الظاهرية والباطنية، وليس من الصحيح ما ذهب إليه أكثر المفسّرين في المقام من وجود مضاف مقدر، وأنّ المراد من قوله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي**﴾ هو: «أذكروا نعمتي»، فالحقيقة: أنّ هذين التعبيرين مختلفان تمام الاختلاف، بل الحقيقة: أنّ عنوان ﴿**أذْكُرُونِي**﴾ أفضل من تعبير: «أذكروا نعمتي».

---

١ . بحار الانوار، ج١، ص٨٢ وج٧٢، ص١٠٨.

٢ . سورة الأحزاب، الآية ٤.

٣ . سورة البقرة، الآيات ٤٠، ٤٧ و... .

القرآن الكريم مأدبته سبحانه وتعالى التي أعدّها لجميع البشر[1]، وإلى جانب هذا الغذاء الجاهز، دعا عامّة الناس من متوسّطي العبيد إلى «ذكر النعمة»، إلّا أنّه دعا الاوحديّ من العباد ـ وهو من يعتبر أن أفضل النعم الالهية هي نعمة ذكر الحقّ تعالى ولقائه ـ إلى «ذكر الله» تعالى، من الطبيعي أنّ ﴿اذْكُرُونِي﴾ خطاب للعموم، إلّا أنّ المخاطبين بذلك الخطاب يفهمون هذا الخطاب بصور مختلفة، ومن هنا، نجد أنّ أوساط أهل الايمان تكون في ذكر نعمه سبحانه وتعالى، ونجد الاوحديّ من هؤلاء يكون في ذكر المنعم نفسه.

فمن يكون في ذكر الحقّ تعالى «خوفاً من النّار» أو «شوقاً إلى الجنّة»، يفهم من خطاب: ﴿فاذكروني﴾: «فاذكروا نعمتي» أو «فاذكروا عذابي»، وأمّا بالنسبة إلى شخص يقول: «فهبني يا إلهي... صبرت علي عذابك فكيف أصبر علي فراقك»[2]، فإنّ المفهوم عند شخص من هذا القبيل من خطاب: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ هو: «فاذكروني»، فلو كان الناس مشغولين بـ: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الانْهَارُ﴾[3]، فإنّ هؤلاء الذين لا يعبدونه تعالى خوفا من نار أو شوقا إلى جنة، بل يعبدونه لأنّهم يحبونه تعالى ويرون أنّه أهل للعبادة[4]، يكون هؤلاء مشغولين بالتفكير في جنّة اللقاء، فالدنيا والآخرة والنعيم والجنّة عند هؤلاء هو الله سبحانه وتعالى، كما في خطاب حضرة علي بن الحسين الامام السجاد عليه السلام الله سبحانه وتعالى: «يا نعيمي وجنتي، ويا دنيايَ وآخرتي، يا أرحم الراحمين»[5].

---

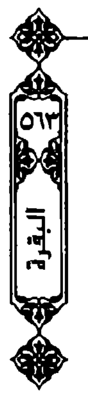
١ . بحار الانوار، ج٨٩، ص١٩ و٢٦٧.

٢ . مصباح المتهجّد. مفاتيح الجنان، دعاء كميل.

٣ . سورة البقرة، الآية ٢٥.

٤ . بحار الانوار، ج٦٧ ص٢٠٤ و ٢٣٦.

٥ . المصدر السابق، ج٩١، ص١٤٨. مفاتيح الجنان، مناجاة المريدين.



الاسماء الالهيّة الحسنى ـ وهي التي لا تعتبر صرف ألفاظ أو مفاهيم، بل هي بحدودها عبارة عن الذات المتعيّنة بوصف من أوصافه سبحانه الكمالية، يمكن ـ بل يجب ـ أن تكون مذكورةَ السالك الصالح، ومشمولة للآية الّتي هي محلّ البحث، ومن هنا، نجد التأكيد عليها والاهتمام بها في الآية الشريفة: **﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إليه تَبْتِيلاً﴾**[1].

## أثر ذكره تعالى التشريفي

الله سبحانه وتعالى علم محض وعين الشهود والحضور، من هنا، يستحيل في حقّه فرض الجهل والنسيان والذهول والغفلة، فإنّ الجهل والنسيان وقبول الغفلة بالنسبة إلى العلم والشهود أُمور تستلزم الجمع بين النقيضين، وهو محال.

والنتيجة: أنّه سبحانه وتعالى لا ينسى، قال تبارك وتعالى: **﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾**[2]. من الطبيعيّ أنّ ذكره تعالى للناس يختلف من فرد إلى آخر وليس على نحو واحد، بل هو من قبيل القرآن الّذي يكون للبعض شفاءاً فيما يكون للبعض الآخر خسارة وهلاكا، كما هو الحال بالنسبة إلى الشمس؛ حيث تكون نورا للبعض فيما تكون للبعض الآخر موجبة للعمى، وهذا ما يرجع إليه ما نقله الطبريّ عن الربيع، وهو: «إنّ الله ذاكر من ذكره، زائد من شكره، ومعذّب من كفره»[3].

ومع الالتفات إلى النقطة التي ذكرناها قبل قليل، يعلم أنّ المراد من قوله تعالى: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾** هو الذكر الخاص، والذكر التشريفي له تعالى، وإلّا

---

١ . سورة المزمّل، الآية ٨.

٢ . سورة مريم، الآية ٦٤.

٣ . جامع البيان، ج٢، ص٤٠.




فهو سبحانه وتعالى في ذكر الجميع، لكي يثيب المؤمن ويعاقب المجرم، إلّا أنّ هذا الاله الّذي هو في ذكر المجرم، وهو من تعرّض بالذكر لعذابه والانتقام منه، وقال محذّرا إياه: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[1]، هو نفسه يقول جوابا للمجرمين الذين يسألون يوم القيامة عن سبب حشرهم عميا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً﴾[2]: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[3].

إذن، كان سبحانه وتعالى في ذكر هؤلاء حيث جعلهم عميا؛ إذ:

أوّلا: إذا كان الانسان منسيّا مطلقا، فإنّه لا يعاقب حينئذ.

ثانيا: بصيرة الانسان المذكورِ من قبله تعالى وعمى الانسان المنسيّ من قبله تعالى يتحقّق كلاهما في الدنيا، ويظهر في الآخرة التي هي ظرف ظهور الحقائق لا ظرف حدوثها، وعليه، فمن لا يرى الله في الدنيا، فهو أعمى بالفعل وإن لم يدر بأنّه كذلك.

المستفاد من الآيات المذكورة، هو أنّه سبحانه وتعالى لا يجعل عنايته وذكره التشريفي الموجب لبصيرة القلب لمن لم يكن في ذكره تعالى، فيكون عدم الذكر عمى القلب وعدم البصيرة، ومن هنا، يكون المراد من قوله تعالى الوارد في المنافقين الذين نسوه سبحانه وتعالى فنسيهم في المقابل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[4]، هو أنّه تعالى لم يعطهم توفيق البصيرة، فأعمى ذلك قلوبهم.

---

١ . سورة السجدة، الآية ٢٢.

٢ . سورة طه، الآية ١٢٥ .

٣ . سورة طه، الآية ١٢٦ .

٤ . سورة التوبة، الآية ٦٧.



الآيات المتقدمة تدلّ بالمطابقة أو الالتزام على أربعة مطالب، هي:

١ ـ التلازم الوجودي والثبوتي بين الذكرين.

٢ ـ التلازم السلبي بين النسيانين.

٣ ـ الاثر السلبي لنسيان الله سبحانه هو العمى.

٤ ـ الاثر الايجابي لذكره تعالى هو البصيرة.

**نكتتان:** ١ ـ للذكر أثر، إلّا أنّ ما يظهر بالاصالة في الذكر هو أثر المذكور لا الذكر نفسه، فمثلاً: ذكر الله سبحانه وتعالى يكون مقارنا لـ «أثر الافتخار» وذكر العبد يكون مقارنا لـ «أثر الافتقار»، كما أنّ ذكر المعصية يكون مقارنا لـ «أثر الاعتذار»، كما نقله أبو الفتوح الرازي عن يحيى بن معاذ[1].

٢ ـ إضافة على تأثير ذكره تعالى بالنسبة إلى المتقين في دفع المعصية، فإنّه مؤثّر في رفعها أيضاً، والآيات ١٣٣ ـ ١٣٥ من سورة آل عمران التي تتعرّض لجملة من أوصاف المتّقين دالّة على ذلك، حيث جاء فيها: ﴿... **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**...﴾، فهؤلاء يستغفرون لذنوبهم إذا فعلوا الفاحشة أو ظلموا أنفسهم.

## تلازم الاذكار

فعل الامر لا يستوعب جميع الافراد، بل هو مفيد لأصل الطبيعة لا التكرار، إلّا أنّه سبحانه وتعالى من أجل التوصية بذكره، ومن أجل بيان التلازم بين الاذكار، لم يكتف بالتعرّض إلى المسألة على نحو القضية الموجبة الجزئية (في الجملة)، وإنما دعا الناس جميعا إلى ذكره عزّ وجلّ فقال: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾، ولم يقل: «أذكروني أحيانا»، وإنّما قال: «إن كنتم تريدون أن أكون في ذكركم،

---

١ . روض الجنان، ج٢، ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

كونوا أنتم في ذكري»، بمعنى: أنّ الانسان لو كان في ذكره تعالى لحظة من اللحظات، فإنّه تعالى في ذكره لأضعاف ذلك من اللحظات؛ من جهة أنّ القاعدة المستفادة من قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1] عامّة حاكمة على جميع الموارد والمصاديق.

فإذا أراد الانسان أن يكون مذكورا من قبله سبحانه وتعالى على الدوام، فإنّه يجب عليه أن يكون في ذكره تعالى لغالب عمره.

التلازم في مجال النسيان كذلك أيضاً؛ فإنّ صيرورة الانسان منسيا من قبله تعالى إذا كانت أمرا مذموما، فإنّ اللازم ألّا ينسى الانسان ذكره تعالى أبدا، كما ورد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[2]، وكذا في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾[3]. وسيأتي توضيح هذه الآية الشريفة في بحث الاشارات واللطائف إن شاء الله تعالى.

وقد نقل القرطبي عن أبي عثمان النهديّ قوله: «إني لأعلم الساعة التي يذكرنا الله فيها، قيل له: ومن أين تعلمها؟ قال يقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾»[4].

## الله سبحانه وتعالى المشكور من قبل الانسان

إلى جانب ذكر الحقّ سبحانه وتعالى، تعرّضت الآية الكريمة الّتي هي محلّ البحث إلى شكره عزّ وجلّ وعدم كفران نعمته، فقال عزّ من قائل: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾.

---

١ . سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

٢ . سورة الاحزاب، الآية ٤١.

٣ . سورة الاعراف، الآية ٢٠٥.

٤ . الجامع لأحكام القرآن، مج١، ج٢، ص١٧١.





وتقديم ذكره تعالى على شكره، إنّما هو من جهة أنّ المنظور في هذه الآية الشريفة هو ذكر الله سبحانه وتعالى المنعم، ولمّا كان ذكر المنعم مقدّما على الشكر على ما أنعم به، قدّم الذكر على الشكر في الآية الكريمة.

إنّ الشكر مصداق من مصاديق الذكر التي يمكن أن تكون شاملة للدرجات العالية من الذكر، إلّا أنّ هذا ليس هو مراد الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث؛ فإنّ الشكر في هذه الآية قد جعل في مقابل الكفران، فإنّ المستفاد منها هو أن يكون الشكر له تعالى وإن كان ذلك من أجل النعمة التي أنعم بها على العباد.

وقد تعرّضت الكتب المختصّة بالكلمات إلى الفرق بين الحمد والمدح والشكر، ذاكرة جملة من أوجه الفرق في مجال المورد والمصداق، فذهب البعض إلى أنّ الحمد إنّما هو بالنسبة إلى الذات، بينما المدح يرجع إلى الصفة، وأمّا الشكر، فإنّه يقع في حيطة الفعل[١].

فالمؤمن يحمد ذاته سبحانه وتعالى، كما أنّه يمدح صفاته عزّ وجلّ، وهو يشكر فعله (نعمه) تبارك وتعالى أيضاً.

النعمة عمله سبحانه وتعالى، والشكر في مقابل النعمة عادة؛ فإنّه ما لم تصل إليه النعمة فإنّه لا يشكر أحدا، وعلى هذا الاساس، يتّضح أنّ حيطة الشكر أضيق من حيطة كلّ واحدٍ من الحمد والمدح، فإنّ الانسان قد يحمد أو يمدح ذاتا أو صفة سواء أوصل إلى الحامد أو المادح شيء أم لا، ومن هنا، نراه سبحانه وتعالى ينسب الحمد إلى الذات أحيانا كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿الْحَمْدُ لله﴾، كما أنّه ينسبه إلى الصفة والفعل أحيانا أخرى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿... رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

---

١. راجع: تسنيم، ج١.

من الطبيعيّ أنّ الحمد الذي يكون لـ «الله» ـ يعني الذات المستجمعة لجميع الكمالات ـ سيكون أفضل بمراتب من الحمد الذي يكون لـ «ربّ العالمين» وما شابه.

ومن اللازم الالتفات إلى أنّ الاوصاف المذكورة وإن كانت للمحمود ـ يعني «الله» سبحانه وتعالى ـ إلّا أنّها بمنزلة الدليل والحدّ الوسط لإثبات الحمد لـ «الله» عزّ وجلّ.

**تنويه**: يمكن استفادة لزوم دوام ذكره تعالى من الآية الشريفة من الجمع بين الامر بالذكر والشكر من جهة والنهي عن الكفران من جهة أخرى؛ فإنّ الامر بشيء لا يستلزم النهي عن ضده عقلا، وإن لم يحسب ذلك كأثرين شرعيين مستقلين، فالتصريح بالنهي عن الضد في هذا النوع من الموارد مفيد للزوم دوام مفاد الامر، أي: إنّ الذكر والشكر يجب أن يكون على الدوام.

من الطبيعي أنّ الغالب في موارد الجمع بين الامر والنهي هو ذكر الامر قبل النهي، من قبيل ما جاء في قوله تعالى: **﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾**[١].

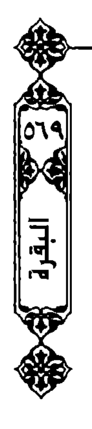
## إشارات ولطائف

### ١ ـ كثرة ذكر الحقّ وقلته

في كلّ حكم من الاحكام الالهية، يكون وقت الحكم، وعدده، ومقداره أمرا مشخّصا ومحدّدا، ولم يأمر سبحانه وتعالى في أيّ حكم من الاحكام بالإكثار، إلّا في مورد الذكر؛ حيث نسمعه تعالى يقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً**

---

١ . سورة البقرة، الآية ٤١.



كَثِيراً﴾[1]، وعليه، فلا حدّ لذكره تعالى، ما يعكس الاهمية الخاصّة البالغة التي يتمتّع بها ذلك الذكر.

إنّ السرّ في وجوب ذكره تعالى مهما أمكن، وفي الكثير من الحالات التي يمرّ بها الانسان، هو أنّ الشيطان إنّما يهجم على الانسان في حال غفلة ذلك الانسان، فإذا لم يتذكّر الانسان باسمه تعالى، فإنّه لا محالة هالك بهجوم الشيطان، واقع في حبائله وشراكه التي ينصبها له.

النكتة الاخرى التي يمكن ذكرها في مجال لزوم دوام ذكره تعالى، هي أنّ هذه السنّة الحسنة إنّما هي بهدف تقوية الروح الملَكِيّة في الانسان الذاكر؛ فإنّ الملائكة في ذكره تعالى على الدوام لا يتعبون ولا يفترون، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾[2].

وفي مجال الكثرة المذكورة، الكيفية والكمية ملحوظتان مرادتان؛ فقد وصف سبحانه وتعالى الذكرِ الخالي من الاخلاص وحضور القلب بأنّه «ذكر قليل» حيث يقول عزّ من قائل: ﴿وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[3]، مع أنّ المنافق ليس في ذكره تعالى أبدا بعد أن كان مسلما باللسان دون القلب، بل هو في كفره الباطني أقوى من الكافر العاديّ وأكثر خبثا منه، ما جعل دركة المنافق أشدّ من دركة الكافر، قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الاسْفَلِ مِنْ النَّارِ﴾[4].

من الممكن أن يكون المنافق في ذكره تعالى على الدوام، كما يمكن أن يكون من قبيل الخوارج من أهل صلاة الليل، إلّا أنّه لمّا كان ذكره اللساني بدون روح،

---

١ . سورة الاحزاب، الآية ٤١.

٢ . سورة الانبياء، الآية ٢٠.

٣ . سورة النساء، الآية ١٤٢.

٤ . سورة النساء، الآية ١٤٥.




كان قليلا، وبناء على هذا، فإنّ وصف ذكر المنافقين بالقليل في قوله تعالى: ﴿وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1]، ليس معناه أنّ هؤلاء قد يكونون في ذكره تعالى أحيانا لا دائما، أو أنّ ذكر هؤلاء المعنويّ قليل، بل ليس لهؤلاء أيّ ذكر معنويّ من الاساس لكي تصل النوبة إلى وصفه بالقلّة أو الكثرة؛ من جهة أنّ هؤلاء قد نسوا الله سبحانه وتعالى من الاساس، كما قال عزّ من قائل في وصفهم: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[2]. فهذه الآية الشريفة قرينة على أنّ ذكر المنافقين الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[3]، إنّما هو ذكر بالحمل الاوّلي لا بالحمل الشائع، وإنّما هو غفلة بهذا الحمل، وهو من قبيل صلاة هؤلاء مجرّد نفاق.

إنّ ذكرا لفظيا مقارنا للغفلة القلبية، إنّما هو قليل من جهة أنّه من سنخ الدنيا ولأجلها ومن متاعها، وما كان من هذا القبيل فهو قليل بلا أدنى شك، قال تعالى: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[4].

من الطبيعي أنّ هؤلاء يحسبون أنفسهم ممّن يذكر الله تعالى، وأنّ ذكرهم إنّما هو ذكر إلهي بدون أيّ فرق بينه وبين غيره من الاذكار كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[5]، إلّا أنّ الواقع غير ذلك قطعا، فإنّ ما يصدر منهم ليس بذكر من الاساس؛ كيف ولا يجتمع ذكره تعالى مع الكفر الواقعي بأيّ حال من الاحوال؟!

إنّ الذكر الكثير هو ما كان من الذكر مع الروح والخلوص، وهو الحافظ للانسان، وما كان من الذكر من هذا القبيل، فإنّ لحظة واحدة من لحظاته تجعل

---

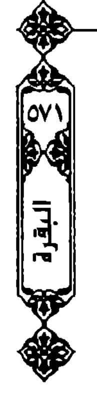
١ . سورة النساء، الآية ١٤٢.

٢ . سورة التوبة، الآية ٦٧.

٣ . سورة النساء، الآية ١٤٢.

٤ . سورة النساء، الآية ٧٧.

٥ . سورة الكهف، الآية ١٠٤.



الانسان مشمولا لنور ذكره تعالى اليوم كله، فتقع جميع أعمال الانسان تحت هـذا النور الساطع على مدار الساعة.

إنّ السرّ في كون الرسول الاكرم ﷺ ـ وهو المعصوم في جميع حالاته من النوم وغيره ـ وأنّ قلبه المعصوم لا ينام وإن نامت عينه: «تنام عيني ولا ينام قلبي»[1] في عالم الرؤيا، وكذا بالنسبة إلى المؤمنين في معركة بدر حيث رأوا جيش المشركين بكلّ ما اشتمل عليه من عدّة وعدد قليلا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الامر وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً...﴾[2] السرّ في ذلك كله، هو أنّ حقيقة الكافرين وباطنهم قليل؛ فإنّ الكافر من أهل الدنيا، ومتاع الدنيا قليل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[3]، ومن هنا، فإنّ من غرّته الدنيا فوقع في حبائلها وإن كان كثيرا من حيث العدد، إلّا أنّه ـ في الحقيقة ـ قليل لا كثير، الحقيقة التي تراها العين الملكوتية، العين التي أفاض بها سبحانه وتعالى على مقاتلي المؤمنين يوم بدر إعجازا له ﷺ، ليروا بتلك العين الحقيقة التي كان عليها الكافرون.

وفي المقابل، فإنّ الكافرين لّما كانوا يرون المؤمنين في تلك المعركة على حقيقتهم وما عليه باطنهم، فإنّهم كانوا يرونهم كثيرا على الرغم من قلّتهم عددا في الواقع: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾[4].

وقد ذكرت وجوه اخرى لبيان كيفيّة رؤية القليل على هيأة الكثير، وبالعكس، وسنتعرّض إلى الموقف النهائي من تلك الوجوه، وهذه الكيفية في تفسير سورة «آل عمران» استعانة بالاحاديث المأثورة إن شاء الله تعالى.

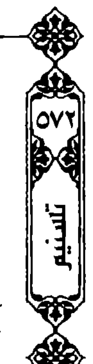
---

١ . بحار الانوار، ج٧٣، ص١٨٩.

٢ . سورة الأنفال، الآيات ٤٣ ـ ٤٤.

٣ . سورة النساء، الآية ٧٧.

٤ . سورة آل عمران، الآية ١٣.


## ٢ ـ دوام ذكر الحقّ في جميع الحالات

إنّ الحكماء والعقلاء في ذكر الحقّ على الدوام، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالارْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الالْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[١].

إنّ أحد مصاديق هذه الآية هو الحالات المختلفة لصلاة المصلّي، وهي ما ذكر في الروايات الفقهية ـ من باب التطبيقِ المصداقي لا التفسير المفهومي ـ أنّ المراد بها هو أنّ المصلّي في حالة عدم تمكّنه من الصلاة من وقوف، مكلّفٌ بالصلاة من جلوس، فإن لم يتمكّن من ذلك أيضاً، فإنّه يصلّيها مضطجعا على جنبه[٢]، إلّا أنّ المراد هو أنّ جميع الحالات ـ الوقوف، الجلوس، الاضطجاع ـ يمكن أن يكون الحكيم العاقل ذاكرا فيها، فيكون في ذكره تعالى في جميع حالاته.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى هذه النكتة بعد الآيات التي تعرّضت إلى صلاة الخوف والصلاة المقصورة، وكيفية الصلاة في حال الحرب أيضاً، حيث يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾[٣]. ولمّا كان قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ﴾ بمعنى: «إذا أردتم»، فإنّ الآية الشريفة ناظرة إلى الصور المختلفة لصلاة الخوف في الظروف المختلفة التي يمرّ بها الانسان في تلك الحالة، كما أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ﴾ الوارد في الآية الشريفة: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٤] هو: «إذا أردت أن تقرأ» لا: «إستعذ بعد إتمام قراءة القرآن».

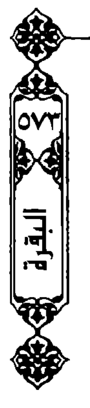
---

١ . سورة آل عمران، الآيات ١٩٠ ـ ١٩١.

٢ . وسائل الشيعة، ج٥، ص٤٨١.

٣ . سورة النساء، الآية ١٠٣.

٤ . سورة النحل، الآية ٩٨.



الاحتمال الآخر الوارد في الآية الشريفة المذكورة ـ بدون التأويل المزبور ـ هو وجوب عدم الغفلة عن ذكره تعالى بعد الفراغ من الصلاة، فيجب ذكره عزّ وجلّ في جميع الحالات والاحوال التي يمرّ بها الانسان في خلال اليوم، وبعد انتهاء الحرب لا صلاة خوف ولا قصر للصلاة: ﴿**فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً**﴾[1].

وكما أنّ الآيات المذكورةَ ناظرة إلى دوام ذكر الحقّ في جميع الحالات، فإنّ الآية الشريفة: ﴿**وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ**﴾[2] ناظرة إلى استمرار ذكره تعالى في جميع اللحظات.

توضيح ذلك:

إنّ «التضرع» و«الخيفة» صفتان من صفات القلب، والامر بذكر من هذا القبيل شاهد على عدم كفاية الذكر اللساني، من الطبيعي أنّ اللسان يجب أن يلهج بذكره تعالى، ولكن، لا بالصوت الواضح جدا، بل بالكيفية التي وردت في قوله عزّ وجلّ: ﴿**دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ**﴾.

إنّ الامر بالذكر بالغدوّ (بداية اليوم) إنّما هو من أجل أن يمضي النهار كله في ذكره تعالى، كما هو الحال في الامر بالذكر في الآصال جمع ـ أصيل ـ وهو (نهاية النهار وبداية الليل)، فإنّما هو من أجل أن يكون الليل كله في ذكره سبحانه وتعالى، ومن أجل ألّا يتوهّم كفاية الذكر عند شروع النهار وشروع الليل فقط، نسمعه تعالى يقول: ﴿**وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ**﴾. ففي هذه الجملة ينهى سبحانه وتعالى عن الغفلة، وخلافا للامر، فإنّ النهي مفيد للتكرار؛ من جهة أنّ انتفاء طبيعة الغفلة لا يتحقّق إلّا بانتفاء جميع أفرادها ومصاديقها.

---

١ . سورة النساء، الآية ١٠٣.

٢ . سورة الاعراف، الآية ٢٠٥.

إنّ قيد ﴿بِالْغُدُوِّ وَالاصَالِ﴾ الوارد في الآية الشريفة، يتعلق بكلتا الجملتين السابقتين المذكورتين قبله على نحو التنازع، ليكون المعنى: «واذكر ربّك في نفسك بالغدوّ والآصال ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال»، يعني: «فليكن ذكر الله في القلب وعلى الشفتينِ بالغدوّ والآصال».

بناء على ما سبق، فإنّ مراده سبحانه وتعالى من مجموع الامر والنهي الواردين في الآية الشريفة، هو لزوم استمرار الذكر ودوامه في جميع لحظات الانسان، تلك اللحظات التي تمرّ عليه في النهار، وتلك اللحظات التي تمرّ عليه في الليل.

يجب أن يكون الانسان دائما في ذكره سبحانه وتعالى، وإن قدّر ونسي ذلك أحيانا، فإنّه يجب ترميم ذلك الصدع بذكره تعالى بعد ذلك النسيان، قال عزّ من قائل: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[1].

قد لا يكون من الممكن التلفّظ بالذكر في بعض الحالات، من قبيل حالة ممارسة بعض الاعمال، إلّا أنّ ذلك العمل ذا الظاهر الدنيوي إذا كان لله سبحانه وتعالى، فإنّه يكون ذكرا له تعالى على اليقين ومصداقا من مصاديق الذكر.

من الطبيعي أنّ أفضل الذكر هو الصلاة له سبحانه وتعالى، وعلى الخصوص صلاة الجمعة، حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾[2]، كما أنّ الاثر الابرز للصلاة هو ذكره تعالى، قال عزّ من قائل: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[3].

١ . سورة الكهف، الآية ٢٤.
٢ . سورة الجمعة، الآية ٩.
٣ . سورة طه، الآية ١٤.



### ٣ـ القرآن مصداق ذكر الله تعالى

يعتبر القرآن الكريم من جملة مصاديق ذكر الله سبحانه وتعالى، فقد أشير إليه بعنوان «الذكر» في آيات شريفة متعدّدة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

القرآن الكريم كلّه ذكر له تعالى، وعلى هذا الاساس، فإنّ تلاوة القرآن الكريم، وتعليمه، وتعلّمه، ومطالعته، وتدريس المعارف القرآنية والبحث فيها، واستنباط الاحكام الفقهية من آيات الاحكام المختلفة، وجميع ما يرجع إليه، هي ذكر لله سبحانه وتعالى.

نعم، من الطبيعي أنّ ذلك الذكر له درجات مختلفة، فإنّ من يمارس التلاوة مثلا، فإنّما هو في ذكر لساني، بينما من يربّي المعارف القرآنية في القلب في ذكر قلبي، وأين هذا من ذاك؟! فإنّ كلّ من يكون في مقام الاستفادة من القرآن، فإنّما يفيض عليه القرآن بالمقابل بما يتناسب مع ذلك المقام والحضور، فيكون بالتبع في ذكره تعالى بما يتناسب مع ذلك، كما أنّه يكون مشمولا بالبصيرة بالدرجة التي يكون عليها في هذا المجال.

وعلى أساس القاعدة العامّة التي ذكرناها هنا، يكون البحث في مجال سيرة الانبياء عليهم السلام ذكرا أيضاً، كما أنّ الرسل أنفسهم ذكر له تعالى، وأسوة ممثّلين له تعالى في هذا المجال، ومن هنا، نجد أنّه سبحانه وتعالى يأمر رسوله الاكرم صلى الله عليه وآله بأن يذكر بعض الانبياء، كحضرة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق و... في آيات شريفة متعددة، من قبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾[2]،

---

١ . سورة الحجر، الآية ٩.

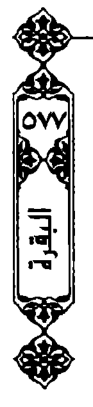
٢ . سورة مريم، الآية ٤١.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾[١]، وقوله عزّ من قائل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾[٣]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾[٤]، وقوله جلّ وعلا: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾[٥]، وقوله عزّ من قائل: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾[٨].

إنّ الامر السابق المذكور في جميع هذه الآيات الشريفة ليس إرجاعا إلى غيره سبحانه وتعالى؛ فإنّ ذكر عباده تعالى الصالحين، والانبياء والمرسلين عليهم السلام، إنّما هو ذكر لكبرى النعم الالهية؛ إذ إنّ عمل النبي إنّما هو إيصال الرسالة الالهيّة إلى البشر، ما يجعله بنفسه نعمة من نعمه سبحانه وتعالى وذكرا له عزّ وجلّ، فمن كان في ذكر النبيّ فإنّه في ذكر نعمه تعالى، خلافا لذكر غير هؤلاء عليهم السلام من الاشخاص الذين لا يعتبر ذكرهم ذكرا لنعمه تعالى ولا له عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿... فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الالْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ﴾[٩].

---

١ . سورة مريم، الآية ٥١ .
٢ . سورة مريم، الاية ٥٤ .
٣ . سورة مريم، الآية ٥٦ .
٤ . سورة ص، الآية ١٧ .
٥ . سورة ص، الآية ٤١ .
٦ . سورة ص، الآية ٤٥ .
٧ . سورة ص، الآية ٤٨ .
٨ . سورة الاحقاف، الآية ٢١ .
٩ . سورة الطلاق، الآيات ١٠ ـ ١١ .





## ٤ـ التذكير بالنعم الالهية

يأمر القرآن الكريم بالذكر أحيانا بعد أن يتعرّض إلى النعمة الالهية التي أنعم بها على الآخرين، فيقول: «أذكروا نعمتي التي أنعمت بها عليكم»، كما هو الحال في ما ورد في الآية الثالثة من سورة فاطر المباركة، حيث نسمعه تبارك وتعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[١]، كما أنّه من أجل أن يصل الانسان إلى النعمة، يلفت ذهن ذلك الانسان إلى أنّه إذا كان يريد الوصول إلى نعمته تعالى، فإنّه لا بدّ له من أن يكون في ذكره تعالى.

كما أنّ القرآن الكريم يذكر الانسان أحيانا بمطلق النعم الالهية التي أنعم بها عليه، كما في قوله تعالى السابق الذكر في سورة فاطر المباركة، إلّا أنّه يذكّر ببعض النعم الالهية على نحو الخصوص أحيانا أخرى، فيصدر الامر الخاصّ بذكر تلك النعم، كما هو الحال بالنسبة إلى الوحدة ورفع أيّ نحو من أنحاء التفرّق والتباغض، حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢].

في كلّ اختلاف أو تباغض يكمن الشيطان في قلب أحد الطرفين أو كليهما، ولهذا، كانت الوحدة والالفة بين القلوب من أعظم النعم الالهية وأبرزها. فإعطاء نعمة الوحدة وإيجاد الاتّحاد هو تصرّف خفي في القلوب لا يمكن أن

١ . المصدر السابق.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٠٣.




يصدر إلّا منه سبحانه وتعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الارْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إنه عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

نرى القرآن الكريم ـ وهو ما كله ذكر، ويدعو الانسان إلى الذكر ـ يذكّر بنعمة دفع خطر من يريد بالاسلام والمسلمين شرّا وكفّ أذاهم عنهم ـ وهي النعمة الالهية التي ما كانت لتتحقّق لولا بركاته سبحانه وتعالى ـ بطريقة خاصّة ملفتة للنظر حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾[2]، ويقول عزّ من قائل: ﴿وَاذْكُرُوا إذ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الارْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3]، ومن الطبيعي أنّ ذكره سبحانه وتعالى كما يثبّت الاقدام في الحرب فيخرج الانسان من تلك الحرب منتصرا، وكما يجعل الانسان مفلحا متّقيا في الدنيا والآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4] فإنّه يوجب دوام الانتصار بعد الحرب أيضاً.

الموارد المشار إليها من جملة النعم الالهية المهمّة التي يدعو الله سبحانه وتعالى الانسان إلى ذكرها وعدم الغفلة عنها في تلك الحالات، وأمّا أثر تذكّر الانسان لتلك النعم، فهو استمرار ودوام تلك النعم؛ فإنّ تذكّر النعمة يوجب الشكر عليها، والشكر موجب لمزيد النعم وزيادتها، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[5].

---

١ . سورة الأنفال، الآية ٦٣.

٢ . سورة المائدة، الآية ١١.

٣ . سورة الأنفال، الآية ٢٦.

٤ . سورة الأنفال، الآية ٤٥.

٥ . سورة إبراهيم، الآية ٧.

## ٥ ـ ثواب ذكره تعالى

ذكر الله تعالى عبادة وحسنة من الحسنات، ومن كان من الناس في ذكره سبحانه وتعالى، فعلى أساس القاعدة المستفادة من قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[١]، وقوله عزّ من قائل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾[٢]، فإنّه سوف يكون له ثواب مضاعف على ما بدر منه من عبادة وحسنة.

وعلى أساس القاعدة القرآنية السابقة، فإنّ كلّ من يعمل عملا صالحا فإنّه يجزى عليه جزاء أوفى لا الجزاء المعادل لما بدر منه، فإنّ قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ لا يعني أنّه سبحانه وتعالى سوف يجزى العبد الذاكر بمقدار ما بدر منه من ذكر لله تبارك وتعالى، إذ:

أوّلا: لو كان هذا هو المعنى المراد، لتغيّر لحن كلامه سبحانه وتعالى، ولقال مثلا: «من جاء بالحسنة فله مثلها»، بينما المتيقّن هو أنّ جزاءه سبحانه وتعالى أكثر بكثير ممّا يصدر من الانسان من عمل، وأقوى مما بدر منه من ذكر له تعالى.

ثانيا: أنّ ذكره تعالى للانسان هو أقوى من ذكر الانسان له تعالى وأكمل دائما، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[٣]، يعني: أنّكم في ذكر الله تعالى بواسطة الصلاة، كما أنّه تعالى في ذكركم أيضاً، إلّا أنّ ذكره تعالى لكم أكبر من ذكركم له، لا أنّ «ذكر الله» أكبر من الصلاة.

من الطبيعي أنّه على أساس قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[٤]، يكون المعنى الاخير أيضاً واحدا من المعاني المحتملة للآية المباركة، كما أنّ من المحتمل

---

١ . سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

٢ . سورة النمل، الآية ٨٩.

٣ . سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

٤ . سورة طه، الآية ١٤.

أن يكون المنظور هو أنّ للصلاة آثارا متعدّدة ذكر بعضها في سورة المعارج المباركة في الآيات ٢٢، ٣٥ منها، إلّا أنّ الاثر الابرز من تلك الآثار هو ذكره سبحانه وتعالى، إلّا أنّه يجب الالتفات في المقام إلى النقطتين الآتيتين وهما:

النقطة الأُولى: المراد من «ذكر الله» في هذه الآية الشريفة ليس هو الذكر العام؛ فإنّ سائر الاذكار ليست أكبر من الصلاة التي هي عمود الدين أبدا[١]، وكون ذكر الله أكبر في هذه الآية الشريفة، إنّما يكون له معنى فيما إذا كان في مقابل الصلاة.

بناء على ما سبق، وكما بين في التفسير الاوّل، ومع الالتفات أيضاً إلى أنّ إضافة «ذكر» إلى «الله» هي من إضافة المصدر إلى الفاعل لا من إضافته إلى المفعول، فإنّ تقدير تلك الجملة سيكون بالنحو التالي: «ذكر الله إيّاكم أكبر من ذكركم إيّاه».

النقطة الثانية: لو كان المراد من «ذكر الله» هو الصلاة، فإنّه:

أ ـ يجب أن يبيّن الشيء الّذي هي أكبر منه.

ب ـ إنّه يستلزم أن يكون التأكيد سابقا، والحال أنّ التأسيس يجب أن يتقدّم على التأكيد.

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذه القاعدة العامّة ـ وهي قاعدة أنّ الثواب يساوي أضعاف العمل لا أنّه يعادله ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٢]، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾[٣] ـ في موارد مختلفة عبر بيان الاجر المضاعف لبعض الاعمال، من قبيل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ

---

١ . وسائل الشيعة، ج٤، ص٢٧.

٢ . سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

٣ . سورة النمل، الآية ٨٩.

**وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾**[١]، فمن ينصر الله ـ يعني دينه ـ فإنّه تعالى لن يقف بدوره عند نصره، بل يتعدّى الامر ذلك إلى تثبيته سبحانه وتعالى الاقدام تعبيرا عن جزاء مضاعف منه تعالى.

## ٦ ـ آثار الذكر

أشرنا في ما سبق إلى البصيرة في الدنيا والآخرة كواحدة من مصاديق وآثار ذكره سبحانه وتعالى من قبل العبد، يقول سبحانه وتعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾**[٢]، فكلّما أراد الشيطان أن يلبس الاحرام طائفا بكعبة القلب، متربّصا لحظة فتح باب تلك الكعبة ليدخلها ويستبيحها، يلتفت المتذكّر المتّقي حينها لذلك، فيعرف أنّ ذلك المحرم سارق من أهل الحرام، ما يغلق الباب أمام أيّة محاولة للشيطان لاستباحة قلب المؤمن.

يحصل المتّقي المتذكّر على بصيرة قلبيّة حاصلة من ذكر الحقّ ثابتة يمكنه الاستفادة منها كلّما مر عليه خاطر من الخواطر، فيعرف أنّه خاطر ربّاني ومَلَكي أم شيطاني ونفساني: **﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾**.

ولأجل إيقاع الانسان في حبائله وشراكه، يأتي الشيطان في أوائل الامر بلسان الايمان وبلباس الدين، لا أنّه يأمره بالمعصية منذ البداية، بل يستفيد أوّلا من **﴿النفس المسوّلة﴾**، وهي تلك التي تري السيئ حسنا والحسن سيئا، وبعد أن تكون تلك النفس تحت إمرته وبين يديه، ينتقل شيئا فشيئا إلى الاستفادة من النفس الامّارة لإصدار أوامره إلى الانسان، حتّى إذا وصل الانسان إلى مرحلة الاعتياد على المعصية، فإنّه يفعل المعصية بسهولة ويسر وهو قاطع بأنّها معصية

---

١ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٧.

٢ . سورة الاعراف، الآية ٢٠١.

وغي، قال تعالى: ﴿وأمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[1].

ولكي يوقع الشيطان السّالك الصالح في شراكه، فإنّه يحرّكه نحو القيام بالاعمال الواجبة فيشغله بذلك عن القيام بالواجبات الاهمّ، ومن يسقط من الناس من الواجب الاهمّ إلى الواجب المهم، فإنّه يشغل نفسه بالمستحبات حتّى يخسر الواجب المهمّ في مرحلة من المراحل، لكي يدخل بعد ذلك مرحلة الابتلاء بالمباحات حتّى يترك حينها المستحبّات، فيدعوه الشيطان حينئذ إلى المشتبهات وكذا المكروهات لكي يوقعه في المحرّمات من حيث لا يشعر.

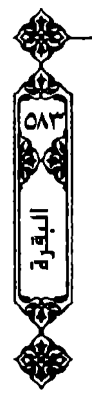
إنّ السرّ في النهي التنزيهيّ عن ارتكاب المكروهات والتحذير من الابتلاء بها، هو أنّ الشخص لو سمح لنفسه بارتكاب المشتبهات والمكروهات، فإنّه يكون بذلك قريبا جدا من هوّة المحرمات والوقوع فيها، ولهذا، نحن نسمع الرسول الاكرم ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لايريبك»[2].

وفي جميع المراحل المزبورة، يشخّص أهل الذكر ببركة ما أعطوا من بصيرة قلبيّة الشيطان وشيطنته، فيدركون أنّ تلك من الخواطر الشيطانية فلا يقعون في حبائلها.

من جملة الآثار الاخرى للذكر، هو أنّه سبحانه وتعالى في ذكر الانسان المتذكّر، فيحفظه عن أن يصدر عنه المعصية، فيخلّصه من خطر الوقوع فيها، كما وقع ليوسف عليه السلام كما في الآية الشريفة: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إنّه مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[3]،

---

١ . سورة الليل، الآيات ٨ ـ ١٠.
٢ . وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٧٣.
٣ . سورة يوسف، الآية ٢٤.





فمشاهدة وحضور الحقّ والشهود القلبي ﴿رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، من جملة أكمل مصاديق ذكر الحقّ. ليكون أثر ذلك الذكر صرف السوء والفحشاء عن المتذكّر، كما جاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾.

من اللازم الالتفات إلى أنّ الصلاة تنهى المصلّي عن المعصية فتمنعه من ارتكابها، إلّا أنّ لطفه سبحانه وتعالى الخاصّ بالشاهد الواصل ـ وهو ذلك الحاصل عن الشهود الالهي ـ هو منع الفحشاء والمعصية من الاقتراب من الانسان السالك الصالح والشاهد، وفرق شاسع بين العملين.

وكما يبعد ذكره تعالى من قبل العبد خطر المعصية والفحشاء عن الانسان، فإنّه ينجيه من أخطار اخرى، فهو السرّ في خلاص حضرة يونس عليه السلام من خطر البقاء في بطن الحوت، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا أَنّه كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

إنّ التسبيح من قبيل التحميد والتكبير والتهليل من مصاديق ذكره تعالى، وقد كان ذكر حضرة يونس عليه السلام تسبيحا خاليا بحسب الظاهر من أيّة مسألة منه تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. فإنّ الظاهر أنّ جملة: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ ليست دعاء لكي تكون مشمولة للآية الشريفة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي﴾[3] ليستجيب سبحانه وتعالى لذلك، إلّا أنّها ـ مع ذلك ـ دعاء بالمعنى العامّ للدعاء، كما أنّها

---

١ . سورة الصافّات، الآيات ١٤٣ ـ ١٤٤.

٢ . سورة الانبياء، الآيات ٨٧ ـ ٨٨.

٣ . سورة البقرة، الآية ١٨٦.

متضمّنة لمسألته تعالى، وهي ذكر للحقّ أيضاً في الوقت نفسه، فهي ليست صرف طلب منه عليه السلام.

الاستجابة للذكر أمر يختلف عن استجابة الدعاء، فهي من باب ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، فإنّ العبد لو كان في ذكره تعالى، فإنّه تعالى سيكون في ذكر ذلك العبد بلا أدنى شك، ولمّا كان ذكره تعالى صفة لفعله، فإنّ الامر يظهر على شكل رحمة في بعض الاحيان، قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[1].

إنّ من تأدّب العبد أن يكون ذاكرا له تعالى، فلو كان الشخص في ذكره تعالى تأدّبا، فنسي ما له من مسألة على أثر المناجاة والانس به تعالى ولذّة ذكره، فإنّه تعالى يقضي حاجة ذلك العبد؛ فإنّه تعالى مطلع على جميع الامور لا ينسى أيّ أمرٍ منها، قال عزّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾[2].

لقد كان حضرة يونس عليه السلام في حاجة ماسّة إلى النجاة، إلّا أنّه لم يصدر منه إلّا التسبيح، فقد كان ينزّهه سبحانه وتعالى عن النقص، معترفا بالمقابل بنقصه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾[3]، ولو اكتفى الموجود المحتاج بذكره تعالى بدون أيّ طلب ومسألة لنفسه، فإنّه تعالى سيجزيه بالاجابة الحسنى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ﴾[4]، هذه الاستجابة لا تختصّ بالانبياء عليهم السلام، كما أنّها لا تقف على من وقع في خطر من نوع خاصّ أيضاً، بل هي عامّة شاملة لجميع المؤمنين الذين يذكرونه تعالى بالذكر اليونسي- المجرب: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[5].

---

١ . سورة مريم، الآية ٢.

٢و٣ . سورة مريم، الآية ٦٤.

٤ . سورة الانبياء، الآية ٨٨.

٥ . المصدر السابق.




## ٧ ـ تأثير ذكر الحقّ على القلب

إنّ المركز الاساسيّ لذكر الحقّ هو قلب الانسان. فالقلب العين التي ترى ذكر الحقّ، كما أنّه الاذن التي تسمع ذكره تعالى، وهو اللسان الّذي يلهج بذكره عزّ وجلّ، وعليه، يجب رؤية ذكره تعالى بعين القلب، وإلّا، كان الانسان مشمولا بقوله تعالى الوارد في أهل النار: ﴿**الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً**﴾[1].

تسارع دقّات القلب واطمئنانه أثران مختلفان من آثار ذكر الحقّ تبارك وتعالى، فإنّ واحدا من أوصاف المؤمن الحقيقيّ هو وجل القلب وتسارع دقاته حين ذكره تعالى، قال عزّ من قائل: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ... * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً**﴾[2].

يمكن أن تكون تلك الدقّات في البداية مضطربة ناشئة من الخوف، إلّا أنّها ستكون بعد ذلك من الشوق إلى المحبوب والمحبّة له، وعليه، فلو جاء ذكره تعالى ولم تحصل تلك الحالة لشخص من الاشخاص، فلم يؤثّر في الانسان لا الخوف من جهنّم ولا الشوق إلى الجنة، فهذا علامة على أنّ هذا الشخص لا يقف حتّى على مطلع الطريق إلى الايمان الحقيقي.

التأثير الآخر لذكره سبحانه وتعالى على القلب ـ وهو ما يمكن أن يأتي بعد المرحلة السابقة ـ هو الاطمئنان، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[3]. فإنّ الآية الشريفة ـ عن طريق كلمة «أَلَا» وتقديم متعلق الفعل، يعني تقديم ﴿**بِذِكْرِ اللهِ**﴾ على ﴿**تَطْمَئِنُّ**﴾، وهو ما يفيد

١ . سورة الكهف، الآية ١٠١.

٢ . سورة الأنفال، الآيات ٢ ـ ٤.

٣ . سورة الرعد، الآية ٢٨.




الحصر ـ تشير إلى مسألة مهمة جدّا في المقام، وهي إلفات الانسان إلى أنّ العامل الوحيد لاطمئنان القلب هو ذكره تعالى ليس إلّا؛ فإنّه تعالى لم يقل: «تطمئنّ القلوب بذكر الله»، وإنما قال عزّ من قائل: لا يأمن القلب ولا يطمئن إلّا بشيء واحد، وهو ذكره تعالى.

إنّ السرّ في المسألة المزبورة، هو أنّه تعالى أقرب إلينا من أنفسنا: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[1]، وأنّ القلوب في يده تعالى دون غيره، فهو عزّ وجلّ المقلّب الوحيد لهذه القلوب والمطمئن لها، وعليه، فإنّ شخصا مّا لو أراد الاطمئنان والهدوء في الحياة على الدوام، فإنّه لا سبيل له إلى ذلك إلّا أن يكون ذاكرا له تعالى بلا انقطاع، ففي مثل هذه الحالة، يكون مشمولا لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[2]، وما جاء عن الامام السجّاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي من قوله: «بذكرك عاش قلبي»[3] ناظر إلى هذه النقطة، يعني عيش القلب في سعادة لا يكون إلّا بالذكر.

### ٨ ـ طلب الدنيا مانع من ذكر الله

المانع الوحيد من ذكر الحقّ هو حبّ الدنيا، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[4]. وطبقا لهذه الآية الشريفة، فإنّ السرّ في

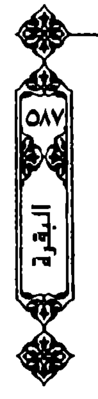
---

١ . سورة الأنفال، الآية ٢٤.

٢ . سورة الحديد، الآية ٢٣.

٣ . مصباح المتهجّد. مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

٤ . سورة النجم، الاية ٢٩. وليس المراد من الاعراض في الآية الشريفة هو ترك دعوة الناس إلى الاسلام؛ فإنّ الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله يبقى مأمورا بدعوة المجتمع إلى الاسلام في هذه الحالة أيضاً، فهو صلى الله عليه وآله مظهر الرحمة الالهيّة، فيكون إعراضه عن الافراد بمعنى عدم اهتمامه ـ وهو مسير الرحمة الالهية ـ الخاص بهؤلاء، فلو أنّه صلى الله عليه وآله ـ وهو الرحمة الالهية للعالمين (سورة الانبياء، الاية ١٠٧) ـ أعرض عن بعض الغافلين، لكان معنى ذلك أنّ رحمته سبحانه وتعالى لن تنال ذلك الشخص المعرض عنه أبدا.




الغفلة عن ذكره سبحانه وتعالى ليس إلّا السعي وراء الدنيا وطلبها، وما يستفاد من هذه المقابلة، هو أنّ هذا السعي المذموم لا يمكن أن يجتمع مع ذكره تعالى بأيّ حال من الاحوال.

ويستفاد من الآية الكريمة المزبورة أيضاً، أنّ الدنيا ليست إلّا غفلة عن الحقّ، فكلّ ما منع الانسان من ذكر الحقّ تعالى، فهو من الدنيا.

والمراد من الدنيا التي نتكلم عنها هنا ليس هو السماء والارض والبحار والصحارى وما شابه ذلك، ممّا أطلق عليه سبحانه وتعالى من باب ذكر الخير والعظمة عنوان الآيات الطبيعية الدالّة عليه عزّ وجلّ، بل المراد هنا، هو ذلك التفاخر والتكاثر في الاموال والاولاد وغير ذلك من الامور الاعتبارية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ**﴾[1].

كما أنّ حقيقة أنّ محبّ الدنيا وطالبها لا يكون ذاكرا له تعالى، يمكن استفادتها من الآيات التي تناولت مسألة مبيت الحاجّ في منى، وقد ورد فيها الاذكار المختلفة لمن أراد المبيت في تلك البقعة الطاهرة؛ إذ على أساس ما جاءت به هذه الآيات المباركة، فإنّ من اجتمع في منى ممّن جاء إلى الحج قسمان:

القسم الاوّل: من لم يرد إلّا الدنيا، ومن كان لسانه: «ربّنا، آتنا الدنيا، سواء أكانت حلالا أم حراما».

وهذا القسم ليس في ذكره سبحانه وتعالى، كما أنّ كلمة «لبّيك» التي تصدر من أفواه أفراد هذا القسم وإن كانت ذكرا له تعالى بالحَمْلِ الاوّلي، إلّا أنها بالحمل الشائع ليست إلّا غفلة عن الحقّ عزّ وجلّ، شأنها في ذلك شأن نيّة الكثير من الافراد حال الصلاة؛ فإنّها نيّة بالحمل الاوّلي وغفلة بالحمل الشائع.

---

١ . سورة الحديد، الاية ٢٠.

القسم الثاني: من كان لسانه من الذاكرين للحق: «ربّنا، آتنا حسنات الدنيا والآخرة، وحلال الدنيا».

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً * فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الاخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾[1].

وقد ذكر أنّ عبادة الهوى مانعةٌ مستقلّة أُخرى من موانع ذكره سبحانه وتعالى، إلّا أنّ الصحيح هو رجوعُها أيضاً إلى حبّ الدنيا وطلبها؛ فقد جاء في القرآن الكريم دعوة الرسول الاكرم ﷺ إلى مرافقة الذاكرين، ونهيه ﷺ عن مرافقة الغافلين وإطاعتهم، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[2].

وقد تقدّمت الاشارة إلى أنّ الاساس المهمّ في هذه المسألة السامية هو ذكر القلب؛ فإنّ القلب لو كان في ذكره تعالى، كانت جميع الاعضاء والجوارح ـ ومن جملتها اللسان ـ في ذكره تعالى، وعلى هذ الاساس، نرى أنّ الآية الشريفة لم تقل: «لا تقبل من لم يكن لسانه في ذكره تعالى»، بل ما جاء فيها هو عدم إطاعة من جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا على أثر الاستمرار في طلب الدنيا: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، وعليه، فكما أنّ ذكره تعالى مانع عن تبعيّة الهوى وعبادته، فإنّ الميل إلى الاهواء النفسية مانع عن ذكره تعالى أيضاً، العلاقة التي تحتّمها نسبة التضادّ بين الهوى والهدى.

---

١. سورة البقرة، الايتان ٢٠٠ ـ ٢٠١. وحسب تعبير الاستاذ العلّامة الطباطبائي قدس سره: إنّ «الشدّة» المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾، هي صفة للذكر القلبي لا اللساني. راجع: (الميزان، ج١، ص٣٣٩ ـ ٣٤٠). كما أنّها جعلت في الآية الشريفة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾ (سورة البقرة، الاية ١٦٥)، صفة للمحبّة التي هي أمر قلبي. وأمّا الذكر اللساني، فإنّه لا يوصف بالشدّة وإن أمكن وصفه بالجهر والرفع.

٢. سورة الكهف، الاية ٢٨.

## ٩ ـ عقوبة الغفلة عن ذكره سبحانه وتعالى

للغفلة عن ذكره سبحانه وتعالى آثار مشؤومة ونتائج مهلكة مرّة نتعرّض لبعضها في ما يلي:

أ ـ ما أشرنا إليه سابقا من عمى القلب وعدم بصيرته، فكما أنّ ذكره تعالى ينبت البصيرة في قلب الذاكر له تعالى، فإنّ الغفلة عن هذا الذكر تؤدّي ـ لا جرم ـ إلى العمى، كما أشارت إلى ذلك الآية الشريفة: ﴿**الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي**﴾[1]. العمى الذي يتجلّى يوم القيامة الذي هو ظرف ظهور الحقائق، قال عزّ من قائل: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[2].

إن لم يجر الشخص ذكره تعالى بقلبه فإنّه لم يجر اسمه جلّ وعلا على لسانه؛ فإنّ من كان قلبه أعمى، فقد سقط في شراك الشيطان فضرب عليه خيمة ضلاله التي أعدّها للغافلين عن ذكره تعالى، فجعل بذلك جميع مجاريه الادراكية والتحريكية تحت سلطانه وشيطنته، فغربت شمس ذكره تعالى عن أرض قلبه، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾[3].

وبناء على ما جاء في هذه الآية الشريفة، فإنّه تعالى قد جعل عقوبة التعامي العمديّ عن ذكره جعل الشيطان على هيأة غطاء غليظ يأخذ بجميع وجود الانسان الغافل، وعليه، فإنّ كلّ من لم ير ذكره تعالى بقلبه، فإنّه واقع لا محالة في شباك الشيطان، محصور مصدود من قبله، فلا ينجو من تصرّفه في مجاريه الادراكية والتحريكية وسلطنته عليها.

---

١ . سورة الكهف، الاية ١٠١.

٢ . سورة طه، الاية ١٢٤.

٣ . سورة الزخرف، الاية ٣٦. «التقييض» بمعنى: «جعل القيض على البيض». والقيض هو الغلاف السميك المحيط بالبيضة.

في حالة ما إذا نسي شخص مّا ذكره تعالى عمدا، فإنّه سيحدق به خطر تقييضه سبحانه وتعالى شيطانا يكون له قرين سوء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾[1]، وبناء على هذا، يبتلي بعض الاشخاص بحجب من طبقات متعدّدة طولية أو عرضية، فتأخذ بعض الشياطين بزمام مجاري الشخص الادراكية، فيما يأخذ بعضها الآخر بزمام مجاريه التحريكية، فلا يمكن لهذا الشخص النجاة من هذه الحالة المرضيّة المتفشية إلّا بإزالة جميع تلك الحجب وجميع تلك الشياطين، وهو عمل صعب مستصعب.

أولئك الذين نسوا ذكره تعالى عمدا فوقعوا في حبائل الشيطان وتحت سلطنته جرّاء ذلك النسيان، تكشف لهم الحجب يوم القيامة، فيطّلعون على ما كانوا قد ابتلوا به من مرض عضال هو تقييض شيطان قرين سوء، يومها يتمنّى ذلك الانسان لو كان بينه وبين ما قيّض له من شيطان بعد المشرقين، ولكن، لات حين مناص، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾[2].

يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في ما يرجع إلى نفوذ الشيطان إلى المجاري الادراكية والتحريكية للانسان الغافل: «فباض وفرّخ في صدورهم، ودبّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم»[3].

ب ـ العقوبة الاخرى للغفلة عن ذكره سبحانه وتعالى عمدا هي الحرمان من رحمته عزّ وجلّ، فإنّه سبحانه وتعالى مع أنّه بصير بكلّ شيء كما جاء في قوله عزّ من قائل: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[4]، ومع أنّ من غير الممكن ألّا ينظر سبحانه

---

١ . سورة فصّلت، الاية ٢٥.
٢ . سورة الزخرف، الاية ٣٨.
٣ . نهج البلاغة، الخطبة ٧.
٤ . سورة الملك، الاية ١٩.

وتعالى إلى موجود من الموجودات، فإنّه عزّ وجلّ لا ينظر يوم القيامة إلى بعض الاشخاص ولا يكلّمهم، قال عزّ وجلّ: ﴿لا يُكَلِّمُهُمْ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

والمراد: أنّ الله تعالى لا ينظر إلى هؤلاء النظر التشريفي المرافق للّطف والرحمة، وهو ما يوجّه ما أمر سبحانه وتعالى به رسوله الكريم ﷺ من الاعراض عمّن جعل همّه الدنيا وطلبها، كما جاء في الآية الشريفة: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[2] على الرغم من أنّه ﷺ «رحمة للعالمين» كما صرح به تعالى في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[3].

ومن أجل إتمام الحجّة، فإنّه ﷺ مأمور بدعوة الجميع ـ بما فيهم هؤلاء ـ إلى دين الحقّ حتّى اللحظة الاخيرة، إلّا أنّ إتمام الحجّة، والدعوة إلى الاسلام، والارشاد والهداية، أمور تختلف عن الاعراض القلبي، فعندما يؤمر ﷺ بالاعراض في الآية الكريمة السابقة، فإنّ المراد هو الاعراض القلبي، وعدم النظر إلى هؤلاء النظر المرافق للّطف الخاصّ والرحمة الخاصّة.

وعندما يعرض الرسول الاكرم ﷺ والائمّة المعصومون عليهم السلام ـ وهم الرحمة العالمية ـ عن الانسان الطالب للدنيا، فإنّ هكذا إنسان غافل لن يكون مشمولا برحمتهم عليهم السلام الخاصّة أبدا، فلا طريق له إلى ذلك اللطف الخاص، الحرمان الذي سبّبه الغافل بسوء اختياره لا بغير ذلك.

ج ـ الاثر الـمُرّ الآخر للغفلة عن ذكره تعالى، هو الضنك الذي سيعاني منه الغافل في حياته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً

---

١ . سورة آل عمران، الاية ٧٧.

٢ . سورة النجم، الاية ٢٩.

٣ . سورة الانبياء، الاية ١٠٧.

وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[١]، ما يفسّر عدم الهدوء والطمأنينة الذي يعاني منه الغافل، هذا إضافة على ما يعاني منه من دوام التفكير والقلق الذي يعيش معه من خوف فقدان ما عنده، أو عدم الوصول إلى ما يريده ويتمنّاه، فيكون جميع همّه الوصول إلى ما ليس عنده، والتخطيط للحفاظ على ما لديه، وهو ما بين هذا وهذا يعيش مع ضنك العيش: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾.

إلّا أنّ ما سبق لا يعني حتميّة صيرورة المعرض عن ذكره تعالى فقيرا من الناحية المادية أبدا، بل المقصود ضنك العيش بصورة عامة، سواء أكان ذلك ناشئا من الفقر والعوز نفسيّاً، أم من المال وما يأتي به من ضغوط وهموم، فالضنك غير الفقر والغنا، ويمكن أن يعيش الانسان مع الضنك في الوقت الذي يكون فيه غنيّا من أصحاب الاموال والارصدة.

من الجدير بالذكر ما قام به سبحانه وتعالى من امتحان الكثير من أنبيائه وأوليائه بالفقر، كما يقوم بذلك أحيانا بالنسبة إلى بعض المؤمنين، وبناء على هذا، لا يمكن اعتبار الفقر علامة على الاهانة والعذاب الالهي[٢].

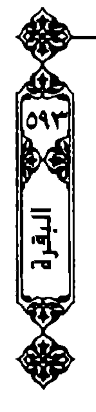
كما أنّ من الواضح أنّ التمكّن الماديّ لا منافاة بينه وبين ذكر الحقّ تبارك وتعالى من الجهة الاخرى؛ إذ يمكن أن يكون شخص مّا متمكّنا على حد تمكّن حضرة سليمان عليه السلام، إلّا أنّه على الرغم من ذلك لا يكون أسيرا لذلك التمكّن، فيكون من أهل الذكر، فالتعلّق بالطبيعة والدنيا هو المذموم لا أصل المال والملك، حتى أنّه قد عبّر عن الزكاة في الروايات بتعبير «أوساخ أيدي الناس»[٣]، فالمراد التعلّق بالمال، وإلّا، فإنّ المال بنفسه لو كان وسخا، فإنّه لم يمكن التقرّب

---

١ . سورة طه، الاية ١٢٤.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ١٦٠، بند ٣١ ـ ٣٣.

٣ . وسائل الشيعة، ج٩، ص٥١٦.



به إلى الله سبحانه وتعالى بإعطائه إلى بيت المال الذي يجعله بدوره في إعمار الكعبة والمسجد الحرام، ونشر القرآن وعلومه، والحديث ومعارفه، والجهاد في سبيل الله تعالى، وغير ذلك من الاعمال المباركة الشريفة.

إنّ الآية الشريفة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾[1] تقع في قبال الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾[2]. فمن كان من أهل ذكره تعالى ومن أهل التقوى، فإنّه من أهل شرح الصدر، فلا يعيش مع الضنك والضغوط المعيشية، ومن هنا، فإنّ من كان همّه التفاخر بالعلم مثلا، فإنّه واقع دائما في الشبهات وضغوطها، وأمّا من كان على تقوى علمية، فإنّ مشاكله العلمية لا بد من أن تنتهي بطريق الحل.

الامر السابق يجري في مجال المال وغيره أيضاً، كما جاء في قوله تعالى بالنسبة إلى رزق المتّقين، أعمّ من أن يكون ذلك الرزق ماديا أو غير مادي: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[3].

### ١٠ ـ الشكر مظهر من مظاهر الحكمة

تعرّض القرآن الكريم في آياته الشريفة الى حكمة لقمان الّذي آتاه الله سبحانه وتعالى، ولو تأمّلنا تلك الآيات الكريمة، لوجدناها تجمع بين تلك النعمة وبين شكره سبحانه وتعالى، قال عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ للهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[4].

---

١ . سورة طه، الآية ١٢٤.

٢ . سورة الطلاق، الآية ٢.

٣ . سورة الطلاق، الآية ٣.

٤ . سورة لقمان، الآية ١٢.

وفي حالة كون جملة: ﴿أَنْ اشْكُرْ لله﴾ تفسيرا للحكمة، فإنّ المعنى المقصود حينئذ هو أنّ الشكر لله سبحانه وتعالى يعتبر واحدا من المظاهر الابرزين للحكمة، وأنّ من يصل إلى هذا المقام الرفيع، فهو من الحكماء في الجملة لا بالجملة.

وفي مجال الشكر، هناك حاجة ماسّة إلى المعرفة العلمية، كما أنّ هناك حاجة إلى الجانب العملي أيضاً؛ فإنّ الشكر لا يقف عند حدّ الذكر اللساني وقول: «شكراً لله» أو: «الحمد لله» وما شابه ذلك، بل الشكر الحقيقي هو صرف النعمة في المورد الذي أمر الله سبحانه وتعالى بصرفها فيه، ما يعني لزوم معرفته سبحانه وتعالى أوّلا، ومعرفة ما أمر به من الحلال والحرام أيضاً، وإلّا، لم يتمكّن المنعم عليه من شكر النعمة حقّ الشكر، وهذا الصرف للنعمة في الموضع المناسب جزء من الحكمة أيضاً.

يعود ثواب الشكر إلى الانسان الشاكر نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾؛ كيف لا وهو سبحانه وتعالى الغنيّ المحض: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾؟!

الله سبحانه وتعالى محمود ذاتاً؛ فإنّه تعالى كذلك سواء أحمده أحدهم أم لم يحمده؛ فهو تعالى وليّ جميع النعم، فكلّ حمد فهو له تعالى، فشكر الانسان للاسان في الحقيقة هو معرفة لحقّه سبحانه وتعالى وإن لم يتوجّه الانسان الشاكر إلى ذلك في بعض الاحيان.

وقد جاء شكر الوالدين في القرآن الحكيم بعد شكره تعالى، حيث نحن نسمعه تعالى يقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[١]. وبعد الحكمة السابقة، أشارت

---

١. سورة لقمان، الآية ١٤.



الآية المباركة إلى أنّ معرفة حقّ الوالدين اللّذَين يعتبران المجريين لنعمته سبحانه وتعالى وفيضه ليس من الشرك في شيء، فامتثال أمره سبحانه وتعالى بشكر الوالدين، يرجع في الحقيقة إلى شكره عزّ وجلّ.

## ١١ ـ ثواب الشكر

الشُكر من جملة الاوصاف التي جمع الله سبحانه وتعالى بين جعلها من قبله للشاكرين، وبين عدم التصريح بنوع ذلك الشكر الذي يجازي به وميزانه، علامة على كثرته وعدم إحصائه، قال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[١].

توضيح ذلك: لا يستوي ثوابه سبحانه وتعالى بالنسبة إلى الاعمال المختلفة، فقد يتعرّض إلى ذلك بعنوان الجزاء بالاحسن في بعض الاحيان، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾[٢]، كما يتعرّض له أحيانا اخرى بعنوان الضّعف عشر مرّات كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٣]، كما أنّه تعالى يشير إلى ثوابه بعض الاحيان بأنّه يتضاعف إلى سبع مئة ضعف، كما في قوله عزّ من قائل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، كما يمكن أن يكون أكثر من ذلك في بعض الحالات، كما أشار إلى ذلك قوله عزّ من قائل: ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٤]، كما أنّ الثواب يكون أحيانا بحيث

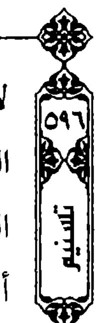
---

١ . سورة آل عمران، الآيات ١٤٤ ـ ١٤٥.

٢ . سورة النمل، الآية ٨٩.

٣ . سورة الانعام، الاية ١٦٠.

٤ . سورة البقرة، الاية ٢٦١.




لا يمكن إحصاؤه لكثرته، كما جاء في قوله تعالى في جزاء الصابرين: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]. فعنوان: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الوارد في الآية الكريمة، لا يعني أنّه تعالى سيجزي هؤلاء بدون حساب حقيقة، وإنّما المراد هو أنّ حساب جزاء هؤلاء هو بيده سبحانه وتعالى، وهو السريع الحساب؛ فإنّه لا يصدر منه سبحانه وتعالى شيء بغير حساب وبلا قدر، كما جاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[2].

في حالة كون ثواب عمل صالح ما أهمّ وأحسن من ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[3] وما شابه ذلك، فإنّه تعالى لا يصرّح بمقداره، كما هو الحال في جزاء من صار الشكر ملكة من ملكاته[4]، وهو المذكور في الآيتين الشريفتين: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ * ... وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[5].

إضافة على الثواب السابق الذكر، هناك خصوصيّة اخرى لجزاء الشكر، وهي زيادته سبحانه وتعالى للنعم التي يؤدّي العبد شكرها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم﴾[6]. والآية الشريفة ناظرة إلى القاعدة العامّة التي أشارت إليها الآية الشريفة الاخرى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾[7].

ولما كانت رحمته سبحانه وتعالى سابقة غضبه[8]، فإنّه تعالى يصرّح بوعده في بيان ثواب الشكر، فيقول عزّ من قائل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم﴾، بينما نراه

---

١ . سورة الزمر، الاية ١٠.
٢ . سورة القمر، الاية ٤٩.
٣ . سورة البقرة، الاية ٢٥.
٤ . «شاكر»، صفة مشبهة لا اسم فاعل.
٥ . سورة آل عمران، الآيات ١٤٤ ـ ١٤٥.
٦ . سورة إبراهيم، الاية ٧.
٧ . سورة النمل، الاية ٨٩.
٨ . الكافي، ج١، ص٤٤٢.

تعالى لا يصرّح بالوعيد على كفران النعم بل يكتفي بالتلويح به، فيقول: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1]، فمع أنّ سياق الكلام كان يقتضي التصريح بالعذاب، فكان يمكنه تعالى أن يقول: «لئن كفرتم لأعذّبنّكم»، إلّا أنّه تعالى لم يفعل ذلك، بل اكتفى بالاشارة إلى وجود العذاب، وأمّا أنّه تعالى يعذّب أم لا، فإنّه مسألة أخرى. فهو تحذير ضمني تلويحي بالنسبة إلى العذاب وليس بالمطابقة والتصريح.

من الطبيعي أنّ الوعيد لو كان بالمطابقة لا بالتلويح فإنّه لن يتعدّى الاعلام بالخطر، فإنّ خلفه ليس محالا ولا مخالفا للحكمة؛ من جهة أنّ خلف الوعيد من قبله تعالى العَفُوّ والرحيم لا يضرّ بعدله أبدا، خلافا للوعد الذي يعتبر إعلانا عن عهد بينه سبحانه وتعالى وبين عبيده، ولهذا، كان التخلف عنه قبيحا عقلا ونقلا، هذا ما يوجّه تصريح القرآن الكريم بالوعد وعدم تصريحه بالوعيد عادة.

## البحث الروائي

### ١ ـ ذكره سبحانه وتعالى على كلّ حال

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أذكروا الله في كلّ مكان، فإنّه معكم**»[2].

ـ قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**قال النبيّ** صلى الله عليه وآله: **إنّ الملك ينزل الصحيفة من أوّل النهار وأوّل الليل يكتب فيها عمل ابن آدم، فأَمْلُوا في أوّلها خيراً وفي آخرها خيراً؛ فإنّ الله يغفر لكم ما بين ذلك إن شاء الله، فإنّ الله يقول: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾**»[3].

---

١ . سورة إبراهيم، الاية ٧.

٢ . كتاب الخصال، ص٦١٣.

٣ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤٣١.

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما من مجلس يجتمع فيه أبرارٌ وفجّار، فيقومون على غير ذكر الله عزّ وجلّ، إلّا كان حسرةً عليهم يوم القيامة»[١].

ـ عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما اجتمع في مجلس قومٌ لم يذكروا الله عزّ وجلّ، ولم يذكرونا، إلّا كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة». ثمّ قال: [قال] أبو جعفر عليه السلام: «إنّ ذكرنا من ذكر الله، وذكر عدوّنا من ذكر الشيطان»[٢].

ـ قال أبو جعفر عليه السلام: «من أراد أن يكتال بالمكيال الاوفى، فليقل إذا أراد أن يقوم من مجلسه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٣]»[٤].

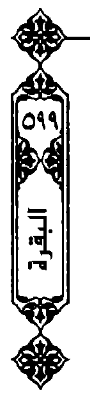
ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «لا بأس بذكر الله وأنت تبول، فإنّ ذكر الله عزّ وجلّ حسنٌ على كلّ حال، فلا تسأم من ذكر الله»[٥].

ـ عن جارود أبي المنذر قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: سيّد الاعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسك حتّى لاترضى بشيء إلّا رضيت لهم مثله، ومؤاساتك الاخ في المال، وذكر الله على كلّ حال، ليس سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر فقط، ولكن إذا ورد عليك شيء أمر الله عزّ وجلّ به، أخذت به، أو إذا ورد عليك شيء نهى الله عزّ وجلّ عنه، تركته»[٦].

إشارات: أ ـ لمّا لم يكن زمان ولا مكان خاليَيْنِ عن حضوره سبحانه وتعالى، فإنّه يجب ألّا يقف لسان عن ذكره تعالى؛ فإنّ حاجة البشر دائمة، والعامل

---

١ و٢ . الكافي، ج٢، ص٤٩٦.
٣ . سورة الصافّات، الآيات ١٨٠ ـ ١٨٢.
٤ . الكافي، ج٢، ص٤٩٦.
٥ . المصدر السابق، ص٤٩٧.
٦ . الكافي، ج٢، ص١٤٤.



الافضل في رفع تلك الحاجة هو ذكره تعالى الغني الدائم في رفع حاجة المحتاجين، وعليه، فلو لم يستفد من هذه الفرصة في زمان أو مكان أو بلسان مّا، فإنّ ذلك لن يخلّف إلّا الحسرة والندامة.

ب ـ كما جاءت الوصية بالذكر في الاسلام، فقد تعرّض الاسلام لكيفية ذلك الذكر من خلال ما أثر في هذا المجال أيضاً، الامر الذي يجب على السالك إلى الله الالتزام به وعدم الغفلة عنه إلى أذكار اخترعها هذا أو ذاك من البشر، كما هي وصية عظماء أهل المعرفة[1].

ج ـ الذكر المأثور باللسان أو القلم عمل صالح، إلّا أنّه لن يكون سيّد الاعمال الصالحة أبدا، بل السيد هو الذكر القلبي الذي بيده الاشراف التدبيري الكامل على جميع الاعضاء، والذي لا قوة له على القبض والبسط، والاخذ والاعطاء، والبطش والنشط إلّا برضاه سبحانه وتعالى، حاله في ذلك حال شقيقيه الآخرين: الانصاف والمواساة بالمال.

د ـ ما ورد بالنسبة إلى ذكر اهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام من قولهم: «إنّ ذكرنا من ذكر الله»، أمر يتطابق مع ما ورد من كلام نوراني للرسول الاكرم والائمة المعصومين عليهم السلام يصف ولايتهم عليهم السلام بحصنه تعالى، وأنها من شروط التوحيد[2].

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنّ سيرتهم وسنّتهم عليهم السلام إلاهيّتان لا حيثية لهما غير الحيثية الدينية، فذكرهم ـ على هذا ـ ذكر له سبحانه وتعالى.

## ٢ ـ ذكره سبحانه وتعالى في الاحاديث القدسية والكتب السماوية

قال أبو جعفر عليه السلام: **«مكتوب في التوراة التي لم تغيّر أنّ موسى عليه السلام سأل**

---

١ . رحمة من الرحمان، ج١، ص٢٢٤ ـ ٢٢٥.

٢ . عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص١٤٣ ـ ١٤٦.




ربّه فقال: يا ربّ، أقريب أنت منّي فأناجيك، أم بعيدٌ فأناديك؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا موسى، أنا جليس من ذكرني. فقال موسى: فمن في سترك يوم لاستر إلّا سترك؟ فقال: الذين يذكرونني فأذكرهم، ويتحابّون فيَّ فأحبّهم، فأُولئك الذين إذا أردت أن أصيب أهل الارض بسوء ذكرتهم فدفعت عنهم بهم»[١].

ـ عن أبي عبد الله عليه‌السلام: «أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه‌السلام: يا موسى، لا تفرح بكثرة المال، ولاتدع ذكري على كلّ حال، فإنّ كثرة المال تنسي الذنوب، وإنّ ترك ذكري يقسي القلوب»[٢].

ـ عن أبي جعفر عليه‌السلام: «مكتوب في التوراة التي لم تغيّر أنّ موسى سأل ربّه فقال: إلهي، إنّه يأتي عليَّ مجالس أُعزُّك وأُجِلُّك أن أذكرك فيها. فقال: يا موسى! إنّ ذكري حسنٌ على كلّ حال»[٣].

ـ عن أبي عبد الله عليه‌السلام: «قال الله عزّ وجلّ لموسى: أكثر ذكري بالليل والنهار، وكن عند ذكري خاشعاً، وعند بلائي صابراً، واطمئنَّ عند ذكري، واعبدني، ولاتشرك بي شيئاً، إليّ المصير. يا موسى، اجعلني ذخرك، وضَعْ عندي كَنزَك من الباقيات الصالحات»[٤].

ـ عن أبي عبد الله عليه‌السلام: «قال الله عزّ وجلّ لموسى: إجعل لسانك من وراء قلبك تسلم، وأكثِر ذكري بالليل والنهار، ولاتتّبع الخطيئة في معدنها فتندم، فإنّ الخطيئة موعد أهل النار»[٥].

ـ في ما ناجى الله به موسى عليه‌السلام قال: «يا موسى، لاتنسني على كلّ حال، فإنّ نسياني يميت القلب»[٦].

---

١ . الكافي، ج٢، ص٤٩٦ ـ ٤٩٧.

٢ . المصدر السابق، ص٤٩٧.

٥و٦ . الكافي، ج٢، ص٤٩٨.



ـ عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال الله عزّ وجلّ: يابن آدم! أذكرني في ملأ، أذكرك في ملأ خير من مَلَئِكَ»[١].

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال الله عزّ وجلّ: من ذكرني في ملأ من الناس ذكرته في ملأ من الملائكة»[٢].

إشارة: تعتبر فضيلة ذكره سبحانه وتعالى من جملة الخطوط الاصيلة في الاسلام، وممّا تقول به جميع الكتب السماوية على الرغم من اختلاف الخصوصيّات المأثورة في المناهج والشرائع المختلفة، ولمّا كان كلّ موجود في نظام التكوين مُسَبِّحاً لله تعالى وحامداً له، فإنّه يجب ألّا يمنع النقص النسبي لبعضها من ذكره تعالى على تلك الحال؛ إذ لا فرق بين تلك الحالات بلحاظ التحليل العقلي، فجميع الاشياء المختلفة والاعمال المتنوّعة على نحو واحد من هذه الجهة.

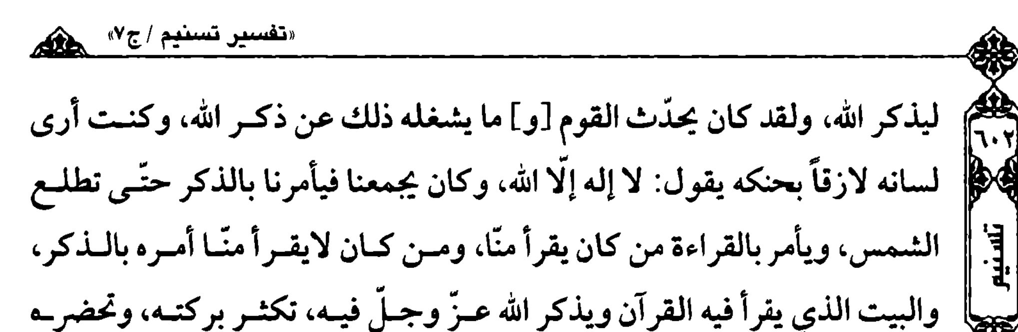
### ٣ ـ حدّ ذكره تعالى وآثاره

عن ابن القدّاح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من شيء إلّا وله حدٌّ ينتهي إليه، إلّا الذكر، فليس له حدٌّ ينتهي إليه. فرض الله عزّ وجلّ الفرائض، فمن أدّاهنّ فهو حدُّهنَّ، وشهر رمضان، فمن صامه فهو حدّه، والحجّ، فمن حجَّ فهو حدّه، إلّا الذكر، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حدّاً ينتهي إليه. ثمّ تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[٣]، فقال: لم يجعل الله عزّ وجلّ له حدّاً ينتهي إليه. قال: وكان أبي عليه السلام كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنّه ليذكر الله، وآكل معه الطعام وإنّه

---

١ و٢ . الكافي، ج٢، ص٤٩٨.

٣ . سورة الاحزاب، الآيات ٤١ ـ ٤٢.



ليذكر الله، ولقد كان يحدّث القوم [و] ما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول: لا إله إلّا الله، وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتّى تطلع الشمس، ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منّا، ومن كان لايقرأ منّا أمره بالذكر، والبيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله عزّ وجلّ فيه، تكثر بركته، وتحضره الملائكة، وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السَّماءِ كما يضيء الكوكب الدّريّ لأهل الارض. والبيت الَّذي لايقرأ فيه القرآن ولايذكر الله فيه، تقلّ بركته، وتهجره الملائكة، وتحضره الشياطين، وقد قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير أعمالكم لكم، أرفعها في درجاتكم، وأزكاها عند مليككم، وخيرٌ لكم من الدينار والدرهم، وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدوّكم فتقتلوهم ويقتلوكم؟ فقالوا: بلى، فقال: ذكر الله عزّ وجلّ كثيراً».

ثمّ قال: «جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: من خير أهل المسجد؟ فقال: أكثرهم لله ذكراً. وقال رسول الله ﷺ: من أعطي لساناً ذاكراً فقد أعطي خير الدنيا والآخرة. وقال في قوله تعالي: ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾[1] قال: لا تستكثر ما عملت من خير لله»[2].

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام: «شيعتنا الذين إذا خلوا ذكروا الله كثيراً»[3].

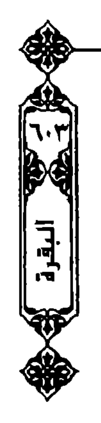
ـ عن أبي عبد الله عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: «من أكثر ذكر الله عزّ وجلّ أحبّه الله، ومن ذكر الله كثيراً كتبت له براءتان: براءةٌ من النار وبراءة من النفاق»[4].

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام: «من أكثر ذكر الله عزّ وجلّ أظلّه الله في جنّته»[5].

١ . سورة المدثّر، الاية ٦.

٢و٣ . الكافي، ج٢، ص٤٩٨ ـ ٤٩٩.

٤و٥ . الكافي، ج٢، ص٤٩٩ ـ ٥٠٠.





ـ عن أبي عبد الله عليه السلام: «تسبيح فاطمة الزهراء من الذكر الكثير الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[١]»[٢].

ـ عن محمّد بن مسلم، قال في حديث يقول في آخره: «تسبيح فاطمة من ذكر الله الكثير الّذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾»[٣].

وسنشير إلى بعض آخر من آثار وثمرات الذكر في ذيل العنوان السابع، وضمن نقل كلام أمير المؤمنين عليه السلام في ما يرجع إلى الذكر إن شاء الله تعالى.

**إشارتان: أ ـ** لكثرة ذكره تعالى صبغة دفع وجنبة رفع، كما أنّه وسيلة من وسائل الجذب؛ فإنّ إبليس وجميع ما أوتي من عدّة وعدد بصدد الوسوسة والنفوذ إلى حريم القلب، وبواسطة الذكر الدائم يمكن رجمه والتصدّي إلى نفوذه ومنعه، وإذا استطاع من النفوذ على أثر رخاوة الشخص، فإنّه يمكن بالذكر رفع الآثار السلبية لذلك النفوذ ومن البعيد كون جذب ذكره تعالى بالنسبة إلى العبد مرهونا بذلك الذكر، فإنّه يجب بناء على هذا أن يكون العبد دائما في ذكره تعالى، لكي يستطيع أن يتمتّع ببركات الذكر.

ب ـ يعتبر تسبيح حضرة فاطمة الزهراء عليها السلام الحاوي على ذكر اسمه سبحانه وتعالى مائة مرّة مصداقا من مصاديق الذكر الكثير لا مجرّد مصداق من مصاديق الذكر، وعليه، فإنّ امتثال العبد لذلك الذكر في موارده المنقولة، من قبيل التعقيب به بعد الصلاة أو قبل النوم، يعني أنّ ذلك العبد قد وفّق إلى مصداق آخر من من مصاديق الذكر الكثير.

---

١ . سورة الاحزاب، الاية ٤١.

٢ . الكافي، ج٢، ص٥٠٠.

٣ . معاني الاخبار، ص١٩٤.





## ٤ـ التعلّم مع اسمه تعالى

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أكثروا ذكر الله على الطعام...»[1].

إشارة: الطعام أعمّ من غذاء البدن وغذاء الروح، وبناء على ما جاء في ذيل الآية الشريفة: ﴿فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إلى طَعَامِهِ﴾[2]، فإنّ واحدا من مصاديق الآية الشريفة هو العلم الذي يتلقّاه الانسان، فيجب أن ينظر حين التعلّم إلى المعلم الذي يتلقّى منه العلم، وأنّه أيّ نوع من المعلّمين[3].

وكما أنّ ذكره تعالى سواء أكان بصورة التسمية، أم كان بصورة التكبير، أم التحميد، أم التسبيح أم التهليل من أجل حليّة الذبيحة أو المنحورة لكي لا يخلو الذبح أو النحر من اسمه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾[4]، يعني: على الرغم من أنّ المذبوح والمنحور قابلانِ للتذكية ومما يحل لحمهُ للآكلين، إلّا أنّه يجب ذكر اسمه تعالى حين الذبح أو النحر لكي لا يكون ميتة يحرم أكلها، فكذلك الحال مع العلم؛ فلأجل حليّة ما يتعلّمه الانسان، فإنّه مع أنّ ذلك العلم ممّا ينتفع به، ومع الاخذ بنظر الاعتبار عدم الحرمة الذاتية للشعبدة والسحر وعمل الطلاسم، فإنّ التعلم يجب أن يكون مترافقا مع اسمه تعالى لكي يصطبغ بالصبغة الالهية، وإلّا، فإنّ تعلّم العلم الخالي عن اسمه تعالى، والخالي من قصد التقرّب والرضا الالهي، لا يكون من مصاديق العلم النافع، فلا يقف الامر حينئذ على عدم الانتفاع من هذا العلم، بل سيتعدّى الامر مِن ذلك إلى وجوب الاستعاذة من ذلك العلم، كما جاء في الحديث الشريف: «أعوذ بك من علمٍ لاينفع»[5].

---

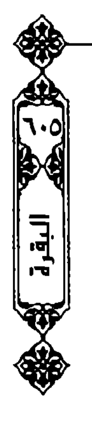
١ . مستدرك وسائل الشيعة، ج١٦، ص٢٧٣.

٢ . سورة عبس، الاية ٢٤.

٣ . الكافي، ج١، ص٣٩. البرهان، ج٨، ص٢١٤.

٤ . سورة الانعام، الاية ١٢١.

٥ . بحار الانوار، ج٨٣، ص١٨.




### ٥ ـ عدم إصابة الصاعقة للذاكر

عن أبي عبد الله عليه السلام: «**يموت المؤمن بكلّ ميتة إلّا الصاعقة، لاتأخذه وهو يذكر الله عزّ وجلّ**»[1].

ـ عن بريد بن معاوية العجلي، قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إنّ الصواعق لا تصيب ذاكراً**». قال: قلت: وما الذاكر؟ قال: «**من قرأ مائة آية**»[2].

ـ عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ميتة المؤمن. قال: «**يموت المؤمن بكلّ ميتة، يموت غرقاً، ويموت بالهدم، ويبتلي بالسبع، ويموت بالصاعقة، ولا تصيب ذاكراً لله عزّ وجلّ**»[3].

**إشارة:** في حالة اصطباغ حادثة مرّة بصبغة عذابية، فإنّها لا تصيب المؤمن الذاكر؛ فإنّ تعذيبه سبحانه وتعالى إنّما يكون في حالة ابتعاد العبد عن نظر رحمته عزّ وجلّ، وواضح أنّ الذاكر لا يدخل في تلك الحالة قطعا، ما يعني أنّه تعالى في ذكر ذلك العبد وتحت نظره، ومن هنا، فإنّ الصاعقة لا تصيب ذلك العبد الذاكر.

### ٦ ـ لذّة ذكر الحقّ تبارك وتعالى.

عن أبي عبد الله عليه السلام: «**إنّ الله عزّ وجلّ يقول: من شغل بذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي من سألني**»[4].

ـ عن أبي عبد الله عليه السلام: «**إنّ العبد ليكون له الحاجة إلى الله عزّ وجلّ، فيبدأ بالثناء على الله والصلاة علي محمّد وآل محمّد حتّى ينسى حاجته، فيقضيها الله له**

---

١ و٢ . الكافي، ج٢، ص٥٠٠.

٣ . المصدر السابق، ص٥٠٠ ـ ٥٠١.

٤ . المصدر السابق، ص٥٠١.

من غير أن يسأله إيّاها»[١].

إشارتان: أ ـ أدب الدعاء والمسألة يقتضي أن يبدأ الداعي بذكره سبحانه وتعالى وحمده والثناء عليه، ليبدأ بعد الصلاة على أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام بعرض حاجته، فبدون هذه الصلاة لا يقبل دعاؤه ولا تقضى حاجته، وفي حالة تحقّق شيء بدون الصلاة على أهل البيت عليهم السلام، فإنّ ذلك لا يعدو الامتحان لذلك الشخص لا الرحمة واستجابة الدعاء، كما ورد ذلك في قول الامام الصادق عليه السلام حيث يقول: «لا يزال الدعاء محجوباً حتّى يصلّي على محمد وآل محمد»[٢].

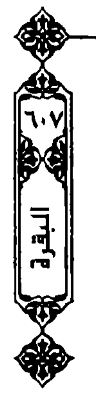
ومن هنا، نسمع أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجة، فابدأ بمسألة الصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله ثمّ سل حاجتك، فإنّ الله أكرم من أن يُسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويمنع الأُخرى»[٣]. وهي سيرة الامام السجاد عليه السلام في ما أثر عنه من ادعية الصحيفة السجادية.

السرّ في ما سبق كما ورد عن الاستاذ العلّامة الطباطبائي قدس سره في مجلس درسه، هو أنّ الانسان بواسطة الصلاة على أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، إنّما يطلب الرحمة لأهل هذا البيت الطاهر، وهو دعاء مستجاب بلا شك، ومتى وصلت الرحمة إلى أهل هذا البيت، فإنّها ستصل ـ لا جرم ـ إلى جميع شيعتهم عليهم السلام بمن فيهم شخص الداعي، وبواسطة هذه الرحمة الالهية، وببركة تلك الذوات المقدّسة، تقضى حاجته، ويستجاب دعاؤه.

ب ـ عندما تظهر لذّة ذكر الحقّ تبارك وتعالى في الانسان، فإنّه ينسى حينئذ حاجته التي افتتح الدعاء لأجلها، فيحلّ اسمه تعالى وذكره محل تلك الحاجة في

---

١. الكافي، ج٢، ص٥٠١.
٢. الكافي، ج٢، ص٤٩١.
٣. نهج البلاغة، الحكمة ٣٦١.




تأثير الدعاء لأثره؛ فإنّه تعالى عالم بحاجة الانسان مطّلع عليها محيط بها، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾[1]، كما أنّه تعالى «لايشغله شأن عن شأن»[2]، ومن هنا، لو حصل الذكرُ وإنْ نسي الانسان حاجته على أثر ذكره تعالى ولذته، فإنّه عزّ وجلّ يقضي حاجته، ويستجيب دعاءه، ويجبر ما كان، وهذا عين ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، وهو الطريق الافضل والاصحّ لقضاء الحاجات.

والحاصل:

أن يكون تكرار الطلب والمسألة علامة على عدم ظهور لذّة ذكر الحقّ تبارك وتعالى في الانسان، إنّما هو من أجل أنّ الاشخاص العاديين عادة مّا يكونون منشغلين عند طلب الحاجة برفعها وبالطريق إلى ذلك، فيغفلون عن الكثير من الامور والاعمال، وأمّا لذّة ذكر الحقّ تعالى بالنسبة إلى الانسان المشتاق إليه عزّ وجلّ، فإنّها تنسيه ما كان من حاجة أيضاً.

وعلى أساس ما جاء في الروايات الشريفة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، فإنّ «العبد الصالح» يجب أن يكون من النحو الثاني من الداعين، فكما تزيل حلاوة نداء الحقّ تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في بداية الآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[3] كلّ تعب يلاقيه الانسان في يومه[4]، فإنّ حلاوة ذكره سبحانه وتعالى تنسي العبد الصالح حاجته.

---

١ . سورة مريم، الاية ٦٤.

٢ . بحار الانوار، ج٨٨، ص١٩٥.

٣ . سورة البقرة، الاية ١٨٣.

٤ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤٩٠. روى عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «لذّة ما فى النداء أزال تعب العبادة والعناء».

### ٧ـ ذكر الله تبارك وتعالى في السرّ

عن أبي عبد الله عليه السلام: «**قال الله عزّ وجلّ: من ذكرني سرّاً ذكرته علانية**»[١].

ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**من ذكر الله عزّ وجلّ في السرّ فقد ذكر الله كثيراً. إنّ المنافقين كانوا يذكرون الله علانية ولايذكرونه في السرّ ـ فقال الله عزّ وجلّ: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[٢]**»[٣].

ـ عن ابن فضّال، رفعه قال: قال الله عزّ وجلّ لعيسى عليه السلام: «يا عيسى، إذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، واذكرني في ملأ[ك] أذكرك في ملأ خير من ملأ الآدميّين. يا عيسى، ألِن لي قلبك، وأكثِر ذكري في الخلوات، واعلم أنّ سروري أن تبصبص إلي، وكن في ذلك حيّاً ولاتكن ميّتاً»[٤].

ـ عن زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال: «**لايكتب الملك إلّا ما سمع، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً﴾[٥]، فلا يعلم ثواب ذلك الذكر في نفس الرجل غير الله عزّ وجلّ لعظمته**»[٦].

**إشارة**: المراد من «السرّ» في المقام ليس هو خصوص الخلوة والانفراد وإن كان ذلك المصداق البارز للسرّ، بل المراد كون الانسان ذاكرا له سبحانه وتعالى في قلبه، سواء أكان ذلك في ملأ عام أم لا، فهذا سرّ أيضاً.

واستناد أمير المؤمنين عليه السلام إلى الآية الشريفة: **﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾** يؤيّد ما ذكرناه قبل قليل أيضاً؛ إذ ليس للمنافقين ذكر قلبي من

---

١ . الكافي، ج٢، ص٥٠١.
٢ . **سورة النساء**، الاية ١٤٢.
٣ . الكافي، ج٢، ص٥٠١.
٤ . المصدر السابق، ص٥٠٢.
٥ . **سورة الاعراف**، الاية ١٠٥.
٦ . الكافي، ج٢، ص٥٠٢.



الاساس، وأمّا ذكرهم اللساني، فهو المقرون بالغفلة القلبية، ما وجّه وصف ذكرهم بالقلّة على الرغم مما يظهر من أنّه قد كان لبعضهم ذكر كثير، فقد كان أولئك لا يذكرونه سبحانه وتعالى إلّا في حضور الآخرين، ما جعل ذلك الذكر يصطبغ بالصبغة الدنيوية ويفقد صبغته الالهية الاخروية، وأمّا في حالة خلوتهم وعدم حضور الغير معهم، فإنّهم ليسوا في ذكره تعالى، كما أنّهم ليسوا في ذكره عزّ وجلّ قلبا.

## ٨ ـ «ذكر الله» في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام

ولنذكر بعضا من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في ما يرجع إلى ذكره تعالى، وذلك طبقا لما جاء في كتاب غرر الحكم الشريف[١]، وبحسب الترتيب المذكور في هذا الكتاب:

**«الذكر نورٌ ورشد»، «الذكر لذّة المحبّين»، «الذكر يشرح الصدر»، «الذكر جلاء البصائر ونور السرائر»، «الذكر هداية العقول وتبصرة النفوس»، «العاقل من عقل لسانه إلّا عن ذكر الله»، «المؤمن دائم الذكر، كثير الفكر، على النعماء شاكر، وفي البلاء صابر»، «الذكر يؤنس اللُبَّ، وينير القلب، ويستنزل الرحمة»، «الذكر نور العقل وحياة النفوس وجلاء الصدور»، «أفيضوا في ذكر الله فإنّه أحسن الذكر»، «إستديموا الذكر، فإنّه ينير القلب، وهو أفضل العبادة»، «أفضل العبادة سَهَر العيون بذكر الله سبحانه»، «إذا رأيت الله سبحانه يؤنسك بذكره، فقد أحبّك»، «ثمرة الذكر استنارة القلوب»، «دوام الذكر ينير القلب والفكر»، «ذكر الله نور الايمان»، «ذكر الله مِطردة الشيطان»، «ذكر الله جلاء الصدور وطمأنينة القلوب»، «ذاكر الله سبحانه مُجالسه»، «ذاكر الله مُؤانسه»، «ذكر الله**

---

١ . ج٧، ص١٢٣ ـ ١٢٥.

**قوت النفوس ومجالسة المحبوب»، «ذكر الله ينير البصائر ويُونِسُ الضمائر»، «ذكر الله رأس مال كلّ مؤمن، وربحه السلامةُ من الشيطان»، «ذكر الله سجيّة كلّ محسن»، «ذكر الله مسرّة كلّ متّقٍ، ولذّة كلّ موقن»، «ذكر الله دِعامة الايمان، وعصمةٌ من الشيطان»، «عليك بذكر الله فإنّه نور القلب»، «في الذكر حياة القلب»، «قد ذهب منكم الذاكرون والمتذكرون وبقي الناسون والمتناسون»[1]، «من ذَكَر الله ذَكَره»، «من ذكر الله استبصر»، «من اشتغل بذكر الناس قطعه الله سبحانه عن ذكره»، «من اشتغل بذكر الله طيّب الله ذكره»، «من عَمَّر قلبه بدوام الذكر، حسنت أفعاله في السرّ والجهر»، «من ذكر الله سبحانه، أحيى الله قلبه، ونوّر عقله ولبّه»، «من كثر ذكره استنار لبّه»، «مداومة الذكر قوت الارواح ومفتاح الصلاح»، «لا تذكر الله سبحانه ساهياً، ولا تنسه لاهياً»[2].**

إشارة: آثار خير الذكر لا تقبل العدّ؛ فإنّ الاسماء الحسنى المذكورة غير محدودة، كما أنّ بركاتها لن تكون محصورة، ومن هنا، لا تعتبر الاحاديث المزبورة مفيدة لحصر آثار ذكره سبحانه وتعالى، إلّا أنّه يمكن على نحو الاجمال ذكر بعض العناصر المحورية لتلك الاثار، وهي: المجرّدة والمادية، والعقلية، والمثالية والطبيعية، والدنيوية والاخروية، والحصولية والحضورية، والفردية والاجتماعية.

---

١ . وجاء في نهج البلاغة مع بعض الاختلاف: «قد ذهب الُمتذكّرون، وبقى الناسون أو المتناسون» (الخطبة ١٧٦، الفقرة ٢٩).

٢ . ما لم يكن الذكر في القلب فإنّه لن يكون ذكرا، بل هو محض غفلة، فالانسان حينئذ ذاكر لسانا غافل قلبا، وهذا هو المقصود بالسهو في حال الذكر الذي ينهى عنه أمير المؤمنين عليه السلام.
وكما مرّت الاشارة إليه في بحث الاشارات واللطائف، فإنّ السرّ في وصف ذكر المنافقين بالقلّة في قوله تعالى: ﴿لا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾، (سورة النساء، الاية ١٤٢) هو هذا أيضاً، وهو كونهم يذكرونه تعالى في حالة الغفلة، وما كان من هذا النوع من الذكر، فإنّه لا جرم ذكر قليل.





### ٩ ـ الصلاة الدائمة

قال أبو جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام: «**لايزال المؤمن في صلاةٍ ما كـان في ذكر الله عزّ وجلّ، قائماً كـان أو جالسـاً أو مضـطجعاً؛ إنّ الله عـزّ وجـلّ يقـول: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِم﴾[١] الآية**»[٢].

**إشارة**: بيان الحكم الفقهي للصلاة في الحالات المختلفة من مسؤوليات فـنّ الفقه الشريف، وأمّا من زاوية فنّ التفسير والاخلاق، فإنّ الصلاة ذكره سبحانه وتعالى، كما جاء بالنسبة إلى صلاة الجمعة من قوله عزّ وجلّ: ﴿فَاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ﴾[٣]، وعليه، فإنّ الانسان لو كان دائم الذكر، فإنّه يمكن القول بأنّه على صلاة دائمة.

### ١٠ ـ ذكر الله تعالى للانسان الذاكر

في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾[٤] يقول: «**ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذكرهم إيّاه. ألا ترى أنّه يقول: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾**»[٥].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «**والله ذاكر لمن ذكره من المؤمنين، واعلموا أنّ الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلّا ذكره بخير، فأعطوا الله من أنفسكم الاجتهاد في طاعته**»[٦].

---

١ . سورة آل عمران، الاية ١٩١.
٢ . وسائل الشيعة، ج، ص١٥٠.
٣ . سورة الجمعة، الاية ٩.
٤ . سورة العنكبوت، الاية ٤٥.
٥ . تفسير القمي، ج٢، ص١٥٠.
٦ . الكافي، ج٨، ص٧.

**إشارة:** كون ذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد لربّه أمر واضح؛ فإنّ ذكره تعالى محض خالص لا يشوبه نسيان وسهو ومنّة أبدا، ولمّا كان عبارة عن افاضة عينيّة، فسوف يكون مرافقا للبركات الوجودية، ما يوجّه عدم إمكان قياسه على ذكر العبد.

### ١١ ـ شكر النعمة

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**شكر كلّ نعمة الورع عمّا حرّم الله عزّ وجلّ**»[١].

ـ قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**العبد بين ثلاثة: بلاء وقضاء ونعمة؛ فعليه في البلاء من الله الصبر فريضة، وعليه في القضاء من الله التسليم فريضة، وعليه في النعمة من الله عزّ وجلّ الشكر فريضة**»[٢].

ـ قال علي بن الحسين عليه السلام: «**من قال: «الحمد لله» فقد أدّى شكر كلّ نعمة لله عزّ وجلَّ عليه**»[٣].

**إشارة:** جعل الشكر في الحديث المزبور في مقابل الصبر، إلّا أنّ الوارد في بعض الادعية هو طلب صبر الشاكرين[٤].

إنّ العقل البرهاني يقف على كون الشكر فريضة؛ فإنّ شكر المنعم لازم بنظر العقل، الامر الذي يؤيّده الدليل النقلي أبضاً.

الحمد والثناء يعتبر من الشكر أيضاً، إلّا أنّ أفضل الشكر هو الورع عن محارم الله سبحانه وتعالى.

---

١ . كتاب الخصال، ص١٤.

٢ . المصدر السابق، ص٨٦.

٣ . المصدر السابق، ص٢٩٩.

٤ . مصباح المتهجّد. مفاتيح الجنان، دعاء شهر رجب.

### ١٢ ـ حدّ الشكر

عن سماعة بن مهران، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: للشكر حدّ إذا فعله الرجل كان شاكراً؟ قال: «**نعم**». قلت: ما هو؟ قال: «**الحمد لله على كلّ نعمة أنعمها عليَّ، وإن كان لكم فيما أنعم عليه حقّ أدّاه**». قال: «**ومنه قول الله: الحمد لله الّذي سخّر لنا هذا**[1] **حتّى عدّ الآيات**»[2].

إشارة: لّما كان الشكر في مقابل النعمة، وكانت نعمه تعالى لا تقبل العدّ والاحصاء: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللهِ**﴾[3]، ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا**﴾[4]، فإنّ معنى ذلك أنّ العبد لن يمكنه أَن يشكره سبحانه وتعالى حَقّ شكره، إلّا أنّ ذلك لا يعني عدم إمكان تأدية الشكر نسبيا، وهذا ما تكفّلت بتوضيح بعض طرقه الاحاديث الشريفة المتقدّمة.

### ١٣ ـ كفران النعمة

قال أبو عبد الله عليه السلام: «**الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه... الوجه الثالث من الكفر: كفر النعم، وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾**[5] **وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾**[6] **وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾**»[7].

---

١ . وفي الاية ١٣ من سورة الزخرف المباركة: ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هَذَا﴾.
٢ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٧.
٣ . سورة النحل، الاية ٥٣.
٤ . سورة النحل، الاية ١٨.
٥ . سورة النمل، الاية ٤٠.
٦ . سورة إبراهيم، الاية ٧.
٧ . الكافي، ج٢، ص٣٨٩ ـ ٣٩٠.

إشارة: الكفر لغة الستر، وأمّا تعدّد معانيه، فإنما هو بلحاظ تنوّعِ المستور، فأحيانا يكون المستور أصل ذاته سبحانه وتعالى، كما أنّه أحيانا اخرى وحدته تعالى، كما يكون أحيانا أيضاً نعمته التي أنعم بها على العبد، كما أنّ إنكار النعمة قد يكون بلحاظ الاعتقاد والعمل كليهما أحيانا، كما قد يكون بلحاظ العمل فقط أحيانا أخرى.

ومن الجدير بالانتباه، أنّ النعم لمّا كانت مختلفة لا على نحو واحد، فإنّ مصاديق الشكر ستختلف تبعا لذلك، فمن باب المثال: يمكن اعتبار نعمتي النبوّة والامامة من أفضل النعم، ما يعني أنّ شكر النعمتين يلزم أن يكون من نوع خاص.

* * *

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ 

## التفسير المختار

النصر والعون بيده تعالى لا بيد غيره، ولا معين ولا مستعان إلّا هو جلّ وعلا، إلّا أنّ إرسال المعين من قبله تعالى أمر مشروط لا مطلق. والشرط المتمّم لقابليّة القابل لتنزُّل النصر هو امتثال الاوامر الالهيّة لا سيّما الصبر والصلاة، وعليه، فإنّ من يرغب بالنصر الالهي، فلا بدّ من أن يكون صابرا مقيما للصلاة.

الصبر من جملة العوامل المؤثّرة في مقاومة العدوّ ودفعه ورفعه، كما أنّه كذلك في مرحلة غلبة الاسلام وهزيمة الكفر، ولمّا كانت الصلاة عمود الدين الذي لا ينفصل عنه شيء من الامور الدينية، لم يجز تركها بحال من الاحوال، كما أنّ الصبر لن يوصل الانسان إلى خير بدون الصلاة.

فالنتيجة: في الجهاد والدفاع، لا بدّ من الصبر إلى جانب الصلاة التي لا ينحصر دورها في كونها عمود الدين، بل يتعدّى ذلك إلى كونها عمود استقرار المجتمع واستقلاله وحريّته وحياته العزيزة، فهذان الامران (الصبر والصلاة) هما الوسيلتان لعون الباري ومساعدته، ومن الطبيعي ما أعطي للصبر في الآية الشريفة الّتي هي محل الكلام من أهمية اكبر من أهمية الصلاة؛ فإنّ ذلك من مقتضى لحاظ خصوصية المورد، أعني تأثير الصبر وما له من دخالة مباشرة في تحمّل المشاكل والصعاب وتجاوزها بنجاح.

الصبر والصلاة متمّمان لقابليّة القابل من أجل تنزّل فيضه سبحانه وتعالى، وليسا المعينين والمستعينين الفاعلين، الامر الذي يوجّه ذكر الصبر والصلاة مستعانا بهما في قوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾، لا مطلوبا منهما الاستعانة.

يعين الصبر والصلاة أحدهما الآخر في قتال العدو الداخلي والخارجي، وكما أنّ درجة من درجات الصبر تعين الصلاة في مجال الصبر على الطاعة، فإنّ الدرجة القوّى من الصبر إنّما تتحقق عن طريق الصلاة، فتجعل الانسان الجزوع صبورا.

لله سبحانه وتعالى معيّة بالنسبة إلى جميع الموجودات، إلّا أنّ تلك المعيّة تكون من نوع خاصّ كلّه لطف ورحمة بالنسبة إلى الانسان الصابر، ومن الطبيعي أنّ مفيض أصل هذا الكمال الوجودي هو الله سبحانه وتعالى أيضاً.

## تفسير المفردات

تقدّم مضمون هذه الآية الشريفة في الآية ٤٥ من هذه السورة المباركة، ونشير هنا إلى بعض الخصوصيات:

**الصبر**: «الصبر» في مقابل «الجزع» بمعنى حفظ النفس والثبات، قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾[1].

والصبر ـ وهو من الملكات النفسانية ـ قد يكون بالنسبة إلى القيام بالعبادة وامتثال الاوامر الالهية، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾[2]، كما أنّه قد يكون بالنسبة إلى ترك المعصية والامتناع عن اقتراف المحرّمات، قال عزّ من

١ . سورة إبراهيم، الاية ٢١.
٢ . سورة مريم، الاية ٦٥.

قائل: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾[١]، كما أنّه قد يكون بالنسبة إلى ما يواجه الانسان من المصائب، قال عزّ من قائل: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾[٢].

**الصّلوة:** «الصلاة» على فرض كون أصلها مِن «صَلِي»، يعني بناء على كون لام الفعل ياءاً، فإنّها بمعنى التقريب من النار وتعريض الشيء إليها، فقولهم: «صَلَيتُ اللّحمَ» معناه: شويته[٣]. وبمناسبة هذا المعنى استفيد في القرآن الكريم من هذا الاصل لإفادة الورود إلى نار جهنّم، كما في قوله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾[٤]، وقوله عزّ من قائل: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[٥].

وأمّا إذا كان أصل «صلاة» مِنْ «صلو»، بحيث كانت لام الفعل واوا، ففي حالة الاستفادة من حرف «على» معها، فستكون بمعنى كلّ صورة من صور الثناء الجميل والمدح، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾[٦] وأمّا إذا جاءت الكلمة بدون الحرف «على»، فستكون بمعنى العبادة الخاصّة، وهي المشتقّة من اللغة الارامية والسريانية[٧].

وقد كانت كلمة «صلاة» قبل الاسلام بمعنى العبادة أيضاً، وأمّا «صلوات»، فهي بمعنى الكنائس التي يقوم اليهود فيها بالعبادة، قال تعالى: ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾[٨].

---

١ . سورة الكهف، الاية ٦٩.

٢ . سورة لقمان، الاية ١٧.

٣ . المصباح، ص٣٤٦، «ص ل ي».

٤ . سورة المجادلة، الاية ٨.

٥ . سورة المدثّر، الاية ٢٦.

٦ . سورة الاحزاب، الاية ٥٦.

٧ . التحقيق، ج٦، ص٣١٦، «ص ل ي».

٨ . سورة الحجّ، الاية ٤٠.

## تناسب الآيات

تشكّل الآية الّتي هي محلّ البحث مع الآيات الاربع اللاحقة لها مجموعة ذات سياق واحد، والظاهر أنّ هذه المجموعة نزلت مع بعضها، وبقرينة السياق، يظهر أنّ زمان نزول هذه المجموعة قريب من الامر بالحرب وتشريع حكم الجهاد[1]. ولهذه المجموعة هدف واحد.

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ آيات هذا الفصل تمثّل مجموعة من الجمل المعترضة وقعت بين آيات القبلة وبين الآية الشريفة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾[2].[3]

وقد ذكرت وجوه متعدّدة في مجال بيان ارتباط خصوص الآية الّتي هي محلّ البحث بالآية أو الآيات السابقة عليها، نتعرّض في ما يلي إلى بعض تلك الوجوه:

١ ـ لمّا كان سبحانه وتعالى قد أمر بجميع الطاعات بقوله عزّ من قائل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾، ونهى عن جميع المعاصي بقوله تعالى: ﴿لا تَكْفُرُونِ﴾، أمر سبحانه وتعالى بالاستعانة بالصبر والصلاة على أداء ذلك الامر والنهي[4]

من الطبيعي أنّ الشكر وعدم الكفر المأمور بهما يقعان على رأس قائمة العبادات جميعها، وممّا يحتاج المؤمن إلى معونته سبحانه وتعالى أشدّ الاحتياج، ومن هنا، نرى الامر بالصبر والصلاة في الآية الّتي هي محلّ البحث وهما ما

---

١ . الميزان، ج١، ص٣٤٧.
٢ . سورة البقرة، الاية ١٧٧.
٣ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٥١.
٤ . تفسير غرائب القرآن، ج١ ـ ٢، ص٤٣٨ ـ ٤٣٩.

يرافق عونه تعالى مع الاخذ بنظر الاعتبار الآية الشريفة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١].[٢]

٢ ـ الآيات السابقة على الآية الّتي هي محلّ البحث، كما أنّها تقتضي ـ تثبيت أهل الايمان؛ فإنّها تدلّ على قرب المواجهة بين الكافرين والظلمة من جهة وبين المسلمين من جهة اخرى، ولأجل أن يكون المسلمون مستعدّين لهذه المواجهة بصورة لائقة مناسبة، أمر سبحانه وتعالى بالاستعانة بالصبر والصلاة[٣]؛ فإنّ الثبات في مواجهة أعداء الله تعالى يحتاج إلى تلك الاستعانة[٤].

٣ ـ إنّ حُسن موقع هذه الآية يتمثّل في مجيئها بعد الكلام المسموم والمؤذي الذي كان يصدر من أهل الكتاب، ذلك الذي يدّعي بطلان الاسلام بسبب تغيير أحكامه وما شابه ذلك.

٤ ـ النعم المذكورة في الآيات السابقة على الآية الّتي هي محلّ الكلام، والتي يجب ذكرها وشكره تعالى عليها، يرافقها ابتلاءات ومصائب متعدّدة متنوّعة، ومن كبريات تلك المصائب هو ما يصل إلى المسلمين جرّاء عناد أهل الباطل لأهل الحقّ ولجاجتهم، كما أنّ من صغريات تلك المصائب ما يصيب المال والاهل والاحبّة، وهي ما لا يأمن منه أيّ أحد من الناس، ومن هنا، بعد أمره سبحانه وتعالى بالشكر على تلك النعم العظام، نراه يأمر بالصبر في مقابل البلاء والمصيبة، واعدا على ذلك الثواب[٥].

---

١ . سورة الفاتحة، الاية ٥.

٢ . نظم الدرر، ج١، ص٢٧٧.

٣ . الاساس في التفسير، ج١، ص٣٢٩.

٤ . الاساس في التفسير، ج١، ص٣٢٨.

٥ . تفسير المنار، ج٢، ص٣٤.

وأمّا المناسبة بين هذه الآية والآية التي تتكلّم عن تعليم الحكمة، فإنّها يمكن أن تكون ما يلي:

أوّلا: أنّه تعالى مسؤول عن تعليم الكتاب والحكمة، وكذا هو مسؤول عن الارشاد إلى كيفية الحصول على طهارة الروح.

ثانيا: كما أنّ الاعانة في مجال الاقتصاد تكون بالمال، وفي مجال القوة بالسلاح، و...، فالمساعدة في مجال الامور القلبية والعقلية تكون بالصبر (الصيام) والصلاة، ويعتبر بيان هذه الاعانة حكمة في حدّ نفسها.

❋ ❋ ❋

## سرّ ذكر «الصبر» إلى جانب «الصلاة»

يطرح القرآن الحكيم بين الآونة والاخرى حلولا في مجال العقد التي يواجهها المسلمون على صعيد الجهاد الاصغر والاوسط والاكبر، يكون العنصر المحوريّ فيها هو الامداد الغيبي، ومن هنا، نراه يكشف عن مَدَد الصبر وعَون الصلاة في الآية ٤٥ من هذه السورة الكريمة وفي الآية الّتي هي محلّ البحث، ليتضح بذلك إشراف الملكوت على الملك، وسيطرة الغيب على الشهادة.

والذي نلاحظه، هو أنّ القرآن الكريم حين طرحه للأمور المهمة جدا، فإنّه يعتمد مقدمة لذلك، خلافا للأمور العادية الاخرى التي لا يحتاج طرحها والتطرق إليها إلى أيّة مقدمة.

وتعتبر مواجهة العدو الداخلي والخارجي ومحاربتهما، والنصر في تلك المواجهة أو الشهادة، من جملة تلك الامور المهمّة التي يحتاج طرحها إلى مقدّمة مناسبة ومستوى الاهميّة التي تتمتّع بها المسألة، من هنا، نرى أنّ القرآن الكريم يقدّم قبل طرحه في المقام مقدّمة تتكلّم عن عظمة الصبر، لما لهذا العنصر المهمّ

من تأثير فاعل في إدارة الحرب والمواجهة والانتصار فيهما، الكلام الـذي يمكـن ذكره بالنسبة إلى الصلاة وما تمثّله من تقرّب وعروج إلى الملكوت.

**تنويهان:** ١ ـ التأثير الايجابي للصبر والصلاة كما يشمل مرحلـة دفـع العـدو فإنّه يشمل مرحلة رفعه ومرحلة الانتصـار عليـه بهزيمـة الكفـر، وإن كـان مـن الممكن أن يكون ذلك التأثير للصبر أبرز في مرحلة المقاومة، ويكون تأثير الصلاة أبرز في مرحلة الغزو.

٢ ـ في سبيل التذكير بمسألة لزوم تجلّي صورة الـدين في جميـع المظـاهر، مـا يؤدّي بالتالي إلى عدم انفصال أيّ أمر ديني عن الصلاة، وكذا لأجـل أنّ الصـلاة لا يمكن تركها بأيّ حال من الاحوال، وأن الصبر لا يوصل الصابر إلى أيّ شيء في حالة انفصاله عن الصلاة، نرى القرآن الكريم يذكر الصبر إلى جانب الصلاة، فيذكر أنّ هذين الامـرين همـا الوسـيلة إلى الوصـول إلى عونـه ومـدده سـبحانه وتعالى، ما يعني أنّ الجهاد والـدفاع كـما يحتاجـان إلى الصـبر فـإنّهما يحتاجـان إلى الصلاة في الوقت نفسه، ولكي يصل الانسان إلى مبتغاه في هذا المجال، فإنّه يلزم أن يكون مصلّيا صابرا.

إنّ نتيجة الحرب بالنسبة إلى المؤمنين إمّا أن تكـون النصر ـ أو الشـهادة التـي تعتبر حسنة وظفرا بنفسها أيضاً، ما يوجّه ما جاء بعد دلك من كلام عن الشهادة وأنّها ليست زوالا وانعداما بل هي تحقيق للهدف.

### النداء المثير للافتخار

إنّ نداء ﴿**يا أيها الذين ءامنوا**﴾ أشرف من نداء ﴿**يا أيها النّاس**﴾ وما شابهه، وهو ممّا يعكس القرب الخاصّ للمخاطب بهذا النداء، في هذا التعبير إثارة للفخر في المخاطب من جهتين، فإنّه كما يثير ذلك من جهة كونه خطابـا مبـاشرا للآخـر

بلا واسطة، فإنّه يثير ذلك عن طريق اشتمال جوهره على الاشارة إلى إيمان المخاطب بذلك الخطاب، ما يجعله مختلفا عن نداءات مختلفة اخرى من قبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[1]، وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وما شابههما.

**توضيح ذلك:** أنّ الخطاب الالهي خطاب يثير الفخر عند المخاطب كونه طرفا للخطاب، إلّا أنّ كيفية ذلك الخطاب لها التأثير المباشر والمهم في بعث ذلك الفخر في النفس؛ فإنّه تعالى على أساس أنّه ﴿في علوّه دان وفي دنوّه عال﴾[2] له ميزة خاصة، ففي بعض الاحيان يكون النداء على صورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾[3] كما أنّه يكون أحيانا ثانيةً على صورة: ﴿يَا أهل الْكِتَاب﴾[4]، ويكون ثالثةً على صورة أرفع ممّا سبق فيكون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[5]، ليكون على صورة أرفع من تلك الصورة فيكون: ﴿يَا أُوْلِي الألْبَابِ﴾[6]، كما أنّه يرتفع بعض الاحيان ليصل إلى مرتبة: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾﴾[7]، وأمّا الصورة العليا للنداء، فهي عندما يكون من قبيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ...﴾[8] و: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ...﴾[9].

ومهما يكن، فإنّ النداء الالهي يبقى نداءاً حيّا؛ فإنّ القرآن الكريم حيّ دائما كالقمر في حياته وجريانه كما جاء في الحديث الشريف: «يجري كما يجري الشمس

---

١ . سورة الجاثية، الاية ١٤.
٢ . بحار الانوار، ج٩٥، ص٣٧٩.
٣ . سوره الحج، الاية ٥.
٤ . سورة النساء، الاية ١٧١.
٥ . سورة آل عمران، الاية ١٠٢.
٦ . سورة البقرة، الاية ١٧٩.
٧ . سورة المؤمنون، الاية ٥١.
٨ . سورة الانفال، الاية ٦٤.
٩ . سورة المائدة، ايهآ ٦٧.

والقمر»[١]، من هنا، يجب مراعاة الادب في التلاوة، فيقول القارئ حين تلاوته لهذا النداء: «لبّيك»[٢]، كما ويمكن قول: «لبيك» بعد الانتهاء من تلاوة الآية؛ إذ إنّ النداء في الحقيقة إنّما يأتي بعد المسألة التي جاءت بعده، ليشكّل هو وتلك المسألة جملة واحدة، وأمّا «لبّيك»، فهي إجابة لذلك النداء وإعلان للاستعداد لامتثال ما جاء بعده.

## شرط تنزّل النصر الالهي

يأمر سبحانه وتعالى المؤمنين بالاستعانة بالصبر والصلاة، فيقول عزّ من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾، على الرغم من أنّ النصر والعون لا يكونان إلّا عنده، يقول عزّ وجلّ: ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾[٣]، كما أنّ المعين والمستعان ليسا إلّا هو جلّ وعلا كما جاء في الآية الشريفة: ﴿**وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ**﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[٥].

هذان الحصران ـ حصر مخزن النصر وحصر الاعطاء والفيض ـ يثبتان أن لا نصر ولا عون إلّا منه سبحانه وتعالى، ومع ذلك، نسمعه تعالى يقول: ﴿**اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾، فما هو السرّ في ذلك؟

السرّ في المسألة السابقة، هو أنّه على الرغم من أنّ النصر لا يكون إلّا منه سبحانه وتعالى، إلّا أن إرسال النصر من قبله تعالى أمر مشروط لا مطلق، كما

---

١ . بحار الانوار، ج٨٩، ص٩٧.
٢ . المصدر السابق، ج٩٤، ص٩٥.
٣ . سورة آل عمران، الاية ١٢٦.
٤ . سورة يوسف، الاية ١٨.
٥ . سورة الفاتحة، الاية ٥.

يقول عزّ من قائل: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ﴾[١]، من هنا، فإنّه تعالى يخذل كلّ من نسي ذكره وابتغى النصر عند غيره، يقول عزّ من قائل: ﴿فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[٢].

وفي الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، يشير سبحانه وتعالى إلى شرط تنزّل النصر الالهي، ما يعني أنّ امتثال الاوامر الالهية هو سبب قابلي لتنزّل النصر لا فاعلي، وليس لغير الصلاة والصبر من أثر في هذا المجال، وهو ما سيأتي توضيحه إن شاء الله تعالى.

هذا هو الطريق الذي يجعله سبحانه وتعالى بيد المؤمنين على أساس نظام الخلقة، وهو نظام الحركة والعمل، وعليه، فمن كان يريد الاستفادة من رحمة النصر الالهي، فلا بدّ من أن يكون صابرا مقيما للصلاة ناصرا لدينه سبحانه وتعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾، ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٣].

والمراد من أن يكون الانسان ناصرا له سبحانه وتعالى، هو كونه ممّن ينصر دينه وقرآنه؛ فإنّه لا حاجة له سبحانه وتعالى إلى أيّ شيء، قال عزّ من قائل: ﴿فإِنّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾[٤] فلا حاجة له تعالى إلى النصر من أيّ أحد.

هذه النصرة ناظرة إلى مقام الفعل ومنتزعة منه، والدين والقرآن فعلاه تعالى أيضاً، وعليه، فمن ينصر دينه نعالى، فإنّ لديه استحقاق النصر الالهي يشمله فيضه كما يشمل الصابرين المقيمين للصلاة، ولا يخلف الله الميعاد، ما يوجّه استمداد الاولياء الالهيين في حلّ المشاكل التي يواجهونها من الصلاة.

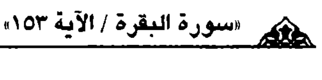
---

١ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٧.

٢ . سورة محمّد ﷺ، الآية ١٣.

٣ . سورة محمّد ﷺ، الآية ٧.

٤ . سورة آل عمران، الاية ٩٧.







والحاصل: لا منافاة أبدا بين ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ وبين: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وسيأتي مزيد توضيح لهذه المسألة إن شاء الله تعالى.

## الاستعانة بالله تعالى بواسطة الصبر والصلاة

الامر الالهيّ الوارد في الآية الّتي هي محلّ البحث وغيرها ممّا يشابهها من الآيات[1] هو «الاستعانة بالصلاة» لا «الاستعانة من الصلاة»، فإنّ الوارد في الآية الشريفة هو: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾؛ ذلك أنّ الصبر والصلاة وسيلتانِ قابليتانِ وليستا المعين والمستعان الفاعلينِ، شأنهما في ذلك شأن التقوى والجهاد كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إليه الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]. فالمراد من الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث هو طلب العون منه تعالى بواسطة الصبر والصلاة.

وطبقا للحصر المستفاد من بعض الآيات الشريفة التي أشرنا إليها سابقا، فإنّ المعين والمستعان الاوحد هو الله سبحانه وتعالى، وبناء على هذا، لا يمكن طلب المدد «من» الصبر أو الصلاة باعتبارهما مبدأ فاعليا، فالصلاة أو الصبر في الحقيقة هما من متمّم قابلية القابل، وممّا يعدّه القابل من أجل تنزّل الفيض الالهي، وبعبارة أخرى: هذا النوع من الامور إنّما هو وسيلة قابلية من أجل إنجازه سبحانه وتعالى ما وعد به من نصرة المؤمنين وعونهم.

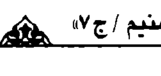
يتعرّض القرآن الكريم إلى هذا المعنى في مجال الصبر أيضاً، كما جاء في قوله تعالى على لسان الكليم عليه السلام: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا﴾[3]،

---

١ . سورة البقرة، الاية ٤٥.

٢ . سورة المائدة، الاية ٣٥.

٣ . سورة الاعراف، الاية ١٢٨.





وكان ما وعد به الكليم عليه السلام بني إسرائيل في مقابل الاستعانة والصبر هو ما جاء في قوله تعالى تتمّة للقول السابق: ﴿إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، فنصيب بني إسرائيل من الاستعانة والصبر هو إنجازه سبحانه وتعالى وعده الذي لا يخلف من إيراثهم الارض وزوال ما كانوا يعانونَ منه من ظلم حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[2].

والمغزى: أنّ تأثير الصلاة والصبر إنّما هو في حيطة القابل لا في تتميم الفاعل، وعندما يعبّر عن الاستعانة بهما بتعبير «الشرط»، فإنّما هو بمعنى «الشرط المتمّم لقبول القابل» لا «الشرط المتمّم لفعل الفاعل»؛ فإنّ للمبدأ الفاعلي (الله سبحانه وتعالى) القدرة المطلقة اللامتناهية.

**نكات:** ١ ـ ورد مصطلح الصبر في القرآن الحكيم مائة وثلاث مرات، وبعيدا عمّا يعكسه ذلك من دور مهم للصبر في الامور الحياتية، فإنّ دوره المؤثّر في الامور الدينية يتّضح بذلك أيضاً.

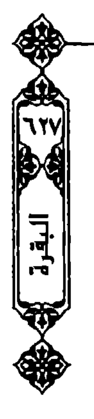
ولمّا كان الصبر واحدا من الكمالات الوجودية، وكانت جميع كمالات نظام الوجود ترجع إليه سبحانه وتعالى مفيض ذلك النظام، نرى القرآن الحكيم وهو ينقل أمره سبحانه وتعالى إلى المجتمع بالنسبة إلى الصبر في قوله تعالى: ﴿واستعينوا...﴾، يذكر أنّ الصبر لا يكون إلّا به عزّ وجلّ، فيقول: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾[3]، فإنّ المبدأ الاوحد المفيض للكمال هو الله سبحانه وتعالى.

---

١ . المصدر السابق.

٢ . سورة الاعراف، الاية ١٣٧ .

٣ . سورة النحل، الاية ١٢٧ .




٢ ـ النقطة الاساسية في لزوم الاستعانة بالصلاة، هي أنّ الصلاة لا يقتصر دورها على أنّها عمود الدين، بل هي عمود الاستقرار، والاستقلال، والحرية، والحياة العزيزة للمجتمع.

٣ ـ لم يذكر في الآية الّتي هي محلّ البحث متعلّق الاستعانة، إلّا أنّ الظاهر أنّ هذا الحذف نفسه علامة على العموم، وأنّ المورد ليس خاصّا أو مقيدا أبدا، وبعبارة أخرى: المورد في الآية ٤٥ وفي الآية الّتي هي محلّ البحث لا يصلح أيّ واحد منهما للتخصيص أو التقييد أبدا.

## خليفة الاعانة الالهية

على أساس التوحيد الافعالي، وكذا استنادا إلى الآية الشريفة: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ الله﴾[1]، فإنّ كلّ ما يوجد من عون ومساعدة على الخير فإنّها منه سبحانه وتعالى، وليس للحصر ـ المستفاد من تقديم الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2] إلّا رسالة واحدة هي أنّ مبدأ العون ليس إلّا الله سبحانه وتعالى، الحقيقة التي تثبتها الآية الشريفة: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ الله﴾[3].

من هنا، نرى أنّ الكليم موسى عليه السلام ضمن نقله لأمره تعالى بالصبر، يجعل الاستعانة به تعالى العنصر ـ المحوريّ في هذا المجال، فيقول كما نقله القرآن الكريم: ﴿اسْتَعِينُوا بِالله وَاصْبِرُوا﴾[4]. وفي هذه الاجواء، لو كانت الاستعانة بالصبر والصلاة موردا لترخيصه سبحانه وتعالى فما هو توجيه ذلك؟

---

١ . سورة النحل، الاية ٥٣.

٢ . سورة الفاتحة، الاية ٥.

٣ . سورة آل عمران، الاية ١٢٦.

٤ . سورة الاعراف، الاية ١٢٨.





ما تقدّم كان عرضا متوسّطا للمسألة، وما سنعرضه هنا لـه صـبغة اخـرى، خلاصتها:

كما أنّ الانسان الكامل خليفـة الله سـبحانه وتعـالى، وأنّ معنـى الخلافـة في حالته عزّ وجلّ لا تعني غيبة المستخلف عنه، بل تتلاءم تمام التلاؤم مع الاحاطة التامّة والحضور الكامل من جميع الجوانب، ما يوجّه ما جاء في القرآن الحكيم من إسناده إلى الخليفة أو وصفه بوصف كمالي يسـنده أو يحصر وصـفه بـه سـبحانه وتعالى، فكذلك عبادة السالك الصالح في كونها خليفة عمله تعالى وقائمـة مقـام صفته عزّ وجلّ، يعني: الاعانـة الالهيـة التـي هـي عملـه تعـالى، وصـفة المعـين والمستعان اللذين هما من صفاته تعالى، إنّما هـي في حيطـة إمكـان خليفـة يكـون مظهرا من مظاهر المستخلف عنه في مجال الفعل وصفة الفعل، ومن هنا، يمكـن لكلّ واحدٍ من الصبر والصلاة أن يكون المعين والمستعان، كما يمكن للخليفة أن يقوم بما يقوم به المستخلف عنه، وليس على سبيل تمكّـن الموجـود الاصـيل مـن القيام بها في عهدته من الاعمال.

ومن أجل أن يتّضح أنّ الصلاة والصبر في إعانتهما للصابرين والمصلّين ليس لهما أية استقلالية في ذلك التأثير، وليس لهما في نفسيهما أيّ شيء من ذلك، فإنّ آية الحصر تكفي في القيام بـذلك الـدور، كـما هـو الحـال في مسـألة عـزّة الرسـول الاكرم ﷺ والمؤمنين في قوله تعالى: ﴿... وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فقد ورد في القرآن الكريم أيضاً قوله عزّ من قائل: ﴿فَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إليه﴾[2]، مـا يعني أنّ عزة الرسول الخليفة إنّما هي عزّته سبحانه وتعالى وليست أمـرا مسـتقلّا عن ذلك أبدا.

---

١ . سورة المنافقون، الاية ٨.

٢ . سورة فاطر، الاية ١٠.





والحاصل: ليس من اللازم اعتبارُ إعانة الصلاة والصبر متمّماً لقابليّة القابل، وهو التوجيه المتوسّط لا النهائي، وإن كان ذلك المعنى صحيحا في مرحلة التفسير، بل من الممكن اعتبارهما خليفة لإعانته سبحانه وتعالى.

## الفرق بين الصبر والصلاة

ورد الامر بالصبر والصلاة في الآية الشريفة ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[1] أيضاً، وما نراه هنا، هو أنّ الصبر والصلاة قد مصاحبينِ في هذه الآية الشريفة والآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، إلّا أنّ الظاهر من الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث أنّ الصبر يتمتّع بأهميّة أكبر ممّا تتمتّع به الصلاة من أهميّة، خلافا للآية الشريفة الاخرى التي يظهر منها العكس، وأنّ ما تتمتّع به الصلاة من أهميّة أكبر من تلك الاهميّة التي يتمتّع بها الصبر[2].

السرّ في هذا الاختلاف، هو أنّ القرآن الكريم يهتمّ في كلّ مورد من الموارد ببيان الحكم الخاصّ بذلك المورد، من هنا، لمّا كان الحكم الذي تبيّنه الآية الشريفة: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[3] هو حكم الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾، بينما الحكم الذي تهتمّ الآية الاخرى ببيانه هو الحرب والقتال وتحمّل الآلام والمصاعب التي يصادفها

---

١ . سورة البقرة، الاية ٤٥.

٢ . تقدّم في البحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ...﴾ ما ذهب إليه بعض المفسّرين من احتمال رجوع ضمير «ها» إلى الاستعانة، إلّا أن قرينة السياق، وكذا استعمال مصطلح الخشوع في القرآن الكريم بالنسبة إلى الصلاة، يستدعيانِ أنّ الانسب هو رجوع الضمير إلى الصلاة نفسها. (راجع: تسنيم، ج٤).

٣ . سورة البقرة، الاية ٤٥.

الانسان في هذا المجال، والنهي عن التراجع والثبات، ممّا ناسب إبراز أهمية أكبر للصبر: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، على الرغم من أنّه تعالى مع المصلّين أيضاً، وعلى الرغم من التأثير الفاعل للصلاة في مواجهة ما ينتج من الحرب والقتال بل وفي الانتصار في الحرب أيضاً.

ومع الالتفات إلى تأثير بيان حقيقة الصلاة وآثارها في إستعانة الانسان بها، فإنّ القرآن الكريم قد بيّن العلل، والمقوّمات الداخلية، والآثار والنتائج الخارجية للصلاة بأفضل بيان، لينتقل بعدها إلى الاستمداد بالصلاة في المشاكل والصعاب، وسيأتي بعض تلك المميّزات في بحث الاشارات واللطائف إن شاء الله تعالى.

**تنويه:** بركات الصلاة كثيرة، أشير في القرآن الكريم إلى موارد متعدّدة منها، إلّا أنّ أمر القرآن بالاستعانة بالصلاة يتضمّن نقطة أساسية، وهي أنّ الصلاة لا يقتصر أمرُها على كونها عمود الدين، بل هي عمود الاستقرار، والاستقلال، والحرية، والحياة العزيزة للمجتمع، ما يوجّه لزوم الاستعانة بها.

## العلاقة بين الصبر والصلاة

لكلّ واحدٍ من الصبر والصلاة الاثر الفاعل في مواجهة الهوى والتخلص من الرذائل الداخلية، كما أنّ لهما التأثير الفاعل أيضاً في مجال الثبات والنصر في مقابل العدو الخارجي، وكلّ واحدٍ منهما يعين الآخر في هذين المجالين.

وبلحاظ أنّ الجزع والتردد ممّا يمكن رفعه بالصبر والثبات عن طريق الصلاة، فإنّه يمكن القول بأنّ الصبر يعتبر محصولا للصلاة ومن نتائجها؛ فإنّ الانسان وإن كان إلهيّا صبورا فطرة، إلّا أنّه من جهة اخرى مطبوع على الهلع والجزع، فالصلاة مانعة عن الهلع والجزع، مثبّتة للصبر، جاعلة الانسان الجزوع



صبورا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الانسان خُلِقَ هَلُوعاً * إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾[1].

من جهة اخرى، يعتبر تأثير الصبر في الدفاع وتأثير الصلاة في الهجوم امرين واضحين ما يوجّه وصف الصلاة بعمود الدين في الحديث الشريف: «الصلاة عمود الدين»[2].

ومن جهة اخرى، تعتبر الصلاة حاصلة للصبر؛ فإنّ الاطاعة التي يلزم الصبر عليها تشمل الصلاة أيضاً، ومن يؤدّي الصلاة فإنّه في الحقيقة يصبر على هذه الطاعة، وما لم يكن للإنسان صبر على الطاعة، فإنّه لن يؤدّي الصلاة، الامر الذي يوجّه خطابه تعالى إلى الرسول الاكرم ﷺ بقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[3].

والخلاصة: أنّ بين الصلاة والصبر تأثيراً وتأثّراً متبادلاً، فكما تعين درجة من درجات الصبر الصلاة، فإنّ الدرجة القوّى من الصبر إنّما تولد بوسيلة الصلاة. وكما أنّ مرتبة من مراتب الصلاة تكون الاساس في ظهور الصبر وولادته، فإنّ المرحلة الفضلى من الصلاة إنّما تكون قائمة على أساس الصبر.

## معيّته سبحانه وتعالى الخاصة بالنسبة إلى الصابرين

وبعنوان برهان القضية، يقول سبحانه وتعالى في ختام الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

والتأكيد على معيّته سبحانه وتعالى بالنسبة إلى الصابرين في الجملة المتقدّمة، من جهة أنّ الارتباط بين الجهاد ـ وهو مورد كلام الآية الشريفة ـ وبين الصبر،

---

١. سورة المعارج، الآيات ١٩ ـ ٢٢.
٢. بحار الانوار، ج٧٩، ص٢١٨ و٢٢٧.
٣. سورة طه، الاية ١٣٢.




أقوى من الارتباط بينه وبين الصلاة، مع أنّه سبحانه وتعالى مع المصلّين أيضاً، كما أنّه يقول: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾.

التوافق بين صدر الآية الشريفة وذيلها كان يوجب أن يخاطب سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله: «إنّ الله معكم»؛ باعتبار أنّ الخطاب الذي جاء في صدر الآية هو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، إلّا أنّه لمّا كانَ المراد بيان معيّته سبحانه وتعالى الخاصة لا المعيّة المطلقة بالنسبة إلى الصابرين، نرى أنّ الخطاب في ذيل الآية الكريمة كان: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

«صابر» صفة مشبّهة وليست اسم فاعل، وهي لمن اتّصف بالصبر ليس إلّا؛ فإنّ من كان الصبر ملكة من ملكاته بحيث لا يمكن لأيّ شيء من الاشياء أن يزيل ذلك ليورده حالة الجزع، فهو صابر (صفة مشبّهة)، وهذا هو «الصبر الجميل» الذي كان يتمتّع به حضرة يعقوب عليه السلام[1] وأمر به الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله بقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾[2].

لا يقتصر الامر في الجزع والشكوى للآخرين من حوادث الزمان على عدم حلّ المشكلة فقط، بل يعتبران علامة على ضعف الروح وعدم تمتّع الشخص بملكة الصبر، خلافا للشكوى له سبحانه وتعالى التي تعتبر من مناجاته تعالى، وممّا يتلاءم مع بعض مراتب الصبر لا مع جميعها، كما ورد بالنسبة إلى حضرة يعقوب عليه السلام في محال تلك الشكوى المطلوبة: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إلى الله﴾[3].

السالك الصالح ليس على مرتبة واحدة دائما، إلّا أنّه لا يتنزّل أبدا من مرتبة الصبر إلى مرتبة الجزع، كما أنّه لا مناجاة له مع غير محبوبه الحقيقي (الله سبحانه

---

١ . سورة يوسف، الآيات ١٨ و٨٣.

٢ . سورة المعارج، الاية ٥.

٣ . سورة يوسف، الاية ٨٦.

وتعالى) أبدا؛ إذ ليس بيد ذلك الغير شيء لكي يناجى، كما أنّه عندما يترفّع من مرتبة الصبر إلى مقام الرضا الشامخ، فإنّ شكواه ستزول كما يزول الجزع في هذه المرتبة أيضاً.

وإذا أصبح الصبر بالمعنى المزبور ملكة لشخص من الاشخاص، كان له سبحانه وتعالى بالنسبة إلى ذلك الشخص معيّة خاصة، فيدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وأمّا إذا كان الصبر متزلزلا في معرض الزوال، فهذا يعني أنّ المعيّة في معرض الزوال أيضاً؛ فإنّ القرآن الكريم قد صرّح بأنّ الانسان الذي يغيّر من توجّهه فينحرف عن المسير الصحيح، فإنّ فيضه سبحانه وتعالى ولطفه ينحرف عنه أيضاً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾[1]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾[2].

الحقائق السابقة تضع أيدينا على نقطة مهمة، وهي أنّ تفسير الصبر بالصوم أحيانا[3] إنّما هو من باب التطبيق المصداقي لا التفسير المفهومي، بمعنى بيان أحد المصاديق الكاملة للصبر، لا أنّ الصبر قد أخذ في مفهوم الصوم.

## المعيّة المطلقة والمقيّدة له سبحانه وتعالى

لمعيّته سبحانه وتعالى التي تعرّضت الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث لقسم من أقسامها ثلاثة أقسام:

القسم الاول: المعيّة المطلقة.

---

١ . سورة الانفال، الاية ١٩.

٢ . سورة الاسراء، الاية ٨.

٣ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٩.

وهي أنّه سبحانه وتعالى له معيّة بالنسبة إلى جميع المخلوقات.

الثاني: المعيّة الخاصة.

وهذه بنفسها لها نحوان:

١ ـ معيّة الرحمة. وهي معيّته سبحانه وتعالى بالنسبة إلى السالك الصالح من جهة كونه غفّارا ورؤوفا.

٢ ـ معيّة القهر. وهي معيّته سبحانه وتعالى بالنسبة إلى الطاغي الطالح من جهة كونه تعالى قهّارا ومنتقما.

توضيح ذلك:

الله سبحانه وتعالى جامع لجميع الكمالات الوجودية، يعني أنّ له حضورا في جميع الاماكن لا يغيب عنه شيء، قال تعالى: ﴿**لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ**﴾[1]، وقال عزّ من قائل: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾[2].

ومفاد هذه الجملة هو بيان القسم الاوّل من المعيّة، يعني المعيّة المطلقة والقيّومية له سبحانه وتعالى لا مجرّد الوعد أو الوعيد، وإن كانت دالة على الوعد والوعيد ضمنا.

وقد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام المعيّة المطلقة بنحو تكون فيه أوسع وأشمل، بحيث تتّسع لتشمل جميع الموجودات حيث يقول: «مع كلّ شيءٍ لا بمقارنة»[3].

وأمّا معيّة اللطف والرحمة، فهي من نصيب أوليائه سبحانه وتعالى الخاصّين، قال تعالى: ﴿**إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ**﴾[4]. وهذا القسم من المعيّة الخاصة هو المعيّة التي له تعالى بالنسبة إلى موسى الكليم عليه السلام والرسول الاكرم صلى الله عليه وآله،

---

١ . سورة سبأ، الاية ٣.

٢ . سورة الحديد، الاية ٤.

٣ . نهج البلاغة، الخطبة ١، بند ٧.

٤ . سورة الاعراف، الاية ٥٦.

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[١]، وقوله عزّ من قائل: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾[٢] وهكذا بالنسبة إلى الصابرين والمتقين والمحسنين كما جاء في قوله تعالى في الآيات الشريفة: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[٣]، ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤].

القسم الثالث من المعيّة، هي معيّة القهر، فهو سبحانه كما كان رحيما ناصرا بالنسبة إلى المؤمنين، فهو قهّار منتقم مع الكافرين والمنافقين والفجّار، قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنْ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنْ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾[٥].

إنّ السرّ في عدم إمكان استخفاء من يريد بالاسلام والمسلمين شرّا منه سبحانه وتعالى، هو أنّه عزّ وجلّ معهم في جميع الاحوال، الامر الذي يعتبر إعلاما بالخطر الذي يواجهه أولئك المغرضون، فإنّه تعالى حيث كان معهم، فإنّما يكون كذلك باعتباره منتقما مؤدّبا لهؤلاء لا باعتباره رؤوفا رحيما حافظا مؤدّيا كما كان مع المؤمنين، وبهذه المعيّة نفسها أخذ آل فرعون وانتقم منهم، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾[٦] وبهذه المعيّة أيضاً انتقم من المجرمين، قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا مِنْ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[٧]، على الرغم من أنّ إحاطته سبحانه وتعالى ومعيّته المطلقة بالنسبة إلى الجميع ﴿هُوَ مَعَكُمْ﴾[٨] الفجار والاخيار على نحو واحد.

---

١ . سورة الشعراء، الاية ٦٢.
٢ . سورة التوبة، الاية ٤٠.
٣ . سورة التوبة، الاية ٣٦.
٤ . سورة العنكبوت، الاية ٦٩.
٥ . سورة النساء، الاية ١٠٨.
٦ . سورة القصص، الاية ٤٠.
٧ . سورة السجدة، الاية ٢٢.
٨ . سورة الحديد، الاية ٤.

**تنويهان:** ١ ـ «المنتقم» هو «الرحيم» نفسه، والرحيم هو المنتقم نفسه، وأمّا الفرق بين هذين الاسمين، فإنّما هو من حيث الظهور الخاص الذي يتمتّع به كلّ واحدٍ منهما.

٢ ـ لمّا كانت رحمته سبحانه وتعالى تسبق غضبه من جهة، ولاستحالة تخلف الوعد الالهي لا الوعيد من جهة اخرى، فإنّ من الممكن أن يتبدّل حضوره سبحانه وتعالى بعنوان المنتقم بالنسبة إلى الطاغين إلى العفو فلا يصل الانتقام إلى مرحلة الفعلية.

## إشارات ولطائف

### ١ ـ الفرق بين الصابر والصبّار

كما يختلف الصبر بلحاظ انقسامه إلى ما كان متزلزلا وثابتا على نحو الملكة وغير القابل للزوال، ويتفاوت بهذه النسبة أيضاً في ما يرجع إلى الاستفادة من المعيّة الخاصّة وعدم الاستفادة منها، فإنّ له مراتب مختلفة في مجال حلّ المشاكل التي يواجهها الانسان.

من الممكن حلّ المشاكل العادية غير المهمّة بواسطة الصبر العادي، وأمّا بالنسبة إلى المشاكل المهمّة، من قبيل المواجهة مع المتفرعنين والمتغطرسين، فإنّ الصبر العادي لا يجدي نفعا حينئذ، بل الحاجة ماسّة في مثل هذه المشاكل إلى مرتبة من الصبر عالية تتناسب مع عظم المشكلة التي يواجهها الانسان، ما يعني أنّ على ذلك الانسان أن يكون «صبّارا»، كما ورد في قوله تعالى مخاطبا موسى الكليم عليه السلام بقوله: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾[١].

---

١ . سورة إبراهيم، الاية ٥.

النقطة السابقة تأتي أيضاً بالنسبة إلى وصفي: «قائم بالقسط» و«قوّام بالقسط»؛ فإنّ إدارة أمور من قبيل صلاة الجماعة وما شابهها من الامور التي تشترط فيها العدالة يكفي فيها الوصف الاوّل في إمام الجماعة، وأمّا بالنسبة إلى القضاء والشهادات، وهي التي تتعلّق بدماء الناس وأعراضهم وأموالهم، فإنّ المعتبر هو الوصف الثاني (القوّام بالقسط)، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله﴾[1]، وقوله عزّ وجلّ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾[2]، مع أنّه قد اكتفي في سائر الامور بالقائم بالقسط، كما في الآية الشريفة: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾[3]، والاية الشريفة الاخرى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[4].

لو لم يكن الانسان من أهل التمييز في الحكم والقضاء، فإنّه سيخلط بين «إنشاء العلاقة» و«التوصية» و«التواصي بالحق»، فلا يمكنه تحمّل ثقل القضاء ومسؤوليّاته، فلا يصل إلى المقصد سالما، ومن هنا، نجد أنّ بعض الفقهاء المرموقين قد اشترط في القاضي «كمال العقل» ولم يكتف بأن يكون المتقلّد لوظيفة القضاء عاقلا[5].

## ٢ ـ كبر الصلاة وعظمها

يصف سبحانه وتعالى الصلاة بأنّها كبيرة فيقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ

---

١ . سورة النساء، الاية ١٣٥.

٢ . سورة المائدة، الاية ٨.

٣ . سورة النساء، الاية ١٢٧.

٤ . سورة الحديد، الاية ٢٥.

٥ . جواهر الكلام، ج٤٠، ص١٢.





وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[1].

وبناء على رجوع الضمير إلى الصلاة لا إلى الاستعانة، فإنّ الوصف السابق يعكس الاهميّة الذاتية الكبيرة التي تتمتّع بها الصلاة عنده سبحانه وتعالى، وبناء على هذا، فإنّ حمل الصلاة وإن كان أمرا ميسورا بالنسبة إلى الخاشعين، إلّا أنّها تبقى على الرغم من ذلك أمرا عظيما حتى بالنسبة إلى هؤلاء، وهذا الأمر العظيم يوجّه ما نراه من حالات خاصّة تعتري المعصومين حال الصلاة والاستعداد لأداء هذه الفريضة الالهية المهمّة، كما جاء في وصف الامام المجتبى عليه السلام من قولهم: «كان إذا قام في صلاته تَرْتَعدُ فرائصه بين يدي ربّه عزّ وجلّ»[2].

البيان المتقدّم من قبيل ما يقال بالنسبة إلى وزن ثقيل من أنّه لا يمكن حمله إلّا من قبل رياضيّ متمرّس، فإنّ ذلك لا يعني بأيّ حال من الاحوال أنّ ذلك الوزن ليس ثقيلا من الاساس.

### ٣ ـ ملاك مقبولية الصلاة

يصف القرآن الكريم الصلاة بأنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر فيقول: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[3]. وطبقا لهذه الآية الشريفة، فإنّه تعالى لم يؤجّل مسألة تشخيص قبول الصلاة أو عدم قبولها إلى يوم القيامة، بل يمكن قبل ذلك اليوم تشخيص أنّ صلاة مّا مقبولة أو غير مقبولة، كما ورد في قول الامام الصادق عليه السلام: «من أحبّ أن يعلم أَقبِلَتْ صلاته أم لم تُقْبَل، فلينظر هل مَنَعَتْه صلاته عن الفحشاء والمنكر؟ فبقدر ما منعته قُبِلَتْ منه»[4].

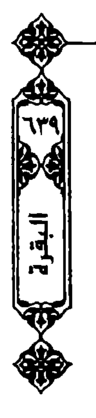
---

١ . سورة البقرة، الاية ٤٥.

٢ . بحار الانوار، ج٤٣، ص٣٣١.

٣ . سورة العنكبوت، الاية ٤٥.

٤ . بحار الانوار، ج١٦، ص٢٠٤.




وبالنسبة إلى الغافلين، فإنّ عدم كون الصلاة مقبولة إنّما يتضح لهم يوم القيامة، وأمّا بالنسبة إلى أهل المراقبة والمحاسبة، فإنّهم يمكنهم بواسطة الملاك السابق الذكر التشخيص قبل ذلك؛ إذ يعتبر الميل إلى الفحشاء وإن كان بسيطا علامة على عدم القبول، فيفزعون إلى الترميم والجبر، ومن هنا، فإنّ على الانسان أن يراقب آثار العبادة على نفسه، فإن لم يجد لها أثرا إيجابيا، فليعلم حينئذ أنّها غير مؤثرة ولا مقبولة.

توضيح ذلك:

إنّ عكس نقيضِ قوله تعالى: **﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾**، هو: «ما لا ينهى عن الفحشاء والمنكر فليس بصلاة»، فإنّ عكس نقيض كلّ قضية هو اللازم العقلي لتلك القضية لا اللازم التعبدي، ومن هنا، فإنّه لا يختص بنوع خاصّ من القضايا، فكلّ محمول ثبت لأيّ موضوع باعتباره وصفا ذاتيّا لازما، فإنّ ذلك المحمول لو لم يكن، فلا شكّ في أنّ الموضوع ممّا هو معدوم غير موجود أيضاً.

وعلى أساس الآية الشريفة المذكورة، فإنّ كلّ صلاة تنهى الانسان عن المعصية، وهذا وصف ذاتي للصلاة، وليس وصفا عرضيا أجنبيا ليثبت أحيانا وينتفي أحيانا أخرى، وعليه، فإنّ عكس نقيض القضيّة المزبورة، هو أنّ ما لا يمنع الانسان عن المعصية فليس بصلاة واقعية، فصلاة من هذا النوع مجرّد عبادة صورية شكلية لا عبادة حقيقية.

من يظن أنّ الصلاة مجموعة من الحركات والسكنات، وأنّها عبادة صورية، فإنّ هكذا متوهّم لم يعرف حقيقة الصلاة، وهو غافل عن صلاته، وهو ما ورد فيه قوله سبحانه وتعالى: **﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾**[1].

---

١ . سورة الماعون، الآيات ٤ ـ ٥.




فليس الكلام في هذه الآية الكريمة عن تاركي الصلاة، بل عن المصلّين الغافلين عن صلواتهم، فلا يتفكّرون في تلك الصلوات، فتكون «مسهوا عنها»، وليس المراد ما يقع فيه السهو والشك من الصلوات؛ فإنّ تلك تكون «مسهوا فيها» لا «عنها».

## ٤ ـ إصلاح الاثار الطبيعية السيئة بالصلاة

للإنسان فطرة توحيدية يعرف بواسطتها الله سبحانه وتعالى ويطلبه، قال عزّ وجلّ: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾**[1]، كما أنّ له طبيعة نُظّم بدنه بواسطتها.

وقد نسب سبحانه وتعالى تلك الفطرة إلى نفسه، فيما نسب تلك الطبيعة إلى الطين، قال تعالى: **﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾**[2]، على الرغم من أنّ كلّ شيء منسوب إليه سبحانه وتعالى.

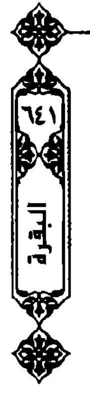
ولطبيعة الانسان التي ترجع إلى «الطين» وتكون أقرب إلى الحسّ ـ شأنها شأن الفطرة ـ لها نتائج وآثار كثيرة، وقد تطرّق سبحانه وتعالى في سورة «المعارج» المباركة التي قد تكون أكثر الآيات القرآنية المباركة تعرّضا لخصوصيات الصلاة وآثارها الايجابية إلى النتائج الطبيعية للانسان، فقال عزّ من قائل: **﴿إِنَّ الانسان خُلِقَ هَلُوعاً * إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾**[3]. فكون الانسان هلوعا وجزوعا ومنوعا، إنّما هي آثار ناشئة من طبيعة الانسان، وعلامة على نقصه الطبيعي.

---

١ . سورة الروم، الاية ٣٠.

٢ . سورة ص، الآيات ٧١ ـ ٧٢.

٣ . سورة المعارج، الآيات ١٩ ـ ٢١.





والصلاة بنشأتها من فطرة الانسان يمكنها شفاء جميع تلك الامراض التي نشأت من طبيعة الانسان وترميمها، كما هو الظاهر ممّا جاء في القرآن الكريم بعد تلك الآيات السابقة من قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾[1]. فإنّ «المصلّين»، صفة دائمة لمن كان في فكر الصلاة على الدوام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[2].

**تنويهات:** أ ـ الحرص والطمع ليسا صفتين مذمومتين ذاتا؛ إذ ليس لهما خُبث ذاتي طبيعي، وإنّما يختلف الامر فيهما باختلاف متعلّقهما؛ فلو كان متعلّقهما خبيثا مذموما، أصبحتا مذمومتين، وإلّا، كانتا صفتين ممدوحتين محمودتين.

فمن قبيل المثال: الحرص والطمع في مجال تحصيل العلم والعقل صفتان ممدوحتان؛ من جهة طِيبِ العقل وطهارة العلم، قال تعالى: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[3]، وقال عزّ من قائل: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[4]. وأمّا الحرص في مجال جمع المال والامساك وإباء الانفاق، فهو مذموم.

ب ـ يذكر القرآن الحكيم في الآيات المتقدّمة من سورة المعارج المباركة السرّ ـ في مذمومية الهَلَع، فيتعرّض إلى أنّ المبتلى بهذا المرض يصير مانعا للخير من جهة، كما أنّه يكون جازعا في مواجهة أيّ حادث مهمّ (شر) بدل أن يكون صابرا من جهة اخرى.

ج ـ الاوصاف المزبورة ترتبط بروح الانسان لا ببدنه، إلّا أنّ ابتلاء الروح بالصفات المذمومة إنّما يكون على أثر تعلّقها بالبدن الذي هو أمر طبيعي لا فوق الطبيعي، وما هو رأس كلّ خطيئة هو الدنيا لا الآخرة وما فوق الدنيا، ولو كان

---

١ . سورة المعارج، الاية ٢٢.

٢ . سورة المعارج، الاية ٢٣.

٣ . سورة طه، الاية ١١٤.

٤ . سورة السجدة، الاية ١٦.





أهل الجنة حريصين بالنسبة إلى شيء من الاشياء، فلا جرم أنّه لن يكون من سنخ الشُحّ والغِلّ؛ فإنّهم منزّهون عن كلّ خبث وعن كلّ ما تنفر منه الروح كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[1].

## ٥ـ مقدار الصلاة وخشوعها

بعض آيات القرآن الكريم ناظر إلى مقدار الصلاة وكيفيّة الخشوع فيها، كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[2]، وقوله عزّ من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[3] وغيرها من الآيات المباركة التي تعرّضت إلى كيفية الصلاة التي هي خضوع وخشوع.

وأمّا قوله تعالى في الآية الشريفة ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[4]، فهو ناظر إلى كمّية الصلاة، فهؤلاء دائمون على صلاتهم، فبالاضافة إلى أداء هؤلاء لجميع صلواتهم، وعدم نسيانهم للصلاة وأوقاتها وسائر شرائطها فلا يقعون في ترك أيّة صلاة، بالاضافة إلى كلّ ذلك، فهؤلاء في فكر الصلاة بشكل دائم، والتفكير في ألّا يبطل تلك الصلوات التي وقعت منهم الفحشاء والمنكر والباطل يوما مّا، فيخسرون بذلك ما لتلكم الصلوات من البركات، كما يشغل بالهم أيضاً أن يؤدّوا ما سيأتي من الصلوات على حلال في طعامهم وشرابهم ولبسهم ومكان صلاتهم، هؤلاء في فكره سبحانه وتعالى دائما، وحالتهم هذه بمثابة من كان في صلاة دائمة.

---

١ . سورة الاعراف، الاية ٤٣.

٢ . سورة البقرة، الاية ٤٥.

٣ . سورة المؤمنون، الآيات ١ ـ ٢.

٤ . سورة المعارج، الآيات ٢٢ ـ ٢٣.



الشاهد على أنّه ليس المراد من الدوام على الصلاة هو الاشتغال الدائمي بالصلاة والركوع والسجود الظاهري، هو ما جاء في قوله تعالى بالنسبة إلى مصلّي صلاة الجمعة التي تعتبر من أحسن الصلوات وأفضلها، حيث يقول عزّ من قائل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاةُ فإنتَشِرُوا فِي الأرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، ومن كان في ذكره تعالى دائما، فهو كما لو كان في صلاة دائمة، كما ورد في الرواية الشريفة: «لايزال المؤمن في صلاة ما كان في ذكر الله عزّ وجلّ»[2].

## ٦ ـ آثار الصلاة وأوصاف المصلين

تعرّض سبحانه وتعالى بعد ما سبق من قوله: ﴿... المُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[3]، إلى أوصاف أخرى للمصلين نتعرّض لها هنا:

أ ـ في مجال المسائل الماليّة، أعم من أن تكون واجبة أو مستحبّة، تذكّر الصلاة المصلّي بأن يفكّر بالمحرومين والفقراء والمحتاجين ويهتمّ بهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[4].

لا ينحصر هذا الاهتمام والتأمين المادي والمالي بأداء الزكاة الواجبة، بل أداء صلاة من هذا القبيل يعتبر بنفسه ممّا يضمّ الزكاة أيضاً، فيكون مانعا من التكاثر.

ب ـ تدعو الصلاة المصلّي دائما إلى أن يكون مشغول البال على الدوام بالقيامة وما يقع فيها من العذاب الالهي العظيم؛ إذ يكون واقفا تمام الوقوف على

---

١ . سورة الجمعة، الاية ١٠.

٢ . **وسائل الشيعة**، ج٧، ص١٥٠.

٣ . سورة المعارج، الآيات ٢٢ ـ ٢٣.

٤ . سورة المعارج، الآيات ٢٤ ـ ٢٥.

أنّ ذلك العذاب غير مأمون لأحد من الناس، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾[١].

الامن من العذاب إنّما ينشأ عن الغفلة، وهو أمر مذموم، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٢]، والصلاة مانعة من وقوع الانسان المصلّي في هذه الغفلة.

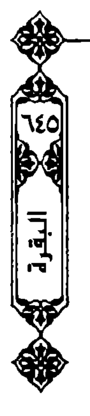
ج ـ إعتمادا على القاعدة الكلية المستفادة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[٣]، وهو ما جاء تفسيره في تفسير سورة المعارج المباركة، فإنّ المصلّي إنسان عفيف كما جاء في قوله عزّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ﴾[٤]، بناء على هذا، فالصلاة مانعة للإنسان المصلّي من عدم العفة.

د ـ المصلّي الحقيقي إنسان أمين حافظ لعهده وأماناته يفي بها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[٥].

هـ ـ يكون المصلّي ممن يشهد بالحق والعدل حدوثاً وبقاء، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾[٦]، وعلى هذا الاساس، فمن يمتنع عن أداء الشهادة والقيام بالشهادة بالقسط، فهو ليس مصلّيا حقيقيا.

---

١ . سورة المعارج، الآيات ٢٦ ـ ٢٨.
٢ . سورة الاعراف، الاية ٩٩.
٣ . سورة العنكبوت، الاية ٤٥.
٤ . سورة المعارج، الآيات ٢٩ ـ ٣١.
٥ . سورة المعارج، الاية ٣٢.
٦ . سورة المعارج، الاية ٣٣.




يقول الباري عزّ وجلّ في صدر الآيات المزبورة: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[١]. كما يقول في ذيل تلك الآيات: ﴿والَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[٢]، كما يتعرّض في ختام هذا القسم إلى نتيجة ما تقدّم، هو الثواب الجزيل الذي أعده للمصلين الحقيقيين، فيقول عزّ من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾[٣].

**تنويه:** تعرّض القرآن الكريم إلى الكثير من بركات للصلاة في موارد مختلفة، وما أوردناه هنا من بحث مختصر في هذا المجال، إنّما هو بهدف بيان عمود الحياة والاسطوانة التي تستند إليها.

## البحث الروائي

**١ ـ أمير أهل الايمان**

عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**ما أنزل الله تعالى آية في القرآن فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلّا وعليٌّ أميرها وشريفها**». وفي رواية حذيفة: «**إلّا كان لعليّ بن أبي طالب لبّها ولبابها**». وفي رواية: «**إلّا عليٌّ رأسها وأميرها**». وفي رواية موسى القطّان ووكيع بن الجرّاح: «**أميرها وشريفها؛ لأنّه أوّل المؤمنين إيماناً**» وفي رواية... عن ابن عبّاس: «**إلّا عليٌّ رأسها وشريفها وأميرها**»[٤].

ـ في صحيفة الرضا عليه السلام: «**ليس في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلّا في حقّنا، ولا في التوراة «يا أيّها النّاس» إلّا فينا**»[٥].

---

١ . سورة المعارج، الاية ٢٣.

٢ . سورة المعارج، الاية ٣٤.

٣ . سورة المعارج، الاية ٣٥.

٤ و٥ . بحار الانوار، ج٣٧، ص٣٣٣.

إشارة: يعتبر الانسان المعصوم الكامل من جملة المصاديق البارزة لقوله تعالى: ﴿... السَّابِقُونَ * ... الْمُقَرَّبُونَ﴾[١]، ولازم سبقه هو وصوله إلى مقام الامارة والامامة الشامخ بعد كونه السابق في جميع الكمالات الحقيقية، قال تعالى: ﴿... وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[٢]، وعليه، ففي جميع الآيات الايمانية هو الامير والشريف والامام.

## ٢ ـ الصبر علامة الحرية

عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إنّ الحرّ حرٌّ على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها، وإن تداكّت عليه المصائب لم تكسره، وإن أُسر وقُهر واستُبدل باليسر عسراً كما كان يوسف الصدّيق الامين عليه السلام، لم يضرر حرّيّته أن استعبد وقهر وأسر، ولم تضرُره ظلمة الجبّ ووحشته وما ناله، أن منّ الله عليه فجعل الجبار العاتي له عبداً بعد إذ كان [له] مالكاً، فأرسله ورحم به أُمّة، وكذلك الصبر يعقّب خيراً، فاصبروا ووطّنوا أنفسكم على الصبر، توجروا**»[٣].

إشارة: ليس الصبر هو السكوت على ظلم الظالم وتحمله وعدم مواجهته، كما أنّه لا يعتبر علامة على الذلّة عند الانسان الصابر، بل الصبر تحمل المصاعب والمشاكل والثبات في مواجهتها ومقاومتها، وهذه من لوازم وصف الحرية وصفة الانسان الحر.

الانسان الحرّ الذي أصبحت الحريّة عنده ملكة لا حالة من الحالات لكي

---

١ . سورة الواقعة، الآيات ١٠ ـ ١١.

٢ . سورة الفرقان، الاية ٧٤.

٣ . الكافي، ج٢، ص٨٩.

تثبت أحيانا وتزول أخرى، حرّ في جميع حالاته وظروفه التي يعيش معها، وقد تعرّضت الرواية الشريفة لجملة منها.

**والحاصل:** أنّ الانسان الحرّ إنسان صابر، فالصبر لازم الحرّية، كما أنّ: «إنّ الله مع الصبرين» يستلزم: «إنّ الله مع الاحرار». والحرّ من لم يكن في قيد الشهوة والغضبِ الباطني؛ فإنّ من ينقاد بالهوى والميل إلى الشهوة فيعمل بما توليانه عليه، حتى لو كان حرّا ظاهرا، إلّا أنّه في الحقيقة عبد، بل هو أذلّ من العبد الرق كما جاء في الرواية الشريفة: «عبد الشهوة أذلّ من عبد الرقّ»[1]؛ من جهة أنّ العبد الرقّ قد يكون حرّا كريما حقيقة على أثر التقوى، وأمّا عبد الشهوة، فإنّه يجعل من نفسه ذليلا بعمله بشهوته وهواه.

## ٣ ـ الصبر علامة المروءة

عن أبي جعفر عليه السلام: **«مروّة الصبر في حال الحاجة والفاقة والتعفّف والغنى أكثر من مروّة الاعطاء»**[2].

## ٤ ـ تفسير الصبر بالصوم

قال أبو عبد الله عليه السلام: **«الصبر هو الصوم»**[3].

**إشارة:** من المصاديق البارزة للصبر هو الصوم؛ لما يرافقه من تحمل لبعض المشاق وصبر طويل عليها، فإطلاق أحدهما على الآخر من باب التطبيق المصداقي لا التفسير المفهومي.

---

١ . شرح غرر الحكم، ج٤، ص٣٥٢.

٢ . الكافي، ج٢، ص٩٣.

٣ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٨.





## ٥ ـ الوصية الخاصة للشيعة بالصبر والصلاة

ـ عن الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال: «**يا فضيل، بلّغ من لقيت من موالينا عنّا السلام، وقل لهم: إنّي أقول: إنّي لا أغني عنكم من الله شيئاً إلّا بورع، فاحفظوا ألسنتكم، وكُفّوا أيديكم، وعليكم بالصبر والصلاة، إنّ الله مع الصابرين**»[1].

**إشارة:** شفاعة أهل بيت العصمة عليهم السلام مشروطة بأن يكون المشفوع له ممّن له دين مرضيّ من قبله سبحانه وتعالى، والدين المرضيّ عنده تعالى هو دين من كان متورّعا، والانسان الورع هو الحافظ للسانه ويده، ومن كان موفّقا للصبر والصلاة.

**تنويه:** للصابرين سلام خاصّ ينشأ من أهمّية الصبر، قال تعالى: ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾[2]، ومن هنا، يصف لقمان الحكيم الصبر في وصيته لابنه بأنّه من عزم الامور، كما ورد في قوله تعالى على لسانه: ﴿**... عَزْمِ الأُمُورِ**﴾[3]، وبعبارة أخرى: الصبر من جملة الامور التي لا بدّ من أن يعزم عليها الانسان.

من الطبيعي أنّ كلّ عمل يقدم عليه الانسان المختار أو الموجود الذي يتمتّع بالارادة لا بدّ من أن يكون مسبوقا بالعزم قطعا، إلّا أنّ الاعمال المهمّة ذات الحساسية الشديدة، إنّما يقدم عليها بعد التفكير والاستشارة والبحث والتحقيق.

كما يمكن استفادة أهمّيّة الصبر من قوله سبحانه وتعالى في الآية الشريفة: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ**﴾[4]؛ فقد مدح عزّ وجلّ أنبياءه أولي

---

١ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٨.

٢ . سورة الرعد، الاية ٢٤.

٣ . سورة لقمان، الاية ١٧.

٤ . سورة الاحقاف، الاية ٣٥.



العزم بكونهم من الصابرين، طبيعيّ أنّ كون الانسان الكامل صابرا إنّما هو من أجل أنّه مظهر من مظاهر أسمائه تعالى الحسنى، وواحد من أسمائه تعالى الحسنى هو الصبور، كما جاء في دعاء الجوشن الكبير من قوله عليه السلام: «... يا غفور، يا صبور...»[1].

* * *

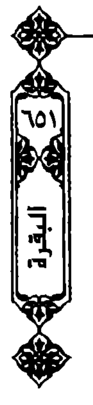
١ . البلد الامين. مفاتيح الجنان.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

## التفسير المختار

الاعتقاد بأنّ للشهيد حياة أفضل وأهنأ من جملة العوامل المهمّة للثبات والانتصار، وفي صدر الاسلام، ومن جهة عدم بديهيّة أصل الحياة البرزخيّة أو عدم إثمارها عند الجميع، فقد ذهب جماعة من أهل الاعتقاد بالمعاد إلى أنّ الشهادة نوع من الحرمان، كما ذهب المنافقون والكفّار ـ على أساس ما يحملونه من تصوّر خاطئ عن الموت ـ إلى أنّ الشهادة زوال وإلقاء للنفس في التهلكة، وهنا التصوّر الخاطئُ جعل المنافقين يرفضون القتال والمواجهة ليكونوا من أهل التبطئة والتأجيل والتأخير.

الموت وفاة وانتقال من نشأة إلى نشأة اخرى، وليس زوالا وانعداما وانتفاء، وأمّا السرّ في تعبيره سبحانه وتعالى عن بعض الكفّار والمنافقين في بعض الموارد بالاموات، فهو أنّ الموت قد يكون أحيانا بمعنى زوال الاثر الانسانيّ لا زوال الوجود، فإطلاقه على الكافرين إنّما هو بلحاظ انتفاء أيّ أثر هؤلاء، وعلى هذا الاساس، يكون نهي هذه الآية الشريفة عن استعمال تعبير «أموات» بالنسبة إلى الشهداء، مفيدا لرفع توهّم الزوال والانعدام بالنسبة إلى الشهيد من جهة، كما أنّه لدفع توهّم زوال أثر الشهداء من جهة أخرى. فالشهيد حيّ منشأ للأثر، فهو يجعل أهل الدنيا ومن تركهم فيها من أقربائه ومعارفه منتبهين نورانيين، كما أنّه يوصل إلى البرزخ الروحَ والريحان.



جميع الناس أحياء بعد الموت، فليس معنى الموت الفناء والزوال بالنسبة لأيّ شخص من الاشخاص، إلّا أنّ السرّ في النهي عن توهّم الموت بالنسبة إلى الشهداء كما يتوهّم بالنسبة إلى غيرهم، هو التذكير بأنّ لهؤلاء الشهداء حياة أفضل من حياة غيرهم وأحسن.

وقد ورد الردّ على التوهّم السابق في آيات شريفة اخرى عن طريق بيان ما للشهيد من رزق حسن خاص عنده سبحانه وتعالى.

لا يدرك أكثر الناس حياة الشهيد ولا يلتفتون إليها، إلّا أنّ ذلك لا يعني أبدا استحالة فهم حياة الشهيد أو عدم إمكان الالتفات إليها.

## تفسير المفردات

**يُقتَلُ**: «القتل» و«الموت» كلاهما بمعنى إزالة الروح عن البدن، قال تعالى: ﴿**أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ**﴾[1]، وقال عزّ وجلّ: ﴿**وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ**﴾[2]، والفرق بين الاثنين إنّما هو من جهة اختلاف الملاحظ في كلّ منهما؛ فإنّ الملاحظ في «القتل» هو مزيل الروح، بينما الملاحظ في «الموت» هو فقدان الحياة[3].

## تناسب الآيات

ذكر في مجال بيان الارتباط بين الآية الكريمة الّتي هي محلّ البحث والآيات الكريمة السابقة عليها وجوه مختلفة على الظاهر، يمكن تلخيصها جميعها في وجهين:

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٥٨.

٣ . المفردات، ص٦٥٥، «ق ت ل».





١ ـ حاصل الآيات السابقة من سورة البقرة المباركة هو أنّ المشركين والكافرين والمنافقين كانوا متّحدين منسجمين في عدائهم للمسلمين، وعلى هذا الاساس، دعي المسلمون إلى الصبر والثبات، إلّا أنّهم كانوا يحبّون استشراف مرحلة ما بعد الصبر، فهل هناك عمل لا بدّ من أن يقوموا به بعد ذلك الصبر؟ لتأتي الآية الكريمة الّتي هي محلّ البحث لتشير إلى سرعة أمرهم من قبله سبحانه وتعالى ـ بعد دعوتهم إلى الصبر والثبات في مقابل ما يتعرّضون له من أذى لساني ـ بالصبر في مواجهة السيوف والرماح.

ومن هنا، فإنّ النهي المذكور في الآية الّتي هي محلّ البحث يكون معطوفا على الامر بالصبر في الآية السابقة[1]، لتنقل من الكلام ما يدلّ على أنّ المرحلة ستصل إلى حالة الحرب والقتل أيضاً ليتجهّز المسلمون لتلك المرحلة، فكأنّما أراد سبحانه وتعالى أن يقول: «اثبتوا في مقابل طعن الكافرين، وصلّوا إلى جهة القبلة، وجاهدوا أعداءكم، واصبروا في مقابل ما يصدر منهم من قتل وغارات وما شابه ذلك»[2].

**والحاصل**: جعلت الآية السابقة المسلمين جاهزين لكي يصبروا على الشدائد والجهاد الذي تتعرّض له هذه الآية الشريفة، والمورد الاصعب من تلك الموارد هو الصبر، وأمّا بيان حال الشهداء الذين يقتلون في ميادين الجهاد في هذه الآية الشريفة، فهو لدفع توهّم الفناء وعدم الحياة بالنسبة إلى الشهداء، كما تقدّم الجواب على سؤال الموقف من الصلوات التي أدّيت إلى غير جهة الكعبة (بيت المقدس)، فجاء الجواب بقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾[3]، يعني:

---

١ . **نظم الدرر**، ج١، ص٢٧٩.

٢ . المصدر السابق، ص٢٧٨ ـ ٢٧٩.

٣ . **سورة البقرة**، الآية ١٤٣.



هؤلاء لم يعدموا ولم يفنوا، فآثار إيمانهم حيّة محفوظة، كما أنّها إشارة إلى أنّ الحالة ستؤول إلى القتال بين المسلمين وأعدائهم[١].

٢ ـ صدر في الآية الشريفة السابقة الامر بالاستعانة بالصبر في مقابل ما يواجهه المسلم من الشدائد، والقتل في سبيل الله من أعظم تلك المصائب التي يجب الصبر في مقابلها.

وأمّا الآية الّتي هي محلّ البحث، فهي من خلال تبيينها لحال الشهيد وما عليه من حياة بعد قتله في سبيل الله سبحانه وتعالى، فهي تعين المسلمين في صبرهم إزاء تلك المصيبة[٢]، فكأنّما أراد الباري سبحانه وتعالى أن يقول: «استعينوا في سبيل إقامة الدين بالصبر والصلاة، ولو وصلت الحالة إلى الحاجة إلى الجهاد والجود بالنفس، فلا تخافوا، فإنّ من يقتل في هذا السبيل حيّ عندي»[٣].

بناء على هذا، بعد أن دعي المسلمون إلى الصبر، وجّه انتباههم إلى أمرين:

الأمر الأوّل: أنّ القتل في سبيل الله سبحانه وتعالى من أعظم الامور التي يجب الصبر عليها[٤].

والثاني أنّه: ليس هناك أيّ آثار جانبية سلبية للصبر المأمور به، وإن حصل وإنِ انتهى بالشهادة، فهي الحياة الابديّة لا الزوال والفناء[٥].

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّه سبحانه ونعالى في سبيل الثبات في مقابل طعن الطاعنين وشبهاتهم ومكرهم ومقاومة جميع ذلك، دعا أوّلا إلى الاستعانة

---

١ . نظم الدرر، ج١، ص٢٧٨.

٢ . الاساس في التفسير، ج١، ص٣٣١.

٣ . تفسير غرائب القرآن، ج١ ـ ٢، ص٤٣٩.

٤ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٥٢.

٥ . روح المعاني، ج٢، ص٣٠.




بالصبر والصلاة، ثم تلا ذلك ببيان أعظم ما يجب الاستعانة بالصبر والصلاة في مقابله، وهو القتل في سبيل الدعوة إلى الحقّ والدفاع عنه[1].

* * *

## توهّم فناء الشهيد وحرمانه

من أجل تشجيعه سبحانه وتعالى للمسلمين على الجهاد ودفعهم نحوه، يتعرّض عزّ وجلّ إلى مقدّمات النصر والعوامل المعنوية المساعدة عليه التي أشير في الآية السابقة إلى بعضها، وهي الاستعانة بالصبر والصلاة، وأمّا هذه الآية الشريفة، فتشير إلى عاملة مهمّة أُخرى من تلك العوامل، وهي الاعتقاد بالحياة الفضلى والحسنى للشهيد.

تعتبر الآية الشريفة جوابا على توهّم مريضي التفكير والطاعنين في الاسلام؛ فقد كانوا يتوهّمون أنّ الذهاب إلى ميدان القتال إلقاء للنفس إلى التهلكة، فقد كانوا يقولون ـ وخصوصا بعد معركة بدر ـ : «لماذا يلقي هؤلاء أنفسهم إلى التهلكة في سبيل نبيّهم وقائدهم؟».

وأمّا جواب القرآن الكريم على التساؤل السابق، فهو أنّ الانسان يطلب الحياة ويريدها، والحياة الحقيقية إنّما تكون بعد الموت، وطلب الحياة يجعل الايثار والشهادة من جملة العوامل التي تهيّئ الارضيّة للوصول إلى الحياة الحقيقية والنعيم الابديّ والنجاة من الهلاك، وليست الشهادة فناء وانعداما كما كان يتصوّر المغرضون.

توضيح ذلك:

برز في صدر الاسلام توهّمان في مجال الشهادة يمثّل كلّ واحدٍ منهما مجموعة

---

١ . تفسير المنار، ج٢، ص٣٧.

مستقلّة عن المجموعة الاخرى؛ فقد ذهبت مجموعة إلى أنّ الشهادة فناء وانعدام وزوال، بينما ذهبت الاخرى التي كانت تعتقد بوجود الحياة بعد الموت إلى أنّها سبب للحرمان.

وقد جاء النهي الوارد في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث ليكون ردّا على التوهّم الاول، رافضا إطلاق تعبير «ميت» على الشهيد، فجميع الناس أحياء بعد الموت لا يخرج أيّ واحدٍ منهم عن إحدى حالين: فهم إمّا في حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنّة[1]، وليس لأيّ أحد موت بمعنى الفناء والزوال والانعدام، إلّا أنّ السرّ في ذكر الآية الشريفة لعدم الموت في مورد الشهيد دون غيره، إنّما هو من جهة التنبيه على أنّ للشهيد بعد الموت حياة أفضل من حياة غيره بكثير.

إطلاق كلمة «الموت» ليس من قبيل توقيفيّة الاسماء لكي لا يجوز لأحد مّا أن يستعمل هذه الكلمة في مورد الشهيد، فليس معنى الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث هو النهي عن استعمال مصطلح «أموات» والامر باستعمال مصطلح «أحياء»، فليس المعنى المراد هو: «لا تقولوا أموات بل قولوا أحياء»؛ إذ لم تبرز الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث أمرا باستعمال مصطلح خاصّ دون غيره من المصطلحات و الكلمات كما ورد بالنسبة إلى مصطلح ﴿رَاعِنَا﴾؛ حيث نهى عن استعماله لكي لا يقع المستعمل في مشكلة اتّهامه بإرادة المعنى السلبي الذي يحمله هذا المصطلح، وأمر في المقابل باستعمال مصطلح ﴿انظُرْنَا﴾[2]، ولكن، لما تحمله كلمة «أموات» في ذهن المخالفين من معنى مشوه ناقص، فقد نهى عن استعمال هذا المصطلح في قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ﴾.

---

١ . الكافي، ج٣، ص٢٤٢. بحار الانوار، ج٨، ص٣٠٩ و ٣١٨.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٠٤.




المقصود من هذه الآية الشريفة هو إيصال رسالة الكتاب الالهي الخاصّة في المقام، وهي أنّ الموت في ثقافة القرآن إنّما هو هجرة من الدنيا إلى الآخرة (البرزخ والقيامة) وليس فناء وزوالا أبدا، الموت هو الخلاص من عالم الدنيا والوصول إلى عالم آخر، فهو موت من جهة وولادة من جهة أخرى، وعليه، فإطلاق مصطلح «الموت» على الشهيد لا محذور فيه أبدا، والنهي عن استعمال هذا المصطلح في مورد الشهيد ـ في الحقيقة ـ إنّما هو محض إرشاد إلى فكرة صحيحة بالنسبة إلى حقيقة الموت، فالقول المنهيّ عنه في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث: ﴿وَلا تَقُولُوا...﴾ إنّما هو بمعنى المنطق، ليكون معنى الآية الشريفة، هو أنّ منطقكم وتفكيركم بالنسبة إلى الشهيد يجب ألّا يكون أن هؤلاء قد ماتوا، بل هم أحياء.

وفي آية شريفة اخرى، لم يقتصر الامر على النهي عن القول بأنّ الشهداء أموات، بل نهي عن الظنّ بأنّهم كذلك، قال عزّ من قائل: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أمواتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]. وفي هذه الآية الشريفة، نرى أنّ التوهّمين السابقي الذكر قد تمّ ردّهما ودفعهما.

وعلى أساس هذا النوع من الآيات الكريمة، فإنّ الشهيد لا يقتصر الامر فيه على عدم فنائه وزواله وعلى حياته كحياة الآخرين، بل يتعدّى الامر فيه ذلك ليصل إلى تمتّعه بحياة أفضل من حياة غيره، كما أنّه لا يقتصر الامر في الشهيد على عدم حرمانه بسبب الشهادة، بل يتعدّى ذلك أيضاً إلى تمتّعه بالحياة الخالدة الهنيئة والرزق الحَسَن عنده سبحانه وتعالى.

عبّر القرآن الكريم في بعض الآيات الكريمة عن المؤمنين بالاحياء وعن

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١٦٩.




الكافرين والمنافقين بالاموات، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الامواتُ﴾[١]. والسرّ في هذا التفاوت في التعبير، هو أنّ «الموت» يكون في بعض الاحيان بمعنى زوال الاثر الانسانيّ لا زوال الوجود، فإطلاق «الاموات» على الكافرين إنّما هو من جهة عدم أيّ أثر انسانيّ لهؤلاء، فالانسان ينمحي من الخواطر بعد الموت الطبيعي، فلا يكون له أيّ أثر في المجتمع وبين الناس، ما يوجّه ما صدر عن مريم عليها السلام كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾[٢].

نهي الآية الشريفة الّتي هي مورد البحث عن استعمال «أموات» بالنسبة إلى الشهداء هو ردّ على من يعتقد بأنّ هؤلاء قد زالوا وانمحوا من صفحة التأثير بموتهم، من الممكن أن يزول الآخرون بالموت فلا يكون لهم أيّ تأثير دنيوي بعده، وأمّا الشهيد ـ وهو الحي والمَثَل الافضل للآية الشريفة: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[٣] ـ فهو باق منشأ للأثر في جميع المجالات.

الحياة الفُضلى التي وصل إليها الشهيد بشهادته في سبيل الله وإعلاء كلمته تشمل الدنيا وتشمل البرزخ أيضاً، فهو حيّ منشأ للأثر الذي لا يعمّ بنوره وبركاته من تركهم في الدنيا من أحبّته وقرابته وأهل الدنيا فقط، بل يتّسع ليشمل الماضين وأهل البرزخ بالنور والروح والريحان، فيمتدّ شعاع البركة الذي يتمتّع به الشهيد ليعم جميع من دفن معه في تلك المقبرة إلى مدّة مديدة، كما جاء في زيارة شهداء كربلاء: «طبتم، وطابت الارض الّتي فيها دفنتم»[٤].

---

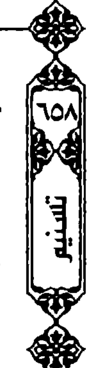
١ . سورة فاطر، الآية ٢٢.

٢ . سورة مريم، الآية ٢٣.

٣ . سورة مريم، الآية ٣١.

٤ . مصباح المتهجّد. مفاتيح الجنان، زيارة شهداء كربلاء.



## حقيقة الموت

الموت انتقال من نشأة إلى نشأة أخرى، ومن ينتقل إلى نشأة اخرى إمّا أن يكون مؤمنا صالحا أو كافرا طالحا، ومن هنا، نجد القرآن الكريم يصرّح بأنّ الكافرين والمنافقين يردون بالموت العذاب الالهي، وأمّا المؤمنون والشهداء منهم على الخصوص، فإنّهم يردون الحياة الفُضلى، وينالون الرزق الاحسن منه سبحانه وتعالى، بناء على هذا، فإنّه لا ينبغي توهّم أنّ من يقتل في سبيل الله قد زال وانتفى ولبس لباس الحرمان بموته ذاك.

«الموت» في ثقافة القرآن الكريم نحو انتقال إلى نشأة البرزخ، ونحوه الآخر «القتل»، ما يوجّه ما نجده في القرآن الكريم من المقابلة بين «الموت» و«القتل» كما في قوله تعالى: ﴿أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[1]، وقوله عزّ من قائل: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2]، كما نجده يتحدّث عمّن يهاجر بقصد الجهاد والثورة في سبيل الله ـ على الرغم من عدم الفرق في مجال التمتّع بالرزق الحسن بين «موت» هؤلاء أو«قتلهم» ـ فيقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً﴾[3]. فهؤلاء سواء أماتوا أم قتلوا فإنّ لهم الرزق الحسن من ربّهم.

الفرق بين الموت والقتل إنّما هو في اللحاظ؛ فإن كان الملحوظ العامل المؤدّي إلى زوال الحياة، فهو «القتل»، وأمّا إذا كان الملحوظ صرف زهاق الروح، فهو «الموت».

---

١ . سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٥٧.

٣ . سورة الحجّ، الآية ٥٨.

وقد نفى القرآن الكريم الموت بمعنى الزوال والانتفاء، وفي حالة إثبات الموت في بعض الآيات الكريمة وجعله مقابلا للحياة، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمُوْتَ وَالْحُيَاةَ﴾[1]، فإنّ المقصود منه في الحقيقة إنّما هو «الوفاة» لا الفوت، كما دلّت على ذلك بعض الآيات الشريفة؛ فقد دلّت على أنّ الموت إنّما هو توفّ ووفاة، كما في قوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[2]، وقوله عزّ من قائل: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[3]. هذا أولاً.

وأمّا ثانيا، فإنّ السرّ في التقابل السابق، إنّما هو من جهة أنّ الآخرين كانوا يريدون من «الموت» «عدم الحياة»، ما يوجّه جعلهم «الاموات» في مقابل «الاحياء»، فقد كانوا يطلقون على الشهداء لفظ «الاموات» أيضاً.

إنّ عنوان «الموت» بمعناه القرآني الصحيح من جملة القضاء الالهي المحتوم الذي يشمل الجميع بلا استثناء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[4]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[5]. حتى إنّ الرسول الخاتم ﷺ ـ وهو الانسان المعصوم الاكمل، ومن لا يصل إلى ما له من المقام الارفع أيّ شهيد على الرغم من عروجه الروحي ـ مشمول بعنوان الموت أيضاً؛ إذ يصحّ أن نقول بالنسبة إليه ﷺ: «مات»، كما جاء في الآية المباركة: ﴿أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾[6]، وكما جاء في

---

١ . سورة الملك، الآية ٢.
٢ . سورة الزمر، الآية ٤٢.
٣ . سورة الانعام، الآية ٦١.
٤ . سورة آل عمران، الآية ١٨٥.
٥ . سورة الانبياء، الآية ٣٢.
٦ . سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

الرواية المأثورة عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله: «والّذي نفسي بيده، لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه»[1].

## الحياة الفضلى للشهداء

القتل في سبيل الله سلوك إليه سبحانه وتعالى الجميل، وما عبّر عنه القرآن الحكيم بأنّه (في سبيل الله) له لوازم كثيرة، من قبيل أنّ الشهادة سير وسلوك لا زوال وجمود وركود، ومن قبيل أنّ الشهيد واصل لا محالة إلى مقصده؛ بعد كون سبيله تعالى هو السبيل المستقيم الذي لا تخلّف فيه ولا اختلاف، ومن قبيل أنّ الشهيد حيّ بلا أدنى شك؛ بعد كونه سالكا وكون حياته حياة طيبة لا نكدة لا محالة؛ إذ سبيله سبحانه وتعالى الجميل جميل قطعا، والسالك إنّما يسلك طريقا جميلا.

وسيأتي توضيح هذه المسألة إن شاء الله في تفسير الآية الشريفة: ﴿... وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أمواتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2].

الفرق بين الآية الّتي هي محلّ البحث وبين الآية الشريفة من سورة آل عمران المباركة من جهات متعددة، إحداها: التعبير بالمضارع: ﴿يُقْتَلْ﴾ في هذه الآية، بينما وقع التعبير بالماضي ﴿قُتِلُوا﴾ في آية سورة آل عمران، يعني: لا في مرحله الارسال إلى الجبهة يمكن اعتبار الشهادة فناءاً وزوالا وتبطئة، ولا في مرحلة ما بعد انتهاء الجهاد ووقوع بعض الشهداء يمكن اعتبارها كذلك.

والمغزى: أنّ الشهيد حيّ الآن حقيقة، لا أنّه يكون كذلك في المعاد لكي تكون الآية الّتي هي محلّ البحث نظير الآية الشريفة: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٥.

٢ . سورة آل عمران، الآية ١٦٩.



نَعِيمٍ...﴾[1] كما ذهب إليه البعض، كما أنّه ليس من الصحيح أنّ الشهيد إنّما هو حيّ من حيث الذكر ليس إلّا كما ذهب إليه بعض آخر، فذكر هؤلاء الشهداء وأسماؤهم حيّان، ولكن، إنّما ذلك من باب ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الاخِرِينَ﴾[2]، وهو ما يرافقه التأثير الحقيقي.

ويظهر من تفسير الطبري تمتّع الشهيد الآن برزق الجنّة، وأمّا الآخرون، فإنّما يتمتّعون بذلك في القيامة الكبرى[3].

كما ذهب البعض إلى أنّ للشهيد حياة ظاهرية على الرغم من أنّ بدنه قد تحلّل وتفسّخ، فعند هؤلاء، تكون جملة: ﴿... لا تَشْعُرُونَ﴾ نظير ما جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[4].

والاعتقاد السابق منشأه الخلط بين الحياة الدنيوية والحياة البرزخية، فإنّ للشهيد بدنا يتناسب مع ذلك العالم بدون أن يلزم محذور التناسخ، كما أنّ للآخرين بدنا يتناسب مع تلك النشأة حسب ما سيأتي من الاحاديث الشريفة في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

لا تقتصر الحياة بعد الموت على من قتل في سبيل الله تعالى، بل كلّ من يرحل عن هذه الدنيا مؤمنا ذا روح طيّبة طاهرة من الشرك والمعصية فهو حيّ قطعا، ويكون محلّا للتكريم الالهي عن طريق استقباله بواسطة الملائكة المكرّمين والمؤمنين الآخرين الذين سبقوه، ليحلّ في جنّته سبحانه وتعالى، قال عزّ من قائل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5].

---

١ . سورة الانفطار، الآية ١٣.

٢ . سورة الشعراء، الآية ٨٤.

٣ . جامع البيان، ج٢، ص٤٣.

٤ . سورة النمل، الآية ٨٨.

٥ . سورة النحل، الآية ٣٢.

ومع الالتفات إلى أنّ التكريم والرحمة إنّما يكونان في حال التوفّي، فإنّ المراد من الجنّة الواردة في هذه الآية الشريفة إنّما هو الجنّة البرزخية لا الجنّة الكبرى.

أصل حياة البدن البرزخي والروح أصل مشترك بين جميع الناس بمن فيهم المؤمنون المنعّمونَ والكافرون والمنافقون المعذبون، كما أنّ المؤمن يشارك الشهيد ويساويه من حيث أصل الحياة والتنعّم لا في درجتهما، فكلاهما حيّان متنعّمان، ولكنّ الشهيد له من الحياة وكيفية التنعّم ما ليس للمؤمن، فهو يتمتّع بحياة أفضل ونعمة أكبر.

طبيعيّ أنّ المقصود من المؤمن في كلامنا هنا هو من أدّى ما عليه من مسؤولية وتكليف، وأمّا من يتعمّد الابتعاد عن أرض المعركة وقت الحرب، فإنّ في تحقّق الايمان فيه والطيبة وكذا الطهارة حين الموت تأمّلاً.

يذكّر القرآن الكريم بما يتمتّع به الشهيد من رزق حَسَن، والتمتّع بهذا الرزق الحسن ممّا يصرّح به القرآن الكريم في موارد متعدّدة، لا سيّما بالنسبة إلى من ينصر دينه سبحانه وتعالى ويهاجر في سبيله لتحصيل المعارف الالهية، أعمّ من الحركة باتّجاه جبهات القتال، أو الحركة والهجرة العلمية، سواء أقتل هؤلاء في ذلك السبيل أم ماتوا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1].

من الممكن ألّا يطلق على بعض هؤلاء اصطلاح «الشهيد» فلا يكون حكمهم حكم الشهيد في بعض الموارد كالغسل والكفن، إلّا أنّ حكم جميع هؤلاء الكلاميّ بلحاظ أصل الاجر والتمتّع بالرزق الحسن على نحو واحد، على الرغم من الحفاظ على اختلاف الدرجة في المقام.

---

١ . سورة الحجّ، الآية ٥٨.

ليس لغير الشهيد ومن كان بحكمه من «الرزق الحَسَن» ما لهؤلاء؛ فإنّ الله سبحانه وتعالى خلال التذكير بنعمه المادية التي أنعم بها على خلقه يضمّن ذلك التذكير التحذير أيضاً بصورة مؤدّبة محترمة، ويذكر الانسان والحيوان جنبا إلى جنب خلال ذلك التذكير والتحذير فيجعلهما شريكين في التمتّع بتلك النعم، كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ**﴾[1]، وقوله عزّ من قائل: ﴿**أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ**﴾[2]، إلّا أنّه سبحانه وتعالى عندما يتعرّض إلى النعم المعنوية والاخروية التي أنعم بها لا يستعمل ذلك الاسلوب أبدا.

**إمكان إدراك حياة الشهداء**

يتعرّض سبحانه وتعالى في ختام الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث إلى مسألة عدم إدراك الانسان المسألة الدقيقة السابقة، وهي حياة الشهداء، فيقول: ﴿**... وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ**﴾[3].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿**لا تَشْعُرُونَ**﴾ ليس معناه استحالة فهم حياة الشهيد أو عدم إمكان التوجّه إليها، وإنّما معناه أنّ أكثر الناس ممّن لا يفهم ذلك ولا يدركه الادراك الصحيح، نظير ما جاء في مجال تسبيح جميع الموجودات في قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾[4]؛ فإنّ المقصود من هذه الآية الشريفة ليس هو استحالة إدراك تسبيح الموجودات، وإنّما

---

١ . سورة طه، الآيات ٥٣ ـ ٥٤.

٢ . سورة النازعات، الآيات ٣١ ـ ٣٣.

٣ . يقال لإدراك المسألة الدقيقة التي تشبه الشعرة في دقّتها: «شعور»، والتي أصلها «الشَعْر».

٤ . سورة الاسراء، الآية ٤٤.

المقصود هو أنّ أكثر الناس لا يعلمون بذلك، وإلّا، فإنّ الاوحديّ من الناس لا يقتصر الامر فيه على علمه بذلك التسبيح، بل يتعدّى الامر ذلك إلى حالة سماع ذلك التسبيح من تلك الموجودات.

كذلك الحال بالنسبة إلى حياة الشهداء التي يقول سبحانه وتعالى فيها: ﴿... **وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ**﴾، فإنّ أكثر الناس لا يعلم بذلك، وأمّا الاولياء الالهيّون، فإنّهم واقفون تمام الوقوف على حياة أولئك، شاهدون على تلك الحقيقة التي تخفى على الكثير من الافراد.

**نكتة:** ذهب البعض إلى أنّ خرق العادة هو خرق للعليّة، وخلاف للمتعارف وغير المعقول، وأنّ ما نقل في حقّ بعض الشهداء من سيلان الدم ممّا تعصبوا به وشدوا به جراحهم بعد إزالتها بعد مدّة مديدة من الدفن هو محض خرافة[1].

وخطأ هذا الكلام ينشأ من خلطه بين ما كان مستحيلا وبين ما كان مستبعدا، وعلى فرض صحّة النقل، فإنّ ما نقل من قضية لا يستلزم أيّ محذور عقلي، وأمّا إذا لم يكن نقل معتبراً، فالامر خرافة وسفاسف لا أكثر.

## دلالةُ الآية على البرزخ

تدلّ الآية الكريمة الّتي هي محلّ البحث على الحياة البرزخية للشهيد، النشأة الوسطى بين عالمي الدنيا والقيامة الكبرى، قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ برزخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[2].

---

١ . روح المعاني، ج٢، ص٣٢.

٢ . سورة المؤمنون، الآيات ٩٩ ـ ١٠٠.

ويعبّر عن عالم البرزخ بعنوان «عالَم القبر»، كما جاء في جواب الامام الصادق عليه‌السلام عن حقيقة البرزخ حيث قال: «القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة»[١]، فإنّه ليس للإنسان أكثر من ثلاث مراحل: الدنيا، والبرزخ، والقيامة، فجميع ما جاء عن عالم القبر فإنّه يرجع إلى عالم البرزخ، ولن يخلو إنسان عن القبر وسؤاله وأحكامه، بلا فرق بين أن يموت الانسان في الجوّ أم في البرّ أم في البحر.

ليس البرزخ أمرا عدميا لكي ينعدم الانسان ولو في مقطع محدود بعد الدنيا، ولو كان البرزخ أمرا عدميا، لما وجد البرزخ من الاساس؛ فإنّ البرزخ حالة متوسّطة بين أمرين وجوديّين، ولو كان بين أمرين وجوديّن عدم لا وجود، لما كان له ارتباط بأيّ واحدٍ منهما، كما أنّه لن يكون له حكم شيء، ولما قيل له «برزخ»، بناء على هذا، فالانسان بالموت ينتقل من نشأة الدنيا إلى نشأة البرزخ، ويكون حيّا في تلك النشأة إلى القيامة الكبرى.

## إشارات ولطائف

### ١ ـ عقيدة المنافقين في الشهادة والحياة البرزخية

في صدر الاسلام، على أثر إصرار القرآن الحكيم وتبيين الرسول الاكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله المستمرّ، صارت مسألة «المعاد» من المسائل الواضحة عند الجميع، وكانت مورد قبول واعتقاد المؤمنين، إلّا أنّ الامر لم يكن كذلك بالنسبة إلى «الحياة البرزخية»، وهذا جعلها موردا للسؤال من قبل ضعيفي الايمان، والمعتقدين بأنّ الانسان يزول بالموت زوالا موقّتا ليعود إلى الحياة في المعاد، وكذا الحال بالنسبة إلى من كان يعتقد بالمعاد ولكنّه كان يعتقد في الوقت نفسه بأنّ

---

١ . الكافي، ج٣، ص٢٤٢.

الحياة البرزخية حياة خالية من الفائدة، وبأنّ الشهادة نوع من الحرمان، كما أنّ الكافرين والمنافقين كانوا يتوهّمون أنّ القتل في سبيل الله محض زوال وانتفاء.

توهّم «الزوال» أو «الحرمان» بالنسبة إلى الموت كان سببا في اعتراض هؤلاء أنفسهم قبل المعركة بالنسبة إلى عدم نزول وحي جديد وتوجيهات جديدة في ما يرجع إلى الحرب، وبمجرّد أن ينزل الوحي بسورة محكمة يذكر فيها القتال، كانوا ينظرون إلى النبيّ ﷺ نظر المغشيّ عليه من الموت، كما جاء في الآية الشريفة: **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾**[١].

على هذا الاساس، كان هؤلاء من المبطّئين زمان إرسال المقاتلين إلى جبهة القتال وحركتهم إليها، كما ذكر ذلك القرآن الكريم بقوله: **﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾**[٢].

وما يشابه الجملة الختامية للآية الكريمة الاخيرة ورد في بعض الزيارات أيضاً[٣]. وعن طريق المعيار المذكور، يمكن للزائرين أن يقيسوا مقدار إخلاصهم أو شدّة إيمانهم أو نفاقهم.

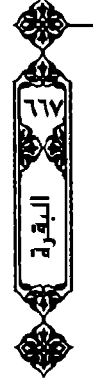
وقد ورد اعتقاد المنافقين بالنسبة إلى الايثار بالنفس والشهادة، ذلك الاعتقاد الناشئ عن توهّم هؤلاء بالنسبة إلى الموت، وكذا جوابه سبحانه وتعالى على ذلك

---

١ . سورة محمد ﷺ، الآية ٢٠.

٢ . سورة النساء، الآيات ٧٢ ـ ٧٣.

٣ . بحار الانوار، ج٤٤، ص٢٩٩.




التوهّم في آيات كريمة أخرى، من قبيل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾[1]، وقوله عزّ من قائل: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2].

وطبقا لهذه الآيات المباركة، فإنّ الانسان لا يزول بالموت والشهادة، وإنّما هو في سبيله إلى ربّه تعالى، كما أنّه لا يمكن القول بأنّ الشخص لو لم ينفر في سبيل الله ولم يذهب إلى الجبهة يمكن أن يدفع الموت عن نفسه ويبقى حيّا؛ فإنّ موت الافراد ـ أعم من الشيخ والشابّ ـ خلف الجبهات وبعيدا عنها ليس بأقل منه في الجبهة والحرب.

وقد دعا القرآن الكريم هذا النوع من الاشخاص إلى تصحيح عقائدهم على أساس من رؤية صحيحة للعالم والمعرفة.

## ٢ ـ تحليل وهم في مجال فدائية المؤثرين

يعتقد المنكرون للمعاد وأصل الحياة بعد الموت بأنّ الانسان يزول وينعدم

---

١ . سورة آل عمران، الآيات ١٥٦ ـ ١٥٧.

٢ . سورة آل عمران، الآيات ١٦٧ ـ ١٦٨.




بالموت، وأنّ الشهيد إنّما يفني نفسه بشهادته، إلّا أنّ هؤلاء في الوقت نفسه لا يمكنهم أن ينكروا فضيلة أن يقدم الانسان نفسه في سبيل نجاة الآخرين، ولهذا وذاك، ومن أجل تقديم تحليل من قبل هؤلاء يقوم على أساس ما يحملونه من رؤية خاصّة، وبما يخلّصهم من إشكال عدم عقلانيّة الفناء من أجل الآخرين ورفاههم، وعلى أساس مسألة قائمة على التوهّم، كانوا يقولون بأنّ «أسماء هؤلاء ستبقى خالدة في التاريخ».

بقاء الاسم في التاريخ مجرّد وهم ليس إلّا، فإنّ الاسم ليس أكثر من وجود لفظي أو كتبي أو وجود ذهني في الخواطر، وليس إلّا اعتبارا وتعهدا لا أثر له أبدا بالنسبة إلى ميت يعتقد أصحاب تلك العقيدة بأنّه زال وانمحى.

ولو كان الامر كما يعتقدون، وأنّ الانسان ينعدم بالموت، فإنّ جعل الاسم للشيء المعدوم أو ذكر اسمه بالخير أو الشرّ ليس له أيّ أثر بالنسبة إليه ولا لذة؛ إذ كما أنّ المعدوم محض عدم الاثر، فإنّه لا أثر يصل إليه أيضاً.

ليس هناك أيّ إنسان يعتقد بزواله أو يقبل به، كما أنّ الاحرار إنّما يشغل الآخرون تفكيرهم بهم من جهة اعتقادهم على أساس من فطرتهم بأنّهم مخلوقات غير قابلة للفناء، الفطرة التي تنكرها المدارس الالحادية، فيحّرفون الكتاب التكويني عن مسيره الصحيح.

### ٣ـ الموت من وجهة نظر الاولياء الالهيين

لو كان المنافقون قد وصلوا إلى حقيقة أنّ الموت ليس فناءاً وأنّ الشهادة ليست حرمانا، وإنّما هي إنتقال إلى حياة أفضل بعد عدم وجود عالم أخسّ من عالم الدنيا وأحطّ وهي أدنى من العدم، لتغيّرت رؤيتهم بالكامل، ولوصلت الحالة بهم إلى ما وصف به أمير المؤمنين عليه السلام المتّقين بقوله: «لولا الأجل الذي

كتب الله عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين»[١]، كما أنّه عليه السلام يقول في حقّ نفسه: «والله، لاَبن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمّه»[٢]، وفي ليلة التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة النبويّة الشريفة، كان عليه السلام ينظر إلى السماء بفارغ الصبر منتظرا يومه الموعود قائلا: «والله ما كذبتُ ولا كُذّبت، وإنّما الليلة التي وُعدتُ بها»[٣].

الشوق إلى الموت الذي نراه عند أمير المؤمنين وعند الاولياء الالهيين عليهم السلام يدعوهم إلى النشاط والفعالية؛ فإنّ كلّ مولّى عليه يكون على غاية الشوق لرؤية وليّه ولقائه، كما أنّ الموت بعين المؤمن إنّما هو وسيلة ارتباط بينه وبين مولاه، ليزداد بذلك فيضا منه، ومن هنا، نجد القرآن الكريم يعرض تمنّي الموت علامة على الولاية الحقيقية، فيقول عزّ من قائل: **﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الاخِرَةُ عِنْدَ الله خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[٤]، ويقول عزّ وجلّ: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لله مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[٥].

## ٤ـ التوفّي لا الفوت

للإنسان وفاة لا فوت. «التاء» في كلمة «فوت» جزء من الكلمة خلافا لها في كلمة «وفاة»، وفي حالة إطلاق الفوت في الحديث أو الدعاء على الموت، من قبيل: «اللّهمّ ارزقني التجافي عن دار الغرور، والانابة إلي دار الخلود،

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.
٢ . المصدر السابق، الخطبة ٥.
٣ . بحار الانوار، ج٤٢، ص٢٢٦.
٤ . سورة البقرة، الآية ٩٤.
٥ . سورة الجمعة، الآية ٦.




والاستعداد للموت قبل حلول الفوت»[١]، فإنّ المقصود من الفوت حينئذ هو خسارة الفرصة بسبب الموت، وليس بلحاظ المعنى الجامع للموت الذي يرافقه الانتقال إلى البرزخ.

المادّة الاصلية لكلمة وفاة هي: «وفا». والوفاء والاستيفاء والتوفّي هي الاخذ التامّ، كما لو أخذ شخص ما حقّه كاملا غير منقوص، فإنّه يقال حينئذ: «استوفى حقّه»، وكذا لو بيّن مسألة مّا بها لا مزيد عليه، فيقال حينئذ: «بيّن المسألة بشكل واف».

تنتقل حقيقة الانسان بالموت إلى عالم آخر لا تكون فيه متلاشية منتشرة، فلا يبقى منه أيّ شيء في عالم الطبيعة ولا ينتفي أو يزول، وعليه، فالانسان متوفّى بفتح الفاء اسم المفعول والله سبحانه وتعالى والملائكة هو المتوفّي بكسر الفاء إسم فاعلٍ.

وعلى هذا الاساس، فما يدلّ من الآيات على توفّي الانسان تعتبر شاهدة على الحياة بعد الموت، المسألة التي تشمل الجميع ببركة إطلاق آيات من قبيل قوله تعالى في الآية الشريفة: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الاَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٢] وما شابهها، ولا يختصّ ذلك بالمؤمن أو بالكافر دون غيرهما.

كما جاء التعبير بالتوفّي في جوابه سبحانه وتعالى الكافرين الذين كانوا يذهبون إلى أنّ الموت «تيه في الارض وضلال» أيضاً، والمقصود بقولهم ذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾[٣]، هو انتشار ذرّات بدن الانسان في الارض بالموت فلا يبقى أثر للحياة فيه، ما يعني أنّ الموت عند هؤلاء فناء وزوال لا خبر بعده.

---

١. **بحار الانوار**، ج٩٥، ص٦٣. **مفاتيح الجنان**، أعمال الليلة السابعة والعشرين من شهر رمضان المبارك.

٢. **سورة الزمر**، الآية ٤٢.

٣. **سورة السجدة**، الآية ١٠.




وأمّا جوابه سبحانه وتعالى على هؤلاء، فهو أنّ الموت توفّ ووفاة لا ضلال في الارض كما زعموا وفناء، فالانسان بالموت لا هو يفنى بالمرّة ولا يبقى من حقيقته شيء فيها، بل يتوفّى ملك الموت تمام حقيقة الانسان، لترد تلك الحقيقة عالم البرزخ، قال عزّ من قائل: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[١].

## ٥ ـ حياة الانسان في المقاطع الثلاثة

لا يهدأ الانسان لحظة من لحظات سيره من أوّله إلى نيل لقائه سبحانه وتعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الانسان إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[٢].

وفي هذا السير، ليس هناك لحظة من لحظات العدم بين المتحرّك والهدف الذي يسعى إلى الوصول إليه لكي يفنى الانسان في تلك اللحظة.

وللإنسان في هذا السفر الطويل ثلاثة مقاطع مهمّة حسّاسة يجب أن يطويها، وهي: الورود إلى الدنيا، الورود إلى البرزخ، والعبور من البرزخ إلى القيامة.

وقد وفّر سبحانه وتعالى لحضرة عيسى ويحيى عليهما السلام السلامة في هذه المقاطع والمواطن الثلاثة، نسمعه سبحانه وتعالى يقول بهذا الصدد: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾[٣]، كما ينقل سبحانه وتعالى على لسان عيسى المسيح عليه السلام قوله: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[٤].

ويعبّر سبحانه وتعالى في ما يرجع إلى يحيى عليه السلام على الرغم من كونه شهيدا

---

١. سورة السجدة، الآيات ١٠ ـ ١١.

٢. سورة الانشقاق، الآية ٦.

٣. سورة مريم، الآية ١٥.

٤. سورة مريم، الآية ٣٣.





بقوله: ﴿يَوْمَ يَمُوتُ﴾، بناء على هذا، فالمقصود من قوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ يَمُوتُ﴾، هو يوم الانتقال من نشأة الدنيا إلى عالم البرزخ.

طبقا للآيات المذكورة، النبيّان العظيمان كانا يتمتّعان بالسلامة الكاملة في المقاطع الثلاثة المشار إليها، وبعبارة أخرى: النبيّ يحيى عليه السلام عندما توفّي لم يقتصر على كونه حيّا، بل كان إضافة على ذلك سالما، والحال أنّ الموت لا يتلاءم مع السلامة الظاهرية؛ فإنّ العلّة الطبيعية لموت الانسان هي تفسّخ البدن ومرضه وما شابه.

السلامة وصف من أوصاف الموجود الحيّ، وأمّا الانسان الميت، فإنّه ليس سالما ولا مريضا، كما أنّه لا عالما ولا جاهلا، المرض والسلامة من قبيل العدم والملكة ومقسمهما الموجود الحي، كما أنّ مقسم العلم والجهل هو الانسان الحي.

بناء على ما مضى، فسلامة حضرة يحيى عليه السلام حال الموت لا تعني إلّا كونه عليه السلام يوم وفاته حيا ـ قطعا ـ ومنزّها من كلّ الآفات الروحية مبرّأ منها.

ليس الموت زوالا وفناء محضا، يمكن أن يكون الموت في بعض الاحيان ـ طبعا ـ بمعنى زوال الحياة الدينية بعد كون القرآن عاملا واهبا للحياة كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1]، ومن يكون فاقدا لهذه الحياة الوَحْيانية فهو ميّت بلا شك، كما أنّه إذا لم يكن يتمتّع بذلك الكمال، فإنّه على الرغم من كونه حيّا، إلّا أنّه مع ذلك ضعيف أو مريض كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

من هنا، نرى أنّ القرآن الكريم يجعل الفرد الميّت في مقابل الانسان السالم والانسان المريض، فالمؤمن المتّقي حيّ سالم، وأمّا الانسان ضعيف الايمان، فهو

---

١ . سورة الانفال، الآية ٢٤.




حيّ مريض، وأمّا الكافرون والمنافقون، فيؤكّد القرآن الكريم على كونهم: ﴿أموات غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾[1].

### ٦. حياة الكافرين بعد الموت

يرغّب القرآن الكريم الانسان في تحصيل حياة طوبى، الحياة التي لا تحصّل بالكفر والنفاق، فالكافر والمنافق مبتليان في الدنيا بالهلاك: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[2]، كما أنّهما يحلّان نفسيهما بعد الموت دار البوار والهلاك بما صنعا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ الله كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[3]، و«البوار» بمعنى «الهلاك»، كما أنّ «البائر» بمعنى «الهالك»، وبهذه المناسبة يقال للأرض أحيانا: «أرض بائرة».

ومعنى هلاك الكافرين هو عدم نيلهم للسعادة ولحياة طوبى الفُضلى، وابتلاؤهم بالجحيم في البرزخ والقيامة، لا أنّهم يموتون في جهنم ويفنون. ولو كان الموت فناءاً أو كانت جهنّم بدلا عن الموت، لما تعذّب هؤلاء بالموت، ولكنّهم في جهنّم يتمنّون الموت، قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[4]، فيأتيهم الجواب بأنّ المكان ليس مكان موت: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[5].

وعلى هذا الاساس، فإنّ جميع الآيات التي تتعرّض لتعذيب الكافرين والمنافقين تدلّ على كونهم أحياءاً بعد الموت؛ إذ لو كان الانسان يفنى بمجرّد الموت فلا يبقى منه إلّا البدن البارد، لما كان يتأذّى بالحرق.

---

١ . سورة النحل، الآية ٢١.

٢ . سورة الانفال، الآية ٤٢.

٣ . سورة إبراهيم، الآيات ٢٨ ـ ٢٩.

٤و٥ . سورة الزخرف، الآية ٧٧.

وعلى أساس بعض الآيات الشريفة، فإنّ ملائكة الموت تضرب وُجوه الكافرين والمنافقين حين قبض أرواحهم، قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[1]، وقال عزّ من قائل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[2].

وقد ذكر بعض الاكابر أنّ السرّ في ما جاء في القرآن الكريم من الضرب على الوجوه والظهور، هو أنّ مجموعة من الملائكة هي مدبّرات الامر، فهي موكّلة بالدنيا، كما أنّ مجموعة أخرى موكّلة بالآخرة، فترى المجموعة الاولى عمر الانسان المجرم قد انقضى بدون أن يقدّم شيئا لسعادته، ولهذا، يضربون ظهره ليخرجوه رغم إرادته من نشأة الدنيا.

وأمّا ملائكة الآخرة، فإنّها ترى ذلك المجرم وقد ورد نشأة الآخرة بيدين خاليتين، فيضربون وجهه لما قضاه من عمر بدون عمل يقدّمه لهذا اليوم[3].

والانسان المجرم بين هذين الضربين يعاني الضغط والعذاب، وأحد مظاهر ضغطة القبر التي يتعرّض إليها المجرم هو هذا الضرب بنفسه؛ فإنّ القبر في الاصطلاح الكلامي هو ذلك البرزخ وليس القبر المصطلح في الفقه، الذي هو موجود طبيعيّ ذو آثار فقهية.

ولو كان الموت بمعنى الفناء، لكان الضرب بالنسبة إلى أمر معدوم وجسم ليس ذي تأثير ولا يحس بأيّ عذاب عملا لغوا ليس له أيّ معنى، وبعبارة أخرى: ضرب وجرح البدن الميّت البارد لا يعتبرانِ تعذيبينِ مهما بلغا من الشدة؛ إذ إنّ الانسان على فرض فنائه بالموت فإنّه لن يتأذّى أبدا بذلك الضرب.

---

١ . سورة الانفال، الآية ٥٠.

٢ . سورة محمد ﷺ، الآية ٢٧.

٣ . شذرات المعارف، ص٦٤.

إنّ من جملة علائم الحياة بعد الموت بالنسبة إلى الكافرين تسليم هؤلاء حين الموت للملائكة الموكّلين بقبض أرواحهم، وادّعائهم بأنّهم لم يقدموا على أيّ عمل سوء، ليأتيهم الردّ القاصم من قبل تلك الملائكة بالامر بورود أبواب جهنّم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**﴾[1].

إنّ التسليم والانكار والجواب الوُرّادَ في الآية الشريفة المزبورة، هي من أمور الموجود الحيّ، والتطرّق إلى مثل هذه الامور في القرآن الكريم بالنسبة إلى الاموات، لهو خير شاهد على حياة هؤلاء بعد الموت، كما أنّ مشاهدة الملائكة والأذى الذي يلاقيه الظالمون لأنفسهم، يشهدان بأنّ الامور المذكورة في الآية الشريفة، وكذا الضرب الذي ذكرناه سابقا، إنّما كان حال الوفاة وفي نشأة البرزخ؛ فإنّ الانسان يرى الملائكة في هاتين الحالين لا قبلهما، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ**﴾[2].

وعلى هذا الاساس، فإنّ الكافرين والمنافقين لا يقتصر الامر فيهم على حياتهم بعد الموت، بل يتعدّى ذلك إلى ورودهم بمجرّد الموت إلى جهنّم البرزخ يتعذّبون فيها، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى في قوم نوح: ﴿**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً**﴾[3]. فإنّ استعمال «الفاء» الّذي يدلّ على الترتيب باتصال بالمعطوف عليه السابق بدلا عن «ثمّ» الّذي يدلّ على الترتيب بانفصالٍ عن المعطوف عليه السابق في قوله عزّ من قائل: ﴿**فَأُدْخِلُوا نَاراً**﴾ يدلّ على أنّ قوم

---

١ . سورة النحل، الآيات ٢٨ ـ ٢٩.

٢ . سورة الفرقان، الآية ٢٢.

٣ . سورة نوح، الآية ٢٥.





نوح قد أدخلوا جهنّم بمجرّد موتهم لا بعد ذلك بمدة؛ فإنّ نار البرزخ موجودة حتى في الماء.

الشاهد الآخر على الحياة البرزخية هو ما جرى بالنسبة إلى الفراعنة وقومهم، من عرضهم على النار البرزخية غدوّا وعشيّا لا عرض النار عليهم كذلك، كما أنهم يعذّبون يوم القيامة أشدّ العذاب، قال تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾[1].

الشاهد على كون العذاب السابق برزخيّا هو قوله تعالى: ﴿**غُدُوّاً وَعَشِيّاً**﴾؛ إذ لا وجود للغدوة والعشيّة في يوم القيامة الكبرى، كما أنّ هناك شاهدا آخر على ما ادّعيناه من برزخيّة العذاب السابق، وهو جعل العذاب بالعرض على النار في الآية الكريمة في مقابل عذاب الدخول إلى جهنّم يوم القيامة.

## البحث الروائي

### الحياة البرزخية للمؤمن والمعاند

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيّام الدنيا وأول يوم من أيّام الآخرة مثّل له ماله وولده وعمله، فيلتفت إلى ماله، فيقول: والله إنّي كنت عليك لحريصاً شحيحاً، فما [لي] عندك؟ فيقول: خذ منّي كفنك. ثمّ يلتفت إلى ولده، فيقول: والله إنّي كنت لكم لمحبّاً، وإنّي كنت عليكم لحامياً، فماذا [لي] عندكم؟ فيقولون: نُؤدّيك إلى حُفرتك ونواريك فيها. ثمّ يلتفت إلى عمله، فيقول: والله إنّي كنت فيك لزاهداً، وإنّك كنت عليّ لثقيلاً، فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم حشرك حتّى أعرض أنا وأنت على ربّك. فإن كان لله وليّاً، أتاه أطيب النّاس ريحاً وأحسنهم منظراً وأزينهم رياشاً، فيقول: أبشر بروحٍ**

---

١ . سورة غافر، الآية ٤٦.



من الله وريحانٍ وجنّة نعيم، قد قدمت خير مقدم، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، ارتحلْ من الدّنيا إلى الجنّة.

وإنّه ليعرف غاسله، ويناشد حامله أن يُعجّله. فإذا أدخل قبره، أتاه مَلَكان، وهما فتّانا القبر، يجرّان أشعارهما، وينحتان الارض بأنيابهما، وأصواتهما كالرعد العاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيقولان له: مَنْ ربّك؟ ومَنْ نبيّك؟ وما دينك؟[1] فيقول: الله ربّي، ومحمّد نبيّي، والاسلام ديني، فيقولان: ثبّتك الله بما تحبّ وترضى، وهو قول الله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾[2]، فيفسحان في قبره مدّ بصره، ويفتحان له باباً إلى الجنّة، ويقولان له: نَم قرير العين نوم الشابّ الناعم، وهو قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[3].

و إذا كان لربّه عدوّاً، فإنّه يأتيه أقبح خلق الله رياشاً وأنتنه ريحاً، فيقول له: من أنت؟ فيقول له: أنا عملك، أبشِر بنُزلٍ من حميمٍ وتَصلية جحيم[4]، وإنّه ليعرف غاسله، ويناشد حامله أن يحبسه، فإذا أدخل قبره، أتياه مفتحيا [خ ل ممتحناً] القبر، فألقيا [خ ل فألفيا عنه] أكفانه، ثمّ قالا له: مَنْ ربّك؟ ومن نبيّك؟ وما دينك؟ فيقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت ولاهديت، فيضربانه بمرزبة ضربة ما خلق الله دابّة إلّا وتذعر لها ما خلا الثقلين. ثمّ يفتحان له باباً إلى النار، ثمّ يقولان له: نَم بِشَرّ حالٍ، فهو من الضيق مثل ما فيه القنا من الزُجّ، حتى أنّ

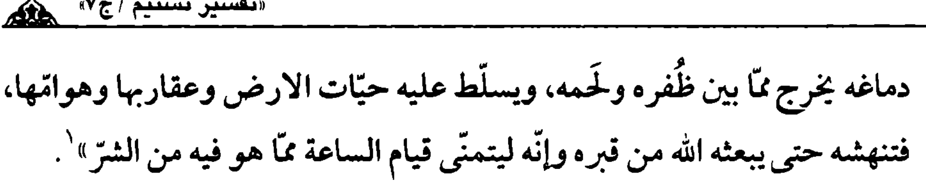
---

١ . وطبقا لبعض النسخ: «من إمامك؟». وفي هذه النسخة جاء بعد: «الاسلام ديني»: «وعليّ عليه السلام والائمّة إمامي».

٢ . سورة إبراهيم، الآية ٢٧.

٣ . سورة الفرقان، الآية ٢٤.

٤ . سورة الواقعة، الآيات ٩٢ ـ ٩٤: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾.







دماغه يخرج ممّا بين ظُفره ولَحمه، ويسلّط عليه حيّات الارض وعقاربها وهوامّها، فتنهشه حتى يبعثه الله من قبره وإنّه ليتمنّى قيام الساعة ممّا هو فيه من الشرّ»[1].

ـ عن ابن ظبيان قال: «كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فقال: «ما يقول النّاس في أرواح المؤمنين بعد موتهم؟ قلت: يقولون: في حواصل طيورٍ خُضْرٍ. فقال: سبحان الله، المؤمن أكرم على الله من ذلك، إذا كان ذلك أتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، ومعهم ملائكة الله عزّ وجلّ المقرّبون، فإن أنطق الله لسانَه بالشهادة له بالتوحيد وللنبي صلى الله عليه وآله بالنبوّة والولاية لأهل البيت، شهد على ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام والملائكة المقرّبون معهم، وإن اعتقل لسانه، خصّ الله نبيّه صلى الله عليه وآله يعلم ما في قلبه من ذلك، فشهد به وشهد على شهادة النبيّ علي وفاطمة والحسن والحسين ـ على جماعتهم من الله أفضل السلام ـ ومن حضر معهم من الملائكة، فإذا قبضه الله إليه، صيّر تلك الروح إلى الجنّة في صورة كصورته، فيأكلون ويشربون، فإذا قدم عليهم القادم، عرفهم بتلك الصورة الّتي كانت في الدّنيا»[2].

ـ عن حماد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ذكر الارواح، أرواح المؤمنين»، فقال: «يلتقون». قلت: يلتقون؟ قال: «نعم، ويتساءلون ويتعارفون حتّى إذا رأيتَه قلتَ: فُلان»[3].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ المؤمن ليزور أهله، فيرى ما يحبّ ويستر عنه ما يكره، وإنّ الكافر ليزور أهله، فيرى ما يكره ويستر عنه ما يحبّ». قال: ومنهم من يزور كلّ جمعة، ومنهم من يزور على قدر عمله[4].

---

١ . تفسير القمي، ج١، ص٣٦٩ ـ ٣٧١.

٢ . بحار الانوار، ج٦، ص٢٢٩.

٣ . المصدر السابق، ص٢٣٤.

٤ . الكافي، ج٣، ص٢٣٠.




ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ الارواح في صفة الاجساد في شجرة في الجنّة، تعارف وتساءل، فإذا قدمت الروح على الارواح، يقول: دعوها فإنّها قد أفلتت من هوْلٍ عظيم، ثمّ يسألونها: ما فعل فُلان؟ وما فعل فُلان؟ فإن قالت لهم: تركته حيّاً، اِرْتجوه، وإن قالت لهم: قد هلك، قالوا: قد هوى هوى»[١].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، إنّي راغب في الجهاد نشيط، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: فجاهد في سبيل الله، فإنّك إن تقتل، تكن حيّاً عند الله ترزق، وإن تمت، فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت، رجعت من الذنوب كما ولدت...»[٢].

إشارات: أ ـ تتشابه أحوال المحتضر ـ وأحوال من مات وورد البرزخ وأحوال من ورد القيامة الكبرى من البرزخ، إلّا أنّ هناك فرقا بينها أيضاً؛ فإنّ بعضا منها تمثّل، كما أنّ بعضها الآخر له وجود مثالي، وبعضها الثالث له نحو آخر.

وفي جميع تلك الاحوال تكون شخصيّة كلّ فرد محفوظة، وعليه، فلو ورد في الرواية تعبير: «في صورةٍ كصورته»[٣]، فإنّ ذلك لا يتنافى أبدا مع عينيّة ذلك الفرد؛ إذ بعد وضوح معيار العينيّة، سيكون من الواضح أنّ كلّ شخص سيطوي المراحل الثلاث: الدنيا، والبرزخ، والقيامة مع حفظ الوحدة والعينيّة.

ب ـ إنّ التمثّل الحقيقي الموجود في داخل الشخص (المثال المتّصل) أو خارجه (المثال المنفصل) يختلف عن لسان الحال الذي يعتبر رسما من مخيّلة الانسان لا واقعا وجوديا. وما جاء في هذه الاحاديث هو من سنخ التمثّل الذي

---

١ . الكافي، ج٣، ص٢٤٤.

٢ . المصدر السابق، ج٢، ص١٦٠.

٣ . بحار الانوار، ج٦، ص٢٢٩.

له واقعيّة عينيّة، سواء أكان في حيطة نفس وجود الشخص (المثال المتّصل)، أم كان خارج تلك الحيطة (المثال المنفصل)، ولا يمكن أبدا اعتبار مضمون الاحاديث المزبورة من سنخ لسان الحال، وبناء على هذا، يكون كلام المال والولد والعمل كلاما حقيقيا لا تشبيهيا بلسان الحال.

ج ـ ما ورد بالنسبة إلى عذاب البرزخ أو نعمه بحيث يظهر منه المبالغة، هو في الحقيقة بيان لباطن أعمال الانسان، فمثلا: باطن الالحاد، والشرك، والكفر، والنفاق، وإراقة الدم وعدم احترامه، هو ظهورها على صورة عذاب برزخي، وليس الفساد والظلم بأقل ممّا ورد في الروايات أبدا، فلا إغراق ولا مبالغة ولا تشديد من قبل المدبّرات البرزخية أبدا.

* * *

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾

## التفسير المختار

يسهم الابتلاء والامتحان والاختبار في ازدهار قابليّات الانسان وطاقاته وتفتّحها، ويخرج قابليّاته وكمالاته من القوّة إلى الفعل، وتختلف الابتلاءات باختلاف القابليّات والكمالات، وعند الابتلاء بالمصاعب والمشاكل الذي ورد في الآية الشريفة يعرف الصابرون، وعند الامتحان بهناء العيش ورغده يتميّز الشاكرون.

تأكيد الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث ونظائرها على حتميّة الامتحان والابتلاء شاهد على عدم خلاص أيّ فرد من الافراد من الابتلاء الالهي.

الآية الشريفة موردها الابتلاء قبل الفتح والنصر، والمقصود من الابتلاء بالخوف والجوع الوارد فيها، هو الابتلاء بعدم الامن من الناحية الاقتصادية.

والمقصود من «النقص» الوارد في الآية الشريفة أمر غير العدم؛ إذ قد يبتلى الانسان بعدم المال من الاساس، كما أنّه قد يبتلى بالنقص من هذه الناحية، وأمّا التعبير بـ «بشيء» الوارد في الآية الكريمة، فهو إشارة إلى القلّة، وإلى أنّ الابتلاءات أمور مقطعيّة موقّتة.

ويعتبر القتل في سبيل الله تعالى ـ وكذا الموت العادي ـ من جملة مصاديق ﴿نقصِ النفس﴾.





والمقصود بالثمر في ﴿نقصِ الثمر﴾، الجامع بين المنافع الاقتصادية، أعمّ من أن تكون تلك المنافع زراعيّة أو...، والمنافع العاطفيّة من قبيل الاولاد.

عدم ذكر متعلّق التبشير وما بشّر به الصابرون، إنّما هو من جهة الارشاد إلى أهميّة ذلك وسعته؛ فإنّ ثواب الصابرين لا يقبل العد.



**تفسير المفردات**

**لنبلونّكم**: هذا الفعل من أصل «بلو» بمعنى الامتحان والاختبار، ولا يتّفق اللغويون بخصوص أصل «البلاء» ومعناه؛ فقد ذهب البعض إلى أنّ «بلَو» و«بِلي» هما أصلان ومعنيان مختلفان، فإنّ «بلَو» من باب (فعَل ـ يفعُل) بوزان نَصَر ينصُر بمعنى الامتحان والاختبار، وجميع الكلمات المشتركة مع هذه الكلمة في الاشتقاق، من قبيل بلاء، وبلاء، وبَلْوى، وبليّة، وإبلاء، وابتلاء بهذا المعنى، وأمّا «بَلِي»، فهو من باب (فعِل ـ يفعَل) بوزان فرِح يفرَح بمعنى الخلق (صار الثوب خلقا، أي: قديما)، والبِلا (مكسور ومقصور)، وبَلاء (مفتوح وممدود)، و«بالٍ» من هذا الاصل، و«بِلي الميت»: أفنته الارض[1].

وما يظهر من مفردات الراغب هو اندماج الخلوقة والفناء في الاختبار، ولهذا، نجده بدأ بحثه عن (بَلِي) بالياء، وبعد أن فسّره بالخلوقة قال بعد ذلك بقليل: «وبَلَوْته: اختبرته، كأنّي اَخْلَقْتُه من كثرة إختباري له»[2]، ثم نقل الآية الّتي هي محلّ البحث وما شابهها من الآيات الشريفة الاخرى.

وعلى أساس هذا الرأي، يكون إطلاق البَلْوى والبِلاء والبَلاء على الاختبار إنّما هو من حيث استعمال المختبر لما اختبره لعدّة مرّات بحيث يؤدّي إلى أن يصير خلقا قديما، والغمّ إنّما قيل له بلاء من جهة أنّه يخلق الجسم.

---

١ . **المصباح**، ص٦٢، «ب ل ي».

٢ . **المفردات**، ص١٤٥، «بَلِيَ».



وأمّا ابن الاثير، فالذي يظهر من كلامه في «النهاية» هو أنّ الاصل في ما نحن فيه هو الاختبار؛ فإنّ جميع ما يذكرونه من موارد في المقام يرجع إلى هذا المعنى، وأمّا غير هذا المعنى من الخلوقة، فإنّ ابن الاثير لا يذكره في البين أبداً[1].

وأمّا أمين الاسلام الطبرسيّ تتّئُ، فيذهب إلى أنّ البلاء في الاصل بمعنى إظهار الباطن، وأمّا «بِلي»، فإنّما كانت بمعنى الخلوقة من جهة أنّ تقادم الزمان ظاهر فيها[2].

وأمّا ما يستظهر من قاموس القرآن (اصلاح الوجوه والنظائر) للحسين بن محمد الدامغاني، فهو أنّ الاصل في المقام هو «بَلَوَ»؛ إذ إنّه لا يذكر في البين أيّ شيء عن «بَلَي»، بل يقتصر على ذكر «ب ل و»، الذي يفسّره بالنعمة والاختبار.

وأمّا ابن منظور، فقد افتتح كلامه بعنوان «بلا» لا «بلو» ولا «بلي»، وبعد أن فسّر «بَلَو» بالاختبار وبعد التعرّض إلى كلمة «مبالاة» ونقل بعض الاقوال في المقام، يقول: «قلبت الواو في كلّ ذلك ياء للكسرة وضعف الحاجز فصارت الكسرة كأنّها باشرت الواو. وفلان بِلْيُ أسفارٍ إذا كان قد بَلاهُ السفر والهَمُّ ونحوهما... وفلان بِلْي أسفارٍ إذا كان قد بلاه السفر والهَمُّ ونحوهما... وناقة بِلْو سفرٍ بكسر الباء، أبلاها السفرُ... وبِلْي سفرٍ وبِلْوُ شرٍّ وبِلْي شرٍّ...»[3].

---

١ . **النهاية**، ج١، ص١٥٥ ـ ١٥٦، «ب ل ي».

٢ . **مجمع البيان**، ج٣ ـ ٤، ص٣٧٦.

٣ . **لسان العرب**، ج١٤، ص٨٣ ـ ٨٤. وقال هنا: «وناقة بَلِيَّة: يموت صاحبها فيحفر لديها حفرة، وتشدّ رأسها إلى خلْفها، وتُبْلَى، أَي: تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً. كانوا يزعمون أَنّ الناس يحشرون يوم القيامة ركباناً على البلايا أَو مُشاة إذا لم تُعْكَسَ مَطاياهم على قبورهم. قلت: في هذا دليل على أَنّهم كانوا يرون في الجاهلية البعث والحشر بالأَجساد». وهذا استنباط لمطلب كلامي من سنّة وسيرة قومية.
ويجب ألّا يغيب عنّا أنّ ما استنبطه ابن منظور صحيح في الجملة لا بالجملة؛ فإنّ عقيدة البعث والحشر التي ذكرها لم تكن رائجة عند الجميع في الجاهلية بحيث تكون العقيدة المعروفة الرسمية
←

وأمّا أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، فقد ذكر «بلو» و«بلي» جنبا إلى جنب بدون أن يفكّك بينهما لغويّا أو يفرّق بينهما من حيث الاصل[1]، وبناء على هذا، فإنّه يمكن القول بأنّ «الاخلاق» قد ضمّن في الاختبار.

وقد ذهب بعض المحقّقين بعد عرضه للأقوال المختلفة التي ذكرناها هنا وغيرها، إلى أنّ أخذ موارد الاستعمال في المقام بنظر الاعتبار، وخاصّة تلك الواردة في القرآن الكريم الذي يعتبر المعيار الاوحد لفهم المعنى الحقيقيّ للكلمات العربية بحيث ليس له معادل في البين، يقتضي ـ: «أنّ الاصل الواحد فيها [بلا] هو إيجاد التحوّل، أي: التقليب والتحويل لتحصيل نتيجة منظورة، وهذا المعنى ينطبق على جميع مواردها ومصاديقها، من دون أن يتجوّز أو يتكلّف فيها. وأمّا الامتحان والاختبار والابتلاء والتجربة والتبيين والاعلام والتعريف، فكلّ هذه معان مجازيّة ومن لوازم الاصل وآثاره بحسب الموارد، إلّا أن يلاحظ فيها قيود الاصل، من التحويل وتحصيل النتيجة. وبهذا يندفع التأويل والتكلّف في تفسير مشتقّات هذه المادة»[2].. ثم قال تطبيقا للمعنى الذي ذهب إليه: «﴿**ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع**﴾: أي: نوجد تحوّلا في حالاتهم، واختلالا في أمور معاشهم بعوارض الخوف أو الجوع أو غيرهما»[3].

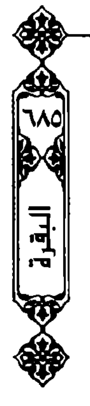
---

عندهم، بل كان الغالب إنكار ذلك، وإن كانت عقيدة للبعض، لم يمكن حينئذ نسبتها إلى الجميع كما هو واضح، وخاصّة مع ما تعرّض له القرآن الحكيم من عقيدة الانكار لدى بعضهم في قوله تعالى على لسانهم: ﴿**أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ...**﴾ (**سورة السجدة**، الآية ١٠)، وقوله تعالى: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا**﴾ (**سورة الانعام**، الآية ٢٩)، وقوله عزّ وجلّ: ﴿**ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**﴾. (**سورة ق**، الآية ٣).

١ . **ترتيب العين**، ج١، ص١٩٣، «ب ل و».

٢ . **التحقيق**، ج١، ص٣١٨ ـ ٣١٩، «ب ل و».

٣ . المصدر السابق، ٣١٩، «ب ل و».



**تنويهات:** ١ ـ لو كان هناك تمايز جوهريّ أصليّ بين كلمة «بَلَوَ» و«بِلِي»، وهو أنّ الاوّل واويّ بمعنى الاختبار، والثاني يائيّ بمعنى الخلوقة، فإنّه يجب حينئذ عدم الخلط بين المعنيين المذكورين، بل اللازم حينئذ بيان المعنى بصورة دقيقة وفي حدود ذلك المعنى الدقيقة.

وأمّا إذا لم يكن تمايز ذاتيّ بين الكلمتين، بأن كانتا قد ظهرتا من حقيقة اعتبارية واحدة، وأنّ التمايز إنّما هو في الحركات (الفتحة والكسرة)؛ بأن يقال بأنّ الحركة لو كانت الفتحة، فإنّ «اللّام» (عين الفعل) تبدّل بالكسرة، وأمّا حرف «الواو» (لام الفعل)، فإنّه يبدّل بالياء، على الرغم من أنّ الفرق في الحركة يستلزم الاختلاف في المعنى بلحاظ رعاية بعض اللوازم، ففي هذه الحالة، يجب ألّا نعتبر أنّ النسبة بين المعنيين هي التباين، لنذكر كلّ واحد منهما في باب مستقلّ غير الباب الذي نقول به للآخر.

٢ ـ كون الشيء خلقا أمر يختلف عن عدم كونه نافعا يمكن الاستفادة منه أو عديم الاثر، فلو أخذنا السجّاد اليدويّ مثلا، لرأينا أنّ له حالتين: الاولى: السجّاد اليدوي الجديد، والاخرى: السجّاد اليزوي القديم، أمّا بالنسبة إلى القديم، فإنّه يمكن القول بأنّه قد تخطّى الامتحان والاختبار ونجح فيه، فغير عنوان القديم والعتيق وما شابههما من العناوين الرفيعة بالنسبة إلى هذا السجّاد لا وصف آخر يرافقه. وأمّا بالنسبة إلى الجديد، فإنّ الامر فيه ليس كذلك؛ إذ لا يمكن إعطاء القيمة النهائية له بعد أن لم يجر عليه الامتحان ولم يجتز الاختبار.

من الطبيعي أنّ قدم السجّاد غير اليدويّ ممّا يرافقه فقدان لقيمته، ولهذا، لا يمكن القول بأنّ القدم يعني عدم القيمة والاثر بنحو مطلق.

٣ ـ في استعمال الابتلاء لا فرق بين الخير والشرّ والفرد الصلب وغيره، كما أنّ التعبير بالابتلاء عند شروع العمل صحيح أيضاً، وبعبارة أخرى: يمكن أن نقول: إنّ هذا العمل الفلاني هو لابتلاء هذا الشخص مثلا، بحيث يكون مفاد

الجملة هو أنّ هذا العمل إنّما هو من أجل تشخيص حال ذلك الشخص خلال ما سيأتي من ممارسات.

٤ ـ البلاء قد يكون ضررا أحيانا، وقد يكون نفعا أحيانا اخرى، وأمّا النقمة، فإنّها لا تكون إلّا عقوبة.

٥ ـ لام ونون التأكيد في قوله تعالى: ﴿لنبلُونّكُم﴾ للإشارة إلى حتميّة البلاء والابتلاء لجميع الناس.

الانْفُس: ذكر للنَفْس وجمعها «أنفُس» و«نُفُوس» معان متعدّدة، من قبيل الروح والدم و... .

قد ذهب بعض المحقّقين إلى أنّ «نَفْس» و«أَنْفُس» أينما جاءت في القرآن الكريم فهي بمعنى «المتشخّص، المتعيّن»، ولم تأت بمعنى الروح فيه أبدا. «النفس» بمعنى الفرد المتشخّص بالتشخّص الذي هو لازمه الذاتي، ذلك التشخّص الذي يكون ماديّا أحيانا وروحانيّا أحيانا اخرى.

ومن جملة مصاديق النفسِ بالمعنى المزبور هو الانسان، والذي يكون تشخّصه باعتبار الجسم والبدن مرّة، كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً﴾[1]، وباعتبار الروح مرّة اخرى، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[2]، وباعتبار الجسم والروح كليهما مرّة ثالثة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[3]؛ إذ بلحاظ ما ورد في الآية الكريمة من كلمتي «تدري» و«تموت»، يكون المراد هو مجموع الروح والبدن. كما يكون باعتبار ما يكون قوام الانسان وبقاؤه منوطا به، من قبيل «الدم» و«التنفس»[4].

---

١ . سورة القصص، الآية ٣٣.

٢ . سورة الفجر، الآية ٢٧.

٣ . سورة لقمان، الآية ٣٤.

٤ . راجع: التحقيق، ج١٢، ص١٩٧ ـ ١٩٩. «ن ف س».



وعلى هذا الاساس، يكون إطلاق «الانفس» على شخص الانسان من الجهات والاعتبارات المتنوعة من باب تطبيق المفهوم على المصداق.

## تناسب الآيات

ذكر في مجال بيان ارتباط الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث بالآيات السابقة عدّة وجوه، نتعرّض في ما يلي لأهمّها:

١ ـ تقدّم الامر بالاستعانة بالصبر والصلاة، والنهي عن اعتبار القتل في سبيل الله تعالى موتا في الآيات المتقدّمة، وفي هذه الآية الشريفة يبيّن منهما سبحانه وتعالى السرّ في ما سيأتي من ابتلاء للمسلمين بالحرب والقتل، فطريق النصر في الحرب يمرّ بالاستمداد بالصبر والصلاة، والاعتقاد بحياة القتلى في سبيل الله سبحانه وتعالى، والايمان بعدم ضياع ما يقدم في هذا السبيل من الاموال والارواح[1].

وعلى هذا الاساس، سيكون عطف ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ**﴾ على ﴿**اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ...**﴾[2] من باب عطف الهدف والمقصد النسبيّ على المقدمة[3]، يعني: إستعينوا بالصبر والصلاة لكي تتمكّنوا من النجاح في الاختبارات الالهيّة، وطبيعيّ أنّ الاختبار إنّما هو من أجل الهدف الاسمى.

٢ ـ على أساس احتمال آخر في المقام، يكون هذا العطف من قبيل عطف المضمون على المضمون، ويكون الجامع بينهما أنّ مضمون الآية الشريفة الاولى هو طلب الصبر، بينما مضمون الآية الشريفة الاخيرة بيان مواطن الصبر وموارده[4].

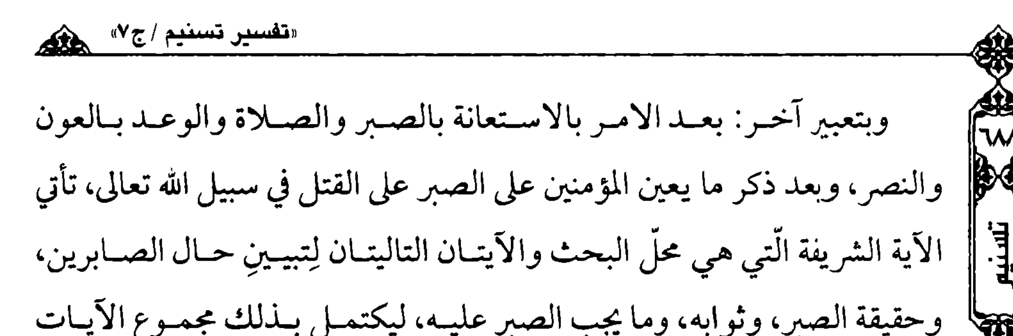
---

١ . الميزان، ج١، ص٣٥٧.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٥٣.

٣ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٥٣.

٤ . روح المعاني، ج٢، ص٣٣.



وبتعبير آخر: بعد الامر بالاستعانة بالصبر والصلاة والوعد بالعون والنصر، وبعد ذكر ما يعين المؤمنين على الصبر على القتل في سبيل الله تعالى، تأتي الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث والآيتان التاليتان لِتبيينِ حال الصابرين، وحقيقة الصبر، وثوابه، وما يجب الصبر عليه، ليكتمل بذلك مجموع الآيات المتعلقة بموضوع الصبر، الذي يعتبر مكمّلا للشكر الذي أمر به نهاية الفصل السابق من الآيات[١].

٣ ـ الاحتمال الآخر هو أن تكون ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ معطوفة على ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢]، ليكون المراد تنبيه المسلمين إلى حقيقة أنّ إتمام النعمة عليهم وتكريمهم من قبله سبحانه وتعالى لا يمنع من وصول المصائب الدنيويّة إليهم، وأنّ الصبر على هذه المصائب يزيد من درجاتهم أيضاً، ومن هنا، ورد في بداية الآية الشريفة التالية قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[٣].

٤ ـ النعم الالهيّة الكثيرة المذكورة في الآيات السابقة التي أمر بالشكر عليها سيرافقها إبتلاءات ومصائب متنوعة، يكون أكبرها الجهاد، وأصغرها الابتلاءات الصغيرة التي تنال الجميع في النفس والمال والاحباب[٤].

الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث تتعرّض إلى بيان مجموع المصائب التي يبتلي بها سبحانه وتعالى المؤمنين ليختبرهم عن طريقها[٥].

بناء على هذا، فإنّه سبحانه وتعالى بعد الامر بالشكر في مقابل النعمة وإكمال

---

١ . الاساس في التفسير، ج١، ص٣٣١.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٥٠.

٣ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٥٣.

٤ . تفسير المنار، ج٢، ص٣٤.

٥ . المصدر السابق، ص٣٩.




الشريعة، والامر بالصبر على التكاليف الدينية، يتعرّض إلى تشجيع المؤمنين على الصبر والثبات وترغيبهم فيها في مقابل ما يتعرّضون له من مشاكل ومصائب ليقول: «نختبركم عن طريق هذه المصائب لنعلم مقدار صبركم في مقابلها وثباتكم على طريق الحقّ ومقدار تسليمكم لأمرنا، أم أنكم ستنقلبون على أعقابكم لترجعوا إلى ما كنتم عليه، لينتابكم الجزع والتردد في مقابل استرداد ما كان أمانة في أيديكم»؟[1]

٥ ـ جهاد الكافرين الذي أشارت إليه الآية الشريفة السابقة له نتائج تشير إليها الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، لتكون النتيجة تصفية المؤمنين وتخليصهم، وتمييز الصابرين عن غيرهم من أهل الجزع[2].

٦ ـ من يتكاسل عن الجهاد في سبيل الله ويكرهه ويضعف فيه على أثر عدم صبره عليه، فإنّه سيصاب بمصائب وبلايا أخرى ليختبر بها، والآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث تشير إلى هذه البلايا[3].

**تنويه**: يجب التوجه إلى أنّ ما تقدّم يمكن أن يكون من سنخ الاستحسان بعد الوقوع، كما أنّ من المحتمل أنّ النكات الملحوظة إنّما هي حال النزول، ولمّا لم يكن بينها أيّ تهافت، بألّا تكون من قبيل استعمال اللفظ في أكثر من معنى لكي ترفض، بل هي أمر يمكن القول به في المقام، فإنّ ذلك يجعل تعدّد وجوه الارتباط بين الآية الّتي هي محلّ البحث والآيات الشريفة الاخرى أمرا محتملا.

❋ ❋ ❋

---

١ . **تفسير غرائب القرآن**، ج١ ـ ٢، ص٤٣٩ ـ ٤٤٠.

٢و٣ . **نظم الدرر**، ج١، ص٢٨٠.





## الاختبار عامل تفعيل الكمالات

تتمّة للآيتين الشريفتين السابقتين الناظرتين إلى الجهاد والشهادة، تتعرّض هذه الآية الشريفة والآية الشريفة التالية لها إلى مسألة إرسال المجاهدين إلى جبهة القتال، وجعلهم على اطّلاع على بعض المسائل العقائدية والاخلاقية اللّازمة في هذا المجال.

وقبل أمره سبحانه وتعالى بالحرب، ومن أجل تهيئة الارضية النفسية لذلك، يتعرّض إلى مسألة الاختبار بالشدائد والمشاكل كما يتعرّض إلى الاختبار بالمسائل الرفاهية وقت النصر.

الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث موردها اختبار مرحلة ما قبل الفتح والنصر، كما أنّ الآية الشريفة: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[1] موردها اختبار ما بعد مرحلة الفتح. وهذا هو حال الاختبارات في جميع الحوادث والوقائع، وإن كانت الحرب ـ وكذا الفتح ـ في المسائل الجزئية جزئية، وفي المسائل الكلية كلية.

السرّ في هذا الاختبار وتنوّعه هو أنّ الافراد خلقوا بقابليّات متنوعة، وعامل ازدهار وتفتّح تلك القابليّات هو الاختبارات المتنوعة.

الصبر والشكر من جملة كمالات الانسان، وهذا الكمال لا يخرج من مرحلة القوّة إلى مرحلة الفعليّة ما لم يكن إختبار وامتحان في البين، ما يجعله سبحانه وتعالى يمتحن الانسان ويختبره، بالنعمة والمنحة أحيانا، وبالنقمة والمحنة أحيانا اخرى، لكي يظهر إلى العيان شكره وصبره الباطنيان.

حين الابتلاء بالضرّاء والمصائب والظروف الصعبة يتميّز الانسان الصابر، وكذا بالنسبة إلى الانسان الشاكر الذي لا يتميّز إلّا بالشكر حين السرّاء ورفاه

---

١ . سورة يونس، الآية ١٤.




العيش وهنائه، وعلى هذا الاساس، يبرز إلى الساحة الاختبار بالصبر في مواجهة الضراء والمصائب حين العزيمة للجهاد وساحات القتال، فيما يبرز الاختبار بالشكر حين السرّاء بعد الحرب وفي مرحلة النصر.

ويعلم من تأكيد هذه الآية الشريفة وآيات شريفة اخرى على حتمية البلاء: ﴿لنبلونّكم﴾، أنّ ذلك البلاء أمر حتميّ لا مفرّ لأيّ أحد من الناس منه، ومعنى هذا أنّ شخصا مّا لو طلب منه تعالى ألّا يختبره، فإنّ دعاءه ذلك لن يكون مستجابا أبدا، فالمفروض أن يكون الدعاء بهذه الطريقة: اللهم اجعل إيماننا راسخا صلبا لنخرج من الاختبار مرفوعي الرأس.

## الابتلاء بعدم الامن وعدم الاستقرار الاقتصادي

المقصود من الابتلاء بالخوف والجوع في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث هو الابتلاء بعدم الامن والفقر الاقتصادي، وبعبارة أخرى: المراد من الجوع ليس ما يقابل العطش فقط، بل المقصود ما كان أعمّ من ذلك، ليشمل العطش وسائر المصائب البدنية، كما ذكر الضمأ والنصب جنبا إلى جنب في بعض الآيات الشريفة، كما في قوله تعالى: **﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾**[1].

---

١. سورة التوبة، الآية ١٢٠. ويجب التوجّه إلى أنّ التفصيل قاطع للشركة. يعني: في الموارد التي يرافق ذكر الجوع فيها أمور أخرى، من قبيل الضمأ والنصب وما شابههما، يكون المقصود من كلمة «الجوع» خصوص ما يقابل العطش، خلافا للآية الّتي هي محلّ البحث، حيث يمكن للكلمة أن تكون مثالا للجامع بين الامور المذكورة جميعها.

التعبير بالنقص في مجال المسائل الماليّة والاقتصادية وبالجوع من قبيل التعبير عن التصرّف في مال الغير بالاكل، أو التعبير عن ارتكاب المعصية بإيقاعها باليد مثلا، فالمقصود بالاكل في بعض التعبيرات كما في قوله تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرا﴾[2] هو مطلق التصرّف، إلّا أنّ الاكل لّما كان النموذج البارز للتصرف، عبّر عن التصرّف بمال الآخرين بالاكل.

وكما أنّ المقصود في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[3] وما شابهها هو جميع المعاصي لا ما كان منها ممّا يقترف باليد بخصوصها، وإنّما التعبير باليد من باب أنّ أكثر المعاصي إنّما تقترف بها، فكذلك الحال في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث؛ إذ لّما كان الجوع النموذج البارز للفقر، ومما يشقّ تحمّله، عبّر بالجوع عن جميع النقص في مجال المسائل المالية، أعمّ من أن تكون جوعا أو نقصا في اللباس أو المسكن أو غيرها ممّا شابهها، كما عبّر في الآية الشريفة: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْف﴾[4] عن الازدهار الاقتصاديّ بالاطعام من الجوع.

### النقص في المال والنفس والثمر

الابتلاء والاختبار الالهيّ قد يكون بعدم الشيء أحيانا: ﴿بِشَيْءٍ مِنْ... وَالْجُوعِ﴾، ففي الجوع لا يملك الانسان ـ ولو في مرحلة مّا ـ شيئا للأكل، كما أنّه قد يكون بالنقص في المال لا بالعدم، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ﴾، فإنّ النقص غير الزوال والعدم؛ فإنّ الانسان المبتلى بالنقص في المال ليس جائعا أو فاقدا للّباس أو المسكن، وإنّما يجب أن يعيش عيشة بسيطة.

---

١ . سورة البقرة، الآية ١٨٨.
٢ . سورة النساء، الآية ١٠ .
٣ . سورة الشورىٰ، الآية ٣٠.
٤ . سورة قريش، الآية ٤.

وبلحاظ هذا التنوّع في الاختبارات، نجد أنّ سياق الآية الشريفة قد تغير من ﴿بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ إلى ﴿وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ...﴾، فإنّ ﴿وَنَقْصٍ...﴾ يعني «وبنقصٍ»، لا «وبشيءٍ من نقصٍ».

من الطبيعيّ أنّ التعبير ﴿بشيءٍ﴾ فيه إشارة إلى ضعف ما اختبر به وكونه موقّتا مقطعيّا، فهو بمعنى «بشيءٍ قليل».

والحاصل: أنّ الانسان مورد الاختبار في هذه الحال، إمّا أن يكون فاقدا لأيّ شيء، وإمّا ألّا يكون كذلك بأن يؤخذ منه، وجميع هذه الامور من الاختبار.

وأمّا المقصود من «نقص النفس» الذي يعتبر واحدا من الاختبارات الالهية، فهو القتل في سبيل الله تعالى، أو ما يكون أعمّ منه ومن الموت العادي؛ فإنّ جميع ذلك من مصاديق النقص في الانفس الوارد في الآية الكريمة.

وكذلك الامر في «نقص الثمر»؛ فإنّ المقصود من الثمر إمّا أن يكون الثمر الاقتصادي وبالاخصّ المحاصيل الزراعية، وإمّا أن يكون المقصود الاولاد بلحاظ أنّهم ثمار القلوب، ومن الطبيعيّ أن يكون المقصود الجامع أيضاً.

وأمّا ذكر الثمر بعد المال، فإنّه يمكن أن يكون من جهة أن الثمر لا يكون مالا دائما؛ فمن قبيل المثال: ثمار أشجار الاراضي غير المحازة التي لا تكون من جملة الاموال الشخصية.

### فخامة ثواب الصابرين

من يؤدي الاختبارات الالهية المذكورة في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث بنجاح يعتبر من جملة الصابرين، ومن جملة المبشّرين بها لهؤلاء من أجر وثواب، ما يوجّه ما جاء في قوله تعالى في آخر الآية الشريفة: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.




وأمّا عدم ذكر البُشرى ومتعلّق التبشير في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، فإنّما هو للإشارة إلى عظم ذلك وأهمّيته القصوى؛ إذ لو كانت البشارة بأمر بسيط جزئي، لجاء التصريح بذلك في الآية المباركة، فقيل مثلا: «من يصبر فله كذا»، ولكن، عندما يكون الثواب على الصبر ممّا لا حدّ له ولا مقدار، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

وإضافة على إرشاد حذف متعلَّق التبشير إلى عظم الثواب وأهمّيته، فإنّه يدل على عموم ذلك المتعلَّق أيضاً، فإنّه شامل لجميع النعم بلا اختصاص لذلك بنعم الآخرة، فهو سبحانه وتعالى يفيض على الانسان الصابر في الدنيا بالكثير من النعم وكذا بالفضائل والملكات المتنوّعة، التي يكون بعضها مرتبطا بالآخرة طبعا.

السرّ في المسألة السابقة، هو أنّ الصبر من جملة عزم الامور، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[2].

**توضيحه**: لا سبيل إلى تحقّق أيّ عمل بدون العزم والارادة، كما أنّ كلّ عمل إراديّ مهما كان بسيطا يجب أن يكون مسبوقا بالارادة، إلّا أنّ بعض الاعمال يكون من جملة عزم الامور، يعني: «ممّا ينبغي أو يجب أن يُعْزَم عليه»، بحيث لا يتحقّق بمجرّد الارادة العادية.

والانسان في سبيل أن يحقّق مثل هذه الامور، يجب أن ينعم التفكير في جهات عديدة في هذا المجال، من قبيل عاقبة تلك الامور، والتدبّر، والتفكّر، والاستشارة حتى يصل إلى مرحلة الجزم، بحيث لا يكون سبيل حينئذ إلى الوهن، وعدم الرغبة والكراهة والتردّد والشكّ والانزجار إلى إرادته، فيكون عازما على إنجاز ذلك الامر والعمل. الارادة غير القابلة للتزلزل أو التغيّر

---

١ . سورة الزمر، الآية ١٠.

٢ . سورة لقمان، الآية ١٧.

بحوادث عاديّة صغيرة، وإلّا، لما كان «التصميم»؛ فإنّه الارادة الكُملى، فإنّ «الصميم» هو الشيء المملوء الباطن، ومن هنا يقال للصخرة الخالية عن أيّ فراغ وصدع «صخرة صمّاء»، كما يقال لفاقد السمع «أصمّ» من جهة أنّ أذنه لا مجال فيها لنفوذ الصوت.

الصبر ليس من الاعمال العاديّة لكي يتمكّن الانسان من عمله بدون حاجة إلى عزم وتصميم؛ إذ يحتاج الانسان في كلّ لحظة من لحظاته إلى الاخذ بزمام النفس لكي لا تنفذ إلى مركز القرار فتقوم بزعزعته أو تضعيفه لتجبره على الجزع.

بناء على ما سبق، فالانسان الصابر يحقّق عزم الامور، يعني: الامور المعزوم على تحقيقها بواسطة صبره، من الطبيعيّ أنّ لفظ «الصابر» لا يطلق على الشخص إلّا إذا كان متمتّعا بملكة الصبر في جميع الحوادث والظروف، لتكون هذه الملكة ثابتة مستمرّة عنده، ومن هنا، كانت الصفة «صابر» صفة مُشبّهة، الصفة الدالّة على تمتّع الموصوف بها بالملكة في جميع الحوادث والظروف وعلى نحو الاستمرار؛ فإنّ الصفة الدالّة على الاستمرار والثبات لها أوزان متعدّدة متنوّعة، من قبيل وزن الفاعل والمفعول كما في الصابر والمحمود مع دلالتهما على الثبات والاستمرار، لا اسم الفاعل أو اسم المفعول. فإنّ الشخص الذي يتحمّل حادثة من الحوادث فيصبر على ما يلاقيه فيها، فإنّه لا يقال له حينئذ «صابر» أو «صبور»، بل يقال حينئذ: «فلان صَبَرَ». وهكذا بالنسبة إلى الجزع؛ فإنّ الانسان لا يكون جزوعا بمجرّد تسليمه في مقابل حادثة ما، بل يقال حينئذ: «جَزَعَ».

وعلى أيّ حال، فمن يبشّر بنعمه سبحانه وتعالى الدنيوية والاخروية، إنّما هو المتمتّع بملكة الصبر، والصابرون ـ وهم المبشرون من قبله تعالى ـ إنّما هم من يحملون هذه الملكة والوصف على نحو مستمرّ مستقر، بحيث لا يكون الوصف عندهم مجرّد وصف حال.






# إشارات ولطائف

### ١ ـ الاختبارات الالهية

الآيات القرآنية الكريمة في مجال الاختبارات والامتحانات الالهية مختلفة يمكن تقسيمها إلى خمسٍ مجموعات، في ما يلي إشارة اجمالية إلى تلك المجموعات ومضامينها:

أ ـ ما خلقه الله سبحانه وتعالى في عالم الدنيا يعتبر زينة هذه الحياة التي خلقها تعالى لاختبار الانسان فيها، وما يوجد في نشأة الطبيعة، أعمّ من أن يكون مرّا أو حلوا، له جنبة اختبارية.

ب ـ ما يتعرّض له الانسان من حوادث وظروف غير مناسبة اختبار الالهي، وليس من حادثة من تلك الحوادث لا يرافقها مسؤوليّة لمن تعرّض لها، هذه الحوادث اختبار لصبر الانسان يتميّز فيها الصابر عن غيره.

ج ـ الحوادث الملائمة اختبار الالهي أيضاً، كما أنّ هناء العيش والنعم التي يفيضها الله سبحانه وتعالى على الصبر على الظروف غير المناسبة التي يواجهها الانسان أحيانا اختبار لشكره في مقابلها.

د ـ كلّ حادثة من الحوادث السيّئة أو الجيدة تعتبر اختبارا للإنسان، وكما أنّ جميع النعم لها جنبة اختبارية منجّزة لبعض المسؤوليات، كذلك الحال مع النقم التي يتعرّض لها الانسان خلال حياته؛ فإنّها جميعها تعتبر اختبارا من اختباراته عزّ وجلّ.

وهذه المجموعة الرابعة مجموعة تجمع بين المجموعة الثانية والمجموعة الثالثة، بحيث تتعرّض إلى النعمة والنقمة في وقت واحد.

هـ ـ يرافق التكاليف الشرعية الاختبار الالهي، فعندما يأمر سبحانه وتعالى بتلك التكاليف، فإنّه ـ في الحقيقة ـ يهيّئ الارضيّة للاختبار الالهيّ في الوقت ذاته.



ونتعرّض هنا إلى نماذج من تلك المجموعات الخمس المتقدّمة الذكر:

### أ ـ عالم الطبيعة نشأة الاختبار

كما أشرنا سابقا، جميع حيطة عالم الطبيعة هي حيطة الاختبار الالهي، وجميع ما يصل إلى الانسان في هذا العالم فإنّما هو اختبار من إختباراته سبحانه وتعالى، أعم من أنّ تكون تلك الاشياء ألما أم هناء، كما أنّ جميع الحوادث المرّة أو الحلوة هي اختبار الالهي، وكما أنّ أيّ شيء لا يصل إلى الانسان بدون مقابل، فإنّ ما يصل إلى الانسان من ثواب إزاء صبره ونجاحه في الاختبارات السابقة إنّما هو بداية لاختبار الهيّ جديد؛ فإنّ الدنيا دار اختبار لا دار جزاء، وما كان من الجزاء خاليا من أيّ اختبار، فإنّما هو من أمور القيامة لا الدنيا.

يقول سبحانه وتعالى في مجال كون جميع عالم الطبيعة نشأة اختبار: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[1]. فجميع ما على الارض إنّما هو زينة ووسيلة من وسائل الاختبار الالهي لا زينة للإنسان، فالنعمة وسيلة اختبار الشكر، والنقمة وسيلة اختبار الصبر، وأمّا زينة الانسان، فهي الكمال الروحي الذي يتمتّع به، قال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[2].

فجميع ما يكون خارجا عن حيطة نفس الانسان مستقلّا عن حقيقته لا يعتبر من زينة الانسان، المجوهرات والملابس الفاخرة وما شابهها ليست من زينة الانسان أبدا، وإنّما هي زينة اليد والبدن.

من يحصّل العلم والتقوى فيجعلهما زاده فإنّما يقوم بذلك بتزيين نفسه بهما، وأمّا من يقوم بإحياء الارض الموات بالزراعة أو بالبناء، فإنما يقوم بذلك بتزيين

---

١ . سورة الكهف، الآية ٧.

٢ . سورة الحجرات، الآية الشريفة ٧.

الارض نفسها لا بتزيين نفسه. فليس من المعقول او الممكن أن يتزيّن الانسان بما يزيّن الارض؛ فإنّ الانسان موجود خالد بينما الامور السابقة أمور زائلة فانية وإن بعد حين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾[1].

إذا شغل الانسان نفسه بما هو خارج عن حيطة نفسه، فإنّه إنّما يهدر بذلك رأس ماله، فإنّ جميع ذلك هالك ليترك داخل الانسان خاليا خاويا.

إذا سافر الانسان إلى كرات اخرى فأصبح مالكا لمنظومة شمسية أو كواكب أخرى خارج تلك المنظومة، فإنّ الكلام يبقى هو الكلام؛ إذ كما أنّ البستان والبيت وما شابهها زينة ما على الارض لا زينة الانسان، فإنّ الكواكب والسيارات الاخرى زينة لتلك السيارات والكواكب لا زينة نفس الانسان، قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾[2].

يجب على الانسان ـ سواء أكان أرضيّا أم سماويّا ـ أن يجمع الكمالات في داخل نفسه.

«المال» و«البنون» اللّذانِ يصرّح القرآن الكريم بكونهما زينة كما في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[3] ليستا في الحقيقة إلّا فتنة واختبارا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا إِنَّما أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[4]، فكما أنّ فقدان المال أو نقصه يعتبر فتنة واختبارا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الاَمْوَالِ﴾، فكذلك الحال مع المال الكثير، فإنّما هو فتنة واختبار ليس إلّا.

---

١ . سورة الكهف، الآية ٨.
٢ . سورة الصافات، الآية ٦.
٣ . سورة الكهف، الآية ٤٦.
٤ . سورة الانفال، الآية ٢٨.




## ب ـ الاختبار بواسطة المشاكل

وقوع أيّة حادثة، سواء أكانت تلك الحادثة حلوة أم مرّة، إنّما هو لأجل الاختبار، كلّ ما في الامر هو أنّ الانسان المتوسّط أو الضعيف لا يستغلّ الاختبار بالنعم والحوادث الحلوة ولا يلتفت إلى الجنبة الاختباريّة فيها. كما أنّ عبادة ذلك الانسان تكون عادة على أساس العادة التي تعوّدها لا على أساس الشكر.

كما أنّ المشغول من الناس بعالم الطبيعة والاستفادة القصوى منه لن يكون شاكرا لما أنعمه الله سبحانه وتعالى عليه أبدا، وبهدف جلب انتباه هذا النوع من الناس إلى ما وراء الطبيعة، يقوم سبحانه وتعالى بابتلائه بالظروف غير المناسبة له.

لا يريد الله سبحانه وتعالى التعجيل بالعقوبة وبعذاب جهنّم حتى بالنسبة إلى الفراعنة والمتفرعنين، ما يوجّه قوله تعالى حين نصيحة هؤلاء من قبل موسى وهارون عليهما السلام وهدايتهما ودعوتهما: **﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتذكر أو يَخْشَى﴾**[1]، وبعد أن لم يؤثّر شيء في قلوب هؤلاء القاسية، قام سبحانه وتعالى بأخذهم بأنواع الابتلاءات، كما جاء في قوله عزّ من قائل: **﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾**[2].

إنّ السرّ في تعبير «لعلّ» الوارد في الآية الشريفة المتقدّمة، هو أنّ التذكرة إنّما هي في مقام الارضيّة، و«لعلّ» خبر عن مقام فعله سبحانه وتعالى وتلك أرضيّة، وليست خبرا عن مقام ذات الواجب، يعني: الترديد إنّما هو بلحاظ إمكان تأثير هذه التذكرة في جعلهم متذكّرين، وإلّا، فإنّه سبحانه وتعالى مطّلع في مقام الذات على تأثير التذكرة على هؤلاء ومقدار تأثّرهم بها.

---

١ . سورة طه، الآية ٤٤.

٢ . سورة الاعراف، الآية ١٣٠.

المشـاكل الفرديـة والاجتماعيـة اختبـار الهـي، وللاختبـار الالهـيّ مراتـب ودرجات، وكما جاء في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، فإنّ مـورد الاختبـار ابتداء قليل من الخوف والجوع، ليتطوّر بعد ذلك إلى الشدّة التي توقع المؤمنين في التزلزل، يقول القرآن الكريم في هذا المجـال: ﴿**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً**﴾[١].

وفي هذا الاختبار المزلزل للإنسان، بحيث يفـرّ المنـافقون وضـعيفو الايـمان خلاله قائلين ما جاء في قوله تعـالى[٢]: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً**﴾[٣]، بينما يكون المؤمنون وأهل الاسـتقامة من الصابرين الثابتين، قال تعالى: ﴿**مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾[٤].

اختبار من هذا النوع لا يختصّ بأمّـة أو مجموعـة خاصّـة دون غيرهمـا، كـما يخاطب سبحانه وتعالى مؤمني المدينة قائلا: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ**﴾[٥].

من اللازم التدبّر في هذا النحو من الآيات الشريفة قبل غيره؛ فإنّ جملـة ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ**﴾ إنّما هي خطاب لمن كـان يـؤدّي الصـلاة في أشرف البقع والمساجد بعد المسجد الحرام ـ يعني: مسجد النبيّ ﷺ ـ وخلـف أفضـل

١ . سورة الاحزاب، الآيات ١٠ ـ ١١.
٢ . سورة الاحزاب، الآيات ١٢ ـ ٢٠.
٣ . سورة الاحزاب، الآية ١٢.
٤ . سورة الاحزاب، الآية ٢٣.
٥ . سورة البقرة، الآية ٢١٤.



أئمة العالَم ـ يعني: الرسول الاكرم ﷺ ـ أولئك الذين كانوا يستمعون لخطبه ومواعظه ﷺ، ويصافحون يده الشريفة صباحاً ومساءاً.

كون المشاكل من جملة وسائل الاختبار الالهيّة مدلول الآيات الناظرة إلى مسائل الحرب ومصاعبها، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[1].

**تنويه:** الاختبار بالخوف والجوع أمر يختلف تمام الاختلاف عن التعذيب بهما، كما يفهم من الآية الشريفة: ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[2] بصورة واضحة، كما أنّ الفرق بين الآيتين الشريفتين أمر واضح مشهود؛ فإنّ إحداهما تتحدّث عن الاختبار فيما تتحدّث أُخراهما عن التعذيب، كما أنّ في إحداهما: ﴿بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ و...﴾، وفي أُخراهما عنوان الالباس وإحاطة العذاب بالمعذّبين[3].

**ج ـ الاختبار بواسطة النعمة**

كما يختبر سبحانه وتعالى الانسان بعدم النعمة أو أخذها بعد إعطائها أو قلّتها، فكذلك يختبره بالنعمة التي يمنّ بها عليه، من قبيل المقامات الظاهرية والباطنية، كالنصر والتمكّن، والمال، والولد، وتوفير الثمرات.

طبيعيّ أنّ الحياة الدنيا بمقدار زهرة لا أكثر، ولا تصل إلى مرحلة الثمر أبدا؛ فإنّ شجرة الدنيا قد غرست في منطقة باردة لا تعطي أيّ مجال للزّهر أن ينضج ويتبدّل إلى ثمر، ومعنى هذا عدم حصول أيّ شخص من الاشخاص في أيّ

---

١ . **سورة محمد** ﷺ، الآية ٣١.

٢ . **سورة النحل**، الآية ١١٣ .

٣ . **تفسير التحرير والتنوير**، ج٢، ص٥٣، مع بعض التصرف.

وقت من الاوقات على ثمرة الدنيا، إلّا أنّ تلك الزهرة اختبار في حدّ نفسها، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1].

التمتّع بالاموال وتكديسها، والاولاد وتكثيرهم بالنسبة إلى الكافرين والمنافقين نحو من أنحاء التعذيب ليس إلّا، قال عزّ من قائل: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[2] كما أنّها للآخرين لا تعدو كونها اختبارا أيضاً لا أكثر على الرغم من أنّهم يحسبونها خيرا لهم، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ إِنّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُون﴾[3]، وأمّا الخشية والايمان، وعدم الشرك، وعبادته سبحانه وتعالى، فهي خير، قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[4].

والمغزى: الحقّ والتكليف قد مزج بعضهما مع البعض في الدنيا، وكلّ ذلك، سواء أكان حلوا أم مرّا، له جنبة اختبارية، ومن هنا، فإنّه حتى على فرض وصول بركة وخير لشخص من الاشخاص على أثر استجابة دعائه، فإنّه لمّا كان ذلك الخير وتلك البركة منجّزة للمسؤولية، فإنّها اختبار أيضاً، وعلى هذا الاساس، في الوقت الذي يتعرّض فيه القرآن الكريم إلى ما يغدقه سبحانه وتعالى على أهل الاستقامة، يتعرّض أيضاً إلى جنب ذلك إلى كون ذلك إختبارا، حيث

---

١ . سورة طه، الآية ١٣١.

٢ . سورة التوبة، الآية ٥٥.

٣ . سورة المؤمنون، الآيات ٥٥ ـ ٥٦.

٤ . سورة المؤمنون، الآيات ٥٧ ـ ٦١.





يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[1]

بناء على ما سبق، لا يخرج أي أحد مهما كان، حتى إذا كان مستجاب الدعوة في الدنيا ونشأة التكليف من مسألة الاختبار الالهي، فإنّ في مقابل كلّ نعمة هناك مسؤولية تشهد بكون تلك النعمة إختبارا، وعلى هذا الاساس، فإنّ تنعم المتقين أيضاً لا يكون بدون طلب للمسؤولية منهم من قبله سبحانه وتعالى.

بناء على ما تقدّم، فإنّه على الرغم من أنّ بركات السماء والارض من نتائج التقوى ومحصولاتها، إلّا أنها لا تكون خالية عن المسؤوليّة، وليست بعنوان الثواب الابدي. من الطبيعيّ أنّ تنعّم الكافرين الفاسقين في الدنيا وغرقهم فيها إنّما هو أرضيّة لعذابهم كما تقدّم.

البركات السماويّة تشمل المطر في وقته، وأشعّة الشمس وما شابه ذلك، كما أنّها تشمل العلوم والمعارف الغيبيّة التي يلقيها سبحانه وتعالى في قلوب المؤمنين أيضاً، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور﴾[2]، كما أنّ المقصود من البركات الارضية يمكن أن يشمل خصوبة الارض وكثرة محصولاتها بالاضافة إلى العلوم المدرسية التي يستعمل فيها الكتاب والاستاذ والعين والاذن.

## نعمة المقام الظاهري والباطني

لا يختص الاختبار الالهي بالنعم المادّية، بل يتعدّى ذلك ليشمل جميع التفضّلات الالهية، المقام الظاهري والمقام الباطني، من قبيل مقام طيّ الارض،

---

١ . سورة الجنّ، الآيات ١٦ ـ ١٧.

٢ . سورة الاحزاب، الآية ٤٣.





كلّ ذلك اختبار إلهي أيضاً، كما جاء في القرآن الكريم في قصّة حضرة سليمان عليه السلام؛ إذ بعد أن رأى ما فعله أحد تلامذته من الاتيان بعرش بلقيس في أقل من طرفة عين، إعتبر ذلك إبتلاء وإختبارا منه تعالى، قال عزّ من قائل: ﴿**قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾[1].

كلّ مقام في الدنيا سبب للاختبار، جعل الله سبحانه وتعالى الجيل الحاضر خليفة النسل المتقدّم، ولأجل أن تنتظم الامور، جعل بعض الناس ذوي مقامات وعناوين، فجعل بعضهم راجحا وبعضهم الآخر مرجوحا، وهذا الترجيح ليس إلّا اختبار، قال عزّ من قائل: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾[2]. فلا جعل شخص مرجوحا كان تحقيرا لذلك الشخص، ولا جعل شخص راجحا كان قائما على أساس الاستحقاق وعلامة على التكريم، بل كلّ واحدٍ منهما مجرّد اختبار، من هنا، نشاهد في بعض الاحيان أنّ حادثة مّا تقع لتنقلب الامور رأسا على عقب، ليكون الراجح مرجوحا والمرجوح راجحا.

ولقد أعلن القرآن الكريم عن أنّ تقليب الامور والاوضاع إنّما هو امتحان واختبار يعلم من خلاله موقف الانسان، قال عزّ من قائل: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[3]. فهذه سنّة إلهيّة لا محض أمر تاريخي متعلّق بالماضي، قال تعالى:

---

١ . سورة النمل، الآية ٤٠.

٢ . سورة الانعام، الآية ١٦٥.

٣ . سورة يونس، الآيات ١٣ ـ ١٤.



﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، وعليه، فلو وصل الظلمة بعد الحرمان والخوف والجوع إلى مقام وأمن ورفاه، فإنّما هو اختبار جديد: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. فقد اختبروا في الماضي بالصبر، ويختبرون اليوم بالشكر.

### نعمة النصر والتمكين

كما يخبر سبحانه وتعالى عن اختبار المؤمنين بالخوف في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...﴾، فإنّه تعالى تعرّض إلى تهيئة الارضيّة لأمن هؤلاء وتمكينهم ووعدهم بذلك في حالة كونهم مؤمنين عاملين للصالحات، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾[1].

إنّ عدم ذكر «الواو» في جملة: ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾، يعني أنّ ذلك الثواب ـ إيصال المؤمنين إلى مرحلة الامن ـ هو بنفسه اختبار إلهيّ منجّز للمسؤوليّة يمرّ به هؤلاء، وتلك المسؤولية والتكليف هي عبادة المؤمن الله سبحانه وتعالى مخلصا بدون أن يخالطه أيّ شرك.

من الممكن ألّا يتمكّن الانسان من أداء بعض التكاليف الالهيّة حين الخوف وعدم التمكّن، ليكون تكليفه الشرعي حينئذ الصبر، إلّا أنّ ذلك الخوف والفقر لو ارتفعا فحلّ بدلهما الامن والرفاه والهناء، فتمكّن المؤمنون من إقامة دينه سبحانه وتعالى، فإنّ المسؤوليّة حينئذ هي إجراء جميع التكاليف الالهيّة وتطبيقها، ويجب ألّا يعبد حينئذ إلّا الله تعالى وحده لا شريك له[2]، بناء على هذا، يكون

---

١ . سورة النور، الآية ٥٥.

٢ . بدلالة مجيء النكرة ﴿شيئاً﴾ في سياق النفي: ﴿لايشركون﴾، المفيد للعموم.




الرفاه اختبارا من اختباراته سبحانه وتعالى للمؤمنين لا ثوابا، على الرغم من أنّ التكليف حين الرفاه ليس الصبر إلّا بالنسبة إلى تحمّل التكليف طبعا.

جاء في الآيات المذكورة أنّ إنسان اليوم هو خليفة من كان قبله، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ**﴾[١]، وقال عزّ من قائل: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ**﴾[٢]، ومعنى هذا أنّكم ـ أيها الناس ـ في مسير موقّت.

كما أنّه تعالى قد يعبّر أحيانا بأنّكم أخذتم مكان الظالمين، كما في قوله تعالى: ﴿**وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ**﴾[٣]. ويعتبر هذا التعبير إعلاما صريحا بالخطر الذي يكون عليه الانسان، خلافا للآيات المتقدّمة التي لا يستفاد منها هذا المعنى صريحا، ولمّا كان «تعليق الحكم على الوصف مشعر بعليّة ذلك الوصف»، سيكون معنى ذلك التعبير هو أنّ المقام الذي وصل إليكم كان في ما مضى بيد غيركم ممّن كان ظالما فسلبه الله سبحانه وتعالى ذلك المقام لّما لم يتمكّن من أداء حقه على أثر ظلمه، فاستبدله الله بكم، فاحذروا أن تكونوا مثل أولئك الظلمة فيجري عليكم ما جرى عليهم.

**والحاصل**: الفتح والنصر ـ اختبار إلهي أيضاً، كما جاء في كلام موسى الكليم عليه السلام لقومه: ﴿**عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[٤]. وقد تقدّم ما يشبه هذا التعبير، حيث نسمعه سبحانه وتعالى يقول: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[٥].

---

١ . سورة الانعام، الآية ١٦٥ .

٢ . سورة يونس، الآية ١٤ .

٣ . سورة إبراهيم، الآية ٤٥ .

٤ . سورة الاعراف، الآية ١٢٩ .

٥ . سورة يونس، الآية ١٤ .

ينقل الزمخشريّ في ذيل الآية الشريفة المذكورة[١] أنّ عمرو بن عبيد دخل على المنصور الدوانيقيّ قبل تقلّده للخلافة، فرآه جالسا إلى مائدة بسيطة ليس فيها إلّا الخبز، فأمر المنصور بخبز له فلم يوجد، فقرأ للمنصور هذه الآية: **﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾**. ودخل عليه بعد خلافته، فقال: «جاء وقت تتمّة تلك الآية»، فقرأ: **﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾**[٢].

كما تعتبر الآية الشريفة **﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾**[٣] في عداد الآيات الدالّة على أنّه سبحانه وتعالى إنّما يختبر عباده بالنعمة، وعلى الرغم من أنّ ذيل الآية الشريفة يتكلّم عمّا مضى من العذاب، إلّا أنّ صدرها يتكلّم عن النجاة.

يخاطب سبحانه وتعالى بني إسرائيل قائلا: **﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾**، ثم أخبر عن أنّه تعالى أورث هؤلاء مشارق الارض ومغاربها بدلا عمّن كانوا يظلمونهم، فقال: **﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾**[٤]، إلّا أنّ ذلك كلّه اختبار، حيث يقول عزّ من قائل: **﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾**.

وقد ذكر الاختبار بالنعمة في هذه الآية الشريفة إلى جنب الاختبار بالنقمة، ومن هنا، فإنّها كما تصلح نموذجا للمجموعة الثالثة من الروايات بناء على التقسيم الذي قدّمناه للآيات القرآنية الدالّة على الاختبار الالهي، فإنّها تصلح أيضاً نموذجا للمجموعة الرابعة من تلك الآيات الشريفة.

---

١ . سورة الاعراف، الآية ١٢٩.

٢ . الكشاف، ج٢، ص١٤٤.

٣ . سورة البقرة، الآية ٤٩.

٤ . سورة الاعراف، الآية ١٣٧.

## د ـ الاختبار بالخير والشرّ

جميع الحوادث ـ حلوة كانت أم مرّة ـ اختبار إلهي، فقد يختبر سبحانه وتعالى البعض بالرفاه بينما يختبر البعض الآخر بالألم والضيق، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]، كما يقول عزّ من قائل: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[2].

إن السرّ في تقديم ذكر الشرّ على الخير في هذه الآية الشريفة، هو أنّ الاختبار بالشرّ والضيق أهمّ من الاختبار بالخير والرفاه بالنسبة إلى أكثر الافراد، على الرغم من أنّ الاختبار بالخير إذا لم يكن أصعب بالنسبة إلى الانسان، فإنّه لا جرم ليس بأضعف من الاختبار بالشر؛ فإنّ الشكر إذا لم يكن أصعب من الصبر، فلا شك في أنّه ليس أسهل منه.

إنّ الانسان غالبا ما يطغى حال الرفاه والغنى، فيمتنع عن أداء حقّ ما استخلف فيه لبيت المال، وأمّا الانسان المبتلى بالضيق والمشاكل، فإنّه يكون ملتفتا غالبا إلى أنّه في حال اختبار إلهيّ طبقا للكثير من الآيات والروايات الشريفة خلافا للمرفّه، الامر الذي يبعث على غفلته.

نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال قوله: «من وُسّع عليه دنياه فلم يعلمْ أنّه قد مُكِرَ به، فهو مخدوع عن عقله»[3]، وقال عليه السلام أيضاً: «... مَن وُسِّعَ عليه في ذات يده فلم يَرَ ذلك استدراجاً فقد اَمِنَ مخوفاً»[4].

لا يعطي الله سبحانه وتعالى أيّة نعمة بدون مسؤوليّة في مقابلها واختبار، إلّا

---

١ . سورة الاعراف، الآية ١٦٨.

٢ . سورة الانبياء، الآية ٣٥.

٣ . المفردات، ص١٤٥ ـ ١٤٦، «ب ل ي». بحار الانوار، ج٧٢، ص٢٨٦.

٤ . نهج البلاغة، الحكمة ٣٨٥.



أنّ الانسان البسيط التفكير حين الابتلاء بالشباب والسلامة والقوّة، يقول: «رَبِّي أَكْرَمَنِ»، وحين يبتلى بالمكاره والصعاب، يقول: «رَبِّي أَهَانَنِ»، والحال أنّ الامرين امتحانان واختباران و«ابتلاء» ليس إلّا، ولا علاقة لذلك بالاكرام أو الاهانة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الانسان إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا﴾[1].

لا فرق أبدا من وجهة نظر المعارف القرآنية بين الفرد السالم والفرد الطريح على فراش المرض، فذلك المبتلى بالسلامة يجب عليه الشكر، وهذا المبتلى بالمرض يجب عليه الصبر، وذلك الشكر ليس بأسهل من الصبر؛ فإنّ الشكر الحقيقيّ إنّما هو صرف كلّ نعمة في موضعها المناسب لها، الموضع الذي يمكن الوصول إليه عن طريق العقل أو النقل.

والآيات المذكورة يمكن جعلها تحت المجموعة الثالثة أو الرابعة من المجموعات الخمس المتقدّمة الذكر.

الشاهد الآخر على أنّ كلتا الحالين المتقدّمتين من الاختبار الالهي، هو قوله سبحانه وتعالى في الآية الشريفة: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الانسان مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الانسان كَفُور﴾[2]، ومعنى هذا أنّه تعالى يريد من الانسان أن يكون شاكرا متوجّها إليه حين الرحمة والنعمة، صابرا حين السيئة، وهذا المضمون الجامع خير شاهد على ما قدّمناه.

بناء على ما سبق، فإنّ الانسان إذا وصلته رحمة منه سبحانه وتعالى، فإنّه يجب ألّا يعتبر نفسه مستحقّة لتلك الرحمة؛ فإنّ ما تقدّم منه من أعمال حسنة أو دعاء مقبول هي بنفسها من نعمه سبحانه وتعالى، داخلة في القاعدة العامّة القائلة بأنّ:

---

١ . سورة الفجر، الآيات ١٥ ـ ١٧.

٢ . سورة الشورىٰ، الآية ٤٨.

﴿مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللهِ﴾[1]، كما يقول الامام السجّاد عليه السلام: «كلّ نِعَمِك ابتداء»[2].

يقول القرآن الكريم جمعا للمطالب السابقة: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[3].

الرؤية التوحيدية التي تطرحها الآية الشريفة المتقدّمة تجعل الانسان في راحة في حياته؛ إذ إنّه يعلم بأنّ كلّ يوم يظهر فيه لون من ألوان المعيشة والحياة، بحيث تكون الامور بيده زمانا فيما تكون بيد غيره زماناً آخر، وكلا الزمانين اختباران إلاهيّان ليس إلّا، ومن هنا، فإنّه يعرف أنّه حين يكون في زمان الرفاه، فليس ذلك استحقاقا لكي يدعوه ذلك إلى التفاخر، كما أنّه واقف تمام الوقوف على أنّه في زمان زوال المكنة لا ينبغي أن يحزن فيضع نفسه في غير الموضع الذي يرتضيه الله سبحانه وتعالى لها فيتعبها.

### هـ ـ الاختبار والابتلاء بواسطة التكليف الشرعي

يختبر سبحانه وتعالى الانسان أحيانا بالمال الوفير والولد والقوّة والمقام، كما يختبره أحيانا اخرى بفقدان تلك الامور، كما أنّه تعالى قد يأمره أحيانا بتكليف شرعي ليكون وسيلة من وسائل اختباره بذلك.

بناء على ما سبق، فإنّ في مقابل كلّ تكليف هناك اختباراً، ولا تكليف إلّا وفي مقابله اختبار؛ فإنّ صرف التكليف ليس دليلا على الامتثال أو عدم الامتثال

---

١ . سورة النحل، الآية ٥٣.
٢ . الصحيفة السجّادية، الدعاء ٤٥.
٣ . سورة الحديد، الآيات ٢٢ ـ ٢٣.




من قبل المكلّف، وعليه، فإذا جاء ما كان من قبيل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾[1]، فإنّ أرضيّة الابتلاء بذلك التكليف تهيّأت من قبله سبحانه وتعالى أيضاً، فيوقع عبور من يحرم النظر إليهم أمام نظر المكلّف لينظر كيف يفعل إزاء هذا الاختبار، ولو لم يختبر شخص مّا بهذا الاختبار، فإنّه لا يمكنه أن يقول بأنّه قد عمل بهذه الآية الشريفة.

نموذج آخر من نماذج المسألة السابقة هو حرمة الصيد حال الاحرام، فمن جهة، يخاطب سبحانه وتعالى الحجّاج والمعتمرين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أو كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً﴾[2]. فيجعل الكفّارة على من يصيد حال الحجّ أو العمرة، ومن جهة اخرى، لمّا لم تكن حرمة الصيد في المقام مجرّدة حرمة ذهنية بل موردا من موارد الابتلاء العيني، فهو سبحانه وتعالى ـ وهو الآخذ بزمام جميع الحيوانات كما جاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾[3] ـ يأمر بعض الحيوانات بالاقتراب من بعض الحجّاج والمعتمرين بحيث يتمكّنون من صيدها بسهولة، ليختبر بذلك إيمان هؤلاء بالغيب وموقفهم حيث لا يكون إلّا هو سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللهُ بِشَيْءٍ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4].

---

١ . سورة النور، الآية ٣٠.

٢ . سورة المائدة، الآية ٩٥.

٣ . سورة هود، الآية ٥٦.

٤ . سورة المائدة، الآية ٩٤.

وقد ذكر ما يشبه الاختبار السابق بالنسبة إلى اليهود، مع اختلاف أنّ المذكور في الآيات السابقة هو صيد البرّ بينما اختبار اليهود كان عن طريق صيد البحر، فقد حرّم سبحانه وتعالى صيد البحر على بني إسرائيل يوم السبت، فاختبرهم بذلك، بحيث لم تكن الاسماك تقترب من الشاطئ غير ذلك اليوم، وأمّا في يوم السبت، فقد كانت تأتي، قال تعالى حاكيا ذلك: **﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾**[1].

بناء على ما سبق، فإنّه سبحانه وتعالى يهيّئ الارضيّة للاختبار في موارد الاحكام التشريعيّة أيضاً، بحيث يكون امتثال الامر الالهيّ عينيّا.

## ٢ ـ خطر الغفلة عن الاختبار الالهي

سبقت الاشارة إلى أنّ الاختبار حالة الضيق يكون أسهل منه في حالة الرفاه من جهة التفات الانسان في حالة الضيق إلى كون ما يمرّ به اختبارا، فيكون قابلا للتحمّل أيضاً من هذه الجهة، خلافا له حالة الرفاه والهناء؛ حيث قد يغفل الانسان المرفّه عن كونه في حالة اختبار إلهي، فيكون ذلك عاملا من عوامل الغفلة عند ذلك الانسان، وعلى هذا الاساس، نجد أنّ أولياءه سبحانه وتعالى لم يكونوا يطلبون الرفاه نوعا، بل كلّ ما كانوا يطلبونه هو الحسنة في الدنيا والآخرة، قال تعالى حاكيا دعاء هؤلاء: **﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾**[2].

---

١ . سورة الاعراف، الآية ١٦٣.

٢ . سورة البقرة، الآية ٢٠١.




وضمن تبيين القرآن الكريم لواحدة من السنن الالهيّة، يتعرّض بالبيان إلى النقطة المتقدّمة الذكر بطريقة خاصّة، وهي أنّه تعالى يختبر الامم المتمكّنة ماديّا التي لا تتقبّل هداية أنبيائها بالبأساء والضرّاء لكي يلفتهم إلى التذكّر فيرجعوا إليه تعالى، إلّا أنّ هؤلاء على الرغم من ذلك لم يكونوا ليتذكّروا، فيفتح الله سبحانه وتعالى حينئذ أبواب نعمته عليهم سنين متمادية ليشغلهم بها، حتى إذا فرحوا بذلك تمام الفرح فغرقوا في تلك النعمة حتى إنّهم ليتهيّأ لهم أن لا سبيل إلى الزوال، أخذهم سبحانه وتعالى بالعذاب بغتة فإذا هم مبلسون، قال عزّ من قائل: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾**[1].

### ٣ ـ إختلاف درجات الاختبارات الالهية

للاختبار الالهي درجات متعدّدة تفهم من التعبيرات المختلفة التي عبّر عنها القرآن الكريم في موارد مختلفة لتلك الاختبارات؛ فبينما يذكر في بعض الآيات الشريفة الاختبار فقط، نجد أنّ بعض الآيات الشريفة الاخرى تصف الاختبار بكونه «عظيما»، أو «حَسَنا»، أو «مُبينا» مثلا. قال تعالى: **﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾**[2]، وقال عزّ وجلّ: **﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً﴾**[3]، وقال عزّ من قائل: **﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾**[4].

---

١ . سورة الانعام، الآيات ٤٢ ـ ٤٤.

٢ . سورة البقرة، الآية ٤٩.

٣ . سورة الانفال، الآية ١٧.

٤ . سورة الصافّات، الآية ١٠٦.




واختبار العظماء عظيم يتناسب مع ما عليه الانسان من عظمة، كما جاء في اختباره سبحانه وتعالى حضرة إبراهيم عليه السلام بذَبْح ابنه، حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ... * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[1].

وأمّا من كان إيمانه ضعيفا، فإنّ اختباره إنّما يكون على قدر إيمانه أيضاً، وطبيعيّ أنّ الثواب بمقدار ما يتحمّله الانسان خلال الاختبار.

## البحث الروائي

### ١ ـ النسبة بين الابتلاء وبين الايمان والعمل الصالح

قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إنّ في كتاب عليٍّ عليه السلام: إنّ أشدّ النّاس بلاءً النبيّون، ثمّ الوصيّون، ثمّ الامثل فالامثل، وإنّما يبتلي المؤمن على قدر أعماله الحسنة؛ فمن صحّ دينه وحسن عمله، اشتدّ بلاؤه؛ وذلك أنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل الدّنيا ثواباً لمؤمن، ولا عقوبةً لكافرٍ، ومن سخف دينه وضعف عمله، قلّ بلاؤه، وإنّ البلاء أسرع إلى المؤمن التّقي من المطر إلى قرار الارض**»[2].

إشارة: كما أنّ الاستفادة من الفيض الالهيّ العامّ تكون على قدر كلّ واد: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[3]، فكذلك الحال بالنسبة إلى الاختبارات الالهيّة التي تعتبر أرضيّة للرقيّ والتعالي؛ فإنّ من كان إيمانه أقوى من غيره، فإنّه أكثر استفادة من ذلك الاختبار؛ من جهة كونه أكثر جاهزيّة من غيره بالنسبة إلى كسب الفيض الالهي، لتكون النتيجة أكمليّة سيره وسلوكه إليه سبحانه وتعالى باجتيازه

---

١ . سورة الصافّات، الآيات ١٠٢ ـ ١٠٦.

٢ . بحار الانوار، ج٦٤، ص٢٢٢.

٣ . سورة الرعد، الآية ١٧.




للعقبات الكؤودات، ليكون صعوده إلى مراحل الاسماء الحسنى العالية بخطوات أسرع من خطوات غيره.

### ٢ ـ الابتلاء على أثر ارتكاب المعصية

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ الله يبتلي عباده عند الاعمال السيّئة بنقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب، ويقلع مقلع، ويتذكّر متذكّر، ويزدجر مزدجرٌ**»[1].

إشارة: العقوبة المقطعيّة من قبله سبحانه وتعالى لو كانت مترافقة مع الصبر من قبل المعاقب وتنبّهه، فإنّها ستهيّئ الارضيّة لظهور لطف جديد منه تعالى إزاء ذلك الانسان، فيكون تحذيره سبحانه وتعالى حينئذ نموذجا بارزا من نماذج عنايته تعالى بعبده.

### ٣. علامة الصبر وأثره وثوابه

قال الصادق عليه السلام: «**الصبر يُظهِر ما في بواطن العباد من النور والصفاء، والجزع يُظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة، والصبر يدّعيه كلُّ أحدٍ ولا يثبت عنده إلّا المخبتون، والجزع ينكره كلُّ أحدٍ وهو أبين على المنافقين؛ لأنّ نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب، وتفسير الصبر: ماء يستمرّ مذاقه، وما كان عن اضطرابٍ لايسمّى صبراً، وتفسير الجزع: اضطراب القلب، وتحزُّن الشخص، وتغيّر السكون، وتغيّر الحال، وكلُّ نازلةٍ خلت أوائلها من الاخبات والانابة والتضرّع إلى الله تعالى، فصاحبها جَزوع غير صابرٍ.**

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١٤٣.

والصبر ماءٌ أوّله مُرٌّ وآخره حُلْو، من دخله من أواخره فقد دخل، ومن دخله من أوائله فقد خرج، ومن عرف قدر الصبر لايصبر عمّا منه الصبر؛ قال الله عزّ وجلّ في قصّة موسى وخضر: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾[1]، فمن الصبر كرهاً ولم يشكُ إلى الخلق، ولم يجزع بهتك ستره، فهو من العامّ، ونصيبه ما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾، أي: بالجنّة والمغفرة، ومن استقبل البلاء بالرحب، وصبر على سكينةٍ ووقار، [فهو] من الخاصّ، ونصيبه ما قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2]»[3].

إشارات: أ ـ الصبر والجزع من قبيل العلم والجهل من جملة الاوصاف الكماليّة والنقصيّة التي كثر فيها المدّعون والمنكرون.

كلّ ملكة نفسانية إنّما تظهر بالعمل، وبظهور آثار كلّ ملكة من الملكات يعلم صحّة أو سقم ادّعاء وجودها أو عدمها، والصبر ملكة نفسانية تحصل عن طريق التمرين، فتحفظ الصابر إزاء الحوادث المرّة بدون أدنى اضطراب، فتفيض عليه حالة السكينة والوقار والتحمّل والحلم، وإذا لم تكن الحوادث المرّة عند الصابر من قبيل الحوادث الحلوة في تسبيبها للفرح، فإنّها لن تكون من قبيل الحوادث المرّة للإنسان العاديّ في تسبيبها للحزن والاضطراب، وكما أنّ الحوادث التي يواجهها الانسان خلال اليوم لا تأثير سلبي لها على الصابر، فكذلك الامر بالنسبة إلى الحوادث المرّة بالنسبة إلى من صار الصبر ملكة لديه. أوّل الصبر مرّ يحسّ به الصابر إحساسا كاملا، إلّا أنّ له القدرة الكاملة على تحمّله، بحيث لا يدع مجالا لظهور المرورة عليه، لا على وجهه، ولا على عمله.

---

١ . سورة الكهف، الآية ٦٨.

٢ . سورة البقرة، الآية ١٥٣.

٣ . بحار الانوار، ج٦٨، ص٩٠ ـ ٩١.



ب ـ الجَزَع ملكة نفسانيّة تترك تأثيرا واضحا على وجه الجازع وعمله على أثر رسوب الحوادث المرّة المحزنة، وانخفاض نسبة التحمّل لديه بمجرد عروض الحوادث.

ج ـ يترك كلّ واحدٍ من الصبر والجَزَع أثره الكماليّ أو النقصيّ بوضوح آخر الحادثة التي تعرّض لها الصابر أو الجازع، فالظفر من جملة آثار الصبر الجليلة، بينما التسليم والانكسار في مقابل المشاكل من جملة آثار الجزع السالبة للهيبة والجلال.

د ـ الواقف على فضيلة الصبر لن يفصل نفسه عمّا يكون منشأ لتلك الفضيلة.

هـ ـ الصبر ـ شأنه شأن الملكات البارزة الاخرى ـ من الكلّيّ المشكك؛ فبعض حالات الصبر يرافقها الاحساس بالمرورة حين تحمّل الحوادث، وبعضها الآخر لا يرافقه إلّا طيب النفس وحسن الخلق.

وفي القسم الاوّل ممّا سبق يبرز البشارة بالنعمة: ﴿**وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ**﴾، ويبرز في القسم الثاني البشارة بمعيّته سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[1]، والفرق بين الانس بالنعمة والانس بالمنعم شاسع جدا. كما هو الحال في الفرق بالنسبة إلى الذكر بين قوله تعالى: ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتِي**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾[3].

## ٤ ـ علامات ظهور حضرة القائم عليه السلام

عن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إنّ لقيام القائم علامات تكون من الله عزّ وجلّ للمؤمنين، قلت: وما هي جعلني الله فداك؟**

١ . سورة البقرة، الآية ١٥٣ .

٢ . سورة البقرة، الآية ٤٠ .

٣ . سورة البقرة، الآية ١٥٢ .




قال: قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، يعني: المؤمنين قبل خروج القائم 3 ، ﴿بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الاَمْوَالِ وَالاَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ﴾. قال: نبلوهم ﴿بشيء من الخوف﴾ من ملوك بني فلان في آخر سلطانهم، ﴿والجوع﴾ بغلاء أسعارهم، ﴿ونقص من الاموال﴾، قال: كساد التجارات، وقلّة الفضل، ونقص من ﴿الانفس﴾، قال: موت ذريع، ونقص من ﴿الثمرات﴾: قلّة ريع ما يزرع، ﴿وبشّر الصّابرين﴾ عند ذلك بتعجيل الفرج. ثمّ قال لي: يا محمّد، هذا تأويله، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1]»[2].

ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «لا بدّ أن يكون قدّام القائم سنة تجوع فيها الناس، ويصيبهم خوف شديد من القتل ونقص من الاموال والانفس والثمرات، فإنّ ذلك في كتاب الله لبيّن»، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الاَمْوَالِ وَالاَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ﴾[3].

ـ عن جابر الجعفي قال: سألت أبا جعفر محمّد بن علي عليهما السلام عن قول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾، فقال: «يا جابر، ذلك خاصٌّ وعامٌّ، فأمّا الخاصّ من الجوع، بالكوفة يخصّ الله به أعداء آل محمّد فيهلكهم، وأمّا العامّ، فبالشام، يصيبهم خوف وجوع ما أصابهم به قطّ، وأمّا الجوع، فقبل قيام القائم 3 ، وأمّا الخوف، فبعد قيام القائم 3 »[4].

إشارة: ما يطرح في مثل هذه الاحاديث إنّما هو من سنخ التطبيق المصداقي لا التفسير المفهومي، كما أنّه سيكون ممّا لا يحتاج إلى تأويل واستمداد من فنّ التأويل، إلّا مع العبور من الظاهر إلى الباطن كما هو مذهب البعض، أو السفر

---

١ . سورة آل عمران، الآية ٧.
٢ . بحار الانوار، ج٥٢، ص٢٠٢ ـ ٢٠٣.
٣و٤ . المصدر السابق، ص٢٢٩.

من الذهن إلى العين، كما أنّ التأويل مصداق خارجي لا مفهوم ذهني.

وعلى أيّ حال، فإنّ مفهوم كلّ واحدٍ من الخوف والجوع عام، وأمّا تطبيقه على بعض العبادات، من قبيل خوف الجهاد، أو جوع الصوم، فإنّما هو بلحاظ المصداق ليس إلّا، كما أنّ تطبيقها على عصر خاص، أو مصر مخصوص، أو نسل معين، كلّ ذلك إنّما هو من قبيل التطبيق المصداقي لا التفسير المفهومي.

## ٥ ـ العدو أم ابن العدو؟

سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن علّة كون ولد الولد أحبّ من الولد، فأجاب عليه السلام بأنّ: «**العلة هي أنّ أولادنا أعداؤنا: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ﴾[1]، وأولادهم أعداؤهم، فأولادهم أعداء أعدائنا، وكل شخص يحبّ عدوّ عدوه**»[2].

**إشارة:** بعد إحراز أصل صدور الحديث، من اللازم ـ أوّلاً ـ التحقيق والبحث في شأن النزول، وجوّ النزول، والمخاطب الخاص، وسائر شؤون الحديث الاخرى. هذا أوّلا.

وثانيا: الآية الشريفة: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾**، وكذا الآية الشريفة: **﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ﴾**، مطلقتان، والرسالة التي تريدان إيصالها إلينا، هي أنّ الولد وولد الولد فتنتانِ مشتركتان وعدوّان مشتركان. وإذا كان الانسان عدوّا، فإنّه لن يكون محبوبا حتى لو كان عدوّا للعدو.

وقد تعرّض أبو الفتوح الرازي في ذيل الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث إلى مطالب مفيدة كثيرة.

* * *

---

١ . سورة التغابن، الآية ١٤.

٢ . روض الجنان، ج٢، ص٢٥٠.

ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

## التفسير المختار

وصف الصابرين الدائمين هو أنّهم يقولون في الحوادث والمصائب: «مبدأنا ومعادنا الله»، وهذا المقال عقيدتهم وخُلقهم في جميع جزئيّات حياتهم وتفصيلاتها.

الاوصاف الاخرى للصابرين تستند إلى هذا الوصف الاساسيّ أيضاً، فهذه العقيدة هي التي تزوّد الصابرين بالقوّة على الثبات والاستقامة والاعتدال في جميع الاحوال والظروف التي يمرّون بها، وتجعلهم يخرجون من جميع الاختبارات التي تواجههم مرفوعي الرأس.

الانسان الصابر المعتقد بهذا المنطق التوحيديّ الاصيل (المبدأ والمبدأ هو الله) انسان شاكر في مقابل النعم الالهية لا يصيبه الغرور حين النعمة، كما أنّه صابر في مقابل النقم التي يواجهها في حياته بدون أن يفقد الامل ويسقط في اليأس والجزع، يستفيض منه تعالى في جميع أعماله، ينتظر دوما نتيجة تلك الاعمال.

وأمّا غير الصابر فليس كذلك؛ فإنّه يعتقد بالاستحقاق حين النعمة، فتجده فرحا مسرورا أشرا بطرا متكبّرا حين النعمة، فلم تأت ـ حسب عقيدته ـ إلّا بما عمل، وأمّا إذا أصابته المصيبة، فإنّه يقع في انحرافات فكرية تظهر حتّى على لسانه، مسندا ذلك إلى الحظّ العاثر، ساقطا في هوّة اليأس والكفر.



## تفسير المفردات

**أصابَتْهُم**: «صوب» بمعنى نزول الشيء واستقراره قراره، ومن ذلك الصواب في القول والفعل[١]: ﴿وَقَالَ صَوَاباً﴾[٢]، كما يقولون للمطر النازل في وقته المناسب «صوب»، كما يقولون للسحاب الحامل لذلك الصوب «صيّب»[٣]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ﴾[٤]. كما يقال للسهم الذي يستقرّ مقرّه الصحيح: «أصاب السهم الغرض»[٥].

وفي مقام الاستفادة من هذه الكلمة، إذا أريد النظر إلى الفاعل، وكان الملاحظ جهة الصدور، يقال حينئذ: «أصاب، يصيب، إصابة، فهو مصيب، وهي مصيبة، وذاك مصاب». وأمّا إذا لوحظ صرف وقوع الفعل، فيستفاد حينئذ من باب التفعيل، فيقال: «صوّب، يصوّب، تصويبا»[٦].

وقيل إنّ الاصل في استعمال كلمة «مصيبة» هو إصابة السهم الهدف، ثم اختصّت بعد ذلك بما يصيب الانسان من الحوادث غير الملائمة[٧]، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا...﴾[٨].

**نكتة**: من جملة صنعة التجنيس الادبية هي المغايرات، وهي ذكر كلمتين من أصل واحد، إحداهما اسم والاخرى فعل جنبا إلى جنب، كما في قوله تعالى:

---

١. **معجم مقاييس اللغة**، ج٣، ص٣١٧، «ص و ب».

٢. **سورة النبأ**، الآية ٣٨.

٣. **المفردات**، ص٤٩٥، «ص و ب».

٤. **سورة البقرة**، الآية ١٩.

٥. **المصباح**، ص٣٤٩، «ص و ب».

٦. **التحقيق**، ج٦، ص٣٤١، «ص و ب».

٧. **المفردات**، ص٤٩٥، «ص و ب». مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤٣٧.

٨. **سورة التوبة**، الآية ٥٠.




﴿أَزِفَتْ الآزِفَةُ﴾[١]، وقوله عزّ من قائل: ﴿وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ﴾[٢]. وما جاء في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث ـ يعني: ﴿أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ ـ من هذا السنخ أيضاً[٣].

## تناسب الآيات

يبيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية الشريفة عن طريق الامر بالصبر الجميل كيفيّة الصبر، متعرّضا ضمن ذلك إلى مبنى الحكم بوجوبه، وهو أنّه سبحانه وتعالى مالك الانسان[٤]، بناء على هذا، فبعد أمره تعالى بالصبر بداية هذا الفصل (الآيات: ١٥٣ إلى ١٦٧)، وضمن ذكره تعالى لوصف الصابرين المستحقّين للبشارة[٥]، فإنّه يشير إلى حقيقة الصبر[٦]، مبيّنا كيفيّة كون الانسان صابرا، وحالة استحقاقه للبشارة التي أعدّها للصابرين[٧].

ذكر هذا الوصف إنّما هو من أجل بيان نقطة اخرى في المقام، وهي أنّ صبر هؤلاء هو أكمل أنواع الصبر؛ فإنّه صبر تقارنه البصيرة، من جهة أنّهم يعلمون حال المصيبة أنّهم ملك له تعالى، وهو الحكيم يتصرف بهم وفق حكمته كيف يشاء، ما يقطع الطريق أمام الجزع بالنسبة إليهم، فهم يعلمون بأنّهم راجعون إليه تعالى، ليثيبهم أجر ما كانوا عليه[٨].

❋ ❋ ❋

---

١ . سورة النجم، الآية ٥٧.
٢ . سورة الواقعة، الآية ١.
٣ . تفسير البحر المحيط، ج١، ص٤٥١.
٤ . الميزان، ج١، ص٣٥٨.
٥ . تفسير المنار، ج٢، ص٤٠.
٦ . الاساس في التفسير، ج١، ص٣٣١.
٧ . تفسير غرائب القرآن، ج١ ـ ٢، ص٤٤٢.
٨ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٥٦.





## إستمرار وصف الصابرين

يتعرّض القرآن الكريم في هذه الآية الشريفة إلى تفسير ﴿الصابرين﴾ الوارد في آخر الآية الشريفة السابقة. «الصابر» ـ وهو الصفة المشبّهة الدالّة على كون وصف الصبر ملكة عند الموصوف ـ فسّر في هذه الآية الكريمة أيضاً في قالب وصف مستمرّ.

توضيح ذلك:

الآية الشريفة ـ استنادا إلى شواهد ترافقها ـ بمنزلة قضيّة شرطيّة كليّة، من قبيل اعتبار جملة: «إذا طلعت الشمس فالنّهار موجود» موجبة كليّة اعتمادا على قرائن متّصلة أو منفصلة. وعلى هذا الاساس، تكون كلمة ﴿إذا﴾ في هذه الآية سُور قضيّة موجبة كليّة، كما في كلمة «كلّما»، كما أنّ تعبير: «إذا كان كذا، يكون كذا»، يكون علامة على التلازم الكلّي بين المقدّم والتالي. وكلما تعرّض القرآن الكريم إلى مسألة من المسائل مستفيدا من هذا التعبير، فإنّه بمعنى وجود التلازم الكلّي المستمرّ بين الامر الاوّل والامر الثاني.

الكثير من الآيات المباركة التي تتعرّض لوصف ثابتي الايمان أو لتعداد أوصاف عباد الرحمن تستعمل تعبيرات من القبيل السابق، دالّة على استمرار الاوصاف ودوامها في هؤلاء، فمن قبيل المثال: جملة: ﴿إذا مَسَّهُمْ﴾ في الآية الشريفة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1]، معناها: «كلّما مسّهم...»، فالمتقون هم أولئك الذين كلما مسهم.... لا أنّهم أولئك الذين يتحقّق فيهم ذلك الوصف أحيانا فيتذكّرون إذا مسّهم طائف من...؛ فإنّ هذه الجملة الاخيرة فهم جزئيّ أو مهمل بمثابة الجزئيّ غير متلائم أبدا مع ما عند هؤلاء من ملكة التقوى التي تضمّ بين جنبيها الايجاب الكلّي.

---

١ . سورة الاعراف، الآية ٢٠١.

الملكة الراسخة لعباد الرحمن هي مشيهم الدائم على هون وبدون تكلّف، كما أنّهم يواجهون جميع المسائل التي تعترضهم بأسلوب حكيم هادئ، كما أنّهم في المسائل الاقتصادية ـ ومن جملتها الانفاق ـ معتدلون، ولا يحضرون في مجالس من ابتلوا باللهو، علاوة على أنّهم إذا مرّوا باللغو مروا كراما، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً * ... وَالَّذِينَ إذا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً * وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾[١]، وكل تلك الاوصاف أوصاف مستمرّة دائمة، لا أنّها تصدر منهم في حال دون حال أخرى.

وعلى أساس التلازم بين المقدّم والتالي المستفاد من كلمة «إذا»، يكون معنى الآية الشريفة: ﴿أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ﴾، هو أنّ هذا الوصف أصبح ملكة بالنسبة إلى الصابرين، فهم دائما على هذه الحال.

## الصبر حين المصيبة

للصبر أقسام، المعروف منها التقسيم الثلاثي له، وهو تقسيمه إلى:

١ ـ الصبر على الطاعة.

٢ ـ الصبر عن المعصية.

٣ ـ الصبر حين المصيبة.

والذي تتعرّض له هذه الآية هو الصبر حين المصيبة، إلّا أن يقال بأنّ جملة: ﴿الَّذِينَ إذا﴾ ليست تفسيرا تحديديا للصبر المذكور في الآية، يعني: أنّها تتعرّض إلى معنى الصبر في الجملة لا بالجملة.

---

١ . سورة الفرقان، الآيات ٦٣ ـ ٧٢.





من الطبيعيّ أنّ هناك آيات كريمة اخرى تعرّضت إلى مجموعة من الفضائل التي يتحلّى بها الصابرون بنحو الاطلاق، من قبيل: محبّة الله تعالى، النصر، غرف الجنّة، الاجر الجزيل، البشارة، الصلاة، الرحمة، الهداية، وغيرها من الفضائل[١].

ويجب عدم الغفلة عن نقطة مهمّة في المقام، وهي أنّ الصبر مهما كان مرّا صعبا، إلّا أنّ الثواب الالهيّ يكون أكثر منه بكثير، وذلك طبقا للقاعدة العامّة التي أشرنا إليها غير مرّة، وهي القاعدة القائلة بأنّ: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾[٢].

من الطبيعيّ أنّ تسمية المصيبة ومرورة الصبر وسائر العناوين المطروحة في هذا المبحث، إنّما هي للمبتدئين في فنّ الاخلاق، وأمّا بالنسبة إلى السالكين الواصلين الذين يشهدون أمانيّة كلّ شيء، فإنّهم لا يعتبرون زوال أيّ شيء من الاشياء مصيبة بالمصطلح المعروف لكي تستحقّ الصبر ليستحقّ بذلك الصبر الثواب بالتبع، إذ إنّ ردّ الامانة وإعادة العارية إلى المستأمن والمعير واجب على الانسان لا مصيبة.

إنّ منشأ ظهور عنوان «المصيبة» هو تخيّل ملكيّة المال المستأمن والمعار، وتوهّم ملكية الامين والمستعير. وفي الحقيقة: تخيّل المصيبة وتوهّم الصبر وانتظار الاجر بلا داع، إلّا أنّه سبحانه وتعالى الرؤوف يعتبر هذا التخيّل والتوهّم والتوقّع الصادر من عبده المسكين: «فارحم عبدك الجاهل»[٣].

**تنويهان:** ١ ـ عنوان المصيبة مطلق، وكل قسم من الاقسام، أعمّ من أن يكون من جهة الله سبحانه وتعالى أو من جهة خلقه تعالى، مشمول لذلك

---

١ . **التفسير الكاشف**، ج١، ص٢٤٤.

٢ . **سورة الانعام**، الآية ١٦٠.

٣ . **بحار الانوار**، ج٩٥، ص٤٤ و ١٣٢. مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.




الاطلاق، وقد ذكر بعض مصاديقه في الآية السابقة على الآية الّتي هي محلّ البحث، إلّا أنّ ذلك لا ينحصر في ما ذكر سابقا.

٢ ـ ذكر للرضا بقضائه سبحانه وتعالى طريقان بادر إلى نقلهما وشرحهما الفخر الرازي[1] وغيره، الاوّل: الصرف، والآخر: الجذب.

إلّا أنّ من الممكن ـ أوّلا ـ أن يذكر الطرق الثلاثة المعروفة في المقام، وهي: الخوف، والطمع، والمحبّة.

كما يمكن ـ ثانيا ـ التفريق بين صبر الخائفين والطامعين ورضاهم من جهة، وبين صبر المحبّين ورضاهم من جهة أخرى.

كما يمكن القول ـ ثالثا ـ بأن المحور الاصليّ للرضا هو الحبّ والانعتاق من كلّ تعلّق وتعيّن.

## المنطق التوحيدي للصابرين

طبقا للآية الّتي هي محلّ البحث، فإنّ أوصاف الصابرين كلّها تعود إلى وصف التوحيد الاصيل الاساسي، فإنّه الاصل الذي ترجع إليه جميع تلك الاوصاف، وقد تقدّم أنّ كلمة «إذا» في المقام تفيد معنى «كلّما».

وأمّا «القول» في مثل هذه الموارد، فهو من قبيل قوله سبحانه وتعالى في الآية الشريفة: **﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ﴾**[2] والآية الشريفة: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلى اللهِ﴾**[3]، بمعنى العقيدة.

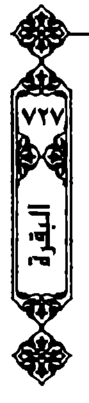
وليس معنى الآية الّتي هي محلّ البحث هو أنّ الصابرين يجرون جملة: **﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ﴾** على ألسنتهم فقط، وإنّما المقصود هو أنّ مقال هؤلاء

---

١ . التفسير الكبير، ج ٤، ص١٥٦.

٢ . سورة فصلت، الآية ٣٠.

٣ . سورة فصلت، الآية ٣٣.




وعقيدتهم وخُلقهم في الحوادث المتنوّعة، وفي جميع جزئيّات حياتهم، كلّ ذلك يجري طبقا لإيمانهم بأنّ المبدأ والمعاد هو الله سبحانه وتعالى.

إنّ الذي يستفاد من مجموع الآيتين الاخيرتين من سورة البقرة المباركة (١٥٥ ـ ١٥٦)، هو أنّ الصابرين ـ وقد صار وصف الصبر ملكة عندهم ـ يخرجون من الاختبارات والامتحانات المختلفة مرفوعي الرأس؛ إذ إنّ منطقهم أنّه سبحانه وتعالى المبدأ والمعاد، من هنا، نجد أنّ الانسان الصابر وهو يعتقد بأنّه وأوصافه وأفعاله ملك له تعالى، لا يكون من أهل اليأس والجزع أبدا؛ يرجع ذلك إلى ما يعتقده في الحوادث الحلوة والمرّة وفي جميع الظروف، من رؤيته المبدأ المستقلّ وبالذات ـ يعني الله سبحانه وتعالى ـ لا نفسه.

الصابر ينظر إلى كلّ حادثة يواجهها اختبارا منه سبحانه وتعالى يجب أن يمرّ به بنجاح، كما أنّه يرى أنّ معاده إنّما هو له تبارك وتعالى، وهذا يوجّه اعتماده على فيضه تعالى في كلّ عمل من أعماله، منتظرا نتيجة ذلك العمل منه تعالى، وفي المقابل ـ استنادا إلى جملة أخرى من الآيات الكريمة ـ نرى الانسان غير المهذّب متكبّرا فرحا في الحوادث الملائمة، جزعا في غيرها.

وكما يستثني سبحانه وتعالى المصلّين في آيات كريمة اخرى من جملة من الاوصاف غير المرضيّة، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الانسان خُلِقَ هَلُوعاً * إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّين**﴾[١]، فإنّه يعرف بالصابرين في الآيات الّتي هي محلّ البحث بعنوان مقابلتهم لمن يجزع في الحوادث المرّة، وبناء على هذا، فالصابر لا يتلوّث في الحوادث الملائمة بالمَرَح والفَرَح غير المشروع، كما أنّه لا يأسى في الحوادث المرّة ويكون جزوعا؛ فإنّه واقف تماما على أنّ جميع تلك الحوادث ـ حلوها ومرّها ـ مجرّد امتحان واختبار إلهيّ من قبله

---

١ . سورة المعارج، الآيات ١٩ ـ ٢٢.





سبحانه وتعالى، قال عزّ من قائل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1]، وأمّا من لم يتربّ في مدرسة التوحيد الخالص، فإنّه يبتلى بالاشَر والبطر والغرور في الحوادث الملائمة، بينما يخور ويجزع في الحوادث غير الملائمة التي تسببت بها أعماله السيئة.

وسيأتي في خلال البحث إشارة إلى بعض ما له علاقة بالمقام من آيات كريمة إن شاء الله تعالى.

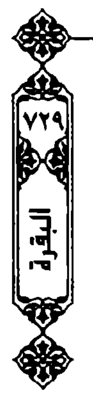
**تنويهان:** ١ ـ الصبر من جملة الملكات النفسانية الفاضلة، وفضيلة من هذا النوع لا يرافقها تعطيل لقوّة العاطفة أو إفناء للرقّة أو الرحمة أبدا، كما أنّها لن تكون مقرونة بتعطيل أيّة قوة من القوى اللازمة الاخرى، وأمّا ما يحصل بالصبر ويكون متلائما تمام التلاؤم معه، فهو تعديل القوى الادراكية والتحريكية للإنسان الصابر.

تعتبر العاطفه واحدة من أفضل القوى اللازمة لحياة الانسان الفردية منها أو الاجتماعية، وخاصة، تلك التي يكون لها ظهور خاصّ بارز في محيط العائلة.

مرض أحد الاصدقاء أو الاقارب أو موته، يكون باعثا على تحريك قوّة العاطفة والرقّة عند الانسان، كما أنّه قد يبعث على البكاء ونزول الدمع عنده، وأوصاف من هذا القبيل ـ الحسّاسية، والعطوفة، والرقّة، وأخيرا البكاء ـ تعتبر من جملة الفضائل الانسانية التي لا تتنافى أبدا مع الصبر والثبات في مقابل القضاء الالهي، وما وصلنا عن الرسول الاكرم ﷺ من بكائه في مصيبة ابنه إبراهيم، وقوله ﷺ توجيها لبكائه المشروع: «العين تَدمع، والقلب يخشع، ولا

---

١ . سورة الحديد، الآيات ٢٢ ـ ٢٣.



نقول ما يُسْخِط الربّ»[1]، ناظر إلى هذه المسألة، يعني لزوم تعديل العاطفة والابتعاد عن تعطيلها.

٢ ـ الرضا والفَرحُ الصادق أمران محمودان، كما دعا إليهما القرآن الحكيم بنفسه، قال تبارك وتعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[2]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ـ الله﴾[3]. وأمّا المَرَح (وهو النشاط الكاذب والسرور الباعث على الغرور والسكر)، فهو أمر مذموم، قال تعالى: ﴿... إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[4]، وهو محلّ تقبيح القرآن الحكيم وتعييره.

## تأثير الاعتقاد بالمبدأ والمعاد

الوقوف على عقيدة المبدأ والمعاد والاعتقاد بها يعتبر المنطق التوحيدي للصابرين: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ﴾، كما أنّها الباعثة على نجاح هؤلاء في كلّ امتحان واختبار إلهي يمرّون به، وهي السبب أيضاً في ثباتهم واستقامتهم واعتدالهم في أمورهم كلّها في جميع الاحوال والظروف التي يواجهونها؛ إذ إنّهم حين يعتقدون بأنّ جميع الافعال والفيوضات إنّما هي عطيّة من عطاياه سبحانه تعالى، وأنّ جميع الناس في حركة إليه عزّ وجلّ، وبعد وقوفهم على أنّ جميع الحوادث ـ حلوها ومرّها ـ إنّما هي اختبار منه تعالى، وأنّه يجزي الصابرين والشاكرين، باعتقادهم لكلّ ذلك، فإنّهم لا يبقى عندهم أيّ مجال للمَرَحِ الباطل أو اليأس والجزع.

---

١ . بحار الانوار، ج١٢، ص٣٢٥.

٢ . سورة يونس، الآية ٥٨.

٣ . سورة الروم، الآيات ٤ ـ ٥.

٤ . سورة الحجر، الآية ٧٢.

الاعتقاد بالمبدأ والمعاد باعث على توفيق الانسان للصبر حين النقمة، وللشكر حين النعمة. فالموحّد شاكر في مقابل ما ينعم به الباري عزّ وجلّ ليس مسرورا مغرورا. إنّ من يعلم بأنّ جميع النعم هي مِلكه سبحانه وتعالى ومُلكه، لن يعتقد أبدا بأنّه مالك لتلك النعم، ولهذا، فهو شاكر لإنعام المنعم معتمد عليه، مسرور بتوحيده وذكره لا بالنعمة نفسها؛ فإنّ النعمة لو كانت هي العاملةَ على النشاط والباعثةَ على سرور الانسان بها، فإنّها ستكون الباعثةَ على اغتمامه حين خسارتها، وعلى أن يعيش مع القلق من أن يخسرها يوما مّا.

وأمّا الانسان الموحّد، فإنّه صابر حين النقمة أيضاً، يعتقد بأنّه وجميع الحوادث في حركة دائمة إليه سبحانه وتعالى وباتّجاهه، ولا شيء من الاشياء لنا أو تحت تصرّفنا بالأصالة، ولا يدور العالم كما نريده نحن: ﴿**لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا**﴾[1].

إنّ السرّ في تسلية الرجوع إليه سبحانه وتعالى الحكيم العادل، هو أنّ الحادثة غير الملائمة لو وقعت طبقا لعدله تعالى، فإنّ الانسان الصابر سينال ثواب صبره عليها، وأمّا إذا كانت تلك الحادثة ظلما وجورا، فإنّه سبحانه وتعالى سينتقم له ممّن ظلمه. وهذه التذكرة بنفسها تعتبر مهدّئة لنفس الصابر، ومصداقا من مصاديق قوله تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[2].

**والخلاصة**: أنّ عقيدة التوحيد الخالص باعثة على الشكر، والصبر، والفكر والذكر، كما أنّها السبب في النظر إلى جميع الحوادث المرّة والحلوة على أنّها مجرّد وسيلة من وسائل الاختبار، ومحض عارية، وليست هدفا ولا أصلا. ومن المعلوم أنّ شيئا من هذا القبيل لن يكون أمرا مهمّا بحيث يكون له الكلام الفصل عند هؤلاء أبدا.

---

١ . سورة التوبة، الآية ٥١.

٢ . سورة الرعد، الآية ٢٨.



وقد تعرّض القرآن الكريم إلى جملة من النماذج لمن كان منطقه معرفة المبدأ والمعاد، فحضرة سليمان عليه السلام نموذج بارز من تلك النماذج؛ فإنّنا نراه حين أتى أحد تلاميذه بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين في أقل من طرفة عين، نراه خاضعا شاكرا لله تعالى بدون أيّ فخر وغرور ومَرَح، قائلا: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[1].

ذو القرنين نموذج آخر يمكن ذكره في المقام، فبعد صنعه للسدّ الحديدي العظيم غير القابل للخرق ولا التسلّق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إذا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إذا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾[2]، بعد خلقه لهذا الاثر العظيم الذي لم يكن له مماثل، نراه لا يتكلّم عن نفسه وقد صنع مثل هذا السدّ العظيم، بل نراه يعترف بأنّ ذاك ما هو إلّا رحمة من رحمات ربّه سبحانه وتعالى، قال عزّ وجلّ عن لسانه: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾[3]. وكلام ذي القرنين هذا هو نفس كلمة: ﴿إِنَّا لله﴾، وكما أنّ جملة: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾[4] ناظرة إلى القيامة، فإنّ جملة: ﴿إِنَّا إليه رَاجِعُونَ﴾ كذلك.

والمغزى: الرضا بالرضوان الالهيّ محمود حين امتلاك الفنون العلمية، والنصر، والنعم غير المسبوقة، و...، وأمّا النشاط الكاذب الذي يعبّر عنه بالمَرَحْ، والأَشَر، والبَطَر وما شابهها من تعبيرات، فإنّه أمر مذموم ينبغي تنزيه أوليائه سبحانه وتعالى عنه.

---

١ . سورة النمل، الآية ٤٠.

٢ . سورة الكهف، الآيات ٩٦ ـ ٩٧.

٣و٤ . سورة الكهف، الآية ٩٨.






# إشارات ولطائف

## منطق غير الموحدين في مواجهة الحوادث

الصابرون ـ استنادا إلى ما يحملونه من المنطق التوحيديّ الذي تقدّم بيانه في البحث التفسيري ـ لا يمسّهم أيّ شعور بالغرور أو اليأس، وهم مراقبون دائما لما يصدر منهم من قول أو فعل، وأمّا غير الصابر، فإنّه يفتقد مثل هذا المنطق، ولهذا، نراه يصاب بسهولة بالغرور بسبب أيّة حادثة ملائمة، وأمّا الحودث غيرالملائمة، فإنّها تترك أثرا واضحا من عدم المراقبة على ما يصدر منه من أقوال أو أفعال، فيصاب باعوجاج التفكير والاقوال غير المسؤولة، مسندا ما أصابه من تلك الحوادث إلى سوء الحظّ وما شابه، ليكون من أهل اليأس والكفر بسبب تلك الحوادث.

منطق هذا القسم من الناس، هو أنّ النعمة لو وصلت إليهم، إعتقدوا بأنّها لم تَصِل إليهم إلّا لاستحقاقهم لتلك النعمة ليس إلّا، ظانّين بأنّها لم تَصِل إليهم إلّا بما عندهم، فهم أولياء تلك النعمة لا غيرهم، وأمّا إذا ابتلوا بالنقمة يوما مّا، فإنّهم يقعون ضحيّة لابتلاءات وأمراض فكريّة مختلفة فور وقوع تلك النقمة.

وقد أشارت آيات كريمة متعدّدة إلى الحقيقة السابقة، نشير في ما يلي إلى بعض نماذجها:

١ ـ النموذج الاوّل لما نحن فيه هم آل فرعون؛ فهؤلاء، بدلا من أن يعتبروا الحسنة والسيئة التي يمرّون بهما اختبارين إلاهيّين، كانوا يعتبرون أنّ كلّ ما يأتيهم من خير فهو أمر مستحقّ لهم، بينما يعتبرون ما يمرّون به من شرّ وسيئة «طيرة» ينسبونها إلى موسى الكليم عليه السلام وأصحابه، ونحسا أصابهم، قال تعالى حاكيا لحال هؤلاء: ﴿**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا**

بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

إذا كان الانسان فاقدا للعقيدة بالله سبحانه وتعالى وبالقضاء والقدر الالهيّ، فإنّه سيبتلى ـ لا محالة ـ بالخرافات، من قبيل ما ابتلي به هؤلاء من الاعتقاد بالطيرة والحظّ والنحس وما شابه من الاوهام والخرافات التي يترتّب عليها كفّارة أخلاقية لا فقهية. يعني: يترتب على خطور فكرة أنّ شخصا مّا يسبب النحس أو الحظّ العاثر، أو أنّ حادثة مّا هي حادثة شؤم، الكفّارة، والكفّارة في مثل هذه الموارد هي التوكّل عليه سبحانه وتعالى كما جاء في الحديث الشريف: «كفّارة الطيرة التوكّل»[2].

**تنويهات:** ١ ـ كفّارة كلّ انحراف تتناسب مع ذلك الانحراف، فالانحراف الاعتقاديّ يتطلّب كفّارة اعتقاديّة، والاخلاقيّ أخلاقية، كما أنّ الفقهي كفّارته فقهية.

٢ ـ يبتلى الانسان العاديّ بمرض هو أنّه لو ابتلي بالمصيبة ثم رفعها الله سبحانه وتعالى بفضله ورحمته، فإنّه ـ عوضا عن شكر تلك النعمة ووضعها موضعها ـ يسيء الاستفادة من تلك النعمة، بل يصدر منه المكر أيضاً في مثل تلك الحالات، غافلا عن حقيقة يجب ألّا يغفل عنها، وهي أنّ رسله تعالى يكتبون كلّ ما يمكر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلْ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[3].

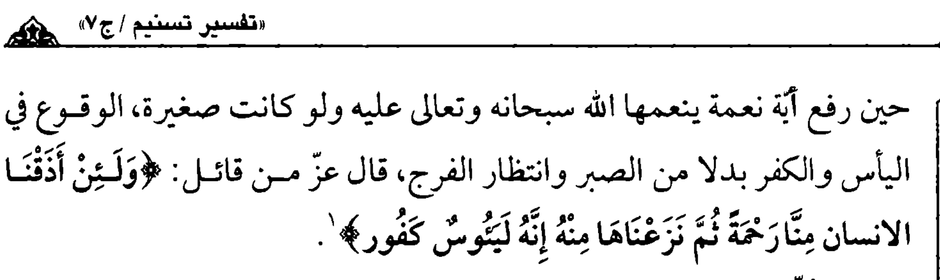
٣ ـ من لا يعطي فطرته قيمتها، باقيا في حيطة الطبيعة وحدودها، فلا تتمكّن عباداته من إنقاذه من هذا الابتلاء، فإنّ مثل هذا الشخص يكون مصيره

---

١ . سورة الاعراف، الآية ١٣١.

٢ . الكافي، ج٨، ص١٩٨.

٣ . سورة يونس، الآية ٢١.






حين رفع أيّة نعمة ينعمها الله سبحانه وتعالى عليه ولو كانت صغيرة، الوقوع في اليأس والكفر بدلا من الصبر وانتظار الفرج، قال عزّ من قائل: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الانسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾[1].

كما أنّ ذلك الشخص إذا جاءته نعمة من ربّه مزيلة ما كان فيه من ضرر، فإنّه يقول كما جاء في الآية المباركة: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[2].

وأمّا الصابرون، فهم ـ كما تقدّم ـ يفكّرون بطريقة مختلفة تماما عن طريقة التفكير المريضة السابقة، قال عزّ وجلّ في وصف هؤلاء وما لهم من أجر: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[3].

الانسان غير الموحّد لا يفكّر إلّا في السير الافقي للطبيعة، وأمّا ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾[4] التي تمثّل تأمّلا عموديا وسيرا فوق طبيعي، فإنّها لا تخطر بباله في أيّة حادثة من الحوادث، بل يقول: «جاءت الحادثة الفلانية، وذهبت الحادثة الفلانية»، غافلا عمّن جاء بتلك الحادثة وذهب بالاخرى، وعن الهدف الكامن وراء تلك الحوادث، فهو لا يرى إلّا الفعل، وأمّا الفاعل والهدف النهائيّ، فلا.

من هنا، نرى ما يعرض على مثل ذلك الشخص من حالات حين زوال الحوادث المرّة غير الملائمة، من الفرح والفخر، والفرح أمر نفسي ـ بينما الفخر أمر نسبي، وبعبارة أخرى: يتولّد في داخله غرورٌ ونشاطٌ كاذبان، كما أنّه يتفاخر أمام الآخرين أيضاً.

---

١ . سورة هود، الآية ٩.

٢ . سورة هود، الآية ١٠.

٣ . سورة هود، الآية ١١.

٤ . سورة الحديد، الآية ٣.

٤ ـ الكثير من الناس ـ إنطلاقا من طبعهم العاديّ ـ إذا واجهه ضر مّا، فإنه ينيب إليه سبحانه وتعالى منقطع إليه عزّ وجلّ، داعيا برفع ذلك الضرر، وبمجرد أن يرتفع عنه ذلك الضرر، أشرك به سبحانه وتعالى؛ من جهة أنّ الانابة لم تصبح ملكة عند هذا القبيل من الناس بعد، قال تعالى: **﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إليه ثُمَّ إذا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾**[1].

وقد تعرّض القرآن الكريم إلى الحقيقة السابقة بأساليب متعدّدة، من قبيل قوله تبارك وتعالى: **﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إذا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾**[2]، وقوله عزّ من قائل: **﴿وَإِنَّا إذا أَذَقْنَا الانسان مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الانسان كَفُورٌ﴾**[3].

وقد نسب سبحانه وتعالى الرحمة التي تصيب هؤلاء إلى نفسه دائما، وأمّا السيئة، فما هي إلّا من يد الانسان وممّا يصدر عنه؛ فإنّ الحسنة إنّما تكون على أساس التفضّل لا الاستحقاق، بينما السيئة لا تكون إلّا على أساس استحقاقِ العاصي.

تعبير آخر يستخدمه القرآن الكريم لبيان الحقيقة السابقة هو ما جاء في قوله تعالى: **﴿لا يَسْأَمُ الانسان مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ**

---

١ . **سورة الروم**، الآية ٣٣.

٢ . **سورة الروم**، الآية ٣٦.

٣ . **سورة الشورى**، الآية ٤٨ . «الذوق» غير الاكل والشرب. جميع النعم التي ينعمها سبحانه وتعالى على الانسان في الدنيا، إنّما هي بحدّ الاذاقة لا أكثر، وأمّا أصل النعمة، فهي في الجنّة، فبيت المؤمن هناك واسع إلى درجة يسع فيها جميع أهل الدنيا؛ إذ إنّ **﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾** (**سورة آل عمران**، الآية ١٣٣). وهذه سعة بيت المؤمن لا سعة الجنّة كلها.

**عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الانسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾**[1].

مع أنّ جميع ما يصدر من الانسان من الخير، فإنّما هو تفضّل منه سبحانه وتعالى وخير ابتدائيّ من قبله عزّ وجلّ[2]، ولا يستحقّ الانسان أيّة نعمة منه تعالى في مقابل ذلك.

الانسان الموحّد يعتقد بأنّ أصل هويّته وجميع النعم هي لله سبحانه وتعالى، قال عزّ وجلّ: **﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ... * وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾**[3]، ولسانه: «إنّا لله»، فأصل ذاتنا لله تعالى، فكيف بأوصافنا وأفعالنا والنعم التي لدينا؟!

وأمّا الانسان غير الموحّد، فمعتقده أنّه هو الاصل، وأنّه مستحقّ لجميع ما يوجد من النعم، فهي ماله وملكه الشخصيّ، وبدلا من أن يقول: «الحمد لله»، نسمعه يقول: **﴿هَذَا لِي﴾**[4]، مع أنّ **﴿لله مُلْكُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ﴾**[5].

وطبقا للآية الاخيرة[6]، فإنّ طبع الانسان العاديّ، هو أنّه بدلا من أن يشكره سبحانه وتعالى على ما أنعم به عليه، فإنّه يشيح بوجهه عنه تعالى، وأمّا إذا واجهته الحادثة غير الملائمة، فهو لجّ بالدعاء الكثير.

**٥ ـ** فَرَح غير الموحّد، وافتخاره بالنعمة، وغفلته عن أنّ جميع تلك النعم إنّما هي اختبار في المرحلة الاولى، وهي عذاب إلهي في حالة العصيان المستمرّ:

---

١ . سورة فصلت، الآيات ٤٩ ـ ٥١.

٢ . الصحيفة السجادية، الدعاء رقم ٤٥: «كلُّ نعمك ابتداء».

٣ . سورة النحل، الآيات ٥٢ ـ ٥٣.

٤ . سورة فصلت، الآية ٥٠.

٥ . سورة آل عمران، الآية ١٨٩.

٦ . سورة فصلت، الآية ٥١.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1]، ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[2].

يتوهّم الانسان المُسْرِف والمُتْرَف المحروم من التوحيد لسنين متمادية، أنّه كما كان في الدنيا منعّما هانئا، فإنّه في القيامة سيكون كذلك أيضاً، قال عزّ وجلّ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ... * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴾[3].

## البحث الروائي

### ١ ـ شأن النزول

عن ابن عباس: أنّ حمزة حين قُتل يوم أُحد وعرف بقتله أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» نزلت: ﴿الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[4].

إشارة: الانسان المعصوم الكاملُ، الذي هو خليفته سبحانه وتعالى، ينطق عن لسان إلهي نتيجة قرب الفرائض والنوافل، من الممكن أن يظهر ما يتقدّم ذكره على لسان الوليّ المحبوب والمُقرَّبِ بعد ذلك بصورة آية قرآنية كريمة، فمن

١ . سورة الانفال، الآية ٢٨.
٢ . سورة التوبة، الآية ٥٥.
٣ . سورة الكهف، الآيات ٣٢ ـ ٣٦.
٤ . بحار الانوار، ج٣٦، ص١٩١.

الناحية الثبوتية يعتبر ذلك أمرا ممكنا، وأمّا من الناحية الاثباتية، فإنّ ذلك يجب أن يكون متناسقا مع الاحاديث الاخرى، خاصّة تلك المنقولة عن الرسول الاكرم ﷺ بالنسبة إلى انطفاء السراج، التي ستأتي بعد قليل في البحث الروائي.

## ٢ ـ الاسترجاع حين الحوادث صغيرها وكبيرها

طُفيء سراج النبيّ ﷺ، فقال: «**إنّا لله وإنّا إليه راجعون**». فقيل: يا رسول الله، أمصيبة هي؟ قال: «**نعم، وكلّ ما يؤذي المؤمن فهو مصيبة له وأجر**»[١].

ــ عن أبي أمامة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فانقطع شسع[٢] النبيّ ﷺ، فقال: «**إنّا لله وإنّا إليه راجعون**». فقال له الرجل: هذا الشسع؟! فقال رسول الله ﷺ: «**إنّها مصيبة**»[٣].

**إشارة:** لا يختصّ الحمد والاسترجاع بالحوادث المهمّة، فالانسان الموحّد ـ وهو يتوجّه في جميع شؤونه إلى المبدأ والمعاد، وفي ذكره سبحانه وتعالى في جميع ما يمرّ به من حوادث ـ بمجرد وقوع أيّة حادثة ولو كانت صغيرة، يحمده تعالى عليها لو كانت ملائمة، وأمّا إذا لم تكن كذلك، فإنّه يسترجع، كما تقدّم في الحديث الشريف.

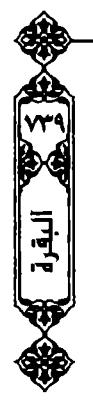
والذي يتبيّن من الرواية الشريفة السابقة، هو أنّ الآية الكريمة كانت قد سبقت ما صدر عن الرسول الاكرم ﷺ، وبناء على هذا، يجب أن تتناسق سائر روايات هذا المبحث مع هذه النقطة.

---

١ . الدر المنثور، ج١، ص٣٨٠.

٢ . الشسع: زمام النعل بين الاصبع الوسطى والّتي تليها.

٣ . الدر المنثور، ج١، ص٣٨٠.



## ٣ ـ إستحباب الاسترجاع وآثاره

قال أبو جعفر عليه السلام: «ما من عبدٍ يُصاب بمصيبة فيسترجع عند ذكره المصيبة ويصبر حين تفجأه، إلّا غفر الله له ما تقدّم من ذنبه، وكلّما ذكر مصيبته فاسترجع عند ذكر المصيبة، غفر الله له كلّ ذنب اكتسب فيما بينهما»[1].

قال أبو عبد الله عليه السلام: «من ذكر مصيبته ولوْ بعد حينٍ فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، اللّهمّ آجرني على مصيبتي، واخْلف عليَّ أفضل منها، كان له من الاجر مثل ما كان عند أوّل صدمة»[2].

ـ عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أربع من كنّ فيه كان في نور الله الاعظم: من كانت عصمةُ أمْرِه شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ومن إذا أصاب خيراً قال: الحمد لله ربّ العالمين، ومن إذا أصاب خطيئة قال: أستغفر الله وأتوب إليه»[3].

ـ عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أربع من كُنَّ فيه كتبه الله من أهل الجنّة: من كانت عصمته شهادة أنْ لا إله إلّا الله، ومن إذا أنعم الله عليه النعْمة قال: الحمد لله، ومن إذا أصاب ذنباً قال: أستغفر الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون»[4].

ـ في الحديث: «من استرجع عند المصيبة، جبّر الله مصيبته، وأحسن عقباه، وجعل له خَلَفاً صالحاً يرضاه» وقال عليه السلام: «من أصيب بمصيبة فأحدث استرجاعاً وإنْ تقادم عهدها، كتب الله له من الاجر مثل يوم أُصيب»[5].

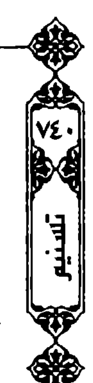
---

١ و٢ . الكافي، ج٣، ص٢٢٤.

٣ . كتاب الخصال، ص٢٢٢.

٤ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٩.

٥ . مجمع البيان، ج١ ـ ٢، ص٤٣٧.




**ـ فيما أوحي الله تعالى إلى موسى** عليه السلام: **«يا موسى، اِرْضَ بكسْرةٍ من شعيرٍ تسدّ بها جوعتك، وبخرقةٍ تواري بها عوْرتك، واصبر على المصائب، وإذا رأيت الدنيا مقبلةً عليك، فقل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، عقوبة عُجّلت في الدنيا، وإذا رأيت الدنيا مدبرةً عنك، فقل: مرحباً بشعار الصالحين. يا موسى، لا تعجبنّ بما أُوتي فرعون وما مُتّع به، فإنّما هي زهرة الحياة الدّنيا»**[1].

**إشارات:** أ ـ ظاهر الآية الّتي هي محلّ البحث لا يشتمل على جملة من الاوامر، من قبيل: «إصبروا»، «إصطبر» و«صابروا»، إلّا أنّ المدح والتبشير الالهيّ بمثابة الدعوة إلى الصبر والامر به، من هنا، يمكن استظهار رجحان واستحباب الاسترجاع الصبريّ من مثل هذه الادلة القرآنيّة أو الروائيّة، بمعنى أنّ أصل التسليم والصبر في مقابل القضاء الالهيّ واجب، كما أنّ الاعتقاد بمحتوى الاسترجاع المزبور أمر لازم، وأمّا التلفّظ بجملة: «إنّا لله و...»، فإنّه أمر راجح.

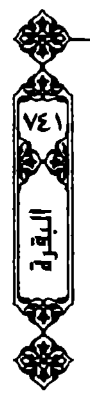
ب ـ إستمرار الاسترجاع كلّما عاد ذكر المصيبة يجبر الزلّات المتخلّلة، وإضافة الحمد إلى الاسترجاع حين التذكّر، وطلب الاجر والخَلَف، له من الاجرِ ما كان حين عروض المصيبة أوّل مرّة.

ج ـ عنصر الاسترجاع المحوريّ في مقابل الحوادث غير الملائمة ـ شأنه شأن غيره من العناصر الاصليّة الاخرى في الدين ـ يكون باعثا على الورود إلى نوره سبحانه وتعالى الاعظم، جنّة الخلد.

د ـ السالك الصالح راض في الفقر والغنا، ولكن، إذا كانت ثروة المكافئ طغيانا، وكثر الفقراء، وكان من اللازم التمرين على تحمّل الظروف الاقتصاديّة الصعبة لمواجهة الظالمين، فإنّ الفقر في مثل هذه الظروف يكون الشعار الرسميّ للصالحين.

---

١ . **بحار الانوار**، ج١٣، ص٣٦١.



## ٤ ـ الإقرار الخفي في ذكر الاسترجاع الشريف

جاء أميرُ المؤمنين عليه السلام إلى الاشعث بن قيس يعزّيه بأخٍ له يقال له عبد الرحمن، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنْ جزعتَ، فحقّ الرحم آتيتَ، وإن صبرتَ، فحقّ الله أدّيتَ، على أنّك إنْ صبرت جري عليك القضاء وأنت محمود، وإنْ جزعت، جرى عليك القضاء وأنت مذموم**». فقال له الاشعث: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون»، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أتدري ما تأويلها؟**» فقال الاشعث: لا، أنت غاية العلم ومنتهاه، فقال له: «**أمّا قولك: «إنّا لله»، فإقرار منك بالمُلْك، وأمّا قولك: «وإنّا إليه راجعون»، فإقرار منك بالهَلاك**»[1].

ـ وسمع [أمير المؤمنين عليه السلام] رجلاً يقول: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون»، فقال عليه السلام: «**إنّ قولنا: «إنّا لله» إقرار على أنفسنا بالمُلك، وقولنا: «و إنّا إليه راجعون» إقرار علي أنفسنا بالهُلْك**»[2].

**إشارتان:** أ ـ يتمثّل التأثير التربويّ والنفسيّ ـ للإقرارين المزبورين في عدم الجزع حين المصيبة والصبر عليها.

ب ـ التوحيد في المالكيّة يكون مسبوقا بالتوحيد في الذات والتوحيد في أصل الخالقيّة؛ فإنّ من خلق هو المالك، ومن ربّى فهو صاحب الحقّ. تسليم المالِ المالك والحقّ صاحب الحقّ، مسألة عاديّة لا تستلزم الاغتمام.

## ٥ ـ عدم سبق الاسترجاع في الامم السابقة

سُئل أبو عبد الله عليه السلام: ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف؟ قال: «**حزن سبعين ثكلى بأولادها**» وقال: «**إنّ يعقوب لم يعرف الاسترجاع، ومن هنا قال: وا**

---

١ . الكافي، ج٣، ص٢٦١.

٢ . نهج البلاغة، الحكمة ٩٩.






أَسَفا على يوسف»[1].

إشارتان: أ ـ من الصعب إثبات مسألة مهمّة من قبيل المسألة السابقة بدون شواهد وأدلة تثبتها، وما يزيد الامر صعوبة في المقام، هو ملاحظة أنّ الوارد في القرآن الحكيم هو أنّ حضرة يعقوب عليه السلام قد ظهر منه تعبيرات مختلفة خلال الحادثة المذكورة، من قبيل ما نقلته عنه الآية الكريمة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[2]، والآية المباركة الاخرى: ﴿... فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[3]، وقوله عزّ من قائل: ﴿... إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُون﴾[4]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿... إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلى الله﴾[5]؛ ومن الواضح أنّ نبيّا عظيما على إطّلاع بجميع هذه المعارف الرفيعة المذكورة في الآيات الكريمة السابقة، من البعيد جدا ألّا يكون على اطّلاع بالاصل الّذي هو محلّ الكلام.

ب ـ الوارد في بعض النقولات هو أنّ الاسترجاع المزبور أمر خاصّ بالامّة الاسلامية ولم يكن في الامم السابقة. الامر الذي ذكره أبو الفتوح الرازي بالشكل التالي:

سأل موسى الكليم عليه السلام في إحدى مناجاته الله سبحانه وتعالى عن أقرب منازل الجنّة منه تعالى، بمعنى الكرامة، فأجاب سبحانه وتعالى بأنّها حظيرة القدس، فسأله عليه السلام عن سكّان تلك الحظيرة، فأجاب عزّ وجلّ بأنّهم أصحاب

---

١ . تفسير القمي، ج١، ص٣٥٠. وقد جاءت ﴿يَا أَسَفَى﴾ في القرآن الكريم. (سورة يوسف، الآية ٨٤).

٢ . سورة يوسف، الآية ١٨.

٣ . سورة يوسف، الآية ٦٤.

٤ . سورة يوسف، الآية ٦٧.

٥ . سورة يوسف، الآية ٨٦.



المصائب. فسأله عليه السلام أن يصفهم له، فأجابه عزّ وجلّ بأنّهم من إذا ابتليتهم صبروا، وإذا أنعمت عليهم شكروا، وإذا وردت عليهم المصيبة قالوا: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون»، فهؤلاء ساكنو حظيرة القدس[1].

ويستفاد من هذا الخبر أنّ الاسترجاع لم يكن سنّة رسميّة من سنن السابقين، وأمّا أصل فضيلته، وأنّه ممّا يقرّب إليه سبحانه وتعالى، وأنّه سبب لسكنى حظيرة القدس، فكلّ أمرٍ من تلك الامور كان ممّا هو معروف معهود عند هؤلاء. فمن كان على اطّلاع بفضيلة عمل من هذا القبيل، ولم يكن في البين منع من القيام به، فإنّه لا يحرم نفسه من الاعتقاد به، واتّخاذه خلقا له، ومن التلفّظ به.

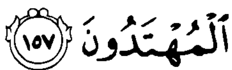
والمغزى: أنّ اثبات انحصار الاسترجاع بالامّة الاسلامية، وادّعاء عدم وجوده في الامم السابقة على الاسلام في العصور والامصار المختلفة، أمر ليس سهلا أبدا.

* * *

---

١ . روض الجنان، ج٢، ص٢٤٢.

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾



## التفسير المختار

لطفه سبحانه وتعالى الخاصّ بالصابرين هو تنزُّل الصلوات والرحمة الالهيّة عليهم، وبالنتيجة: اهتداؤهم.

الله سبحانه وتعالى يصلّي على المؤمنين لكي يخرجهم من الظلمة إلى النور، وأمّا الصابرون، فإنّه عزّ وجلّ يكرّر الصلوات عليهم ليتحقّق بذلك التجلّي الخاصّ والمتنوّع والمتعدّد للإسم المبارك «الحنّان» بالنسبة إلى هؤلاء. فالصلوات فيض خاصّ أثره الاحساس بالنور والصفاء في داخل الانسان.

رحمته سبحانه وتعالى واسعة شاملة، إلّا أنّ رحمته الخاصّة إنّما هي للمؤمنين الصابرين، الثواب الذي يفيض على هؤلاء بالنور اللازم لاستمرار وديمومة تجلّي الحنّان.

الانسان الصابر إنسان مهتد، والاهتداء هو الهداية الفضلى التي تعني الوصول إلى المطلوب من هدايته تعالى التكوينية لا صرف الهداية التشريعية التي يمكن أن يستفيد منها الجميع.

### تفسير المفردات

**الصلوات**: جمع «صَلاة». والصلاة في الاصل كانت «صَلَوَة بوزن غَلَبَة»، أبدلت واوها بالالف.



وكلّما جاءت «صلاة» مع حرف «على»، فإنّها بمعنى الثناء الجميل والتحيّة الطيبة. وثناؤه سبحانه وتعالى بالنسبة إلى الصابرين وتحيّته الطيّبة لهم، هي ذلك الاحسان الصادر منه سبحانه وتعالى إليهم، واللطف العمليّ بهم، وهو ما يوجب توفيقات أكثر بالنسبة إلى هؤلاء، ونورانيّة باطنهم؛ فإنّ قوله عزّ وجلّ الرحيم ليس إلّا فعله.

## تناسب الآيات

بعد تعرّض القرآن الكريم إلى الامر بالصبر، وبيان وصف الصابرين، وحالهم، وحقيقتهم، وبعد التعرّض إلى كيفيّة الصبر وما يجب الصبر عليه، تتعرّض الآية الكريمة الّتي هي محلّ البحث إلى بيان أجر الصابرين وما لهم من ثواب عليه[1]، الاجر المتوقّف والمترتّب على جميع الاوصاف التي تعرّضت لبيانها الآيات الكريمة السابقة[2]، كلّ ذلك ببيان مشير إلى المقام الرفيع والجليل الذي يناله هؤلاء الصابرون[3]. وبهذا تكون مجموعة الآيات المتعلّقة بالصبر مجموعة كاملة[4].

* * *

## أثر الصلوات الالهية

لطفه سبحانه وتعالى الخاص بالصابرين هو تنزُّل الصلوات الالهيّة بصورة مستمرّة عليهم: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

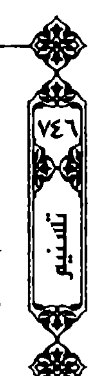
---

١ . الميزان، ج١، ص٣٥٨.

٢ . تفسير التحرير والتنوير، ج٢، ص٥٦.

٣ . نظم الدرر، ج١، ص٢٨٢.

٤ . الاساس في التفسير، ج١، ص٣٣١.




إنّ صلواته سبحانه وتعالى عامّة شاملة لجميع المؤمنين كما جاء في الآية المباركة: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾[1]، إلّا أنّه سبحانه وتعالى عندما تصل النوبة إلى الصابرين، فإنّه يبيّن ذلك بجملة اسمية، الامر الذي يدلّ على الثبات والاستمرار.

وأمّا التصلية بالنسبة إلى المؤمنين العاديّين، فإنّ القرآن الكريم حينما يتعرّض إلى بيانها، فإنّه يبيّنها عن طريق الاستفادة من الفعل، والفعل المضارع وإن كان يدلّ على الاستمرار، إلّا أنّه لا يستفاد منه إلّا التدريج.

وقد جاءت الصلاة على النبيّ ﷺ في القرآن الكريم باستعمال الفعل أيضاً، حيث قال سبحانه وتعالى في سورة الاحزاب: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيّ﴾[2]، إلّا أنّ درجات التصلية ليست على نحو واحد، ما يفسّر نيل الرسول الاكرم ﷺ ما كان له من مقام رفيع على أثر تلك التصلية الالهيّة، وصيرورته منشأ للصلوات التي تفيض على الآخرين بالبركات، قال عزّ من قائل: ﴿... وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾[3].

وقد نقل الطبري صلاته ﷺ بالنسبة إلى البعض، كقوله ﷺ مثلاً: «اللّهمّ صَلّ عَلى آل أبي اَوْفي»[4].

الصلوات منه سبحانه وتعالى كرامة منه تعالى للمصلّي عليه من أجل إخراجه من الظلمات إلى النور، قال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ومَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ﴾[5].

---

١ . سورة الاحزاب، الآية ٤٣.
٢ . سورة الاحزاب، الآية ٥٦.
٣ . سورة التوبة، الآية ٩٩.
٤ . جامع البيان، ج٢، ص٤٥ ـ ٤٦.
٥ . سورة الاحزاب، الآية ٤٣.



إنّ الصلوات بالنسبة إلى أوليائه سبحانه وتعالى دفع هجوم الظلمة عليهم ومنعها عنهم، وأمّا بالنسبة إلى الآخرين، فهي رفع لتلك الظلمة الموجودة عند هؤلاء، وبناء على هذا، فإنّ الصابرين ـ وهم من تتنزّل عليهم الصلوات والكرامات الكثيرة: ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ـ سيصبحون نورانيين بتلك الصلوات والكرامات، أو سيكونون أكثر نورانية بها. من الطبيعيّ أنّ الانسان إذا كان صابرا حقيقيا، فإنّ ذلك النور سيكون موجودا في داخله.

تصلّي الملائكة بدورها على الصابرين أيضاً، وأثر تلك الصلوات هو النورانية أيضاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ﴾. ومن الواضح أنّ صلوات الملائكة وما لها من آثار وبركات ـ يعني النورانية ـ لا تكون إلّا بأمره سبحانه وتعالى، وهذا ما يفسّر مجيء الفعل مفردا ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ في الآية المباركة المزبورة، ما يعني أنّه سبحانه وتعالى والملائكة يصلون من أجل أن يفيض سبحانه وتعالى بالنور على المصلّي عليه.

يرافق التصلية الالهيّة ميل اسمه سبحانه وتعالى «الحنان» المبارك وتجلّيه؛ فإنّ «الحَنْو» والرأفة والعطف قد ضمّنت في معنى الصلاة.

وقد جاءت هذه الكلمة في الآية المباركة الّتي هي محلّ البحث بصورة الجمع، فإن كان المقصود من ذلك بيان الجمع في قبال الجمع، فإنّ المعنى سيكون حينئذ هو أنّ لكلّ صابر صلاة. وأمّا إذا كانَ المقصود بيان الجمع لكلّ فرد من الافراد، فإنّ المعنى حينئذ هو أنّ لكلّ صابر صلوات متعدّدة عبّر عنها في الآية المباركة بالصلوات.

ومعنى التصلية المتعدّدة هو ذلك التجلّي المتنوّع والمتعدّد للإسم الشريف «الحنّان»، ليكون المعنى حينئذ: «عليهم رأفة بعد رأفة، وحَنوٌ بعد حنوٍ، وتعطّفٌ بعد تعطّف».

ولأجل الدلالة على تداوم تلك الصلوات واستمرارها، أُستفيد من كلمة «رحمة» المتناسبة مع الحَنو والرأفة، لكي يحافظ على استمرار تجلّي «الحنّان». والتكرار المستفاد من الجمع ومن إضافة كلمة «رحمة»، من قبيل التكرار المعنويّ المستفاد من جملة: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾[1].

## الصلوات فيض خاص

الصلوات الالهية ليست لفظا؛ فإنّ قوله سبحانه وتعالى هو فعله، وفعله عزّ وجلّ هو قوله تعالى النافذ، كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: «يقول لمن أراد كونه: كن؛ فيكون لا بصوتٍ يُقرع، ولا بنداءٍ يُسمع، وإنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ومثّله»[2]. وفي الدعاء الذي علمه الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام: «يا من فعله قول، وقوله أمر، وأمره ماضٍ على ما يشاء»[3].

النورانيّة هي ذلك الصفاء الذي يحسّه الانسان داخل نفسه على أثر الصلوات الالهية، ومن جملة بركاتها، وعلى أثر هذه النورانية، يصبح الانسان محبّا للإطاعة وامتثال أمره عزّ وجلّ، ومنزجرا عن المعصية، خائفا من جهنّم، مشتاقا إلى الجنّة، محبّا من الصميم للموالين الالهيين وأهل بيت النبوة عليهم السلام، مندكّا بسيرة تلك الذوات النورانية، مبتهجا بها.

---

١ . **سورة الزخرف**، الآية ٨٠.

٢ . **نهج البلاغة**، الخطبة ١٨٦، بند ١٧.

٣ . **بحار الانوار**، ج٨٨، ص١٨٢ . من الواضح تطبيق القول على الفعل، وأمّا تطبيق الفعل على القول، فإنّما هو من أجل إثبات عدم إمكان تخلف فعله عزّ وجلّ؛ فإنّه عين قوله، وقوله تعالى عين امره، وأمره سبحانه وتعالى هو ذلك، كما أنّ ائتمار المأمور هو ذلك أيضاً. يعني: ﴿**كن**﴾ يرافقها ﴿**يكون**﴾، و﴿**يكون**﴾ فعل لا قول. ولما كانت كلمة ﴿**كن**﴾ عين ﴿**يكون**﴾، فإنّ ﴿**كن**﴾ هي ذلك الفعل الايجاديّ لا شيئا آخر وهو الامر اللفظي، ومن هنا، كان الفعل عين القول، والقول عين الفعل.

وحديث نهج البلاغة هو المرجع الاساس في شرح المطلب.



إنّ ظهور سكينة النفس وطمأنينة القلب ببركة صلوات الانسان الكامل المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾[1]، هي أيضاً قائمة على الاساس السابق؛ فإنّ دعاء الانسان المستجاب الدعوة تثير في القلب الطمأنينة وفي النفس السكينة، فإنّ لتصلية الانسان الكامل تأثيرات متعدّدة، منها:

١ ـ التأثير التكويني: فإنّها مظهر الاسم الاعظم من أسمائه تعالى.

٢ ـ التأثير النفسي والاجتماعي: فإنّ المجتمع إذا كان عطوفا، كان ذلك ممّا سيساعد على تقبّله لتلك السنة وذلك الادب.

٣ ـ التأثير التشريعي: فإنّه أسوة الناس جميعا.

## رحمته سبحانه وتعالى العامة والخاصة

جاءت «الرحمة» إلى جانب «الصلوات» في الآية الشريفة الّتي هي محلّ البحث، قال عزّ من قائل: ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، فتلك الصلوات من أجل النورانية، وهذه الرحمة الخاصة من أجل ثواب الانسان النوراني.

رحمته سبحانه وتعالى عامّة شاملة، إلى درجة أنّها تشمل جميع عالم الامكان، وجميع الامكنة، قال عزّ وجلّ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2].

إلّا أنّ رحمته سبحانه وتعالى بالمؤمنين رحمة من نوع خاص؛ إذ إنّ ما جاء في تتمّة الآية المباركة الدالة على سعة رحمته تعالى، يشير في الوقت نفسه إلى أنّ تلك الرحمة إنّما هي للمؤمنين والمتقين، قال عزّ وجلّ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

---

١ . سورة التوبة، الآية ١٠٣.

٢و٣ . سورة الاعراف، الآية ١٥٦.

تنويه: ملكة الصبر باعثة على شمول لطفه وعطفه سبحانه وتعالى للسالك الصابر، ومن هنا جاء التعبير بالحرف «على» لا بتعبير «له»، وهذا يعني أنّ العناية الالهية محيطة بالصابر مشرفة عليه، وأنّه منغمس في تلك الرحمة الواسعة.

## الهداية الفضلى للصابرين

يؤيّد سبحانه وتعالى اهتداء الصابرين فيقول: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، وعليه، فالانسان الصابر مهتد وَجَدَ ضالّته.

هناك فرق بين «المهتدي» و«المَهدي»، وهذا الفرق من قبيل الفرق بين «الاقتدار» و«القدرة» و«الاقتراب» و«القرب». ففي بعض الموارد تدلّ كثرة المباني على كثرة المعاني، وبناء على هذا الاساس، يكون «المقترب» أقرب من «القارب»، ويكون «المقتدر» أقوى من «القادر»، ويكون «المهتدي» أكثر اهتداء من «المهدي»، الامر السابق يعني أنّ جملة: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ سيكون معناه أنّ الصابرين قابلون للهداية، وأنّ اهتدائهم أفضل وأكمل من اهتداء المهديّين.

يعد سبحانه وتعالى في الآية الشريفة: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[1] المطيعين لله ولرسوله الكريم ﷺ بأن يكونوا مهتدين، ومعنى ﴿تهتدوا﴾ ليس هو: أنّكم ستهتدون؛ إذ ـ أوّلا ـ ما لم يهتد الانسان إلى أصل الدين فإنّه لن يطيعه سبحانه وتعالى ويطيع رسوله الكريم ﷺ.

وثانيا: إنّ هذه الاطاعة نفسها هي مصداق من مصاديق الهداية، فكيف يكون الاهتداء مترتّبا على الاطاعة وما يتفرّع منها؟!

---

١ . سورة النور، الآية ٥٤.

بناء على ما سبق، يكون معنى الهداية في الآية الكريمة هو الهداية الفضلى، بمعنى الايصال إلى المطلوب والهداية التكوينية لا الهداية التشريعية والابتدائية؛ إذ كما تقدّم بيانه، الانسان ما لم يهتد بالهداية التشريعية والابتدائية أوّلا، فإنّه لن يكون مطيعا أبدا.

ينجز الله سبحانه وتعالى في الآية الّتي هي محلّ البحث للصابرين الناجحين في الاختبار الالهي ما وعدهم به في آية من آيات سورة النور المباركة، فيقول عزّ من قائل: **﴿أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾**، كما أنّه عزّ وجلّ يشير في آية كريمة أخرى إلى اهتداء بعض المؤمنين قائلا: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الاَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾**[1]. إلّا أنّ الفرق بين الآيتين المباركتين، هو الالف واللام الموجودانِ في الآية الّتي هي محلّ البحث دون الآية المباركة الاخرى، مشيرا سبحانه وتعالى بذلك إلى كمال الاهتداء الذي يصل إليه الصابرون في الآية الّتي هي محلّ البحث.

## البحث الروائي

### العطيّة الالهية للمصاب

عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله جلّ جلاله: إنّي أعطيت الدنيا بين عبادي قرضاً، فمن أقرضني منها قرضاً، أعطيته بكلّ واحدةٍ منهنّ عشراً إلى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك، ومن لم يقرضني منها قرضاً، فأخذت منه قسراً، أعطيته ثلاث خصال، لو أعطيت واحدة منهنّ ملائكتي لرضوا: الصلاة، والهداية، والرحمة. إنّ الله عزّ**

---

١ . سورة الانعام، الآية ٨٢.

وجلّ يقول: ﴿الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ واحدة من ثلاث، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ اثنتين، ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ ثلاثة».

ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: «هذا لمن أخذ [الله] منه شيئاً قسراً»[1].

ـ قال إسحاق بن عمّار: قال أبو عبد الله عليه السلام: «هذا إن أخذ الله منه شيئاً فصبر واسترجع»[2].

إشارة: ما قرّر للصابرين سيكون للشاكرين أيضاً؛ إذ لمّا كان لأخذ شيء قسرا ما تقدّم من الثواب الجزيل، فلا شكّ في أنّ الانسان السالك إذا وصل إلى حالة بحيث يهدي ما استأمنه الله سبحانه وتعالى رغبة منه وطوعا، بدون أيّ إحساس بالقسر، فإنّه يكون مستحقّا لذلك الثواب الجزيل أيضاً.

* * *

١ . كتاب الخصال، ص١٣٠ . الكافي، ج٢، ص٩٢ ـ ٩٣، مع بعض التصرف.

٢ . تفسير العياشي، ج١، ص٦٩ .